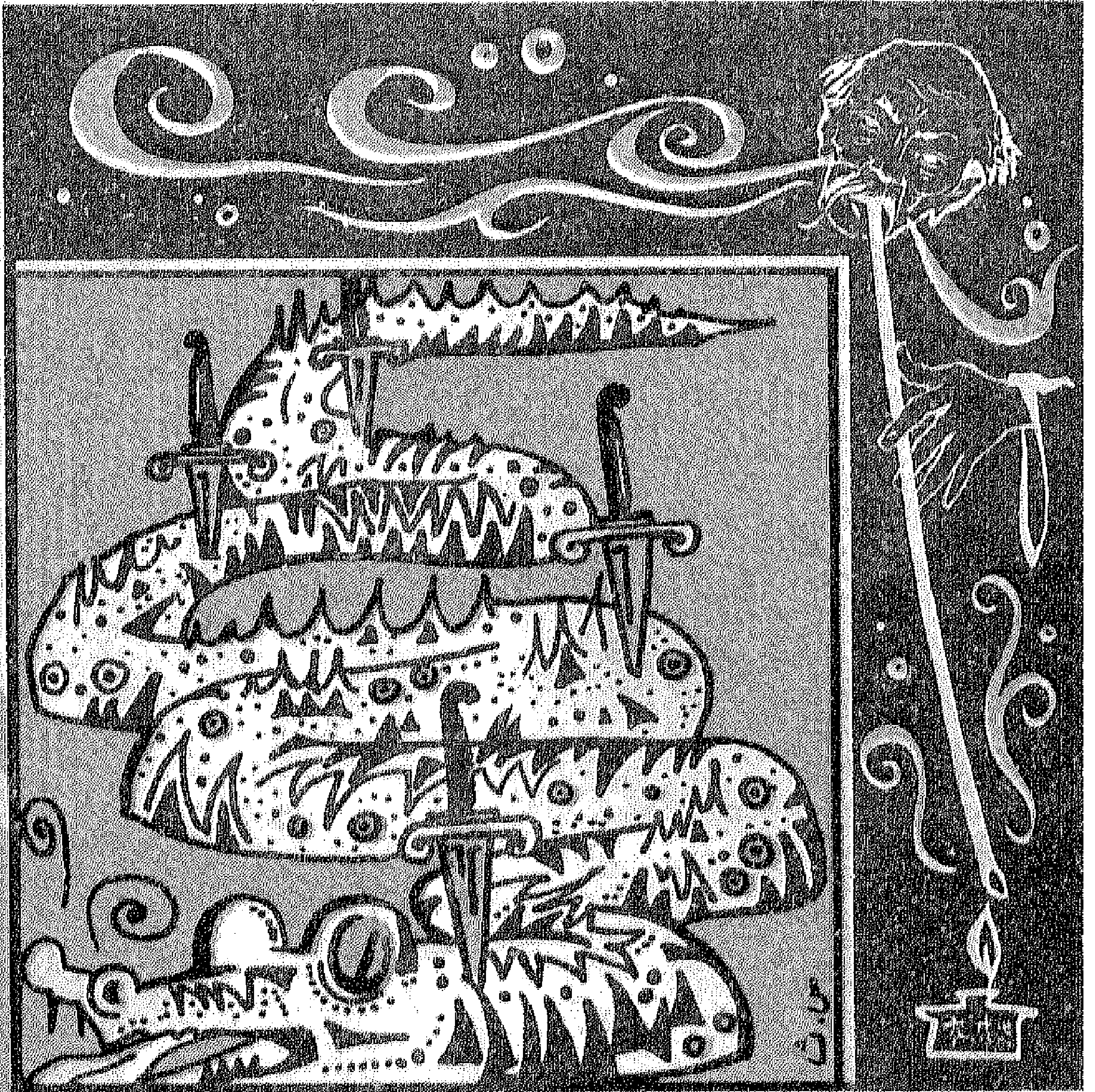



اقرأ

حرب الأفيون



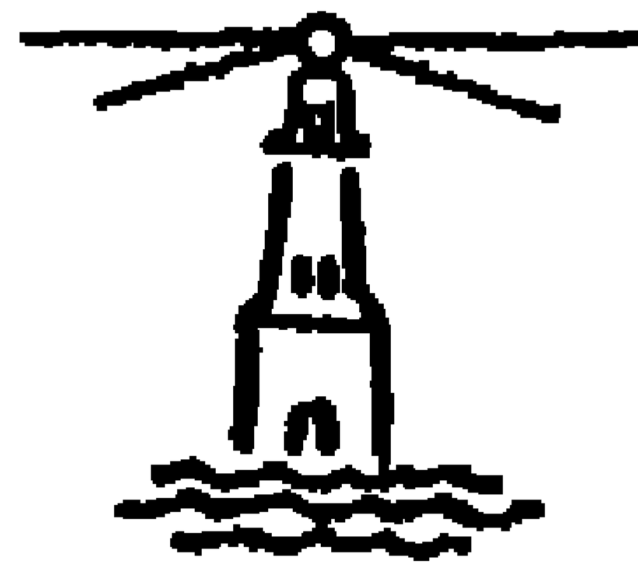
محمد الغريب موسى

دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

محمد العزب موسى

حرب الأفيون

اقرأ ٣١١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١١ – نوفمبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

مقدمة

إذا كنا نتعرض الآن لعدوان الإمبريالية على وطننا العربى عن طريق أداتها إسرائيل ، فقد تعرضت شعوب أخرى كثيرة ، ولا تزال شعوب أخرى تتعرض ، لنفس هذا العدوان الإمبريالى الذى يمثل قمة الموجة الاستعمارية فى العصر الحديث.

ومن هذه الشعوب الشعب الصينى العظيم الذى تعرض فى القرن الماضى لأكبر مؤامرة استعمارية إجرامية فى التاريخ حين شنت عليه بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية حروباً عنيفة لإرغامه على استهلاك الأفيون ، وفتح أسواقه الشاسعة للبضائع ورءوس الأموال الغربية .

ومرحلة حروب الأفيون فى الصين دراما طويلة محزنة نجد أنفسنا فيها إزاء مقاومة بطولية تخمد بأبشع الأساليب وأكثرها تجرداً من الإنسانية ، وإزاء تضحيات خارقة من بسطاء الناس وخيانة خسيسة من الإقطاعيين والعملاء ، وإزاء تصميم خارق من الشعب ومهادنة ذليلة من الحكام ، وإزاء إصرار من الفلاحين واستبداد من الإقطاع .

فقد كشفت حروب الأفيون فى الصين – إلى جانب طبيعة الاستعمار البشعة – موقف القوى الاجتماعية المختلفة من قضية الكفاح الوطنى ، كيف ينحاز الإقطاعيون والرجعيون من أول جولة إلى جانب الاستعمار ، وكيف تواصل جماهير الشعب فى القرى والمدن الكفاح حتى النصر .

وكشفت حروب الأفيون أيضاً وحدة النضال ضد الرجعية والاستعمار ، فعندما يناضل الشعب الاستعماريين وحدهم يطعنه الرجعيون من الخلف ، وعندما يناضل الرجعيين وحدهم يهاجمه الاستعماريون من الخارج ، ولكنه عندما يحقق وحدة النضال ضد الخطرين معاً يحرز النصر الأكيد ، فإذا لم يستطع حماية هذا النصر يسلب منه فى لمح البصر .

ونحن نحمد الله على أننا نخوض معركتنا الحاسمة ضد الاستعمار والصهيونية وجبهتنا الداخلية متماسكة فليس بين صفوفنا طبقات خائنة كما كان الأمر بالنسبة للصين ، ويرجع ذلك إلى أننا قطعنا شوطاً كبيراً فى ثورتنا الاجتماعية قبل أن نواجه هذه المعركة الفاصلة ، أما الشعب الصينى فى القرن الماضى فقد اضطر إلى مواجهة الخطرين معاً وأن يخوض معركته الطويلة المريرة ضد الخطر الخارجى والخطر الداخلى .

غير أن أكبر درس نستخلصه من حرب الأفيون ، ومن جميع الحروب الشعبية ضد الاستعمار ، هو أن النصر يكتب حتماً للشعوب المكافحة المناضلة التى لا تيأس مهما كانت إمكانياتها تبدو ضئيلة بالمقارنة بإمكانيات العدو ، لأن الاستعمار يعتمد على أسلوب المباغتة واقتناص النصر السريع ليفرض شروطه ويحقق مصالحه ، ولكنه ينحسر حتماً وتتبدد قواه إذا جوبه بكفاح شعبى طويل النفس لا يتركه مستقراً على شبر من الأرض المغتصبة .

وأكبر مثال على ذلك كفاح الشعب الصينى ضد المستعمرين البريطانيين والأمريكيين فى الماضى ، وكفاح الشعب الفيتنامى ضد الإمبرياليين الأمريكيين فى الوقت الحاضر ، وها هى ذى شعوب الأمة العربية تضرب مثلا آخر فى كفاح الشعوب الذى لا يقهر ضد الاستبداد والاستعمار مهما بدا البون الحضارى شاسعاً ومهما كان العدوان ضارياً .

وهذا الكتاب يقدم بتواضع قصة انتصار شعب عظيم أصر على انتزاع النصر العظيم . . .

محمد العزب موسى

حرب الأفيون

١ ـ السباق إلى الصين

لم يكن الإمبراطور شن شى هوانج موحد الصين وبانى سورها العظيم يدرى أن الخطر الذى سوف يهدد بلاده لن يأتى من القارة وإنما سوف يأتى من البحر !

كان الإمبراطور هوانج ـ وقد عاش قرابة انتهاء القرن الثالث قبل الميلاد ـ يعتقد أن البرابرة الذين يسكنون أواسط آسيا وشمالها هم الذين يهددون شعب الصين وحضارة الصين ، ولم يكن يطوف بخلده أن ثمة « برابرة » آخرين سوف يأتون من بلاد بعيدة وراء المحيط المظلم الشاسع ليعيثوا فى الأرض فساداً ، ويذيقوا إمبراطورية السماء أكبر هوان فى تاريخها الطويل . .

وللإمبراطور القديم عذره فى هذا الخطأ ، إذ كان عليه أن ينتظر زهاء ألفى عام حتى عصر النهضة الأوربية ليرى طلائع ذلك الخطر القادم من وراء البحار ، بل إن الصينيين أنفسهم الذين عاشوا فى تلك الحقبة وشهدوا لأول مرة سحنة الأوربى الأبيض ، لم يدركوا مدى الخطر الذى يمكن أن تحمله إليهم تلك المراكب التجارية ذات الأشرعة العريضة التى تظهر أحياناً

على خط الأفق البعيد ، وتقترب فى حذر من الشاطئ ، لتلتمس فى تواضع ورجاء أن يسمح لها بالبيع والشراء .

ولم تكن بكين العاصمة تفتح أبوابها إلا نادراً للبعثات الدبلوماسية التى تأتى بين حين وآخر حاملة الهدايا ورسائل الود إلى الأعتاب الإمبراطورية ، بل كانت معظم هذه البعثات ترد خائبة ، وفى القليل النادر يتكرم الإمبرطور باستقبالها فى بلاطه حيث يقدم رؤساؤها ، بكل تبجيل وتوقير ، ما يحملونه من الهدايا . . وهم راكعون .

كانت الصين حينئذ دولة شرقية قوية مجيدة ، يبلغ تعدادها عشرات الملايين ، وتبسط ظلال نفوذها على كل سواحل آسيا الشرقية وجزر المحيط ، وتقف على قمة تراث هائل من الثقافة والحضارة ، فقد أهدت البشرية فى كل العصور نخبة من أعظم السياسيين والفلاسفة والمفكرين والشعراء وقادة المعارك ، وضربت بسهم وافر فى أسباب الرفاهية المادية بفضل الاختراعات العلمية المدهشة التى سبقت بها العالم ، إذ اخترع الصينيون الأقدمون الورق والحرير والبارود والخزف والطباعة ، كما اخترعوا البوصلة والدفة وأجهزة الكشف عن الزلازل وأوراق النقد !

وكان الذين يزورون الصين من الرحالة الأوربيين أو العرب

فى القرون الوسطى يعودون ليتحدثوا فى انبهار وإعجاب عن تلك البلاد الرائعة وذلك الشعب العظيم الذى تؤكد أساطيره أنه هبط من القمر .

* * *

شىء واحد كان بمثابة نقطة ضعف قاتل فى صرح الصين ، ذلك هو الركود الاجتماعى الذى لم تستطع أن تتغلب عليه منذ أقدم مراحل تاريخها . فمنذ آلاف السنين عرفت الصين نظام الإقطاع ولم تستطع التخلص منه أبداً حتى انبثقت الصين الثورية الجديدة ، لقد تطور المجتمع الصينى القديم من الشيوعية البدائية إلى العبودية إلى الإقطاع .، وتكونت الدولة والإمبراطورية قبل ميلاد المسيح ، ثم جمدت الصين فى هذه المرحلة لا تتقدم خطوة واحدة ، فلم تستطع الانتقال إلى النظام التجارى الرأسمالى المعادى للإقطاع كما حدث فى أوربا الغربية ، بل كانت تتعاقب عليها الأسر والقرون وتقوم فيها ثورات الفلاحين ثم تعود الأحوال إلى ما كانت عليه دون أن تبرز علاقات إنتاجية جديدة تنتقل بالمجتمع الصينى إلى مرحلة أكثر تقدماً .

والسبب فى ذلك الركود يعود إلى الاقتصاد الصينى القائم على

الاستهلاك المباشر والمبادلات البسيطة ، فلم يكن هناك سوق وطنى عام للإنتاج والتبادل ، بل كان الفلاحون الصينيون فى كل عصور تاريخهم ينتجون من المواد الغذائية ما يستهلكونه فحسب أو ما يتبادلونه على أضيق نطاق ، وأكثر من ذلك كانوا ينتجون ما يحتاجون إليه من الصناعات اليدوية كالنسيج والأثاث والسلال ، فلم يكونوا فى حاجة إلى الاعتماد على المدن الكبرى وسبل المدنية المعقدة ، وكذلك كان النبلاء والسادة الإقطاعيون ينفقون معظم دخلهم من ريع الأرض محلياً ولا يستغلونه فى مشروعات إنتاجية واسعة النطاق ، ونتيجة لذلك لم تنشأ طبقة التجار إلا فى أضيق نطاق ولم تلعب أى دور حاسم فى تاريخ الصين ، فالتجارة تقوم على المبادلة والوساطة — ولكن التبادل والوساطة لم يحتلا مكاناً أساسياً فى المجتمع الصينى فى أى عصر من العصور .

كان هذا الركود الاجتماعى هو نقطة الضعف التى نفذ منها الاستعمار الغربى إلى الصين ، فسرعان ما تقوض المجتمع الإقطاعى الصينى تحت معاول رأس المال الأجنبى المستغل ، وتحولت الصين إلى دولة شبه إقطاعية وشبه مستعمرة ، ولم تلبث أن انهارت الإمبراطورية العتيقة من الداخل . . لم يهاجمها

برابرة أواسط آسيا الذين أقيم سور الصين العظيم اتقاء لشرهم وإنما هاجمها التجار البيض الذين جاءوا من بلاد بعيدة ومن ورائهم قوة بلادهم العسكرية وأطماعها الاستعمارية فى السوق الصينى الكبير .

* * *

ترجع أول مواجهة بين الصين وأوربا إلى الربع الأول من القرن السادس عشر حين وصلت ميناء كانتون بعثة برتغالية برئاسة توماس بيريز وكان يحمل رسالة من ملك البرتغال إلى إمبراطور الصين يلتمس فيها تبادل التجارة بين الدولتين . وكان البرتغاليون فى ذلك العهد هم سادة البحار الشرقية ويدعون لأنفسهم حق احتكار الملاحة فى تلك البحار ، وكانت السفن البرتغالية تخرج من جزر سيلان وملقا لتصادر شحنات السفن الأخرى التى لا تحصل على إذن بالاتجار من السلطات البرتغالية ، وتناهى إلى أسماع البرتغاليين ما تتمتع به الصين من خيرات وثراء ، وتاقت نفوسهم إلى احتكار تجارتها الخارجية كما يفعلون مع الملايو وجزر المحيط ، فأوفدوا تلك البعثة التى تحمل رسالة ملك البرتغال لتمهيد الطريق وجس النبض .

أما الصين فكان يحكمها فى ذلك الوقت الإمبراطور

« كانج تى » من أسرة « منج » العظيمة التى بسطت نفوذها على كوريا وبورما واليابان وكانت تتمتع بحقوق الدول العظمى فى سيام وجاوة وسومطرة والملايو ، كانت الصين حينئذ فى قمة المجد والنظام ، ولم تكن تستشعر أية كراهية أو خوف تجاه الأجانب ، وسمح الإمبراطور « كانج تى » للسفير البرتغالى بالتقدم إلى بكين ، ولكن قبل أن يمثل السفير بين يدى الإمبراطور وصلت البلاط الإمبراطورى رسائل من حكام جزر الملايو تكشف غدر البرتغاليين وما يضمرونه من السيطرة والاستغلال ، وحدث أن قامت إحدى السفن البرتغالية ببعض أعمال القرصنة على الشاطئ الصينى ، فغضب الإمبراطور كانج تى ورفض مقابلة السفير البرتغالى ، وأمر به فأعيد إلى كانتون حيث مات فى أحد سجونها عام ١٥٢٣ .

ورفض أباطرة الصين بعد ذلك وطوال قرنين من الزمان استقبال أية بعثة برتغالية أخرى ، أو تبادل أية علاقات تجارية أو دبلوماسية مع البرتغال ، ولكن حدث أن تلقى أمير بحر صينى بعض المساعدة من سفينة برتغالية أثناء مطاردة للقراصنة على ساحل الصين ، فسمحت السلطات الصينية — اعترافاً منها بالجميل — للبرتغاليين باستئجار شبه جزيرة مهجورة على

الساحل الصيني تسمى « ماكاو » في عام ١٥٥٧ لاتخاذها قاعدة تجارية لهم ، وظل البرتغاليون يدفعون إيجار تلك القاعدة بانتظام حتى عام ١٨٤٩ أي طوال ثلثمائة عام . ويعترفون بسيادة الصين على ماكاو وبسلطتها المدنية والجنائية .

وأتى الأسبان بعد البرتغاليين يحاولون خطب ود الصين ، وتبادلوا التجارة مع السفن الصينية في أرخبيل الفلبين كما سمح لهم بالتجارة في ميناء كانتون ، ولكن حظهم لم يكن أحسن حالا من سابقيهم ، إذ رفض أباطرة الصين أيضاً أن يتبادلوا معهم أية علاقات على مستوى الدولتين .

ولم يلبث أن دخل الهولنديون حلبة المنافسة على الصين ، وكان القرن السابع عشر قد أشرق على ازدياد قوة الهولنديين في أعالي البحار فتمكنوا من طرد البرتغاليين من أمبونيا في عام ١٦٠٥ وحلوا مكانهم في جزر أندونيسيا وجاوة ، وحاولت عمارة هولندية طرد البرتغاليين من ماكاو في عام ١٦٦٢ ولكنها فشلت في ذلك وقنعت باحتلال جزيرة تايوان (فورموزا) التي لم تكن حينئذ قد أصبحت أرضاً صينية بعد ، ونجح الهولنديون أكثر من غيرهم في كسب ود الصين ، فقد تخلصت الصين في ذلك الوقت من حكم أسرة منج الفاسد ، وجلس على عرشها

حاكم جديد هو « نور ها تشى » مؤسس أسرة المانشو ، وهم عشائر قبلية كانت تعيش على الحدود الغربية للصين ، وانتهزت تلك العشائر بقيادة « نور ها تشى » فرصة ضعف أسرة المنج ووقوعها تحت سيطرة الطواشى والخصيان ومحظيات القصر ، واندلاع الثورات فى أطرافها ، ثم سقوط العاصمة نفسها فى يد أحد المتمردين ، وأغارت على البلاد مؤسسة أسرة المانشو التى استطاعت إعادة مجد الصين وتوحيد أطرافها وعاصرت اشتداد الضغط الأجنبى والتدخل الأوربى ، واستمرت فى الحكم حتى سقوط النظام الملكى فى عام ١٩١١ .

ولما كان حكام المانشو قد حصلوا أثناء سعيهم لتوطيد حكمهم على بعض المساعدة الهولندية ، وخاصة فى تايوان ، لذلك نشأت علاقة يشوبها الود بين أباطرة المانشو والأجانب الهولنديين ، وقد حاول هؤلاء استغلال خدماتهم إلى أقصى حد لإنشاء علاقات دبلوماسية مع أسرة المانشو ، وأوفدوا كثيراً من البعثات إلى البلاط الإمبراطورى عسى أن يتكرم الإمبراطور باستقبالها ، ونجحت بعض هذه البعثات بالفعل فى السجود أمام العرش الخالى من صاحبه ، وهو شرف كبير لم يحظ به معظم الأجانب من قبل ، وأخيراً سمح للهولنديين بإرسال قافلة تجارية مكونة من أربع سفن تحمل بضائع إلى الصين مرة كل ثمانى سنوات ، ولكن البلاط الإمبراطورى رفض جرياً



على عادته التقليدية إنشاء علاقات دبلوماسية مع الهولنديين .

ومن بين الأجانب جميعاً الذين اعترضوا حياة الصين كان الإنجليز أكثرهم صلفاً وخسة وقسوة ، وقد دخل الإنجليز ميدان السباق الاستعمارى على أسواق الصين فى وقت متأخر ، يعود إلى منتصف القرن السابع عشر بعد أن كان البرتغاليون والأسبان والهولنديون قد نجحوا فى إنشاء علاقات تجارية محدودة مع الصين ، ولكن الإنجليز لم يسلكوا منذ البداية سلوكاً شريفاً يليق بالتجار ، بل لجأوا إلى أساليب القرصنة السافرة ، وقد حاولوا فى أول الأمر اقتحام بحار الصين بالاتفاق مع الهولنديين رغم العداوة بين شركتى الهند البريطانية والهولندية إذ تمكنت الشركتان من تسوية خلافاتهما مؤقتاً على حساب الصين ووقعت اتفاقاً ينظم احتكار التجارة الصينية فيما بينهما ، ولكن الهولنديين لم يلبثوا أن نكثوا بالاتفاق وعملوا على الاستئثار بتجارة الصين وحدهم ، فحاول الإنجليز أن يولوا وجوههم شطر البرتغاليين ظناً منهم أنهم أصدقاء الإمبراطور ، ولكن العمارة البريطانية التى وصلت ميناء ماكاو حاملة خطاب توصية من حاكم جوا البرتغالى فوجئت بتفاهة شأن من لجأت إليهم وعجزهم التام عن التوسط لدى السلطات الصينية ، وأبى الإنجليز العودة بخفى حنين فاقتحموا

نهر كانتون بسفنهم المسلحة فى محاولة لشق طريقهم بالقوة إلى الداخل ، ولكن الأسطول الصينى تصدى لهم ومنعهم من الدخول فاكتفوا بالقيام ببعض أعمال النهب والقرصنة على الشاطئ الصينى .

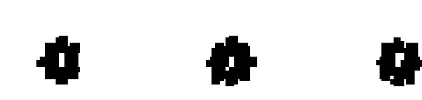
وهكذا كانت أول مواجهة بين بريطانيا والصين لا توحى بالخير ، ولكن ذلك لم يحل على أية حال دون أن تحصل شركة الهند الشرقية على فرع لها فى كانتون عام ١٦٨٥ أسوة بالبعثات التجارية الأجنبية الأخرى التى سمح لها الصينيون بمزاولة نشاطها فى ذلك الميناء .

وبعد ذلك بقرن من الزمان أى فى عام ١٧٨٤ أرسلت الولايات المتحدة — وكانت قد حصلت أخيراً على استقلالها وأصبحت دولة ذات سيادة — أولى سفنها التجارية إلى ميناء كانتون ، وأخذت تجارتها مع الصين تزداد سريعاً حتى فاقت فرنسا وغيرها من الدول الأوربية ولكنها لم تلحق ببريطانيا .

أما روسيا القيصرية فقد كانت فى ذلك الوقت تتبادل التجارة مع الصين على طول حدودها الشمالية . وفى عام ١٨٠٥ تقدمت روسيا بطلب إلى حكومة المانشو لمنحها امتيازات مماثلة لامتيازات الدول الأوربية ولكن طلبها قوبل بالرفض .

كانت مياه المحيط الهادى تشهد فى تلك الفترة سباقاً هائلا بين الدول الأوربية على استعمار شرق آسيا والاستئثار بكنوز الشرق وثرواته . فالرأسمالية الأوربية الوليدة قد دخلت الآن طورها التجارى بعد مرحلة الكشوف البحرية العالمية واستكشاف الطرق الملاحية الجديدة التى تربط الشرق بالغرب ، وبدأ أبناء الرحالة العظام ينهبون ثروات العالم القديم المكتشف تحت ستار التجارة وتهديد السلاح ، فلم تكن العلاقات التجارية والدبلوماسية فى واقع الأمر سوى ستر واه يكاد لا يخفى إصرار الدول الأوربية على التوسع والعدوان ، وكانت العلاقات بين الدول الأوربية نفسها سداها الحقد والأطماع ، فكل منها تتربص بالأخرى وتسعى إلى إحاقة الهزيمة بها لتحل محلها فى مناطق نفوذها وراء البحار ، فأحياناً يدور الصراع على المسرح السياسى والعسكرى فى أوربا وتنعكس آثاره على مراكز الدول المتصارعة فى الشرق البعيد ، وأحياناً يحتدم الصراع مباشرة بين الأساطيل والنفوذ التجارى والعسكرى فى الخارج ويأفل بالتالى نجم الدولة المهزومة فى سماء السياسة الأوربية . كانت الرأسمالية التجارية الوليدة تكشف حينئذ عن أسوأ ما فيها فى الداخل والخارج

ولكنها كانت حريصة فى نفس الوقت على هدفها المشترك وهو نهب خيرات الشعوب . فما إن يظهر ظرف من شأنه أن يهدد مصالح الاستغلال الأوربى فى منطقة ما حتى تتضافر القوى المتنازعة لإزالة الخطر رغم ما بينها من متناقضات ، وهذا ما حدث بالضبط فى مسألة التجارة مع الصين ، فقد تكاتفت الدول الأوربية جميعاً لإيجاد ثغرة تنفذ منها إلى أسواق الصين ، وأخيراً وجدت بغيتها عندما سمح الصينيون بفتح ميناء كانتون للتجارة مع الأجانب .



أما حكام الصين فكانوا ينظرون إلى التجارة باعتبارها حرفة وضيعة لا تستحق اهتمام الحكومة . فنجد أحد المراسيم الصينية يقول : « إن إمبراطورية السماء تعين الموظفين المدنيين لحكم الناس ، وتعين القادة العسكريين ليرهبوا الجناة والأشرار ، أما الشئون التافهة المتصلة بالتجارة فهى من اختصاص التجار أنفسهم ، ولا يجوز للموظفين أن يستمعوا إلى أى شكوى تتعلق بذلك الموضوع » .

وكانت تتولى التجارة مع الأجانب فى كانتون هيئة خاصة من التجار الصينيين تعرف باسم « الهونج » ، وهذه الهيئة تمثل

الحكومة الصينية وتعمل كوكيل لها ، ولا يسمح للأهالى أو التجار العاديين بالتعامل رأساً مع الأجانب ، وكذلك يحظر على الشركات الأجنبية الاتصال بأى تاجر أو شخص لا ينتمى إلى نقابة الهونج وإلا غامرت بفقدان مركزها وامتيازاتها . ولكن تجار الهونج لا يتمتعون بسلطتهم دون قيد ، وإنما يباشرونها فى الواقع تحت رقابة محكمة من موظف حكومى كبير يقيم فى كانتون ويمثل الإمبراطور شخصياً ويعرف باسم « الهوبو » ، واختصاصه الإشراف على عقد الاتفاقات التجارية مع الشركات الأجنبية ، وفرض الرسوم الجمركية على الواردات ومراقبة حركة الصادرات .

وكان الأجانب فى كانتون مقيدين تماماً بحدود مهنتهم ، وهى التجارة مع نقابة الهونج ، ولا يسمح لهم بالقيام بأى نشاط آخر ، لقد كانوا أشبه بالسجناء منهم بالتجار فهم موضوعون تحت رقابة صارمة لا يستطيعون منها فكاكاً ، فلا يسمح لهم بالخروج من حيهم الخاص والاختلاط بالأهالى ، أو التجديف فى النهر ، والنزهة فى الحدائق العامة إلا بصحبة موظف صينى صغير ، كما حظر عليهم اصطحاب زوجاتهم إلى كانتون حتى لا تنشأ هناك جالية أجنبية كبيرة العدد ، وحتى خطاباتهم

ومراسلاتهم التجارية يجب أن تمر على رقابة الهوبو !

هكذا كانت إمبراطورية السماء تفرض على نفسها عزلة قاسية ، ولا تكاد تخفى مخاوفها واحتقارها للأجانب ، وكانت لها مبرراتها فى الواقع ، ففى كل يوم تصل إلى إمبراطور الصين وكبار موظفيه أنباء الجرائم التى يرتكبها البيض فى بحار الجنوب ، وكيف أنهم يتسللون إلى الممالك الآمنة بحجة التجارة وهم يضمرون التوسع والعدوان ، وكيف أنهم ينكثون بوعودهم ، ويغشون فى معاملاتهم ، ولا يصدقون فى أقوالهم ، وكثيراً مايسطون كالقراصنة على السفن والمسافرين ، ويهاجمون المدن والقرى الآمنة ببنادقهم ومدافعهم التى تحصد الناس حصداً ، ويقيمون لأنفسهم القلاع غصباً ، وينهبون ما تقع عليه أيديهم ، وما إن يحلوا فى مكان حتى يأتى فى أعقابهم الخراب والدمار ، ويعم الفقر والجوع ، وترتفع الأسعار وتنهار القيم والأخلاق .

لكل ذلك كان أباطرة المانشو المتعاقبون حريصين أشد الحرص على عزلتهم الإرادية ، وعدم فتح أبواب بلادهم لرسل أولئك الشياطين ، فقد علمتهم دروس التاريخ أن الخطر الخارجى يرتبط دائماً بالمتاعب الداخلية ، ألم يتمكنوا هم أنفسهم من فرض سيطرتهم على البلاد حين ملأتها الفتن والثورات

فى أواخر عهد أسرة منج ؟ فلا غرو إذن أن يكون همهم الأكبر حماية أنفسهم من أية قوة أجنبية جديدة سواء كان مصدرها القارة أو البحر لا سيما وقد بدءوا يواجهون بدورهم متاعب داخلية لا تكاد تنقطع .

ولم تكن الصين ، فى واقع الأمر ، فى حاجة إلى البضائع الأجنبية ، فباستثناء بعض الكماليات البسيطة التى يتهافت عليها السادة الإقطاعيون مثل الفراء والعقاقير الطبية وأنواع من المأكولات لم تكن الصين تستورد أى شىء ، ولكنها — وهذه هى المأساة — كانت تصدر قائمة كبيرة من السلع الرائعة التى يسيل لها لعاب الأجانب كالشاى الصينى اللذيذ ، والحرير الطبيعى الشهير ، والمنسوجات القطنية الفاخرة ، والتحف الخزفية البديعة .

ولذلك أصر الأجانب على التجارة مع الصين ، يحدوهم الشوق إلى خيراتها الوفيرة ، وأسواقها الهائلة التى تضم أكثر من ثلثمائة مليون مستهلك ، فاندفعوا فى سباقهم إلى الصين لا يلوون على شىء ، ولا يفت فى عضدهم شىء ، رغم كل العقبات والإهانات . . فهناك على أفق تلك المتاعب جميعاً تلوح واحة الصين الوارفة كجنة تهفو إليها الأفئدة ، ويلهب جمالها الخيال .

٢ ـ أطماع الإنجليز

كان حى الأجانب فى كانتون يحتل ضاحية فى أطراف المدينة خصصت لهم وحدهم فلا يجوز لأحد أن يدخلها إلا بإذن خاص ولدواعى العمل ، والحى فى حد ذاته يضم مجموعة من المبانى المتقاربة تحتلها التوكيلات والشركات التجارية الأجنبية وينبسط أمامها فضاء فسيح يعزلها عن أحياء الوطنيين .

وتحتل الوكالة الإنجليزية أكبر هذه المبانى وأكثرها فخامة وأبهة ، فمبنى الوكالة أشبه بقصر منيف يحيط به سور شاهق ، وللسور بوابة ضخمة تؤدى إلى طريق مرصوف ينتهى إلى سلاملك القصر ، فإذا صعد الزائر تلك الدرجات العراض يجد نفسه فى شرفة فسيحة تطل عليها مجموعة من القاعات الكبرى . . فهذه قاعة المكتبة ، وتلك قاعة الاستقبال ، وأخرى قاعة المائدة ، ورابعة قاعة المرقص ، وجميعها تكتظ بالأثاث الأنيق والشمعدانات الفضية والثريات البللورية والطنافس الثمينة . وفى الدور الثانى من المبنى توجد مكاتب الموظفين ومساكنهم .

وكانت الوكالة الإنجليزية لا تبخل على ضيوفها وموظفيها

بكل ألوان الفخامة والترف ، فهى تقيم لهم الحفلات والولائم حيث تسيل أجود الخمور وتنقضى أجمل الساعات ، فلم تكن الشركة فى الواقع مجرد وكالة تجارية وإنما هى أشبه ما تكون بسفارة إحدى الدول الكبرى .

وكان مظهر الوكالة الإنجليزية يمثل بالفعل حقيقة نشاطها ، فقد تزايد نصيب بريطانيا فى تجارة الصين تزايداً مذهلا ، وما إن أشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى كانت شركة الهند الشرقية تكاد تحتكر كل تجارة الصين بينما تضاءلت أنصبة الشركات الأخرى إلى حد كبير ، فكانت كل الشركات الأخرى تستثمر مجتمعة ما يقل عن جزء من سبعة من رءوس الأموال التى تستثمرها الشركة الإنجليزية فى كانتون ، وقيل إن كل ورقة من الشاى تنتجها مقاطعة فوكين كانت تعرض أولا على الشركة الإنجليزية قبل أن يتصرف فيها تجار الهونج بالبيع إلى أية شركة أخرى ، فقد أصبح الشاى فى ذلك الوقت مشروباً قومياً فى بريطانيا يشتد عليه طلب المستهلكين .

ولم تكن الوكالة الإنجليزية فى كانتون سوى فرع لشركة الهند الشرقية التى عم صيتها الآفاق ، فهى التى تتولى استغلال الهند بل آسيا كلها لحساب الاستعمار البريطانى ، وكانت

مؤسسة أسطورية أشبه بدولة داخل الدولة أو إمبراطوية احتكارية للتجارة العالمية ، فتحت إمرتها جيش خاص مزود بأحدث الأسلحة تستخدمه فى تنفيذ مآربها دون رقابة أو إشراف ، وهى معفاة من الضرائب فى الهند وبريطانيا ، وتستطيع أن تفرض إرادتها على حكومة لندن ذاتها ، وأصبحت باختصار من أكبر القوى المؤثرة فى تاريخ آسيا ومصائر شعوبها .

وقد بدأت شركة الهند الشرقية بداية متواضعة ، فكانت تملك عدة مراكز تجارية بسيطة فى أطراف الهند ، ثم استطاعت الحصول فى عام ١٧١٥ على فرمان من إمبراطور المغول بإعفائها من الضرائب والخضوع للقضاء المحلى ، وسرعان ما جعلت من هذا الفرمان الذى حصلت عليه بالرشوة والضغط تكئة لنفوذها وقوتها المتزايدة حتى انتهت إلى غزو الهند وإخضاعها تماماً لسيطرتها .

وقصة فتح الهند أشبه بالخيال ، وهى صفحة من أكثر الصفحات سواداً فى سجل الاستعمار ، فقد استخدمت بريطانيا عن طريق شركة الهند الشرقية أحط أساليب التآمر والقسوة والغش والرشوة والخداع لإخضاع الولايات الهندية وتكبيلها بالقيود ، وتبدأ القصة بغزو البنغال فى عام ١٧٥٦ بحجة

الانتقام لمصرع ١٢٦ جندياً بريطانياً وقعوا فى أسر الهنود وماتوا اختناقاً فى سجن رهيب ضيق يسمى « بلاك هول » . فاستغلت شركة الهند الشرقية هذا الحادث واستطاعت أن تجند الرأى العام فى بريطانيا حكومة وبرلماناً وشعباً لغزو الهند وتأديب سكانها المتوحشين ، وهكذا بدأت سلسلة من المؤامرات السياسية والمعارك العسكرية انتهت باحتلال الهند والقضاء على سيادتها واستقلالها .

وقام الحكم البريطانى فى الهند على كل ما هو دنىء وسيئ من رذائل البشر . . على الغدر والعنف والخيانة والجشع ، ووطد أركانه ببث الفرقة والانقسام بين طبقات الهند وطوائفها عملا بالمبدأ الاستعمارى الشهير « فرق تسد » ، ثم بدأ يستنزف اقتصاديات الهند دون عدل أو رحمة .

فقبل غزو الهند كانت شركة الهند الشرقية تشترى البضائع الهندية مقابل الدفع بالفضة والذهب ، ولكن بعد الغزو قامت الشركة بعملية نهب منظمة لثروات الهند وتحويلها إلى بريطانيا دون مقابل ، فقد حصل البريطانيون أولا على غرامة باهظة من شعب الهند فى صورة سبائك فضية وذهبية تفوق كل ما دفعوه من قبل ثمناً للبضائع الهندية ، ويقال إن هذه الغرامة احتواها

٧٠٠ صندوق كبير حملها ١٠٠ قارب إلى مخازن شركة الهند الشرقية ومراكبها، ومع ذلك لم تكن هذه الغرامة الخرافية سوى أول الغيث الذى بدأ ينهمر على المغامرين الإنجليز ، فقد امتنعت الشركة طوال تاريخها التالى عن دفع بنس واحد مقابل ما تشتريه من بضائع الهند ، ولتمويل عمليات الشراء من النساجين الهنود حتى لا يموتوا جوعاً ويتوقفوا بالتالى عن الإنتاج فرضت الشركة ضرائب باهظة على الشعب الهندى ، وهكذا كانت الهند تدفع ثمن مبيعاتها إلى بربطانيا !

وأقامت بريطانيا فى الهند حكومة من اللصوص كل همها تنظيم عمليات الابتزاز المستمرة لشعب الهند وثرواته ، ويقدر أحد المؤرخين ما حصلت عليه بريطانيا من الهند فى فترة عشر سنوات بين عامى ١٧٨٣ و ١٧٩٣ بأكثر من ٢٣ مليون جنيه (مع مراعاة أن قيمة النقد فى ذلك الوقت تبلغ أكثر من عشرة أضعاف قيمته الحالية) وذلك مقابل ذهب ثمنه لا يتجاوز ٧٢١ ألف جنيه . ويقول مؤرخ آخر إن السفينة بارينجتون التى أقلت سير وارين هستينجز حاكم الهند العام إلى لندن عام ١٧٨٥ كانت تحمل بضائع هندية قيمتها الدنيا ١٢٠ ألف جنيه وعادت ببضائع بريطانية قيمتها القصوى ٢٧ ألف جنيه .

وتكررت هذه الأمثلة طوال تاريخ الاستغلال الاستعمارى للهند .

وكانت البضائع التى ترسلها شركة الهند الشرقية إلى بريطانيا تباع فى المزاد العلنى ، وتذهب قيمتها خالصة بعد خصم مصاريف النقل والبيع إلى ميزانية الحكومة البريطانية وجيوب كبار موظفى الحكومة والشركة ، بينما لا يكاد يحصل صغار المساهمين على شىء ، وهذا ما جعل الذمة المالية للشركة فى حالة عجز مستمر رغم دخلها الهائل مما أدى إلى إعلان إفلاسها فيما بعد !

وساهمت هذه الثروات التى تدفقت على بريطانيا فى قيام ثورتها الصناعية فى أوائل القرن التاسع عشر ، إذ أنفقت هذه الأموال فى بناء المصانع واستخدام البخار ، وبذلك سبقت بريطانيا جميع الدول الأوربية الأخرى فى إنجاز الثورة الصناعية التى نقلتها إلى مرحلة جديدة من القوة والتفوق . أما الهند فقد كان نصيبها الفقر والانهيار نتيجة هذه العلاقة غير المتكافئة بين القوى والضعيف ، وبلغ من طغيان المستعمرين الإنجليز أن فرضوا ضريبة ثقيلة على استهلاك الملح الذى لا غنى عنه لأفقر الهنود . وعندما أخذت مصانع مانشستر الحديثة

فى إنتاج المنسوجات الآلية الرخيصة الثمن غزا بها الإنجليز أسواق الهند التى تضم مئات الملايين من المستهلكين مما أدى إلى تدمير صناعة النسج اليدوية المحلية وهلاك مئات الألوف من النساجين الهنود الذين توارثوا هذه الحرفة عن آبائهم « وأصبحت عظامهم تجعل سهول الهند تبدو بيضاء » على حد تعبير أحد حكام الهند الإنجليز .

* * *

وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا قد احتلت مكان الصدارة على المسرح الدولى بفضل الانقلاب الصناعى والتوسع الخارجى ، وتقهقرت الدول الاستعمارية التقليدية الأخرى عن اللحاق بها ، إذ قنع البرتغاليون بممتلكاتهم الصغيرة المتناثرة فى أنحاء آسيا وأفريقيا ، وانزوت أسبانيا فى أرخبيل الفلبين وتوقفت عن المشاركة فى التطورات الآسيوية ، وقنعت هولندا بالجزر الأندونيسية بعد أن طردتها بريطانيا من سيلان وكادت أن تفقد جميع مستعمراتها فى حروب نابليون ، وخرجت فرنسا متهالكة من ثورتها الكبرى ومغامراتها النابليونية ، ولم تكن الولايات المتحدة قد استكملت توسعها نحو الغرب وأقفلت أبوابها على نفسها قانعة بأراضيها البكر ونفوذها فى أمريكا

اللاتينية بحكم مبدأ مونرو ، وكانت إمبراطورية النمسا والمجر مستغرقة فى منازعاتها الأوربية والمحافظة على كيانها المترنح أمام ضربات الحركات القومية فى أوربا ، أما ألمانيا وإيطاليا فلم تكونا قد استكملتا مقومات وحدتهما بعد وانحصر همهما فى مشاكلهما القومية .

أما بريطانيا فكانت الدولة الوحيدة فى العالم التى خلت من المشكلات الداخلية المعقدة ، وأتاح لها استقرارها السياسى وثورتها الصناعية مركزاً متيناً جعلها توجه نشاطها إلى التوسع فى الخارج بعد انتصارها على عدوها اللدود نابليون وتأكيدها المطلق لسيادتها على البحار ، فكانت السفن الحربية البريطانية كفيلة بإيقاع الرعب فى قلب كل من تسول له نفسه مقاومة النفوذ البريطانى ، وأتاح لها فتح الهند فرصة فريدة لدعم قوتها ونفوذها ، فأخذت تؤمن طرقها البحرية إلى الهند وتثبت أقدامها فى منطقة جنوب شرقى آسيا باحتلال سنغافورة وبورما وسيلان ، ولم يزدها هذا التوسع سوى الرغبة فى المزيد وتضاعفت شهيتها للسلب والابتزاز .

بهذه الأطماع بدأت بريطانيا تنظر إلى الصين فى توسعها شمالا بعد أن دانت لها الهند وكل أرجاء المنطقة تقريباً ، وإذا

كانت الهند جوهرة التاج البريطانى كما يقولون ، فإن الصين كانت من الممكن أن تصبح جوهرة مماثلة بل حتى أكبر حجماً وأشد لمعاناً ، ولكن الصين لم تكن أبداً باللقمة السائغة التى تستطيع بريطانيا التهامها بسهولة كما فعلت مع الهند . وكان ذلك يرجع إلى اختلافين جوهريين فى ظروف كل من هاتين الدولتين الآسيويتين اللتين تضمان معاً قرابة نصف سكان العالم .

الاختلاف الأول يكمن فى موقف كل من الصين والهند من التجارة مع الخارج ، فقد كانت الصين لا تتحمس للتجارة مع الأجانب بل كان أباطرتها يعتبرون المسائل التجارية لا تليق بمركزها السامى إلى جانب أن الصين لم تكن فى الواقع فى حاجة ماسة إلى البضائع الأجنبية . أما الهند فكانت على العكس من ذلك حريصة على التجارة الخارجية ، وكان أقيال الهند ومهراجاتها يشجعون الاتصال بالأجانب ، ويمنحونهم الامتيازات والتسهيلات والمراكز التجارية فى مختلف الموانئ الهندية ، مما أتاح لهم تثبيت أقدامهم فى البلاد وتمكينهم من تنفيذ مؤامراتهم عن طريق الحرب والغدر والخداع تحت ستار التجارة ، وهو أمر لم يحظ الإنجليز أو غيرهم بمثله فى الصين ، فقد كانت سفنهم التجارية ترتطم بالشاطئ الصينى ثم ترتد

خائبة فى معظم الأحيان ، وبعد كفاح قرون لم ينجحوا إلا فى اقتحام عدد ضئيل من موانى الصين الجنوبية لم يلبث أن أغلق فى وجوههم بعد ذلك فيما عدا ميناء واحد هو كانتون ، وكانوا يخضعون فيه لرقابة صارمة تشل قدرتهم على التآمر والمناورة .

والاختلاف الثانى بين ظروف كل من الدولتين أن الصين كانت تخضع رغم نظامها الإقطاعى لسلطة مركزية قوية يمثلها الإمبراطور المهيمن على كل شىء والذى يفرض سلطانه فى كل أنحاء البلاد ، أما إمبراطورية المغول فى الهند فقد كانت ضعيفة مفككة ، وسلطة الإمبراطور فيها نظرية ومتراخية ، أما السلطة الحقيقية فكان يتمتع بها عدد لا حصر له من المهراجات والأقيال والحكام الإقليميين ، الأمر الذى أتاح للإنجليز القيام بلعبتهم المفضلة « فرق تسد » ومكنهم من تكسير عصى الهند متفرقات .

وقد حاول الإنجليز مراراً الاتصال مباشرة بإمبراطور الصين دون جدوى ، ففى كل مرة كانوا يردون خائبين يتميزون غضباً وطمعاً . .

ففى عام ١٧٨٧ اختير الكولونيل كاثكارت ليرأس أول بعثة دبلوماسية إنجليزية إلى بلاط إمبراطور الصين ، ولكنه لم يتمكن

من أداء مهمته إذ مات قبل أن تطأ قدمه أرض الصين . وعادت البعثة من حيث أقبلت .

وبعد ذلك بتسع سنوات ، أى فى عام ١٧٩٦ ، نجحت بعثة إنجليزية أخرى برئاسة لورد ماكارتنى فى الوصول إلى بكين ، وكانت بعثة ضخمة محاطة بشتى مظاهر الأبهة ، ولكن البعثة حين وصلت الصين اضطرت إلى الانصياع لأوامر السلطات الصينية بأن ترفع فى كل تحركاتها لافتة ضخمة مكتوب عليها باللغة الصينية « السفير الذى يحمل الجزية من بلاد الإنجليز » . وعندما تفضل الإمبراطور تشين لنج باستقبال لورد ماكارتنى أبى السفير السجود على الأرض واكتفى بالركوع على إحدى ركبتيه ، وأظهر الإمبراطور بشاشة وتلطفاً وهو يستمع إلى رسالة الملك جورج الثالث التى يدعوه فيها إلى تقوية العلاقات التجارية بين البلدين ، ولكن رده المهذب كان مخيباً لرجاء الإنجليز ، فقد جاء فى رد الإمبراطور تشين لنج إلى الملك جورج الثالث : «إننا نملك كل شىء ، ولا نقيم وزناً للأشياء الغريبة أو المبتكرة ، ولسنا فى حاجة إلى مصنوعات بلدكم » !

وكرر الإنجليز المحاولة فى عام ١٨١٦ ، إذ وصلت بكين بعثة أخرى برئاسة اللورد امهرست ، ولكن حظها من النجاح

كان أقل من سابقتها فقد فشلت فى المثول أمام الإمبراطور لأن اللورد امهرست رفض مقدماً وفى كبرياء وعناد أن يسجد أمام العرش ، ونتيجة لذلك أعلنت حكومة بكين رسمياً أنها سترفض من حيث المبدأ استقبال أية بعثة دبلوماسية إنجليزية أخرى فى المستقبل .

وعلاوة على هذه المهانة الوطنية التى كانت تلحق بالإنجليز كلما حاولوا الاتصال بالصين كان التجار الإنجليز فى كانتون يتعرضون لسلسلة متصلة من أعمال الإذلال ، فقد كان محظوراً عليهم اصطحاب زوجاتهم معهم ، وفى عام ١٨٣٠ نشأت أزمة عنيفة بين السلطات الصينية وموظفى الوكالة الإنجليزية فى كانتون بسبب وصول بعض السيدات الإنجليزيات من ماكاو ، فأصرت السلطات على عودتهن فى الحال وإلا قطعت التجارة مع بريطانيا ، وكذلك لم يكن يسمح للموظفين والتجار الإنجليز باستخدام خدم من الصينيين أو ركوب المحفات التى تحمل على الأعناق أو حتى الاتصال مباشرة بالسلطات الصينية ، وإذا أرادوا التقدم بشكوى أو طلب أو رجاء فعليهم أن يتوجهوا إلى بوابة المدينة ويتركونه مع حارس الباب !

وكان من الطبعى أن يتميز الإنجليز غيظاً من هذه

المعاملة المهينة وهم الذين درجوا على الأمر والنهى والاعتزاز بالكرامة الوطنية ، وقد صبروا على هذه الحال فترة طويلة بسبب المكاسب الوفيرة التى يجنونها من التجارة الصينية ولكنهم أخذوا يتصيدون الفرصة للانتقام والانقضاض على الصين كالوحوش الكاسرة لا سيما وهم يشهدون مظاهر ضعفها الداخلى ، واستعدادها للوقوع بين أيديهم كالثمرة الناضجة .

* * *

وأخيراً ، سنحت الفرصة فى عام ١٨٣٤ فقد ألغت الحكومة الإنجليزية فى ذلك العام احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة الآسيوية بعد أن ضجت الشكوى من مخازيها وفضائحها وأصبحت نهباً للصوص من كبار موظفيها والمسئولين فيها ، وعندئذ شعر نائب الإمبراطور فى كانتون بأن معاملة التجار الإنجليز قد أصبحت مشكلة معقدة لأنهم لم يعودوا خاضعين لهيئة واحدة مسئولة أمام السلطات الصينية ، ولذلك فقد طلب من نقابة الهونج الاتصال بالسلطات الإنجليزية وتكليفها بإرسال مسئول عن التجارة البريطانية إلى كانتون ليتولى رئاسة التجار الإنجليز ، ورحبت الحكومة الإنجليزية بالطبع بهذه الخطوة ترحيباً كبيراً وسارعت إلى إرسال اللورد نابيير ليتولى رئاسة المعاملات التجارية فى كانتون .

لم يكن اللورد نابيير ، ومعنى اسمه باللغة الصينية « السافل عن عمد » أكثر من رئيس لإحدى البعثات التجارية فى كانتون ، ولكنه لم يشأ أن يفهم حقيقة مركزه ، فقد كان لورداً بريطانيًّا قحًّا شديد الجسارة والغرور والاحتقار للشعوب غير البيضاء ، وقد جاء إلى الصين تحدوه رغبة ملحة فى إذلالها وفتح أبوابها للتجارة البريطانية ، وكان لشعوره بمدى قوة بلاده وجبروتها ، يتصرف كما لو كان ممثلا لدولة احتلال أو سلطة فوق السلطات الوطنية ، ولذلك فقد رفض فور وصوله إلى كانتون التعامل مع نقابة الهونج المسئولة عن الاتصال بالأجانب ، كما رفض الاعتراف بسلطة «الهوبو» الذى ينفذ التعاليم الإمبراطورية الثمانية الخاصة بالتعامل مع الأجانب ، وأصر على أن تكون معاملاته مع التجار الخارجين عن نقابة الهونج ، ومعنى ذلك فتح أبواب الصين للتجارة البريطانية دون قيد أو شرط ، كما طلب أن تكون اتصالاته رأساً مع نائب الملك فى كوانجسى .

ورفضت السلطات الصينية هذه المطالب التى بدت لها مهينة ، وامتنع نائب الإمبراطور عن مقابلة اللورد نابيير وكلف نقابة الهونج فى القيام بمهام سلطاتها ، ولكن اللورد نابيير رفض بدوره الامتثال للسلطات الصينية مما أدى إلى نشوب أزمة

عنيفة بين الجانبين .

واستشاط اللورد نابيير غضباً وهو الذى ما جاء إلا لتأديب الصين وتذكيرها بقوة بلاده التى لا تقهر ، وكان قد أرسل عدة خطابات إلى اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين يحرضه فيها على ضرب الصين وإرغامها على فتح أبوابها بتهديد السلاح ، فكيف به الآن يواجه تلك اللطمة المهينة لكرامته الوطنية والشخصية ؟

ولقد أخطأ اللورد نابيير فى اعتقاده أن الأمر لا يتطلب أكثر من إظهار القوة والحزم حتى ترتجف الصين وتخر على قدميها أمام مطالبه ، ولذلك فقد أمر السفن الحربية الإنجليزية التى تحت رئاسته بأن تتولى حراسة سفينته وهى تشق طريقها فى النهر بالقوة ، كما كلف بحارة بريطانيين مدججين بالسلاح بحراسة مبنى الوكالة الإنجليزية ، وراح يتصرف كما لو لم يكن هناك وجود بالمرة للسلطات الصينية ، والواقع أنه لم يكن يشك لحظة فى عدم جدية اعتراضات الصين وعدم قدرتها على اتخاذ أى إجراء ضد بريطانيا العظمى ، ولكن اعتقاده كان خاطئاً تماماً ، إذ ردت السلطات على تصرفاته بأخشن منها ، فأصدرت أوامرها بعدم التعامل مع الوكالة الإنجليزية ، ومنعت الموظفين

والخدم الصينيين من العمل فيها ، وحظرت على السكان المحليين بيع المواد الغذائية للإنجليز بأى ثمن ، وكذلك حظرت على التجار الأجانب التعامل معهم ، وأصبح الإنجليز فى كانتون مهددين بالموت جوعاً وعطشاً . وعندما رأى اللورد نابيير ذلك أسقط فى يده ، واضطر إلى مغادرة كانتون لائذاً بأصدقائه البرتغاليين فى ماكاو . . وهناك وبعد أسبوعين فقط مات من شدة الكمد !

ويبدو أن الإنجليز اعتبروا وفاة اللورد نابيير استشهاداً فى سبيل قضية كبرى رغم كل الأدلة على خطئه وصلفه وانتهاكه للسيادة الصينية ، وبدءوا يفكرون جدياً فى غزو الصين أو تأديبها على الأقل كى تصبح دولة مهذبة تفتح أبوابها على مصارعها أمام التجارة الحرة .

وأصبح كل ما يحتاج إليه الإنجليز لإعلان الحرب على الصين هو المبرر ، وأخيراً وجدوا المبرر فى اعتراض الصين على تجارة الأفيون .

٣ — التجارة المحرمة

كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه بريطانيا فى معاملاتها

التجارية مع الصين هى كيفية إيجاد وسيلة لموازنة الميزان التجارى بين الطرفين ، وقد نشأت هذه المشكلة نتيجة لعزوف الصين عن استيراد البضائع البريطانية فى الوقت الذى تزداد فيه صادراتها إلى بريطانيا باطراد ، فقد كانت الصين تصدر إلى بريطانيا كميات كبيرة من الشاى والحرير الطبيعى والراوند والخزف وسلعاً أخرى كثيرة ولا تستورد منها سوى أقل القليل ، ولذلك كان على الإنجليز أن يدفعوا بالفضة مقابل ما يشترونه من الصين ، وكانت الفضة هى قاعدة المبادلات الدولية فى ذلك الحين .

غير أن هذا الأمر لم يرض الإنجليز ، فقد كانت الفضة أثمن لديهم من الوفاء بالتزاماتهم الدولية ، وعليها يتوقف ثراؤها وقوتهم العالمية ، فكيف يدفعونها ببساطة إلى ذلك الشعب الأصفر الضعيف ؟ وللفضة مع الإنجليز تاريخ طويل أسود يبدأ منذ اكتشاف أمريكا الجنوبية وإنشاء المستعمرات الأسبانية هناك ، فقد كان الأسبان يسخرون الهنود الحمر فى استخراج ذلك المعدن النفيس من مناجمه البكر فى العالم الجديد ، ثم يشترون بهذه الفضة عبيداً تجلبهم المراكب الإنجليزية من شاطئ أفريقيا الغربى ، وهكذا كانت الفضة فى يد الرجل الأبيض

وسيلة لاستعباد جنسين : الهنود الحمر والأفريقيين ، وسال لعاب الإنجليز لتلك السبائك الثمينة التى يستخرجها الأسبان وتختزن فى داخلها قوة اقتصادية هائلة ، ومضوا فى حماسة يواصلون تجارتهم القذرة ، يصطادون البشر السود من الساحل الأفريقى ، وينقلونهم كالحيوانات فى رحلة الرعب عبر المحيط الهادر ليقذفوا بهم إلى العبودية على الساحل الأمريكى مقابل ذلك المعدن الصافى الذى يستخلصه الأسبان من عرق الهنود الحمر ، ثم لم يلبث أن استخدموا الفضة فى استعباد جنس ثالث هو الهنود ، إذ بدأ الإنجليز يتاجرون بالفضة مع الهند قبل غزوها ، وحين رسفت فى أغلال عبوديتهم استردوا منها جميع ما سبق أن أرسلوه إليها من ذلك المعدن النفيس ، ربما باستثناء ماطهم به المهراجات مقابض خناجرهم أو وشوا به سروج أفيالهم !

وبعد أن استعاد الإنجليز الفضة من أيدى الهنود بدءوا يستخدمونها فى استغلال شعب رابع هو شعب الصين ، ولما كان الميزان التجارى فى صالح الصين دائماً لندرة ما تستورده وكثرة ما تصدره لذلك أخذت الفضة تتدفق إلى أيدى أولئك الصفر ذوى العيون المشقوقة ، وبدأ تدفقها يثير حفيظة الإنجليز وجشعهم ، ويجعلهم يقدحون زناد قرائحهم لإيجاد وسيلة يستردون بها ذلك المعدن الثمين دون أن ينقطع فى نفس الوقت

ما يحصلون عليه من كنوز الصين . . وكانت المشكلة هى كيفية العثور على سلعة يقبل عليها المستهلكون الصينيون . .

وأخيراً وجد الإنجليز ضالتهم فى تلك السلعة السحرية . . الأفيون !

* * *

ويرجع « الفضل » فى هذا الاكتشاف إلى البرتغاليين فهم أول من أرسلوا شحنات الأفيون إلى الشعب الصينى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وبالرغم من أن السلطات الصينية حرمت استيراد وتعاطى الأفيون بمرسوم إمبراطورى فى عام ١٧٢٩ إلا أن هذا المرسوم لم يكن معمولا به فى الواقع ، وبدأ الشعب الصينى يعرف طريقه إلى هذا السم البطىء ، ثم وقع الإنجليز على هذا الاكتشاف وقدروا ما ينطوى عليه من فائدة اقتصادية كبرى . وفى عام ١٧٧٣ قرر وارين هاستينجز مدير شركة الهند الشرقية أن تحتكر الشركة زراعة الأفيون فى الهند ، ويصف سير ويلز ويليامز احتكار شركة الهند الشرقية لزراعة وتجارة الأفيون قائلا : « فى كل الأقاليم التابعة للشركة يطبق نظام الاحتكار الصارم لزراعة شجيرات الأفيون وإعداده ونقله وتجهيزه إلى أن يباع فى المزاد العلنى توطئة لتصديره ، وزراعة نبات الأفيون إجبارية ، إن مساحات شاسعة من أجود الأراضى فى بينارس وبيهار وكل مكان فى الأجزاء الشمالية والوسطى من الهند مغطاة

الآن بشجيرات الأفيون ، أما المزروعات الأخرى المستخدمة فى الأكل واللبس والتى كانت تنمو منذ أزمنة سحيقة فقد قضى عليها تماماً تقريباً » .

وفى عام ١٧٨١ أرسلت شركة الهند الشرقية أول شحنة كبيرة من الأفيون إلى الصين ؛ وكانت هذه التجارة المحرمة تتم تحت إشرف دقيق من الشركة الإنجليزية ولكن بطريقة ملتوية ، فقد كانت الشركة تبيع الأفيون بالمزاد العلنى فى كلكتا ثم تقوم السفن الريفية الساحلية التى يعمل عليها بحارة خصوصيون بترخيص من شركة الهند الشرقية بنقله إلى ساحل الصين ، ولما كانت محاولة بيع الأفيون فى كانتون تثير بعض المتاعب لأن تجار الهونج الذين يمثلون السلطات الصينية كانوا يحجمون عن شرائه تجنباً للمسئولية ، لذلك تحولت تجارة الأفيون إلى جزيرة صغيرة عند مصب نهر كانتون تسمى مرسى لنتن ، وهناك كان التجار الإنجليز يبيعونه إلى التجار الصينيين الخصوصيين لا تجار الهونج ، وكانوا يبيعون أيضاً فى مرسى لنتن كثيراً من البضائع الأخرى بعيداً عن إشراف الهونج ، أى أن جزءاً كبيراً من التجارة الرسمية تحول إلى عملية تهريب واسعة النطاق ، وسرعان ما بلغت هذه التجارة المهربة أضعاف التجارة

المشروعة . ففى عام ١٨٣١ بلغت قيمة التجارة الرسمية فى كانتون سبعة ملايين من الدولارات فى حين بلغت قيمة التجارة المهربة ١٧ مليوناً من الدولارات منها ١١ مليوناً ثمن الأفيون المباع فى مرسى لنتن ، وعندما ألغى احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الهند فى عام ١٨٣٤ واصلت السلطات البريطانية تهريب الأفيون إلى الصين بكميات وفيرة .

وبالرغم من أن الإمبراطور شبياشينج أصدر فى عام ١٨٠٠ مرسوماً بتحريم تجارة الأفيون وتعاطيه تحريماً مطلقاً نظراً لآثاره المدمرة على الصحة والاقتصاد، إلا أن هذا المرسوم ظل حبراً على ورق لأن مئات الألوف من الأهالى كانوا قد أصبحوا من مدمنى الأفيون ، كما أن عدداً كبيراً من التجار والمسئولين الذين أفسدتهم الأرباح الضخمة من وراء تجارة الأفيون أصبحوا يتحايلون على إلغاء آثار هذا المرسوم الإمبراطورى باستخدام النفوذ والرشوة .

وقفزت تجارة الأفيون بسرعة مذهلة ، فارتفعت نسبتها إلى التجارة البريطانية من ١٧٪ فى عام ١٨١٨ إلى ٥٠ ٪ فى عام ١٨٣٣ ، وكانت الواردات السنوية من الأفيون تبلغ ٢٠٠٠ جوال (الجوال يحتوى على ١٤٠ إلى ١٦٠ رطلا) عام ١٨٠٠ ؛ فقفزت إلى ٤٠ ألف جوال فى عام ١٨٣٨

وواصلت ارتفاعها المطرد بعد ذلك .

ودخل الأمريكيون شركاء للإنجليز فى التجارة المحرمة ، فكانت السفن الأمريكية تنقل الأفيون التركى من ميناء سامرا إلى الهند ، وهناك يتكفل التجار الإنجليز بتوصيله إلى الصين عن طريق سفنهم ومهربيهم نظير عمولة على الأرباح .

* * *

عندما يصل الأفيون إلى تجار الجملة فى الصين يقومون بتجهيزه وتوزيعه على صغار التجار والموزعين ، وعملية التجهيز معقدة بعض الشىء إذ تمر على عدة مراحل متعاقبة ، فهو ينقع أولا فى الماء مدة كافية ثم يغلى ويبخر ويضرب حتى يكتسب لوناً غامقاً ، وبعد ذلك يجفف فى شكل قوالب تقسم إلى أجزاء صغيرة تغلف وتصبح جاهزة للاستعمال .

وكان يطلق على هذا المستحضر اسم الشاندو ويحتوى على نسبة ٨ ٪ من المورفين ، وهناك مستحضر آخر أرخص منه ويحتوى على نسبة أقل من المورفين .

أما الطريقة التى كانوا يتناولون بها الأفيون فى الصين والأرخبيل الهندى فهى التدخين . . يضطجع المدخن على جانبه ، ويتناول قضيباً طويلاً مجوفاً من المعدن الرفيع ويضع على طرفه المدبب المثقوب مقدار قمحة من الأفيون يشويها



على لهب سراج حتى تتوهج ثم يسحب منها ثلاثة أو أربعة أنفاس طوال ، ويستهلك المدخن المعتدل خمسا أو ست قمحات من الأفيون فى اليوم .

والأثر الأول لتدخين الأفيون محبب للغاية . فهو يجعل المدخن قادراً على تحمل التعب الشديد والصبر على الجوع مدة طويلة دون أن يبدو عليه أثر للإرهاق ، وهو يطلق العنان للخيال ، ويجعل الذهن فى صحوة دائمة ، حتى إن بعض المصانع التى أقامها الاستعمار البريطانى فى الهند كانت تشجع العمال على تعاطى الأفيون لأنه يضاعف قدرتهم على الإنتاج رغم ما يبدو عليهم من أعراض الهزال .

ولكن سرعان ما يتحول تدخين الأفيون إلى إدمان يتعذر التخلص منه ، وهنا تتوقف آثاره المحببة عن الظهور وتبدأ آثاره المدمرة تفصح عن نفسها . ولا يستطيع المدخن عندئذ أن يقلع عن عادته وإلا أصبح مهدداً بأعراض الجنون ، وعندما يصل المدخن إلى هذه المرحلة من الإدمان يفقد شهيته إلى الطعام ، ويركن إلى الكسل والإهمال ، ويبدأ الاضمحلال بدنيًّا وعقليًّا حتى يصبح هيكلا عظميًّا بليداً عديم النفع ، وأحياناً يصحب ذلك — لا سيما لدى الذين يأكلون الأفيون — آثار مرضية خطيرة كالحمى والدوسنتاريا والإسهال والروماتيزم

والزيف وداء الفيل ، وينتهى الأمر بمثل هذا المريض إلى الدمار والموت الأكيد .

وكانت عادة تدخين الأفيون تنتشر بين أبناء الشعب الصينى بسرعة رهيبة كأنها ألسنة من اللهب تلتهم أعواداً جافة ، فلا يكاد يسلم منها أى شخص مهما كانت طبقته الاجتماعية أو مستواه الثقافى ، فقد أقبل على تدخين الأفيون الأثرياء والفقراء ، الإقطاعيون والفلاحون ، المثقفون والتجار والعمال ، القضاة والمجرمون ، كبار الموظفين وحثالة القوم ، ضباط الجيش وجنوده ، وحتى النساء والأطفال . . جميعهم يدخنون الأفيون بنفس الطريقة . . يضطجعون على جنوبهم وبين أيديهم القضبان المعدنية الطويلة المجوفة يقربونها إلى اللهب و يشدون منها الأنفاس الزرقاء السامة .

وطبقاً لتقرير وضع عام ١٨٣٥ كان هناك مليونان من مدمنى الأفيون فى الصين ، وفى أواخر القرن قدر أن ٢٧ ٪ من أفراد الشعب الصينى البالغين يتعاطون الأفيون ، ومعنى ذلك أن حوالى ربع الشعب الصينى الذى بلغ تعداده إذ ذاك أربعمائة مليون كانوا معتلى الأبدان والنفوس .

ولم يفتك الأفيون بصحة الناس فحسب وإنما فتك أيضاً بالاقتصاد الصينى وأخذ يدمره تدميراً مما ترتب عليه انتشار

الأوبئة والمجاعات والبؤس والفقر فى قطاعات كبيرة من الشعب ولا سيما بين الفلاحين ، وأصبحت جميع صادرات الصين التى تبلغ أرقاماً خيالية غير كافية لسداد ثمن الأفيون الذى تجلبه المراكب الإنجليزية والأجنبية ونتيجة لذلك اضطر الصينيون إلى دفع ثمن الأفيون بالفضة التى سبق أن باعوا بها منتجاتهم إلى الأجانب خلال القرون السابقة ، وبدأت الفضة تتدفق إلى خارج الصين كالسيل العارم جنباً إلى جنب مع كل البضائع والتحف الصينية التى أصبحت فى الواقع بلا ثمن على الإطلاق . فى خلال ثلاثينات القرن الثامن عشر كانت الصين تدفع ما يتراوح بين ٢٠ مليوناً و ٣٠ مليون تايل (أوقية صينية) من الفضة كل عام ثمناً للأفيون المهرب إليها والذى يفتك بصحة أبنائها ومعنوياتهم ، وهكذا حقق الإنجليز والأجانب بصفة عامة الهدفين اللذين يسعون إليهما : استرداد الفضة من الصينيين ، والاستيلاء على تجارتهم بلا مقابل !

وهكذا أصبحت الصين مهددة بالإفلاس كمتجر صغير يفقد رأس ماله ، فإن خروج الفضة وهى غطاء كل المعاملات ترتب عليه ارتفاع ثمنها ارتفاعاً كبيراً فى الداخل ، وسقط العبء بالطبع على كاهل الفلاحين لأن أثمان الغلال التى ينتجونها ويبيعونها بالعملات النحاسية هبطت بنسبة ارتفاع

الفضة إلى النحاس ، وزاد من سوء الحال أن الإقطاعيين وجباة الضرائب عملوا على تحصيل قدر أكبر من المحاصيل والضرائب حتى يظل رصيدهم من الفضة ثابتاً رغم ارتفاعها ، وأدى ذلك إلى مضاعفة أعباء النظام الإقطاعى الذى يخنق الأنفاس ، فبدأت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة من ثورات الفلاحين ، وأصبحت حركات التمرد والثورة ضد حكومة المانشو شائعة وواسعة النطاق ، وفى عام ١٨١٣ تمكنت مجموعة من الثوار من اقتحام القصر الإمبراطورى فى بكين وكادوا يفتكون بمن فيه لولا أن تمكن الحراس من طردهم .

كانت الصين عندئذ أشبه بسفينة تشتعل فيها النيران ، وكانت حبلى بالثورة التى تجهضها كل يوم أعمال التمرد الفاشلة ، وضج الرأى العام فى أنحاء البلاد يطالب بالقضاء على الأفيون ، وبدأت حكومة المانشو تشعر بالخطر الذى يتهدد البلاد ويتهددها شخصياً ، فإن الوطن برمته أصبح يتهاوى كالحجر المندفع إلى سفح الجبل وسوف يدق عنقها كأول ما يدق من أعناق ، وبدأت السلطات تفكر فى استئصال شأفة الأفيون ، ولكن الرأى فى الدوائر الحاكمة انقسم إلى قطاعين : قطاع يمثله لين تسى هسو نائب الملك فى هونان وهو بيه يطالب بالقضاء على هذا الخطر الوبيل ، وقطاع آخر أقوى نفوذاً

يستفيد من تجارة الأفيون ويعمل كل ما فى وسعه لاستمرارها ولكنه لا يجرؤ على الدفاع عنها صراحة .

وأخيراً انتصر الرأى الأول تحت ضغط الرأى العام والخوف من الآثار المالية والسياسية لتجارة الأفيون . فأصدر الإمبراطور تاو كوانج مرسوماً قوياً بتحريم تجارة الأفيون تحريماً مطلقاً وتوعد كل من له علاقة بهذه التجارة بأشد ألوان العقاب ، وأمر الإمبراطور بتعيين لين تسى هسو الوطنى الكبير مندوباً إمبراطورياً سامياً وأرسله إلى كانتون مزوداً بسلطات واسعة ليضع مرسوم التحريم موضع التنفيذ .

* * *

كان لين تسى هسو رجلا وطنياً مخلصاً موفور الأمانة والشرف محباً للخير والاستقامة ، ذهب إلى كانتون فى ربيع ١٨٣٩ عاقداً العزم على استئصال شأفة تجارة الأفيون بكل حزم وصرامة متسلحاً بأخلاقياته التى تستعصى على الرشوة والفساد ، وسلطاته المطلقة التى تجعله فوق جميع المسئولين بما فيهم نائب الملك فى كوانجستين ، ويقال إن نائب الملك هذا قد أغمى عليه عندما سمع نبأ تعيين لين تسى هسو ممثلا للإمبراطور فى كانتون.

وبدأ لين تسى هسو نشاطه فى كانتون بتشجيع التجارة المشروعة ، وتضييق الخناق على تجارة التهريب والمخدرات ،

ولكنه كان مخطئاً فى اعتقاده أن حكومة لندن ليس لها شأن بهذه التجارة المحرمة وإنما هى من فعل المهربين الذين لا خلاق لهم والقراصنة الخارجين على القانون ، كان لا يستطيع أن يتصور من الناحية الفلسفية — وهو الذى يدين بنظرية كونفوشيوس فى أخلاقيات الدولة — أن تقدم حكومة ما على مثل هذا العمل اللا أخلاقى الشرير ، ما بالك وأن هذه الحكومة هى حكومة بريطانيا الثرية المتنورة ، ولذلك فقد حاول لين تسى هسو فى أول الأمر أن يكسب عطف المسئولين فى بريطانيا ويستعديهم على تجارة الأفيون ، وحينما أعاره المسئولون أذناً صماء توجه بنداءاته إلى الملكة فيكتوريا رأساً فبعث إليها بعدة رسائل تفيض بالرجاء والتقدير يلفت فيها أنظار جلالتها إلى تلك الجريمة التى يرتكبها المهربون الإنجليز فى حق الشعب الصينى المسالم على غير علم منها ، فنجده يقول فى إحدى هذه الرسائل : « لقد فكرنا فى الأمر فتبين لنا أن هذه المادة الضارة يصنعها غدراً مدبرون للشر مكرة تحت سيادة شعبكم الشريف ، ولا مراء عندى أنكم وأنتم ذوو الرئاسة الشريفة لم تأمروا بزراعة هذه المادة وبيعها » ثم يضيف قائلا : « إن بريطانيا نفسها لا يسمح للناس فيها بتدخين ذلك المخدر ، فإذا سلمنا أنه على مثل هذه الدرجة من الضرر الوبيل ، فكيف تقدمون على الاستفادة بتعريض

الغير لتأثيره المؤذى ، وترون ذلك متفقاً مع ما تأمر به السماوات ؟»

ولكن للأسف ذهبت نداءات لين تسى هسو أدراج الرياح ، فقد كانت الحكومة البريطانية فى لندن على علم تام بتجارة الأفيون التى تمارسها سلطاتها وتجارها فى الصين ، بل كانت تشجعها نظراً لما تدره من أرباح طائلة على الخزانة البريطانية ، وذلك رغم تحريم القانون الإنجليزى للأفيون تحريماً مطلقاً ، وحدث أن ناقش البرلمان الإنجليزى بمجلسيه تجارة الأفيون فى الهند والصين مناقشة تفصيلية عن طريق لجان خاصة وتقارير وافية ، وانتهى المجلسان الموقران إلى قرار بأن البرلمان البريطانى «لا يرى من المصلحة التخلى عن مصدر للإيراد له مثل هذه الأهمية القصوى» ، وهكذا كانت تجارة الأفيون المنافية لقواعد القانون والأخلاق تقرها أعلى السلطات فى لندن وتشجع على استمرارها .

وعندما وجد لين تسى هسو أن توسلاته لا تجدى توقف عن المناشدة والرجاء وقرر القيام بعمل إيجابى ، فأمر التجار الأجانب بتسليم ما لديهم من صناديق الأفيون والتوقيع على تعهدات بعدم إحضاره أو بيعه فى الصين وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة ، بل الإعدام فى حالة العود .

ورفض الكابتن شارلس إليوت المشرف البريطانى على التجارة فى كانتون الصدوع للأمر ، فأوعز إلى التجار البريطانيين

بعدم تسليم ما لديهم من المخدرات وعدم التوقيع على التعهدات .

ولم يسكت لين تسى هسو بل قام متشجعاً بسلطاته المطلقة وتأييد الشعب له بمحاصرة حى التجار الأجانب فى كانتون ، وقطع عنهم موارد الماء والخضر ، ومنع دخول سفنهم أو خروجها من الميناء، وأمر جميع العمال الصينيين العاملين لديهم بترك أعمالهم.

وبعد حصار استمر ثلاثة أيام على هذا النحو اضطر الكابتن تشارلس إليوت إلى تسليم أكثر من ٢٠ ألف صندوق تضم حوالى مليون كيلوجرام من مادة الأفيون ، ومنها أكثر من ألف صندوق يملكها تجار أمريكيون ، إلى لين تسى هسو ، وكتب التجار الأجانب تعهدات على أنفسهم بعدم العودة إلى الاتجار فى هذه المادة مرة أخرى .

وفى ٣ يونيو ١٨٣٩ أقام لين تسى هسو احتفالا عامًّا حضره جمع غفير من الأهالى والجند وقام بإشعال النار فى الأفيون المستولى عليه ، وارتفعت ألسنة اللهب الأزرق من جبل الأفيون تشق عنان السماء ، ولاشك أن مدمنى الكيف من أهل كانتون قد « نعموا » فى ذلك اليوم بأوفر مزاج فى حياتهم ، ولكن هذا العمل الحاسم استطاع أن ينقذ الملايين من أهالى الصين لفترة قادمة .

وجن جنون التجار الأجانب وخاصة الإنجليز الذين فقدوا بضربة واحدة الشطر الأكبر من رءوس أموالهم ، وقرروا أن يلقنوا لين تسى هسو وشعب الصين درساً لا ينسى .

وحاولت شركة « جارداين وماثيسون » البريطانية تنفيذ خطة جديدة لتهريب الأفيون من مانيلا بالفلبين إلى ساحل الصين الجنوبى بوساطة سفن مسلحة مستعدة لإطلاق النار على من يعترض طريقها ، ولكن لين تسى هسو فطن إلى الخطة فوضع عروقاً خشبية فى الشواطئ وسلاسل حديدية فى مدخل نهر بيرل ، وأقام قلاعاً جديدة على طول الطريق ونصب ٣٠٠ مدفع على شواطئ النهر استعداداً لمواجهة أى غزو بريطانى ، وكان لين تسى هسو يتمتع أيضاً بلقب أمير البحر وتحت إمرته أسطول صينى مسلح .

ومضى الإنجليز والأجانب من جانبهم فى الاستعداد لتأديب الصين وإرغامها على فتح أبوابها أمام تجارة الأفيون ، فقد آن الآوان لإذلال هذه الإمبراطورية الجوفاء وجعلها تتخلى عن شموخها الكاذب وتجثو على قدميها أمام مصالح الأجانب .

وبعد عدة أسابيع من القلق والتوتر انطلقت الشرارة التى أشعلت نيران الحرب .

٤ ـ حرب الأفيون الأولى

ذات يوم اعتدت مجموعة من البحارة الإنجليز السكارى على بعض الأهالى فى ميناء كانتون ، وسقط أحد الصينيين قتيلا فى المشاجرة . .

وكان من الممكن أن يمر هذا الحادث ببساطة كجريمة فردية لولا أن الصينيين والإنجليز على السواء تشددوا فى موقفهم وكأنهم ينتهزون الفرصة لتسوية الحساب القديم .

فقد أدى الحادث إلى إثارة أهالى كانتون الذين يضيقون أبلغ الضيق بتصرفات الأجانب واستهانتهم بالنظام والأخلاق ، والذين كانوا فى نفس الوقت سكارى بنشوة النصر يوم حرق الأفيون حين اضطر الأجانب صاغرين إلى الامتثال لأوامر السلطات وكتبوا على أنفسهم تعهدات بعدم مخالفة القوانين الصينية ، ولذلك عرف أهالى كانتون أن الحزم خير وسيلة يجب اتباعها إزاء هؤلاء الأجانب ، وعزموا على أن لا يضيع دم القتيل الصينى هدراً .

وطلب لين تسى هسو من شارلس إليوت المشرف على

التجارة البريطانية تسليمه الجناة لمعاقبتهم طبقاً للقانون ، ولكن إليوت رفض الطلب ، ولم يكن لين تسى هسو بالشخص الذى يسمح بمثل هذا الانتهاك الصارخ لقوانين البلاد . فأصدر على الفور أمراً قاطعاً للسفن الإنجليزية الراسية فى ميناء كانتون بتسليم المسئولين عن الحادث أو مغادرة مياه الصين خلال ثلاثة أيام ، وإلا فإنه سوف يضطر إلى استخدام القوة ، وأمر بالفعل السفن الصينية المسلحة التى تحت إمرته بالتحرك لمحاصرة سفن الإنجليز .

وهنا وجد الإنجليز ضالتهم المنشودة فسارعوا بإرسال فرقاطتين حربيتين هما « الفولاج » و « الهياسنت » إلى ميناء كانتون ، ولم تضع الفرقاطتان وقتاً فأطلقتا نيرانهما فوراً على السفن الصينية وأغرقتا عدداً منها ، وهكذا بدأت حرب الأفيون الأولى .

أعلنت بريطانيا الحرب على الصين فى أبريل ١٨٤٠ ولكنها لم تجرؤ بالطبع على التصريح بأن سبب الحرب هو تحريم الصين لتجارة الأفيون المربحة بل زعمت بصفة عامة أن سبب إعلان القتال ، وقوف الصين فى وجه التجارة الحرة ، وسوء معاملتها للتجار والرعايا الإنجليز ، ولم تنس أن تطالب بتعويض

عن الأفيون المصادر ، لا باعتباره مادة مخدرة ، وإنما باعتباره سلعة تجارية أولا وأخيراً .

وسارت الحرب بين الإنجليز والصينيين فى مد وجزر ، غير أن تفوق الأسلحة والتكتيك فى الجانب الإنجليزى كان غالباً ما يرجح شجاعة الجانب الآخر وتضحياته . .

وصل الأسطول البريطانى بقيادة جورج إليوت إلى بحر الصين الجنوبى فى مواجهة كانتون فى شهر يونيو ١٨٤٠ ، ولكنه إذ وجد ميناء كانتون محصناً تحصيناً قوياً اتجه شمالا إلى آموى بإقليم فوكين ، ودارت معركة صغيرة هزم فيها الإنجليز ، فواصلوا إبحارهم شمالا إلى تنيجهاى بخليج كوشان ، ورغم المقاومة البطولية التى أبداها المدافعون عن تينجهاى من عسكريين ومدنيين سقط الميناء فى أيدى الإنجليز نظراً لعدم وجود تحصينات كافية فيه .

وما إن وصلت أنباء سقوط تينجهاى إلى بكين حتى انزعجت حكومة المانشو وأسقط فى يدها وبدأت تسعى للصلح ، وكان أول إجراء اتخذته تحقيقاً لهذه الغاية أن قامت بعزل القائد الوطنى العظيم لين تسى هسو من جميع مناصبه ، وتقديمه إلى المحاكمة والعقاب بحجة أن أفعاله الرعناء هى التى تسببت فى هذه الكوارث !

كان ذلك انتصاراً للدوائر المستفيدة من تجارة الأفيون والتهريب ، وهى دوائر قوية النفوذ فى بلاط المانشو وتتمتع برعاية الإمبراطور تاو كوانج نفسه ، واختارت تلك الدوائر شخصية خائنة مهادنة أوفدتها إلى كانتون خلفاً للين تسى هسو مزودة بصلاحيات التفاوض مع الإنجليز هو شى شان .

وعندما وصل شى شان إلى كانتون أمر فوراً بإزالة الأخشاب والسلاسل والمتاريس التى وضعها لين تسى هسو فى مدخل نهر بيرل ، وحل فرق المقاومة الشعبية ، ونزع المدافع من القلاع ، إظهاراً لحسن نية الصين !

ولكن الإنجليز استغلوا الموقف لإظهار قوتهم وإرغام الصين على الركوع فقصفوا بقنابلهم قلاع يوجو خارج كانتون ، واحتلوها ، وطلبوا تسليمهم مناطق أخرى ودفع غرامة كبيرة ، وسارع شى شان بإرسال أحد مفاوضيه إلى شوينبى بالقرب من يوجو ، وهناك وقعت اتفاقية «شوينبى» التى نصت على تسليم هونج كونج إلى الإنجليز ، ودفع غرامة قدرها ستة ملايين ريال من الفضة ، وفتح كانتون للتجارة البريطانية .

وعندما وصلت أنباء اتفاقية شوينبى إلى بكين اهتاج الإمبراطور تاو كوانج ووجدها ماسة بكرامة الإمبراطورية ، بما فعله بلين تسى هسو كرره مع شى شان تحت ضغط

الدوائر التي تدعو إلى عدم مهادنة الإنجليز ، فأمر بعزله ومحاكمته وتعيين يي شان خلفاً له ، ويقال إنه عندما صودرت أموال الخائن شي شان وجد أنها تضم ١١ ألف أوقية من الذهب و ١٧ مليون أوقية من الفضة ، وعدداً كبيراً من الصناديق الملآى بالمجوهرات الثمينة و ٤٢٧ ألف أكر من أجود الأراضى !

ولما علم البريطانيون بنوايا حكومة شينج عاودوا الهجوم على قلاع ـ وجو بعد أن كانوا قد انسحبوا منها ، وقاوم القائد الصينى كوان تيان بى وقواته مقاومة باسلة حتى آخر رجل ضد الغزاة ، ولكن قلاع يوجو سقطت أخيراً فى أيدى الإنجليز ، وفى مايو ١٨٤١ اضطر يى شان إلى رفع العلم الأبيض على أسوار كانتون ، وتوقفت الحرب مؤقتاً .

غير أن شعب كانتون قرر المقاومة إلى النهاية ، وتقدمت القوات البريطانية إلى ضواحى كانتون وهى ترتكب أبشع ألوان المخازى والجرائم ، فهى تحرق القرى ، وتنهب المنازل ، وتغتصب النساء ، وتذبح الشيوخ والأطفال ، وهب أهالى كانتون للدفاع عن مدينتهم وانضم إليهم عشرات الألوف من سكان القرى المجاورة ، واندفعوا مسلحين بالفئوس والسهام والهراوات والمجارف إلى سانيوانلى حيث وصلت القوات البريطانية فحاصروها ،

وكان الرجال يحاربون بأسلحتهم البدائية بينما النساء والأطفال يحملون إليهم الطعام والماء ، وساعدتهم الطبيعة فهطلت أمطار غزيرة أربكت الإنجليز ، وجعلتهم يخوضون فى حقول من الطين ، ودب فيهم الذعر بعد أن حوصروا كالفئران فى المستنقعات ، وفر قائدهم جورج إليوت ، وسقط منهم مئات القتلى والجرحى ، وكاد الأمر ينتهى بإبادة الحملة البريطانية عن بكرة أبيها ، لولا أن أرسل لى شان رجاله إلى سانيوانلى بأوامر من بكين فأقنعوا الفلاحين بفك الحصار والعودة إلى قراهم زاعمين لهم أن الحرب قد انتهت والإنجليز قد استسلموا .

ولم تكتف حكومة المانشو بذلك ظناً منها أن الحرب قد انتهت بالفعل فأمرت حراس الشواطئ بالتفرق ، ولكن الإنجليز استغلوا الفرصة كعادتهم واستجمعوا قواهم وقاموا بغزو ساحل الصين للمرة الثانية فى أغسطس ١٨٤١ .

والواقع أن حكومة المانشو لم تثبت على سياسة الحرب أو الاستسلام فكانت تتذبذب بين هذه وتلك تبعاً للظروف ولغلبة إحدى القوى على الأخرى فى السياسة الداخلية ، فهى اليوم تنفخ أبواق الحرب وغداً تلوح برايات السلام ، وكان حكام الأقاليم المختلفة يتصرفون بصفة مستقلة وبدون خطة مركزية



مدروسة . فبينما نجد أحد الأقاليم مشتركاً فى قتال الإنجليز نجد إقليماً آخر يناوضهم على الصلح ، وكان على الشعب فى كل الحالات أن يدفع أموالا باهظة سواء كنفقات للحرب ، أو غرامات للصلح . أو كفدية للإنجليز حتى لا يحتلوا مدنهم ويدمروها تدميراً .

وفى هذه الأثناء وصلت تعزيزات بريطانية جديدة بعد أن رفضت حكومة لندن أيضاً اتفاقية شوينبى باعتبارها غير كافية ، وقامت القوات البريطانية بهجوم مفاجئ مركز فى نقط مختلفة على شاطئ الصين فاحتلت آموى وتينجهاى ونينجبو وكانتون وشنجهاى ، وتغلغلت داخل الأراضى الصينية لتقطع القناة الإمبراطورية الكبرى شريان الملاحة الرئيسى بين الشمال والجنوب ، وكان المدافعون يحاربون بشجاعة فائقة ولكن تخلف بلادهم الحضارى كان يتربص بهم فتوالت عليهم الهزائم والاندحارات ، ورفض مئات من المحاربين الصينيين الهزيمة أو التسليم فكانوا ينتحرون بعد أن يقتلوا أفراد أسراتهم بأيديهم .

ومضت القوات البريطانية فى تقدمها فاحتلت شينكيانج ، وعندما بدأت تهدد نانكينج وهى المدخل المباشر لبكين قررت حكومة المانشو وضع حد نهائى للقتال الذى استمر عامين

وبقبول جميع الشروط التى يمليها الإنجليز .

وفى ٢٩ أغسطس ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكينج على ظهر إحدى السفن الإنجليزية الراسية بالقرب من نانكينج . وبذلك تورطت الصين فى أولى المعاهدات غير المتكافئة التى أوقعتها تحت رحمة الرأسمالية الأجنبية والاستعمار العالمى ، وكان من نتائجها القضاء على سيادة حكومة المانشو من جانب ، وثورة الشعب ضد النظام الإقطاعى من جانب آخر .

* * *

تعد معاهدة نانكينج من أكبر الأمثلة الصارخة التى عرفها القانون الدولى فى باب المعاهدات غير المتكافئة ، وهى أقرب إلى كونها معاهدة تسليم بلا قيد أو شرط منها إلى معاهدة بين دولتين ذاتى سيادة قامت بينهما حرب محدودة ، ومن الأحكام التى نصت عليها معاهدة نانكينج والبروتوكولات الملحقة بها والتى وقعت فى العام التالى ما يلى :

- فرض غرامة مالية على الصين مقدارها ٢١ مليون دولار كتعويض عن الأفيون الذى صادره وأحرقه لين تسى هسو .
- تنازل الصين عن ميناء هونج كونج ليكون مستعمرة بريطانية . وقد اتخذت هذه المستعمرة منذ اليوم الأول كقاعدة للتغلغل

العسكرى والسياسى والاقتصادى فى الصين .

* فتح خمسة موانئ كبرى للتجارة البريطانية الحرة وهى كانتون وفوشاو وأموى ونينجبو وشنجهاى .
* إعفاء الرعايا الإنجليز من الخضوع للقانون الصينى جنائياً ومدنياً .
* تمتع بريطانيا بشرط « الدولة الأكثر رعاية » فى معاملاتها التجارية مع الصين مما يتيح لها الحصول على كافةالمزايا التى تمنحها الصين لأية دولة أخرى .
* تعهد الصين بعدم اقتضاء رسوم جمركية على الواردات البريطانية تزيد على نسبة ٥ ٪ من قيمة هذه الواردات مما صادر إمكانيات نمو الصناعة الوطنية فى الصين وحرمها من الحماية .

ولم يقتصر الأمر على بريطانيا وحدها بل كانت الدول الغربية الأخرى تنتظر فى لهفة نتائج الحرب الصينية الإنجليزية ، وبمجرد انتهاء الحرب وتوقيع معاهدة نانكينج التى مرغت هامة الصين فى الرغام بدأت تلك الدول تتحرك للحصول على نصيب من الغنيمة فى حرب لم تشترك فيها ، وكانت أسبقها الولايات المتحدة التى أوفدت إلى ماكاو مبعوثاً خاصاً هو « كالب كوشينج » الذى قام باتصالات مع السلطات الصينية طالباً

منح الولايات المتحدة تنازلات مماثلة للامتيازات التى حصلت عليها بريطانيا ، وإلا فإن الولايات المتحدة من حقها أن تعتبر رفض الصين بمثابة إهانة وطنية لا يمكن أن تسكت عليها .

وأرسل المبعوث الأمريكى مذكرة عنيفة اللهجة إلى « شنج يوتساى » القائم بأعمال نائب الملك فى كوانجتونج وكوانجسى أوضح فيها أن رفض الصين للمطالب الأمريكية يعد بمثابة دعوة للحرب ، وفزعت حكومة المانشو التى خرجت لتوها من معركة إثبات القوة مع الغرب ، وسارعت بالدخول فى مفاوضات مع كوشينج انتهت بتوقيع معاهدة وانجهيا فى يوليو عام ١٨٤٤ فى قرية بهذا الاسم بالقرب من ماكاو ، وكانت هذه المعاهدة نسخة منقحة من معاهدة نانكينج إذ نصت على كل أحكامها تقريباً بالإضافة إلى مزايا أخرى خاصة بالإعفاءات القضائية ، والمعاملة الجمركية ، والملاحة فى الأنهار الداخلية .

وتقدمت فرنسا طالبة توقيع معاهدة مماثلة حتى لا يمس الشرف الوطنى الفرنسى (١) ، وحصلت على بغيتها بتوقيع معاهدة وامبوا فى أكتوبر ١٨٤٤ والتى نصت على كافة المزايا السابقة بالإضافة إلى الاعتراف بحق فرنسا فى نشر الكاثوليكية فى الصين بما فى ذلك الحق فى إقامة الكاتدرائيات والأديرة وحماية

الذين يعتنقون الدين المسيحى من الصينيين . ومعنى ذلك حماية أى خائن أو مجرم يقدم على اعتناق المسيحية هرباً من العقاب، وأرغمت حكومة المانشو على الاعتراف بشرعية الديانتين الكاثوليكية والبروتستنتية فى الصين .

وبالرغم من أن النشاط التبشيرى كان ضعيفاً فى الصين فى ذلك الحين ، فلا يقاس مثلا بما كان عليه فى أفريقيا ، إلا أن ذلك لم يمنع المبشرين الغربيين منذ البداية من القيام بدورهم المعروف فى خدمة الإستعمار ، فقد كان المبشرون الأجانب هم الوحيدين الذين يعرفون اللغة الصينية وعادات الصين، ووضعوا علمهم وإمكانياتهم فى خدمة الاستعماريين العسكريين والسياسيين الذين دبروا ونفذوا حروب الأفيون ، فكانوا يقومون بدور الوسطاء والمستشارين للتدخل الأجنبي لدى السلطات الصينية ، فمثلا كان المبشر البروسى دكتور جوتزلاف وسيطاً لشركة جارداين البريطانية التى تتاجر فى الأفيون ، وكان يتقاضى على وساطته عمولة مالية للإنفاق على مجلته الدينية التى ينشر بها الدعوة المسيحية فى بلاد الصين ، وعندما قامت حرب الأفيون عمل دكتور جوتزلاف مترجماً للقوات البريطانية حتى توقيع معاهدة نانكينج واشترك فى المفاوضات الخاصة بالمعاهدة .

وكذلك قام المبشرون الأمريكيون ويليامز وبريدجمان وباركر بنفس الدور فى توقيع معاهدة وانجهيا الأمريكية ، وكان المبشر باركر الذى أصبح فيما بعد وزيراً أمريكياً مفوضاً لدى الصين هو الذى نصح الدبلوماسى الأمريكى كاليب كوشينج باتخاذ موقفه المتشدد، وقام بنقل تهديداته بالصينية إلى المسئولين فى حكومة المانشو .

وهكذا بدأ انهيار سور الصين العظيم أمام البرابرة الجدد . . أولئك البرابرة الذين لم تقذفهم صحارى آسيا القاحلة وإنما جاءوا من بلاد بعيدة تفخر بأنها الأكثر نوراً وتقدماً ، ومنذ اللحظة التى أفلتت فيها قدم حكام المانشو فى أول اتفاق غير متكافئ مع هؤلاء البرابرة بدأ الميزان يختل على طول الخط ويزداد اختلالا كل يوم ، فقد أصبحت الصين نهباً يتناوشها الأجانب ، وتكررت معها قصة القرد وقطعة الجبن !

إذ لم ترض أية دولة أجنبية بما منحت ، وإنما تقدمت تطلب المزيد بمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية ، فالإنجليز يطالبون بالتنازلات التى منحتها الصين للأمريكيين بمقتضى معاهدة وانجهيا ولم ترد فى معاهدة نانكينج ، والفرنسيون يطالبون بالامتيازات التى نصت عليها معاهدة نانكينج ولم ترد فى معاهدة

وامبوا ، والواقع أن شرط الدولة الأكثر رعاية الذى ورد فى بروتوكول بوجو (١٨٤٣) وهو أحد البروتوكولات المكملة لمعاهدة نانكينج كان نصه كالآتى : «إذا منح الإمبراطور فيما بعد ولأى سبب كان أية امتيازات أو حصانات إضافية لرعايا أو مواطنى أية دولة أجنبية أخرى فإن نفس هذه الامتيازات أو الحصانات سوف تمتد ويتمتع بها الرعايا البريطانيون» .

وكان المفاوضون الصينيون الذين وافقوا على هذا الشرط يعتقدون أنه سوف ينقذ الصين من الدخول فى خصومات مع الدول الأجنبية فى المستقبل ، ولم يطف بخلدهم أنه سيكون بمثابة ثقب دائم يستنزف بصفة مستمرة سيادة الصين واستقلالها ، وسوف ترغم بمقتضاه إمبراطورية السماء على تقديم سلسلة لا نهاية لها من التنازلات تشكل الأساس الصلد للوجود الاستعمارى فى المستقبل .

ولم تكتف الدول الاستعمارية مجتمعة بما حصلت عليه من امتيازات ، وإنما أخذت تزاول كل ما تستطيع من ألوان الضغط للحصول على مزيد من التنازلات والتسهيلات التى لم ترد فى أية معاهدة . فلم تكن كل هذه المعاهدات مثلا تنص على حق الأجانب فى استيطان أراض صينية ، ولكن بريطانيا والولايات

المتحدة وفرنسا طلبت من المسئولين المحليين فى شنجهاى حق إقامة مستقرات،أجنبية فى مناطق معينة حول شنجهاى وفى داخلها وحصلت على ما تريد .

ومن الطريف أن حكومة المانشو التى تقدمت بكل هذه التنازلات إلى الأجانب لم يكن يعنيها سوى شيء واحد هو الامتناع عن إنشاء علاقات دبلوماسية مع الدول الأجنبية ورفض استقبال ممثلين دبلوماسيين فى بكين ، وكانت تعتقد أنها بذلك تثبت على تقاليدها المتعالية إزاء الأجانب وتنقذ ماء وجهها أمام الشعب ، لأن قبول السفراء الأجانب فى بكين معناه إشعار الناس بأن العرش الإمبراطورى العظيم قد خضع تماماً للدول الأجنبية ، ومن الناحية التاريخية ظلت الدول الأجنبية عدة قرون تحاول عبثاً إرسال سفرائها إلى بكين ، وفى المرات القليلة التى كان يسمح فيها لبعثات أجنبية بالدخول إلى العاصمة الإمبراطورية كان عليها أن تتصرف كبعثات تحمل الجزية إلى أعتاب الإمبراطور ، فكيف ترضى الحكومة الآن بما رفضته طيلة القرون الماضية ؟ أليس فى ذلك قضاء على هيبة إمبراطورية السماء أمام الأجانب ورعاياها على السواء !

لقد أصبحت حكومة المانشو تتمسك بالماضى وتفرط فى الحاضر والمستقبل ، وتلك سمة انهيار الدول .

٥ ـ كفاح الشعب

لم يضع الشعب السلاح حين وضعته حكومة المانشو . .

وكان الشعب الصينى قد فقد تماماً الثقة فى حكومته منذ خضوعها الفعلى للمطالب الأجنبية مهما أصرت بعد ذلك على إغلاق بكين فى وجه البعثات الدبلوماسية . وعندما بدأت السلطات الحاكمة تهادن المعتدين ناصبها الشعب العداء الصريح ، وهكذا ظلت حرب الأفيون مشتعلة الأوار تحت الرماد بين الأجانب والسلطات فى جانب واحد ، والشعب فى الجانب الآخر .

وأصبحت كانتون ساحة الصراع الرئيسى بين الشعب والمستعمرين والسلطات ، ففيها يقيم نائب الملك المزود بتعليمات المهادنة ، وفيها تتركز الشركات الأجنبية التى تتاجر فى الأفيون والبضائع المهربة ، وفيها تعسكر القوات البريطانية على استعداد للقيام بجولات أخرى ضد الصين ، وفيها أكثر قوى الشعب الصينى تعرضاً للأجانب وإدراكاً لخطرهم ، وهكذا أصبحت كانتون مركز التوتر ، وترمومتر الأزمة الصينية .

وفور توقيع معاهدة نانكينج طلب الإنجليز من نائب الملك حق دخول كانتون باعتبارها من موانئ المعاهدة ، فغلى مرجل الغضب الشعبي ، وظهرت فى شوارع المدينة لافتات حمراء وبيضاء تدعو إلى مقاومة الإنجليز والحيلولة دون اقتحامهم المدينة بالقوة ، وتكونت جمعية سرية تسمى «شنج بنج شيه سويه» للدفاع عن المدينة ، كانت عبارة عن ميليشيا محلية تلقائية مسلحة ، ارتفعت عضويتها سريعاً حتى بلغت زهاء مائة ألف من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار والنساء ، وبفضل هذه المقاومة الشعبية تمكن أهالى كانتون من الحيلولة دون الإنجليز ودخول مدينتهم أكثر من عشر سنوات ، أى إلى ما بعد قيام حرب الأفيون الثانية ، وهذا دليل على أن سلطات المانشو لا الشعب هى التى وضعت السلاح بعد الحرب الأولى .

وحدثت بالفعل عدة اشتباكات بين الإنجليز وأهالى كانتون منها ذلك الاشتباك الذى حدث فى ديسمبر ١٨٤٢ بعد أربعة أشهر من توقيع معاهدة نانكينج ، وضرب فيه الأهالى عدداً من البحارة الإنجليز الذين تحرشوا بهم كما أحرقوا عدة بيوتات تجارية أجنبية ، ولكن لنترك نائب الملك فى كوانجتونج يصف الحادث فى تقريره الذى رفعه إلى السلطات :

« منذ عادت سفن البرابرة الإنجليز من فوكين وشكيانج إلى هونج كونج ازداد الأجانب وقاحة وصلفاً ، وهناك حالات كثيرة أساء فيها التجار الأجانب المقيمون فى المستقرات الأجنبية الثلاثة عشر معاملة الأهالى ، فكانوا ينهبون المتاجر وهم سكارى ويهينون السيدات المارات ، وتكاد الأمور أن تتطور لولا أن المسئولين المحليين كانوا يتخذون من التدابير ما يكفى لإخماد الاضطرابات فى مهدها ، ولكن ، على أية حال ، أصبح الشعب وقد ملأه السخط يتحرق شوقاً لتسوية الحساب مع البرابرة الأجانب ، وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر القمرى العاشر ظهرت لافتات تستنكر جرائم الأجانب وتهدد بالانتقام ، وفى مساء اليوم السادس من الشهر القمرى الحادى عشر (٧ ديسمبر ١٨٤٢) حدث أن اشترى بحار بريطانى فاكهة من بائع صينى متجول ورفض أن يدفع له ثمنها ، فطلب منه البائع أن يعطيه حقه ، فطعنه البحار بسكين وأصابه بجراح بالغة ، وكان جمع من الناس يشهدون ما حدث فأخذهم الغضب الشديد وكادوا يفتكون بالبحار ، ففر البحار الإنجليزى إلى البناء الكبير الذى يقيم فيه وأغلق خلفه الباب ، وتجمهر الأهالى أمام البناء وأخذوا يصيحون على الأجانب بينما راح

الأجانب يقذفونهم بالحجارة من الطابق الأعلى للبناء ، وعندما بلغنا ما حدث أمرنا على الفور المسئولين المحليين بالذهاب إلى مكان الحادث للتحقيق وإقرار النظام ، وفى المساء بدأ الجمع يتفرق تدريجيًّا ، ولكن فجأة ارتفعت ألسنة اللهب من البناء وأمكن إخمادها ، ومنذ ذلك الوقت وضعت حراسة مشددة ليلا ونهاراً فى هذا المكان الذى أصبح هادئاً تماماً منذ اليوم التالى ، والذى أود أن أوضحه أن الأجانب عندما أحسوا أنهم أثاروا غضب الأهالى أصابهم الذعر الشديد ولكن عندما أكد لهم المسئولون المحافظة على سلامتهم هدأت نفوسهم وأعربوا عن امتنانهم للسلطات » .

وهكذا كانت سلطات المانشو تحمى الأجانب من غضب الشعب رغم علمها بجرائمهم وأخطائهم ، ولذلك فقد الشعب تماماً احترام السلطات وبدأ يناصبها العداء ، وعندما عين كى يينج ، وهو المسئول الصينى الذى وقع معاهدة نانكينج ، نائباً للملك فى كوانجتون وكوانجسى وذهب إلى كانتون فى عام ١٨٤٣ اتهم « الرعاع المحليين » بتدبير كافة الانفجارات المعادية للأجانب ، وأضاف قائلا : « إن الشك وعدم الثقة سمما العلاقات بين الشعب والأجانب ، وإذا لم يعالج ذلك بحكمة فإن أحداثاً

مؤسفة أخرى سوف تقع لا محالة » .

وهكذا كان المسئولون فى حكومة المانشو يتظاهرون بالحياد بين الأهالى والأجانب على أساس أنهم فوق الطرفين ، ولكنهم كانوا فى الواقع يحمون الأجانب المعتدين من غضب الشعب ولا يستطيعون اقتضاء حقوق الشعب منهم . كان الدور الحقيقى الذى يقومون به هو مهادنة الأجانب وقمع الشعب مما أفقدهم ثقة الناس وحبهم ، وظهرت ملصقات ومنشورات سرية على جدران كانتون تهاجم الحكام والأجانب على السواء ، وجاء فى أحد الملصقات :

« إن حكامنا المجرمين هم شركاء للإنجليز اللصوص فى جميع الأفعال التى يرتكبونها ضد النظام والعدالة ، وفى الشهر القمري الخامس من العام الحالى ذبح عدد كبير من الصينيين بأيدى الأجانب وألقيت جثثهم فى النهر لتدفن فى بطون الأسماك ، ولكن سلطاتنا المحترمة تجاهلت هذه الجرائم كما لو كانت لم تسمع بها على الإطلاق ، إن حكامنا يعاملون الشياطين الأجانب كآلهة ويحتقرون الصينيين كما لو كانت أجسادهم قد صنعت من لحوم الكلاب ، ولا يجعلون لحياة الناس قيمة أكبر من قيمة شعرة انتزعت من فروة الرأس ، وهم

يعملون على إبقاء العرش جاهلا بما يحدث فى البلاد ، وعلى إهمال التصرف فى هذه الأمور بما تستحق من اهتمام ، ولذلك فإن آلافاً من الناس قد أفعمهم الحزن والغضب ، وأصبح الأسى يخترق نخاع عظامهم ، وإليهم نقول إن العزاء الوحيد هو الإفصاح عن آلامهم فى الاجتماعات العامة » .

وكتب مسئول صينى مذكرة إلى البلاط الإمبراطورى عام ١٨٤٦ يصف فيها الموقف فى كانتون قائلا :

« إن هوة عميقة بين المسئولين والشعب قائمة منذ أمد طويل، وعداء أهالى كانتون تجاه المسئولين المحليين ليس أقل من عدائهم تجاه الأجانب » .

وفى يناير ١٨٤٦ خضع كى يينج نائب الملك فى كوانجتون وكوانجسى لمطالب الإنجليز وقرر فتح مدينة كانتون للأجانب ، ولكن الأهالى هبوا فى ثورة عارمة احتجاجاً على هذا القرار وحرقوا مقر الوالى ، وساد الاضطراب فى كانتون فترة من الزمن حتى اضطرت حكومة بكين إلى خلع كى يينج ، وتعيين هسو كوانج شين خلفاً له ، ولم تفتح كانتون أبوابها للأجانب .

ولم يسكت الإنجليز على تجاهل تنفيذ روح اتفاقية

نانكينج على هذا النحو وقرروا فتح كانتون بالقوة ، ففى عام ١٨٤٩ قام حاكم هونج كونج البريطانى على رأس قوة مسلحة بشق طريقه بالقوة فى نهر بيرل مطالباً بفتح المدينة ، وردت جمعية « شنج بنج » على هذا التحدى بأعنف كفاح فى تاريخها ، وتحت الضغط الشعبى اضطر هسو كوانج شين نائب الملك فى كوانجتون وكوانجسى إلى الصعود بنفسه إلى ظهر السفينة البريطانية ورفض الطلب فى وجوه الإنجليز قائلا لهم: « إن الشعب هو عماد الدولة ، وما دام الشعب يرفض فتح مدينة كانتون فإن الإمبراطور وممثليه ليسوا فى حالة تسمح لهم بإرغام الشعب على ذلك إرضاء للأجانب » . وفى نهاية هذا الموقف التاريخى اعتقل الإنجليز هسو كوانج شين وحجزوه فى سفينتهم ، وعندما انتشر نبأ اعتقاله تجمهر عشرات الألوف من أعضاء جمعية « شنج بنج » على ضفتى النهر وتهيأوا للقتال ، فاضطر الإنجليز إلى إطلاق سراح المسئول الصينى وتخلوا مؤقتاً عن مطالبتهم بفتح المدينة وأبحروا عائدين يجرون أذيال الخيبة على صفحة نهر بيرل .

وهكذا كانت سلطات المانشو ترسم سياستها على أساس تلافى أشد الخطرين فى اللحظة المعينة ، فإذا كان الخطر

الأجنبي وشيكاً فإنها تهادن الأجانب على حساب الشعب ، وإذا كان الخطر الشعبي كبيراً فإنها تحالف الشعب وتتجاهل تهديدات الأجانب . وظهر مثل شعبي يقول : « إن الشعب يخشى رجال الحكومة ، ورجال الحكومة يخشون الشياطين الأجانب ، والشياطين الأجانب يخشون الشعب » !

* * *

ولم يكن أهالى كانتون وحدهم هم الذين ضجوا من قسوة الأجانب وجشعهم ، وإنما عانى الشعب الصينى فى مجموعه أبلغ العناء من الآثار المدمرة لحرب الأفيون والمعاهدات غير المتكافئة التى ترتبت عليها .

فإن الغرامة الفادحة التى فرضت على الصين وفتح أبوابها للسلع الأجنبية أدى إلى استنزاف مواردها الاقتصادية واستمرار تدفق الفضة إلى الخارج ، وترتب على ذلك انهيار قيمة النقد وارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً وتحمل الشعب وحده هذا العبء . ويصف أحد المسئولين الصينيين الموقف فى تقرير رفعه إلى الإمبراطور فى عام ١٨٥٢ قال فيه :

« فى الأيام الخالية كان التايل من الفضة يساوى ألف قطعة

نحاسية ، أما فى هذه الأيام فإن التايل من الفضة يساوى ألفى قطعة نحاسية، وفى الأيام الحالية كان ثمن ثلاثة تو (٤٠ رطلا) من الأرز يكفى لدفع ضريبة واحد مو (½ أكر) من الأرض ويفيض منها شيء ، أما فى هذه الأيام فإن ستة تو لا تكفى لسداد هذه الضريبة ، وبالطبع فإن السلطات تحصل على القيمة الأصلية للضريبة، أى على الناس أن يدفعوا ضعفى ما كانوا يدفعونه من قبل ، وهؤلاء الذين لا يملكون القدرة على الدفع أصبح لا يحصيهم العد ، ويتعقبهم الجند وعمال الحكومة ليل نهار لإرغامهم على الدفع بجلدهم فى منازلهم الأمر الذى مزق جلودهم ودماءهم شر ممزق » !

وكان من أخطر أحكام معاهدة نانكينج ذلك النص على عدم تجاوز التعريفة الجمركية على الواردات ٥٪ من قيمة البضائع الواردة (وقد ظل معمولا بذلك حتى عام ١٩٢٨) وكانت له آثار سيئة للغاية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فقد دمر الصناعات الوطنية فى الصين ، وحرمها من الحماية ، فى نفس الوقت أتاح فتح الموانئ الخمسة أمام التجارة الأجنبية فرصة غير محدودة أمام الإنجليز وحلفائهم لتصريف سلعهم فى أسواق الصين الشاسعة فعمت المنسوجات البريطانية جميع

أنحاء البلاد وتغلغلت إلى أصغر القرى الصينية لتدمر صناعات الفلاحين وتقوض مجتمعاتهم القائمة على الاكتفاء الذاتى .

ولم يقتصر الأمر على غزو البضائع الأجنبية للسوق الصينية بأثمان رخيصة لا تقاومها أسعار المنتجات الوطنية ولا تستطيع الصمود فى منافستها بل إن التجار والماليين الصينيين أنفسهم أقدموا على تشغيل أموالهم فى التجارة الأجنبية وسحبوا قروضهم للصناع الصينيين .

ولم يكن الصناع الصينيون وحدهم الذين أصابهم البوار من جراء المعاهدات غير المتكافئة ، وإنما هلك إلى جانبهم عشرات الألوف من أصحاب القوارب وحمالى الميناء وسائر العاملين فى البحر فى كانتون وشاطئ الصين الجنوبى ، إذ أن فتح موانئ صينية أخرى فى الشمال أمام التجارة الأجنبية قضى على احتكار ميناء كانتون لهذه التجارة مما ترتب عليه تعطيل عشرات الألوف من العاملين فى البحر وتشريد عائلاتهم وإجاعتها .

وترتب على المعاهدات كذلك سقوط احتكار نقابة الهونج للتعامل مع الأجانب والسماح لهؤلاء بالتعامل مع من يشاءون من التجار الصينيين مباشرة مما خلق طائفة من التجار المستفيدين من الاستعمار المتمتعين بحمايته عرفوا باسم « الكومبرادور » ،

وقد لعبت هذه الطائفة فيما بعد دوراً كبيراً فى التمكين للنفوذ الأجنبى فى الصين وخيانة الحركة الوطنية على طول الخط .

على أن أسوأ ما فى الأمر أن تجارة الأفيون أصبحت تجارة مشروعة تحميها المعاهدات الدولية ، وواصلت هذه التجارة الارتفاع بسرعة بالغة وهى تنخر نخاع الصين ، فبلغت فى عام ١٨٥٠ أكثر من ٥٢ ألف جوال كانت تشكل ٢٠ ٪ من مجموع دخل الحكومة البريطانية فى الهند وارتفعت فى عام ١٨٥٣ إلى ٨٠ ألف جوال ، وظلت تجارة الأفيون مشروعة فى الصين نتيجة لمعاهدة نانكينج حتى عام ١٩١٧ .

أما الامتيازات الإقليمية التى منحت للأجانب بمقتضى معاهدات نانكينج ووانجهيا ووامبوا وأهمها الإعفاء من القانون الوطنى فقد ظلت قائمة حتى عام ١٩٤٢ ، ولم يطبق القانون الصينى فعلا على الأجانب إلا بعد تحرير الصين عام ١٩٤٩ .

وكذلك فإن التنازلات الإقليمية التى منحتها حكومة المانشو للإنجليز وغيرهم من الأجانب استخدمت طوال قرن كامل من الزمان كقاعدة لمزيد من التغلغل والتوسع والنفوذ فى داخل الصين .

وهكذا كانت حرب الأفيون أساساً لعلاقات الصين

المستقبلة مع الغرب ، ومفتاحاً لفهم أغلب التطورات اللاحقة ، ويكفى أنها خلقت عقدة كراهية الأجانب فى نفوس الصينيين ، وهى عقدة أكدتها الأيام فيما بعد .

* * *

وبعد حرب الأفيون ظهرت على المسرح الصينى ثلاث قوى تواجه كل منها الأخرى وتريد أن تعصف بغيرها . .

قوة الشعب الثائر الغاضب . .

وقوة الاستعمار الغشوم الضارى . .

وقوة المانشو والرجعية الداخلية . .

ولم تستطع قوة المانشو رغم دهائها وإمكانياتها أن تحول دون اصطدام القوتين الأخريين ، ثم انتهت صراحة إلى الوقوف بجانب الاستعمار .

وكان الاستعماريون وقد ثبتوا أقدامهم على شاطئ الصين يريدون الاندفاع إلى الداخل للسيطرة على بقية الجنة البكر الموعودة .

وكان الشعب وقد هزته المآسى والنكبات ، وهصره الحقد والألم ، مصمماً على مقاومة تلك الموجة العاتية وإرغامها على الانحسار وراء الأفق من حيث أقبلت .

ولم يلبث أن حدث تطور خطير حدد بوضوح أين تقف كل قوة من القوى الثلاث ، الشعب والمانشو والاستعمار ، إذ اندلعت ثورة التايبنج العظيمة التى غيرت صورة الموقف تماماً ، وأصبحت إرهاصاً للثورة الصينية الكبرى التى غيرت مجرى تاريخ الصين والعالم فيما بعد .

٦ — ثورة التايبنج

أصبحت الصين كلها تغلى ، والصين دولة فلاحين ، وثورات الفلاحين هى أعنف الثورات ، لأن الفلاح بطبيعته أقدر على الصبر وتحمل المشاق والرضا بالكفاف ، فإذا ثار رغم ذلك فلأنه استنفد كل طاقته على الاحتمال ، وكل رجائه وأمله ، ولذا تأتى ثورته عنيفة مدمرة لأنها ثورة اليأس فى أبلغ مداه .

والصين فى منتصف القرن التاسع عشر كانت حبلى بالثورة ، كانت صدور الفلاحين تضطرم بالضيق والغضب ، ونفوسهم تضج بالتبرم والتمرد ، وبالرغم من القيود الإقطاعية الثقيلة ، ومن الجهل والفقر والمجاعة والمرض قام الفلاحون

الصينيون بأكثر من مائة هبة محلية فى الفترة بين عامى ١٨٤١ و ١٨٤٩ منها ٢٦ هبة فى عام ١٨٤٧ وحده .

ولكنها لم تكن أكثر من هبات عفوية كرد فعل لمظالم الإقطاع أو تعسف جباة الضرائب أو تحرشات الأجانب ، ولم تكن ثورات بالمعنى الدقيق ، فكانت تنتهى بتدخل الجند لسحقها ، وكثيراً ما كانت تبرد من تلقاء نفسها بعد أن يخبو أوار الغضب فى نفوس القائمين بها ، ولكنها مع ذلك لم تكن كلها مجرد اضطرابات بسيطة أو أعمالا للسلب والنهب والحرق ، بل أحياناً ما كان الفلاحون الثائرون يستولون على السلطة فى مناطقهم ويقصون عنهم الإقطاعيين ورجال الحكومة ، ويوزعون ما تزخر به مخازن الغلال على الجائعين والمحتاجين ، وقد يتكون مجلس شعبى لتصريف الأمور أو تنظم ميليشيا مسلحة للدفاع عن حكم الشعب ، وقد يستمرون فى حكم أنفسهم بأنفسهم أياماً وأسابيع ، ولكن بعد حين تنتهى مثل هذه الثورات المحلية إلى الفشل لقصور كفاءتها التنظيمية ، أو لضعفها العسكرى ، أو لعدم قدرتها على الامتداد وراء حدودها ، ويعود النظام القديم لينزل أبشع الانتقام بالشعب الذى جرؤ على التمرد ، وتبدأ ذرات الحقد والغضب تتراكم فى النفوس من جديد .

وانتشرت الجمعيات السرية فى كل أنحاء الصين بصورة لم يسبق لها مثيل وكانت هذه الجمعيات تنظم الفلاحين ، وتشحذ عزائمهم ، وتنور عقولهم من أجل أن يتكتلوا فى وجه الخطر المشترك . ويتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، أو حماية مطالبهم والانتصار لضعفائهم .

ومن بين هذه الجمعيات التى لا يحصيها العد قامت فى كوانجى جمعية تسمى « ياى شانج تى هو » قدر لها أن تحرز انتصارات باهرة وتقوم بدور عظيم فى تاريخ الشعب الصينى .

كان مؤسس هذه الجمعية يدعى هونج هسيو شوان ، وكان مدرساً فى إحدى القرى ، ونشأ منذ طفولته يحمل مشاعر الكراهية لأسرة شينج الحاكمة ، وعندما كبر اصطدم بفساد المسئولين عن النظم التعليمية الكونفوشيوسية ، والمؤكد أنه كان على اتصال بإحدى الإرساليات التبشيرية ، إذ سرعان ما أعلن اعتناقه المسيحية ، وأطلق على نفسه لقب «شقيق المسيح الأصغر» وكون مع زميل له يدعى فنج يون شان هذه الجمعية السرية فى عام ١٨٤٣ ومعناها باللغة الصينية « جمعية عبادة الله » .

وإذا كانت التبشيرية المسيحية قد دخلت الصين تحقيقاً لنفس أهدافها المعروفة فى التمهيد للاستعمار ، والتمكين له ،

واستئناس الأهالى الوطنيين ، وترويضهم على الرضا بمصيرهم ، وإخضاعهم نفسياً لقبول التدخل الغربى الرأسمالى ، إلا أن هونج هسيو شوان ذلك الفلاح الصينى الذى يحمل فى أعماقه رواسب حضارة موغلة فى القدم استطاع أن يحول المسيحية إلى أداة ثورية خطيرة مستلهماً مبادئها الأصيلة ومازجاً روحها بالروح الشعبية الصينية المعادية للظلم والإقطاع وأفكار المساواة المطلقة بين البشر والتى عاشت فى تراث الشعب الصينى منذ آلاف السنين ، وبذلك لعب هونج هسيو شوان نفس الدور الذى لعبه زعماء الكفاح الأوربى ضد الإقطاع فى القرون السابقة مثل جون بول فى إنجلترا ، وتوماس موينزر فى ألمانيا ، وجان هيس فيما يسمى الآن تشيكوسلوفاكيا .

قال هونج ، وبشر بين أنصاره ، إن فى مقدور الناس أن ينقلوا الفردوس من السماء إلى الأرض إذا استطاعوا إقامة دولة عادلة تقوم على المساواة يحيا فيها الجميع أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم بلا استغلال أو استبداد ، ألم يطرد المسيح المرابين من المعبد ؟ كذلك ينبغى أن يطرد المرابون والمستغلون والظالمون من هذا الفردوس الأرضى . . من مملكة السلام السماوية التى يدعو لها . . من « تايبنج تاين كوو » .

والتف حول هونج هسيو شوان عدد كبير من الأنصار والحواريين الذين اقتنعوا بدعوته . . وكانوا جميعاً من البروليتاريا الزراعية الفقيرة ، من الفلاحين وعمال المناجم ، فمنهم يانج هسيو شينج عامل الفحم المعدم ، وهسياو شاو كوى الحطاب الفقير ، وفنج يون شان المدرس القروى ، ووى شانج هو وشيه تاى كاى الفلاحان الأجيران ، وقد لمعت هذه الأسماء فيما بعد وتولت الزعامة السياسية والعسكرية فى دولة التايبنج بكفاءة مدهشة .

وفى ١٨٤٤ نقل هونج مركز نشاط جمعيته إلى كوانجسى حيث كان الصراع بين الفلاحين والسلطة الإقطاعية قد بلغ مدى لم يبلغه فى أى مكان آخر ، وكانت الهبات والاضطرابات وأعمال التمرد والعنف لا تكاد تنقطع فى يوم من الأيام ، وفى هذا الجو الثورى الخصب استطاعت « جمعية عبادة الله » أن توحد الجهود الثورية المبعثرة وتدخل عامل النظام الدقيق فى العمل الثورى الشعبى وانضم إليها أنصار كثيرون وأخذت قوتها تنمو فى سرعة مذهلة حتى أصبحت منظمة دقيقة فعالة ينبثق عنها جيش قوى .

وخلال أعوام قليلة تطورت الظروف سريعاً لصالح الجمعية ، إذ حدثت مجاعة كبيرة فى إقليم كوانجسى عام ١٨٤٩ ازدادت

بسببها مشاعر السخط والتذمر بين الناس ، وإذ ذاك رأى هونج أن الوقت أصبح ملائماً لإعلان الثورة ، فأمر أتباعه بالتجمع فى قرية شنتيان بمقاطعة كويبنج ، وفى ١١ يناير ١٨٥١ أعلنت الثورة رسمياً بإنشاء « مملكة السلام السماوية » واحتل جيش التايبنج يونجان بشمال كوانجسى ونقل إليها عاصمة المملكة .

وسارعت حكومة شينج بإرسال قوات ضخمة إلى يونجان لمحاصرتها وإخماد الثورة ، ولكن قوات التايبنج تمكنت من كسر الحصار فى أبريل ١٨٥٢ وتقدمت شمالا لاحتلال هانيانج وهانكاو وووشانج ، وفى مارس من العام التالى ضربت قوات التايبنج أسوار مدينة نانكينج بالألغام ، وأبادت ٢٠ ألف جندى من المدافعين عنها ، وسمتها تيان شينج ، ونقلت إليها عاصمة مملكة السلام السماوية .

وعلى طول هذا الزحف الطويل الظافر من كوانجسى إلى نانكينج كانت قوات التايبنج تعصف بكل أعداء الشعب .. عمال أسرة المانشو ، والأسياد الإقطاعيين المحليين ، وملاك الأراضى والمرابين ، وصادرت أموالهم وممتلكاتهم وقصورهم لتوزعها على الفلاحين فى كل منطقة تدخلها ، ولم تكن هذه

القوات لتعتدى على الأهالى أو تتحرش بهم؛ بل كانت تشعر بالانتماء إليهم وتخف إلى حمايتهم والدفاع عنهم مما جعلها تبدو نذيراً بالخلاص لملايين الفلاحين الصينيين الأشقياء فتجمعوا حولها متحمسين مؤيدين ، وأخذوا ينضمون إلى صفوفها بعشرات الألوف ، وبسرعة مذهلة ارتفع جيش التايبنج من عشرين ألفاً إلى أكثر من مليون مقاتل يزحفون بالرماح والفئوس والهراوات على أرجلهم ومواشيهم ، وتحت أعلامهم وبيارقهم كقوة جارفة تجتاح من يتصدى لها ، وتقهر أمامها كل شىء .

ومن الغريب أن حركة التايبنج هذه قامت فى نفس فترة العاصفة الديموقراطية الثورية التى هزت أوربا فى منتصف القرن التاسع عشر وكانت تحمل كثيراً من ملامحها وأفكارها ، وقد لاحظ ذلك المبشر المسيحى جو تسلاف الذى عاد من الصين إلى وطنه ألمانيا عام ١٨٤٩ ، وحين وقف على مجرى الأمور فيها قال إن الأفكار الاشتراكية للطبقة العاملة الأوربية تشبه إلى حد كبير تلك الأفكار المنتشرة بين رعاع الصين !

أما ماركس وأنجلز فقد أشادا فى مقال نشرته صحيفة « نيو راينيسن ريفيو » فى ٣١ يناير ١٨٥٠ بالثورة الشعبية الصينية وتساءلا قائلين : « من يدرى غداً عندما يبلغ رجعيونا

الأوربيون أسوار الصين فى هربهم إلى آسيا حيث قلعة الرجعية التليدة . . من يدرى أنهم لن يجدوا على أسوار الصين نقشاً يقول : هنا الجمهورية الصينية القائمة على الحرية والمساواة والإخاء ؟! »

وقد تحققت هذه النبوءة ولكن بعد قرن من الزمان !

* * *

« أينما تكن هناك أرض . . . فسوف نزرعها معاً
أينما يكن هناك أرز . . . فسوف نأكله معاً
أينما تكن هناك ملابس . . . فسوف نرتديها معاً
أينما تكن هناك نقود . . . فسوف ننفقها معاً
لن يكون هناك مكان لا يعرف المساواة
ولن يكون هناك من يشكو البرد أو الجوع » .

كان هذا هو شعار ثورة التايبنج الذى رفعته كهدف للإصلاح وطريق لتحقيقه ، وبمجرد أن استقر التايبنج فى تيان شينج (نانكينج) وجعلوها عاصمة مملكة السلام السماوية أعلنوا برنامجهم للإصلاح الزراعى استجابة لأمنية عزيزة لدى الفلاحين ، وفى الأصل كان هذا البرنامج يقضى بأن لكل ذكر أو أنثى يبلغ السادسة عشرة من عمره الحق فى الحصول على قطعة أرض ذات خصوبة متوسطة تكفيه ليحيا حياة عادية

كريمة : أما الأطفال دون السادسة عشرة فلهم الحق فى نصف قطعة من الأرض .

ولكن هذا البرنامج لم يوضع للأسف موضع التنفيذ بسبب الظروف الشاقة التى واجهت الثورة ، وما فرض عليها من حروب مستمرة ومقاومة مستميتة ، فبقى برنامج الإصلاح الزراعى أحلاماً لا سبيل إلى تحقيقها نظراً لافتقار الثورة إلى الكفاءة التخطيطية والاقتصادية والإدارية وفى وقت كانت فيه الأفكار الاشتراكية العالمية فى مهدها ولم يكن هناك نموذج عملى واحد يمكن أن يستهدى به زعماء التايبنج فى تنفيذ أفكارهم ، ولذلك ظلت هذه الأفكار آمالا وأمنيات وفشلت الثورة فى أن تقدم حلاً عملياً لمشكلة الصين الزراعية ، فاكتفت بتطبيق مبدأ « الأرض لزارعيها » فمن يزرع الأرض يملكها ولا جناح عليه فى أن يمتنع عن دفع الإيجار لمالكها الأصلى .

هذا المنحى التقدمى لأفكار ثورة التايبنج لم يظهر فى شىء قدر ظهوره فى موقف الثورة من المرأة ، فقد أحدثت الثورة انقلاباً شاملا فى مركز المرأة التى كانت مكبلة فى ذلك الحين بأغلال القرون الوسطى ، فأقرت ثورة التايبنج للنساء حق المساواة الاقتصادية والسياسية مع الرجال ، وحق الملكية الزراعية

والاشتراك فى الحكومة وشغل المناصب العامة . وعليهن واجب الخدمة العسكرية والقتال ، كما حرمت الثورة تلك العادة القبيحة المتخلفة وهى وضع أقدام الفتيات دون العاشرة فى أحذية حديدية لإعاقة نموها وتشويهها بحجة الجمال ، ومنعت نظام السرارى وأخذ الخليلات ، وألغت النظم الإقطاعية فى الزواج كشراء الزوجة أو الزواج بالمشاركة .

وكذلك ، عملت ثورة التايبنج على تطهير المجتمع من الأدران الداخلية فحاربت السرقة والفساد والدعارة وتدخين الأفيون ، وقد شهد بذلك دبلوماسى بريطانى زار مملكة التايبنج ، وعاد يقول إن الحياة والممتلكات تتمتع بأمن أكبر فى المناطق التى يحتلها التايبنج منها فى المناطق التى ما زالت تحت سيطرة حكومة المانشو .

* * *

والواقع أن الأجانب لم يخفوا فى أول الأمر إعجابهم بثورة التايبنج ووجدوا من حسن السياسة عدم مجابهتها بالعداء ، فهى قبل أى شىء قوة خطيرة معادية لحكومة المانشو التى لم تتخل عن صلفها وغرورها ، بل إن الأجانب علقوا آمالا كبيرة على هذه القوة النامية التى تدين بالمسيحية ، وظنوا أنها إذا نجحت

فى توحيد البلاد تحت سيطرتها سوف تفتح أبواب الصين أمام التجارة الأجنبية والبعثات التبشيرية ، وقام عدد كبير من الدبلوماسيين والمبشرين الأجانب بزيارة عاصمة التايبنج ، وعادوا ينادون بضرورة التفاهم مع الثورة ، ومن أوضح التحليلات لموقف الأجانب فى هذا الصدد تقرير وضعه المبشر البريطانى مدهرست ورفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية وفيه يقول :

« إن الفوائد التى يمكن أن نجنيها من نجاح الثوار هى فتح البلاد للمشروعات الدينية والتجارية ، وإدخال التحسينات العلمية التى سوف تفيد المانح والممنوح ، وإنه لمن المحزن أن نرى الدول المسيحية تتدخل لإخماد هذه الحركة لأن الثوار يملكون القدرة والاستعداد للتقدم والإصلاح بوجه عام على نحو لا يتمتع به الملكيون وليس من المتوقع أن يتمتعوا به ، ومن المحتمل إذا تدخلت الدول الأوربية مع الجانب الآخر أن تجد نفسها مشتبكة فى حرب مع أناس أقوى منها ، أما إذا تمكن الملكيون بدون مساعدة الأجانب من هزيمة الثوار (وهو أمر ضعيف الاحتمال) فسوف يزدادون صلفاً وصفاقة عن أى وقت مضى » .

ويمضى كاتب التقرير فى اقتراح السياسة الواجب اتباعها قائلا :

« إن السياسة الوحيدة التي تبدو مقبولة فى الوقت الحاضر أن نتوقى المزيد من الانغماس فى النزاع ، ونتجنب أى ارتباطات رسمية مع أحد الطرفين ، ولكن ينبغى على الأجانب مع ذلك أن يكونوا على استعداد بقوة كافية لمقاومة أى هجوم يشنه عليهم الثوار قاصدين تدميرهم » .

وقد عرفت هذه السياسة بسياسة « الحياد » والتزمتها بعض الوقت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وغيرها من الدول الأوربية إزاء الحرب الأهلية الصينية ، غير أن الأحداث أثبتت أن ذلك الحياد كان حياداً زائفاً سداه ولحمته النفاق ، فلم يكن المقصود به مطلقاً اتخاذ موقف عدم التدخل فى الشئون الداخلية للصين وترك مصيرها بين أيدى أبنائها يقررونه كما يشاءون ، وإنما كان هدفه الوحيد اتخاذ موقف الانتظار والتربص لمعرفة كيف تسير الأمور وانتهاز الفرصة المناسبة التى ينفذون منها إلى مراكز القوة .

ولكن ثورة التايبنج خيبت آمال الدول الأجنبية إلى أقصى حد . فقد كان المأمول أن تكون أكثر ليونة من حكومة المانشو فى التعامل مع الأجانب باعتبارها قوة وليدة فى حاجة إلى تأييد خارجى كما أنها تدين بالمسيحية ولم تقم أصلا كحركة ضد

التدخل الأجنبي كما كانت عليه المقاومة فى كانتون ، ولم يفطن الأجانب إلى أن رجال التايبنج كانوا وطنيين ثوريين فى المحل الأول وأنهم ما قاموا بثورتهم العارمة إلا إنقاذاً لروح الصين الأصيلة وتحريراً لبنى جلدتهم من كل قوى الظلام ، ولذلك لم ينخدعوا فى تودد الأجانب إليهم ، ولم يتورطوا فى أية وعود لهم ، بل إنهم أوضحوا منذ البداية عزمهم على عدم التفريط فى أى حق من حقوق الوطن ، وعندما زارهم الوزير البريطانى للحصول على اعترافهم بمعاهدة نانكينج أبلغوه أنهم يرحبون بالتجارة مع الدول الأجنبية ، ولكنهم يصرون على تحريم تجارة وتدخين الأفيون ، وكذلك أكدوا نفس الشيء لوزيرى الولايات المتحدة وفرنسا ، وكانت السياسة الخارجية لدولة التايبنج تقوم باختصار على أساس المساواة بين الدول ، وحرية التجارة الدولية ، وتحريم الأفيون تحريماً مطلقاً ، ولذلك لم يلبث أن دب الفتور والبرود سريعاً فى العلاقات بين التايبنج والأجانب .

* * *

بعد أن استقر الأمر لثورة التايبنج فى نانكينج أصبحت الصين تنقسم فى الواقع إلى دولتين تقوم بينهما حرب أهلية لا تنقطع . . فى الشمال دولة المانشو التى تمثل مصالح الأسرة

الإمبراطورية والإقطاعيين وكبار الموظفين والقادة العسكريين ، وفى الجنوب دول التايبنج أو مملكة السلام السماوية التى انبثقت عن الشعب الثائر . . عن الفلاحين والحرفيين والجند ، والتى تعكس فى نفس الوقت كل قوة هؤلاء وكل ضعفهم وتناقضاتهم.

وحاولت دولة التايبنج التوسع شمالا وغرباً لتوحيد كل الصين تحت رايتها والقضاء على الرجعية السياسية والاجتماعية قضاء مبرماً، فأرسلت حملتين إحداهما إلى الشمال للاستيلاء على بكين توطئة لنقل عاصمة التايبنج إليها ، والأخرى إلى الغرب لتحرير بقية المدن الاستراتيجية على نهر اليانجتسى ، ونجحت الحملة الأخيرة بالفعل فى احتلال زانكينج ونانشانج ووشانج .

أما الحملة الأولى فقد قامت فى مايو ١٨٥٣ تحت قيادة لين فنج هسيانج ولى كاى فانج، وكانت تضم ٢٠ ألف مقاتل أخذت قوتها تتزايد على طول الطريق بفعل التأييد الشعبى الساحق الذى لقيته من الفلاحين ، ونجحت الحملة فى كسب معارك عديدة ، واستطاعت أن تحتل فى مدة لا تتجاوز خمسة أشهر أقاليم أنهوى وهونان وشانس ثم دخلت شيهلى (هو بيه فيما بعد) ووصلت إلى أبواب تيان تسين التى تعد مدخلا مباشراً للعاصمة الإمبراطورية بكين ، وهنا أسقط فى يد الإمبراطور

هسيين فنج وبدأ يستعد للهرب بأسرته وأمواله .

ولكن كل القوى الرجعية فى الصين لم تلبث أن تضافرت للدفاع عن بكين ، وكوّن الإقطاعيون جيوشاً خاصة يقودونها بأنفسهم لمساعدة جيش المانشو المحاصر ، وتوحدت الجيوش الإقطاعية فى قوة واحدة فعالة يتزعمها الإقطاعى العسكرى تسينج كوفان ، وهو رجل رغم رجعيته العتيدة لا يشك أحد فى مقدرته وكفاءته ، ونجحت القوى الرجعية فى الصمود لقوات التايبنج فى تيان تسين ، وأخطر من ذلك أنها تمكنت من قطع خطوط مواصلاتها مع نانكينج مما تعذر معه وصول إمدادات إلى جيش التايبنج فأقام حيث هو لا يستطيع التقدم أو الانسحاب أكثر من عامين تخللتهما معارك عنيفة استشهد فيها الكثيرون من جنود التايبنج وقادتهم ومنهم لين فنج هسيانج ولى كاى فانج .

وأخذ الصراع يشتد يوماً بعد يوم بين قوات التايبنج وقوات الثورة المضادة بزعامة تسينج كوفان فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وأحرزت قوات التايبنج انتصارات عديدة أهمها النصر الحاسم على القوات الرجعية بقيادة كوفان نفسه فى معركة دارت بالقرب من بحيرة بويانج واستخدم فيها الثوار أسهم النار الليلية لأكثر

من شهر ، واضطر تسينج كوفان إلى الفرار نجاة بنفسه بعد انهيار قواته .

وقد واكبت ثورة التايبنج ثورات أخرى فى مناطق متفرقة من أنحاء الصين الشاسعة ، واتخذت تلك الثورات من ثورة التايبنج مثلا تقتدى به ونموذجاً تحتذيه ، فقام فلاحو ناين بثورة فى كيانجسو وانهوى وشانتونج وهونان واستطاعوا الاتصال بجيش التايبنج ، وقد اتسم فرسان الناين بالشجاعة الخارقة فكانوا يقتحمون نيران العدو بخيولهم وسيوفهم وسهامهم فيفرقون صفوفه ، وفى عام ١٨٦٥ حاصرت قوات الناين مقر قوات الحكومة وقطعت عليها خطوط الإمداد وأبادتها عن بكرة أبيها ، وشعرت حكومة شينج بالخطر الشديد فكرست جزءاً كبيراً من قواتها لإخماد فتنة الناين ، ولم تتمكن من ذلك إلا بمساعدة القوات الأجنبية فى عام ١٨٦٨ .

وكذلك قام المسلمون الصينيون فى يونان والشمال الغربى من الصين بثورة عنيفة ضد حكومة شينج احتجاجاً على التفرقة فى المعاملة وثقل الضرائب ، واستطاع أحد جيوشهم احتلال تالى فى وسط يونان وإنشاء قاعدة فيها ولم تستطع الحكومة إخماد ثورتهم قبل عام ١٨٧٣ .

وفى سينكيانج قامت ثورات أخرى ضد حكومة شينج من أجناس متعددة ، وسارت كل هذه الثورات التى قامت بها الأقليات المختلفة جنباً إلى جنب مع ثورة التايبنج مما دل على وحدة مصالح الشعب الصينى الذى كان يواجه عدواً مشتركاً هو الرجعية المتحالفة مع الاستعمار .

ولكن الرجعية الصينية كانت تشبه الهيدرا ذات الألف رأس ، فكلما قطع رأس منها نبتت مكانه عدة رءوس . وكانت التربة الصينية ما زالت مهيأة فى أعماقها لدعم الرجعية رغم الموجة الثورية التى أطلقتها على السطح ثورة التايبنج ، ولذلك لم يفقد الرجعيون الأمل بل تشجعوا بفك الحصار عن بكين وواصلوا تجميع صفوفهم ، وإغلاق ما بينها من ثغرات ؛ استعداداً لمعارك أخرى فاصلة مع جيوش الشعب المتمرد .

وكما يحدث فى كثير من الثورات العظيمة غير الناضجة بدأت المنازعات الداخلية تجد طريقها إلى زعماء ثورة التايبنج ، فبعد أن تحولت الثورة إلى دولة — أو شبه دولة فى الواقع — باستقرارها فى نانكينج بدأ الصراع الخفى على النفوذ يتسلل إلى قادة الثورة الذين تسرعوا فى اقتسام المكاسب والمناصب ، وكان أحدهم ويدعى يانج هسيو شينج هو القائد الفعلى المنتصر



لقوات الثورة منذ عام ١٨٥١ ، وقد استطاع أن يحرز قوة ونفوذاً بمساهمته الثمينة فى الحركة الثورية ، ولكن ذلك جعله مغروراً ومتغطرساً ، وأراد أن يفرض نفسه وصياً على الثورة ، وفى عام ١٨٥٦ دب الخلاف بين يانج هسيو شينج وهونج هسيو شوان زعيم الثورة الأصلى ورائدها الروحى ، وطلب يانج من هونج أن يخاطبه بلقب « جلالتك ! » فأعطى هونج أوامر سرية إلى وى شانج هوى أحد زعماء الثورة الآخرين باغتيال « يانج » المتغطرس ، وبعد ذلك قتل « وى » أيضاً وفتتت هذه المؤامرة السرية وحدة القيادة الجماعية للثورة ، وبدأ القادة يتحزبون ويتآمرون فيما بينهم ، وانشق « شيه تا كاى » وهو جنرال قدير ، ورحل عن نانكينج بقواته إلى الجنوب الغربى من الصين ، وكان انشقاق « كاى » ضربة عنيفة أضعفت دولة التايبنج سياسياً وعسكرياً .

وكانت هذه المنازعات الداخلية هى الصخرة التى تحطمت عليها دولة التايبنج فى النهاية ، والثغرة التى نفذت منها القوى الرجعية لضرب الثورة فيما بعد !

* * *

كانت ثورة التايبنج ثورة فلاحية كبرى نجحت فى

الاستمرار والبقاء فى الحكم زهاء أربعة عشر عاماً ، وسيطرت على سبعة عشر إقليماً من أقاليم الصين الواحد والعشرين ، وقد لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الشعب الصينى بحيث لا يمكن اعتبارها حدثاً عادياً عابراً ، ولو كان قد كتب لها النجاح لغيرت كل تاريخ الصين والعالم .

وتختلف الآراء فى تقدير قيمة هذه الثورة فبينما يعتبرها البعض ثورة عظمى من ثورات التحرر الوطنى وحركة تقدمية شعبية سابقة لأوانها ، وعلى هذا الرأى الكتاب الصينيون المحدثون ، نجد آراء أخرى تستهجن الثورة وتراها حركة فوضى وهدم لم يسبق لها مثيل ، قام بها مشعوذ مأفون جرياً وراء مجده الشخصى ، ومن هذا الرأى جواهر لال نهرو الذى نراه جرياً على نغمة الكتاب الغربيين يصف ثورة التايبنج قائلا :

« وثورة التايبنج التى تعتبر من أفظع وأبشع الثورات التى ظهرت فى الصين قد بدأها أيضاً مرتد اعتنق المسيحية على أيدى المبشرين ، وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص مجنون يدعى " هونج هسيو شوان " .. فهذا المشعوذ الدينى نجح نجاحاً بعيد المدى وانطلق فى كل مكان يدعو إلى الحرب صائحاً " اقتلوا عباد الأوثان " ونتيجة لذلك قتلت جموع كثيرة ، وقد خربت

هذه الثورة أكثر من نصف الصين ، وقدر عدد من راح ضحيتها خلال اثنى عشر عاماً تقريباً بنحو عشرين مليوناً من السكان . وليس من العدل فى شىء أن نحمل المبشرين المسيحيين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها ، وإذا كان يبدو أن المبشرين باركوها فى أول الأمر فإنهم فيما بعد أنكروا هونج هسيو شوان . . ومن الغريب المدهش أن ثورة يقودها متعصب دينى مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائياً »[١].

ومن الغريب أن يصدر هذا الرأى من رجل مثل نهرو كان هو نفسه زعيماً عظيماً لإحدى ثورات التحرر الوطنى الآسيوى الكبرى ، ولكن نهرو ظلم ثورة التايبنج لأنه قاسها بمقاييس عصره لا بمقاييس عصرها ، فلم يكن أمام هذه الثورة سوى العنف والدم ترد بهما على الأوضاع المجحفة التى فرضها الإقطاع على الشعب الصينى ، أما إغراقها فى التهوس الدينى فلم يكن مستغرباً أيضاً فى منتصف القرن التاسع عشر ، بل إن معظم الثورات التى قامت فى العالم المتخلف فى ذلك الوقت كانت

---

(١) لمحات من تاريخ العالم — رسائل نهرو إلى ابنته — الرسالة ١١٤ ترجمة الدكتور عبد العزيز عتيق — مكتبة الثقافة الشعبية — ١

تحمل طابعاً دينيًّا يصل إلى حد الشعوذة . ونحن نعرف ذلك بصفة خاصة فى شرقنا العربى ، فقد كانت الثورات العربية فى القرن الماضى تحمل طابعاً دينيًّا قويًّا ومنها الثورة العرابية نفسها ، دعك من الثورة السنوسية أو المهدية ، فإذا لجأت ثورة تقوم بين كتل الفلاحين الصينيين فى القرن التاسع عشر إلى إثارة الحمية الدينية فليس ذلك مما يؤخذ عليها ، أما اعتناقها الدين المسيحى فقد كان ذلك رد فعل طبيعيًّا لفساد ما وصلت إليه تعاليم كونفوشيوس التى أصبحت فى الواقع مطية ذلولا للفكر الإقطاعى وأداة لإخضاع الشعب وإذلاله ، فكان من الطبيعى أن يلجأ الثائرون على النظام الإقطاعى إلى فكرة مخالفة ، لا سيما إذا كانت هذه الفكرة تبشر بالمساواة والإخاء على النحو الذى كانت عليه التعاليم المسيحية فى عهدها الأول لا فى عهد المستعمرين الأجانب المحدثين .

إنما ينبغى الحكم على ثورة التايبنج من زاوية ما أنجزته من مهام وما قدمته للصين وشعبها من فوائد . ومن هذه الزاوية لا مراء فى أن ثورة التايبنج نجحت فى زلزلة أسس الإقطاع وحكم المانشو ، وأثبتت أن هذه الأسس ليست وطيدة خالدة وإنما يمكن القضاء عليها واقتلاعها ، ففتحت بذلك الطريق إلى التغيرات الحتمية التالية فى المجتمع الصينى ، ومهدت لقيام

الثورة الصينية الكبرى ، وفى نفس الوقت حمت ثورة التايبنج الصين من أن تصبح مستعمرة صريحة للأجانب، لأنها نجحت فى صد الموجة الاستعمارية التى كانت تضرب شاطئ الصين بقوة بعد حرب الأفيون الأولى ، وفى الوقت الذى كان فيه المستعمرون الأجانب يظنون أنهم فتحوا أبواب الصين بإذلال حكام المانشو وإرغامهم على توقيع المعاهدات غير المتكافئة انبرى الشعب الصينى يدافع عن بلاده ويقيم من جسده سداً منيعاً فى وجه تقدمهم مما أشعر الأجانب أنهم إذا أرادوا احتلال الصين فإن ذلك لن يكلفهم هزيمة قواتها النظامية وقوادها الإقطاعيين وحكامها الرجعيين فحسب ، وإنما يستلزم فى المحل الأول إخماد الروح الثورية الكامنة فى نفوس مئات الملايين من الفلاحين الصينيين الذين يبدون فى الظاهر وكأنهم ليسوا على شىء من القوة ولكنهم يملكون بالفعل طاقة تمكنت باندلاع ثورة التايبنج من زلزلة النظام المستقر منذ عشرات القرون .

غير أن ثورة التايبنج باعتبارها ثورة فلاحية أولا وأخيراً كانت تحمل بذور ضعفها فى داخلها ، فقد كانت الثورة تفتقر إلى زعامة البروليتاريا الصناعية أو تعاونها على الأقل ، والسبب فى ذلك أن طبقة العمال الصينيين لم تكن قد نشأت

بعد ، وكان ذلك من أمضى عوامل ضعف الثورة وعدم صلابتها .

وكذلك لم تكن الثورة ذات أفكار واضحة ناضجة بل كانت أقرب إلى ترديد الشعارات منها إلى العمل الثورى المدروس ، وكانت الأفكار الاشتراكية فى أوربا نفسها فى ذلك الحين لا تزال فى مرحلة الطفولة المبكرة بحيث لا يأمل أكثر المتفائلين فى وضعها موضع التنفيذ . ولذلك فشلت ثورة التايبنج فى تنفيذ معظم برامجها الإصلاحية وعلى رأسها إيجاد حل للمشكلة الزراعية فظلت أغلب مبادئها حبراً على ورق .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك مأساة الانقسام الداخلى بين زعماء الثورة وصراعهم على السلطة والنفوذ لعرفنا أن ثورة التايبنج كانت تحمل فى داخلها بذور فشلها باعتبارها حركة ثورية عظيمة غير ناضجة مما أدى بها فى النهاية — وبالرغم من كل آيات البطولة التى أبداها الشعب الصينى — إلى الترنح تحت الضربات العنيفة التى كالتها لها الرجعية الداخلية والاستعمار الخارجى .

حرب الأفيون الثانية

لم يكن الوقوف على الحياد الذى تظاهرت به الدول الأجنبية إزاء الحرب الأهلية الدائرة فى الصين إلا تعبيراً عن سياسة انتهازية صريحة ، فقد آثرت الدول الأجنبية أن ترقب الموقف عن كثب دون أن تتوسط فى تأييد أحد الطرفين ومعاداة الآخر حتى تحين الفرصة المناسبة لابتزاز مزيد من المكاسب سواء كانت الحكومة القائمة هذه أو تلك . ويكفى ، على أية حال ، أن الحرب الأهلية الدائرة بين المانشو والتايبنج من شأنها إضعاف الصين كقوة وطنية وهذا يجعلها أكثر استعداداً لإرضاء الأجانب وإجابة مطالبهم .

ولكن بريطانيا والدول الأجنبية الأخرى لم تستطع الثبات طويلا على هذا الحياد المزعوم ، فالحياد يتطلب قدراً من عدم التدخل فى الشئون الداخلية — وسرعان ما ألقت الدول الأجنبية بكل ثقلها فى خضم السياسة الداخلية للصين حين بدأت تطالب بتعديل اتفاقيات حرب الأفيون الأولى .

فى عام ١٨٥٣ اقترحت بريطانيا على الولايات المتحدة القيام بعمل مشترك فى الصين لإرغامها على فتح كل أسواقها

للتجارة الأجنبية ، وفى العام التالى قدم الوزير الأمريكى فى الصين روبرت ماكلين طلباً إلى « يى ليانج » نائب الملك فى ليانج كيانج بتعديل الاتفاقيات ، ورفع يى ليانج تقريراً إلى الإمبراطور قال فيه إن روبرت ماكلين أبلغه أنه « إذا أجيبت هذه المطالب فإن الولايات المتحدة سوف تخف إلى مساعدة الصين فى إخماد التمرد ، وإلا فإننى سوف أبلغ كل شىء إلى حكومتى وأترك الأمر يأخذ مجراه » .

ولم يلبث أن تقدم الممثلون الدبلوماسيون للدول الثلاث بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا فى عام ١٨٥٤ بطلب مشترك لتعديل الاتفاقيات ، وكانت المطالب الأساسية التى تقدم بها الإنجليز هى : (١) فتح كل المناطق الداخلية فى الصين بالإضافة إلى جميع المدن الواقعة على الشاطئ للتجارة البريطانية ، وفى حالة رفض هذا الطلب فإن بريطانيا تصر على حرية الملاحة فى نهر يانجتسى وإضافة شينكيانج ونانكينج ونيشو وهانجشو إلى موانئ المعاهدة . (٢) مشروعية تجارة الأفيون . (٣) إلغاء رسوم الترانسيت الداخلية على البضائع البريطانية . (٤) السماح للمبعوثين الأجانب بالإقامة فى بكين أو على الأقل السماح لهم بالاتصال رأساً بالمسئولين المركزيين فى حكومة

المانشو لا الاقتصار على الاتصال بنواب الملك المحليين فقط . أما المطالب الأمريكية فكانت (١) السماح للممثلين الدبلوماسيين الأمريكيين بالإقامة فى بكين . (٢) رفع جميع القيود المفروضة على التجارة الأمريكية فى الصين . (٣) إلغاء جميع القيود على نشاط الأمريكيين .

وأصبحت حكومة المانشو فى مأزق . . فها هو الشعب ينتفض فى ثورة مسلحة عارمة للقضاء على النظام القائم واقتلاعه من جذوره ، وها هم الأجانب يتقدمون تحت تهديد السلاح بمطالب مهينة تسلب الصين سيادتها وتضعف من موقف الحكومة ذاتها ، وشعر حكام المانشو أنهم وصلوا إلى نقطة اقتران المتاعب الداخلية بالخطر الخارجى الذى يهدد مركزهم ووجودهم كله ، فما الذى يمكن أن يفعلوه ؟

كان حكام المانشو يتبعون كما تقدم سياسة ذات وجهين تتذبذب بين ممالأة الشعب أو الأجانب اتقاء لأشد الخطرين فى اللحظة المعينة ، وكان من الواضح فى الموقف الحالى أن خطر التايبنج أكبر من خطر الأجانب لأنهم يهددون باقتلاع النظام السياسى والاجتماعى من أساسه ، ولم يعد الأمر مجرد مقاومة للأجانب كما حدث عندما رفض أهالى كانتون فتح المدينة ،

ولذلك قررت حكومة المانشو أن لا تهادن الثوار مهما كان الثمن ولو اضطرت إلى إرضاء الأجانب وإجابة مطالبهم حتى يتسنى لها المضى فى محاربة الثوار إلى النهاية ، أليست مهادنة الأجانب من شأنها أن تجلب صداقتهم وبالتالى مساعدتهم فى القضاء على ثورة التايبنج ؟

وقام المسئولون فى شنجهاى بتقديم النماذج الأولى لسياسة المهادنة الجديدة مع الأجانب ، وكانت حركة المقاومة الشعبية فى شنجهاى التى تقوم بها « جمعية السيف الصغير » قد بلغت مداها وبدأت تنتهج نهج التايبنج قبل وصول قوات التايبنج إلى منطقة شنجهاى ، ولذلك قام « وو شين شانج » حاكم شنجهاى بالتنازل للأجانب عن حق اقتضاء الرسوم الجمركية ، فتكونت فى عام ١٨٥٤ لجنة ثلاثية من بريطانى وأمريكى وفرنسى يعينهم قناصلهم للإشراف على مرفق الجمارك فى ذلك الميناء الصينى الهام .

وبعث حاكم كيانجسو مذكرة إلى البلاط الإمبراطورى ينصح فيها بإجابة مطالب الأجانب فى تعديل المعاهدات بعد محادثات أجراها مع الوزير الأمريكى ماكلين ، وجاء فى المذكرة :

« إن ماكلين يتمسك بشدة بالنص الوارد فى معاهدة ١٨٤٤ والذى يقضى بتعديل المعاهدة بعد انقضاء ١٢ عاماً على توقيعها ، وقد أعرب ماكلين عن رغبته فى فتح جميع الموانئ المطلة على نهر يانجتسى حتى هانكاو ، ويبدو أن ليس ثمة مخرج من هذا الموقف ، ولذلك فإن من الأفضل أن نراعى الظروف ونعين مسئولا كبيراً محلا للثقة يتولى التفاوض مع الوزير الأمريكى وإجابته إلى طلبه » .

وفى أكتوبر ١٨٥٤ أبحر المبعوثان البريطانى والأمريكى شمالا إلى تاكو وطلبا الدخول فى مفاوضات مباشرة مع حكومة بكين حول تعديل المعاهدات ، وعينت بكين من جانبها مسئولا يدعى شونج لن لإجراء المفاوضات وزودته بما يكفى من إرشادات لمراعاة خاطر الأجانب ، والعمل على تهدئتهم .

ولكن المفاوضات — رغم ذلك — انتهت إلى الفشل لأن المانشو ترددوا فى إجابة كل المطالب الأجنبية ، ولم تكف التنازلات الجزئية التى عرضوها لإشباع نهم بريطانيا والولايات المتحدة .

وصممت الدول الأجنبية على إرغام حكومة المانشو بالقوة على قبول كل مطالبها فى تعديل المعاهدات ، ولكن بريطانيا

وفرنسا شغلتا فى حرب القرم بين عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٦ فلم تتمكنا من إرسال قواتهما إلى الشرق الأقصى ، وما إن انتهت الحرب حتى بدأت الدولتان تتلمسان أوهى الأعذار لإعلان الحرب على الصين .

وحدث أن استولت السلطات الصينية فى كانتون على سفينة قرصنة صينية ترفع العلم البريطانى تسمى « السهم » بتهمة تهريب أفيون إلى الميناء ، فقدم القنصل البريطانى احتجاجاً عنيفاً إلى السلطات طالباً إطلاق سراح بحارة السفينة والاعتذار عن الحادث ، زاعماً أن السفينة بريطانية ، وحتى إذا لم تكن كذلك فيكفى أن ترفع العلم البريطانى لتتمتع بالحماية ، ولما رفضت السلطات هذا الطلب غير المعقول أرسلت بريطانيا أسطولا شق طريقه فى نهر بيرل وقصف كانتون بالقنابل .

وكذلك إنتهزت فرنسا فرصة مقتل أحد رجال إرسالياتها التبشيرية فى كوانجسى فى ديسمبر ١٨٥٧ وأعلنت الحرب على الصين ، وضممت قواتها إلى القوات البريطانية المحاربة .

وسقطت كانتون فى أيدى القوات الأنجلو فرنسية . .

ثم أبحرت القوات الغازية شمالا بحذاء الساحل فاحتلت قلاع تاكو بالقرب من تيانتسين . وفى يونيو ١٨٥٨ اضطرت

حكومة شينج إلى توقيع اتفاقية تيانتسين المهينة ، ونصت الاتفاقية على فتح نيو شوانج وتنجشاو وتايوان وتانشيو وهانكاو ونانكينج وشينكيانج للتجارة الأجنبية ، وإقرار حرية الملاحة في نهر يانجتسى للسفن التجارية الأجنبية وحق الأجانب في التجارة داخل الصين نظير تعريفة جمركية موحدة لا تتجاوز ٢,٥٪ ، وحرية الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية في نشر معتقداتها في الداخل ، وحرية الأجانب في السفر والتجارة والإقامة داخل البلاد بما في ذلك بكين ، وحق السفن الأجنبية في زيارة موانئ المعاهدة في أي وقت تشاء ، وحق الأجانب في استخدام العمال الصينيين في مناطق بعيدة ، وكان ذلك بداية لتجارة الكولى التي سيق بمقتضاها ملايين الصينيين للعمل في ظروف أشبه بالرق في غابات ومناجم الملايو وخلدونيا الجديدة وغرب الولايات المتحدة . وبالإضافة إلى كل ذلك فرضت الاتفاقية على الصين غرامة حرب قدرها ستة ملايين تايل من الفضة . . مليونان للبريطانيين ، ومثلهما للفرنسيين ، ومليونان آخران للتجار الأجانب في الصين تعويضاً لهم عن أية خسائر محتملة قد تلحق بهم في المستقبل !

ولكن حكومة المانشو ترددت في التصديق على معاهدة

تيانتسين لا لشدة شروطها بوجه عام وإنما لتورطها فى السماح للأجانب بالإقامة فى بكين ، فإن معنى ذلك أن الشعب سوف يحتقر البلاط الإمبراطورى لتخليه عن تقاليده العريقة فى عدم السماح للأجانب بدخول بكين ، ولذلك ما إن أخلت القوات الأنجلو فرنسية تيانتسين معتمدة على توقيع المعاهدة حتى بدأت حكومة المانشو تتمحك محاولة تجديد المفاوضات لإلغاء النص الخاص بإقامة الأجانب فى بكين ، ولكن الدول الأجنبية لم تكن لتسمح بذلك بالطبع ، فسارع الوزيران البريطانى والفرنسى بالوصول إلى تاكو وأبديا رغبتهما فى الوصول إلى بكين للمطالبة بتبادل وثائق التصديق على معاهدة تيانتسين ، وحاولا مواصلة السير على رأس ثلة صغيرة من القوات إلى بكين ، ولكن الضابط الصينى المكلف بقلاع تاكو أمر بإطلاق النار على السفن الحربية الأجنبية التى تحاول أن تشق طريقها بالقوة فى النهر ، فأنزل بها خسائر جسيمة واضطرها إلى الانسحاب ، فتجدد بذلك القتال مرة أخرى ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على الصين من جديد .

وفى عام ١٨٦٠ أعادت القوات الأنجلو فرنسية احتلال تيانتسين ، وواصلت تقدمها شمالا وهى تنشر الموت والخراب

فى القرى الصينية الآمنة متجهة إلى بكين ، ففر الإمبراطور إلى جيهول ، وما هى إلا أيام حتى اقتحمت القوات الأجنبية العاصمة الإمبراطورية واستباحتها لوحشيتها وبربريتها فدمرت المنازل والأحياء ، وأشعلت الحرائق ، ونهبت المتاجر واغتصبت النساء ، ولم تفرق فى بطشها بين رجل وطفل ، أو بين امرأة وكهل ، بل لم ينج الفن والجمال ، فدمرت قصر الصيف الإمبراطورى المسمى « يوان منج يوان » وكانت له شهرة عالمية كآية من آيات الفن البديع ، ونهب ممثلو حضارة الغرب التحف والرياش التى يزخر بها القصر ، ودكوا عاليه سافله ، حتى أصبح أثراً بعد عين تشهد عليه بضعة حيطان خربة بين أكوام من الركام ، فضربوا بذلك مثلا عمليًّا على مدى تقديرهم للفن !

ولم تحاول حكومة المانشو مقاومة الأجانب أو استرجاع بكين بل جثت على قدميها تطلب المغفرة وتقدم المعاذير ، فوقعت مع بريطانيا وفرنسا اتفاقيتين فى بكين أيدتا نصوص معاهدة تيانتسين ، وضمت تيانتسين نفسها إلى مدن المعاهدة وتنازلت عن جزء من مدينة كولون لبريطانيا ، وضوعفت غرامة الحرب لكل من الدولتين الظافرتين إلى ٨ ملايين تايل من الفضة .

وهنا طلبت الولايات المتحدة وروسيا القيصرية اللتان لم تشتركا فى حرب الأفيون الثانية اشتراكاً فعلياً التمتع بنفس المزايا العينية التى منحتها حكومة المانشو للإنجليز والفرنسيين بمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية وأجيبتا إلى طلبهما !

ومن العجب أن اتفاقيات بكين وتيانتسين غير المتكافئة أنهت إلى الأبد صفحة العداء بين حكومة المانشو والاستعمار الأجنبى بدلا من أن تزيد حدة العداء ، فكان ذلك مصداقاً للمثل القائل « لا محبة إلا بعد عداوة » فلم تعد حكومة المانشو بحاجة إلى تطبيق سياستها المزدوجة فى ممالأة الأجانب أو الشعب طبقاً لقوة كل من الجانبين وقدرته على تهديدها ، وكذلك لم يعد الأجانب بحاجة إلى تطبيق سياستهم المزدوجة فى التذبذب بين صداقة المانشو والتايبنج ليحصلوا على أكبر قدر من الغنيمة ، وإنما وضع الأجانب أيديهم فى أيدى المانشو ، ووضع المانشو ثقتهم فى الأجانب ، وبدأ الطرفان وهما يقفان فى صف واحد يوليان وجههما نحو عدوهما المشترك . . ثورة التايبنج الشعبية .

والواقع أن حكومة المانشو كانت من الخبث والدهاء بحيث ضمنت اتفاقياتها مع الأجانب نصوصاً تلزم القوى الأجنبية باتخاذ إجراء ضد التايبنج إذا أرادت سريان هذه الاتفاقيات ،

أو بمعنى آخر تكاد تكون هذه الاتفاقيات فى شطر كبير منها معلقة على شرط إخماد ثورة التايبنج ، فمن هذا القبيل مثلا ذلك الشرط الذى ورد فى اتفاقيتها مع بريطانيا والذى ينص على حق السفن البريطانية فى الملاحة فى نهر اليانجتسى « حالما يستقر السلام » فى الأراضى التى يحتلها التايبنج ، وذلك الشرط الآخر فى اتفاقيتها مع فرنسا الذى يعد بفتح نانكينج للفرنسيين بمجرد استخلاصها من قبضة التايبنج ، كما أن هذه الاتفاقات نصت على مشروعية تجارة الأفيون مما جعل التايبنج الذين لا يعترفون بهذه المشروعية بمثابة منتهكين للقانون الدولى !

وما إن صفى الأجانب حسابهم مع حكومة المانشو على هذا النحو حتى بدءوا يلتفتون إلى التايبنج فسحبوا تأييدهم لهم ، وأخذت أبواقهم وصحافتهم الوطنية تمهد الأذهان للقضاء عليهم بشن حملة من الدعاية والأكاذيب ضد الثورة ، فلم تعد فى نظرها حركة مسيحية تقدمية متنورة وإنما أصبحت حركة فوضوية غيبية متعصبة ، وأخذوا يروجون عنهم قصص الوحشية والتعذيب (نفس ما حدث فى اتهام حركة الاستقلال فى الكونغو بعد مائة عام!) أما دولة المانشو التى دمغت بالأمس بالفسادوالرجعية فقد أصبحت الآن قوة أمن واستقرار وحارسة للتجارة والشرعية !

وفى عام ١٨٦١ أى بعد توقيع اتفاقية بكين بسنة واحدة زار أحد المسئولين البريطانيين ويدعى ألكسندر ميشى نانكينج عاصمة التايبنج وعاد ليقدم تقريراً عن زيارته يختلف كلية عن لهجة التقارير الغربية السابقة فقال : « ليس عندى أدنى أمل فى أية فائدة ترتجى من حركة الثوار .. انها حركة يتبرأ منها كل صينى مهذب ، فليس هناك ما يفعلونه سوى الحرق والقتل والتخريب » .

لقد بدأ التعاون الفعلى بين الأجانب والمانشو ضد التايبنج قبل انتهاء حرب الأفيون الثانية ، ففى عام ١٨٦٠ بينما كان القتال دائراً بين المانشو والقوات البريطانية الفرنسية فى الشمال هاجم أحد جيوش التايبنج بقيادة الجنرال الشهير « لى هسيو شينج » مدينة شنجهاى ، فتعاونت القوات الأجنبية المقيمة فى مشارف المدينة مع قوات المانشو للدفاع عنها ، وبفضل هذا التعاون تمكنت قوات المانشو من صد هجمات التايبنج والصمود فى وجه الحصار الذى فرضته على المدينة حتى اضطر لى هسيو شينج إلى الانسحاب ، ورفضت القوات الأجنبية فى شنجهاى طلب المانشو تعقب قوات التايبنج ، ولكن أحد المرتزقة الأمريكيين ويدعى « فريدريك تاونسند وارد » اقترح على سلطات المانشو أن يتولى إعداد قوة من المرتزقة لمهاجمة معاقل

التايبنج فى سونج كيانج بإقليم كيانجسو لحساب المانشو نظير مكافأة قدرها ٣٠ ألف تايل من الفضة وسارعت حكومة المانشو إلى إجابته إلى طلبه، فما قيمة ٣٠ ألف تايل من الفضة إلى جانب تلك المبالغ الطائلة التى تنفق على الأجانب — إرضاء لهم أو اتقاء لشرهم — دون خدمة يؤدونها .

وكوّن وارد قوة صغيرة تضم مائة من المرتزقة الأجانب من بينهم بريطانيون وفلبينيون ، وهاجم بها سونج كيانج ، فرد على أعقابه فى أول محاولة ، ثم نجح فى المحاولة الثانية فى احتلال المدينة واتخاذها قاعدة لعملياته فى المستقبل ، وبالرغم من أنه منى بهزائم ساحقة فيما بعد ولا سيما عندما حاول الهجوم على شينجبو ، إلا أن نجاحه فى سونج كيانج كسب له ثقة المانشو ، فبدءوا يجيبونه إلى كل ما يطلب ، وشرع وارد فى تكوين جيش كبير من المرتزقة والمجندين الصينيين الذين يشرف على تدريبهم ضباط بريطانيون وأمريكيون ويزودون بأحدث الأسلحة الغربية .

كان هذا التعاون العسكرى بين المانشو والأجانب يثير شيئاً من الصعوبة لدى الطرفين ، فهما مشتبكان فى حرب رسمية لم يخب أوارها بعد فكيف بهما يتحالفان فى حرب أخرى ؟

ولكن سلطات المانشو حلت هذه الصعوبة بترك الأمر فى يد تجار شنجهاى وطبقتها الأرستقراطية فهم الذين يتصلون بالأجانب ويبحثون معهم كل ما يتعلق بشئون التحالف والقتال المشترك دون أن تظهر سلطة الحكومة إلا وراء ستار ، وكذلك كان الأجانب من جانبهم يبررون الأمر بأنهم إنما يدافعون عن المستقرات الأجنبية فى شنجهاى . وكان الإنجليز يحتجون أحياناً لدى الأمريكيين على نشاط فريدريك وارد متهمينه بإغراء الجنود البريطانيين على الهرب من الخدمة النظامية والانضمام كمرتزقة إلى قواته ، وفى إحدى المرات اعتقل القنصل الأمريكى تاونسند وارد فى إحدى السفن العسكرية الأمريكية بتهمة أن نشاطه يعتبر انتهاكاً لمبدأ الحياد بين المانشو والتايبنج — ولكنه لم يلبث أن سمح له بالفرار وظهر مرة أخرى فى سونج كيانج يدرب الجنود الصينيين بمساعدة « الهاربين » البريطانيين .

وبعد توقيع اتفاقيتى بكين لم يكن هناك ما يدعو إلى استمرار هذا النفاق المتبادل بين الطرفين ، فألقى الأجانب قناع الحياد بعيداً ، وراحوا يقدمون كل المساعدات الممكنة وعلى أوسع نطاق لقوات المانشو والمرتزقة ، فمنح البريطانيون القوات المتحالفة كميات هائلة من الأسلحة الحديثة منها بندقية

« أنفيلد » التى لم تكن قد استخدمت بعد فى أوربا ، وكذلك زوارق بخارية مسلحة حديثة الاختراع ولم تستخدم أيضاً فى بلادها . وهكذا كان الصينيون حقل تجارب لأسلحة الغرب الحديثة .

ونظمت القوات المتحالفة للثورة المضادة صفوفها تحت قيادة متناسقة فى مدن الصين الساحلية ، وتقدمت تحت إشراف مستشارين بريطانيين للقضاء على ثورة التايبنج ، ولكن ثورة التايبنج ردت بقوة وعنف وشجاعة ، وفى أوائل عام ١٨٦٢ هزم قائد التايبنج العظيم لى هسيو شينج قوات المانشو والمرتزقة الأجانب فى معركة كبرى بالقرب من شنجهاى قتل فيها القائد الفرنسى الجنرال بروتيه ، وصدت قوات المرتزقة المسماة « بالجيش الظافر دائماً » تحت قيادة فريدريك تاونسند وارد وقتل وارد نفسه فى إحدى المعارك .

وبعد مقتل فريدريك وارد خلفه فى قيادة قوات المرتزقة الميجور غوردون البريطانى (الذى لقى حتفه بعد ذلك بسنوات طويلة فى حرب استعمارية أخرى ضد شعب السودان) وكان غوردون استعمارياً قحاً يخفى استعماريته تحت ستار من الصليبية الغربية والهوس الدينى ، وكان غوردون قد اشترك

كجندى نظامى من قبل فى حرب الأفيون الثانية وشارك فى حرق قصر « يوان منج يوان » الزاخر بالكنوز البديعة ، ولكنه كان قبل أى شيء جندياً عبقرياً لا شك فى كفاءته ، وأصبحت تحت قيادته قوة كبيرة من المرتزقة مجهزة بأحدث الأسلحة فى حين أن قوات التايبنج كانت لا تزال تحارب بالبنادق التقليدية والرماح .

وتقدمت قوات الثورة المضادة متشجعة بالانقسامات الداخلية فى صفوف التايبنج فاحتلت نينجبو وشاوشينج وهانجشاو وغيرها من مدن إقليم شيكيانج ، وفى مايو ١٨٦٢ وصلت إلى ضواحى تيان شينج عاصمة التايبنج ، وأبدى المدافعون عن عاصمة الثورة بطولة أسطورية طوال أربعين يوماً من القتال المرير ولكنهم عجزوا فى النهاية عن رد المهاجمين الذين تقدموا لمحاصرة المدينة .

وفى يونيو ١٨٦٤ انتحر هونج هسيو شوان زعيم ثورة التايبنج يائساً من النصر ، وكان الغزاة يدقون أسوار المدينة ، ولكن المدافعين عنها لم يستسلموا بل استمروا رغم يأسهم ، ونقص عددهم ومواردهم ، فى الدفاع عن ثورتهم ، وحاول بعضهم الانتحار بالاندفاع بدون روية فى صفوف العدو ليصنعوا

لأنفسهم ميتة مجيدة، وبنى آخرون محارق وأشعلوا أنفسهم أحياء، وعندما سقطت تيان شينج فى أيدى قوات الثورة المضادة لم يكن فيها من جيش الثورة أكثر من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى بعد أن كان هذا الجيش يضم مئات الألوف من قبل .

وأسر القائد الرجعى الكبير تسينج كوفان غريمه القديم لى هسيو شينج وأعدمه علناً .

وبذلك طوى التاريخ صفحة من أمجد صفحات كفاح الشعب الصينى .

٨ — أسماك القرش

بعد هزيمة التايبنج وإخماد القلاقل التى أثارتها الأقليات الأخرى أصبحت الصين مفتوحة كالفراغ أمام الدول الأجنبية تتناوشها كأسماك القرش من كل جانب .

وكل تاريخ الصين بعد حرب الأفيون الثانية إلى نهاية القرن التاسع عشر عبارة عن محاولات الدول الأجنبية اقتطاع أوصال الصين ، ونهب مواردها ، واقتسام مناطق النفوذ فيها .

وقد واصلت الدول الأجنبية سياستها التقليدية المعروفة وهى الاتحاد فى وجه الصين رغم ما بينها من عداء ومتناقضات

يساعدها على ذلك جسامة الغنيمة التى تتكالب عليها ، فلم يكن هناك ما يدعوها إلى العراك فيما بينها على موارد لا تنضب وإنما هى تكفل الإشباع للجميع .

وكانت الدول الأجنبية قد بلغت فى ذلك الوقت مرحلة متقدمة من نموها الرأسمالى وتطورها الاستعمارى ، وبدأت فى تصدير رأس المال المستغل إلى الصين ، فأنشأت فيها البنوك والمصارف وأصدرت أوراق البنكنوت ، وتصرفت فى الودائع والمدخرات الصينية ، وأصبحت هذه البنوك منذ يومها الأول من الأدوات الحاسمة للعدوان الرأسمالى فى الصين .

لقد أخذت الدول الاستعمارية تقوم باستثمارات ضخمة فى الصين فأقامت المصانع المختلفة ، واستولت على المواد الخام الصينية بأرخص الأثمان ، ومدت خطوط السكك الحديدية بين مدن الصين وعبر أراضيها الشاسعة ، وحصلت على امتيازات التعدين لاستغلال ما تزخر به أراضى الصين من الفحم والحديد ومختلف المعادن مما أدى إلى ربط الاقتصاد الصينى تماماً بعجلة الاستعمار الرأسمالى وزاد من بؤس الشعب الصينى وشقائه .

ولن نحاول إعطاء صورة تفصيلية لعملية انتهاب الصين

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولكن يكفى إلقاء نظرة سريعة على أطماع كل دولة وتصرفاتها ، تلك التصرفات التى تركت آثار أسنان القرش فى جسد الصين الطرى .

ولنبدأ ببريطانيا عميدة الدول الاستعمارية ورأس رمحها المصوب إلى قلب الصين ، فنجد أن بريطانيا تسارع إلى احتلال بورما فى أوائل الستينات لتتخذها لوحة قفز إلى جنوب الصين ، وقاعدة لعملياتها العسكرية فيها ، وحاولت بريطانيا فى أول الأمر استغلال الثورة التى قام بها المسلمون فى يونان لصالحها ، فأيدت بالاشتراك مع الإمبراطورية العثمانية الثورة التى قام بها يعقوب الكبير فى جنوب سينكيانج بين عامى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ وكان الهدف من ذلك اقتطاع منطقة « كاشجار » من الصين لتكون حاجز اصطدام للهند ، وفى عام ١٨٧٦ زعمت بريطانيا أن مترجماً إنجليزياً قتل فى يونان ، وتقدمت بطلبات عسيرة إلى الصين مما اضطر الصين إلى توقيع اتفاقية كيفو مع الإنجليز ، وأثبتت الاتفاقية اعتذار الصين عن الحادث ودفع غرامة تعويضية كبيرة، ومنحت بريطانيا حقوق المعاهدات السابقة فى الأقاليم الجنوبية الغربية للصين . كما أرغمت بريطانيا الصين على التخلى عن حقوقها فى

نيبال وحولتها إلى محمية بريطانية ، وفى أواخر القرن وضعت يدها على ويهاهوى وأقسمت أن تظل فيها طالما أن روسيا القيصرية تحتل ميناء بورت آرثر .

وأرسلت روسيا القيصرية قواتها إلى القطاع الشمالى من إقليم سيكيانج لتواجه توسع بريطانيا فى الجنوب ثم انسحبت عام ١٨٨١ ولكنها لم تلبث فى عام ١٨٩٨ أن أرغمت الصين على تأجير قاعدة بورت آرثر وميناء وارين التجارى لمدة ٢٥ عاماً .

أما فرنسا فقد احتلت فيتنام على الحدود الجنوبية الشرقية للصين فى عام ١٨٥٨ لتتخذها قاعدة للتسلل والعدوان فى إقليمى يونان وكوانجسى وهاجمت هانوى فى عام ١٨٧٣ بهدف الاستيلاء على النهر الأحمر كطريق للتغلغل فى قلب الصين ، وحدث أن كانت قوة مسلحة من الفلاحين الصينيين تقف على الحدود الصينية الفيتنامية فسارعت إلى نجدة الفيتناميين مما أدى إلى هزيمة الفرنسيين فى عدة مواقع ، فتعللت فرنسا بذلك لإعلان الحرب على الصين بحجة أنها اعتدت على فيتنام (ا) وبذلك قامت الحرب الصينية الفرنسية الشهيرة التى منيت فيها فرنسا بهزائم فادحة ، فقد فشل الهجوم الذى شنته القوات الفرنسية على كيلونج بشمال تايوان وألقى بها فى البحر ، كما

فشلت محاولة فرنسية أخرى للهبوط فى ثان شوى وقتل فيها مائتا جندى فرنسى . ولقى الفرنسيون هزائم أخرى ماحقة فى تايوان ، ولكنهم لم يقنعوا بكل هذه الهزائم فشنوا فى عام ١٨٨٥ هجوماً آخر من فيتنام على شيناتكوان وهى بلدة على حدود الصين الجنوبية صد كذلك بخسائر فرنسية جسيمة بلغت أكثر من ألف قتيل وجريح وهرب باقى الجنود الفرنسيين . وعلى الرغم من كل هذه الهزائم التى منى بها الفرنسيون فقد أرغموا حكومة المانشو فى يونيو ١٨٨٥ على توقيع معاهدة صلح مهينة فتحت لفرنسا أبواب جنوب غربى الصين ، وأرغمت الصين على التنازل عن حقوق الدول الكبرى فى فيتنام . وفى عام ١٨٩٨ استولت فرنسا بالقوة على خليج كوانجشو شوان فى جنوب الصين .

وعلى العكس من الحرب الصينية الفرنسية التى سجلت فيها الصين انتصارات باهرة دارت الدوائر على الصين فى حربها مع اليابان فى عامى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ وكانت اليابان قد بدأت تضغط على الصين للتخلى عن حقوقها التاريخية فى كوريا . وفى عام ١٨٩٤ أسعفتها الظروف بقيام ثورة شعبية كبرى فى كوريا هى ثورة تونجان التى قام بها الفلاحون الكوريون ضد فساد الحكم ومظالم الإقطاع ، واقتحم الفلاحون الثائرون

مخازن الغلال ووزعوها على الشعب الجائع الذى التف حول الثورة وأيدها بحماسة بالغة ، وخلال شهور قليلة انتشرت الثورة من الجنوب إلى الشمال وإلى كل أنحاء البلاد ، وكاد الأمر أن يخرج كلية من يد حكومة كوريا فناشدت حكومة المانشو فى الصين مساعدتها فى إخماد الثورة ، وأرسلت الصين قواتها بالفعل فاجتازت الحدود الشمالية لكوريا ووصلت إلى بيونج يانج . وهنا استغلت اليابان الفرصة وأرسلت قوات مماثلة إلى كوريا .

وبعد أن أخمدت ثورة الفلاحين الكوريين اقترحت حكومة الصين انسحاب القوات الصينية واليابانية معاً من كوريا ، ولكن اليابان رفضت الانسحاب وقررت البقاء بحجة مساعدة الكوريين فى إنجاز الإصلاحات الداخلية ولم تكتف اليابان بذلك بل قامت باحتلال العاصمة سيول مما أدى إلى تفاقم حدة الأزمة ، وتواجه الجيشان الصينى واليابانى على خط عرض ٣٨ .

وفى يوليو ١٨٩٤ هاجمت القوات اليابانية بدون إعلان حرب الأسطول الصينى فى المياه الكورية ، فقامت الحرب بين الصين واليابان ، وخلال شهرين اضطرت القوات الصينية إلى الارتداد عن كوريا فتعقبتها القوات اليابانية إلى داخل الصين

واحتلت ويهاى وبورت آرثر ، وأبدى الصينيون بطولات رائعة في الدفاع عن وطنهم ولكنهم فشلوا فى صد اليابانيين الذين يأخذون بأساليب الحرب الحديثة ، وراحت حكومة المانشو تناشد بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة العمل على إنهاء التدخل اليابانى ، ولكن الدول الأجنبية تجاهلت هذه النداءات زيادة فى إذلال الصين وإضعافها،وأخيراً خشيت الولايات المتحدة أن يؤدى استمرار الحرب بين الصين واليابان إلى تدخل الدول الأخرى بما يسىء إلى المصالح الأمريكية فسعت لدى اليابان حتى أقنعتها بوقف القتال ، وكان اليابانيون قد وصلوا بالفعل إلى حد الإنهاك وأوشكوا على الانسحاب من تلقاء أنفسهم ، ولكن تدخل الولايات المتحدة رفع من أسهمهم فى التفاوض ، وفى مارس ١٨٩٥ وقعت الصين معاهدة شيمونوسيكى مع اليابان واستجابت فيها إلى جميع المطالب اليابانية فقد تنازلت بمقتضاها عن تايوان وجزر بسكادور وشبه جزيرة لياو تونج لليابان ، وفتحت شاسى وشونج كينج وشوشو وهانج شو كموانئ معاهدة لليابان ، واعترفت بحق اليابان فى إقامة المصانع على الأراضى الصينية ، وتنازلت عن كل حقوقها فى كوريا ، ومنحت اليابان غرامة حرب كبيرة مقدارها ٢٠٠ مليون تايل من الفضة .

وبمقتضى شرط الدولة الأكثر رعاية حصلت الدول الأجنبية الأخرى على نفس الحق فى إقامة المصانع فى الصين ، ولكنها رغم ذلك حقدت على اليابان استئثارها بكل هذه الامتيازات التى منحتها لها اتفاقية شيمونوسيكى فتقدمت روسيا القيصرية وفرنسا وألمانيا بإنذار إلى اليابان فى أبريل ١٨٩٥ طلبت فيه إعادة جزر بنجو وشبه جزيرة لياوتونج إلى الصين فقد خشيت الدول الثلاث أن يؤدى احتلال اليابان لهذه المناطق الاستراتيجية الهامة إلى قطع الطريق على توسعها فى الشرق الأقصى ، ولم تستطع اليابان أمام إصرار الدول الثلاث وعزمها على استخدام القوة إلا أن تخضع للإنذار وتقوم بسحب قواتها من تلك المناطق نظير تعويض إضافى من الصين قدره ٣٠ مليون تايل من الفضة

أما ألمانيا فقد استغلت مقتل اثنين من المبشرين الألمان واستولت على ميناء تسينجتاو بخليج كياوشو — وهو أكبر موانئ شمال الصين — فى عام ١٨٩٧ ، وفى مارس من العام التالى وقعت اتفاقية غير متكافئة مع حكومة المانشو أطلقت يدها فى تأجير شبه جزيرة شانتونج الشرقية لمدة ٩٩ عاماً أى حتى عام ١٩٩٧ !

وأخيراً نأتى للولايات المتحدة الأمريكية . . وكان لها أيضاً نفس القصة الاستعمارية مع الصين ، ففى عام ١٨٦٧ انتهزت

الولايات المتحدة فرصة غرق إحدى سفنها بالقرب من تايوان فهاجمت قواتها الأجزاء الجنوبية من الجزيرة وشنت غارات وحشية على الأهالى بحجة تأديبهم لقتل بحارة السفينة الغارقة ولكن أهالى تايوان حاربوا بشجاعة فائقة وهزموا الغزاة الأمريكيين.

وبين عامى ١٨٦٧ و ١٨٧١ قام الأمريكيون بغزوات مسلحة ضد كوريا جارة الصين فى الشمال الشرقى ، وفى إحدى هذه الغزوات الفاشلة قتل ٣٥٠ كوريًّا بقصف مدافع الأسطول الأمريكى .

وشجعت الحكومة الأمريكية اليابان على احتلال جزر ليوشيو الصينية (أوكيناوا) مقابل السماح للسفن الأمريكية بإقامة قاعدة فيها .

وكانت الدبلوماسية الأمريكية تعمل دائماً على إساءة العلاقات بين اليابان والصين بتشجيع اليابان على احتلال تايوان حتى إن السفن الأمريكية هى التى نقلت قوات الغزو اليابانية إلى تايوان فى عام ١٨٧٤ ، وقد انسحب اليابانيون بعد ذلك ليعودوا إلى احتلال الجزيرة احتلالا كاملا عام ١٨٩٤ .

والواقع أن الولايات المتحدة كانت قد خرجت فى أواخر القرن التاسع عشر من حربها مع أسبانيا للسيطرة على كوبا

والفلبين ضعيفة عسكريـًا ومنهكة اقتصاديـًا ولكنها لم تكن أقل شراهة للاستعمار من الدول الاستعمارية العريقة الأخرى بل قد تكون أكثر منها تحرقاً للحصول على نصيب من المستعمرات فى وقت بدت فيه الدول الرأسمالية تقتسم العالم كغنيمة باردة ، ولكنها كانت أعجز من أن تحقق أحلامها فى تحويل المحيط الهادى إلى بحيرة أمريكية .

لم تكن الولايات المتحدة قادرة على منافسة الدول الاستعمارية القوية الأخرى فى ميدان استعمار الصين ، ولذلك لجأت إلى سياسة ملتوية لتحقيق أغراضها هى التى عرفت بسياسة « الباب المفتوح » ، وقد أعلنها وزير خارجيتها جون هاى فى عام ١٨٩٩ ، ومضمون هذه السياسة أن تعترف كل دولة أجنبية بمناطق نفوذ الدول الأخرى فى الصين ولا تنازعها فى حقوقها وامتيازاتها ، وذلك مقابل أن تفتح كل دولة مناطق نفوذها أمام التجارة الحرة للدول الأخرى ، وبذلك يستطيع الاقتصاد الأمريكى الفتى الناشئ أن ينفذ إلى كل أجزاء الصين بلا مشقة ولا عقبات ودون أن يحتاج إلى تغطية مباشرة ومستمرة من قوة الدولة العسكرية والدبلوماسية .

ولذلك كان من الطبيعى أن تقف الدول القوية عسكريـًا

والضعيفة اقتصادياً مثل روسيا القيصرية موقفاً بارداً من هذه السياسة ، ولكن سياسة الباب المفتوح وضعت بالفعل موضع التنفيذ بفضل تأييد بريطانيا التى كانت أقوى الدول مالياً وتجارياً، وكانت تريد مد نفوذها الاقتصادى إلى مناطق النفوذ الأخرى الروسية والفرنسية والألمانية واليابانية .

ويحاول بعض الكتاب الأمريكيين الدفاع نفاقاً عن سياسة الباب المفتوح زاعمين أن الغرض منها المحافظة على سيادة الصين واستقلالها ، ولكن الحقيقة أنها كانت على العكس من ذلك تماماً لا تهدف إلى شيء إلا تجنيب الدول الاستعمارية الصراع فيما بينها على استغلال الصين . وهى كما أسماها أحد الكتاب الأمريكيين « سياسة أنا أيضاً » ، وعلى أية حال فإن أحداً لم يسأل الصين عما إذا كانت تريد أن تترك بابها مغلقاً أم مفتوحاً !

وقد أدت السياسة الاستعمارية فى الصين وعملية الابتزاز المنظمة المستمرة لمواردها إلى إفلاس الخزانة الصينية واضطرارها إلى الاستدانة من مستغليها،فقبل عام ١٨٩٥ كانت ديون الصين للدول الأجنبية لا تكاد تذكر ، ولكن فى السنوات الخمس التالية استدانت الصين مبالغ مجموعها ٣٧٠ مليون

تايل من الفضة أى ما يساوى ٥٠ مليون جنيه إسترليني (بعملة ذلك الوقت) لدفع غرامتها لليابان وسداد التزاماتها الأخرى ، وحصلت الصين على هذا القرض بفوائد عالية من مجموعتين ماليتين إحداهما روسية فرنسية والأخرى إنجليزية ألمانية ، وتنازلت الصين كضمانة لسداد القرض عن حق تحصيل رسوم الجمارك وبعض رسوم النقل الداخلى وضريبة الملح للأجانب ، وبذلك وقع الاقتصاد الصينى تماماً فى قبضة المستعمرين ، وظلت الصين تسدد ديونها لروسيا وفرنسا حتى عام ١٩٣١ وديونها لإنجلترا وألمانيا حتى عام ١٩٤٣ .

ولتعويض عجز الخزانة الصينية وإنقاذها من الإفلاس اشتط حكام المانشو فى زيادة الضرائب المحلية مما جعل كل الحمل يقع على كاهل الشعب البائس الفقير .

هبة الملاكمين

أواخر القرن التاسع عشر أصبحت الصين تموج بالتيارات الفكرية والسياسية المختلفة بحثاً عن حل للأزمة الوطنية . .

كانت هناك الدوائر الحاكمة والطبقة الأرستقراطية التى رأت

أن المخرج يكمن في ضمان صداقة الأجانب ، والقيام بحركة تغريب واسعة في الإدارة والثقافة والتعليم ، وإدخال الصناعات الحديثة ولا سيما صناعة الأسلحة والترسانات البحرية والسكك الحديدية لإرهاب الشعب وإشعاره بقوتها دون المساس بالأوضاع التقليدية المحافظة في المجتمع الصيني .

وكان هناك دعاة الإصلاح الاجتماعي من البرجوازيين المعتدلين الذين يرون أنه لا يكفي الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية وإنما يجب النفاذ إلى لبها وجوهرها بما في ذلك إصلاح النظام الإقطاعي السياسي والأخذ بالملكية الدستورية المقيدة .

وكان هناك فريق آخر من البرجوازيين الثوريين الذين يمثلهم صن يات صن ، ويلتف حوله المبعوثون الصينيون في الخارج ، وهؤلاء يرون أن لا مخرج إلا بالقضاء على النظام الملكي الفاسد من جذوره وإنشاء جمهورية حديثة فتية .

وأخيراً كان هناك تيار شعبي عارم تمثله الجمعيات السرية التلقائية المتعددة المنتشرة في جميع أنحاء الصين ، وهو تيار ليس له زعماء معينون ، وليست لديه خطة واضحة للإصلاح ولكنه يتميز بطاقة ثورية هائلة موجهة في المحل الأول ضد الأجانب وما يمثلونه من خطر مادي ومعنوي .

وقد جرب كل من هذه التيارات حظه ، وساهم بما يستطيع فى تطوير الحركة الوطنية فى الصين ، فأما الرأسماليون المحافظون فقد بدءوا فى الظهور كطبقة جديدة ناشئة نتيجة لإقدام التجار وبعض الإقطاعيين وكبار الموظفين على استثمار أموالهم فى الصناعة ، وقد وجدت الرأسمالية المحلية فى بداية نشأتها مقاومة وكراهية من الرأسمالية الاستعمارية والإقطاع الداخلى مما جعلها تأخذ فى أول الأمر طابعاً وطنياً ولكن ذلك كان إلى حين ، فسرعان ما انحازت نهائياً إلى صفوف الاستعمار وأعداء الشعب.

أما البرجوازيون الإصلاحيون فكانت لهم حركة قوية فى نهاية القرن انتهت بمأساة ، وسبب هذه المأساة أنهم وثقوا فى الرجعية أكثر مما يجب بل خيل إليهم أنهم مستطيعون تحقيق أهدافهم فى الإصلاح عن طريق نفس الأجهزة الرجعية التى تعوق بطبيعتها التقدم الاجتماعى ، كان مثلهم الأعلى اليابان التى أخذت بالروح الغربية مع الإبقاء على كل تقاليدها القومية بما فيها النظام الملكى الإمبراطورى ، وكان يمثل هذه الحركة رجال من أمثال « كانج يو — وى » و « يانج شى شاو » و « ثان تسى تونج » الذين اشتهروا باطلاعهم الواسع على النظرية السياسية الغربية مع التضلع فى التراث الثقافى الصينى

وسيطروا فعلا بأفكارهم على المجرى العام للتفكير فى الصين فى أواخر القرن التاسع عشر فأنشأوا الصحف والجمعيات الثقافية والعلمية وروجوا شعارات الإصلاح وقدموا العرائض إلى القصر والمسئولين شارحين وجهة نظرهم ومحذرين من الهاوية التى تتردى فيها البلاد .

ونجح دعاة الإصلاح هؤلاء فى الوصول إلى قلب الإمبراطور الشاب « كوانج هسو » الذى كان يواجه مؤامرات رجعية عنيفة فى القصر الإمبراطورى تدبرها عمته الداهية « دو — واجر تزو هسى » ففتح الإمبراطور صدره لدعاة الإصلاح وعين « كانج يو — وى » وبعض زملائه أعضاء فى المجلس الاستشارى الكبير الذى يرأسه الإمبراطور شخصياً لمساعدته فى إصدار المراسيم ودراسة المذكرات والعرائض التى ترفع إليه .

وبين شهرى يونيو وسبتمبر عام ١٨٩٨ أصدر الإمبراطور « كوانج هسو » عدداً من مراسيم الإصلاح بوحى من بطانته التقدمية شملت إلغاء نظام الكتابة التقليدية المعقدة ، وتخفيض عدد موظفى الحكومة والحرس الإمبراطورى ، وإنشاء بنك وطنى ومؤسسة عامة للتعدين والسكك الحديدية ، وديوان للزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع مشروع لميزانية الدولة ، وإنشاء

مدارس حديثة ، والتوسع فى الصناعات المختلفة ، ونشر الكتب والمخترعات ، وإنشاء مكتب للترجمة عن اللغات الغربية ، والأخذ بنظام التدريب الحديث فى الجيش ، وإقرار حق جميع المواطنين فى توجيه النداءات المباشرة إلى العرش .

وأخطأ دعاة الإصلاح فى اعتقادهم أن الأمر لا يتطلب أكثر من إصدار هذه المراسيم حتى يصبح كل شىء على ما يرام ، ففى الواقع لم يوضع أى مرسوم منها موضع التنفيذ ، بل أثار هذا الاتجاه رد فعل قويًّا من الدوائر الإقطاعية ، وكانت السلطة الحقيقية فى البلاط فى يد الإمبراطورة الشمطاء الرهيبة « دو — واجر تزو هسى » التى كانت الزوجة المفضلة للإمبراطور السابق « هسيين فنج » وعمة الإمبراطور الحالى « كوانج هسو » وأصبحت وصية على العرش منذ تولى كوانج الحكم وهو فى الرابعة من عمره إلى أن بلغ سن الرشد ، وأثناء فترة حكمها الطويل استطاعت أن تجعل الكثيرين من الوزراء والقادة العسكريين رجالا مخلصين لها تحركهم كالخاتم فى أصبعها ، وظلت تتمتع بالسلطة الحقيقية من وراء العرش ، وبالطبع كانت تلك المجموعة الرجعية الفاسدة تخشى الاتجاهات الخطيرة التى بدأ يتورط فيها الإمبراطور الشاب

المارق ، فكرست كل قواها لتخريب حركة الإصلاح ، وفى ١١ يونيو من نفس العام قامت الإمبراطورة وأعوانها بحركة مضادة مفاجئة فاعتقلوا الإمبراطور كوانج فى قصره وألقوا القبض على جماعة من أنصاره فاعدموا بعضهم بقطعهم نصفين بالسيف ، وزجوا بآخرين فى غياهب السجون ، وفر باقى دعاة الإصلاح إلى أعماق الريف أو خارج البلاد ، وبذلك بترت حركة الإصلاح التى استمرت ١٠٣ أيام ، وعرفت بإصلاحات المائة يوم .

والواقع أن السبب الحقيقى لفشل حركة الإصلاح ليست الإمبراطورة دو واجر فى حد ذاتها ، وإنما لأن هذه الحركة كانت تسعى لتحويل الصين إلى دولة رأسمالية دون القضاء على النظام الإقطاعى فيها وبمعزل عن الاحتياجات الحقيقية للشعب الثائر المتعطش للعدالة الاجتماعية ، كما كان دعاة الإصلاح هؤلاء يظنون أن فى إمكانهم تحقيق أهدافهم عن طريق الإمبراطور الذى مهما بلغ من حسن النية يعتبر قمة الهرم الاجتماعى السياسى الفاسد . وعلى أية حال فقد أثبت فشل هذه الحركة أن الطريق مغلق تماماً فى وجه الإصلاح البرجوازى فى الصين .

كان دعاة الإصلاح فى معزل تام عن تيار الشعب الهادر ، ففى تلك الفترة قام الفلاحون تلقائيًا بالثورة ضد العدوان الأجنبى فى حركة عرفت بهبة الملاكمين أو البوكسرز التى نجحت فى سنوات قليلة فى اكتساح الصين كألسنة اللهب لتعيد إلى الأذهان ذكرى ثورة التايبنج العظيمة .

وقد نشأت هذه الحركة أصلا فى إقليم شانتونج عن إحدى الجمعيات السرية الكثيرة المنتشرة فى صفوف الشعب وهى جمعية « إى هو توان » ومعناها « جمعية الفضيلة والنظام » وكانت على خلاف التايبنج توجه عداءها أساساً إلى الأجانب ولا سيما البعثات التبشيرية المسيحية ، وكان هناك ما يبرر هذا العداء ، فقد كانت هذه الإرساليات التبشيرية على احتكاك مباشر بالشعب على العكس من البعثات الدبلوماسية والعسكرية الأجنبية التى كانت تتركز فى عدد قليل من المدن الكبيرة ، ولم تكن البعثات التبشيرية تراعى مشاعر الشعب الصينى بل كانت تمتهن عاداته وتقاليده وحقوقه ، فاستولت على أراضى الفلاحين وممتلكاتهم بطرق ملتوية ، وتدخلت فى القضاء الصينى ، وأنشأت محاكمها الخاصة ، وحمت المجرمين الفارين من العدالة الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية ، وكانت مسئولة عن كثير

من ألوان القتل والاضطهاد

لذلك كان من الطبيعي أن يوجه الشعب عداءه نحو هذا الخطر المباشر وكانت جمعية « أى هو توان » أكبر قوة شعبية تصدت لهذا الخطر بالعمل الإيجابي فكانت .تدرب أعضاءها على فن الملاكمة الصينية . واستخدام الأسلحة القديمة وعندما بدأت قوة الملاكمين تزداد فى منطقة شانتونج دمغتها حكومة شينج بالإلحاد والإرهاب وأمرت سلطات الإقليم بحظر نشاطها ، ولكن يو هسين حاكم شانتونج أحس فى نفسه العجز عن ذلك ورأى أن من حسن السياسة محاولة استغلال هذه القوة الفلاحية المسلحة لخدمة طبقة الأسياد لا سيما أنها ترفع شعار تأييد الأسرة المالكة وإبادة الأجانب .

وواصلت الدول الأجنبية الضغط لدى حكومة المانشو لإرغامها على سحق الحركة ، واضطرت الحكومة بالفعل إلى عزل يو هسين وعينت بدلا منه يوان شيه كاى وهو عميل استعمارى صريح ، وبدأ يوان حكمه فى شانتونج بحملة من الرعب والإرهاب ضد الملاكمين ، وأغرق الشعب فى حمامات الدم فأينما امتدت سلطاته كانت دماء الفلاحين الوطنيين تسيل أنهاراً ، ولكن ذلك كله لم يفد فى شيء بل ازدادت حركة

الملاكمين قوة واشتعالا وأخذت تنتشر فيما حولها من المناطق ، وفي أوائل عام ١٩٠٠ وصلت إلى إقليم هوبيه ،وما إن انتصف العام حتى سيطرت على مدينتي ياو تنج وتيان تسين وقطعت خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى بكين ، وأصبحت تهدد العاصمة .

وهنا لجأت الإمبراطورة « دو اجر تزو هسى » صاحبة السلطة الفعلية في الصين إلى إحدى مناوراتها السياسية البارعة لتجنب الاصطدام بقوة الملاكمين واستغلالها لحسابها . وكانت الإمبراطورة بعد أن سمعت حركة المائة يوم قد أرادت التخلص من الإمبراطور كوانج هسو نهائياً ،ولكنها وجدت معارضة قوية من جانب الدول الأجنبية ، فوقع النزاع بين الإمبراطورة وحاشيتها وبين الأجانب ، وفكرت الإمبراطورة في استخدام الملاكمين للضغط على الأجانب فاستدعت زعماءهم إلى القصر الإمبراطوري في يونيو ١٩٠٠ ووعدتهم بتأييد أهدافهم ، وسمحت بدخول قواتهم إلى بكين سلمياً ، بل أرسلت قواتها للاشتراك مع قوات الملاكمين في مهاجمة المفوضيات الأجنبية في بكين وضواحيها مدة خمسة أيام تكبد فيها الأجانب خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات ، وعند ذلك قررت الدول

الأجنبية التدخل لسحق حركة الملاكمين وإذلال حكومة المانشو من جديد بحرب أخرى من طراز حروب الأفيون .

وأرسلت الدول الأجنبية الثمانى بريطانيا والولايات المتحدة واليابان وفرنسا وألمانيا وروسيا القيصرية والنمسا — المجر وإيطاليا قوات رمزية فى أول الأمر إلى الصين تكونت منها قوة مشتركة تضم ألفى جندى مزودين بأحدث الأسلحة تحت قيادة الأميرال البريطانى سيمور (الذى سبق أن ضرب الإسكندرية عام ١٨٨٢) وتقدمت القوات الأجنبية المشتركة فى ١٠ يونيو ١٩٠٠ من تيان تسين تجاه بكين ، ولكن الملاكمين المسلحين بالرماح والسيوف فحسب استطاعوا التصدى لها وإرغامها على الانسحاب تاركة وراءها ضحايا كثيرين حتى إن الأميرال سيمور اضطر إلى الاعتراف بأنه لولا الأسلحة الغربية الحديثة لكان طابور الغزو الأجنبي قد أبيد عن بكرة أبيه .

ولم تسكت الدول الأجنبية على ذلك وأخذت ترسل المزيد من قواتها إلى الصين حتى بلغت القوات التابعة للدول الثمانى أربعين ألف جندى يستعدون لخوض معركة فاصلة ، وتحت ضغط الرأى العام الشعبي اضطرت حكومة المانشو إلى إعلان الحرب على الأجانب ، وفى ١٤ يوليو ١٩٠٠ وهو عيد سقوط

الباستيل في الغرب استولت القوات الأجنبية على تيان تسين وأعملت فيها المذابح والتخريب فأرسلت الإمبراطورة دو واجر تزو هسى مبعوثاً سرياً إلى المفوضيات الأجنبية تعرض الصلح من جانبها فقط وسحبت قواتها من المعركة . وكانت هذه طعنة نجلاء فى ظهر الملاكمين.

ومع اقتراب قوات الغزو من بكين فرت الإمبراطورة دو واجر تزوهسى والإمبراطور كوانج هسو مع مجموعة من النبلاء وكبار رجال القصر إلى سيان بشمال غربى الصين تاركين الشعب وحده يدافع عن العاصمة التى حكموها ، ولم يكتفوا بذلك بل أصدروا قبل فرارهم بياناً ناشدوا فيه الغزاة بلا خجل « المساهمة فى إبادة لصوص البوكسرز » ، ولكن قوات الشعب رغم ماتعرضت له من خديعة وخيانة واصلت القتال بشجاعة لحماية سيادة الدولة واستقلالها ، وكان الملاكمون يحاربون الغزاة يداً بيد فى شوارع المدن ، واستطاعوا أن يقتلوا منهم عدداً كبيراً على رأسهم الجنرال الألمانى يورك الذى قتل فى إحدى المعارك .

وشجع كفاح الملاكمين جماهير الشعب فى مختلف أنحاء الصين على الثورة كما حدث فى زمن التايبنج ، ولكن المسئولين الحكوميين فى الأقاليم المختلفة كبتوا ثورات الشعب وسحقوا هذا الاتجاه فى مهده حتى أثناء اشتراك الحكومة المركزية فى الحرب

ضد الأجانب خوفاً من الطبيعة الطبقية لثورة الملاكمين فقد أزعجت هذه الثورة كل الطبقات المستغلة بما فيها العناصر الثورية من الطبقة الوسطى التى استنكرت هبة الملاكمين باعتبارها « حركة لصوص » . أما البرجوازيون المعتدلون ذوو الميول الإصلاحية فقد ذهبوا إلى حد المشاركة فى العمل مع قوات المعتدين الأجانب لسحق الحركة مما يدل على أن الطبقة المتوسطة الصينية بمختلف قطاعاتها كانت تخشى الصراع الطبقى أكثر مما تخشى الاستعمار الأجنبى .

وفى ١٤ أغسطس دخلت قوات الأجانب بكين وأنزلت بها أبشع ألوان الانتقام فحولتها إلى جحيم من القتل والنهب والحرق والاغتصاب ، وتكررت المأساة فى شانها يكوان وباوتنج وشانج شيانكو حيث كان ألوف المواطنين يعدمون كل يوم فى الشوارع والميادين بشبهة الانتماء إلى جمعية الملاكمين ، ويعترف الكتاب الغربيون أنفسهم بأن الفظائع التى ارتكبت فى إخماد ثورة الملاكمين لا يكاد يكون لها نظير فى تاريخ العالم ، واعترف بذلك فى مذكراته الفيلد مارشال فون فالدز القائد الألمانى لقوات الغزو المتحالفة .

وبعد احتلال بكين أوفدت حكومة المانشو الخائن

لى هونج شانج الذى ساهم فى إخماد هبة الملاكمين لمفاوضة الأجانب ، وفى عام ١٩٠١ أبرمت بين الطرفين عدة بروتوكولات تعهدت الصين بمقتضاها بدفع غرامة مقدارها ٤٥٠ مليون تايل من الفضة وصلت مع فوائدها عند سداد آخر قسط منها بعد ٣٩ عاماً إلى ٩٠٠ مليون تايل . كما سمحت هذه البروتوكولات للدول الاستعمارية باحتلال عدة مناطق بين بكين وتيان تسين وشانها يكوان بحجة الدفاع عن أرواح الرعايا الأجانب ووضع وحدات مسلحة لحراسة المفوضيات الأجنبية فى بكين ، وتجريد حصون تاكو التى تحمى بكين من ناحية البحر من السلاح ، أى وضع بكين تحت الاحتلال الأجنبى الفعلى .

* * *

لقد لقيت هبة الملاكمين هجوماً عنيفاً من كتاب كثيرين فى الصين والغرب وهو هجوم يعتمد أساساً على الاتهام المبكر الذى وجهه إليها الأجانب فى أول ظهورها لإخفاء طبيعتها التقدمية وتصويرها بأنها ليست أكثر من اندلاع آخر لمشاعر قومية متأخرة وتعبير عن عداء أعمى لجميع الأجانب وللحضارة الأوربية — وقد فند لينين هذه الفرية فى مقال نشره فى صحيفته السرية « أسكرا » فى ديسمبر ١٩٠٠ بعنوان « الحرب

الصينية » جاء فيه : « حقاً ! إن الصينيين يكرهون الأوربيين ، ولكن أى نوع من الأوربيين يوجهون إليهم كراهيتهم ولماذا ؟ إن الصينيين لا يكرهون الشعب الأوربى فى مجموعه وليس هناك أى نزاع بينهما ، إنما هم يكرهون الرأسماليين الأوربيين والحكومات التى تساندهم ، وكيف يمكن للصينيين أن يتجنبوا كراهية هؤلاء الذين جاءوا إلى بلادهم خصيصاً من أجل الكسب غير المشروع والذين يستغلون حضارتهم المتقدمة فى أغراض الخداع والغش والعنف ، والذين يشنون الحروب ضد الصين ليحصلوا على الحق فى تجارة الأفيون التى يخدرون بها الشعب الصينى ، والذين يخفون نفاقاً سياستهم العدوانية تحت ستار نشر المسيحية ؟ »

وقال شواين لاى رئيس وزراء الصين الشعبية عن هبة الملاكمين : « إن حركة إى‌هو ثوان التى قامت عام ١٩٠٠ كانت تعبر عن مقاومة الشعب التى لا تفل ضد الإمبريالية ، وهذا الكفاح البطولى كان واحداً من أعمدة الأساس التى قام عليها النصر العظيم للشعب الصينى بعد ذلك بخمسين عاماً » .

والواقع أن حركة الملاكمين كانت هبة تلقائية لجماهير الفلاحين الصينيين ضد الإقطاع والاستعمار ، وقد رفعت الروح المعنوية للشعب وأعطت الاستعمار دروساً لا تنسى

ولكنها مع ذلك انتهت إلى الفشل لعدة أسباب . . .

فقد فشلت لأنها كانت تفتقر إلى برنامج ثورى محدد يرسم لها طريق النصر والمحافظة عليه مما جعلها مجرد هبة أخرى من الهبات الشعبية التى تدل على السخط واللوم أكثر مما تهدف إلى التغيير والبناء .

وفشلت لأنها وثقت أكثر مما يجب فى أسرة شينج وحكومة المانشو ورفعت شعار تأييد البيت المالك الذى كان يعتبرها مجرد ورقة رابحة فى سياسته مع الأجانب وسرعان ما تخلى عنها ساعة الحسم وطعنها من الخلف .

وفشلت لأنها كانت حركة فلاحين فحسب ولم تعتمد على البروليتاريا الصناعية التى بدأت فى الظهور بالفعل نتيجة لحركة التصنيع التى قام بها رأس المال الوطنى والأجنبى منذ ربع قرن .

وفشلت لأنها لم تنجح فى كسب تأييد البرجوازية الصينية بشطريها الثورى والمعتدل على السواء .

ولذلك كان من الطبيعى أن يتوقى طريق الكفاح الوطنى هذه الأخطاء إذا أراد أن يكلل بالنجاح ، وهذا ما فعلته الحركة الديموقراطية الثورية التى رفع لواءها صن يات صن .

١٠ ـ سقوط الإمبراطورية

كانت ثورة التايبنج موجهة ضد المانشو والإقطاعيين لا الأجانب فطعنها الأجانب متحدين مع المانشو .

وكانت هبة الملاكمين موجهة ضد الأجانب لا المانشو ، فطعنها المانشو من الخلف متحدين مع الأجانب .

والآن وعى الشعب الصينى دروس الثورتين فرفع شعار سقوط المانشو والمعتدين الأجانب ، فهما فى الواقع عدو واحد بوجهين مختلفين ، فالاستعمار الأجنبى سند للرجعية الداخلية ، والرجعية الداخلية حليف للاستعمار الأجنبى ، ولا شىء يغير من هذا القانون فى أى زمن أو مكان .

وبعد فشل حركة الإصلاح وإخماد هبة الملاكمين رفع لواء الجهاد صيدلى احترف السياسة هو الدكتور صن يات صن زعيم العناصر الثورية من البرجوازية ، وكفاح صن يات يعود إلى عام ١٨٩٥ حين قام بمحاولة ثورية فى كانتون أخمدت بالقوة ولكن فشله لم يزده إلا تصميماً ، فى عام ١٩٠٤ كتب فى كتابه « حل مشاكل الصين » يقول : « إن حكم المانشو أصبح كالبناء الآيل للسقوط ، وضرب الفساد تماماً فى هيكله ، ولن تستطيع أية قوة أجنبية أن تنقذه من الانهيار » .

وكان الموقف فى الصين قد وصل إلى نقطة حتمية الانفجار ، فقد ازداد تدخل الاستعماريين فى شئون الصين الداخلية عن طريق عملائهم من المسئولين تجار الكومبرادور ، واستطاعوا الحصول على امتيازات ضخمة سيطروا بها تماماً على اقتصاديات الصين وأقوات شعبها ، وفى عام ١٩٠٠ بعد إخماد هبة الملاكمين أصدرت الإمبراطورة دو واجر تزوهسى إعلاناً رسمياً أعلنت فيها صراحة « أن السياسة الخارجية لحكومة شينج تهدف إلى إرضاء الدول والأجنبية بأقصى ما تسمح به موارد الصين » !

ولقد بلغ من هوان حكومة شينج أنها وقفت موقف المتفرج إزاء الحرب الروسية اليابانية التى دارت على أرض الصين عام ١٩٠٤ بحجة التزام الحياد الدقيق !

وفى نفس الوقت كانت أعمال المعارضة والثورة والتمرد تنتشر ضد الحكام الخونة فى كل قطاعات الشعب وكل أقاليم البلاد ، ففى عام ١٩٠٣ حدثت ٤٥ هبة شعبية ، وفى ١٩٠٤ حدثت ٩٠ هبة شعبية ، وفى ١٩٠٥ حدثت ٨٥ هبة مماثلة ، وأكثر من ذلك فى السنوات التالية .

وكان آلاف الشبان المثقفين قد بدءوا يسافرون إلى الخارج ولا سيما إلى اليابان للدراسة والتحصيل ، وتكونت بينهم عشرات

الجمعيات الثورية فى داخل الصين وخارجها من أهمها « كوانج فو هوى » (رابطة الإصلاح) التى أنشئت عام ١٩٠٣ فى كيانجسو وشيكيانج من بين المبعوثين العائدين ، وهوا هسينج هوى (رابطة إحياء الصين) التى أنشئت فى هوبيه وهونان عام ١٩٠٤ ممن تلقوا دراستهم فى اليابان و جيه شيه هوى (جمعية الدراسات اليومية) التى أنشئت أيضاً فى هوبيه فى نفس العام .

وفى يوليو عام ١٩٠٥ عقد المبعوثون إلى اليابان مؤتمراً فى طوكيو أسفر عن إنشاء جمعية تونج فنج هوى (الرابطة الثورية) برئاسة الدكتور صن يات صن ،وكان برنامجها ينص على التخلص من حكم المانشو وإعلان الجمهورية وإنعاش الصين وتحقيق المساواة فى الملكية الزراعية وذلك عن طريق تنظيم الكتل الجماهيرية والقيام بثورة شعبية تطيح بالأوضاع القائمة وتنشئ دولة وطنية ديموقراطية مستقلة .

ولم يلق هذا البرنامج تأييد البرجوازية الثورية وحدها وإنما رحبت به أيضاً جماهير الشعب مما جعل الرابطة الثورية تصبح فى أمد قصير أكبر قوة تدفع الثورة الديموقراطية إلى الأمام ، واستطاعت أن تبتلع عشرات الجماعات الثورية الأخرى وأن تمد

نفوذها إلى وحدات الجيش الإمبراطورى بين الضباط والجنود الذين تدربوا طبقاً للمناهج الحديثة .

وقامت المنظمة بهبات متعددة كانت تخمد لأنها لم تلق تأييداً كافياً من الجماهير غير المنظمة ،ولكنها أفادت صن يات صن وزملاءه فى التمرس على العمل الثورى فكراً وتطبيقاً، غير أن المساهمة الكبرى للمنظمة كانت ما قامت به فى ميدان الدعاية للقضية الوطنية عن طريق صحيفتها المسماة « مين باو » أى « صحيفة الشعب » وعن طريق المنشورات والكتيبات التى كانت تنشرها فيتلقفها الشباب والجنود . وينشرون ما فيها من أفكار محددة وجديدة بين مختلف قطاعات الشعب الذى لا يعرف معظمه القراءة والكتابة .

وأدركت حكومة المانشو أنها أصبحت تقف على برميل من البارود مهيأ للانفجار ، فقررت القيام بمناورة بارعة لإنقاذ نفسها من المصير المحتوم فأعلنت أنها قررت أن تتحول ذاتياً إلى حكومة دستورية، وأفصحت عن نيتها هذه فى إصدار عدد من قوانين الإصلاح وكادت هذه المناورة توقع الكثيرين فى حبائلها وتفتت الوحدة الوطنية فى الكفاح ،فقد تلقفها كانج يو وى وليانج شن شاو وغيرهما من دعاة الإصلاح الذين لجأوا إلى

الخارج بعد فشل حركة الإصلاح عام ١٨٩٨ وكانوا بالرغم مما أصابهم على يد أسرة شينج ما زالوا مقيمين على مبادئهم فى الدعوة إلى الملكية الدستورية ومعارضةالإطاحة بالأسرة الحاكمة، وعندما بلغهم عزم حكومة المانشو فى الأخذ بفكرة الإصلاح الدستورى استخفهم الطرب ، فها هى أفكارهم قد وجدت صداها المأمول وأصبحت على وشك التحقيق، وقام كانج يو وى وبعض زملائه بتكوين جمعية شنج ون شيه (الرابطة السياسية) فى طوكيو وأصدروا بياناً بتأييد التدابير الموعودة ، وعاد كثيرون من أعضاء الرابطة إلى الصين حيث عقدوا الاجتماعات وأصدروا المطبوعات دفاعاً عن الإصلاح الدستورى الذى كان يبدو فى أعين الناس حينئذ كفكرة عفى عليها الزمن، وهكذا أخذت تظهر إلى الوجود قوة رجعية سياسية منظمة .

ولكن صن يات صن زعيم القوى الديموقراطية الثورية أخذ موقفاً صارماً من هذا الاتجاه، فاستنكر الحركة بشدة مبيناً أن الملكية الدستورية أصبحت أمام الجيشان الشعبى هى الشكل الوحيد الذى يتيح للإقطاع البقاء، ولذلك فإنها تلقى تأييد الرجعيين والإقطاعيين ، وبفضل هذه المعارضة الواعية أمكن شجب هذا الطريق نهائياً وإزالة العقبات أمام طريق الخلاص الوحيد .. الثورة الراديكالية .

وازدادت هبات الشعب التلقائية زيادة كبيرة ، فقد حدثت ١٦٠ هبة شعبية فى عام ١٩٠٦ وارتفع الرقم إلى ٢٨٤ فى عام ١٩١٠ واشترك فى هذه الهبات لأول مرة العمال وممثلو البرجوازية الصغيرة إلى جانب الفلاحين ، ورفض الناس دفع الضرائب ، وتحدوا ممثلى الحكومة ، ونهبوا مخازن القمح ، وقاوموا البعثات التبشيرية ، وحطموا مصانع الأجانب ومتاجرهم ، وبدا واضحاً أن المرفق قد خرج تماماً من يد حكومة المانشو وحلفائها من المستعمرين الأجانب .

وفى ١٠ أكتوبر ١٩١١ اندمجت جميع المنظمات الثورية العاملة فى إقليم هوبيه فى منظمة تونج فنج هوى ونجحت المنظمة فى القيام بثورة مسلحة استولت فيها على حامية ووشانج ثم استولت على هانكاو وهانيانج ، وخلعت حكومة الإقطاع المحلية فى المنطقة وأعلنت قيام الجمهورية .

وخلال شهر واحد حدثت سلسلة من الثورات المماثلة فى مختلف أنحاء الصين أسفرت عن إعلان الجمهورية فى ١٧ إقليماً من أقاليم الصين التى يبلغ عددها ٢١ إقليماً ، وأخذ حكم أسرة شينج يترنح فى الأقاليم الأربعة الباقية .

كان هذا النصر السريع أبعد مما تخيله الثوريون أنفسهم ،

ولم تكن منظمة تونج فنج مستعدة بأية خطوة مدروسة موحدة لتوجيه الحركة الثورية الكاسحة، حقاً لقد شارك أعضاؤها فى القتال ببسالة ولكنهم كانوا أعجز من أن يقدموا قيادة ثورية فعالة للجماهير ، وزاد من اضطراب الموقف أن معظم المسئولين الذين ارتبطوا بالنظام القديم حينما واجههم طوفان الثورة أعلنوا أنفسهم من كبار الثوريين فكان حكام الأقاليم إذ يرون طلائع الثورة قادمة إليهم ، ويحسون بلهيبها يلفح وجوههم ، يسارعون إلى خلع أرواب المانشو ويعلقون شعارات الثورة على مقارهم ويمضون فى الحكم كأن شيئاً لم يكن ، وهكذا تسلل الرجعيون إلى صفوف الثورة ، واختفى النظام القديم بكل رجعيته وفساده تحت ستار النظام الجديد فى انتظار فرصة للانقضاض عليه وسلب ثورات النصر . . .

وفى أول يناير عام ١٩١٢ أعلنت فى ناتكنج الحكومة المؤقتة لجمهورية الصين برئاسة صن يات صن ، وأصدرت الحكومة دستوراً مؤقتاً يكفل كثيراً من الحريات الديموقراطية الواسعة للشعب وكان يعتبر دستوراً تقدمياً بالنسبة لعهده .

غير أن هذا الوليد الثورى جاء مخلوقاً مشوهاً غير قادر على الحياة، فقد كانت الخميرة الرجعية تتفاعل فى أعماقه كقنبلة

زمنية تنتظر ساعة الانفجار ، فقدامى الموظفين والمثقفون البرجوازيون والتجار الرأسماليون يقبضون على مقاليد السلطة الحقيقية فى الدولة الجديدة ولا سيما شئون المال والاقتصاد ، وكان أكثر ما يزعجهم أن لا يكتفى الشعب بتغيير الهيكل الحكومى ويمضى قدماً فى تغيير النظام الاجتماعى نفسه ، وإذا كانوا قد أعلنوا ولاءهم الظاهرى لقائد الثورة صن يات صن إلا أنهم ظلوا يتصيدون الفرصة لإبعاده .

وأخيراً واتتهم الفرصة فى شخص يوان شيه كاى ممثل الرجعية العتيد الذى تقدم فى ثقة وصفاقة لاستلاب ثمرات النصر من الشعب .

وكان يوان شيه كاى سياسياً عسكرياً قديماً ، وممثلا لكبار الملاك والكومبرادور والبرجوازية الكبيرة ، وخادماً مطيعاً للاستعماريين الأجانب ، وقد ساهم فى خيانة حركة الإصلاح عام ١٨٩٨ ، وفى سحق هبة الملاكمين عام ١٩٠٠ ، وفى كبت مظاهر السخط الشعبى بعد ذلك ، وفى عام ١٩١١ عندما كانت ثورة صن يات صن فى أوجها استدعته أسرة شينج وعهدت إليه بمهمة الدفاع عن البلاد ، ولكن الاستعماريين الأجانب وقد رأوا أن أسرة شينج غير قادرة على حماية

مصالحهم وغير صالحة للبقاء فضلوا أن يستولى يوان شيه كاى على الحكم باعتباره « الرجل القوى » الذى يستطيع أن يعيد السلام والنظام إلى الصين ، وبدأ الأجانب يضغطون على الحركة الثورية وحكومة المانشو معاً لتسليم مقاليد الأمور إلى يوان شيه كاى وزير الدفاع ، فقدمت بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا واليابان وغيرها من الدول الاستعمارية إنذاراً إلى الحكومة الثورية المؤقتة فى نانكينج هددت فيه بالتدخل بالقوة لإعادة النظام بحجة أن حالة الفوضى القائمة تهدد المصالح الأجنبية فى الصين ، ووعدت يوان شيه كاى بالتأييد الأدبى والمادى إذا نجح فى إقناع الإمبراطور بالتنازل له عن الحكم .

ولو كانت الحركة الثورية على شىء من الصلابة لتمكنت من مقاومة ذلك الخطر الرجعى الذى يحيط بها لأن الشعب كان على استعداد للذهاب فى الكفاح والتضحية إلى أقصى حد ، ولكنها للأسف كانت لينة وخائرة بفعل المتناقضات الداخلية والذين تسللوا إلى صفوفها من الخونة والانتهازيين ، وفى الواقع أظهرت جمعية « تونج منج هوى » خوراً شديداً لا يقاس ببطولة التايبنج أو جسارة الملاكمين ، فلم يلبث أن خرج من صفوفها كثيرون من أعضائها المتأثرين بالنفوذ القديم ، وأعلن

البعض منهم تأييدهم ليوان شيه كاى ، وكوّن آخرون جماعات منافسة تطالب بحل جميع الأحزاب السياسية وتحث صن يات صن على التنازل عن الرئاسة ، وذهب بعض القادة إلى أبعد من ذلك خوفاً من قوة الشعب فحلوا قوات المليشيا المسلحة التى لعبت دوراً حيوياً فى ثورة ١٩١١ وأصبح واضحاً للعيان أن الحركة الثورية قد تفسخت من الداخل .

وأخيراً اضطر صن يات صن إلى التنازل عن رئاسة الحكومة المؤقتة إلى يوان شيه كاى ، ولكنه حفظاً لماء وجه الثورة اشترط عليه أن يقطع علاقاته تماماً مع حكومة شينج ، ويتعهد بالدفاع عن الجمهورية ، واحترام الدستور المؤقت .

وفى فبراير ١٩١٢ تنازل الإمبراطور الطفل هسيوان تونج عن العرش وتولى يوان شيه كاى الرئاسة المؤقتة لجمهورية الصين الجديدة ، وبذلك توارت حكومة شينج لتحل محلها حكومة من عملاء الإقطاع والاستعمار ، وفى عهد هذه الحكومة ظلت الصين دولة شبه إقطاعية وشبه مستعمرة ، وأصبحت ضحية للمنازعات بين الأسياد الإقطاعيين الذين يتلمسون التأييد لدى مختلف الدول الأجنبية التى تثير بعضهم على بعض .

ولكن ما هو الحساب الختامى لثورة ١٩١١ ؟ وهل نجحت الثورة أم فشلت ؟ الواقع أنه لو كانت ثورة صن يات صن قد

فشلت فى تغيير طبيعة المجتمع الصينى ، فإنها فى نفس الوقت قد نجحت فى القضاء على النظام الإقطاعى الملكى الذى استمر آلاف السنين . وزرعت فكرة الجمهورية الديموقراطية فى قلوب الصينيين ، وفى هذا المعنى كتب ما وتسى تونج يقول :

« منذ خمسين عاماً حققت الثورة التى قام بها دكتور صن يات صن أوجه نجاح وباءت بجوانب فشل ، لقد نجحت ثورة ١٩١١ فى التخلص من الإمبراطور ولكنها فشلت فى أن تفعل أكثر من ذلك : وظلت الصين تحت نير الاستعمار والإقطاع دون إنجاز للواجب الثورى الذى يحتم القضاء على الإمبريالية والإقطاع » .

وهكذا ، وبالرغم من طريق الكفاح الشاق الطويل الذى قطعه الشعب الصينى منذ فرض الاستعمار عليه حرب الأفيون حتى سقوط الإمبراطورية الشائخة عام ١٩١١ ، وبالرغم من كل الآلام والتضحيات ظلت هناك فراسخ أخرى يتحتم على الشعب الصينى أن يقطعها فى زحفه الطويل حتى ينتزع النصر الأخير .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم

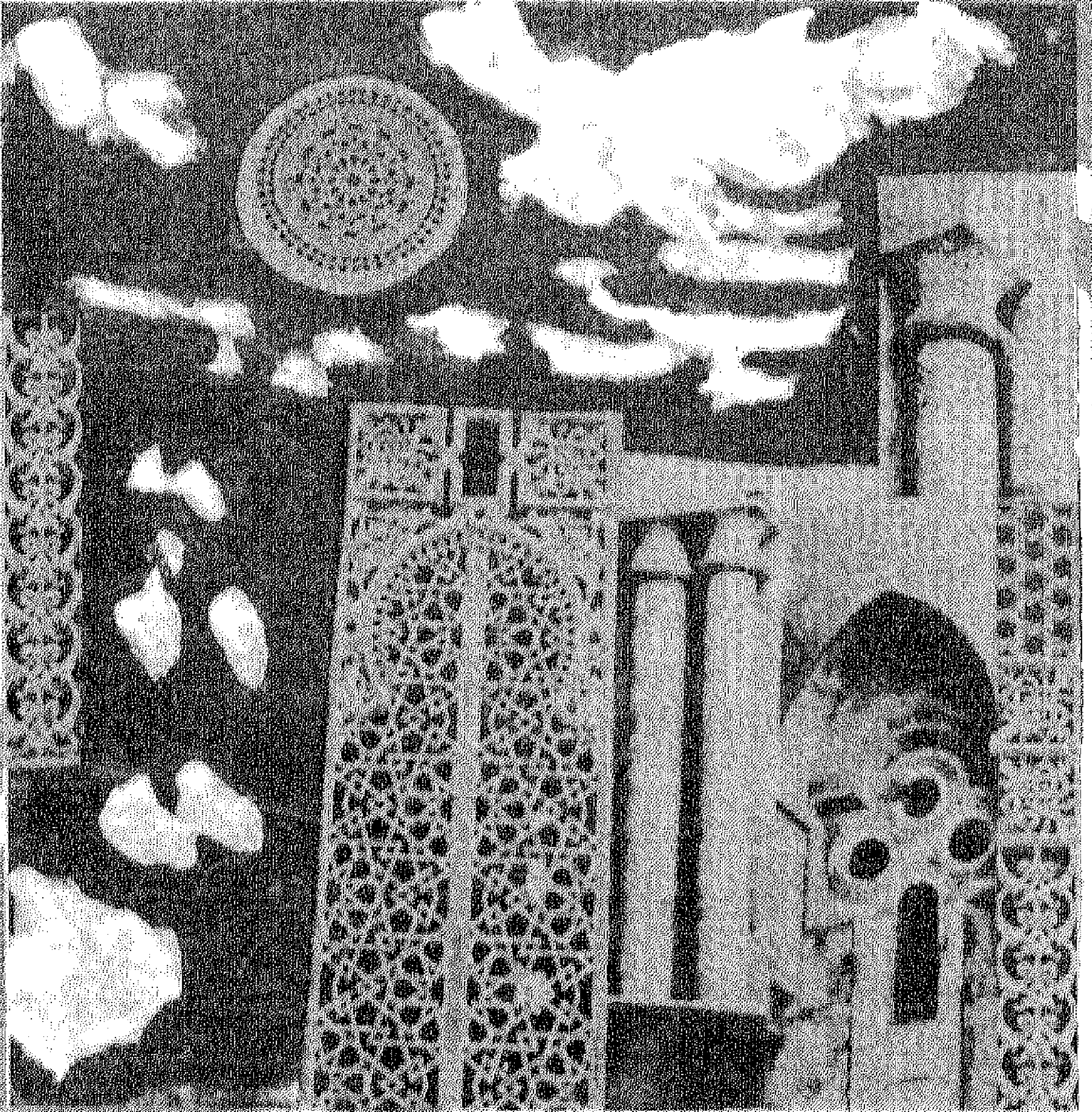
اقرأ

الرسول في رمضان

علي حسني الخربوطلي

إقرأ

الرسول في رمضان



علي حسني الخربوطلي

دار المعارف بمصر

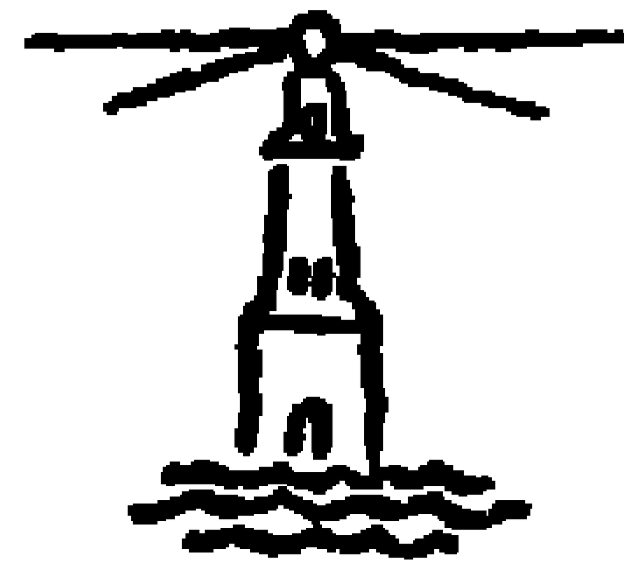
عدد ممتاز

٩٠



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



الدكتور علي حسني الخربوطلي

الرسول في رمضان

اقرأ ٣١٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٢ – ديسمبر سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

فى الحياة دائماً فاضل ومفضول ، فقد شاء الله عز وجل أن يخص بعض مخلوقاته بخصائص ومميزات ، جعلتها تفضل على غيرها . وكما أن يوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع ، فإن شهر رمضان هو أفضل شهور العام .

وشهر رمضان هو الشهر الذى أنزل الله سبحانه وتعالى فيه القرآن الكريم ، هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان . وهو الشهر الذى خصه المولى بصيام المسلمين . . وليلة القدر هى إحدى لياليه المباركة ، وقد وصفها الله بأنها خير من ألف شهر . وشهر رمضان هو شهر العبادة ، وشهر التوبة والإنابة ، وشهر التقرب والتحبب إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى .

كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم كلها خيراً وبركة ، حفلت بالأمجاد والمكرمات . وهذا الكتاب ، يسلط الأضواء على جانب من جوانب حياة الرسول المجيدة المباركة ، فيمدنا

بصور لحياة الرسول الكريم فى شهر رمضان المعظم .

شهد رمضان تحنث الرسول فى غار حراء ، ثم شهد مشرق الإسلام ، حيث انتشرت أنوار الهداية والحق فى أرجاء العالم ، تبدد ظلمات الضلال والجهالة . وأكرم الله عز وجل شهر رمضان ، فأنزل فيه كتابه العزيز ، هدى ورحمة . كما خصه المولى بركن من أركان الدين الحنيف ، وهو الصيام الذى يطهر النفس والبدن ، ويقرب الإنسان من بارئه العظيم .

وكان شهر رمضان للرسول عليه الصلاة والسلام هو شهر الجهاد ، فقد شهد إنفاذ الرسول لبعض سراياه (سنة ١ هـ) ، ثم شهد غزوة بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) ، التى كانت أول انتصار للإسلام على الوثنية والجاهلية . واحتفلت المدينة فى شهر رمضان بأعياد النصر وسط مظاهر الحمد والابتهاج . وشهد رمضان أيضاً تعبئة المسلمين قواهم وحشد جيوشهم للقاء المشركين فى غزوتى أحد (٣ هـ) والخندق (٤ هـ) . ثم توج المسلمون انتصارات رمضان بفتح مكة (سنة ٨ هـ) . وشهد رمضان التالى (سنة ٩ هـ) عودة الرسول منتصراً من غزوة تبوك ، وقدوم وفد الطائف إلى المدينة يعلن بيعة أهالى الطائف للرسول على الإسلام والطاعة ، فسقط بذلك آخر معقل للوثنية فى الجزيرة العربية .

وهكذا شاء الله أن يكرّم رمضان إذ شهد انتصارات الرسول وأمجاد الإسلام .

وهذا الكتاب ، يعيش مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان من كل عام ، طوال حياته المباركة ، ويصوّر كفاحه وجهاده من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز الإسلام ، ويبرز ثمار النضال من انتصارات باهرة غيرت مجرى التاريخ . وأرجو أن يكون التوفيق قد حالفنى فى تقديم هذه الصورة المشرقة لشهر رمضان فى حياة الرسول ، والله عز وجل ولى التوفيق ، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . .

المؤلف

الرسول فى غار حراء فى رمضان

الحنفاء :

أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة ، لتكون بيت الله الحرام ، ومركزاً لدين التوحيد . ثم أمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج كما جاء فى الآية الكريمة (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ).

ثم أصابت النكسة العقيدة التى نادى بها إبراهيم الخليل قومه ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام ، وجهلوا سرّ الفداء ، وسرّ البقاء . وبدأ عصر الوثنية وتقديس الأصنام . وكان العرب يدركون أن هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوة ، ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية ، وجزءاً من اعاداتهم المتوارثة . واحتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة ، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية ، فقد كانت تجذب آلاف الحجاج فيحتملون مشقات السفر من أجل الحج . ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى، وتصبح مكة مركزاً تجاريًّا عالميًّا .

قبيل ظهور الإسلام ، فقدت الوثنية جوهرها وقوتها ،

وأصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام . وأصبح العرب فى حالة قلق دينى ، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، وأصبحوا فى خلافات دينية ، ويمارسون عبادة الأوثان بدون شعور بإيمان حقيقى[١] .

وظهر نفر من العرب نبذوا الوثنية وتطلعوا إلى عقيدة أسمى ، فروى ابن هشام[٢] « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لها عند صنم من أصنام ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .. قالوا : أجل ... فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع؟ يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم » .

تنازع بنو هاشم وبنو أمية ، بعد وفاة عبد المطلب ، السلطة السياسية والروحية فى مكة ، مما أدّى إلى تفريق صفوف

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية (من ترجمتنا) ص ٢٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧ .

قريش من جهة ، وإلى مزيد من حرية الناس فى التفكير والجهد بالرأى ، وإلى إقدام اليهود والنصارى ، ممن كانوا يخافون صاحب السلطان ، على تعيير العرب عبادة الأوثان . وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زال من نفوسهم تقديس الأصنام ، وإن ظل وجوه القوم بمكة يظهرون لها التقديس والعبادة[١] .

نادى بعض المستنيرين من العرب بالعودة إلى دين إبراهيم الحنيف ، وإلى نبذ الوثنية والخلاص من رذائل الجاهلية ، ودعوا إلى دين التوحيد ، واعتقدوا فى البعث والثواب والعقاب ، وأطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء . ونظروا إلى الحياة نظرة أكثر سمواً، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التى كانت قد تشابكت مع حياة العرب ، ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم أسس المجتمع العربى الجاهلى ، وهذا ما نجح الإسلام فيما بعد فى تحقيقه ، إذ خلق مجتمعاً إسلامياً نقياً متجدداً .

وإن كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام ، فإنها

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ١٢٥ .

قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة فى ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، وصحب ذلك ظهور بعض المشاعر الإنسانية صوّرها الشعراء فى القرن السادس الميلادى فى شعرهم .

تحنّث محمد :

اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى الله تعالى بالزهد والدعاء ، ويلتمسون عنده الخير والحكمة ، وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث .

درس ابن هشام[1] لفظى (التحنث) و (التحنف) ، فقال : « تقول العرب : التحنث والتحنف ، يريدون الحنفية ، فيبدلون الفاء من الثاء ، كما قالوا جدث وجدف ، يريدون القبر » . وفى الرد على ابن هشام قال أبو ذر : « . . . والجيد فيه أن يكون فيه التحنث هو الخروج من الحنث ، أى الإثم ، كما يكون التأثم ، الخروج عن الإثم ، لأن تفعل قد تستعمل فى الخروج من الشىء ، وفى الانسلاخ عنه ، ولا يحتاج فيه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥١ .

إلى الإبدال الذى ذكره ابن هشام »[١] .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبل البعثة النبوية ، يعمل فى التجارة ، ويشارك فى الحياة العربية ، ويقوم برحلات بعيدة مع القوافل . وكان مغرماً طوال حياته بالتأمل والبحث الدينى ، واستفاد من رحلاته الكثيرة ، كما كانت صحراء بلاد العرب الواسعة بما تحويه من مظاهر طبيعية مختلفة تدعو إلى التأمل ، والتفكير فى الخالق العظيم . ونبذ محمد دائماً عبادة الأوثان ، وَبَعُدَ تماماً عن رذائل الجاهلية ، وكان يؤمن بوجود قوى روحية ، وأدرك أن الدين الحقيقى هو ما كان يقوم به آدم من عبادة خالقه ، وهو دين التوحيد الذى بشر به جدّه إبراهيم عليه السلام ، وهو عبادة الإله الواحد الحق ، خالق العالم .

آمن محمد ، قبل نزول الوحى ، أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية كبرى ، فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء ، وابتعد الناس عن الطريق القويم ، كما رأى أن تعود الكعبة إلى ما كانت عليه زمن جدّه إبراهيم . وكانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائماً وأثرت فى أعماله وأفعاله . فقد كان كثيراً ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه فى جبل حراء ، على بعد ثلاثة فراسخ

---

(١) انظر الحاشية فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥١ .

من مكة ، حيث يقضى عدّة أيام فى الصلاة والتعبد ، وكان يمضى شهر رمضان فى الغار ، وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح .

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الإصلاح ، ولكنهم تردّدوا فى انتزاع أول حجر من أسس الوثنية ، ولذا كانت جهودهم محدودة ، فلم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية التى كانت تنتقض من شأن العرب وأهميتهم فى ذلك العصر .

ولم يكن هناك غير محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ، ويشعر بالغيرة الدينية ، وكانت روحه العالية لا تقبل تعدّد الآلهة فى بلاد العرب ، وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات ، وأصبح محمد يفكر دائماً فى تحطيم هذا النظام القائم ، وقيام مجتمع نقى قوى سليم [١] .

كانت العناية الإلهية تحيط بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وتعدّه ليكون خاتم الرسل والأنبياء ، فيروى الطبرى [٢] : « وكان

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أن يظهر له جبريل عليه السلام برسالة الله عز وجل فيما ذكر عنه ، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله ، فكان من ذلك ما قد ذكرت فيما مضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقا بطنه واستخرجا ما فيه من الغل والدنس وهو عند أمه من الرضاعة حليمة ، ومن ذلك أنه كان إذا مرّ فى طريق لا يمر فيما ذكر عنه بشجر ولا حجر فيه إلا سلم عليه » .

حينما كان محمد صلى الله عليه وسلم فى الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب فى الحقول مع أخيه فى الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً فى رفق على الأرض ، وشقّ أحدهما ، وهو جبريل عليه السلام ، صدره ، بدون أن يسببا له ألماً ، ثم نزعا قلبه وطهّراه من الحقد والشرّ الذى زُرع فى القلوب منذ عهد جدّنا آدم ، والذى كان يؤدى بالبشر إلى ارتكاب الآثام . ثم ملأ الملكان قلبه بالإيمان والمعرفة والنور ، ثم أعاداه إلى مكانه فى صدر الطفل العظيم .

روى ابن هشام(١) أن الرسول عليه الصلاة والسلام أجاب على بعض أصحابه ، وكانوا قد سألوه : يا رسول الله أخبرنا عن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥

نفسك . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا ، نرعى بهماً لنا ، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب مملوء ثلجاً ، ثم أخذاني ، فشقا بطني ، واستخرجا قلبي ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج ، حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم . ثم قال زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمة لوزنها » .

وقد سجّل القرآن الكريم هذا الحديث العظيم ، في قوله تعالى : (أَلَمْ نشرحْ لكَ صدْرَكَ . ووَضَعْنَا عنك وِزْرَك . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) .

محمد في غار حراء :

غرس الله تعالى في قلب محمد حبّ الوحدة ، فأصبح مشغوفاً

بفضاء الله الواسع يسبح فيه فريداً . وكانت روحه التي اصطفاها الله تجد متعة أسمى وأروع في الهرب من الضلال الديني والانحلال الخلقي اللذين سادا الجزيرة العربية آنذاك . فكان محمد يستسلم لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه وتتجه به نحو الوحدة والعبادة .

كانت الخلوة ، لمحمد ، أعظم مرب ، فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، ولذا أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » ، وتشربت روحه ، رويداً رويداً ، روح الصحراء ، فبصرته بعظمة الله اللانهائية . وفي الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه وغمرته في قوة ، حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التي انتزعت من (كارلايل) ، المفكر الإنجليزي المشهور ، صيحة الإعجاب التي يقول فيها : « حقاً إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ، ومن الطبيعي أن تجتذب أفئدة بني البشر فيستمعوا إليها ، ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها ، فكل ما عداها هباء إذا قورن بها »[1] .

اعتاد بعض الحنفاء والمؤمنين بالله تعالى أن يتحنثوا ويخلوا

---

(١) إتين دينيه : محمد رسول الله ص ٨٧ .

لأنفسهم . وكانت عبادة هؤلاء تشمل إطعام المساكين ممن يلجأون إلى الغار ، لأنه كان من نسك قريش فى الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين فى هذا المكان .

وكان لمحمد ، عليه الصلاة والسلام ، شغف بالوحدة منذ الصغر ، ولكن وحدته طفلاً وفتى ويافعاً وصبياً كانت وحدة الحزن والألم ، إذ وُلد ونشأ يتيما ، ولكن وحدته فى غار حراء بجبل أبى قبيس كانت من نوع آخر ، فقد كان ينشد المعرفة بطريق الإشراق ويستلهم ما فى الكون من أسبابها[1] .

وصف المؤرخ الطبرى[2] تحنث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، فى غار حراء فى رمضان فقال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية ، والتحنث التبرر . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كانت الكعبة أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً

---

(١) لطفى جمعه : ثورة الإسلام ص ٥١٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨ .

أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله عز وجل فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه فيها ، وذلك فى شهر رمضان ... » .

تزوج محمد صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة بنت خويلد ، التى وهبته إخلاصها وحنانها ، فلم يشغله حبها عن ربه ، ولم تلهه تجارتها وأموالها عما هو عازم عليه من العمل لما يقربه إلى الله عز وجل . فأعرب ازوجته عن رغبته فى الانقطاع عن الناس وملازمته الخلوة فى غار حراء ، واتخاذها مدرسة يطلب فيها الهدى من عند الله . فلم تعارضه فى ذلك ، بل إنها شجعته على المضى فى طريقه ، وصارت تعينه عليه .

لقد شغل ذكر الله عز وجل قلب محمد عليه الصلاة والسلام ، وهيمن التفكير فى آلائه على سائر حواسه ، وهو يرجو من الله سبحانه وتعالى أن يلهمه ما يرضيه من العبادات [1] .

كان محمد يقصد غار حراء فى رمضان من كل سنة ، يحمل القليل من الزاد؛ فقد اشتهر دائماً بالزهد والقناعة ، فيمعن التأمل، ويكثر من العبادة ، بعيداً عن الحياة ، وما حفلت به آنذاك من صخب وآثام ، مفكراً فى الخالق العظيم ، فيفطن إلى

(١) الخطيب : أسمى الرسالات ص ٤٣ .

ضلال قومه من قريش ، الذين نبذوا عبادة الله الواحد الأحد ، وانغمسوا فى عبادة الأوثان ، وفى رذائل الجاهلية وترفها .

جاء فى السيرة الحلبية[1] : « قيل : كان تعبّده صلى الله عليه وسلم التفكر مع الانقطاع عن الناس ، وقيل تعبده صلى الله عليه وسلم كان بالذكر . . . وقيل : كان يتعبّد قبل نبوته بشرع إبراهيم . . . وقيل : بكل ما صحّ أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك فى شرعنا » .

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « وحبب الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[2] » . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يخلو إلى نفسه فى غار حراء ، ويقع إلى جانب من جبل النور ، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة . وقد صاغت الطبيعة هذا الغار داخل حجر الصوّان الأحمر . وهناك يقضى محمد شهراً فى خلوة تامة . وفى هذا الغار ، وفى رمضان المعظم ، نزل الوحى بكتاب الله العزيز ، القرآن الكريم ، وبدأ دور جديد عظيم فى تاريخ البشرية جمعاء .

---

(١) جـ ١ ص ٢٢٧ .   (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٠ .

البعثة النبوية فى رمضان

الرؤيات الصادقة :

اعتاد محمد عليه الصلاة والسلام أن يقصد غار حراء فى شهر رمضان من كل عام ، يخلو إلى نفسه ، ويتأمّل فى الحياة ، ويتوجّه بعبادته إلى الخالق العظيم . وكانت هذه الخلوة وهذا التأمل من أسمى صور العبادة ، حيث يقول الله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وتطمئنُّ قلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبَ)[1] ، كما قال عز وجل : (إنَّ فِى خَلْقِ السَّمواتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيلِ والنهارِ لآياتٍ لِأُولِى الأَلْبَاب . الَّذِينَ يذكُرُونَ اللهَ قياماً وقعودًا وعَلَى جُنُوبِهِمْ ، ويتفكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ ، ربّنا ما خلقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ فقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[2] .

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٩١ .

كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستِّين سنة ».

ثم كانت الرؤيا الصادقة ، وهى أول تبشير بالنبوة ، وأن محمداً قد اصطفاه الله تعالى ليكون رسوله إلى العالمين ، هدى ورحمة ، فقالت السيدة عائشة رضى الله عنها فى ذلك : « إن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ، حين أراد الله كرامته و رحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح »[1].

شارف محمد عليه الصلاة والسلام الأربعين من عمره ، وذهب إلى غار حراء يتحنث كعادته . وقد امتلأت نفسه الكريمة إيماناً بما رأى فى رؤياه الصادقة ، وقد خلصت نفسه من الباطل كله ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة ، وقد اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال . وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طرق الصحراء ، ثم يعود إلى

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٤٩ .

خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه وما يتبين له فى رؤاه[١] .

وصف ابن هشام[٢] طلائع النبوة فقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى تحسّر[٣] ، ويُفضى إلى شعاب مكة و بطون أوديتها ، فلا يمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان » .

وعلق السهيلى على هذه الرواية بقوله[٤] : « وهذا التسليم الأظهر فيه أن يكون حقيقة ، وأن يكون الله أنطقه إنطاقاً ، كما خلق الحنين فى الجذع ، ولكن ليس من شرط الكلام الذى هو صوت وحرف ، الحياة والعلم والإرادة ، لأنه صوت كسائر

(١) هيكل : حياة محمد ص ١٣٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) تحسر عنه البيوت : تبعد عنه .

(٤) انظر الحاشية فى سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٠ .

الأصوات ، والصوت عرض فى قول الأكثرين ، ولم يخالف فيه إلا النظّام ، فإنه زعم أنه جسم ، وجعله الأشعرى اصطكاكاً فى الجواهر بعضها لبعض . وقال أبو بكر : ليس الصوت نفس الاصطكاك ، ولكنه معنى زائد عليه . . . إلى أن قال : ولو قدرت الكلام صفة قائمة بنفس الحجر والشجر ، والصوت عبارة عنه ، لم يكن بدّ من اشتراط الحياة والعلم مع الكلام ، والله أعلم أى ذلك كان : كلاماً مقروناً بحياة وعلم ، فيكون الحجر به مؤمناً ، أو كان صوتاً مجرداً غير مقترن بحياة ، وفى كلا الوجهين هو علم من أعلام النبوة ... وقد يحتمل تسليم الحجارة أن يكون مضافاً فى الحقيقة إلى ملائكة يسكنون تلك الأماكن ويعمّرونها ، فيكون مجازاً من باب قوله تعالى : (واسأل القرية)» .

شعر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقلق والحيرة ، وأخذ يتساءل فى نفسه عن هذه الأصوات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « طيلة العشرة شهور التى تقدّمت الوحى ، كان يتخلل نومى نور باهر يشبه فلق الصبح ، وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تنادى : يا محمد ! يا محمد ! فكنتُ أنظر يمنة ويسرة ، ومن خلف ، فلا أرى إلا شجيرات وصخوراً ، فيأخذنى القلق والحيرة . إننى ما أبغضت شيئاً بغضى للكهان

والسحرة ، وقد خشيت أن أكون قد أصبحت ، على غير علم مني ، واحداً منهم ، فيكون الذي يناديني – خفيًّا مستوراً – تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء فيساعدونهم بذلك على القيام بمهنتهم الآثمة » .

أسرّ الرسول عليه الصلاة والسلام بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدر بخاطرها أن الله عز وجل يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم ، وإلى النبأ العظيم ، يوم الوحي الأول ، ويهيئه إلى البعث والرسالة[1] .

الوحي :

أصبح محمد صلى الله عليه وسلم في الأربعين من عمره ، وهو سنّ النضج والرجولة الكاملة ، وفي شهر رمضان المعظم ، وفي غار حراء ، كان أول نزول الوحي ، ومشرق نور الإسلام .

اختلف المؤرخون في تحديد يوم نزول الوحي ، فروى الطبري[2] عدّة روايات ، بعضها يحدّد اليوم الثامن عشر من

---

(١) هيكل : حياة محمد ص١٣٠ . (٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص٤٤ .

شهر رمضان ، أو اليوم الرابع والعشرين ، ثم قال الطبرى : « وقال آخرون بل نزل لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، واستشهدوا لتحقيق ذلك بقوله عز وجل : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) ، وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر كان صبيحة سبع عشرة من رمضان » . وقد وافق شهر رمضان هذا شهر يناير من سنة ٦١١ الميلادية . وروى الطبرى[١] أيضاً أن أول نزول الوحى كان فى يوم الاثنين ، فروى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن صوم الاثنين فقال : ذلك يوم وُلدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل علىّ فيه » .

تحدث ابن هشام[٢] عن ذلك اليوم الخالد ، فقال : « حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى » .

---

(١) الطبرى جـ٢ ص ٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٢ .

وصف الرسول عليه الصلاة والسلام نزول الوحى عليه ، فقال : « فجاءنى جبريل ، وأنا نائم ، بنمط[١] من ديباج فيه كتاب[٢] ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتّنى[٣] به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قلت : ماذا أقرأ ؟ فغتّنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . فقرأتها ، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى ، فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً ، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فرفعتُ رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍّ قدميه فى أفق السماء يقول : يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم

---

(١) النمط : وعاء كالسفط .

(٢) قال بعض المفسرين : فى قوله تعالى : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) إنها إشارة إلى الكتاب الذى جاء به جبريل حين قال للرسول : اقرأ .

(٣) الغت : حبس النفس ، أى أن جبريل جعل النمط على فم الرسول وأنفه .

وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رُسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى »[١] .

ويرى المفسرون أن فى تكرار كلمة (اقرأ) إشارة إلى انحصار الإيمان الذى ينشأ عنه الوحى بسببه فى ثلاث : القول ، والعمل ، والنية ، وأن الوحى يشتمل على ثلاث : التوحيد ، والأحكام ، والقصص[٢] .

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى داره ، وهرع إلى خديجة ، وخبأ رأسه فى حجرها ، وقد أخذته رعدة ، فقال : دثرونى ، دثرونى . وأسرع الخدم إليه يزملونه ويدثرونه ، حتى هدأ روعه . وتوجهت السيدة خديجة إليه بالسؤال : « يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت برسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى » . وحدثها الرسول بما رآه ، فقالت خديجة : « أبشرْ فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(٢) انظر شرح المواهب .

الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[١] .

وكانت خديجة ، رضى الله عنها ، على حق فى مقالتها ، فقد وصفت محمداً ، عليه الصلاة والسلام ، بما اشتهر به ، من سجايا حميدة ، وأخلاق سامية ، عرفها قومه جميعاً ، إذ اشتهر بينهم باسم « الصادق الأمين » . واسترجعت خديجة فى ذاكرتها أحداثاً ماضية ، حين عاد غلامها ميسرة إليها ، يروى لها ما شاهده فى رحلته مع محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت العناية الإلهية تحمى محمداً من حرارة الشمس ، فقال ميسرة لخديجة : « إن هذا الغيم الذى لاحظته لم يتخلف قط من مرافقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ، ومنذ أن تركنا بصرى ، وقد عرفنى رهبان حوران العلماء من هو محمد ، فعرفت أن هذا الغيم ليس إلا أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدى من قيظ الشمس المهلك » .

حديث ورقة بن نوفل :

استغرق محمد فى النوم ، تلحظه عينا زوجه الأمينة المخلصة ، التى أخذت تفكر ملياً فى حديث زوجها ، وترجو

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٠ .

من المولى عزّ وجل أن يكون ذلك فاتحة خير ، وأن يكون زوجها هو النور الذى يبدد ظلام العالم . ثم شعرت أنها فى حاجة إلى من تحدثه عما يجيش فى نفسها ، فاختارت رجلاً من أقاربها اشتهر بالحكمة والعلم والرأى السديد .

غادرت خديجة دارها قاصدة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وكان ورقة قد اعتنق المسيحية وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة ، وكان شيخاً طاعن السن ، كاد يفقد بصره .

قصّت السيدة خديجة على ابن عمها ما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما رآه وسمعه . فقال ورقة : قدوس قدوس[١] ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس[٢] الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبىّ هذه الأمة ، فقولى له (فليثبت)[٣] .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يطوف يوماً بالكعبة ،

---

(١) أى طاهر طاهر ، وأصله من التقديس أى التطهير .

(٢) الناموس (فى الأصل) صاحب سر الرجل فى خيره وشره ، فعبر عن الملك الذى جاء بالوحى .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٤ .

وكانت هذه هى عادته بعد كل فترة يقضيها فى التحنث . وهناك التقى بورقة بن نوفل ، وأسرع ورقة إلى الرسول ، رغم شيخوخته ووهنه ، وفقده بصره ، وسأله : يابن أخى أخبرنى بما رأيت أو سمعت . فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبيّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء إلى موسى ، ولتكذبن ، ولتؤذينّ ، ولتخرجنّ ، ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه .

وأدنى ورقة رأسه وقبّل يافوخ الرسول . ثم انصرف الرسول عليه الصلاة والسلام إلى داره « وقد زاده ذلك من قول ورقة ثباتاً ، وخفّف عنه بعض ما كان فيه من الهمّ »[١] . ولكن حياة ورقة لم تطل حتى يبرّ بوعده للرسول .

نزل الوحى كجذوة وهّاجة بدّدت من نفس محمد عليه الصلاة والسلام كلّ شكّ ، وأشعلت فيه تلك الآمال اللاشعورية ، وتلك القوى الكامنة التى كدّسها فى نفس خمس عشرة سنة تقضت فى التأمل والتحنث . لقد فتح الوحى عينيه على آفاق

---

(١) الطبرى حـ ٢ ص ٥٠ .

شاسعة ، وأظهره على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود جبارة[١] .

خديجة والوحي :

توجهت السيدة خديجة رضى الله عنها ، إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال ، فقالت : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ فقال الرسول : نعم . فقالت : فإذا جاءك فأخبرنى به .

حتّى إذا جاء جبريل عليه السلام كعادته ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لخديجة : يا خديجة ، هذا جبريل قد جاءنى . فقالت : قم يابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام الرسول وجلس عليها . ثم سألته خديجة : هل تراه ؟ فأجاب : نعم . فقالت خديجة : فتحول فاجلس فى حجرى . حتّى إذا جلس الرسول فى حجرها ، سألته : هل تراه ؟ فأجاب : نعم . فتحسرت السيدة خديجة وألقت خمارها ، وسألت الرسول : هل تراه ؟ فأجابها : لا . فقالت : يابن عم ، اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملكٌ وما هذا بشيطان[٢] .

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ٩١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٥ .

نزول القرآن على الرسول فى رمضان

نزول القرآن الكريم :

فى ليلة خالدة من ليالى شهر رمضان المعظم ، بدأ نزول القرآن الكريم ، وتوالى الوحى طيلة ثلاث وعشرين سنة ، مرشداً وهادياً ، مثبتاً لقواعد الدين ، موضحاً طريق انتصار الإسلام .

تحدث ابن هشام[١] عن ابتداء تنزيل القرآن الكريم فى شهر رمضان ، فقال : « فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل فى شهر رمضان ، بقول الله عز وجل : (شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فيه القرآن هدًى للناس وبيِّنات من الهُدَى الفُرْقان) ، وقال الله تعالى : (إنا أنْزَلناه فى ليْلةِ القدْرِ . وما أدْراكَ ما ليلةُ القَدْرِ . ليلةُ القدْرِ خيرٌ من ألفِ شهر . تنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإذْنِ ربِّهم من كلِّ أمْر ، سلامٌ هى حَتَّى مَطْلَعِ الفَجرِ). وقال الله تعالى : (حم والكتَابِ المبين . إنَّا أنْزَلْنَاهُ فى ليلةٍ مباركةٍ إنا كنَّا

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .

مُنْذِرِينَ . فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حكيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كنَّا مُرْسِلينَ) » .

وأشاد ابن هشام[١] بجهود الرسول عليه الصلاة والسلام فى تبليغ ما نزل به الوحى فقال : « ثم تتام الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه ، قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوّة أثقال ومُؤْنة ، لا يحملها ولا يستطيع النهوض بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يَلْقَوْن من الناس وما يُرَدّ عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى » .

إسلام خديجة :

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها ، أوّل من اعتنقت الإسلام ، وأول من آمنت بالله ورسوله . وكان بديهيًّا أن تسارع إلى الإيمان ، فقد جرّبت على الرسول طوال حياته الأمانة والصدق وعلوّ النفس وحبّ البرّ والرحمة ، وقد رأته فى سنوات

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٦ .

تحنثه كيف شغلت نفسه بالحق ، وبالحق وحده ، يطلبه مرتفعاً بقلبه وبروحه وبعقله[١] .

وكان لإسلام خديجة ، وإيمانها برسالة محمد ، أثره الكبير فى نفسه ، فقال ابن هشام[٢] : « فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبّته وتخفف عليه، وتصدقه وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى».

أصبح لخديجة فضل السبق إلى الإسلام ، ونالت بذلك رضا ربها ورحمته ، فقد أتى جبريل عليه السلام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال الرسول لخديجة : يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربّك . فقالت : الله السلام، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام. وقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم زوجه خديجة بالجنة[٣] .

فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شقّ ذلك عليه فأحزنه ، حتى إن خديجة قالت له : ما أرى ربك إلا قد قلاك . ولكن الله عز وجل قد اصطفاه ، ولذا جاءه

---

(١) هيكل: حياة محمد ص١٣٤ . (٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٧ .

جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ما ودّعه وما قلاه .

زال كل شك أو قلق ، وأدرك محمد عليه الصلاة والسلام أن العناية الإلهية ترعاه ، وأن الله عز وجل قد اصطفاه ، وأنه قد أصبح رسول الله إلى العالمين ، « فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله ، فكان أول من صدّقه وآمن به واتبعه من خلق الله فيما ذكر زوجته خديجة رحمها الله »[1] .

الصلاة :

وبعد التوحيد ، كانت الصلاة ، وما يسبقها من طهارة ، أول شرائع الإسلام ، فيقول الطبرى[2] : « كان أول شيء فرض الله عز وجل من شرائع الإسلام عليه — أى على الرسول صلى الله عليه وسلم — بعد الإقرار بالتوحيد ، والبراءة من الأوثان والأصنام ، وخلع الأنداد ، الصلاة » .

أتى جبريل عليه السلام ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٣ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٣ .

منه عين ، فتوضّأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضّأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل يتوضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى الرسول بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام[١] .

ثم توجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بيته ، حيث التقى بخديجة ، فتوضأ أمامها ليريها كيف الطهور للصلاة كما علمه جبريل ، فتوضأت ، ثم صلى بها الرسول ، كما صلى به جبريل عليه السلام ، فصلت بصلاته[٢] !

ثم كان إسلام على بن أبي طالب ، وإقامته الصلاة خلف الرسول . وكان علىّ حينئذ فى العاشرة من عمره ، مقيماً فى بيت الرسول ، فى كفالته ، إذ أراد الرسول أن يخفف عن عمه أبى طالب ، وكان ذا عيال كثير ، وكانت قريش تمر بأزمة شديدة[٣] . رأى علىّ الرسول وخديجة يصليان ، فعجب مما رآه ، حتى إذا انتهيا من الصلاة ، توجّه إليهما بالسؤال عن سبب سجودها . فأخبره الرسول أنهما يسجدان لله عز وجل ، الذى اصطفاه رسولاً ونبيًّا ، وأمره بأن يدعو الناس إلى عبادته سبحانه

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٠ . (٢) الطبرى جـ ٢ ص ٥٤ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٣ .

وتعالى . ودعا محمد ابن عمه إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وإلى اعتناق الإسلام ، وإلى نبذ عبادة الأوثان ، وتلا محمد بعض آيات القرآن الكريم ، فأُخِذ عليّ بإعجاز هذه الآيات وجمالها ، وطلب عليّ من الرسول أن يمهله حتى يشاور أباه أبا طالب ، فطلب الرسول منه أن يكتم الأمر . وقضى عليّ ليلة مضطربة ، أمعن فيها التفكير ، حتى إذا كان الصباح التالى ، أعلن عليّ للرسول إيمانه وإسلامه .

ثم كان إسلام زيد بن حارثة ، مولى الرسول ، وهو عربى من قبيلة كلب ، وكان هذا الشاب قد أسره فى طفولته جماعة من قريش ثم اشترته خديجة ، ووهبته إلى محمد . وبعد عدّة سنوات سمع أبوه بوجوده فى مكة ، فأراد أن يفتديه بمبلغ من المال ، فوافق محمد على أن يكون لزيد أن يختار الذهاب مع أبيه الحقيقى ، أو البقاء مع محمد . ففضل زيد البقاء ، فقد كان محمد يعامله معاملة الابن . وعندئذ تبناه محمد ، حتى إذا اعتنق زيد الإسلام أعتقه الرسول ، وآثر زيد البقاء مع الرسول صلى الله عايه وسلم .

مضى الإسلام فى طريق النجاح والنصر ، فأسلم أبو بكر صديق الرسول الحميم ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف .

ودعا أبو بكر إلى الإسلام كل من وثق به من قومه ، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام .

ليلة القدر :

بدأ نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر ، وهى من ليالى شهر رمضان المباركة . وقد وصف الله عز وجل هذه الليلة الخالدة بأنها خير من ألف شهر ، إذ تنزل فيها الملائكة وجبريل ، بإذن من خالقهم العظيم ، من العالم الروحى ، حيث يخالطون النفوس الآمنة المطمئنة ، الممتلئة بالإيمان العميق . وتمضى هذه الليلة الميمونة المباركة فى خير وسلام حتّى مطلع الفجر .

أطلق على ليلة القدر هذا الاسم — كما يقول الإمام محمد عبده — لأن الله عز وجل ابتدأ فيها تقدير دينه ، وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . والقدر بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظمه بالرسالة .

وقد نتساءل : أى ليلة من ليالى رمضان هى ليلة القدر ؟ ويجيب الإمام محمد عبده أيضاً عن هذا التساؤل فيقول : وكتاب الله لم يعينها ، وما ورد فى الأحاديث من ذكرها إنما

قصد به حثّ المؤمنين على إحيائها بالعبادة شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله إفاضته فيهم فى أثنائها ، ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات ، فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق فعليه أن يشكر الله بالعبادة فى الشهر كله، وهذا هو السرّ فى عدم تعيينها .

وليلة القدر ليلة مباركة ، يقول الله عز وجل عنها فى سورة الدخان : (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناهُ فى ليلةٍ مباركةٍ إنّا كنّا مُنْذِرين . فيها يُفْرَقُ كلُّ أمْرٍ حكيمٍ . أمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إنّا كنّا مُرْسِلِين . رحْمَةً مِنْ ربِّك إنه هو السّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

روى الطبرى[1] عن ابن مسعود أنه قال : « التمسوا ليلة القدر فى تسع عشرة ليلة من رمضان فإنها ليلة بدر » . كما روى الطبرى عن زيد أنه « كان لا يحيي ليلة من شهر رمضان كما يحيي ليلة تسع عشرة وثلاث وعشرين ويصبح وجهه مصفراً من أثر السهر . فقيل له ، فقال : إن الله عز وجل فرّق فى صبيحتها بين الحق والباطل » .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٣٠ .

الرسول فى رمضان بالمدينة المنورة بعد الهجرة

الهجرة إلى المدينة :

ظل الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد البعثة النبوية ، ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه أو يرى منه قبولاً للدين الجديد ، وكان يصلى هو والمسلمون خفية فى شعاب مكة[1] . إلى أن أمره الله بإظهار دينه ، فجهر الرسول بالإسلام، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله . واشتد إيذاء قريش للمسلمين ، فكانت هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة . واستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام ، فلما أسلم حمزة بن عبد المطلب، وكان شخصية لها شأن كبير ، كف القرشيون عن بعض أذاهم . حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب ، جهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم ، وصلوا عند الكعبة ، واعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر[2] .

رأى القرشيون أن يتخذوا أمراً حاسماً ، فاتفقوا على مقاطعة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥ .

بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فظلوا مهجورين فى شعاب مكة ثلاث سنين ، ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم ، فاضطرت قريش إلى إنهاء المقاطعة ، وعاد بنو هاشم والمطلب إلى ديارهم[١] .

فقد الرسول بعد حادث المقاطعة بقليل نصيرين قويين ، هما عمه أبو طالب وزوجه خديجة ، فتألم لفقدهما فى عام واحد وسمّاه عام الحزن . وازدادت قريش فى إيذاء الرسول وأصحابه ، فخرج إلى مدينة الطائف يدعو قبيلة ثقيف لينصروه على قريش ، فلم يستجيبوا له ، بل آذوه . وعاود الرسول نشر الإسلام بين أهل مكة ، وخاصّة فى موسم الحج . وبعد فترة وجيزة أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث عُرج به إلى السموات السبع ، وفى تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس[٢] .

ثم كانت هجرة الرسول والمسلمين إلى المدينة . وعمل الرسول على تنظيم الحياة العامة فى المدينة ، تحقيقاً للوحدة بين سكانها ،

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥ — ١٠ .

فآخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة[١] . واستجاب الأنصار للرسول فساعدوا المهاجرين بمنحهم بعض المال والاشتراك معهم فى الزراعة والتجارة ، كما عاهد الرسول اليهود واشترط عليهم ، ووضح لهم حقوقهم وواجباتهم .

فرض الصيام :

فى السنة الثانية من الهجرة ، وفى شهر شعبان على الأرجح ، فرض الله عز وجل على المسلمين صيام شهر رمضان ، وكان ذلك قبل غزوة بدر[٢] .

كان أول ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام ، عند قدومه إلى المدينة ، هو بناء مسجده النبوى ، على الأرض التى بركت فيها ناقته . واشترك مع المسلمين فى بناء المسجد . وكان الرسول ، فى أول الأمر ، يترك للمسلمين حرية اختيار قبلتهم فى الصلاة ، لأنه كما قال الله تعالى: (ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله ، إنَّ الله واسعٌ عليم)[٣] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٣ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية ١١٥ .

وحينما أوشك الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينتهى من بناء مسجده بالمدينة ، رأى أن يتجه المسلمون إلى وجهة واحدة ، ولذا عمد إلى قالب مصنوع من الحجر والطين ووضعه ملاصقاً للحائط الشمالى من المبنى ، وبه عين القبلة الأولى ، وكانت بيت المقدس . ولكن الله عز وجل أمر أن تكون الكعبة قبلة المسلمين ، فقال سبحانه وتعالى : (قد نرى تقلّب وجهك فى السماء ، فلنولينّك قبلةً ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطْره)[١] .

ثم كان اختيار الآذان للدعوة الإسلامية ، فقد أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينظم دعوة المسلمين للصلاة فى المسجد ، فقد كثر عدد المسلمين ، وتناثروا فى أرجاء المدينة . وصعد بلال ابن رباح إلى سطح المسجد يؤذن فى المسلمين يدعوهم للصلاة للخالق العظيم .

روى الأقدمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وأن هذه الأيام الثلاثة كتبها الله على المسلمين ، ثم نسخت بصيام شهر رمضان ، ويرى بعض المفسرين أن هذه الأيام الثلاثة هى التى قصدها

(١) سورة البقرة آية ١٤٤ .

الله عز وجل بقوله : (أياماً معدودات) الآية . كما يرون أيضاً أن صيام هذه الأيام كان تطوعاً ولم يكن فريضة ، فقد روى عن عمرو بن مرة أنه قال : « حدثنا أصحابنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم عليهم أمرهم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر تطوعاً لا فريضة . قال : ثم نزل صيام رمضان »[١] .

وروى بعض الأقدمين أن الرسول صلى الله عايه وسلم حينما هاجر إلى المدينة ، رأى اليهود تصوم عاشوراء فسألهم عن صيامهم فى هذا اليوم فقالوا إنه اليوم الذى غرّق الله تعالى فيه آل فرعون ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال الرسول إنه أحق بموسى منهم ، فصام الرسول ذلك اليوم وأمر المسلمين بصومه[٢] . وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن صوم عاشوراء كان واجباً قبل صيام رمضان ، فى حين ذهب الإمام الشافعى إلى أنه لم يزل سنّة ولم يكن واجباً قط فى هذه الأمة ولكنه متأكد الاستحباب .

ويقول الطبرى : لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم رمضان ، ثم نسخ بصوم شهر رمضان ، وبأن الله تعالى قد بين فى سياق الآية أن الصيام

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢ ص ٧٧ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢٩ .

الذى أوجبه جلّ ثناؤه علينا هو صيام شهر رمضان دون غيره من الأوقات بإبانته عن الأيام التى أخبر أنه كتب علينا صومها بقوله : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . فمن ادعى أن صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذى هم مجمعون على وجوب فرض صومه ، ثم نسخ ذلك ، سُئل البرهان على ذلك من خبر تقوم به حجة إذا كان لا يعلم ذلك بخبر يقطع العذر[١] . وينفى الإمام محمد عبده أن يكون قد فُرض على المسلمين صيام قبل فرض صيام رمضان[١] .

نزلت آيات كريمة تفرض الصيام على المسلمين هى :

(شهرُ رمضان الذى أُنْزِلَ فيه القرآنُ هدًى للناس وبَيِّنات من الهُدَى والفُرْقَان . فمن شَهِد منكم الشَّهرَ فليصُمْه . ومَنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعدَّةٌ من أيام أُخَر . يريدُ اللهُ بكم اليسرَ ولا يريد بكم العُسْر . ولِتكمِلُوا العِدَّة ولِتُكبِّرُوا الله على ما هداكم ولعلكُمْ تَشْكُرون)[٣] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢ ص ٧٧ .

(٢) تفسير المنار جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥ .

ورغم صيف المدينة المنورة القائظ ، فقد أقبل المسلمون جميعاً ، على أداء فريضة الصيام ، فى خشوع وحماس . فتتقوى بهذه الرياضة الروحية أواصر الأخوة بينهم ، وينتصر المؤمنون متعاونين على هذا العدو الشرس ، أعنى الجوع والظمأ ، فيصبحون أكثر استعداداً وأوثق تعاوناً لمجابهة أشدّ أعدائهم مراساً من بنى البشر .

ويستمر المهاجرون والأنصار على صيامهم ثلاثين يوماً ، فى تحمس زائد ، فإن هذا الصوم هو شكر يتوجهون به لمانح النعم . وهذا الاختبار الدينى التعبدى يحيى الأرواح ويقوّى الأجسام . ولأجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات الرهيبة التى تحيط بهم لنشر الإسلام فى أرجاء العالم ، كى تكون كلمة الله هى العليا ، كان لابدّ لهم من هذا التدريب الذى يعتبر هيناً بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد فى فتوحاتهم[1] .

وقد نتساءل : لماذا خصّ المولى عزّ وجل شهر رمضان المعظم بالصيام ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول إنه الشهر المبارك الذى أنزل الله عز وجل فيه القرآن هدى للناس وبينات من

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٠ .

الهدى والفرقان . وفى ذلك يقول الفخر الرازى[١] : « اعلم أنه تعالى لما خص هذا الشهر بهذه العبودية ، بين العلة لهذا التخصيص ، وذلك هو أن الله سبحانه وتعالى خصه بأعظم آيات الربوبية ، وهو أنه أنزل فيه القرآن ، فلا يبعد أيضاً تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية ، وهو الصوم ، ومما يحقق ذلك أن الأنوار الصمدية متجلية أبداً يمتنع عليها الاختفاء والاحتجاب ، إلا أن العلائق البشرية مانعة من ظهورها فى الأرواح البشرية ، والصوم أقوى الأسباب فى إزالة العلائق البشرية ، ولهذا قال عليه الصلاه والسلام : "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا فى ملكوت السموات" ، فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة ، فلما كان هذا الشهر مختصاً بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصاً بالصوم».

تفضيل رمضان وفضائله :

شاء الله عز وجل أن يكون فى الناس ، وفى سائر المخلوقات ، فاضل ومفضول ، بما خصها الله من مميزات

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ٢ ص ١٢٢ .

وصفات فى بعضها دون البعض الآخر . فهناك بشر فضلهم الله على غيرهم بما امتازوا به من صلاح وتقوى حيث قال الله سبحانه وتعالى : (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ويوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع ، فهو يوم اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة ، وفيه ساعة يستجيب فيها الخالق العظيم دعاء المؤمنين . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة » .

وشهر رمضان هو أفضل شهور العام ، فهو الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ، وخصه بصيام المسلمين ، وليلة القدر هى إحدى لياليه المباركة ، وهو شهر العبادة والمحبة والمودة والخير والإحسان ، وهو الشهر الذى يؤدى فيه المسلم زكاة الفطر .

وأبرز الرسول عليه الصلاة والسلام فضائل رمضان ، فقال : « أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر فيه إلى تنافسكم فى الخير ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً ، فإن الشقى

من حرم من رحمة الله عز وجل » .

وهناك أحاديث كثيرة للرسول الكريم ، يشيد فيها بفضائل شهر رمضان نقتطف بعضها : روى الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حضر رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » . وروى ابن حبان فى صحيحه أن الرسول قال : « من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ ما ينبغى له أن يتحفظ كفر ما قبله » . كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله فرض صيام رمضان وسننت لكم قيامه فمن صامه وقامه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . ومن الأحاديث الشريفة التى رواها البخارى : « إن فى الجنة باباً يقال له الديان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم . يقال أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل أحد » .

كان جبريل فى شهر رمضان كثير الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتدارسان القرآن الكريم فى لياليه ، يعرض القرآن الكريم كله عليه ، مرّة فى كلّ رمضان . وفى رمضان الأخير من حياة رسول الله عرض القرآن عليه مرتين . ويقول

ابن عباس فى صحيح البخارى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

قرن الله سبحانه وتعالى شهر رمضان بالقرآن الكريم ، فهذا الشهر المبارك هو الذى شهد نزول القرآن ، وهذا قرن برمضان كل ما يذكر له من خير ، ولذا كان على المسلمين أن يعبروا عن شكرهم للخالق العظيم بالصيام فى هذا الشهر .

وقرن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً صيام رمضان بالقرآن الكريم ، فهو يقول : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى ربّى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه فيشفعان » .

فى رمضان من السنة الثانية للهجرة ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس بإخراج زكاة الفطر ، وقيل إن الرسول عليه الصلاة والسلام خطب الناس قبل الفطر بيوم أو يومين وأمرهم بذلك . وفى هذه السنة ، خرج الرسول إلى المصلى فصلى بالمسلمين

صلاة العيد « وكان ذلك أول خرجة خرجها الناس إلى المصلى لصلاة العيد »[١] .

خصّ الله الأمة الإسلامية فى شهر رمضان بمزايا عديدة ، وفضائل جليلة ، يفصح لنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « أعطيت أمّتى خمساً فى رمضان لم يعطهن نبىّ قبلى : الأولى : إذا كان أول ليلة من رمضان نظر الله إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه . الثانية : فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . الثالثة : فإن الملائكة يستغفرون لهم فى كل يوم وليلة . الرابعة : فإن الله عز وجل يأمر جنته ويقول لها : استعدّى وتزيّنى لعبادى الصائمين ، فقد أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . الخامسة : فإنه إذا كان آخر ليلة من رمضان غفر لهم جميعاً . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر يا رسول الله ؟ فقال الرسول : ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم ؟ » .

إن الغاية التى شرعت العبادات لتحقيقها لها ناحيتان : ناحية إلهية ، وناحية اجتماعية إنسانية . أما الناحية الإلهية فهى أن العبادة تذكر الإنسان بربه ، وتشعره بألوهيته ، وتقوى الصلة

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٩ .

به ، وفى هذا حياة لضمير الإنسان ، وتوجيهه إلى الخير والبر والفضيلة ، وإبعاده عن المنكر والشرور . أما الناحية الاجتماعية للعبادات ، فإن كل عبادة فرضها الله عز وجل تصلح فى الإنسان ناحية من نواحيه ، وتؤدى إلى خلق مجتمع إنسانى مثالى . والصوم من أركان قيام مثل هذا المجتمع ، فهو يخلق المواطن الصالح ، ويوجه سلوكه ، ويهذب نفسه ، ويبنى أخلاقه ، وينمى الإرادة القوية فى طبعه ، ويوقظ الضمير الحى فى أعماقه . والفرد هو لبنة المجتمع .

وفى شهر رمضان يرتبط الوجدان بالعمل ، والفرد بالمجتمع ، والدين بالحياة ، فكما أنه تربية للفرد يوجه سلوكه ، ويهذب غرائزه ، ويدفعه إلى العمل المثمر فى إخلاص وص ، كذلك تتعدّى آثار الفرد إلى المجموع بالتعاطف والتضحية ، والإيثار والبذل ، والتكافل والتضامن ، حتى إن قبول الصيام ليتوقف على زكاة الفطر فى آخر رمضان ، والصوم لا يكون صوماً حقاً إلا إذا انعكس أثره على حياة الصائم طوال شهر رمضان .

أول رمضان بعد الهجرة :

شهد أول شهر رمضان أمضاه الرسول صلى الله عليه وسلم

في المدينة المنورة ، بعد هجرته إليها من مكة ، أول المناوشات التي كانت بين المسلمين والوثنيين من قريش ، فقد روى الطبري[١] أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، عقد في السنة الأولى بعد الهجرة ، في شهر رمضان ، لحمزة بن عبد المطلب لواءً أبيض ، وأنه خرج على رأس ثلاثين فارساً من المهاجرين ، إلى منطقة « سيف البحر » عند شاطئ البحر الأحمر ، من ناحية العيص ، وهي من أرض جهينة ، ليعترض قافلة لقريش يقودها أبو جهل بن هشام ، وكانت القافلة تضم ثلثمائة فارس من أهل مكة ، ولكن مجدي بن عمرو الجهني حال دون القتال إذ كان موادعاً للفريقين ، فانصرف القوم بعضهم عن بعض ولم يكن بينهم قتال. ويقول الطبري[٢] : « وبعض القوم يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين » .

كانت سرية حمزة بن عبد المطلب هي السرية الأولى التي بعثها الرسول عليه الصلاة والسلام في رمضان ، ثم تبعتها سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في شهر شوال وتتألف من

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٢٠ .

(٢) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٢١ .

ستين مسلماً من المهاجرين ، فالتقت بقافلة لقريش يقودها، عكرمة بن أبي جهل على ماء اسمه (أحياء) فتراشقوا بالسهام ، بدون التحام ، وأصيب سعد بن أبي وقاص بسهم . ثم خرجت سرية سعد بن أبي وقاص تضم ثمانية من المهاجرين .

والسرية هي ما لم يخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو خرج ولم يحارب . أما التي خرج فيها وحارب فتسمى غزوة .

تولى المهاجرون هذه السرايا وحدهم دون الأنصار ، لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية من جانبهم ، فلم يشتركوا في الهجوم على القوافل التجارية لقريش ، ولم يدْعهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم في حربها ، بل حدث أن قريشاً أغارت في هذه الفترة على سرح المدينة ، فخرج الرسول بالمهاجرين وحدهم إلى المغيرين من قريش لأن المغيرين كانوا في عدد قليل ، فلم يكن هناك ما يدعو إلى خروج الأنصار [1] .

قُصد بهذه السرايا إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين من أهلهم الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوه من الاضطهاد ، تفاهماً يقي الطرفين شرور

---

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الإسلامية) ص ٢٣ .

العداوة والبغضاء ، ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين ، ولأهل مكة سلامة تجارتهم فى طريقها إلى الشام .

مغزى سرية رمضان :

كانت قبيلة قريش قبيلة تجارية ، تعتمد على التجارة فى مواردها ، فكانت إذا أيقنت قريش تعرّض هذه التجارة للخطر آتياً من ناحية أبنائها الذين هاجروا إلى المدينة ، دعاها ذلك إلى التفكير فى التفاهم معهم تفاهماً طمع المسلمون فى أن يكفل لهم ما كانوا يطمحون إليه من حرية الدعوة إلى دينهم ، ومن حرية الدخول إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن مثل هذا التفاهم ممكناً . ما لم تقدّر قريش قوّة المهاجرين من أبنائها على الإيقاع بها وإيصاد طريق التجارة فى وجهها[1] .

وكانت هذه السرايا تشعر قريشاً بما صار للإسلام من قوّة فى المدينة ، وأن على قريش أن تخفف من عداوتها للإسلام ، وأن ترفع يد الإرهاب عن المسلمين الباقين فى مكة ، إذ صار فى استطاعة المسلمين فى المدينة أن يقتصوا من أهل مكة بأن يقطعوا عليهم طريق القوافل بينهم وبين الشام .

---

(١) هيكل : حياة محمد ، ص ٢٤٠ .

كما كان موقع المدينة يساعد المسلمين على النصر ، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق التى تمرّ بها القوافل إلى الشام ، وكانت التجارة المورد الوحيد بمكة ، إذ كانت وادياً غير ذى زرع ، فإذا ما منع الرسول هذه القوافل ، فلابدّ من أن المجاعة ستسود هذه البلدة الجاحدة وتضطرها إلى الإتيان خاضعة للرسول دون أن يلجأ إلى إراقة دماء قومه المكيين ، الذين كان يحافظ عليهم ، رغم إيذائهم له ، والذين كان يودّ لهم الخير ، آملاً فى أن يهتدوا يوماً ، فيكون منهم الأساس الإسلامى الوطيد(١) .

استفاد المهاجرون من هذه السرايا ، إذ تعرفوا على الطرقات والأماكن المحيطة بالمدينة ، وخاصّة المناطق الواقعة بين المدينة والبحر الأحمر . كما أدّت هذه السرايا إلى موادعة القبائل الضاربة فى هذه المناطق ، مما أدّى إلى تأمين المدينة .

وكان خروج المسلمين فى هذه السرايا على نحو لم يألفوه قبل الإسلام ، فقد اعتاد المسلمون الآن الخروج فى نظام حربى دقيق ، تحت قيادة موحدة ، يدفعهم إيمان قوى ، ويحاربون من أجل عقيدة سامية ، وليس كما كانوا فى جاهليتهم غارقين فى حروب قبلية وغارات من أجل السلب والثأر .

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٦.

كما كانت هذه السرايا توقع الرعب فى قلوب يهود المدينة ، وغيرهم من اليهود الذين يضربون حول المدينة ، هؤلاء اليهود الذين أبدوا عداءً شديداً للإسلام والرسول والمسلمين ، كما كانت هذه السرايا أيضاً كفيلة بأن ترفع من الروح المعنوية للمسلمين، وتشعرهم بقوتهم ،وتزيدهم إقبالاً على التأهب النفسى والاستعداد للقتال(١) .

أدركت قريش ما وصل المسلمون إليه من قوة ، فلم تعد تخرج من مكة قوافل صغيرة ، بل انتظمت فى قافلة كثيفة ، تمضى فى طريقها فى حراسة شديدة قوية .

إعلان الجهاد :

كان شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة تحوّلاً كبيراً ، إذ شهد هذا الشهر — كما رأينا — خروج أول السرايا . فقد أصبح المسلمون فى المدينة قوة سياسية واجتماعية وعسكرية . وبدأ المسلمون جهادهم الأكبر فى شهر رمضان من السنة الثانية ، مما مهد لحدوث غزوة بدر الكبرى .

كانت تلك الفترة التى قضاها المهاجرون بالمدينة كافية

---

(١) جمال حماد : غزوة بدر ص ٣٩ .

لحمل الأنصار على مشاركة المهاجرين فى جهادهم ، من أجل نشر عقيدتهم ، لأنهم صاروا جميعاً إخواناً فى الدين والوطن والقومية ، وقد اطمأن كلّ فريق منهم إلى الآخر ، وعلم الأنصار أن المهاجرين قد نسوا وطنهم الأول ، مكة ، وحاربوا أهله من قومهم وأقاربهم ، وعلموا أن هذا الوطن الجديد ، المدينة ، سيجمع بين الفريقين إلى ما شاء الله عز وجل ، فلا يصح أن ينفرد أحدهم بحرب دون الآخر ، ولا سيما بعد أن بدأت قريش بالهجوم على سرح المدينة ، فمن حق الأنصار أن يشتركوا فى الهجوم على قوافل قريش ، لأنها لم ترع إحجامهم عن حربها مع المهاجرين ، وهم إخوانهم فى الدين ، ولهم عليهم حق الوطن والجوار .

حان وقت الالتجاء إلى السيف من أجل انتصار الإيمان . وكان لا بدّ من الجهاد فى سبيل الله ونصرة دين الحق ، ونزلت آيات كريمة تحث المسلمين على الجهاد فقال سبحانه وتعالى : (وقاتلُوا فى سبيل الله الذين يُقَاتِلُونكم ولَا تَعْتَدُوا ، إنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِين . واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وأخرجُوهم من حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ)(١) .

---

(١) سورة البقرة ١٩٠ — ١٩٢ .

لقد صبر الرسول صلى الله عليه وسلم طويلاً ، وصبر المسلمون معه كذلك حقبة طويلة على إيذاء المشركين ، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أذاقوهم فيها أليم العذاب . فرأى المسلمون ، مؤيدين بالقرآن الكريم ، أن لهم الحق فى استعمال السيف دفاعاً عن أنفسهم[1] .

مقدمات غزوة بدر :

فى شهر رجب من السنة الثانية بعد الهجرة ، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن جحش على رأس نفر قليل من المهاجرين ، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا يفضه إلا بعد يومين من رحيله . وجاء فى هذا الكتاب : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم »[2] وتخلّف عن الركب سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، حيث كانا يبحثان عن بعير لهما ، كانا يتبادلان ركوبه ، فأسرتهما قريش . ومضى عبد الله بن جحش فى طريقه حتى

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٧٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢٤ . (كان المسلمون ثمانية أو اثنى عشر مهاجراً) .

نزل مع رفاقه فى نخلة . ومرّت بهم عير لقريش عليها عمرو ابن الحضرمى .

كان ذلك اليوم هو آخر أيام رجب ، وتشاور المسلمون فيما يفعلون ، فقال أحدهم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن به منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام . وكما روى الطبرى [1] « تردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم تشجعوا عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم » . وانتهى الأمر بمصرع عمرو بن الحضرمى ، وأسر رجلين من قريش . وعاد المسلمون بأسيريهم وغنائمهم إلى المدينة . فقال الرسول لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . وانتهزت قريش الفرصة فقالت : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام . ودافع المسلمون بالمدينة عن إخوانهم المهاجرين فقالوا : إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان . واستغلّ اليهود هذه الفرصة أيضاً للإساءة للمسلمين [2] .

وحسم الموقف نزول الآيات الكريمة : (يَسْأَلُونك عن

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٤ .

الشَّهْر الحَرام قِتَالٍ فيه قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كبيرٌ وصدٌّ عن سَبِيلِ اللهِ وكفرٌ به والمسجدِ الحرام وإخراجُ أهْلِهِ مِنْهُ أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والفتنةُ أكْبَرُ مِنَ الْقَتْل لَا يزالُون يقاتلونكُمْ حتّى يردُّوكم عَن دِينكُمْ إن اسْتَطَاعُوا)[1] ، وأطلق الرسول سراح الأسيرين ، مقابل إطلاق قريش سراح سعد وعتبة ، وقد أسلم أحد الأسيرين ، وهو الحكم بن كيسان ، وأقام فى المدينة ، وعاد الاخر إلى مكة[2].

وهذه الآيات الكريمة توضّح المعنى الصريح للجهاد فى سبيل الله ، فهو قتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدّون عن سبيل الله . وهذا هو القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه . والدفاع عن الرأى يكون بالوسائل التى يقاتل بها أصحاب الرأى ، أما إذا لجأ العدو إلى القوة المسلحة ، وجب دفعها بالقوة أيضاً . وكرامة الإنسان تتركز فى عقيدته ، والعقيدة أثمن من المال والجاه والسلطان ، ومن الحياة نفسها . فالعقيدة

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) وهو عثمان بن عبد الله .

هي هذه الصلة المعنوية بين الإنسان والإنسان ، والصلة الروحية بين المرء وربه . وعلى المؤمن أن يدفع الفتنة بسلاح من يحاول الفتنة ، وأن يقف في وجه من يصدّ عن سبيل الله بوسائله[١] .

كانت سرّية عبد الله بن جحش في مفترق الطرق ، فعلى رغم أنها كانت من عدد ضئيل لا يقصد الحرب ، ولا يستطيع أن يشب لها ناراً ، فإنها صارت نقطة تحول في سياسة الإسلام ، إذ شرع للمسلمين أن يقاتلوا الذين فتنوهم عن دينهم . وذلك التشريع كان أوّل أمر بالجهاد في سبيل الله .

ولم يكن مفترق طريق للمسلمين وأهل المدينة وحدهم ، ولكنه كان أيضاً بالنسبة لقريش ، فقد بدأت مكة تعد للبأس القوة وتجمع للعيرات المسافرة إلى الشام أموالاً كثيرة من شتى بيوت أهل مكة ، وتجعل عليها أعداداً كبيرة من الرجال ذوي الحيلة والدربة وتزودهم بالمعرفة والحذر والسلاح[٢] .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٢٤٧ .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ٥٧ .

غزوة بدر الكبرى

القافلة :

فى أوائل الخريف من السنة الثانية ، خرجت من مكة قافلة تجارية كبيرة ، تتكون من ألف بعير ، وتحمل ألواناً كثيرة من التجارة ، بلغ ثمنها أكثر من خمسين ألفاً من الدنانير ، اشترك فيها كل بطون كعب بن لؤى ، وترأس القافلة زعيم قريش حينئذ أبو سفيان بن حرب بن أمية . واشترك فى حراستها ثلاثون أو أربعون من أشداء الرجال ، وفى مقدمتهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهرى . وكانت وجهة القافلة الشام ، حيث تعود محملة بأنفس أنواع التجارة[1] .

رأى المسلمون أن ينتهزوا هذه الفرصة ، ففكروا فى الاستيلاء على هذه القافلة ، فقد اضطرهم المشركون من قريش إلى الخروج من مكة ، والبعد عن الوطن والأهل ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم ، وكان الاستيلاء على هذه القافلة لا يؤدى إلى إراقة دماء ، فحراس القافلة لا يزيدون على أربعين رجلاً ، وسيضطرون إلى التسليم والاستسلام .

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٧ .

خرج الرسول فى سرية إلى العشيرة لاعتراض القافلة وهى فى طريقها إلى الشام ، ولكن شاءت الأقدار ألا تلحق السرية بالقافلة ، فقد سبقتها القافلة بيومين ، ولذا رأى المسلمون انتظار عودتها من الشام ، وكلف الرسول طلحة بن عبيد الله وسعيد ابن زيد بترصد أخبارها ، فنزلا فى خباء فى الروحاء التى تبعد عن المدينة بنحو ثلاثين ميلاً .

قدم طلحة وسعيد إلى المدينة ، ليخبرا المسلمين بقدوم قافلة قريش من الشام ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد غادر المدينة ، إذ كان قد قرر أن تكون القافلة قد بلغت الروحاء ، وندب الرسول المسلمين دون تفرقة بينهم ، ولبى المسلمون النداء ، وقال الرسول لهم : هذه عير قريش ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها[1] . وأرادت جماعة من الناس ، لم تكن قد اعتنقت الإسلام بعد ، أن تنضم إلى المسلمين طمعاً فى الغنيمة ، فرفض الرسول عليه الصلاة والسلام عرضهم ، إلا بعد أن يؤمنوا بالله ورسوله .

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٥ .

خروج الجيش الإسلامى :

كان الجيش الإسلامى يتألف من المهاجرين والأنصار[1] ، وصحبوا معهم سبعين بعيراً تحمل الماء والزاد ، ويتعقبها المشاة ، ولم يكن معهم سوى أربعة أفراس ، يقودونها دون أن يركبوها ، يوفرون لها سبل الراحة ، استعداداً ليوم النزال .

وكان عثمان بن عفان قد عاد ، بصحبة زوجته رقية بنت محمد ، من الحبشة ، وأراد الانضمام إلى هذه الحملة ، ولكن رقية كانت تعانى من مرض شديد ، وعلى شفا الموت ، فاضطر عثمان إلى البقاء فى المدينة .

اتخذ المسلمون الطريق الرئيسى إلى مكة ، ثم انحرفوا يساراً نحو البحر الأحمر ، حتى وصلوا إلى الوادى الذى يرويه ماء بدر ، وعسكروا قرب البئر ، التى اعتادت القوافل أن ترتاده .

لم يعد خروج الجيش الإسلامى أمراً سرياً ، فقد كان المنافقون واليهود من أهل المدينة ، يرقبون إعداد هذه الحملة

---

(١) روى الطبرى (جـ ٢ ص ١٣٨) أن عدد المهاجرين كان ٧٧ رجلا وأن عدد الأنصار كان ٢٣٦ أو ٣١٨ أو ٣٠٧ .

وخروجها ، ورأوا أن يقوموا بدورهم الغادر كعادتهم دائماً ، فبعثوا برسلهم إلى أبى سفيان قائد القافلة ينبئونه بأمر الحملة حتى يأخذ أهبته .

أدرك أبو سفيان خطورة الموقف ، فالقافلة تحمل أرباحاً طائلة جناها القرشيون من بيع تجارتهم فى الشام ، كما تحمل كثيراً من البضائع النفيسة ، ولا يحرس القافلة غير ثلاثين أو أربعين رجلاً . ولذا بعث برجل يدعى ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ، وفى بطن الوادى ، قطع أذنى بعيره وجدع أنفه ، وحوّل رحله ووقف هو عليه ، وقد شقّ قميصه ، وأخذ يصيح : يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها ! الغوث الغوث[1] !

الموقف فى مكة :

كان أهل مكة ينتظرون قدوم القافلة بالأرباح الطائلة ، وكانوا قد ساهموا فيها جميعاً ، ولذا كان صياح ضمضم مفاجأة كبرى لهم ، وكارثة عظمى ، فتجمعوا حوله ، وانهالوا عليه بالأسئلة ، وهو يثير حماستهم ويحضهم بعباراته ، وحركاته التمثيلية .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

استمع أبو جهل ، عدو الإسلام والرسول الألد ، إلى صيحات ضمضم ، فصاح بدوره بالناس عند الكعبة يستنفرهم لإنقاذ القافلة والأموال . وصف ابن هشام[١] أبا جهل بأنه كان « رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر » .

أدرك أهل مكة أن المسلمين الذين نفوهم عن ديارهم بالأمس ، قد صاروا قوة يخشون بأسها ، ويعملون لها حساباً . ولذا رأى المكيون أن يعدّوا جيشاً قوياً يواجه خطر الجماعة الإسلامية التي ملأ الإيمان قلوبهم بالحماسة الدافقة .

غير أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظلمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ، ثم الهجرة إلى المدينة ، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه . وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشاً وكنانة بينهما ثأر في دماء تبادل الفريقان إراقتها ، فإذا هي خفت إلى لقاء المسلمين لمنع غيرها منهم خافت بني بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها[٢] .

ولكن أهل مكة ، وقد قدّروا خطورة الموقف ، رأوا أن

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ٢٥٢ .

يتناسوا أحقادهم وثاراتهم القديمة ، لمواجهة الخطر الجديد ، خطر القوة الإسلامية، ولذا تقدّم مالك بن جعشم المدلجى ، من أشراف بنى كنانة ، يؤمن قريشاً ، ويؤكد لها أن كنانة لن تطعنها من الخلف ، ولن تغدر بها .

وبدأت قريش تحشد رجالها ، للدفاع عن قافلتها ، ودعت كل قادر على القتال إلى الخروج ، وإذا كان له عذر فى التخلف عليه أن يبعث برجل بدله . وكان من الذين تخلفوا أبو لهب ، الذى بعث بدله العاص بن هشام بن المغيرة ، الذى كان مديناً لأبى لهب بأربعة آلاف درهم، وعجز عن سدادها ، فرأى أن يقاتل بدلاً عنه[1] .

وسرعان ما تكوّن جيش من المشركين، ضمّ تسعمائة وخمسين رجلاً يقودون مائة فرس ، وسبعمائة من الإبل ، يقودهم أبو جهل . وانضمت إليهم هند زوجة أبى سفيان ، وهى امرأة شرسة قاسية ، ودعت أباها وأخاها الوليد وعمها شيبة وكثيراً من أقاربها إلى الخروج . كما خرج معهم إخوة القتيل الذى قتله عبد الله بن جحش فى وادى نخلة يريدون الأخذ بثأره .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٣٧ .

خرجت الحملة من قريش ، تتقدمها جماعة من الفتيات المغنيات ، ارتدين ملابس موشاة ، وتزين بالحلي الذهبية ، ينشدن أبياتاً من الشعر في هجاء المسلمين ، وأبياتاً أخرى يثرن بها حماسة المشركين ، على نغمات ضربات الدفوف .

مضت حملة المشركين ، يدفعها الشيطان الذى زيّن لهم أعمالهم ، وصورلهم أنه لا غالب لهم ، وأنه نصيرهم وناصرهم ، كما قال الله تعالى : (وإِذْ زيّن لهم الشيطانُ أَعْمَالَهم ، وقال لا غالِبَ لكُمُ الْيَوْمَ من النَّاسِ ، وإنِّى جارٌ لكم ، فلما تراءت الفِئَتان نكَصَ على عقِبَيْهِ ، وقال إنِّى برىءٌ مِنكُم ، إنِّى أرى ما لا ترَوْنَ ، إنى أخَافُ الله ، والله شديد العقاب) (١) .

جند الله ورسوله :

غادر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة ، وعهد الرسول إلى عمرو بن أم مكتوم بالصلاة بالناس ، واستعمل أبا لبابة على المدينة . وتقدّم الجيش الإسلامى ، تتصدره رايتان

---

(١) سورة الأنفال ٤٨ .

سوداوان ، وصحبوا سبعين بعيراً يتعقبونها ، وتألف الجيش من نيف وثلمائة مسلم مؤمن[١] .

وكانت الحماسة فى المدينة جارفة حتى إنه خرج بعض الغلمان الذين لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من أعمارهم . وتنافس المسلمون حول الخروج مع الرسول ، فيروى الذهبي[٢] أن خثيمة قال لابنه حين ندب الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج : آثرني بالخروج وأقم مع نسائك ، فأبى سعد ذلك وقال : لو كان غير الجنة آثرتك بها . اقترع خثيمة بينه وبين ابنه سعد على الخروج ، فخرج سهم سعد ، فأبدى الأب أسفه . واستشهد الأب والابن فى سبيل الإسلام ، فاستشهد سعد فى بدر ، واستشهد أبوه فى أحد ، فكانت الجنة لهما على السواء .

لم يكن الرسول يعلم بخروج حملة مشركى مكة ، ومضى فى طريقه نحو قافلة قريش ، وبعد أن تزود فى طريقه من ماء الروحاء ، تقدم حتى نزل بالصفراء ، وسأل بعض الأعراب عن أخبار قريش فلم يجد عندهم خبراً ، وتقدم الرسول إلى وادى «ذفران» فنزل به ، وهناك علم الرسول بخروج جيش مكة.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٤ .

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ١٩٣ .

وبينما كان أبو جهل يقود جيش مكة ، كان أبو سفيان يتقدّم نحوه ، حتى إذا وصل إلى منطقة الخطر سبق القافلة بمسافة ، مقتصاً الآثار على الرمال ، وأخيراً عثر على آثار أقدام جيش المسلمين ، وأدرك قلة عددهم من قلة عدد نوى البلح الذى ألقى المسلمون به أثناء سيرهم .

علم أبو سفيان الطريق الذى اتبعه المسلمون ، فخادعهم : وسار محاذياً شاطئ البحر الأحمر ، حتى إذا أدرك أنه قد أصبح بعيداً عن منطقة الخطر ، بعث رسولاً آخر للقاء القرشيين الذين قد يكونون قد خرجوا لنجدتهم ليخبرهم بالطريق الجديد الذى اتبعته القافلة ، وينبئهم بسلامتها فى طريقها إلى مكة .

التقى رسول أبى سفيان بالقرشيين ، حتى إذا علموا بنجاة القافلة ، عقدوا مجلساً للتشاور ، ورأى بعضهم التقدّم لقتال محمد والمسلمين ، فى حين رأى البعض الآخر العودة إلى مكة . وخلال هذه المناقشات أرسلوا كشافاً يستكشف أمر المسلمين ، وعاد يخبرهم أن عدد المسلمين نحو ثلثمائة مما أثار حماستهم للقتال ، ولكن حذّرهم البعض من القتال ، فحماس المسلمين للقتال عظيم ، فهم لا يملكون شيئاً يخشون ضياعه ، لا يملكون

سوى سيوفهم ، يحاربون بها من أجل عقيدتهم السامية ، ويبذلون أرواحهم فى سبيلها . وذكروهم أن بين المسلمين أقارب لهم .

كانت هذه الكلمات كفيلة بأن تهدئ حماسة قريش ، ولكن تقدّم إخوة قتيل (نخلة) يثيرون حماسة القرشيين مدفوعين بتحريض من أبى جهل ، فقد وقف يخطب : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، بمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا[1] » .

أثارت كلمات أبى جهل كبرياء قريش ، وأغراهم ما وعدهم به من ولائم وخمر وأنغام ، فاستجاب معظمهم إلى ندائه ، ومضوا فى طريقهم ، طريق الضلال . وتخلف عن القوم بنو زهرة ، وبنو عدى بن كعب[2] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧١ .

الشورى :

علم الرسول عليه الصلاة والسلام بخروج جيش مكة ، لحماية قافلة قريش ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستشير المسلمين ، فالشورى هى من فضائل الإسلام ، وحتى يكون أمرهم شورى بينهم . وقام أبو بكر وعمر بن الخطاب فأدليا برأيهما وأحسنا . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . وأعجب الرسول بمقالة المقداد ودعا له .

وأراد الرسول أن يستمع إلى المزيد من آراء سائر المسلمين ، وخاصة الأنصار حتى تكمل الشورى . فقال : أشيروا علىّ أيها الناس . فقد كان الأنصار يمثلون عدّة الجيش الإسلامى ، وكانت بيعة العقبة معاهدة دفاعية ، وليست هجومية ، تنصّ على أن يمنعه أهل المدينة مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ،

---

(١) برك الغماد : موضع فى اليمن .

ولم يبايعوه على قتال خارج مدينتهم .

وتقدّم زعيم الأنصار ، سعد بن معاذ ، إلى الرسول سائلاً : والله ، لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ فأجاب الرسول : أجل . فقال سعد : فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً ، إنا لصبرٌ فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

كان سعد بن معاذ يعبر عن رأى الأنصار ، وأبدى الرسول صلى الله عليه وسلم سروره لمقالة سعد ، فقال للمسلمين : سيروا وأبشروا ، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم[1] .

غادر المسلمون وادى ذفران ، ومضوا حتى نزلوا قريباً من بدر ، وهناك التقوا بشيخ عربى ، عرفوا منه خروج قريش من مكة . وفى المساء بعث الرسول على بن أبى طالب والزبير

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

ابن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر ، يلتمسون له الأخبار ، فعادوا بغلامين لقريش ، وسألوهما عن خبرهما فقالا : نحن سقاة قريش . فلم يصدقوهما ، وضربوهما ، واتهموهما أنهما من غلمان أبى سفيان ، فاضطرا للخلاص من الضرب أن يقرّا بذلك . وكان الرسول يؤدى الصلاة ، حتى إذا فرغ منها ، قال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إنهما لقريش . ثم سأل الرسول الغلامين عن أخبار قريش ، فأجابا : إنهم على مقربة من المسلمين ، فسألهما عن عدد القرشيين وعدتهم . فقالا : لا ندرى . فسألهما : كم ينحرون فى اليوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة والألف . وسألهما الرسول عمن فيهم من أشراف قريش ، فذكرا له خمسة عشر اسماً ، فاتجه الرسول بالحديث إلى المسلمين وقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها[1] .

ماء بدر :

خرج المسلمون من المدينة لمفاجأة قافلة تجارية ، لا يزيد

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٩ .

حرّاسها على الأربعين رجلاً ، ولكنهم أصبحوا الآن فى مواجهة جيش كبير عبأه المشركون فى مكة ، وقد وفروا له العدة والعتاد ، فأصبحوا يفوقون المسلمين عدداً وسلاحاً ومؤناً ، ولكن المسلمين فاقوهم بإيمانهم وحماستهم ، وغيرتهم على دين الله ، والله ناصرهم ومعينهم .

رأى المسلمون أن يسبقوا المشركين فى الوصول إلى ماء بدر ، فاستحثوا السير حتى وصلوا إلى أعلى الوادى ، وكان الوادى من الحر بحيث لم يجدوا به قطرة ماء . ومن حسن الحظ أن تعوّدهم الظمأ فى صيام شهر رمضان قوّى من صبرهم . وفى الوقت الذى بلغت فيه الحرارة أشدّها ، وأرسلت الشمس شعاعها كشواظ من نار ، وكاد ينفد الصبر ، أرسل الله إليهم السحب تتوج القمم والآكام ، وتفجر الماء من الغيث المنعش ، ونهل المسلمون منه وعلوا ، وحفروا حفراً صغيرة امتلأت بالماء ، فغسلوا فيها ثيابهم التى كانت تنضح عرقاً ، وتطهروا للصلاة .

أدركت رحمة الله عز وجل المسلمين ، فقال الله تعالى :
(وَيُنَزِّلُ عليكم من السماء ماءً ليطهرَكُمْ به ، ويُذهبَ عنكم رجْزَ الشيطانِ ، وليَرْبِطَ على قلوبِكُمْ ، ويثبِّتَ به

الأقدام[1]) .

ولم تقف فائدة المطر عند ذلك ، فقد كان طريق المسلمين فى الوادى ليناً تغوص فيه الأقدام فلبد لهم المطر الأرض ، ولم يمنعهم من السير . فى حين كانت هذه العاصفة ضرراً على المشركين ، فقد أصابهم منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه ، فقد كانوا فى أرض سبخة ، وكانت إبلهم تنزلق ، وتخر على الأرض ، وكانت قوائم الخيل تغوص فى الأرض . . . وساد الاضطراب ، وعمت الفوضى ، وعرقل كل ذلك من سيرهم ، وأنهك قواهم[2] .

وأدرك الحباب بن المنذر بن الجموح أهمية الماء بالنسبة للمسلمين ، فتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقترح رأياً ، وبدأ بالسؤال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فأجاب الرسول عليه الصلاة والسلام : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : يا رسول الله ،

---

(١) سورة الأنفال آية ١١ .

(٢) دينيه : محمد رسول الله ص ١٨٤ .

فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم لننزل ، ثم نغوّر[١] ما وراءه من القُـلُب[٢] ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

وكان الرسول دائماً حريصاً على الشورى ، ويرحّب بالمشورة ، وهى مظهر من مظاهر ديموقراطيته العظيمة المتسعة الجوانب . ولذا أبدى الرسول إعجابه باقتراح الحباب وقال : لقد أشرت بالرأى . ووضع المسلمون هذا الاقتراح موضع التنفيذ ، وأصبح المشركون الذين كانوا قد نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، فى موقف حرج ، فقد كان عليهم أن ينازعوا المسلمين على الماء ، وقد سبقهم المسلمون إليه ، ولم يكن فى الوادى غير ماء بدر .

ثم قام سعد بن معاذ ، فتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باقتراح آخر ، فقال : يا نبىّ الله ، ألا نبنى لك عريشاً ، تكون فيه ، ونُعدّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام ، يا نبىّ الله ما نحن بأشدّ لك حبًّا منهم ،

---

(١) التنوير : الدفن والطمس .

(٢) القلب : الآبار .

ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك[١] .

وأبدى الرسول أيضاً إعجابه باقتراح سعد بن معاذ ، زعيم أنصار المدينة ، وأثنى عليه ، ودعا له بخير ، وتمت إقامة العريش ، فقطع المسلمون غصون الأراك ، وألفوا بينها حتى صارت عريشاً ، فغطوه بأعواد الطرفاء ، وأوى الرسول وأبو بكر إليه .

وإنه ليبدو من اختلاف السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يلزم العريش طوال المعركة ، إذ ليس معنى بناء عريش له أن ينقطع القائد عن المعركة التى يحضرها ويديرها ، فبرغم ما قيل من أنهم أقاموا له عريشاً ، فقد رووا أنه كان أشدّ الناس بأساً ، وكان أقرب إلى العدو من كل الناس ، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف إلا لمن يزاول القتال ويغشى صفوف المحاربين[٢] .

ويبدو هذا واضحاً فى رواية للطبرى ، فقد روى أن على ابن أبى طالب قال : لما أن كان يوم بدر وحضر البأس اتقينا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣ (العريش : شبه الخيمة) .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ٦٦ .

برسول الله ، فكان من أشدّ الناس بأساً ، وما كان منّا أحد أقرب إلى العدو منه[١] .

المواجهة :

عسكر القرشيون فى الوادى ، وقد آلمهم أن المسلمين سبقوهم إلى ماء بدر وحرموهم منه ، وبنوا عليه موضعاً ، وقفوا حوله يذودون عنه ، والماء مسألة موت أو حياة لكل جيش مقاتل .

وشاهد الرسول عليه الصلاة والسلام القرشيين عن بعد ، فتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء ، فقال : اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادّك وتكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحِنهم الغداة[٢] .

كان القرشيون قد وصلوا إلى هذا المكان مجهدين متعبين ، فبدءوا يتخلصون من أوحال السبخة التى كانوا بها ، ثم ناموا ما بقى من ليلتهم ، ثم استيقظوا ، وقد شعروا بظمأ شديد ، وكانت العاصفة من السرعة بحيث لم تملأ الغدران ، أما آبار الوادى ، فقد ردمها المسلمون ، فلم يجد المشركون ماء يروى ظمأهم .

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٥٢ .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣ (أحنهم : أهلكهم) .

اشتد بالقرشيين الظمأ ، ورأوا عن كثب ذلك الحوض الذى أقامه المسلمون وقد امتلأ بالماء ، فأرادوا الانتقام من المسلمين إذ حالوا بينهم وبين ما يطفئ ظمأهم ، وتقدم نفر من قريش يريدون اقتحام صفوف المسلمين والوصول إلى الماء ، ولكن المسلمين نجحوا فى صدهم وقتلوهم جميعاً عدا حكيم ابن حزام الذى اعتنق الإسلام فيما بعد وحسن إسلامه[١].

ورأى القرشيون أن يقفوا على عدد المسلمين وعُدتهم ، فبعثوا برجل منهم يدعى عمير بن وهب الجمحى لاستطلاع أحوال المسلمين ، فعاد إليهم يقول : ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد ؟ وعاد عمر يجول ثانية بفرسه فى الوادى حول معسكر المسلمين ، ثم رجع إلى قريش يقول : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيت ، يا معشر قريش ، البلايا[٢] تحمل المنايا ، نواضح[٣] يثرب تحمل الموت الناقع[٤] ، قوم ليس معهم مَنَعة ، ولا ملجأ

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) البلايا : جمع بلية وهى الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت .

(٣) النواضح : الإبل التى يستقى عليها الماء .

(٤) الناقع : الثابت البالغ فى الإفناء .

إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجلٌ منهم ، حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟ فروا رأيكم[١] !

وكان حكيم بن حزام قد جرّب حظه ، وحاول الوصول إلى ماء بدر ، ونجا وحده من المصير الذى لاقاه غيره من القرشيين ، ولذا فقد اتجه إلى عتبة بن ربيعة ، وكان من سادة قريش ، فقال له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ فسأله عتبة : وما ذلك ، وما ذاك يا حكيم ؟ فأجاب حكيم : ترجع بالناس .

واقتنع عتبة برأى حكيم ، فوقف فى قريش خطيباً يقول : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوا فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٥ .

لم يكن عتبة يخشى معارضة أحد من زعماء قريش ، غير أبي جهل بن هشام ، ولذا بعث بحكيم بن حزام إليه ، لينقل له رأيه ، واستشاط أبو جهل غضباً ، وسخط على عتبة وقال عنه : انتفخ والله سحره[١] ، حين رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ! ! ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي يشكو إليه عتبة ويقول : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك[٢] ، ومقتل أخيك . فصاح عامر : وا عمراه ! واعمراه ! ! . وقضت هذه الصيحة على دعوة عتبة بالرجوع ، وأصبح القتال حقيقة واقعة لا مفرّ منها[٣] .

المعركة :

تقدّم المشركون نحو المسلمين ، واصطف الفريقان وجهاً لوجه . وبدأ القتال بمحاولة حمقاء من الأسود بن عبد الأسد المخزومي ، وقد اشتهر بين قومه بسوء الخلق والطباع ، فقد دفعه

---

(١) انتفاخ السحر : كناية عن الجبن .

(٢) أي اطلب من قريش الوفاء بعهدهم .

(٣) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ١٤٧ .

تهوّره وحمقه إلى الاندفاع من صفوف المشركين إلى صفوف المسلمين ، يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون ، فضربه حمزة بن عبد المطلب بسيفه ضربة أطاحت بساقه ، فوقع على ظهره ، ولكن الأسود حاول الوصول إلى الحوض ، فعاجله حمزة بضربة أخرى من سيفه أودت بحياته جزاء حمقه وكفره .

وكانت هذه الدماء كفيلة بإشعال نيران الحرب ، التى بدأت بالمبارزة الفردية . وتقدم ثلاثة من المشركين ، تجمعهم القرابة ، فى الدماء ، وفى الكفر ، وهم عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد . وخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ، ولكن المشركين رفضوا مبارزتهم ، ودعوا الرسول إلى أن يبعث إليهم بثلاثة من قريش ، فخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وكلهم من بنى عبد المطلب ، فسألهم المشركون عن أسمائهم ، حتى إذا علموا بأسمائهم قالوا : هم أكفاء كرام ! وبارز حمزة شيبة فأطاح به ، وبارز علىّ الوليد فأرداه قتيلاً . وبارز عبيدة ، وكان أسنّ القوم ، عتبة فاختلف بينهما ضربتين ، وأصيب كل منهما بجراح ، وكرّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فقتلاه ، وعادا بعبيدة الجريح إلى صفوف المسلمين .

انتقلت المعركة من المبارزة الفردية ، إلى الالتحام ، والقتال الجماعى . ورأى المسلمون أن يتخذوا موقف الدفاع لقلة عددهم ، واستفادوا من وجودهم فوق منطقة مرتفعة ، فأصلوا المشركين وابلاً من سهامهم ، غير عابئين بما يشعرون به من عطش .

الرسول القائد :

قاد الرسول صلى الله عليه وسلم المعركة ببسالة وحذق ليس له مثيل، فأخذ عليه الصلاة والسلام يعدّل جيشه كتفاً بكتف ، فى صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص ، وأمر المسلمين ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل . ومرّ الرسول بين صفوف المسلمين وفى يده قدح (أى سهم) يعدّل به القوم[1] .

عدّل الرسول الصفوف ، وأمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم ، ثم رجع إلى العريش فى رفقة صديقه الأمين أبى بكر . ووقف على باب العريش سعد بن معاذ ممتشقاً سيفه .

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يؤخروا قذف

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٨ .

السهام من الأقواس على جيوش الأعداء حتى يقتربوا منهم ، لتكون الإصابات مسددة مركزة ، وهو نفس المبدأ الذى تستخدمه الجيوش الحديثة عند إطلاق النيران ، ويعرف باسم « كبت النيران » أى حتى يصل العدو إلى متناول الرمى لتصيب كل رمية مقتلاً[1] !

ثم إن مقابلة العدو بوابل منهمر من السهام من مسافة قريبة يروع العدو ترويعاً شديداً ، ويكسر روحه المعنوى ويجعل خسائره كبيرة فادحة ، بينما يطيش الضرب على المسافات البعيدة ويكشف مواقع الرماة .

أما السلاح الأبيض فهو بطبيعة الحال سلاح القتال وجهاً لوجه ، ولا يلجأ إليه المقاتلون إلا إذا التحمت صفوفهم وتداخلت جموعهم ، وحينئذ يكف الرماة عن قذف سهامهم ، بينما يحمى وطيس القتال المتلاحم والخناجر والسيوف . وهذا المبدأ الحربى - الذى ما زال إلى اليوم - هو الذى عناه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم »[2] .

نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعدتهم ونظر

---

(١) جمال حماد : غزوة بدر ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

إلى أصحابه الذين كانوا نيفاً وثلثمائة، ثم استقبل القبلة فجعل يدعو الله عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد فى الأرض» .

واستمر الرسول الكريم فى دعائه ، حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر الرداء ووضعه على الرسول . ثم التزمه من ورائه وقال : كفاك يا نبىّ الله ، بأبى أنت وأمى مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تبارك وتعالى : (إذ تَسْتَغِيثُونَ ربّكُم فاستجابَ لكُمْ أنّى مُمِدُّكُمْ بألْفٍ من الملائكَةِ مُرْدِفين)[١] .

خفق[٢] الرسول خفقة وهو فى العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع[٣] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٤٩ .
(٢) خفق : أى نام نوماً يسيراً .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٩ (النقع : الغبار) .

نصر من الله :

حمى الوطيس ، وبدأ المشركون الرمى بالسهام ، فأصاب سهم منها مهجع ، مولى عمر بن الخطاب ، فقتله ، فكان أول شهيد من المسلمين . ثم أصاب سهم حارثة بن سراقة ، من بنى النجار ، وهو يشرب من الحوض ، فقتله أيضاً .

وخرج الرسول إلى المسلمين ، ينفخ فيهم من روحه العظيمة الفياضة ، فيحوّل قلتهم إلى كثرة ، وهو يقول : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . ثم أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه . ثم قال لأصحابه : شدّوا[1] !

انقض المسلمون كإعصار هائل على المشركين ، وكان للاصطدام ضجيج قد بلغ عنان السماء ، وكانت قعقعة السلاح ، وصراخ اليائسين من المشركين ، وصياح المنتصرين من المسلمين ، كان كل ذلك يردّده الصدى من جوانب الوادى ، ويرافقه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٠ .

دوىّ غريب ، متقطع كضرب الطبول المضطربة[١] .

كان تحريض الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين على القتال ، يزيدهم حماسة على حماس ، بحيث يصبحون قادرين على أن يغلبوا من هم أضعافهم عددًا ، كما جاء فى كتاب الله العزيز : (يـأيها النبىُّ حرّض المؤمنينَ على القِتَالِ إن يكن منكم عِشْرون صابرون يغلبُوا مائتين ، وإن يكُنْ منكم مائةٌ يغْلِبُوا ألفاً من الذين كفروا بانَّهُمْ قَوم لا يَفْقَهُون . الآن خفَّفَ الله عنكم وعلم أنَّ فِيكُمْ ضَعْفا ، فإنْ يَكُنْ منكم مائَةٌ صَابرَةٌ يغْلِبُوا مائَتَيْنِ وإنْ يَكُنْ منكم ألفٌ يغلبُوا ألفَيْنِ بإذْنِ الله واللهُ مع الصَّابرين)[٢] .

وجه المسلمون اهتمامهم إلى وجوه قريش من المشركين ، وهم الذين اضطهدوا المسلمين فى أول الدعوة الإسلامية وعذّبوهم ، وما لبثوا أن اضطروا المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة . ولمح بلال بن رباح ، مؤذن الرسول ، أمية بن خلف

---

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٨٩ .

(٢) سورة الأنفال : الآيتان ٦٥ و ٦٦ .

وابنه ، وكان أمية هذا قد أنزل ببلال ألواناً من العذاب. فكان يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ليرغمه على التحول عن الإسلام فيزداد بلال تمسكاً بالإيمان ويصيح : أحد أحد .

رأى بلال أمية ، فصاح : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجا ! وحاول بعض المسلمين من حول أمية أن يحولوا دون قتله اكتفاء بأسره ، ولكن بلالاً عاود الصياح : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوتُ إن نجا ! ولم يهدأ بال بلال حتى لقى أمية حتفه . ومن وجوه قريش الذين سقطوا فى المعركة صرعى ،أبو جهل بن هشام[١] ، وقد قتله معاذ بن عمرو بن الجموح[٢] ، ومنهم أيضاً عبيدة ابن سعيد بن العاص ، وقد قتله الزبير بن العوام[٣] .

أعان الله عز وجل المسلمين فى بدر بالملائكة ، وقد منّ الله على المسلمين بذلك فقال فى كتابه العزيز : (ولقد نصركُمُ اللهُ بِبَدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلّكُم تشكُرون .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٠ .

إذْ تقول للمؤْمِنِين أَلَنْ يكفيكُمْ أَن يمدّكم ربكم بثلاثَةِ آلاف من الملائكة مُنْزَلين. بلى إنْ تَصْبروا وتتقوا ويأْتوكم من فورهمْ هذا يمدِدْكُم ربكُم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مسوّمين . وما جعله الله إلاَّ بُشْرَى لكم ولتطمَئن قلوبكم به وما النصر إلاَّ من عندِ الله العزِيزِ الحكيم)[1] .

روى ابن هشام فى سيرته عن ابن عباس أنه قال : « حدثنى رجل من بنى غفار ، قال : أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة[2] ، فننتهب مع مَنْ ينتهب . فبينا نحن فى الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم[3] ، فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه ، فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت».

وروى ابن هشام أيضاً عن رجل ممن شهد بدراً أنه قال: « إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل

(١) آل عمران : ١٢٣-١٢٦ .

(٢) الدبرة : الدائرة .

(٣) حيزوم : اسم فرس جبريل عليه السلام .

أن يصل إليه سيفي ، فعرفتُ أنه قد قتله غيري » . كما روى ابن هشام أيضاً عن عبد الله بن عباس أنه قال : « كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرسلوها على ظهورهم » ، وقال على بن أبى طالب : « العمائم تيجان العرب ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء قد أرخوها على ظهورهم ، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء »[١] .

قال الله تعالى : (إذ يُوحى ربُّك إلى الملائكةِ أنِّى معَكُمْ فثَبِّتوا الذين آمَنُوا سأُلْقِى فى قلوب الَّذين كفَرُوا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْقَ الأَعْنَاق واضْرِبُوا منهم كلَّ بنان)[٢] وقال الله عز وجل أيضاً : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رَمَيت إذ رمَيت ولكن الله رَمَى)[٣] .

علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قد أنجز وعده وكتب للمسلمين النصر على أعدائهم المشركين ، فعاد إلى العريش . وولى القرشيون الأدبار ، والمسلمون يتبعونهم ،

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ١٢ .
(٣) سورة الأنفال آية ١٧ .

ويأسرون منهم من عجز عن الفرار . أما من وصل إلى مكة سالماً، فقد توارى عن الأنظار، لما كان يشعر به من خزى وعار.

بعد الانتصار :

انتهت المعركة بانتصار المسلمين ، انتصاراً باهراً ، وبهزيمة المشركين هزيمة ساحقة . وأقام المسلمون فى بدر حتى آخر النهار ، ثم جمعوا قتلى المشركين ، وحفروا قليباً ، أى حفرة كبيرة ، ودفنوهم فيها ، وهالوا عليهم التراب والحجارة . ووقف الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : يأهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا . فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتكلم قوماً موتى؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق[1] .

أنشد حسان بن ثابت أبياتاً من الشعر منها :

ينـاديهم رسـول الله لما قذفناهم كباكب فى القليب
ألم تجـدوا كلامى كان حقًّا وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقـالوا صدقتَ وكنتَ ذا رأى مصيب

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٢ .

قتل فى معركة بدر سبعون من المشركين ، ومنهم الذين تعاهدوا على قتل الرسول فى مكة (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم). وكان من هؤلاء القتلى أربعة وعشرون من أشراف قريش ، أمثال عتبة ، والوليد ، وشيبة ، وأمية بن خلف ، وحنظلة بن أبى سفيان ، وأبو جهل قائد الحملة .

طلب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلتمسوا أبا جهل فى القتلى ، وخرج عبد الله بن مسعود يبحث عنه ، فوجده فى الرمق الأخير ، فوضع ابن مسعود رجله على عنقه ، وكان أبو جهل قد ألحق بابن مسعود كثيراً من الأذى وهو بمكة ، فقال أبو جهل : لقد ارتقيت يا رُويعى الغنم مرتقى صعباً ! فاحتز ابن مسعود رأس أبى جهل ، وحمله إلى الرسول ، وقال ابن مسعود : هذا رأس عدوّ الله أبى جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله الذى لا إله غيره . وحمد الرسول الله عز وجل[1] .

نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وجه أبى حذيفة بن عتبة ، فرآه مكتئباً ، فسأله : يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شىء. فقال أبو حذيفة : لا والله يا نبىّ الله ما شككت

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٥ .

فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنتُ أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنتُ أرجو له أحزننى . فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام له بالخير[١] .

الغنائم :

وفى الصباح التالى ، بدأ المسلمون يبحثون أمر توزيع الغنائم ، واختلف الرأى ، فقال من جمع الغنائم : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدو : والله لولا نحن ما أصبتموه ، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ما أنتم بأحق به منا ، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرة العدو ، فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا[٢] .

ونزلت آيات كريمة حسمت الأمر ، إذ قال الله عز وجل:

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(واعلموا أنما غنِمتم من شيء فأنّ لله خُمُسَه وللرّسُولِ ولِذِى الْقُرْبى واليَتَامَى والمساكين وابْنِ السَّبيل إن كُنْتُم آمَنْتم بـاللهِ وما أنزلْنَا على عبْدنا يوم الفُرْقان يوم التقى الجمْعَانِ واللهُ على كلِّ شيء قدير)[١] .

روى ابن هشام أن عبادة بن الصامت سئل عن الأنفال ، فقال : فينا أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله إلى رسوله ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين على السواء[٢] .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٩٦ .

أول انتصار للرسول على قريش (رمضان ٢ هـ)

أفراح المدينة :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسولين إلى المدينة يحملان بشرى انتصار المسلمين فى غزوة بدر الكبرى ، وهما زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، فقصد كل منهما ناحية من نواحى المدينة ، وبشر الأنصار بانتصار المسلمين على المشركين ، وعدّد من لقى حتفه من مشركى قريش ، وكان زيد ممتطياً القصواء ، وهى ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام . وغادر المسلمون دورهم ، حيث التقوا وكل يهنئ الآخر بنصر الله للمؤمنين .

وعلى قدر فرحة المسلمين بالمدينة ، كانت خيبة أمل المنافقين ويهود المدينة ، الذين آلمهم هذا الانتصار الباهر الذى حازه الرسول والمسلمون ، وحاولوا أن يشككوا أهل المدينة فى أخبار هذا الانتصار ولكن عودة الرسول مع المسلمين بعد يوم من وصول رسوليه ، لم يترك أىّ مجال للشك ، وقضى على مزاعم المنافقين واليهود . عبر أحد زعماء اليهود عن ألمهم لانتصار المسلمين فقال : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن

أصيب أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن !

صوّر الطبرى[1] موقف اليهود من الرسول بعد انتصار بدر ، فقال : « ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منصرفه من بدر ، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها على أن لا يعينوا عليه أحداً ، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه . فلما قَتَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل ببدر من مشركى قريش ، أظهروا له الحسد والبغض ، وقالوا : لم يلق محمد من يحسنُ القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد . وأظهروا نقض العهد » .

الأسرى :

قدم الرسول صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، والنفل الذى أصيب فى المعركة . حتى إذا وصل إلى الروحاء خرج المسلمون ليلقوه ويهنئوه بما فتح الله عليه ، هو ومن معه من المسلمين . قال سلمة بن سلمة لمن تقدم يهنئونه بالنصر : ما الذى تهنئون به ؟ فوالله إن لقينا

---
(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٧٢ .

إلا عجائز صلفاً كالبُدْن المعلقة ، فنحرناها . فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : أى ابن أخى ، أولئك الملأ[١] .

فرّق الرسول عليه الصلاة والسلام الأسارى فى أصحابه ، وقال لهم : استوصوا بالأسارى خيراً [٢] . وكان العباس بن عبد المطلب ، عم الرسول ، من بين هؤلاء الأسرى ، وكان قد بقى فترة فى مكة للتجارة ، ثم لحق بالقافلة ، ووقع فى الأسر ، إذ أسره أنصارى ، رغم بأس العباس وضخامة جسمه ، وأبدى العباس ضيقه بالحبال التى كانت تشدّ يديه إلى جسمه ، ورأى أحد المسلمين أن يكرم الرسول فى شخص عمه ، فخفّف شيئاً من قيوده . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، فرأى ألا يميز العباس عن غيره من الأسرى ، فأمر بتخفيف قيود جميع الأسرى ، فضرب الرسول بذلك مثلاً جديداً من أمثلة العدل .

تشاور المسلمون حول ما يفعلون بالأسرى ، فرأى أبوبكر أن تقبل فديتهم ، لما بين الغالبين والمغلوبين من أواصر القرابة . وكان المشركون قد التمسوا من أبى بكر أن يكون شفيعاً لهم عند الرسول ، فبعثوا إليه من قالوا له : يا أبا بكر ، إن فينا الآباء

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٧ (الملأ : الأشراف والرؤساء) .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٩ .

والإخوان والعمومة وبنى العم ، وأبعدنا قريب ، كلّم صاحبك يمنّ علينا أو يفادنا . فوعدهم أبو بكر خيراً ، وخرج إلى الرسول يشفع فيهم ، ويرجوه أن يمنّ عليهم . واتجه رسل المشركين إلى عمر بن الخطاب يقولون له مقالتهم لأبى بكر ، فلم يجبهم إلى طلبهم ، وخرج إلى الرسول يقترح عليه ضرب رقابهم . ولم يجب الرسول ، وتناوب أبو بكر وعمر الحديث ، كل منهما يؤيد رأيه ويحاول إقناع الرسول به ، واختلف المسلمون الحاضرون فى الرأى ، بين مؤيدين لرأى أبى بكر ، ومؤيدين لرأى عمر ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ برأى أبى بكر ، الذى يدعو إلى الرفق والرحمة ، فأتاح الرسول بذلك الفرصة لكثير من الأسرى ليعيشوا ، وقد اعتنق كثير منهم الإسلام ، وكان من أصلابهم ذرية من المسلمين الصالحين[1] .

أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بالأسرى ، فكان إذا دفع بأسير إلى أحد المسلمين قال له : « أحسن إليه » . كما قال الرسول أيضاً : « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » . ونفذ المسلمون وصايا الرسول الكريم ، حتى كانوا يؤثرونهم على

---

(١) ابن قيم الجوزيه : زاد الميعاد ج ٢ ص ٦٧ .

أنفسهم بالخبز ويكتفون بالتمر[١] .

وتمّ فداء الأسرى ، فمن كان عنده مال فدى به ، ومن لم يكن عنده مال ، أو كان عنده ، وهو يعرف القراءة والكتابة ، فقد كان فداؤه أن يعلّم عشرة من صبيان المدينة .. ومن لم يكن عنده مال ، ويجهل القراءة والكتابة ، فقد منّ الرسول عليه بإطلاق سراحه وسمح له بالعودة إلى مكة .

كان اشتغال أهل مكة بالتجارة ، عاملاً على إتقانهم القراءة والكتابة والحساب ، بينما كان أهل المدينة يعملون بفلاحة الأرض . وكانت هذه أول مرّة فى التاريخ ، يصبح فيه تعليم القراءة والكتابة من غنائم الحروب . ويبدو فى هذه السياسة تقدير الرسول للعلم والتعليم .

جعل الرسول عليه الصلاة والسلام العلم مساوياً للحرية ، واشترى الأسير حريته بمساهمته فى محو الأمية . وقد مضى الإسلام فى تحقيق هذه المعادلة ، مؤكداً اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان ما يتساوى مع درجة علمه وفقهه[٢] .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) جمال حماد : غزوة بدر ص ١٤٩ .

أحزان مكة :

رأينا ما شهدته المدينة من أفراح واحتفال بالنصر العظيم ، وسنرى الآن صورة مغايرة ، ترسم ما ساد مكة من وجوم وأحزان وأتراح .

ظن أهل مكة أن قافلتهم الكبرى ، التى سببت لهم الكثير من القلق ، عائدة ، فأعدوا العدة لاستقبالها فى أعراس وأفراح ، ولكنهم رأوا فلول جندهم مقبلين ، فلم يصدقوا فى أول الأمر هذه الخسارة العظيمة ، لشدة إيمانهم بتفوق جندهم فى العدد والعدة ، فلاقوا الهاربين من الجند أسوء لقاء ظنًّا منهم أنهم بعض الخونة وقد فروا من المعركة قبل انتهائها ، ولكن جاء النبأ اليقين بعد قليل ، وانكشف الشك عن أعداء الله عن يأس عميق[1] .

كان أبو لهب قد تخلف عن القتال ، وبعث بدلاً عنه العاص بن هشام بن المغيرة . وقدمت عليه فلول قريش الهاربة ، واجمة خائفة ، تقص عليه أنباء انتصارات المسلمين ، وهزيمة المشركين ، فهاله الأمر ، حتى إنه لم يصدق مقالتهم ، حتى

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ١٩٧ .

إذا علم بقدوم أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب هبّ من مجلسه وقصده وسأله عن حقيقة الأخبار التي تواترت إليه ، فقال أبو سفيان : لا شيء ، والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسرون كيف شاءوا ، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس ، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، ما تبقى شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ! وتقدم مولى للعباس ابن عبد المطلب ، يدعى أبا رافع ، يقول : تلك الملائكة ! فانهال أبو لهب عليه ضرباً وأصابه بجراح . وغضبت زوجة العباس لما نال مولاها ، فأخذت بيدها عموداً من عُمد الحجرة فضربت أبا لهب به فشجت رأسه « فقام مولياً ذليلاً » . وما لبث أن أصابه الله بمرض خطير ، ففسد دمه ، وامتلأ جسمه بالقروح ومات بعد سبعة أيام ، وابتعد الناس عنه خوفاً من العدوى ، وتركه أبناؤه ثلاثة أيام دون أن يدفنوه ، حتى تعفنت جثته ، ولم يدفنونه إلا بعد إلحاح من بعض الناس[1] .

وهكذا كانت نهاية عدو الله ، وعدو الإسلام ، وعدو الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعدو المسلمين . وهو من

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ١٦٠ .

نزلت فيه سورة المسد : (تبّت يدا أبى لهب وتبّ . ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَب . سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لهبٍ . وامْرَأتُه حمّالةَ الْحَطَبِ . فى جِيدِهَا حبلٌ من مسدٍ) .

أثار انتصار المسلمين فى بدر دهشة القرشيين فى مكة وحنقهم ، فقد أثار غيظهم أن رأوا أن ذلك الرجل الذى أخرجوه من مكة قد أصبح على جانب كبير من القوة ، كما قتل عدداً كبيراً من أكثر رجالهم شجاعة ، وأسر عدداً آخر ما زالوا ينتظرون افتداءهم[1] .

وكان وقع هزيمة قريش فى بدر شديداً على أبى سفيان ، زعيم مكة ، فتما أحنقه وأثار غيظه انتصار محمد والمسلمين ، واستقبلته زوجته هند بعاصفة من النواح والعويل ، حزناً على أبيها وعمها وأخيها ، وصارت تولول ليلاً ونهاراً وهى تعلن أنها ستأخذ بالثأر من حمزة وعلىّ .

تألم أبو سفيان لمصرع ابنه حنظلة ، وشعر بالخزى والعار ، وحاول منع الناس من النواح والبكاء على قتلاهم ، حتى يمنع روح اليأس التى سادت مكة ، ولا يثير شماتة المسلمين ، ودعا

---

(١) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٥٣ .

الناس إلى الاستعداد للثأر ، وأقسم أن يحرم نفسه من النساء والطيب حتى يثأر لابنه وقتلى المشركين .

روى ابن هشام[١] أن قريشاً ناحت على قتلاها ، فنهاهم زعماء مكة ، وقالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه ، فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم[٢] ، لا يأرب[٣] عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

عوامل الانتصار :

كانت وقعة بدر فى ١٧ — ١٨ رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقد وافقت ١٥ — ١٦ مارس سنة ٦٢٤ م ، فهى معركة الربيع ، ربيع الإسلام وبداية انتعاشه بقوة السيف . وقعت المعركة صباح الجمعة ، بعد أن قضى الجيشان ليلة متقابلين ، ليلة قضاها المسلمون فى نوم عميق ، فأصبحوا فى نشاط وصحوة ، وقضاها المكيون فى سهر وأرق سببهما الخوف ، فنهضوا كما ينهض السهران . وأمطرت السماء قليلاً ، فأفاد المطر

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) تستأنوا بهم : أن تؤخروا فداءهم .

(٣) لا يأرب : لا يشتد .

جيش المسلمين ، وأضرّ بجيش المشركين ، وقد يكون قليل من المطر مقدّمة الهزيمة كما حدث فى موقعة (واترلو) حيث تعطلت المدفعية الفرنسية عن الحركة[١] .

وانتصر المسلمون ، إذ امتلأت قلوبهم إيماناً ، وزخرت نفوسهم بالحماس . واستمدّ المسلمون قوة روحهم من الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد سرت من نفسه القوية ، أمدّها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوة ضاعفت عزمهم ، وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال . وازداد المسلمون قوة بتحميس الرسول لهم ، ووقوفه بينهم ، والصيحة بهم أن الجنة لمن استبسل فى القتال . وأنزل الله عز وجل ملائكته ، يثبتون قلوب المؤمنين ، ويلقون الذعر فى قلوب المشركين ، فكان النصر لجند الله والإسلام .

وشتان بين موقف صحابة الرسول منه قبل معركة بدر ، وموقف بنى إسرائيل من موسى عليه السلام حينما طلب منهم أن يجدوا ليدخلوا أرض الحيثيين. وفى ذلك يقول الله تعالى: (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك

---

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٧٨٨ .

فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)[١] .

فشتان بين إيمان صحابة الرسول وحرصهم على الجهاد فى سبيل الله ودينه ، وبين تخاذل بنى إسرائيل وعصيانهم لنبيهم .

وكان انتصار بدر دليلاً على مهارة الرسول فى القيادة ، وحذقه بفنون الحرب ، وقدرته على إدارة المواقع ، وتقديره قوّته وقوّة الأعداء ، ومعرفته ما يجب على القائد من الاحتماء والابتعاد عن موقع الخطر ، ليستمر فى إصدار الأوامر ، وفى الوقت نفسه قربه من جنده لتشجيعهم وتقوية قلوبهم وشدّ أزرهم .

أظهر الرسول عليه الصلاة والسلام فطنة خارقة ، وصفات عليا ، تفوّق فيها على جميع قادة الجيوش فى جميع العصور ، فإنه تمكن بفئة قليلة مؤمنة من قهر فئة أكبر منها ثلاث مرات ، وتمكن بفرسين وبضع إبل من التغلب على قوّة فيها مائتا جواد ومئات الإبل . واستطاع الرسول بجماعة قليلة متواضعة الموارد ، أن يقهر جيشاً ألفيًّا مكوناً من أغنياء قريش وسادتها ، وقد تسلحوا تسلحاً كاملاً .

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤-٢٦ .

وثبت من موقعة بدر أن الفئة القليلة الثابتة المستهينة بالحياة المادية ، طمعاً فى الجهاد فى سبيل الله وما تعتقد حقًّا ، تغلب حتماً الفئة الكبيرة التى تفتقد إلى الإيمان ويدفعها حب المادّية إلى القتال فى سبيل المال والشهوات[١] .

آثار انتصار بدر :

قبل بدر ، جمع الرسول عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار ليستشيرهم فى قتال قريش ، فاتفقت كلمتهم على أن يقفوا صفًّا واحداً أمام قريش ، وبذلك انقلب ما بين المهاجرين والأنصار من معاهدة دفاعية إلى معاهدة دفاعية هجومية ، فتساووا جميعاً فى هذه المعاهدة ، ووفى كلّ منهما للآخر ، فى هذه الحرب وما بعدها ؛ وامتد هذا الحلف إلى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما بعده من العهود الإسلامية المختلفة ، فقد أصبحوا جميعاً جماعة إسلامية واحدة ، يربطها الإسلام والمصير الواحد .

أسفرت وقعة بدر عن انتصار المسلمين على قريش ، التى أسر منها سبعون كما قتل سبعون من رجالاتها . أما المسلمون

---

(١) ثورة الإسلام ص ٨٧٦ .

فقد استشهد منهم أربعة عشر ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار [١] . واستفاد المسلمون من هذا الانتصار فائدتين : إحداهما معنوية ، إذ أدرك المسلمون أنهم على حق فنصرهم الله ، وأن المشركين على ضلال فخذلهم المولى عز وجل . وثانيتهما مادية ، فقد حاز المسلمون كثيراً من الغنائم [٢] .

كان لغزوة بدر أثرها الكبير فى تاريخ الإسلام ، فقد كانت أوّل صدام جدّى بين المسلمين وقريش ، انتصر فيه المسلمون على الكفار ، وتجلّى فيه للمشركين مبلغ تمسك المسلمين بعقيدتهم وتفانيهم فى نصرة دينهم ، وقد أحفظ ذلك رجالات قريش ، فأجمعت أمرها على أن تغسل عار تلك الهزيمة بغارة أخرى تشنها على المسلمين .

وبلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فى تلك الغزوة أن سمّوها غزوة الفرقان ، حيث فرّق الله سبحانه وتعالى بها بين الحقّ والباطل ، وأعزّ الإسلام وأذل الكفر بقتل صناديد قريش وأسر كبرائهم ، مع قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين ، كما سمّى المسلمون كل من شهد بدراً منهم بدريّاً ، وكانوا يعتزون بهذه

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠١ .

التسمية ويفخرون[١] .

تحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[٢] عن نتائج موقعة بدر ، فقال : غيرت موقعة بدر وضع محمد ، صلى الله عليه وسلم ، تماماً ، فقد أصبح القائد المظفر لجماعة تزداد قوة يوماً بعد يوم . وسرعان ما تحول كثير من القبائل العربية الوثنية إلى الإسلام . أصبح محمد الآن حاكماً للمدينة ، كما أصبح رئيساً للجماعة الإسلامية ، وكان من أهم المشكلات التى واجهها الرسول تحديد موقفه من اليهود ، فلم تثمر معاملة محمد الطيبة لليهود ، فقد ظلوا غير مؤمنين بالإسلام ، كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء . ونظمت أسماء بنت مروان الشاعرة اليهودية كثيراً من القصائد فى هجاء الرسول ، كما أنشد الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف عدّة قصائد فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم فى تلك المعركة ، بل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته إلى المدينة ، وفى حضور بعض المسلمين ، فلم يعد الرسول يستطيع أن يستمر فى مهادنة اليهود بعد أن كشفوا عداءهم للإسلام والمسلمين .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٠٩ .

(٢) أرفنج : حياة محمد ص ١٥٧ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

طارت أنباء انتصارات بدر فاجتازت البحر الأحمر حتى وصلت إلى المسلمين الذين كانوا لا يزالون مقيمين فى أراضى الحبشة . وغضبت قريش لانتصار المسلمين فى بدر ، وأرادت الانتقام من هؤلاء المهاجرين المسلمين بالحبشة ، فأرسلت عمرو ابن العاص يحمل الهدايا الفاخرة إلى نجاشى الحبشة ، ويطلب منه تسليم المهاجرين المسلمين ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يقدم فيها عمرو إلى الحبشة ، وكان قدومه فى المرّة الأولى بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة بعد أن اشتد إيذاء مشركى قريش .

قدم رسول النبى عمرو بن أمية الضمرى إلى الحبشة قبل وصول وفد قريش ، مما أثار حنق عمرو بن العاص . واستأذن عمرو فى لقاء النجاشى ، فأذن له ، فقدّم له هدايا قريش ثم سأله أن يسلم إليه مبعوث النبى وبقية المهاجرين المسلمين لينتقم منهم ثأراً لهزيمة قريش فى بدر . فرفض النجاشى ، بل ضرب أنف عمرو حتى أسال دمه ، وعنفه ولامه ، وعاد وفد قريش يجر أذيال الخيبة .

وفى مكة ، ازداد عداء قريش للمسلمين ، بعد أن لمسوا ازدياد قوة المسلمين وأخذت هند ، زوجة أبى سفيان زعيم مكة ،

تحرّضه على التعجيل بالانتقام ، والثأر لمقتل أبيها وأخيها . كما طالب عكرمة بن أبي جهل بثأر أبيه ، وقد استمر على ما كان أبوه عليه من عداء للرسول . وفي السنة الثالثة من الهجرة، وهي السنة الثالثة لانتصار بدر ، خرج أبو سفيان على رأس ثلاثة آلاف رجل ، معظمهم من القرشيين ، وبعضهم من قبائل كنانة وتهامة ، فكانت معركة أحد .

وفي المدينة ، كان المسلمون ينعمون بانتصارهم ، ويشكرون الله عز وجل على نصره وتأييده لهم ، إذ حوّل ضعفهم وقلتهم إلى قوة وكثرة ، كما قال الله تعالى : (ولقد نصركُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أذلَّةٌ فاتقوا الله لعلكُمْ تشْكُرُون)[١].

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

رمضان شهر الجهاد فى حياة الرسول

الاستعداد لغزوة أحُد فى رمضان ٣ هـ :

بدأت غزوة أحد بعد انقضاء شهر رمضان المعظم بسبعة أيام ، إذ بدأت فى اليوم السابع من شهر شوال فى السنة الثالثة من الهجرة[١] . وشهد رمضان تعبئة المشركين فى مكة وجهودهم لقتال المسلمين ، وتكوين جيش كثيف ، واستنهاض بعض القبائل . كما شهد هذا الشهر المعظم استعدادات المسلمين لصدّ العدوان .

فقد رأت قريش أن تثأر لقتلاها ، ولكرامتها ونخوتها . كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون قد قطعوا على قريش ، منذ موقعة بدر ، طرق قوافلها إلى الشام ، فلم تعد القوافل المكية تجرؤ على ارتياد هذه الطرق ، وكانت قبيلة قريش قبيلة تجارية تعتمد تماماً على التجارة كمورد لدخلها ، وما تنعم به من ترف ورفاهية .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٨٨ .

وكانت قريش منذ عاد أبو سفيان بالقافلة يوم بدر ، قد أوقفها عند دار الندوة ، واتفق زعماء قريش على أن تُباع العير وأن تُعزل أرباحها وأن يُجهز بها جيشٌ لقتال المسلمين ، وأن تستنفر قريش سائر القبائل للانضمام إليها. وقدم إلى مكة كثير من البدو الأعراب للاشتراك فى الحملة ، طمعاً فى الغنائم . قال الله تعالى: (إن الَّذِينَ كفَرُوا يُنْفِقُون أَمْوالهُمْ ليصدّوا عن سبيل الله فسيُنْفِقُونَهَا ثم تكُونُ عليهم حَسْرَةً ثم يُغْلَبُونَ والَّذِين كفرُوا إلى جهَنَّم يُحْشَرُونَ) [١] .

وأرادت نسوة من قريش أن يتقدمن مع الجيش ، وتشاور القرشيون فى خروجهن ، وحبذ البعض الفكرة لإثارة الحماس فى قلوب المشركين ، واعترض البعض حتى لا يعرضوا حريمهم لأعدائهم . وحسم الأمر صيحات من هند زوج أبى سفيان جعلت المعترضين يكفون عن معارضتهم وسرعان ما تكوّن موكب نسائى للعويل والنواح .

غادر جيش المشركين مكة ، وتألف من ثلاثة ألوية عُقدت

---

(١) الأنفال : ٣٦ .

فى دار الندوة ، وبلغ عددهم جميعاً ثلاثة آلاف ، ليس بينهم غير مائة رجل من ثقيف ، وسائرهم من مكة ، ساداتها ومواليها وأحابيشها ، من بينهم سبعمائة دارع ، وقادوا مائتى فرس وثلاثة آلاف بعير ، وصحبوا معهم كثيراً من المؤن والأسلحة والعتاد .

دعا جبير بن مطعم غلاماً له يقال له وحشى ، وكان حبشياً يجيد استعمال الحربة ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت عم محمد — حمزة — بعمى طعيمة بن عدى ، فأنت عتيق[1] !

تقدم جيش قريش نحو المدينة ، وبلغ الأبواء ، حيث قبر آمنة بنت وهب ، أم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأراد بعض الحمقى المتهورين نبش القبر ، ولكن صدهم بعض القرشيين .

ثم بدأت المعركة الحربية فى يوم السبت الخامس عشر من شهر شوال ، عند جبل أحد ، ويحاول بعض المؤرخين ، وخاصة من المستشرقين ، أن يصوروا نتيجة غزوة أحد بأنها هزيمة للمسلمين . ولكننا لا نرى رأيهم ، فقد كانت المعركة من

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٢٤ ، الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٣ .

جولتين ، انتصر المسلمون فى الجولة الأولى ، أما فى الجولة الثانية فقد خالف بعض المسلمين أوامر الرسول ، وانشغل رماة المسلمين فى جمع الغنائم التى تركتها فلول قريش الهاربة ، فانتهز خالد ابن الوليد فرصة خلوّ جبل أحد من الرماة وهاجم المسلمين من الخلف ، مما أدى إلى مقتل بعض المسلمين ، وإصابة الرسول عليه الصلاة والسلام ببعض الجراح [١] . واستفاد المسلمون من هذه الهزيمة المؤقتة المحدودة ، فقد أصبحوا أكثر اتحاداً ، وأكثر طاعة لأوامر قائدهم الأعلى ، رسول الله ، مما حقق لهم الانتصار فى جميع الغزوات التالية ، بينما لم تستفد قريش شيئاً من انتصارها الجزئى ، اللهم إلا إشفاء غليلها والتنفيس عن حقدها وبغضها للإسلام والمسلمين .

الاستعداد لغزوة الخندق فى رمضان ٥ هـ :

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة [٢] . ولكن مقدماتها ، والاستعدادات لها ، جرت فى شهر رمضان من هذه السنة ، مما يجعل الحديث عن هذه المقدمات والاستعداد يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ١٢٠ – ١٢١ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٢٤ ، الطبرى جـ ٢ ص ٢٢٣ .

تحدّث المؤرخ الطبرى عن أسباب حرب الخندق فقال :

« وكان الذى جرّ غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ، فيما قيل ، ما كان من إجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير عن ديارهم »(١) .

كان الرسول ، بعد هجرته إلى المدينة ، كريماً فى معاملة اليهود ، إلى أبعد حدود الكرم ، فكان يصابرهم ويصبر عليهم ويغض الطرف عن كيدهم ، ويحترم دينهم ، ويساوى بينهم وبين المسلمين ، فى الحقوق والواجبات . ولكن يهود المدينة عملوا على بث بذور العداء والخصام بين المسلمين ، فحاولوا إثارة روح البغضاء بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين فريقى الأنصار ، الأوس والخزرج . كما أعلن اليهود تأييدهم لقريش ، وحرضوها على قتال المسلمين ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش فى بدر . وأصبح اليهود خطراً عظيما على الدعوة الإسلامية ، كما قال الله تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)(٢).

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٣٣ .
(٢) المائدة : ٨٢ .

شنّ اليهود حرباً عنيفة على المسلمين ، فقد حاولوا قتل الرسول ، وحرّضوا الكفار على قتال المسلمين ، وحزّبوا الأحزاب عليهم ، ونقضوا عهود المسلمين ، فرأى محمد والمسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم كيد اليهود، واضطروا إلى مقاومتهم ومحاربتهم، لأن فرديّتهم العدوانية كانت تعارض إنسانيته ، كما كانت هذه الفردية تقف حائلاً أمام الوحدة الإسلامية والعربية[١] .

لم يكن اليهود فى الحجاز متحدين ، وليس بينهم رابطة سياسية تجمعهم ، بل كانوا قبائل متفرقة . فلما أظهروا عداءهم للمسلمين لم يكوّنوا جبهة واحدة للوقوف أمامهم ، فحاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة .

بدأ الرسول صراعه مع اليهود بقبيلة بنى قينقاع ، وكان الرسول قد جعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم ألا يظاهروا عليه عدوّاً . ولكن بعد موقعة بدر نقض بنو قينقاع العهد[٢] . فحاصرهم الرسول خمس عشرة ليلة حتّى اضطروا إلى التسليم ،

---

(١) انظر كتابنا (العرب واليهود فى العصر الإسلامى) ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ٦٨ .

وتمّ جلاؤهم عن المدينة ، فنزلوا فى أذرعات فى شمال الحجاز[١] .

ثم جاء دور قبيلة بنى النضير ، وقد تآمروا على قتل الرسول ، إذ أرادوا أن يلقوا عليه بصخرة عظيمة وهو جالس بجانب جدار بيت مع بعض صحابته ، ومنهم أبو بكر وعمر وعلى[٢] . فطلب الرسول من بنى النضير الجلاء عن المدينة لنقضهم العهد ، وأمهلهم عشرة أيام ، فلما أبوا حاصرهم الرسول حتى طلبوا الصلح ، واتفقوا على أن يرحلوا من المدينة ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم ، وللمسلمين أرضهم ونخلهم وسلاحهم .

وأراد يهود بنى النضير شفاء غليلهم والثأر من المسلمين ، فخرج نفر منهم ، ومن بنى وائل ، إلى قريش فى مكة ، فدعوها إلى قتال الرسول ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت قريش لهم : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ فقال اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه[٣] !

---

(١) المقريزى : امتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٥ .

قال الله تعالى فى هؤلاء اليهود : (ألم تر إلى الّذِين أُوتُوا نصيباً من الكِتَاب يُؤْمِنُون بالجبْت والطَّاغُوتِ ويَقُولون للَّذِين كفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى من الَّذِينَ آمَنُوا سبيلا . أُولئك الَّذِينَ لَعنَهُمُ اللهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نصيرًا)[١].

حرّض اليهود بعض القبائل العربية ، ممن لهم ثأر عند المسلمين ، لينضموا إلى قريش . وخرج أبو سفيان على رأس أربعة آلاف قرشى وثلثمائة جواد وألف وخمسمائة بعير ، غير جند وعتاد القبائل الأخرى ، وبلغ عدد الجند عشرة آلاف مقاتل ، تقدموا جميعاً إلى المدينة[٢] .

وكانت المدينة محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين ، غير أن الجانب الشمالى كان ضعيفاً ، فأشار سلمان الفارسى على الرسول بحفر خندق حول المدينة ، ونالت الفكرة إعجاب الرسول ، وكانت هذه الطريقة الدفاعية غير مألوفة للعرب ، وبدأ الرسول تنفيذ الاقتراح ، فعين لكل قبيلة من المسلمين نصيبها من العمل ، واشترك معهم بنفسه فى أعمال

(١) سورة النساء الآيتان ٥١ و٥٢ (الجبت والطاغوت : كل ما يعبد من دون الله).
(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٦ .

الحفر . حتى إذا تم حفر الخندق ، عسكر الرسول وأصحابه خلفه ، وتعجبت قريش من فكرة الخندق فقالوا : والله لهذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها[١] .

حاصرت الأحزاب وقريش المدينة ، ولم يقع بين الطرفين سوى التراشق بالنبال ، ولما طال أمد الحصار ملّه الحاضرون وفكروا فى الانسحاب ، لا سيما غطفان التى جاءت لتنصر على المسلمين بسهولة لكى تنال ثمار سنة كاملة من مزارع خيبر وحدائقها كما وعدها اليهود . ولما علم حيي بن أخطب بتفكير قريش وحلفائها فى الانسحاب قرّر أن يغامر بآخر سهم عنده ، فأخبر قريشاً أن بنى قريظة ، وهم من بقى من اليهود بالمدينة ، قد نقضوا عهدهم مع الرسول وأنهم مستعدون للاتفاق مع قريش وتسهيل دخول المدينة من ناحيتهم . فقوت هذه الفكرة معنويات الأحزاب حتى اقتحم بعض شجعانهم الخندق ، فقاومهم المسلمون وقتلوا معظمهم .

تألم المسلمون بالمدينة لغدر اليهود وخيانتهم ، فلجأوا إلى الحيلة ، فقام نعيم بن مسعود ، وكان قد أسلم حديثاً ولم يعلم أحد من قريش بإسلامه ، فسعى بين اليهود وقريش ، وزين

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٢٣٧ .

لليهود أخذ رهائن من قريش ، ثم أخبر قريشاً أن اليهود يريدون أخذ ساداتهم لتسليمهم للرسول ، ولما طلب اليهود رهائن من قريش رفضت قريش وشكت فى إخلاص اليهود ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وفى تلك الليلة عصفت ريح عاتية بمعسكر الأحزاب أوقعت فى قلوبهم الرعب فرحلوا[١] .

سرية زيد فى رمضان ٦ هـ :

كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام سلسلة متصلة من الجهاد والكفاح ، من أجل نشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الحق . وبعد انتصار المسلمين فى غزوة الخندق فى شوال سنة ٥هـ، نجح الرسول فى الخلاص من كيد يهود بنى قريظة بالمدينة ، فقد كانوا شوكة دائمة فى جنب الجماعة الإسلامية ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نجح من قبل فى إجلاء اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة .

وشهد العام السادس بعد الهجرة سلسلة من السرايا ، منها سرية عكاشة بن محض فى ربيع الثانى ، وسرية أبى عبيدة ابن الجراح فى نفس الشهر ، وسرية زيد بن حارثة إلى العيص

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٣ ص ١١١ — ١١٣ .

فى جمادي الأولى ، وسرية زيد أيضاً إلى بنى ثعلبة فى جمادى الآخرة ، وسرية زيد إلى وادى القرى فى رجب ، وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان ، وسرية على بن أبى طالب إلى فدك فى شعبان أيضاً .

وفى شهر رمضان من هذه السنة (٦ هـ) أجدب الناس جدباً شديداً ، فاستسقى الرسول صلى الله عليه وسلم بالناس . وفى رمضان أيضاً ، بعث الرسول بسرية قادها زيد بن حارثة ، الذى قاد كثيراً من السرايا كما شهدنا ، لقتال بنى فزارة الذين انضموا إلى قريش فى غزوة الخندق ، بتحريض من يهود المدينة . فقاتلهم زيد فى وادى القرى ، وقتل كثيراً منهم ، وكان ممن قتلهم امرأة ربيعة بن بدر ، التى اشتهرت باسم (أم قرفة) ، وكان قد ذاع صيتها بين العرب حتى إنهم كانوا يقولون : « لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت »[١] .

سرية غالب فى رمضان ٧ هـ :

فى ذى القعدة من السنة السادسة بعد الهجرة ، خرج الرسول مع عدد من المسلمين ، قاصدين مكة للاعتمار ، وحاول المشركون

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢٨٧ .

منعهم ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى عقد صلح الحديبية ، الذى كان من نصوصه عقد هدنة مسلحة لمدة عشر سنين ، وأن يُسمح للمسلمين بأداء العمرة فى العام التالى . وانتهز الرسول فرصة هذه الهدنة مع قريش، فبعث بكتبه إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة ، يدعوهم فيها إلى الإسلام . وفى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة ، غزا الرسول مدينة خيبر حيث تجمع اليهود بعد إجلاء الرسول لهم عن المدينة .

وشهد العام السابع من الهجرة أيضاً عدة سرايا ، منها سرية غالب بن عبد الله فى رمضان، وتألفت من مائة وثلاثين مسلماً ، لقتال بنى عبد بن ثعلبة ، وكانوا قد أعلنوا عداءهم للمسلمين ، فانتصر غالب عليهم ، وغنم كثيراً من النعم والشاء ، ساقها إلى المدينة [١] .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٠٨ .

فتح مكة فى رمضان سنة ٨ هـ

مقدّمات فتح مكة :

بعد إخفاق المشركين فى غزوة الخندق ، لم يقع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قريش واقعة هامة ، وإن ظل التوتر سائداً بين قريش والمسلمين . وفى ذى القعدة سنة ٦ هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمراً ، لا غازياً ، ليعلن للعرب أن دينه يحترم الكعبة كما يحترمونها ، فيخفف من عدائهم شيئاً . وخرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، ليس معهم سلاح إلا السيوف فى أغمادها ، وكان معهم هدى كثير لنحره عند الكعبة ، ولتفريقه بين فقراء مكة[١] .

علم أهل مكة بخروج المسلمين ، فأصابهم الذعر ، وأجمعت قريش وحلفاؤها على صدّه عن المسجد الحرام ، وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس لمنع المسلمين من دخول مكة ، وأمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن طريق خالد ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ .

ثم نزل فى الحديبية[١] .

أرسلت قريش بعض رسلها تطلب من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد أحدهم إلى قريش ، وهو عروة بن مسعود الثقفى ، يقول : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه[٢] . رفضت قريش السماح للمسلمين بالعمرة ، وبعثت بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرّة ، ولكن المسلمين هزموهم[٣] .

لم تجد قريش مفرّاً من التفاوض مع الرسول فى الصلح ، فاتفقوا على : (١) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدّة عشر سنين (٢) أن يردّ الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد (٣) أن من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك (٤) أن يرجع الرسول

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع ج ٢ ص ٢٨٠ – ٢٨٤ (الحديبية بئر على مرحلة من مكة) .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٢ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ٣ ص ١٤١ .

هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش وليس معه إلاسلاح المسافر [١].

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً عظيما ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التي كانت تقودها لقتال المسلمين ، وكان الرسول يريد أن تخلى قريش بينه وبين هذه القبائل ، فأتاح هذا الصلح الفرصة لنشر الإسلام بين سائر العرب ، وكان هذا النصر السياسي يفوق فى قيمته النصر العسكرى .

بعد صلح الحديبية ، أخذت قريش تغيّر من نظرتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأصبحت ترى أنه قرشى ، رغم ما كان بينهما من عداء وخصام ، وصارت قريش تبدى إعجابها بعلو شأن الرسول ونجاحه السياسى ، مما حمل بعض رجالات قريش على اعتناق الإسلام ، مثل عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد ، وعلى الهجرة إلى المدينة ومبايعة الرسول على الإسلام [٢].

حان الوقت الذى حدّدته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء العمرة فى مكة وقضاء ثلاثة أيام فى الأماكن المقدسة . ورحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين ، وصحبوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٦ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٠٣ .

معهم سبعين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة . وكان لدخول المسلمين مكة رنة فرح عظيمة فى نفوسهم ، واخترقوا أبواب مكة فى ملابس الإحرام وألسنتهم تلهج بشكر الله . واعتنق بعض أهل مكة الإسلام[١] .

عوامل فتح مكة :

اتسع نطاق الإسلام ، واعتنقه كثير من القبائل العربية ، وآلاف البدو ، وقد نبذوا جميعاً ما كانوا عليه فى الجاهلية من عداء وخصام ، ووجهوا قواهم نحو الدفاع عن دينهم الجديد الحنيف ، وأصبحوا جميعاً جنود الإسلام والرسول .

جالت خواطر كثيرة فى نفس الرسول عليه الصلاة والسلام، جعلته يفكر فى القيام بمشروع كبير. فقد تذكر وطنه الأصلى ، وتذكر أسرته وأقاربه ، والسنوات السعيدة التى قضاها فى مكة التى ما زالت فى أيدى أعدائه ، وتذكر أن الكعبة لا تزال تحت سيطرة الوثنيين ، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشركين ، فيجعله مكاناً لعبادة الله ومقصداً للمسلمين[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢ .

(٢) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢١٦ .

نقضت قريش صلح الحديبية ، فقد كان الصلح قد نص على أن من أراد أن يدخل فى عقد الرسول وعهده فله ذلك ، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فليدخل فيه . ودخلت خزاعة فى عهد الرسول ، بينما دخلت بنو بكر فى عهد قريش . وكانت القبيلتان فى العصر الجاهلى فى صراع قبلى دموى . وحدث أن حرّضت قريش بنى بكر على الثأر من خزاعة ، وأمدّتهم قريش بالأسلحة ، وقام بنو بكر بالهجوم على ديار خزاعة وقتلوا عدداً من أبنائها ، وأسرعت خزاعة إلى مكة تلوذ بدار بُدَيْل بن ورقاء، وتشكو له نقض قريش وبنى بكر لعهدهم للرسول ، وخرج بُدَيْل مع نفر من خزاعة إلى المدينة، فأعلموا الرسول بما حدث لخزاعة ، فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام أن قريشاً خانت عهدها ، وبدأت بالعدوان ، مما يجعله فى حل من أن يغزو مكة ويفتحها ، وبدأ الرسول يدعو المسلمين إلى الاستعداد للجهاد فى سبيل الله والإسلام[١] .

أبو سفيان فى المدينة :

أدركت قريش خطورة الموقف ، وشعرت بالذعر والخوف ،

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

فقد أصبح المسلمون قوة عظمى تعمل قريش حسابها ، وفطنت قريش أيضاً إلى أن الرسول والمسلمين لن يسكتوا على نقضها لصلح الحديبية ، فقد كانت قريش هي البادئة بالعدوان . وعلمت قريش باستعدادات المسلمين للجهاد ، فشعرت بالخوف ، ورأت تجنب الدخول في معارك مع المسلمين ، وقد علمت قوتهم وعزمهم ، ولذا رأت قريش أن تبعث بزعيمها أبي سفيان إلى المدينة كسفير للسلام ، وكانوا يعرفون صلته بالرسول ، إذ كان الرسول عليه الصلاة والسلام متزوجاً من ابنته أم حبيبة .

وكانت مهمة أبي سفيان صعبة ، فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف منه بالأمس موقف العداء . وما لبث أن صُدم صدمة أخرى ، فقد أدرك الرسول ضعف القرشيين ومحاولتهم تجنب الحرب ، فلم يفز أبو سفيان بجواب من الرسول [1] .

خرج أبو سفيان حتى قدم إلى المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، حتى إذا جلس أبو سفيان على فراش الرسول ، طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ،

---

(١) أرفنج : حياة محمد ص ٢١٧ .

أم رغبت به عني؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر !

وخرج أبو سفيان حتى أتى الرسول ، فكلّمه ، فلم يردّ عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر فطلب منه شفاعته له عند الرسول ، فقال أبو بكر : ما أنا بفاعل. فطلب شفاعة عمر ابن الخطاب فقال له عمر : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به ! ! فخرج أبو سفيان إلى على بن أبي طالب يطلب شفاعته ، فقال علىّ : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. والتفت أبوسفيان إلى فاطمة ، بنت الرسول وزوجة على ، وكان ابنها الحسن بن على بين يديها ، فقال أبو سفيان لفاطمة : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فأجابت فاطمة : والله ما بلغ بُنَيّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعاود أبو سفيان رجاء على بن أبى طالب ، فقال له : يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ ، فانصحنى . فقال علىّ : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . فتساءل أبو سفيان : أوترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ ! فأجاب على : لا والله ، وما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد ، فصاح : أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش ، سألوه : ما وراءك . فقال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله ما ردّ علىّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علىّ بشىء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئاً أم لا ؟ فسأل القوم : وبم أمرك ؟ فأجاب : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت فقالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يغنى عنك ما قلت . فقال أبو سفيان : لا والله ، ما وجدت غير ذلك[1] !

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٨ — ٣٩ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

الاستعداد لغزو مكة :

أعدّ الرسول عليه الصلاة والسلام حملة عسكرية لغزو مكة ، وقدم إليه حلفاؤه من جميع أرجاء المدينة ، ولكنه لم يخبرهم بوجهة الحملة . وأمر الرسول بمراقبة الطرق الموصّلة إلى مكة حتّى لا يتسرب نبأ الغزو إلى القرشيين . وما لبث الرسول أن أعلن أنه يغزو مكة ، وأمر المسلمين بالاستعداد .

وكان من بين المهاجرين رجل يدعى حاطب بن أبى بلتعة ، وقد خلف أسرته فى مكة ، ولم يكن له فى مكّة أصدقاء يرعون أسرته . وأراد حاطب أن يفوز برضاء القرشيين بخيانة الرسول والمسلمين ، فكتب رسالة إلى قريش يخبرها فيه بعزم الرسول على غزو مكة ، وسلّم الرسالة إلى امرأة تدعى سارة ، من موالى عبد المطلب ، وأغراها بالمال ، فأخفت الرسالة فى شعرها وخرجت قاصدة مكة .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ليلحقا بالمرأة . ونجحا فى القبض عليها ، وفتّش على بن أبى طالب حوائجها فلم يجد الرسالة ، فقال علىّ لها : إنى أحلف بالله

ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك . واضطرت المرأة إلى إظهار الرسالة، فعاد عليّ والزبير بها إلى الرسول بالمدينة . وحاول حاطب أن يدافع عن نفسه ، بأنه كان يرعى مصالح أسرته بمكة ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر . ثم قال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم[1] . وأنزل الله تعالى فى حاطب : (يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا لاتَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أولياءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ) .

خروج الجيش فى ١٠ رمضان ٨ هـ :

خرج الرسول عليه الصلاة والسلام ، على رأس الجيش الإسلامى ، فى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ . وصام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد ، أفطر الرسول ، ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٠ — ٤١ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٢ .

تألّف جيش الرسول من عشرة آلاف مسلم ، واشترك فيه كلّ المهاجرين والأنصار ، فلم يتخلّف منهم أحد ، وانضم إلى الجيش كثير من القبائل ، وسلك الجيش دروباً بين الجبال غير مطروقة، وحرص المسلمون ألا يصدر عنهم صوت أو دقّ الطبول حتّى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم . وخرج من مكة أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبُديل بن ورقاء ، يتحسّسون الأخبار [١] .

وفى الطريق التقى العباس بن عبد المطلب بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قدم العباس من مكة هو وأسرته « وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض » [٢] .

وخرج أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله ابن أبى أمية بن المغيرة للقاء الرسول، فالتقيا به فى طريقه إلى مكة ، فالتمسا الدخول إليه ، وشفعت أم سلمة لهما فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك . فرفض الرسول لقاءهما لما ناله منهما من سوء وأذى . وكان مع أبى سفيان ابن

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٢ .

له ، فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدى بنىّ هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته رق لهما ، وأذن لهما باللقاء وأعلنا إسلامهما (١) .

اقترب الرسول من مكة ، وأدرك العباس بن عبد المطلب أن النصر للرسو ل وللمسلمين ، والهلاك لقريش والمشركين ، وأشفق على قر يش ىن مصيرها المحتوم ، وعبر العباس عن إشفاقه ، فقال : يا صباح قريش ، والله لئن بغتها رسول الله فى بلادها ، فدخل مكة عنوة ، إنه لهلاك قريش آخر الدهر . ورأى العباس أن يأخذ لأهل مكة الأمان من الرسول ، فجلس على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء ، وخرج عليها حتى ناحية (الأراك) ، لعله يجد حطاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة ، حتى يخبره بأن ينقل إلى أهل مكة ما ينتظرهم من هزيمة ساحقة ، وحتى يسارعوا إلى طلب الأمان من الرسول .

وأتيحت الفرصة للعباس أن يستمع إلى حوار دار بين أبى سفيان وبُديل بن ورقاء . قال أبو سفيان لبديل: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . وصاح العباس على أبى سفيان :

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٣ .

ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ،واصباح قريش والله ! فتساءل أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ فأجاب العباس : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك[١] .

امتطى أبو سفيان عجز البغلة ، خلف العباس ، حتى قدما على عمر بن الخطاب ، فرأى أبا سفبان فصاح : أبو سفيان عدوّ الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . وهرع عمر إلى الرسول ينبئه بالخبر . وركضت البغلة ، فسبقت عمر ، وأسرع عمر الخطى . فوصل العباس وعمر إلى خيمة الرسول عليه الصلاة والسلام فى وقت واحد . وطلب عمر من الرسول أن يأذن له فى ضرب عنق أبى سفيان . ولكن العباس قال للرسول : يا رسول الله ، إنى قد أجرته . وحاول عمر أن يُقنع الرسول بقتل أبى سفيان ، وشفع العباس لأبى سفيان إذ أجاره ، وحسم الرسول الأمر ، فقال للعباس : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به .

حتى إذا كان صباح اليوم التالى ، قدم العباس بأبى سفيان،

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٤ .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن[١] لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد . فقال الرسول : يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فأجاب أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال العباس لأبى سفيان : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فشهد أبو سفيان شهادة الحق وأسلم ، فقال العباس للرسول : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب أبو سفيان لينصرف ، قال الرسول للعباس : يا عباس ، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل[٢] حتى تمرّ به جنود الله فيراها[٣] .

---

(١) يأن : يحن .
(٢) خطم الجبل : أنف الجبل ، أو مضيق يخرج منه .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٥ — ٤٦ .

وقف العباس وأبو سفيان فى مضيق الوادى ، وكلما مرّت قبيلة ، تساءل أبو سفيان : يا عباس ، من هذه ؟ فيخبره العباس باسم القبيلة . ثم مرّ الرسول فى كتيبته الخضراء[١] ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأجاب العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوّة . فقال أبو سفيان : فنعم إذن[٢] .

نصح العباس أبا سفيان فقال له : الحق الآن بقومك فحذّرهم . فهرع أبو سفيان إلى مكة ، ووقف فى المسجد يصرخ : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبلَ لكم به ، من دخل دارى فهو آمن . فقالوا له : ويحك وما تغنى عنا دارك ! ؟ فقال أبو سفيان : ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن[٣] .

---

(١) سميت الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٣٢ .

الرسول فى مكة :

وصل الرسول بجيشه إلى ناحية ذى طوى ، وأشرف على مكة التى بدت منها علامات الاستسلام ، فوقف الرسول عليه الصلاة والسلام على راحلته ، وانحنى لله شاكراً ما أكرمه الله به من الفتح .

علم أبو قحافة ، والد أبى بكر ، ولم يكن قد أسلم بعد ، بقدوم الجيش الإسلامى إلى مكة ، فطلب من حفيدة له أن تصعد به إلى جبل أبى قبيس الذى يشرف على مكة . وكان قد كفّ بصره ، فسأل حفيدته أن تصف له ما تراه ، فوصفت له كثرة عدد المسلمين وخيولهم . فطلب منها أن تسارع بمصاحبته إلى بيته . وقد أكرمه الرسول عند دخوله مكة ، فقد قدم أبو بكر بأبيه إلى الرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت . فأجلس الرسول الشيخ بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسلم . فأعلن أبو قحافة إسلامه[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٨ .

وضع الرسول خطة دخول مكة ، فقسم الجيش إلى أربعة فرق ، وأمر المسلمين جميعاً ألا يقاتلوا وألا يريقوا دماً إلا إذا أكرهوا على ذلك . وجعل الرسول الزبير بن العوام على رأس فرقة وعهد إليه بالدخول إلى مكة من جهة الشمال ، وجعل خالد ابن الوليد على رأس فرقة أخرى تدخل مكة من أسفلها ، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى من ناحية كداء ، وجعل الرسول أبا عبيدة بن الجراح على المهاجرين . وبينما تأهب الجميع للتقدم ، صاح سعد بن عبادة : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الحرمة » . وعلم الرسول بمقالة سعد ، فأمر على بن أبى طالب أن يدركه ويأخذ الراية منه[1] .

وقف الرسول صلى الله عليه وسلم فوق الجبل ، ينظر نحو السهل ، فرأى لمعان الرماح والسيوف ، وعلم أن خالد بن الوليد قد اشتبك مع القرشيين فى قتال . وكانت الفرقة التى يقودها خالد تتألف من جنود من القبائل العربية التى اعتنقت الإسلام ، وقد فوجئوا بوابل من سهام القرشيين ، فقد كان يقيم فى هذه المنطقة فى أسفل مكة أشد قريش عداء للمسلمين ، وقد أبدوا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٩ .

سخطهم على دعوة أبى سفيان إلى السلام ، واستعدّوا للقتال ، وقذفوا المسلمين بالسهام ، فاضطر خالد إلى قتالهم ، وانتصر عليهم ، وقتل بعضهم . وقتل من المسلمين فارسان كانا قد ضلا الطريق وسارا بعيدين عن فرقة خالد[١] .

نزل النبى بأعلى مكة ، قبالة جبل هند ، وهنالك ضُربت له قبة على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة . وسأله البعض إذا كان يريد ن يستريح فى بيته ، فأجاب : كلا ، فما تركوا لى بمكة بيتاً . ودخل الرسول إلى القبة يستريح ، وقلبه مفعم بشكر الله أن عاد به عزيزاً منتصراً إلى البلد الذى آذاه وعذّبه . وأجال الرسول بصره فى الوادى ، وفى الجبال المحيطة به ، حيث كان يأوى إلى شعابها حين يشتدّ به أذى قريش وتشتد به قطيعتها . وتطلّع الرسول إلى موضع حراء ، حيث كان يتحنث حتى نزل عليه الوحى . ثم اتجه الرسول بقلبه وبلسانه إلى الله عز وجل بالشكر والحمد .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام معتلياً ناقته القصواء ، وقد أركب على عجزها أسامة بن زيد بن حارثة ، فركع

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .

على رحله ، وتلا سورة الفتح : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مبيناً . ليغفِرَ لك اللهُ ما تقدّم من ذنبِك وما تأخّر ، ويتمّ نعمته عليكَ ، ويهْدِيك صراطاً مُسْتقيماً . ويَنْصُرَكَ اللهُ نصرًا عزيزًا) .

الفتح المبين :

قصد الرسول إلى الكعبة ليقضى الطواف ، فطاف بها سبعاً على راحلته ، يستلم الركن بمحجن[1] فى يده . فلما قضى طوافه ، قام على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدّعى فهو تحت قدمىّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحجاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدّية مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » . ثم تلا الرسول صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة:

(١) المحجن : عود معوج الطرف يمسكه الراكب للبعير فى يده .

(يـأيُّها النَّاس إنَّا خَلَقْنَا كم مِنْ ذَكرٍ وأُنْثَى وَجَعلْنا كم شعُوباً وقَبَائل لِتَعَارفوا إنَّ أَكْرَمَكم عِنْدَ اللهِ أَتقَاكم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ)[١] .

واتجه الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال لقريش فقال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال الرسول فى سماحة عظيمة : فاذهبوا فأنتم الطلقاء[٢] . ويعلق المؤرخ الطبرى[٣] على ذلك بقوله : « فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئاً ، فبذلك يسمى أهل مكة الطلقاء » .

أعلن الرسول العفو العام الشامل ، فلم يقابل عداء قريش إلا بالإحسان إليهم . وأشاد المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[٤] بتسامح الرسول وعفوه فقال : كانت تصرّفات الرسول فى مكة تدل على أنه نبىّ مرسل لا على أنه قائد مظفر ، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه رغم أنه أصبح فى مركز قوى ، ولكنه

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٣٧ .

(٤) أرفنج : حياة محمد ص ٢٢٩ .

توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو .

اجتمع الناس بمكة لبيعة الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وجلس عمر بن الخطاب يأخذ البيعة . فلما فرغ الرسول من بيعة الرجال ، أخذ بيعة النساء ، وكانت منهن هند بنت عتبة ، التى قدمت متنقبة متنكرة ، إذ كانت تدرك جرمها الكبير إذ حرّضت على قتل حمزة بن عبد المطلب . وفطن الرسول إلى هند رغم تنكرها ، فقالت : أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . فعفا الرسول عنها . وأخذ عمر بن الخطاب البيعة من هؤلاء النسوة ، واستغفر رسول الله لهن[1] .

جلس الرسول عليه الصلاة والسلام فى المسجد ، فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟ حتى إذا قدم عثمان على مجلس الرسول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له : هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء[2] . وتأثر عثمان من عطف الرسول ،

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .

وأعلن اعتناقه الإسلام ، واستمر يتولى الحجابة .

قام الرسول صلى الله عليه وسلم على الصفا يدعو الله عز وجل ، وقد التف حوله الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول من دعائه قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال عليه الصلاة والسلام : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم[1] .

ضرب الرسول بذلك للناس مثلا في البرّ بعهده في بيعة العقبة ، وفي الوفاء لأنصاره الذين وقفوا ساعة الشدّة إلى جانبه ، برًّا ووفاء لا ينسيهما وطن ولا أهل، ولا تنسيهما مكة البلد الحرام[2] .

نهاية الوثنية :

كان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة . وارتفعت بفتح مكة رايات الإسلام ، ودالت دولة الأصنام . فقد رأى الرسول عليه الصلاة والسلام تطهير الكعبة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٩ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ٤١٠ .

مما حولها من أوثان ، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما .

دخل الرسول البيت الحرام يوم الفتح ، فرأى فيه صورة الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً وفى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال عليه الصلاة والسلام : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين . ثم أمر الرسول بطمس هذه الصور[١] . وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) . فما أشار الرسول إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع[٢] .

أمر الرسول خالد بن الوليد بتحطيم (العزى) فى وادى نخلة التى قدستها قريش وكنانة ومضر ، وقام عمرو بن العاص بهدم (سواع) ، وقام سعيد بن زيد الأشهلى بهدم (مناة) . وبعد تطهير الكعبة من الأوثان ، دخلها الرسول ومعه بلال بن رباح ، وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤذن ، وتردد صوته فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٩ .

جنبات مكة ، تعلن كلمة الله عز وجل ، وتبشر بانتصار الإسلام على الكفر والشرك والوثنية .

تهدّم إلى الأبد سور الأصنام الذى فرّق ، طوال عشرين سنة ، بين القرشيين المهاجرين ، والقرشيين الذين بقوا فى مكة ، فتعانق هؤلاء وأولئك الإخوة — الذين كانوا بالأمس أعداء — متحابين متحدين فى سبيل الله ، وانضم إلى الفريقين فريق ثالث ، هو فريق الأنصار من أهل المدينة ، تلك المدينة التى كانت فيما مضى منافسة لمكة ، فتآخت المدينتان ، واتحدتا تحت اسم (الحرمين)[١] .

وفى غداة يوم الفتح أقدمت خزاعة على قتل رجل من مشركى هذيل ، فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخطب فى الناس : « يأيها الناس ، إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد فيها شجراً . لم تُحلَل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد يكون بعدى، ولم تُحلَل إلاّ هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلّغ الشاهد منكم

(١) دينيه : محمد رسول الله ص ٢٦٥ .

الغائب »[١] .

أقام الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة خمسة عشر يوماً ، ينظّم فيها شئون مكة ، ويفقه أهلها فى الدين ، وبعث السرايا للدعوة إلى الإسلام .

نتائج فتح مكة :

كانت مكة تعرف باسم (أم القرى) وكان مركزها الدينى يجعلها ذات سيادة على جميع المدن العربية ، فكانت الوفود تأتيها فى موسم الحج من أرجاء الجزيرة العربية فى كل عام . فكان لأهل مكة نفوذ وتأثير عظيمان على القبائل التى تدين لقريش بزعامتها الروحية . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل فتح مكة ، كلما دعا القبائل العربية إلى الإسلام قالوا له : أقنع قومك أولا . فكان لفتح مكة ، واعتناق أهلها الإسلام ، أثر كبير فى انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية .

كان فتح مكة ، وتطهير الكعبة من الأوثان ، من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ، فقد آمنت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادئ ذى بدء ، أن كلمة الله هى العليا ، وأن الرسول يدعو إلى الحق ، وأن المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٠ .

تلحظهم العناية الإلهية ، فسارعوا إلى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وعُرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن أخذت تفد فى هذه السنة وفوداً إلى الرسول تعلن اعتناقها الإسلام ، ودخولها فى طاعة الرسول . وأعلنت هذه الوفود إسلامها فى حضرة الرسول ، الذى فقههم فى الدين ، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمنحها لوفود القبائل العربية[١] .

ومن أبرز النتائج التى ترتبت على فتح مكة ، غزوة حنين ، فى ٦ شوال سنة ٨ هـ . فقد أدركت قبيلتا ثقيف وهوازن خطورة فتح مكة على مصير القبيلتين ، فجهرتا بالعداء للرسول والمسلمين. وكانت ثقيف تسيطر على الطائف ، وكانت منزلتها كمنزلة قريش فى مكة . وأقامت ثقيف فى الطائف معبداً لوثنها (اللات) ، وهى صخرة مربعة ، أقامت ثقيف حولها حرماً ، وأرادت إغراء العرب بالحج إليها بدلا من الحج إلى الكعبة . وكان الرسول ، قبل الهجرة إلى المدينة ، قد فكر فى الهجرة إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً صدته وآذته وأخرجته عن مدينتها . وانتهت موقعة حنين بانتصار الرسول والمسلمين على تحالف القبيلتين .

---

(١) ابن سعد : الطبقات جـ ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

عودة الرسول من غزوة تبوك

(رمضان سنة ٩ هـ)

مقدّمات غزوة تبوك :

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وشهد شهر رمضان بعض أحداث هذه الغزوة ، ثم كانت عودته إلى المدينة فى رمضان من هذه السنة (١) .

وهذه الغزوة تصوّر موقف الدولة الرومانية من الإسلام والرسول ، ومن قيام الدولة العربية الإسلامية . وكان المسلمون يبدون عطفاً على أهل الكتاب ، من اليهود والمسيحيين ، وكانوا يتمنون انتصارهم على الوثنيين والمجوس . ولما كانت جحافل الفرس المجوس تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية ، فى آسيا وفى مصر ، ولما وقفت الجيوش الفارسية تدق أبواب القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية ، ولما لاحت الساعة الفاصلة ، ساعة انهيار هذه الدولة الكبرى ، نزلت آيات كريمة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٩ .

تؤكد انتصار الرومان فى النهاية : (الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فى أَدْنَى الأَرْضِ وهُمْ من بَعْدِ غلبهم سَيَغْلِبُون فى بضْعِ سِنِينَ)[١] وتحققت النبوءة السماوية الكريمة ، ففى عام بدر انتصر المسلمون على الوثنيين ، وانتصر الرومان المسيحيون على الفرس المجوس ، واستعادوا ما فقدوه من أقاليم ، بل اجتاحوا بلاد الفرس .

وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية ، فقد وقفت هذه الدولة موقفاً عدائياً من قيام الدولة العربية الإسلامية ، فقد كان الرومان يطمعون فى مدّ نفوذهم السياسى إلى أرجاء الجزيرة العربية ، وقد نجح الرومان فى دفع الحبشة إلى إسقاط الدولة الحميرية العربية ، وبدأت فترة خضعت اليمن فيها للنفوذ الحبشى الرومانى . كما قاد أبرهة الأشرم حملة عسكرية ، بتحريض من الرومان ، لغزو مكة وهدم الكعبة ، تمهيداً لمدّ النفوذ السياسى الحبشى الرومانى إلى بلاد الحجاز أيضاً . ولذا أبدى الرومان ألمهم وسخطهم حين قامت الدولة العربية الإسلامية بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وحين بدأ انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية ، أدرك الرومان أنه

---

(١) سورة الروم ١ — ٤ .

أصبح لا مجال لتحقيق حلمهم القديم والسيطرة على بلاد العرب [١] .

ثم كانت غزوة مؤتة التى يصفها الدكتور هيكل بأنها « مقدمة تبوك وما كان بعد وفاة النبي من فتح الشام » [٢] . وقد استبسل العرب المسلمون فى قتال الرومان ، واستشهد منهم زيد ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب . وضرب المسلمون كثيراً من الأمثلة للبطولة والفداء . فقد كان الرومان أكثر عدداً وأوفر أسلحة ومؤناً ، وكانت خطوط الإمدادات والتموين بين المسلمين فى مؤتة والعاصمة المدينة طويلة بعيدة ، بينما كان الرومان يحاربون على مشارف دولتهم . ولكن الحماسة للإسلام عوّضت المسلمين عن قلة عددهم أو ضآلة ذخائرهم ومؤنهم . وقد عبّر أحد المسلمين ، وهو عبد الله بن رواحة عن حماسة المسلمين فقال : « ما نقاتل بعدد ولا قوّة ولا كثرة ، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة » [٣] .

---

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الإسلامية) ص ٥٦ .

(٢) حياة محمد ص ٣٦٢ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٧ .

خروج الرسول لغزوة تبوك :

كانت تبوك هى الجولة الثانية فى صراع العرب والرومان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد درس المؤرخ (واشنجتون أرفنج)[١] تطور العلاقات بين المسلمين والروم ، فقال : استطاع الرسول أن ينشر الإسلام فى بلاد العرب ، ونجح فى أن يوحّد القبائل المتنازعة المتخاصمة ، فأصبحت تضمها دولة واحدة ، وأصبحت هذه الدولة مستعدّة للاشتباك فى حروب خارجية . ولفتت انتصارات محمد الأخيرة ، وخاصة فى مؤتة ، انتباه الإمبراطور هرقل فرأى أن يرسل جيشاً لغزو بلاد العرب وقتال هذا العدو الجديد . وفى الوقت نفسه ، عزم الرسول على قتال هؤلاء الأعداء ونشر الإسلام فى قلب بلاد الشام .

علم الرسول عليه الصلاة والسلام أن الرومان يهيئون جيوشاً لغزو حدود بلاد العرب الشمالية ، لمقاومة سلطان المسلمين الزاحف فى كل ناحية ليتاخم سلطان الروم فى الشام وسلطان فارس فى الحيرة . فلم يتردّد الرسول فى تقرير مواجهة هذه القوى

---

(١) أرفنج : حياة محمد ص ٢٥٢ .

بنفسه والقضاء عليها قضاء يقضى فى نفوس سادتها على كل أمل فى غزو العرب أو فى التعرض لهم[١] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ظروف الموقف كلها ، وقد كان الوقت صيفاً والجو شديد القيظ ، كما كان موسم نضج البلح قد اقترب حيث يتفرغ بعض المسلمين لجنيه ، كما كانت المسافة بعيدة بين المدينة وحدود الشام ، إلى جانب عدم توفر استعدادات كبيرة من أجل تحقيق الانتصار. ولكن الرسول ، وهو يدرك هذه الظروف كلها ، رأى أن يدافع العرب المسلمون عن دينهم وأرضهم وبلادهم ، فيخرجوا جميعاً لقتال الروم . وعرض الرسول المشروع على المسلمين ، فنال موافقة الغالبية العظمى منهم . وتقدم الأثرياء يقدمون أموالهم من أجل تجهيز هذه الحملة العسكرية[٢] .

وحاول المنافقون ، وهم دعاة الهزيمة فى المدينة المنورة ، أن يثنوا بعض المسلمين عن عزمهم ، فقالوا لهم : لا تنفروا فى الحر . فنزلت الآيات الكريمة : (وقالوا لا تَنْفِرُوا فى

---
(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٠ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٩ .

الحرّ ، قُلْ نارُ جهنّمَ أشدُّ حرًّا لو كانوا يَفْقَهُونَ ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا جَزَاءً بما كانوا يكسبون)[١] .

أبدى المسلمون حماستهم لمشروع الحملة ، فتبرّع عمر ابن الخطاب والعباس وعبد الرحمن بن عوف بمبالغ كبيرة من المال ، كما تبرع كثير من النسوة بحليهن . وتبرع عثمان بن عفان بألف دينار ، أو بعشرة آلاف دينار كما يذكر بعض المؤرخين . وتبرع أبو بكر بأربعة آلاف درهم ، وتردد الرسول فى قبولها ، فقد كان يعلم أنها كل ما يملكه ، فسأله عما بقى له ولأسرته ، فأجاب أبو بكر : الله ورسوله .

خرج جيش الله من المدينة ، يقوده رسول الله ، وتألف الجيش من عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، تقدموا غير عابئين بالقيظ وطول المسافة .

انسحاب الروم وعودة الرسول فى رمضان :

سار الجيش الإسلامى سبعة أيام ، حتى عبر جبال حجر التى كانت تسكنها ثمود فى الأيام الغابرة ، وهى إحدى القبائل العربية البائدة . وكانت الروايات العربية القديمة تصف هذه

---

(١) سورة التوبة ٨١ ، ٨٢ .

المنطقة بأنها « منطقة ملعونة » . ولم يكن بعض المسلمين قد سمعوا بهذه الروايات ، حتى إذا وصلوا إلى هذه المنطقة ، رأوا بئر ماء وقد تفجرت وسط ذلك الوادى المهجور ، كما رأوا كهوفاً على جانبي الجبال ، وهي كهوف ثمود . وتوقف المسلمون عن السير ، للارتواء من هذه البئر ، وطهى بعض الخبز والطعام ، وحلم بعضهم بقضاء الليل فى هذه الكهوف الرطبة . ولكن الرسول كان يعلم سر هذه المنطقة ، وقد مر بها قبل البعثة خلال رحلاته التجارية ، ولذا نهى المسلمين عن الشرب من ماء البئر ، أو الوضوء منه .

وكانت العناية الإلهية ترعى الجيش الإسلامى ، فقد عوض الله عز وجل المسلمين عن ماء هذه البئر الملعونة خيراً ، فقد أرسل الله سبحانه وتعالى سحابة فأمطرت حتى روت الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء[1] .

انطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك . وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فآثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته إلى حدودها ليحتمى داخل بلاد الشام فى حصونها . فلما انتهى المسلمون إلى تبوك وعرف محمد أمر انسحاب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٦٥ .

الروم ، وعلم ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم . وأقام عند الحدود يناجز من شاء أن ينازله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود حتى لا يتخطى من بعد ذلك إليها أحد[١] .

حققت غزوة تبوك أغراضها ، فقد أعلمت الدولة الرومانية قوة الدولة الإسلامية الناهضة ، وجعلتها تعدل تماماً عن فكرة غزو الجزيرة العربية ، وتفطن إلى استحالة تنفيذ حلمها القديم . وما لبثت الدولة الرومانية أن شهدت فى عهد أبى بكر الجيوش العربية تجتاح الأراضى الرومانية فى الشام ومصر .

ولم تكن الدولة الرومانية وحدها هى التى فطنت إلى قوة الدولة العربية الإسلامية ، بل أدرك هذه الحقيقة أيضاً أمراء المناطق المجاورة . فقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام ، من تبوك ، بعض صحابته يعرضون الإسلام على هؤلاء الأمراء ، أو دفع الجزية . وقدمت وفود هؤلاء الأمراء على الرسول ، يعلن بعضهم اعتناقهم الإسلام ، إذ آمنوا بنبوته وصدق رسالته ، ويعلن البعض الآخر ولاءهم للدولة العربية الإسلامية وموافقتهم على أداء الجزية . ومن هؤلاء يوحنا بن رؤبة أمير مدينة (أيلة)

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٣ .

قرب البحر الأحمر ، وكان مسيحياً .

كتب الرسول للأمير يوحنا عهداً أصبح دستوراً يتبعه المسلمون جميعاً نحو أهل الذمة ، وجاء فى هذه العهد : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبي رسول الله ، ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ، وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيبٌ لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحلّ أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه ، من برّ أو بحر [1] » . وأكرم الرسول يوحنا بن رؤبة ، فأهداه رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بمظاهر الرعاية ، واتفق معه أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلثمائة دينار سنوياً .

لم يبد من هؤلاء الأمراء عداء للرسول وللدولة الإسلامية ، غير « أكيدر بن عبد الملك » أمير دُومة ، ورغم أنه أمير عربى إلا أنه آثر التحالف مع الرومان . وبعث الرسول بحملة عسكرية تتألف من خمسمائة فارس يقودها خالد بن الوليد ، بينما تأهب الرسول للعودة إلى المدينة . ونجح خالد فى دخول مدينة دومة

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٦٩ .

فى سهولة ويُسر ، وصحب خالد الأمير أكيدر إلى المدينة المنورة حيث أعلن أكيدر إسلامه ودخل فى ولاء الدولة العربية الإسلامية .

احتفال الرسول بانتصارات تبوك فى رمضان :

عاد الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى المدينة ، فى شهر رمضان المعظم من السنة التاسعة للهجرة . وكانت تبوك هى حلقة فى سلسلة انتصارات الإسلام المجيدة ، وقد احتفل الرسول والمسلمون بعودتهم منتصرين فائزين ، فى شهر مبارك فضيل ، هو شهر رمضان المعظم . فقد شاء الله أن يقترن شهر الصوم بأمجاد الإسلام وانتصارات المسلمين . تحدث الدكتور هيكل[١] عن مغزى غزوة تبوك فقال : بغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الإسلام . ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبى عليه السلام . ومن بعدها أقام محمد بالمدينة مغتبطاً بما أفاء الله عليه .

عاد الجيش الإسلامى منتصراً فائزاً ، وخرج أهل المدينة جميعاً لاستقباله وتهنئته بالفوز المبين . ووصف المؤرخ

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤٦ .

(واشنجتون أرفنج)[١] عودة الجيش المنتصر ، فقال : على الرغم من هذه الانتصارات الباهرة التى حازها محمد ، إلا أنه دخل إلى المدينة فى مظاهر تنم عن البساطة والتواضع التى اتصفت جميع تصرفاته بها . وعند اقترابه من المدينة ، خرج أهل بيته لاستقباله ، فوقف الرسول يحييهم ، وحمل الأطفال خلف جواده . وعاد الجيش محملا بالغنائم التى فاز بها الجنود المسلمون .

كانت فى المدينة جماعة من المنافقين ، يتزعمهم عبد الله ابن أبىّ بن سلول ، الذى كان يحلم بتتويجه رئيساً على المدينة قبل هجرة الرسول إليها ، واضطر عبد الله بن أبىّ وحاشيته إلى أن يخفوا سخطهم وغيرتهم ، وكونوا جماعة النفاق ، وأصبحوا طابوراً خامساً فى المدينة . وحاول هؤلاء المنافقون ، بدون جدوى ، أن يثنوا المسلمين عن الاشتراك فى جيش تبوك . ولذا رأى الرسول بعد عودته من تبوك ، أن يقف من المنافقين موقفاً حازماً حاسماً .

وكان نفر من المنافقين قد بنوا مسجداً فى ذى أوان ، على مسيرة ساعة من المدينة ، وحاولوا أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المسلمين ضراراً وكفراً . وطلب

---

(١) حياة محمد ص ٢٦١ .

المنافقون من الرسول ، قبل خروجه إلى تبوك ، أن يفتتح مسجدهم بالصلاة فيه ، فطلب منهم تأجيل ذلك حتى يعود من تبوك . وبعد عودته ، عرف الرسول أمر هذا المسجد ، وأمر هؤلاء المنافقين ، ولذا أمر الرسول بإحراق ذلك المسجد الذى قال الله عز وجل عنه : (والَّذِيَن اتَّخَذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وكفْرًا وتَفْريقاً بَيْنَ المؤمنين) وتفرق شمل المنافقين، وما لبث أن مات شيخهم، عبد الله بن أبىّ، بعد شهرين، وكان الرسول معه كريماً متسامحاً فقد صلى عليه وقام على قبره إلى أن دُفن . وبموته مات النفاق ، وندم سائر المنافقين وتابوا عن نفاقهم وكيدهم (١) .

وكان ثلاثة من المسلمين قد تخلفوا عن جيش تبوك ، وأراد الرسول عقابُهم عقاباً معنوياً ، فنهى المسلمين عن التحدث إليهم ، ولكن معظمهم أبدوا ندمهم وأسفهم وتوبتهم ، فعفا الرسول الكريم عنهم ، بعد أن قاطعهم الرسول خمسين يوماً . ونزلت آيات كريمة فيهم : (لقد تاب الله على النَّبى والمهاجرين والأَنصار الذين اتبعوه فى

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٧٤ .

ساعة العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كَادَ يَزيغ قُلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنَّهُ بهم رؤوفٌ رحيمٌ . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتّى إذا ضاقت عليهم الأَرضُ بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أَنفُسُهم وظنُّوا أَن لا ملجأَ من الله إلاَّ إليه ثمّ تَابَ عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّابُ الرّحيم)[1] .

---

(١) سورة التوبة ١١٧ و ١١٨ .

بيعة الطائف للرسول

(فى رمضان ٩ هـ)

حصار الرسول للطائف :

نجح الرسول عليه الصلاة والسلام فى إلحاق الهزيمة بقبيلتى ثقيف وهوازن فى موقعة حنين ، ونزلت آيات كريمة فقال الله تعالى : (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقَتْ عليكم الأَرضُ بما رَحُبَت ثم ولَّيتم مُدْبرين . ثم أنزل الله سكينَتَه على رَسُوله وعلى المؤمنين وأَنْزَلَ جُنُودًا لم تَرَوْهَا وعذَّب الَّذِين كفروا وذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِين . ثم يتُوبُ اللهُ مِنْ بعْدِ ذلك على مَنْ يَشَاءُ واللهُ غفورٌ رحِيمٌ)[1] .

ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام حصار الطائف ، وكانت مدينة منيعة ، ذات موارد اقتصادية وفيرة ، فتتحمل الحصار

---

(١) سورة التوبة الآيات ٢٥ – ٢٧ .

الطويل ، كما كانت ثقيف على دراية بمواجهة أىّ حصار .
وانهالت ثقيف على المسلمين بالنبال ، ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق[1] ، وحاولوا اقتحام الأسوار باستعمال الدبابات[2] ، ولكن ثقيفاً قذفت على هذه الدبابات قطع الحديد المحمية فأحرقتها .

أقام الرسول على حصار الطائف ، حتى إذا دنا شهر ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم ، فكّ الحصار ، على أن يعود إلى حصار الطائف بعد انقضاء الأشهر الحرم . وعاد الرسول إلى مكة ، حيث أدّى العمرة ، ثم رأى العودة إلى المدينة ، فوصل إليها فى شهر ذى القعدة سنة ٨ هـ .

ظنت ثقيف ، وقد رأت جيش المسلمين يفك الحصار ، أنها قد امتنعت بحصونها على الرسول وأصحابه ، وانتصرت عليهم ، فى وقت دانت مكة بالطاعة للرسول ، فاعتزّت ثقيف بهذا النصر ، ولم تدر ثقيف أن الرسول إنما عدل عن حصارها وتركها لحصار أطول وأشد ، فقد صارت بوثنيتها فى الطائف فى عزلة عن سائر العرب حولها ، الذين أسلموا وأصبحوا يناصبونها العداء ،

(١) المنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء .
(٢) الدبابة : يدخل المحاربون فى جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه .

ويعتبرون أنفسهم فى حالة حرب معها لمناوأتها الإسلام وتعذيبها من أسلم من أهلها [١] .

فطن أحد زعماء ثقيف ، وهو عروة بن مسعود إلى ضلال قومه ، وأنهم قد جانبهم الصواب فى عدائهم للإسلام والمسلمين ، فخرج من فوره ليلحق بركب الرسول ، فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فقال الرسول له : إنهم قاتلوك . فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحبّ إليهم من أبصارهم .

وعاد عروة إلى الطائف ، فدعا قومه إلى الإسلام ، وكان يظن أنهم يستجيبون له ، لمنزلته فيهم ، ولكنهم رموه بالنبل ، فأصابه سهم ، فسقط مضرجاً فى دمائه . واقترب منه رجل ، يدعى وهب بن جابر ، فقال له : ما ترى فى دمك ؟ فأجاب عروة : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلاّ ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم . وعلم الرسول بما حدث لعروة ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن مثله فى قومه

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٤٥ .

لكمثل صاحب ياسين فى قومه[١] .

لم تكن ثقيف فى حقيقة الأمر تعادى الإسلام أو الرسول ، ولكن كانت هناك دوافع كثيرة تدفعها إلى هذا الموقف العدائى . فقد كانت ثقيف تتعصب لنفسها ، باعتبارها من أكبر القبائل العربية ، وكانت قد وصلت إلى مركز السيادة فى مدينة الطائف التى كانت أكثر مدن الحجاز خصوبة وثراء . وكان الإسلام يدعو إلى تحطيم الحواجز القبلية وإلى نبذ العصبية بين القبائل ، ويؤاخى بين المسلمين على اختلاف قبائلهم . وكانت ثقيف تدافع عن شخصيتها القبلية من جهة ، وعن وثنيتها من جهة أخرى ، فقد كانت ثقيف ، وقريش ، تحملان لواء الوثنية فى الجزيرة العربية . وكان لثقيف وثنها المعروف ، اللات ، وقد أقامت حوله حرماً على مثيل حرم الكعبة ، وكان كثير من القبائل العربية تحج إليه مما يعود على ثقيف بالفوائد المادية الكبيرة .

كما كانت ثقيف على عداء دائم مع قبيلة قريش ، فكانت القبيلتان تتنافسان حول السيادة السياسية والروحية والاقتصادية فى بلاد الحجاز ، حتى إن ثقيفاً شجعت أبرهة الأشرم قائد

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٨٢ .

الجيش الحبشى ، يوم الفيل ، على المضىّ فى زحفه نحو مكة ، وعلى هدم الكعبة . وكانت ثقيف ضيقة الأفق ، ولم تنظر إلى الرسول على أنه رسول الله إلى العالمين ، بل نظرت إليه ، عليه الصلاة والسلام ، على أنه محمد القرشى ، ولذا ظنت أنها إذا اعتنقت الإسلام دانت بالطاعة لعدوّها ومنافستها قريش . ولذا مضت ثقيف فى عدائها ، على غير هدى ، للرسول والإسلام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، قبل هجرته إلى المدينة المنورة ، قد فكر فى هجرة المسلمين إلى الطائف ، لقربها من مكة ، وارتباطها بها ، حتى إنه كان يطلق على مكة والطائف اسم (المكتين) أو (القريتين) . وخرج الرسول إلى الطائف وحاول عبثاً أن يقنع قبيلة ثقيف باعتناق الإسلام أو السماح للمسلمين بالهجرة إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً أصرّت على ضلالها وعدائها ، بل أساءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

الطائف تنشد الإسلام والسلام :

أدركت ثقيف أنها أصبحت فى عزلة قاتلة ، وأدركت أن عهد الوثنية والجهالة قد مضى ، ودالت دولة الأصنام ، وهذه قريش نزعت عنها طغيانها وغطرستها ودخلت فى دين الهداية

والحق ، وفطنت ثقيف أن زعيمها عروة بن مسعود كان على حق وبصيرة ، حينما دعاها إلى طاعة الله ورسوله ، وفى ذلك يقول ابن هشام : « ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا »[١] .

أدرك زعماء ثقيف هذه الحقيقة ، وخرج أحد زعمائها ، وهو عمرو بن أمية ، وهو أيضاً من أدهى العرب ، قاصداً لقاء زعيم آخر من زعماء الطائف هو (عبد ياليل بن عمرو) ، رغم ما كان بينهما من جفاء وخصام . ووضّح عمرو له خطورة الموقف فقال : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل (يقصد الرسول) ما قد رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم !

وتلاقى الثقفيون ، وعقدوا مؤتمراً ، فقال بعضهم لبعض : أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[٢] ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع . واتفقت كلمة ثقيف على أن تبعث برجل منها

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣ .

(٢) سرب : نفس .

إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورشّحوا لهذه المهمة (عبد ياليل)، ولكنه امتنع عن قبول المهمة، إذ خشى أن تقتله ثقيف حينما يعود من المدينة ، كما فعلت بعروة بن مسعود . ثم قال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً . وألفت ثقيف وفداً من ستة نفر ، برئاسة(عبد ياليل) . وكان من أعضاء الوفد رجلان من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، ليمثلوا عناصر السكان فى الطائف ، وحتى يلتزم الجميع بما ينتهى إليه الوفد فى المدينة[١] .

وفد الطائف فى المدينة فى رمضان ٩ هـ :

اقترب وفد الطائف من المدينة ، ونزلوا قناة ، فوجدوا بها المغيرة بن شعبة يرعى ركاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت رعيتها نوباً على هؤلاء الصحابة ، حتى إذا رأى المغيرة وفد الطائف ، ترك الركاب عندهم ، وهرع إلى الرسول يبشره بقدومهم . والتقى المغيرة ، قبل دخوله على الرسول ، بأبى بكر الصديق ، فأخبره المغيرة بقدوم وفد ثقيف وأنهم « يريدون البيعة والإسلام ، بأن يشرط لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شروطاً ، ويكتتبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قومهم

---
(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٣ .

وبلادهم وأموالهم[١] » .

وأدرك أبو بكر أهمية قدوم وفد الطائف ، إذ هداهم الله تعالى إلى الإسلام ، فجاءوا إلى المدينة طوعاً واختياراً ، فقال المغيرة : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أكون أنا أحدثه .

وخرج المغيرة إلى وفد الطائف ، وصحبهم إلى رسول الله ، وعلمهم كيف يحيون الرسول عليه الصلاة والسلام بتحية الإسلام. وضرب الرسول لهم قبة فى ناحية مسجده ، وحضر خالد بن سعيد بن العاص اجتماع الرسول بالوفد ، وتولى كتابة الكتاب الذى التمسه الوفد من الرسول .

عرض وفد الطائف على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعتنقوا الإسلام، على أن يعفيهم من الصلاة ويترك لهم طاغيتهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى الرسول إلا أن يدخلوا فى الإسلام من غير قيد ولا شرط ، فسألوه أن يترك اللات سنتين ثم سنة ، ثم شهراً، فأبى الرسول ذلك كله . ويعلل ابن هشام[٢] هذا الالتماس بقوله : « وإنما يريدون ذلك فيما يظهرون أن يتسلموا

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام » .

وكان الرسول كريماً مع وفد الطائف ، كما هو كريم مع الجميع دائماً، فقال للوفد : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه . واعتنق وفد الطائف الإسلام ، وبايعوا الرسول على الإسلام والطاعة ، وكتب الرسول لهم بذلك كتاباً ، وولى على الطائف أحد أعضاء الوفد ، وهو عثمان بن أبى العاص ، وهو من بنى مالك بالطائف ، وكان أحدث أعضاء الوفد سنّاً ، فقد كان كما وصفه أبو بكر للرسول « أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن »[١] .

صيام وفد الطائف :

كان قدوم وفد الطائف إلى المدينة — كما ذكرنا — فى شهر رمضان ، فلما اعتنقوا الإسلام على يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدءوا يؤدّون فرائض الإسلام ، فأدّوا الصلاة ، وصاموا رمضان مع المسلمين فى المدينة . وكان الرسول يبعث إليهم بفطورهم وسحورهم مع بلال . وضرب وفد الطائف مثلاً

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٨٥ .

رائعاً للتمسك بأركان الإسلام . فقد كان بلال إذا قدم إليهم بطعام السحور امتنعوا عن الأكل وقالوا : إنا لنرى الفجر قد طلع . وقد كان الرسول يؤخر السحور . وإذا قدمَ بلال بطعام الإفطار امتنعوا عن الأكل أيضاً وقالوا : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد . فيطمئنهم بلال ويقول : ما جئتكم حتى أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم يضع بلال يده فى الجفنة فيلتقم منها ليحذوا حذوه[١] .

وتأهب وفد الطائف لمغادرة المدينة ، فأوصى الرسول عليه الصلاة والسلام عثمان بن أبى العاص ، فقال له : يا عثمان ، تجاوز عن الصلاة ، واعذر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير ، والضعيف ، وذا الحاجة .

وبعث الرسول مع الوفد أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات . حتى إذا قدموا جميعاً الطائف ، أراد المغيرة أن يقدّم أبا سفيان عليه ، فأبى أبو سفيان ذلك عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك . فقد كان المغيرة من أهالى الطائف . ولما بدأ المغيرة فى هدم اللات وقف قومه من بنى معتّب حوله لحمايته ، حتى لا يكون مصيره كمصير عروة بن مسعود .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٥ .

وانتهى بهدم اللات عهد الوثنية فى الطائف ، ورغم تمسّك ثقيف وسائر أهالى الطائف بوثنيتهم من قبل ، إلا أنهم أصبحوا بعد إسلامهم من أكثر المسلمين تمسكاً بالإسلام ، ومن أعظمهم حرصاً عليه ، وذوداً عنه ، حتى إن الطائف تمسكت بالإسلام خلال محنة الردة ، وظهر من أبناء الطائف رجالات بارزون ، أصبحوا من أعلام الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وكان إسلام الطائف آخر مسمار يدق فى نعش الوثنية ، وارتفعت فى الطائف راية أخرى من رايات الإسلام .

صور من حياة الرسول فى رمضان

مولد الحسن بن على فى رمضان ٣ هـ :

فى منتصف شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة ، كان مولد حفيد الرسول ، الحسن بن على بن أبى طالب . واحتفل الرسول ، وابنته فاطمة ، وعلىّ ، والمسلمون جميعاً بمولد الحسن ، الذى كان مولده فى شهر فضيل عظيم ، هو شهر الصوم المبارك[١] .

أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم على حفيده من ابنته فاطمة اسم (حسن) . وقد روى الإمام أحمد بسنده عن على ابن أبى طالب ، قال على : لما وُلد الحسن سميته « حرباً » فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ، ما سميتوه ؟ قلت : حرباً . قال : بل هو « حسن » . فلما وُلد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرونى ابنى ما سميتوه ؟ قلت : حرباً . قال : بل هو « حسين » . فلما وُلد الثالث سميته « حرباً » فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٢١٣ .

أرونى ابنى ما سميتوه ؟ قالت : حرباً . قال : بل هو « محسن » . ثم قال : سميتهم بأسماء ولد هارون شبر وشبير ومشبر .

عن عمران بن سليمان قال : الحسن والحسين من أسماء أهل الجنة ، لم يكونا فى الجاهلية . وجاء فى الحديث الشريف : « إن الله جعل ذرية كل نبىّ فى صلبه وجعل ذريتى فى صلب علىّ » . وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم عق عن الحسن وختنه لسبعة أيام ، والعقيقة ذبيحة تذبح ليطعم منها الفقراء شكراً لله تعالى الذى وهب المولود . وروى جعفر بن محمد أن فاطمة عليها السلام حلقت حسناً يوم سابعه ، ووزنت شعره فتصدقت بوزنه فضة . وأبدت فاطمة فرحها وحبورها لمولد ابنها فأنشدت :

أشبه أباك يا حسن ... واخلع عن الحق الرسن
واعبد إلهاً ذا منن ... ولا توال ذا الإحن

جاء فى الترمذى : لم يكن أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن . وقد كناه الرسول بأبى محمد ، كما كان يلقبه بالسيد إذ كان يقول عنه : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »[1] .

---

(١) الملطاوى : الإمام الحسن بن على ص ٣٠ .

زواج الرسول من أم المساكين فى رمضان ٤ هـ :

شهد شهر رمضان فى السنة الرابعة للهجرة ، زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من زينب بنت خزيمة ، التى اشتهرت باسم « أم المساكين » ، التى قال عنها ابن هشام[١] : « وكانت تسمى أم المساكين ، لرحمتها إياهم ، ورقتها عليهم » .

تنتسب زينب إلى بنى هلال ، فهى بنت خزيمة بن الحارث ابن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال . وكانت زينب قبل زواجها من الرسول عليه الصلاة والسلام زوجة لأحد المسلمين الذين استشهدوا فى إحدى الغزوات . وقد اختلف المؤرخون فى اسم هذا الزوج الشهيد ، فذكر ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) أنه عبد الله بن جحش ، بينما ذكر الطبرى[٢] فى تاريخه أنه الطفيل بن الحارث بن المطلب ، بينما ذكر ابن هشام[٣] أنه عبيدة بن الحارث بن المطلب . كما اختلف المؤرخون فى هذه الغزوة ، هل كانت بدراً أم أحداً .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٦ .
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩٦ .

روى ابن هشام[١] أن قبيصة بن عمرو الهلالى هو الذى زوّج الرسول بزينب ، وقد أصدقها الرسول أربعمائة درهم ، وذكر الطبرى[٢] أن الرسول أصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا .

واتفق المؤرخون على أن الزواج قد تمّ فى شهر رمضان سنة ٤ هـ ، ولكنهم اختلفوا فى المدّة التى عاشتها أم المساكين فى بيت الرسول ، فروى ابن العماد فى « شذرات الذهب » أنها ماتت بعد ثلاثة أشهر ، بينما روى ابن حجر روايتين ، تذهب إحداهما إلى أنها ماتت بعد شهرين أو ثلاثة ، بينما تذهب رواية أخرى إلى أنها ماتت بعد ثمانية أشهر . بينما يرى الدكتور هيكل أنها ماتت بعد سنة أو سنتين ، فكانت بعد خديجة ، الوحيدة من أزواج النبى التى توفيت قبله[٣] .

ولكن المؤرخين جميعاً اتفقوا على امتداح زينب بنت خزيمة ، ووصفها بأم المساكين ، وأشادوا بكرمها ورحمتها وعطفها على الفقراء . ويبدو أن حياتها القصيرة جعلت المؤرخين لا يمدوننا بمعلومات كثيرة عن أم المساكين . وتعلق الدكتورة

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٩٧ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢١٩ .

(٣) حياة محمد ص ٢٨٨ .

عائشة عبد الرحمن[١] على ذلك فتقول : ولو حاولنا أن نسأل كتب السيرة والتراجم مزيداً من أخبار زينب فى بيت الرسول ، لما ظفرنا وراء ذلك بشىء ذى بال ، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج وأمومة المؤمنين ، لم يشغلها غير أمر الفقراء والمساكين . ولم تطل حياتها ، بل مرّت كطيف رقيق عابر ، ثم رقدت فى سلام كما عاشت فى سلام ، وخُلّدت فى تاريخ الإسلام أمًّا للمؤمنين ، وفى تاريخ الإنسانية أمًّا للمساكين .

وفود العرب على الرسول فى رمضان ٩و١٠ هـ :

شهد رمضان أيضاً انتشار الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية انتشاراً واسع النطاق ، وشهد أيضاً قدوم وفود العرب من كل مكان على الرسول بالمدينة ، تعلن اعتناقها الإسلام ، وبيعتها للرسول ، وانضمامها إلى الدولة العربية الإسلامية .

وبدأ قدوم هذه الوفود فى رمضان سنة ٩ هـ ، التى أصبح يطلق عليها اسم «سنة الوفود» . وتحدث ابن هشام[٢] عن مقدم

---

(١) نساء النبى ص ١١١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٥ .

وفود العرب فقال : « وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحىّ من قريش ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، دخلوا فى دين الله ، كما قال عزّ وجل ، أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه » .

ومن هذه الوفود التى قدمت إلى المدينة فى رمضان وفد ملوك حمير ، يعلنون اعتناقهم الإسلام ، وأكرم الرسول عليه الصلاة والسلام وفادتهم ، وكتب لهم كتاباً يحدد لهم الحقوق والواجبات ، وجاء فى هذا الكتاب : « أما بعد فإنه وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه ، وما كتب

على المؤمنين من الصدقة . . . ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين ، فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله ، وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية . . . فمن أدّى ذلك إلى رسول الله فإنّ له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله »[1] .

وشهد رمضان فى سنة ١٠ هـ انتشار الإسلام فى بلاد اليمن . فقد بعث الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان من هذه السنة على بن أبى طالب فى سرية من المسلمين إلى بلاد اليمن .. وحمل علىّ معه كتاباً للرسول إلى أهالى اليمن ، وخاصة قبيلة همدان . وقد اعتنقت هذه القبيلة الإسلام فى يوم واحد ، وصلّوا جميعاً خلف علىّ . وكتب علىّ كتاباً إلى الرسول ينبئه بإسلام همدان ، فسجد الرسول شكراً لله عز وجلّ وقال : « السلام على همدان » . ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٣٥ ، الطبرى جـ ٢ ص ٣٨١ .
(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٨٩ .

من أحاديث الرسول حول فضائل رمضان :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به . يَدَع شهوته وطعامه من أجلى . للصائم فرحتان : فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

وعن أبي هريرة أيضاً : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام يوماً فى سبيل الله تعالى جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض » . وعن أبي أمامة أنه قال : قلت : يا رسول الله مُرنى بأمر ينفعنى الله تعالى به . فقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة باباً يُقال له الرّيان ، لا يدخله إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد » . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فطّر صائماً كان مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً »

وروى أبو هريرة أيضاً أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب الجنة وغُلّقت أبواب النار وسُلسلت الشياطين » . وعن أنس قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ الصوم أفضل بعد رمضان ؟ قال : « شعبان لتعظيم رمضان » . وأى الصدقة أفضل ؟ قال : « فى رمضان »[١] .

روى ابن خزيمة عن سلمان الفارسى رضى الله عنه أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر يوم من شعبان ، قال : « أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه يوم خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة ، وقيام ليله تطوعاً ، من تقرّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدّى فريضة فيه كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن ، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء » .

وروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس ، قال : « كان

(١) ابن الديبع الشيبانى : تيسير الوصول جـ ٢ ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة فيدارسه القرآن فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة» .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر غفر له ما تقدم من ذنبه » . وجاء في الحديث الذى أخرجه ابن ماجة : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » . وفي الحديث أيضاً « ومن أفطر صائماً فله أجره من غير أن ينقص من الصائم شيئاً » .

روت أم عمارة الأنصارية رضى الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقدمت إليه طعاماً ، فقال : كلى . فقالت : إني صائمة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصائم تصلى عليه الملائكة إذا أكل عنده حتى يفرغوا » . وربما قال حتى يشبعوا .

وروى أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى سعد بن عبادة رضى الله عنه بخبز وزيت فأكل ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة » .

من سنة الرسول في رمضان :

حث الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين على قراءة القرآن الكريم ، وقد كان الرسول أشد ما يكون مدارسة للقرآن فى شهر رمضان . روى أبو أمامة رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » . كما روى ابن مسعود رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» . كما روى عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

وقرن الرسول عليه الصلاة والسلام الصيام بتلاوة القرآن الكريم فقال فيما رواه أحمد والحاكم: « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، قال : فيشفعان » .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يغدو صائماً مصلياً مسبحاً، تالياً لكتاب الله عز وجل ، قائلاً في تبتل وخشوع : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا عزيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

وحث الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين على الصيام فى كثير من الأحاديث الشريفة . وكان الرسول يبشر أصحابه بقدوم رمضان ويقول : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك كتب عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر » . كما قال عليه الصلاة والسلام : « لو علمت أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن يكون رمضان السنة كلها » . كما قال الرسول أيضاً : « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يعوضه صوم الدهر كله » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع » . كما قال

عليه الصلاة والسلام لعائشة رضى الله عنها : « داومى قرع باب الجنة » . قالت : بماذا يا رسول الله ؟ قال : « بالجوع » .

ورمضان شهر الروح ، حيث تصفو فيه النفس ، وتشعر بمتعة روحية سامية ، هو الاعتكاف . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان فى المسجد بعيداً عن شواغل المادة وصخب الحياة ، وبذلك سنّ لأمته الاعتكاف .

رسم الرسول صلى الله عليه وسلم آداب الصوم . فعلى المسلم أداء الصلاة ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين ». ومن آداب الصوم التخلق بالأخلاق الفاضلة ، وإلاّ كان الصيام غير مقبول ، فقد قال الرسول : « كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » ، كما قال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » . ومن آداب الصوم السحور ، فقال الرسول : « تسحروا فإن فى السحور بركة » ، وتأخير السحور أفضل من تعجيله ، كما أن تعجيل الإفطار أفضل من تأخيره ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطور وأخروا السحور » . ومن آداب الصوم ،

الإكثار من قراءة القرآن الكريم ، والصلاة على الرسول ، والصدقة ، والاعتكاف فى المساجد . ومن واجب الصائم أن يبيت نية الصيام ، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من لم يبيت الصيام من الليل ، فلا صيام له » .

ومن آداب الصوم التى حث الرسول الكريم عليها الصبر والحكمة ، والبعد عن الغضب ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا كان صوم يوم أحدكم ، فلا يرفث ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل إنى صائم ، إنى صائم » . والرفث الفحش فى القول ، والصخب شدة الصوت ، وسابّه يعنى شاتمه .

كان الرسول ينتظر شهر رمضان ليسعد ويحتفل به . وهو الشهر الذى يلقاه جبريل فيه لمدارسة القرآن الكريم وإعادته تلاوة وسماعاً بالتناوب بينهما ، كما كان يجتهد فى العشر الأواخر منه التماساً لليلة القدر ، حتى كان عليه الصلاة والسلام يشدّ مئزره ، ويحيى ليله ، ويوقظ أهله ، ويطوى فراشه . وكان الرسول يدعو الله فى شهرى رجب وشعبان قائلاً : « اللهم بارك لنا فى رجب وشعبان وبلغنا رمضان » . فإذا شاهد هلال رمضان أبدى سروره وحبوره وقال : « هلال رشد وخير آمنت بالذى

خلقك »، ويقول لأصحابه عن قدوم رمضان : « أتاكم رمضان، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ، ويحط الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، وينظر إلى تنافسكم فى الخير ، ويباهى بكم ملائكته ، فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقى من حرم فيه رحمة الله عز وجل » . ويشيد الرسول بخيرات رمضان فيقول : « لو يعلم الناس ما فى هذا الشهر من الخيرات لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة كلها » .

صام الرسول عليه الصلاة والسلام تسع مرات . ولرمضان أسماء كثيرة اصطلح عليها المسلمون ، منها شهر القرآن ، وشهر النجاة ، وغيرها من الأسماء التى بلغت ستين اسماً . وجمع رمضان : رمضانات ، ورمضانون ، وأرمضة .

من هدى الرسول فى رمضان

الرسول وصيام عاشوراء :

رُوى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه صام فى المدينة بعد الهجرة يوم عاشوراء ، وهو يوم كان اليهود يصومون فيه باعتباره اليوم الذى نجى الله عز وجل فيه موسى وبنى إسرائيل من فرعون . فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام لليهود : أنا أحق بموسى منكم . فصامه وأمر المسلمين بصيامه . كما رُوى عن الرسول أنه بعث منادياً فى يوم عاشوراء ينادى المسلمين : « أن من كان أكل فليصم بقية يومه ، ومن لم يكن أكل فليصم ، فإن اليوم عاشوراء »[١] .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن صوم عاشوراء كان واجباً قبل صيام رمضان، بينما يرى الإمام الشافعى أنه سنة مستحبة وليست واجبة .

بحث ابن القيم الجوزية مسألة (صيام عاشوراء)[٢] بحثاً

---

(١) المنتخب من السنة جـ ٥ ص ٢٥٧ (طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

(٢) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ (المطبعة المصرية) .

مستفيضاً ، وأثار ثلاثة (استشكالات) ، ثم قام بالرد عليها .
أما هذه الاستشكالات والرد عليها فهى :

١ ـ أثار ابن قيم الاستشكال الأول فقال : « استشكل بعض الناس ، وقال : إنما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى شهر ربيع الأول ، فكيف يقول ابن عباس أنه قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ؟ »

وقد ردّ ابن القيم على هذا الاستشكال فقال : « أما الإشكال الأول ، وهو أنه لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوم عاشوراء ، فليس فيه أن يوم قدومه وجدهم يصومونه ، فإنه إنما قدم يوم الاثنين فى ربيع الأول ثانى عشرة ، ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة فى اليوم الثانى الذى كان بعد قدومه المدينة ، ولم يكن هو بمكة ، هذا إن كان حساب أهل الكتاب فى صومه بالأشهر الهلالية ، وإن كان بالشمسية زال الإشكال بالكلية ، ويكرم اليوم الذى نجّى الله فيه موسى وهو يوم عاشوراء من أول المحرم، فضبطه أهل الكتاب بالشهور الشمسية ، فوافق ذلك مقدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فى ربيع الأول ، وصوم أهل الكتاب إنما هو بحساب سير الشمس . وصوم المسلمين إنما هو بالشهر الهلالى ، وكذلك

حجهم ، وكل ما تعتبر له الأشهر من واجب أو مستحب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن أحق بموسى منكم » ، فظهر حكم الأولوية فى تعظيم هذا اليوم ، وفى تعيينه ، وهم أخطأوا تعيينه لدورانه فى السنة الشمسية ، كما أخطأ النصارى فى تعيين صومهم ، بأن جعلوه فى فصل من السنة تختلف فيه الأشهر » .

٢ – أما المشكلة الثانية التى أثارها ابن القيم ، فقد قال عنها : « وفيه إشكال آخر ، وهو أنه قد ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة أنها قالت : كانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان عليه الصلاة والسلام يصومه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه ، وأمر بصيامه ، فلما فرض شهر رمضان ، قال : من شاء صامه ومن شاء تركه » .

ورد ابن القيم أيضاً على هذا (الإشكال) ، فقال : « أما الإشكال الثانى ، وهو أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه ، فلا ريب أن قريشاً كانت تعظم هذا اليوم وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه ، ولكن إنما كانوا يعدون بالأهلة ، فكان عندهم عاشر المحرم . فلما قدم – أى الرسول – المدينة ،

وجدهم يعظمون هذا اليوم » .

أما الإشكال الثالث الذى أثاره ابن القيم ، فقد عرضه فى قوله : « وإشكال آخر ، وهو ما ثبت فى الصحيحين أن الأشعث بن قيس دخل على عبد الله بن مسعود وهو يتغدى فقال : يا أبا محمد ادن إلى الغداء . فقال : أوَ ليس اليوم يوم عاشوراء ؟ فقال : وهل تدرى ما يوم عاشوراء ؟ قال : وما هو؟ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه قبل أن ينزل صوم رمضان ، فلما نزل رمضان تركه ، وقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، فقالوا : يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان الصيام المقبل إن شاء الله صُمنا اليوم التاسع . فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا فيه أن صومه والأمر بصيامه قبل وفاته بعام ، وحديثه المتقدم فيه أن ذلك كان عند مقدمه المدينة . ثم إن ابن مسعود أخبر أن يوم عاشوراء تُرك برمضان ، وهذا يخالفه حديث ابن عباس المذكور ، ولا يمكن أن يقال تُرك فرضه لأنه لم يفرض . ثبت فى الصحيحين عن معاوية ابن أبى سفيان :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه ، وأنا صائم ، فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليفطر . ومعاوية إنما سمع هذا بعد الفتح قطعاً » .

وردّ ابن القيم أيضاً على هذا الإشكال الثالث فقال :

« أما الإشكال الثالث وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم عاشوراء قبل أن ينزل فرض رمضان ، فلما نزل فرض رمضان تركه ، فهذا لا يمكن التخلّص منه إلا بأن صيامه كان فرضاً قبل رمضان ، وحينئذ فيكون المتروك وجوب صومه لا استحبابه ويتعين هذا ولابدّ لأنه عليه السلام صام قبل وفاته بعام . وقد قيل له إن اليهود يصومونه ، فقال : لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع ، أى معه . وقال : خالفوا اليهود وصوموا يوماً قبله ويوماً بعده ، أى معه . ولا ريب أن هذا كان فى آخر الأمر . وأما فى أول الأمر ، فكان يجب موافقة أهل الكتاب بينما لم يؤمر فيه بشىء ، فعلم أن استحبابه لم يترك ويلزم من قال إن صومه لم يكن واجباً أحد الأمرين . إما أن يقول بترك استحبابه ولم يبق مستحباً ، أو يقول هذا ما قاله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه برأيه ، وخفى عليه إستحباب صومه ، وهذا بعيد ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم حثهم على

صيامه ، وأخبر أن صومه يكفر السنة الماضية ، واستمر الصحابة على صيامه إلى حين وفاته . ولم يُرو عنه حرف واحد بالنهى وكراهية صومه فعلم أن الذى ترك وجوبه لا استحبابه . فإن قيل إن حديث معاوية المتفق على صحته صريح فى عدم فرضيته ، وإنه لم يفرض قط ، فالجواب أن حديث معاوية صريح فى نفى استمرار وجوبه وأنه الآن غير واجب ، ولا ينفى وجوباً متقدماً منسوخاً » .

أما الإمام الطبرى فينفى فرض صيام غير صيام رمضان « فمن ادعى أن صوماً كان قد لزم المسلمين فرضه غير صوم شهر رمضان الذى هم مجمعون على وجوب فرض صومه ، ثم نسخ ذلك ، سئل البرهان على ذلك من خبر تقوم به حجة ، إذ كان لا يعلم ذلك إلا بخبر يقطع العذر» .

الرسول وهلال رمضان :

قال الله سبحانه وتعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، ومعنى شهود الشهر الحضور فيه دون سفر أو مرض أو غيرهما مما يسقط الفرضيّة . فالمريض والمسافر ونحوهما شاهدون للشهر ، وليس عليهم صيام رمضان ، فالعبرة إذن فى شهود الشهر بتحقق

القدرة على الصيام ، فإذا انتفت لعذر مؤقت أو دائم كان حضور الشهر كعدمه فى وجوب صيامه(١)

ويبدأ شهود الشهر بالتأكد من دخوله ، إما برؤية الهلال ليلة الثلاثين من شعبان ، أو بإكمال شعبان ثلاثين يوماً إذا تعذرت رؤية الهلال ليلة الثلاثين. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُمّ عليكم فأكملوا عُدّة شعبان ثلاثين يوماً » . وكان الرسول يأمر الناس بالصوم إذا شهد برؤية الهلال رجل واحد مسلم(٢) .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا رأى الهلال قال : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله تعالى » . وكان عليه الصلاة والسلام إذا نظر إلى الهلال قال : « اللهم اجعله هلال يُمن ورشد ، وآمنت بالله الذى خلقك فعدلك ، فتبارك الله أحسن الخالقين »(٣) .

عن بشير مولى معاوية ، قال :[سمعت عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحدهم حدير أبو فروة ،

---

(١) محمد الدسوقى : الصيام فى القرآن ص ٤٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ .

(٣) ابن السنى : عمل اليوم والليلة ص ٢٠٧ .

يقولون : إذا رأوا الهلال : اللهم اجعل شهرنا الماضى شهر خير وعافية ، وأدخل علينا شهرنا هذا بالسلامة والإسلام والأمن والإيمان والمعافاة والرزق الحسن .

توجه معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالسؤال فقالا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ، ثم يزيد حتى يستوى ، ثم ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ وأجاب القرآن الكريم على هذا السؤال فى قوله تعالى : (مواقيت للناس والحج) كما قال الله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) .

الرسول فى إفطاره وسحوره :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلى ، وكان فطره على رطبات إن وجدها ، فإن لم يجدها فعلى تمرات ، فإن لم يجد فعلى حسوات من ماء . ويُذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عند فطره : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

تحدث ابن القيم[1] عن فطر الرسول على التمر أو الماء

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ .

فقال : « وكان — عليه الصلاة والسلام — يحض على الفطر بالتمر ، فإن لم يجد فعلى الماء هذا من كمال شفقته على أمته ونصحهم ، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلوّ المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به ، ولا سيما القوة الباصرة ، فإنها تقوى به وحلاوة المدينة التمر ومرباهم عليه ، وهو عندهم قوت وأدم ورطبه فاكهة . وأما الماء ، فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يبس فإذا رطبت بالماء ثم يأكل بعده هذا مع ما فى التمر والماء من الخاصية التى لها تأثير فى صلاح القلب لا يعلمها إلا أطباء القلوب » .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أفطر قال : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجران ، شاء الله عز وجل » . وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رُفعت مائدته قال : « الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليضع طعامه فما يرفع حتى يغفر له » . قالوا : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : « يقول بسم الله إذا وضع طعامه ، وإذا رفع قال الحمد لله كثيراً » .

وعن أنس بن مالك أيضاً ، رضى الله عنه ، أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أفطر عند قوم دعا لهم ، فقال : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار ، وصلت عليكم الملائكة »[١] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » . وعن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول عند أذان المغرب : « اللهم هذه أصوات دعائك وإقبال ليلك وإدبار نهارك فاغفر لى»[٢] . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً : « إذا دُعى أحدكم فليجب ، فإن كان مفطراً فليأكل ، وإن كان صائماً دعا له بالبركة »[٣] .

تحدث ابن القيم[٤] عن إفطار الرسول وسحوره ، فقال : « وكان — عليه الصلاة والسلام — يعجل الفطر ويحض عليه ،

---

(١) ابن السنى : عمل اليوم والليلة ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٦ .

(٤) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٠ — ١٦١ .

ويتسحر ويحث على السحور ويؤخره ويرغّب فى تأخيره » .
وكان الرسول عليه الصلاة والسلام « ينهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب وجواب السباب ، فأمره أن يقول لمن سابه : إنى صائم » .

رُوى عن ابن عباس أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبالقيلولة على قيام الليل » . كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « السحور كله بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء ، فإن الله عز وجل وملائكته يصلون على المتسحرين » .

تعبد الرسول فى رمضان :

من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام فى شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات ، فكان « يخص رمضان من العبادة » ، ويكثر « من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف »[1] .

وكان الاعتكاف من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان . والاعتكاف عبادة قديمة قال المولى عز وجل عنها :

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٥٤ .

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) .

اعتاد الرسول الاعتكاف فى شهر رمضان وخاصة فى العشر الأواخر منه ، فعن عبد الله بن عمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، لالتماس ليلة القدر ، ولإحياء الأيام الأخيرة من هذا الشهر الفضيل . عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئذر»[١] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ، وتركه مرة فقضاه فى شوال . واعتكف مرة فى العشر الأول ، ثم فى الليالى العشر الوسطى ، ثم العشر الأخيرة ، يلتمس ليلة القدر. ثم تبين للرسول أنها فى الليالى العشر الأخيرة ، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل.

تحدث ابن القيم[٢] عن اعتكاف الرسول فى رمضان :

(١) شد المئذر : كناية عن شدة جده واجتهاده فى العبادة ، أو عن اجتناب النساء .

(٢) زاد المعاد جـ ١ ص ١٧١ .

فقال : « وكان يأمر بخباء فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربه عز وجل . وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله فأمر به مرّة فضرب . فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت . فلما صلى الفجر ، فرأى تلك الأخبية فأمر بخبائه فقوّض ، وترك الاعتكاف فى شهر رمضان ، حتّى اعتكف فى العشر الأول من شوال . وكان — عليه الصلاة والسلام — يعتكف كل سنة عشرة أيام ، فلما كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً ، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرّة ، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف دخل قبته وحده ، وكان لا يدخل بيته فى حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان . « وكان إذا اعتكف طرح له فراشه ، ووُضع له سريره فى معتكفه ، وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض وهو على طريقه فلا يعرج له ولا يسأل عنه . واعتكف مرّة فى قبة تركية ، وجعل على سدّتها حصيراً . كان هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه ، عكس ما يفعله الجهّال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة ومجلبة للزائرين وأخذهم بأطراف الحديث بينهم .

فهذا لون ، والاعتكاف النبوى لون »[١] .

والاعتكاف يرتبط بالصوم ، فلم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اعتكف مفطراً قط ، بل قالت السيدة عائشة : لا اعتكاف إلا بصوم ، ولم يذكر الله سبحانه وتعالى الاعتكاف إلا مع الصوم ، ولا فعله رسول الله إلا مع الصوم[٢] .

مع الرسول فى صيامه :

لم يستكمل الرسول صلى الله عليه وسلم صيام شهر من الشهور غير رمضان ، ولم يكن يصوم فى شهر أكثر مما يصوم فى شعبان ، وكان يصوم عدة أيام من كل شهر . ولكن الرسول لم يصم الثلاثة الأشهر (رجب وشعبان ورمضان) كما يفعل بعض الناس ، ولم يصم شهر رجب كله ولم يستحب صيامه ، بل روى عنه النهى عن صيامه . وكان الرسول يتحرى صيام يومى الاثنين والخميس . ولكنه كان يكره صوم يومى الجمعة والسبت ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن يوم الجمعة يوم عيد ، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

بعده » . كما قال : « لا تصوموا يوم السبت إلاّ فيما افترض عليكم » . وقد نهى الرسول عن إفراد يوم السبت لأن اليهود كانوا يعظمونه ، وقد نهى الرسول المسلمين عن التشبه باليهود .

عن ابن مسعود أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من غرّة كل شهر ثلاثة أيام[١] .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستاك وهو صائم . وذكر الإمام أحمد أنه كان يصب الماء على رأسه وهو صائم ، كما كان يتمضمض ويستنشق ولكنه منع الصائم من المبالغة فى الاستنشاق . كما كان الرسول يكتحل وهو صائم ، ولكن لم يصح عنه أنه احتجم[٢]

سافر الرسول عليه الصلاة والسلام فى رمضان فصام وأفطر ، وخير الصحابة بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا من عدوّهم ليتقووا على القتال .

قال الرسول للصحابة حينما دنوا من عدوهم : « إنكم قد دنوتم من عدوكم فأفطروا أقوى لكم » وفى يوم فتح مكة قال لصحابته : « إنه يوم قتال فأفطروا » . وعن عمر بن الخطاب

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٣ .

أنه قال : « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رمضان غزوتين ، يوم بدر والفتح ، فأفطرنا فيهما »[١]

حرص الرسول عليه الصلاة والسلام على صلاة التراويح ، أى صلاة القيام ، وهى صلاة تؤدى فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهى سُنَّة مؤكدة للرجال والنساء ، يؤدونها بعد صلاة العشاء . روى عبد الرحمن بن عوف أن الرسول قال : « إن الله عزّ وجل فرض صيام رمضان ، وسننت قيامه ، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وصلاة الجماعة فى التراويح (أى القيام) سنة عن النبى ومستحبة ، ولكنها ليست واجبة . فقد صلى الرسول عليه الصلاة والسلام بالمسلمين فى المسجد صلاةالقيام (التراويح) فى الليلة الأولى من رمضان ، ثم فى الليلة الثانية ، وتكاثر المسلمون واجتمعوا فى الليلة الثالثة أو الرابعة ، فلم يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما كان الصباح قال لهم : « رأيت الذى صنعتم ، فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم وذلك فى رمضان » .

اختلف فى عدد ركعات صلاة القيام (التراويح) . فقالت

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٦١ .

السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى رمضان ولا فى غيره على إحدى عشرة ركعة . وذكر عمر ابن الخطاب أن عدد الركعات عشرون والوتر ، بينما ذكر جابر أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى بهم ثمانى ركعات والوتر .

وفى نهاية شهر رمضان المعظم ، وبعد أن يشهد شاهدان برؤية هلال شوال ، يبدأ احتفال الرسول عليه الصلاة والسلام بعيد الفطر ، فيأمر المسلمين بالفطر ، ويصلى بهم العيد .

قال ابن عباس : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أدّاها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أدّاها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات .

وقال ابن عمر : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام منادياً فى فجاج مكة ينادى : ألا إن صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ، ذكر أو أنثى ، حرّ أو عبد ، صغير أو كبير ، مدّان من القمح أو سواه صاعاً من طعام[1] .

---

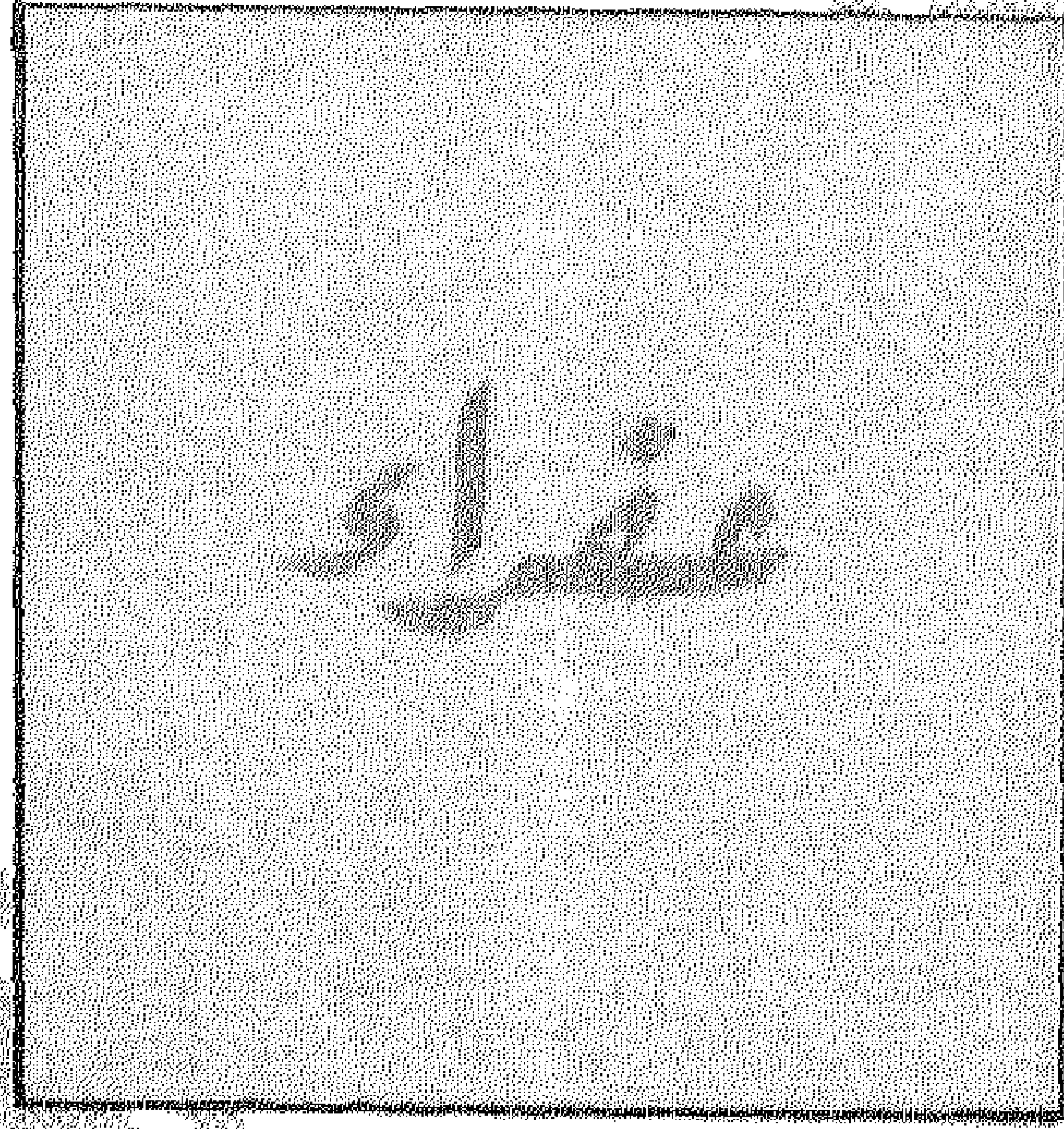
(١) ابن القيم : زاد المعاد جـ ١ ص ١٥١ .

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم

اقرأ



فايد العمروسي

إقرأ

عفراء

قصة الحب الخالد

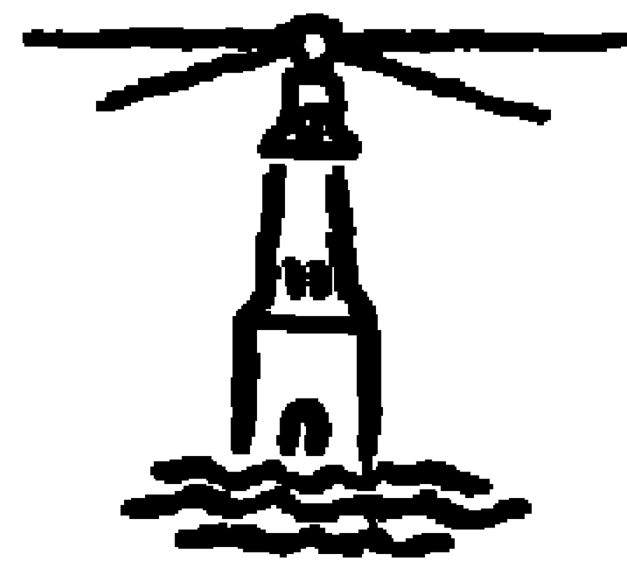


فايد العمروسي



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

فايد العمروسى

عفراء

قصة الحب الخالد

اقرأ ٣١٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٣ – يناير سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

تقدمة

بطلا هذه القصة هما : عروة بن حزام وصاحبته عفراء .

وزمان هذه القصة هو الحقبة الأولى من صدر الإسلام .

ومكان هذه القصة هو بادية الحجاز البعيدة عن الرخاء وليونة العيش .

وكانت البادية إذ ذاك أحياء ونجوعاً يسكن أهلها خيام الوبر ، أو الدور المشيدة من الأغصان الجافة أو من جذوع النخيل وجريدها ، وتقوم معيشتهم على رعى الإبل والأغنام فى المراعى ، وعلى ما تنتجه بعض سهولهم من البلح والزيتون والشعير .

وقد كان سكان البادية فى شبه انقطاع عن سائر بلاد الجزيرة العربية والممالك المفتوحة ، لذلك ظلوا فى بداوتهم كما كانوا فى الجاهلية وعهدهم بها ليس ببعيد .

وقد عاش عروة وعفراء فى تلك البادية ، ووقع بينهما أول حب عذرى عرفته البادية ، وبه تحدث الرواة وطارت أخباره فى الآفاق .

وعروة بن حزام بطل هذه القصة هو أول شاعر من شعراء الحب العذرى مات فى حبه .

وهو شاعر كبير من شعراء الغرام وقف شعره كله على حبيبته عفراء .

ومن شعره قصيدته النونية المشهورة التى مطلعها :

خليلى من عليا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليوم وانتظرانى ..

وشعره منثور فى أمهات الكتب الأدبية ، كما أن قصته لا تعدو أن تكون نتفاً صغيرة من الأخبار مبعثرة هنا وهناك فى بطون الأسفار .

وفى هذه القصة تحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وابن عباس رضى الله عنه ، وابن أبى عتيق .

* * *

ويقول الرواة :

إن قصة عروة وعفراء هى أول دمعة من دموع الحب العذرى « العفيف » انسكبت فى البادية الإسلامية .

ومن قصة عروة وعفراء عرف الحب العذرى ، وابتلى به

بعدهما كثير من المحبين الواهين أمثال مجنون ليلى ، وكثير صاحب عزّة ، وجميل صاحب بثينة .

وعرفت قصة هذين الحبيبين فتمثل بها كثير من الشعراء المحبين وغير المحبين .

ومن شعر مجنون ليلى فى رثاء عروة :

عجبت لعروة العذرى أمسى   أحاديثاً لقوم بعد قـــوم
وعروة ماتَ موتاً مستريحـــاً   وها أنا ميت فى كل يوم

ومن شعر أبى عيينة :

فما وجد النهدى[1] إذ ماتَ حسرة
عشيةَ بانتْ من حبائلـــه هنـــد
ولا عروة العذرى إذ طـــال وجدُه
بعفراء حتّى شف مهجتـــه الوجد
كوجدى غداة البين عنـــد التقائها
وقد طار عنها بين أترابها البرد

---

(١) هو عبد الله بن عجلان صاحب هند .

٨

وقال جرير فى عروة :

هل أنت شافيــة قلباً يهيم بكم
لم يلق عروة من عفراء ما وجدا
ما فى فــؤادى من داء يخامــره
إلا التى لو رآها راهب سجدا

فايد العمروسى

عَفراء وعروة ... مَن همَا ؟

مالت الشمس نحو المغيب ، وأرسلت أشعتّها الذهبية على رمال الصحراء ، ورجع الغلمان الرعاة بأغنامهم من شعاب الوادى القريب ، وراح كل يهشّ على غنمه ويسوقها إلى الحظائر تحت سقوف من الحطب الجاف أو الأعشاب الطرية بينما سكن الحى وقبع ، فلا يسمع فيه إلا غثاء الشياه وهى تدخل إلى حظائرها وقد انتشر حولها دخان القدور مما يهيأ فيها من العصيد أو الثريد .

وصاحت امرأة من نساء الحى بزوجها :

يا رجل : قاربت الشمس المغيب ولما تأت عفراء من المرعى ...

قال الرجل : ولا عروة يا هند ! ترى ما بهما ؟ لعلهما تاها فى الشعاب ! أو لعلهما قد أجهدهما رعى الغنيمات الماكرات وفيهن ما لم يمض على وليدها أيام ؟

وما انتهى الرجل من حديثه أو كاد حتّى امتعضت هند وأجابت فى جفاء :

ما عن عروة سألت يا رجل ! بل عن عفراء ابنتى وابنتك ، وما أظنك تجهل ما بها من ليونة الطبع وسلس القياد .

وأخشى ما أخشاه أن يكون عروة بن أخيك قد جرها إلى

اللعب بالحصى فى وادى البلقاء ، وهو — كما تعلم — معروف بكثرة الأفاعى والذئاب .

وإنى لضقت ذرعاً بعروة هذا الغلام الشيطان ، فما تقع عيناى بسببه على ابنتى عفراء غير لحظات من نهار أو عشية من ليل . . . هيا يا رجل تفقد ابنتنا فى الخلاء ريثما أفرغ من تحضير العشاء ! !

* * *

وأشاح عنها زوجها عقال بوجهه ، ثم جمع طرفاً من ردائه وطرحه على عمامته وخرج يخترق دور الحى وخيامه فى تراخ وفتور يتصفح وجوه غلمانه ، ويسأل هذا وذاك عن عروة وعفراء ، فبعض يجيب بأنهما تأخرا فى المرعى ، وبعض يقول : إنه رآهما جالسين بجانب الجزع الكبير خلف الحى !

ومضى الرجل فى طريقه لا يلوى على شىء ، وفى نفسه من الهدوء والصبر ما لا يكون فى نفس مثله يبحث عن غلامين تأخرا فى المرعى أحدهما ولده ، والثانى ولد لأخيه .

ولكن الرجل ما كان له أن يجزع أو يتلهف ، فهو قد تعود من عروة وعفراء مثل هذا التأخير فى المرعى ، وهو يعلم كذلك أن ليس بالوادى أفاع أو ذئاب كما تدعى زوجه هند ، فلا ضير على الغلامين أن يتأخرا فى العودة ، فهما ذوا خبرة بمسالك الوادى ونجاده وأغواره ، كما أن به ماء لسقى الإبل ، وبئراً روية تظللها بعض أشجار الزيتون مما قد يجمل فى نظر

الغلامين أن يتهجرا فى ظلالها وقد لا يعودان مع الأغنام إلا فى أول أمسية من أمسيات الليل حين يطل القمر فيصافح الرمال ، وتدب أنفاسه فى صدور الشياه فتتثاءب وتحن إلى الرجوع والمبيت .

إنه يعلم كل هذا وأكثر من هذا ما يحسه فى أعماقه من تآلف الغلامين وحذرهما وحرص كل منهما على أخيه فلا ضير عليه إذن أن يعرج على صديقه «المخزومى» فيشرب عنده القهوة ، ويتحدث إلى زوجه « أم النضر » فى أمر من الأمور بينها وبين زوجه « هند » .

وما دامت زوجه « هند » تعرف أنه خرج ليتفقد « عفراء » وما دام هو مطمئناً على ابنته ، فليظل كل فى حاله ، هى تجهز الطعام فى دارها ، وهو جالس مع صديقه « المخزومى » على باب خيمته ، وقد أوقد النار فى بعض عيدان من الحطب ، بينما أخذ صاحب الدار يقلى حفنة من البن الأخضر ، ثم تجهز لطحنها فى مطحن من الطين المحروق ، وبينما أم النضر تنتظر أن يغلى الماء فى الإبريق !

* * *

وما إن فرغت هند من تجهيز الطعام حتى حضر الغلامان بالأغنام على غير عادة الرعاة فى قيادة الأغنام ، فلم يكن أحدهما أمامها والآخر وراءها كما هو مألوف ، وإنما كانا يسيران جنباً إلى جنب أمام الأغنام وهى تتبعهما فى طاعة ونظام .

ولم يكن لكل منهما عصا خاصة به ، وإنما كانت لهما عصا واحدة من أغصان الزيتون ، وقد أمسك كل منهما بطرف من طرفيها حين أشرفا على الدار . وما لمحت هند أم عفراء مشيتهما حتى تميزت غيظاً وزجرت بهذه الكلمات :

عفراء . . . ما هذا ؟ تمسكان بعصا واحدة كأن أشجار الزيتون حول البئر قد جفت وتعرّت من الأغصان ؟

وتسيران جنباً إلى جنب أمام الأغنام كأنما هى الراعي وأنتما الشياه ؟

أسرعى يا ماكرة . . أدخلى الأغنام وتهيئى للطعام !!

ولم تنطق عفراء حرفاً واحداً حين سمعت هذا التقريع ، ولكنها أطرقت إطراقة الحياء وقد التهب الدم فى وجنتيها الصغيرتين ، وأحست إحساساً خفيفاً أن لهذا الكلام معنى دقيقاً وإن كانت لا تدركه . . وتيقظت لأول مرة أنها أتت أمراً يلفت الأنظار !! وإلا فما بال أمها وهى أحب الناس إليها تواجهها بهذا التقريع ؟

لقد كانت سائرة أمام الأغنام بجانب ابن عمها « عروة » وهو غلام صغير مثلها . . وكانت تمسك وإياه بغصن من أغصان الزيتون لحاجتهما إليه فى ردع ما يحيد من الأغنام عن الطريق . . فما فى هذا من إثم ؟

إنها لا تدرى . . وكل ما تدريه أن أمها أنبتها على هذه المشية بهذه الطريقة التى لم ترقها ولم ترتح إليها ، ولعل فى هذه المشية إثماً لا تدريه ولكن أمها تدريه ، وفيها خروج عن المألوف

لا تفهمه ، ولكن أمها تفهمه وتدركه كل الإدراك .

وهكذا ظلت عفراء تسأل وتجيب ، وتقر وتنكر حتى انتهى بها منطقها الصغير إلى أنها مخطئة ، لأن أمها تدرى ما لا تدريه ، وتدرك ما يستعصى عليها إدراكه ، فاقتنعت ، ثم ارتمت على مصطبة صغيرة فى دهليز الدار عليها منثور من القش الطرى وقطع من الصوف البالى العتيق .

أما « عروة » فقد جمد فى مكانه ، وقد شق عليه أن تنال عفراء هذا الأذى وهو عاجز أن يدافع عنها ، ولكن الذى حز فى نفسه ألا تناله كلمة واحدة من هذا التأنيب كأنما هو شىء مهمل أو غير موجود ، وهو إن كان قد فرح بادئ بدء أن نجا من هذا التأنيب ، فإنه قد اغتم كل الغم أن رأى ابنة عمه كابية واجمة ، وألا يحظى من زوجة عمه بكلمة خير أو شر حتى بقولها :

هيا يا ماكر . . ! أدخل الأغنام وتهيأ للطعام !

* * *

دخل عقال أبو عفراء داره راجعاً من لدن صديقه المخزومى وقد شرب القهوة ، وصلى معه صلاة المغرب فوجد عفراء ذاوية فوق المصطبة وقد حلت حزامها الأحمر وعصبت به شعرها وعلى قرب منها وقف عروة واجماً حزيناً .

فما إن رآهما عقال حتى صاح بزوجه : هند ! ما بال الغلامين ؟ فأجابت فى غضب : سلهما . . فما لدىّ جواب !

قال عقال : كيف أغنامكما يا عروة ؟ ولم يكد عروة ينطق حتى صاحت هند فى زوجها :

يا رجل . . ! لا تتنكب الطريق فى مسألتك ! ما لعروة شأن فيما تسأل !! هاك عفراء فسلها .

قال عقال : ويلك يا هند !! هذان طفلان فعفراء ابنتى وابنتك ، وعروة ابن أخى وابن عمها ، وحسبهما أن قطعا الهجير فى الوادى . . . فلا يكن عليهما هجيران . . . هجير فى المرعى وهجير فى الدار !! قالت هند وقد تحمقت : والبئر . . وأشجار الزيتون ؟ !!

فابتسم الرجل وقال : اسكتى يرحمك الله ... هيا يا عروة ، هيا يا عفراء . . هيا يا ولدىّ إلى الطعام !!

* * *

هذا هو عروة ، وتلك هى عفراء صغيرين !!

فأما أبو عروة فهو حزام بن مهاصر . . وأما أبو عفراء فهو عقال بن مهاصر .

فحزام وعقال أخوان شقيقان يحب كل منهما الآخر ويعتز به أيما اعتزاز ، وكان أبوهما مهاصر شيخاً وقوراً من بنى ضبّة ، وهم قبيلة من العذريين الذين عرفوا بالحب العذرى والغرام العفيف ومنهم كان المجنون وجميل وأضرابهما .

وكان مهاصر رجلا مرموقاً تتلفت إليه أعناق الحى ، ويجدون لديه متسعاً لأمورهم وقضاء لحوائجهم .

ولم يكن مهاصر من اليسار على قدر يكفيه ، فكان يتلمس عيشه فى التجارة ما بين نجد والحجاز واليمن شأن التجار فى رحلاتهم ذلك الحين .

لهذا نشأ حزام وعقال ولداه على نحو من أبيهما ، فكانا يساعدانه على السعى فى الرزق ، ثم استقلا به بعد أن لوت الأيام ظهر الشيخ ، فقعد به الكبر ، وألزمته الشيخوخة الاعتكاف والانقطاع عن العمل وعشرة الناس ، وقد كان من السهل على مهاصر وولديه وقد كبرا أن ينزعوا إلى أرض الحجاز اللينة ، حيث الرخاء والرغد ، لولا أن طبيعة البدو تأبى الرخاء والتحضر ، وتراهما مفسدة للطبع وانحلالا للخلق وإنكاراً للمجد الموروث فى البادية من الخشونة والفروسة والنضال .

هكذا شب الأخوان وتعاونا على الحياة وهما فى نضرة العمر ورونق الشباب ، كلاهما شاب مفتون بفتونه غير أن « حزام » كان يفضل أخاه فى وسامة الخلق ، وعذوبة النفس ، كما كان يفضله فى الحركة الدائبة والنشاط وحب المخاطرة والجرأة والإقدام والمغامرات فى الرحلات للصيد والقنص فى الفيافى والقفار .

وأما « عقال » فكان مثالا للطيبة والقناعة والسماحة النفسية ، حتى إن الناظر إليه لا يخطئ كثيراً لو عدّ ما به نوعاً من الخمول والتواكل والرضاء الممقوت !!

* * *

وكان فى الحىّ فتاتان . . . فأما إحداهما فسلمى ابنة عمهما ،

وأما الأخرى فهى ابنة شيخ صديق عزيز لأبيهما مهاصر ، ولقد توجهت كل من الفتاتين بقلبها إلى « حزام » لأنه كان أصغر من أخيه « عقال » ببضعة أعوام ، وكان أوفر منه نشاطاً وأليق مظهراً .

وعرف حزام ميل الفتاتين نحوه فما وجد فى نفسه ميلا لسلمى ابنة عمه فأعرض عنها ، وأحسّ فى نفسه استجابة لهند فأقبل عليها .

وقد عرف هذا الإحساس فى الحى بما بدا من الفتاتين نحو « حزام » ومما بدا منه نحو هند بالميل إليها ، ونحو سلمى بالإعراض عنها ، فتكلم فيه القوم وإن لم يسرفوا ، وبدأت الغيرة حملاتها بين الفتاتين ولكن فى دائرة مكتومة وبقدر لا تتطاير به الأنباء .

وتشاء الأقدار أن تمثل أدوارها فى سخرية وبراعة ، فسافر « حزام » فى شأن له إلى اليمن ، وطالت غيبته وطالت حتّى تحدث الناس عنها ، وانشغلت الفتاتان به ، وكانت هند أكثرهما انشغالا .

ثم تواترت الأحاديث عنه فى الحين بعد الحين حتّى حملت إحدى القوافل النازلة بالحى والشاغرة من اليمن أن « حزاماً » قضى فى بعض مخاطراته مع فتية من الأعراب .

وعمّ الخبر الحى فحزن عقال أشد الحزن ، وأخفت هند وجدها عليه ، وتظاهرت ابنة عمه سلمى بالجزع وإن كانت فى

قرارة نفسها فرحة تشفياً من هند ، وراحة من أمل كان يشقيها لو تعلقت به وليس لها إليه مهما حاولت منفذ أو سبيل !!

* * *

وأسدل الستار على حزام بضعة أشهر نسى فيها القوم قصته أو تناسوا حتى خُطبت هند لعقال فتزوج منها ، وقنعت سلمى من حظها بهذا القدر ما دامت هند لم تفز بحزام .

وتشاء سخرية الأقدار مرة أخرى أن يحضر « حزام »ا إلى الحى بغتة فما كان قد قضى نحبه كما قيل ، ولكنه وقع أسيراً مع رفقة له فى يد جماعة من الأعراب ما زال ديدنهم الإغارة والسلب على عاداتهم فى الجاهلية ، ثم استطاع أن يتخلص من الأسر ببعض الحيل ويرجع إلى أهله .

وما إن دخل « حزام » الحى حتى هاج أهله وماجوا ، وفرحوا به واستبشروا ولا سيما سلمى ابنة عمه وما كان لها إلا أن تفرح وقد أخلى الطريق لها بزواج هند غريمتها من عقال . . . ورأى حزام ما آل إليه أمر هند ، فانطوى على نفسه وكبح عواطفه وتيقظ فى قلبه نوع من الحنين والعطف على سلمى انتهى به إلى أن تزوج بها . . !

وهكذا أسدل الستار على فصل من ألاعيب الأيام ، وعاش الأخوان كل فى داره ، عقال مع هند وما كانت لترضاه ، وحزام مع سلمى وما كان ليرضاها .

ثم أنجبت الأولى عفراء ، وأنجبت الثانية عروة بطلى هذه القصة .

ومضى أربعة أعوام بين الأخوين وهما على شيء من الفتور والجفاء بسبب المرأتين ، السبب الذى تعرفه سلمى وزوجها «حزام» ، وتعرفه كذلك هند وإن كان زوجها «عقال» لا يعرف عنه شيئاً إلا بالنذر اليسير الذى تطايرت به الأنباء ! ! ثم عاد حزام إلى مغامراته الأولى من الصيد والصعلكة فى البيداء فكان نصيبه الهلاك .

وهكذا انتهت حياة « حزام » فترك ابنه عروة طفلا صغيراً ، ولم ترحم الأيام هذا الطفل فتبقى له أمه بجانبه ، إذ سرعان ما خطبها رجل من حىّ قريب من أحياء بنى عذرة فانتقلت إليه ، وعزّ على عمه عقال أن يترك ابن أخيه ليعيش فى كنف زوج أمه ، فأبقى عليه فى داره بجانب عفراء .

* * *

لم يبق حينئذ غرابة فى ألا يلقى عروة من زوج عمه شيئاً من العطف أو الحنان ، فهى غريمة أمه سلمى ، وهو ابن لهذه الغريمة ، فما تستريح أن تراه دائماً فى دارها بجانب ابنتها وهى التى كانت تتمنى أن يكون عروة ولدها هى ، . . وأن يكون أبوه سيدها وبعلها .

وما تطمئن كذلك أن يكون لعروة نصيب أوفى من عطف عمه عقال وإعزازه إياه . . . ثم إن أخوف ما تخافه أن تكون ابنتها من نصيب غلام لم تكن هى من نصيب أبيه على تمنيها إياه ، فما يمنعها وهى التى تشم بغريزتها أن تحتاط كل الحيطة ، وأن تحذر كل الحذر فتعمل جاهدة على تلافى ما عساه يقع بين

عروة وعفراء من ألفة ومودة فى ذلك ضنٌ بمعروف على غلام لا تحبه ولا تطيق أمه . . . وهو فوق ذلك انتقام غير مباشر من ذلك الغلام المسكين .

هذه هى هند التى قضى الله أن يظل عروة فى دارها منذ أن كان فى الخامسة من عمره إلى أن بلغ مبلغ الشباب حتى تمثلت مأساته الخالدة التى علمت شعراء بنى عذرة الحب العفيف الذى قاساه المجنون وجميل وقيس وكثير وأضرابهم من العشاق الذين تحدث عنهم التاريخ الأدبى فى الحقبة الأولى من صدر الإسلام .

* * *

وأما عمه عقال فكان رجلا طيباً حقاً ، إنه لم يحس أن زوجه هند كانت متجهة بقلبها قبل الزواج إلى أخيه « حزام » وإن كان قد سمع عن ذلك نتفاً طائرة تحدث بها القوم من هنا وهناك .

وإنه لا يستطيع إدراك ما بقلب زوجه نحو عروة إلا أنه تضايق طبعى من كل امرأة تعنى أو تلزم بالعناية بغير ولدها... وإنه لناس أو غافل أو جاهل ما كان بين المرأتين من صراع خفى قبل أن تعرف كل نهايتها ، على أنه إذا عرف أو تيقن فما ذاك بضائره ، فليس هو ذا طبيعة عميقة تتعمق فيها الأحداث ، كما أنه ليس بالرجل البدوى الجاف الطبع الذى يأخذ الأمور بقسوة وعنف وضراوة ، وإنما هو رجل فيه كثير

من طيبة القلب وصفاء الضمير وسماحة الطبع .

لقد أحس الرجل أنه مكلف بحق الرحم والدم وأن يتحمل ابن أخيه فى داره ، وأن يحله من نفسه محل ولده وهو لم يرزق غير عفراء ، وأن يرعاه بحدب وحنان حتى لا يشعر بمرارة اليتم والحرمان .

وكان طبيعياً لرجل هذه حاله وتلك صورة من عواطفه أن يصطدم بزوجه هند وتلك حالها وهذه صورة من عواطفها .

كما كان لابد لمثله أن يدارى زوجه ويمالئها ، وأن يأخذها باللين والسماحة ويعمل على ترضيها ولو تنازل فى ذلك عن بعض من مقوماته .

وهكذا عاش عروة وعفراء بين عقال وزوجه .

هذا أب وعم . . . وتلك أم فى قلبها من الماضى بعض وساوس النساء .

فى المرعى الحبيب .. !

بدأ عروة وعفراء يخرجان إلى المرعى كل يوم ، فما تشرق الشمس كل صباح إلا وهما فى الوادى ، حيث الأغنام منتثرة فى نواحيه ، هذه تبحث عن عود من العشب ، وتلك تنبش الأرض بحافرها بحثاً عن نبتة كامنة تحت الطرى من التراب .

وكأنما الأغنام قد أحست راحة هذين الغلامين وفرحهما بالمرعى ، فما تريد أن تنغص عليهما ما يشعران به من السرور والانطلاق ، فهى دائماً مجتمعة قريباً منهما ، أو متفرقة على أبعاد لا يصعب معها الحذر والانتباه .

ولولا أن شاة عنيدة كانت تنفر فى بعض الأحيان إلى المسارب البعيدة فيرجعها عروة بصفير تعوّده ، ما كلف الغلامان نفسهما نظرة واحدة إلى أغنامهما الطيعة الوديعة .

وتكرر تسرّب الشاة فى المسارب . . . وتبعها كبش عتيق مثلها! وتيقظت عفراء مرة إلى تسرب هذين الصاحبين فتضايقت ، وظهر على ملامحها التأفف والضجر من مضايقة هذه الشاة العنيدة وصاحبها الكبش العتيق .

ولمح عروة فى ملامحها هذا التأفف فسأل : مابلك يا عفراء؟

ولكن عفراء ضحكت أو تضاحكت وقالت : شاةٌ كرهت عشرتنا وشقت عصا الطاعة علينا !!

وابتسم عروة وحول وجهه إلى الشاة الهاربة وصاح : وكبش يتبعها ! ! ثم صفر صفيره المعهود فما ارعوى الكبش ولا وقفت الشاة ، كأن بينهما مؤامرة مبيتة من الليل ! !

وهب عروة يجرى وراء الهاربين ، فجرت عفراء خلفه وهى تضحك تارة ، وتصرخ تارة أخرى حتى لحقا بالشاة فأمسكا بها .وفكرت عفراء فى حيلة صبيانية لطيفة فربطت فى إحدى رجليها حبلا وصلته بحجر غليظ لا تستطيع الشاة جره فثبتت فى مكانها .

استراح الراعيان وانصرفا إلى حديثهما ولعبهما وقد أمنا على أغنامهما الهادئة من متاعب هذه الشاة العنيدة . . وما هى إلا دقائق حتى توقفت عفراء عن حديثها فجأة وانفجرت ضاحكة .

وسأل عروة : ما بك يا عفراء ؟ قالت : انظر . . انظر يا عروة . . الكبش العتيق يترك أصحابه ويقترب من الشاة ويقف بجانبها. . . هيا نربطه بحبل ونشده فى حجر !! لعله لا يحب الحرية كما نحبها ، وكما تحبها هذه الأغنام !

* * *

ضحك عروة حين سمع دعابة عفراء اللطيفة وقال : لا ياعفراء !

هذا الكبش العتيق واسمه « رافع » هو أكبر الأغنام سناً ، وهذه الشاة واسمها « رفيعة » فى مثل سنه ، ولقد سمعت من عمى عقال أنهما أقدم الشياه عندنا ، فهما اللذان نسلا لنا هذه الأغنام

التى نرعاها . فكلاهما يعرف الآخر من طول العشرة والألفة .

فلما رآها واقفة مقيدة جاء ووقف بجانبها، فهو يعرفها وهى تعرفه حق المعرفة !

وبدا فى وجه عفراء علامات التفكير والاهتمام وقالت : أوَتعقل الأغنام حتى يعرف أحدهما صاحبه ، ويحفظ له حق الألفة والعشرة ؟

وتهلل وجه عروة لهذا السؤال وقال : لم أكن أعرف شيئاً عن سؤالك يا عفراء ، لولا أننى كنت مع عمى يوماً فى زيارة جارنا « الأرقط » فحدثنا أن للأغنام والإبل والأفراس وكثير من أنواع الحيوان والطيور إحساساً متميزاً يقرب من إحساسنا نحن بنى الإنسان ! وجارنا الأرقط يا عفراء رجل مسن له خبرة بطبائع الحيوان والطيور ، لقد ذكر لعمى وأنا جالس بجانبه أن بعض الحيوان شديد الألفة ، شديد الوفاء لما تعوده ، فبعضها يعرف صاحبها وتعرف أماكنها ومرابطها ، وتحس أوقات غدوها ورواحها ، حتى إن بعضها ليحزن أشد الحزن لو فارق أهله والمنازل التى عاش فيها والمراعى التى تألفها منذ صغره .

ولقد حكى لى عمى مرة أن أباه «مهاصر» — رحمه الله — كان يقتنى الأشهل والشهلاء ، وهما فرسان رباهما صغيرين فكانا يرعيان معاً، ويأكلان ويشربان معاً ويبيتان فى مربط واحد ، ولما كبر كان يستعملهما فى أسفاره متجاورين .

وحدث أن حزبه أمر ضاقت فيه يده فباع الشهلاء

لرجل من بنى الحرث . . .

أتدرين يا عفراء ما جرى للأشهل بعدها ؟

وأصاخت إليه عفراء وعيناها زائغتان وقد أسندت رأسها على راحتها اليمنى واتكأت بمرفقها على حجر بجانبها وقالت فى رغبة ملحه :

أتمم يا عروة يرحمك الله ! !

قال عروة : فما إن أصبح الأشهل وحيداً حتى نحل جسمه وامتنع عن الطعام والشراب أياماً عدة إلى أن أشرف على الهلاك !

وصمت عروة ، وصمتت عفراء معه ، وكأنما أحست بجريرة ما فعلت بالشاة ، فهبت مسرعة وقطعت ما بين رجلها وبين الحجر ، فجرت الشاة إلى الأغنام المتناثرة والكبش « رفيع » يتبعها ! !

* * *

توسطت الشمس كبد السماء وتوهج لهبها وأحس الراعيان بحرارتها تنفذ إلى ما تحت جلدهما ، وبدأت الأغنام تلهث وتفحص وترخى آذانها ، كما بدأت حلوقها تجف فتتحرك ألسنتها شوقاً إلى الماء . . . ونهض الراعيان يردان الماء بالأغنام .

وجاء وقت الرواح ، فاغتم عروة لما سيلقاه من زوج عمه من الثورة والعبوس والكدر والثرثرة بحق وبغير حق مما قاساه عدة أعوام تحمل فيها كثيراً من الأسى والإيذاء .

اغتم لهذا الرواح الكئيب ولفراقه هدوء المرعى والبئر وأشجار

الزيتون ، وكل أولئك حبيب إلى نفسه ، قريب إلى قلبه يجد فيها الفرح أى فرح ، والسرور أى سرور !

وفطنت عفراء إلى ما يختلج فى ذات نفسة فسألت فى رفق : أما نرحل يا عروة فعملك ينتظرنا كالعادة ، وأمى تترقب الطريق بعين وتهيئ الطعام بالأخرى !

قال عروة : بالله عليك ألا ما بقينا هنا هذه الظهيرة ؟

وأجابت عفراء : وما تقول أمى وهى تقيم الدنيا وتقعدها لتأخيرنا قليلا . . . فما بالك لو تأخرنا هنا طول النهار ؟ ! أنسيت يا عروة يوم المصطبة وما نلت من أذى أمى . . وما كان من أبى حين خرج يتفقدنا ؟ بالله ألاما طاوعتنى ؟

ثم أخبرنى يا عروة ! منذ سنوات ونحن نغدو بالأغنام مع الصباح ، ونروح بها مع الظهيرة وإن تأخرنا قليلا فى بعض الأيام فما رأيت منك كراهة للرواح بقدر ما أرى منك اليوم !!

وأطرق عروة وراح فى تفكير عميق لم يفق منه حتى نبهته عفراء إلى أن الرعاة يدبون بأعناقهم فى المسالك المفضية إلى الحى ، وأن الوادى صفصف أو كاد ولم يبق فيه غيرهما من الرعاة ثم صاحت :

انظر يا عروة ! هذا قطيع من الغنم يدب فى باطن السفح فى طريقه إلى الحى ، وهذه راعيته جارتنا « رباب » تلك الصبية التى رأيناها أمس تجلس مع أبيها بباب الخباء .

فما تصنع أمى لو رأتها مع أغنامها ونحن هنا فى هذا العذاب؟

هيا يا أخي هيا . . . وجذبت منه غصن الزيتون ولوحت به للأغنام فتحركت ما كانت واقفة ، ونهضت ما كانت راقدة وسار الاثنان أمام الأغنام فى طريقهما إلى الدار ، وما إن وصلا إليها حتى غنت لهما هند نشيدها المعروف وعاد يوم المصطبة بأسوأ مما كان !

وعاد عقال من ظاهر الحى ودخل داره ورأى ما رأى من غضب هند وثورتها ، فرفه عن امرأته غضبها ، فسكتت على مضض ثم صاحت بزوجها : يا رجل !! نبيع هذه الأغنام ونشترى بثمنها صوفاً للتجارة ! وما إن سمع عروة « نبيع هذه الأغنام » حتى انخلع قلبه من بين أضلعه ، أما عفراء فقد انفجرت بالبكاء ، وما رد إليهما الهدوء إلا ضحكة عالية من فم الرجل وصوت فيه نبرات الجد يصيح : لا يا هند . . لن نبيع هذه الأغنام . . وإن لنا فيها لخيراً كثيراً . . !

* * *

وهكذا توالت الأيام والشهور ، وعروة وعفراء يرعيان الغنم نهاراً بالوادى ، ويقضيان الليل فى الدار أو متنقلين فى دروب الحى مع الصبية والصبيان ، وما كان أحلى ذلك الوقت الذى يقضيه عروة فى المرعى ، وما كان أقسى ذلك الوقت الذى يقضيه فى الدار أو بظاهر الحى !

لقد كان الليل عنده بغيضاً كل البغض ، وكان النهار لديه محبوباً كل الحب . . لم يكن الليل فى شعوره من حساب



حياته ، ذلك الليل الذى يقبع فيه فى فراشه الغليظ المصنوع من الحصير ، وغطائه المغزول من الصوف الخشن . . ذلك الليل الذى يمر فلا يرى فيه عفراء ولا يسمع صوتها وهى تردع الأغنام ، إن حادت عن الطريق ، ولا يمتع نظره بقفزاتها وراءها فى خفة ونشاط ، وإن له فى صحبتها للذة لا تعدلها عنده لذة ، وفرحاً شاملا يغمر قلبه فيخفق بالحياة ويمتلئ نشاطاً وابتهاجاً .

وإنه لا يحس مرور الزمن وهى بجانبه ، ولا يدرك المرئيات إدراكاً حقيقياً ، فكل شىء أمامه جميل ، وكل منظر أمامه محبوب ما دامت عفراء بجانبه ، فإن خلا منها فكل شىء أمامه مشوه ، وكل ما يراه رذيل بغيض .

كان يكره الدار ولا يستريح إليها ، وما كان يحتوى قلبه وسمعه وبصره إلا المرعى البعيد ، وإلا ذلك الخلاء الصامت الذى يجمعه بعفراء قريباً من البئر وأشجار الزيتون .

* * *

أحست عفراء بنفور ابن عمها من الدار وتضايقه من قيودها التى تفرضها أمها ، وقارنت بين انطلاقه فى المرعى وتزمته فى الدار ، وبين بشاشته ونشاطه فى الخلاء وبين عبوسه وهموده فى هذه القيود .

أحست كل هذا ولمسته فى عروة فى الحين بعد الحين فعمدت بدافع العطف والألفة أن تهيئ له لحظات من البعد عن هذه الدار . . . فما كانت تضايقه حين يتشوق إلى الخروج

والطواف فى الخلاء بجانب الحى ، وربما صحبته بإذن من أمها فى بعض الليالى المقمرة لملاقاة الصبية والصبيان أمثالهم الذين تعودوا السهر ليلا ولا يعودون إلى دورهم إلا لحاجتهم إلى النوم .

وما كانت لتضايقه إن أحست به رغبة للتأخر فى المرعى ، ولا سيما أن أمها قد سئمت اللوم والتأنيب ، وكفت لسانها قليلا عن الأذى الذى كانت تلحقه بهما كلما حلا لها ذلك ، وانشغلت ببعض أمورها الدنيوية وهى بها جد مشغوفة وحريصة .

وساعد عفراء على هذا المسلك الجديد أنها بدأت تدرك الأمور أكثر مما كانت تدرك، وتواجه تصرفات أمها بشىء من الجرأة والنقاش ، وأن أباها رجل طيب مطواع . يغلبه قلبه أكثر مما تغلبه إرادته ، وتمحو سماحته ما عسى أن يعلق بظنه من الشكوك ، أو يتحرك فى صدره من الغضب !

فلا عليها إذن أن توفر الراحة لابن عمها عروة حتى لا يشعر بأنه فى دارهم ضيف يتوقى ويحذر أكثر مما ينبغى التوقى والحذر ، وما عليها لو عملت وفق ما يحب وهو لا يشتط فى شىء ولا يسرف فيما يطلب . إنه يحب المرعى فلتكن فيه بجانبه ، وهو يكره الدار فلتكن بجانبه فى الخلاء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وهكذا بدأت عفراء من ناحيتها عطفاً أخوياً جديداً فيه رائحة من الفهم وإدراك لعواطف القلوب .

* * *

أحس عروة بنداوة فى نفس عفراء وبعطف على رغباته فراح يبسم للحياة من جديد وبدأ ينسى المرارة التى تجرعها يوم جرته عفراء إلى الدار فى منطق أعجبه وأقنعه ، وإن كان قد لاقى من زوج عمه ما لاقى من التأنيب والإيذاء .

لقد بدأ يترقب الصباح كل يوم ليخرج إلى المرعى كما يترقب المريض نعمة الشفاء ؛ أو كما يترقب السجين منطق العفو والانطلاق .

كان يأوى إلى فراشه كل ليلة وكأن فى الفراش أفاعى تعضه ، وكان وهو فى فراشه يرفع طرفه إلى السماء ليتأمل النجوم وهو ساخط عليها ويدقق النظر إلى القمر وهو منه موتور !!

أليس القمر والنجوم آية الليل ؟ الليل الذى لا يحبه ، الليل الذى يخطف منه عفراء فتنأى عنه ! ولكم ود عروة لو تطول يده السماء فتمسح ما فيها من نجوم ويطمس ذلك القمر الفاتن فما له فى فتنته نصيب . بل له فى الشمس والرمال كل ما يرجو من نصيب .

* * *

ويتيقظ عروة ذات ليلة على غناء حاد يحدو قافلة تمر بالوادى فيظن أن الفجر قد أسفر ، ويرهف أذنه لصياح الديكة فتتوالى عليه الصيحة تلو الصيحة ، ويهيج الحادى كلاب الحى فتنبح وتنبح ، وتتحرك الإبل فى مباركها فتحن وتهدر . ويصحو الرضيع من الشياه فيرجع الثغاء إيذاناً بالجوع وطلباً

للرضاع . . . يتيقظ وسط هذا الضجيج فينشط ويغتبط فما هي إلا بشائر الصباح . . . الصباح المحبوب .

ثم لا يلبث أن يغتم وينكمش حين لا يسمع « الهلالى » ينادي : الصلاة خير من النوم . . وحين لا يسمع ترتيلا خاشعاً خلفه مما يلى الدار : « وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

فما دام الهلالى لم يؤذن بعد لصلاة الفجر ، وما دام « أبو الفداء » لم يرتل القرآن ترتيلا ؛ فالفجر ما يزال بعيداً . وزاد من همه أن سكنت تلك الصيحات التى سمعها من الديكة والكلاب والإبل والشياه ... وأن تسرّب إليه مع النسمات العابرة فى ذلك الظلام صوت الحادى الرخيم :

ألا قاتــل الله الحمـــامة سحرة
على الغصن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصوت أعجمى فهــاجنى
من الشوق ما كانت ضلوعى أجنت

وأعاد الحادى غناءه ، وأمعن عروة فى الاستماع ، وظل الغناء ينساب إلى نفسه فيشجيها . . وفى لحظات بدأ الحداء يتراخى رويداً رويداً ، ويضمحل ويخفت حتى تلاشت آخر نغمة منه فى أجفان عروة وقد انطبقت على سنة خفيفة من النوم اللذيذ .

* * *

راح عروة فى سنة خفيفة من النوم لا يدرى كم طالت من الزمن إلى أن انفتح جفناه على صوت أبى الفداء يرتل : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » ؛ فهبّ صائحاً !!

عفراء . . . عفراء . . . عمى صباحاً . . هيا يا ابنة عمى . . فلنتهيأ للمرعى فالصبح منا ليس ببعيد !!

كرر هذا النداء فتيقظت امرأة عمه التى أجابته فى خفوت : ارقدْ لا صبّحكَ الله . . . ما زال أبو الفداء يقرأ !

وصحا عمه حين سمع صوت هند وهى تجيب : «ارقد لا صبحك الله !!» . . فقال : أستغفر الله . . . أستغفر الله . . . ماذا كسبت يا هند فى هذا الصباح حتى تستقبليه بإيذاء الناس ؟

لم تسمع هند كلام زوجها فغطت فى نومها من جديد وقد مدت ذراعيها لتتلمس عفراء بجانبها حذراً وخوفاً كأن حواليها أشباحاً من الشياطين !!

وهبّ عمه عقال فقبع فى فراشه وقد تلفع بعباءته البيضاء، ولف على رأسه وأذنيه شملة من الصوف المغزول ونادى ابن أخيه فأجلسه إلى جانبه بعد ما حياه تحية الصباح . . ثم بادره بقوله :

أمبكراً هكذا تتيقظ كل صباح يا ابن أخى ؟

أجل يا عمى ! فمن أجل الأغنام أتيقظ ، وللمرعى أتهيأ فالخير فى البكور !!

قال عمه : ولعل لتلاوة أبى الفداء فى نفسك حلاوة . . . فقد سمعته يرتل : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » .

العواطف تتيقظ . . !

أصبح الصباح وعروة بجانب عمه ، فنهض الأخير إلى جفنة بها ماء فتوضأ وصلى صلاة الصبح كما صلى عروة وراءه .

وسمعت هند تسبيحه واستغفاره عقب الصلاة فنهضت إلى حظيرة الأغنام حيث حلبت بعضها ؛ ثم تهيأت عفراء للمرعى فخرجت هي وعروة يتقدمان الأغنام .

عروة الآن لم يعد غلاماً كما كان ! وعفراء الآن لم تعد طفلة كما كانت !

إنهما يسيران رويداً نحو أول مراحل النضوج !

لهذا بدأت العواطف التي ولدت بينهما طفلة مع طفولتهما تنمو وتتعمق حتى أعلنت عن وجودها في هذه المرحلة من حياتهما . وهي مرحلة تتيقظ فيها العواطف القلبية هادرة كالأعاصير !

خرج عروة وعفراء إلى المرعى في هذا الصباح حيث كانت أشعة الشمس لينة رقيقة ، والندى يلمع فوق سطوح الدور وقمم النجاد ، وكان في السماء جماعات متقطعة من السحاب ، تنقشع آناً وتتلبد وتسود آناً آخر .

وما إن وصلا إلى الوادي حتى كانت أزهار الزيتون تتثاءب وتتفتح رويداً رويداً ، وقد علا أغصانها على غير المألوف

حمامات بيضاء وغير بيضاء ، بعضها يحرك أجنحته فى رفق وهدوء ، وبعضها يرتفع صدره ويهبط وهو يهمهم بلغة غير مفهومة تبعث فى النفس شعوراً غامضاً وإن كان يبهجها .

وتفرقت الأغنام فى المرعى كعادتها بينما عروة وعفراء يتمشيان ويدوران حول الأغنام فى صمت غير معهود .

وشعرت عفراء بقطرة غليظة من الماء تسقط فوق وجهها ففرحت وتهللت وصاحت :

عروة . . ! خير يأتينا . . خير يأتينا . . . هذا هو المطر الحبيب . . وتهلل عروة وصعد نظره إلى السماء وقال : أجل يا عفراء . . . فالسحب مثقلات .

وفجأة انهمر المطر غزيراً . . فجذب عروة عفراء من يدها وصاح : إلى التلّ يا عفراء ! وتوقفت عفراء عن المسير وتهللت للمطر وراحت تستقبله بذراعيها وصدرها فرحة مغتبطة حتى ابتلت ملابسها،فأسرع عروة وخلع رداءه وألقاه على رأسها ليقيها المطر،وظل هو فى قميص أبيض إلى ما تحت ركبتيه .

وسرعان ما توقف المطر الهاطل ، ثم أشرقت الشمس وبدأت الأشعة تجفف ما ابتل من ملابسهما . . . والتفتت عفراء إلى رفيقها وقالت : تقيني بردائك ؟ وأنت ؟ قال عروة : أنا ؟ أنا أقيك بجلدى يا ابنة عمي ! !

خجلت عفراء من ردّ عروة الذى لم تألفه من قبل واحمر خداها الصغيران وقالت : ولكني أحب المطر . . ولم أكن فى

حاجة إلى وقاء ؟ قال عروة وقد تأذّى :

تحبين المطر ولا تحبين رضائى ؟

قالت عفراء : لا يا عروة وأستغفر الله . ما هكذا أردت ! وما هكذا ينبغى أن تفهم ! إن المطر عندنا نحن البدو أمر محبوب ، وأحب أن أتمتع به ما استطعت فما نراه فى العام إلا نادراً .

* * *

بدأت العواطف القلبية تتحرك فى كيان عروة ، وبدأ إحساسه بالميل إلى عفراء يدق ويضطرم . . ولم تكن عفراء بأقل من صاحبها تجاوباً لهذا الإحساس وفرحاً بتلك العواطف ، لهذا أحست عفراء فى عتاب عروة أن به شيئاً . . شىء غير رباط القرابة والألفة ، وأن فى نفسها استجابة لهذا الإحساس الجديد !!

وإلا فما بالها تستريح لردائه يقيها من المطر على كره منها للوقاية ؟ وما بالها تحزن من أجله إن تجاهلته أمها وأغضبته بما كانت تقذفه به من التوبيخ والتأنيب ؟ وما بالها تحس كراهته للدار وحبه للمرعى فتكرهها هى الأخرى وتود البعد والانفراد فى الخلاء الفسيح ؟

إن ما به هو ما بها !! وإنه ليشعر بخاطر فتشعر بهذا الخاطر فى أعماقها . . . ولقد ود يوماً أن يقضى النهارَ كله فى المرعى فتأبت عليه ذلك ظاهراً وإن كانت فى أعماقها تودّ ما كان

يودّ ! إن بينهما شيئاً يرتبطان به غير رابطة الألفة والقرابة فما عسى أن يكون هذا الشيء ؟؟

ترددت هذه الخواطر فى نفس عفراء دون أن تتبينها أو تسميها . . . وأحست بها إحساساً عميقاً بماأبدا من حرص عروة عليها وفرحه بلقائها وحزنه فى البعد عنها وبما قدم لها مراراً من كسر الخبز والتمر الجاف... وإنها لاتنسى كفيه وهما تحملان الماء من البئر فتسقيانها ! ولا تنسى رداءه وقد ألقاه على رأسها وقاء من المطر ، وإنها لتذكر لبن الشاة الذى قدمه إليها مراراً لتشربه وهى تحاول القسمة بينها وبينه وهو يتأبى هذه القسمة !!

ثم إن هناك علامة لا تخطئ . . . إنه على ما يبدو لها لا ينام الليل إلا غراراً .. وإلا فما باله يتيقظ كل ليلة قبيل الفجر قبل أن يرتل أبو الفداء آيات من القرن الكريم ؟

ولقد سمعت أمها مراراً وهى بين اليقظة والمنام تقول له : ارقد لا صبحك الله !! كما حكى لها أبوها ما كان منه ليلة القافلة وما كان من حداء الحادى وهو يحدو :

ألا قاتـــل الله الحمـــامة سحـــرة
على الغصن ماذا هيجت حين غنت
تغنت بصـــوت أعجمى فهـــاج لى
من الشوق ما كانت ضلـــوعى أجنت

* * *

وزاد هذا الإحساس وثوقاً فى نفسها ما جرى لها يوم أن

تعثرت فى حجر كبير جرح أصبعاً من أصابع رجليها ؛ وتذكرت أن عروة انزعج لما وقع لها فانكب على رجلها وامتص بفمه الدم النازف من الجرح ، ولما لم يقف النزف كتم الجرح بحفنة من التراب ، ثم قطع من طرف ردائه شريطاً وضمده به .

بهذا وذاك أحست عفراء ما بعروة نحوها ، ودب فى قلبها همس خفيف لذيذ ينبهها إلى قوة روحية تختلج فى صدر ابن عمها ، وأنها بهذه القوة سعيدة مبتهجة ، وزاد من سعادتها أنها تحس فى نفسها تفتحاً لاستقبال هذا الشعور الروحى البرىء واستعداداً للحرص عليه والاعتزاز به !

أما عروة فقد كان كما أحست به عفراء بل يزيد !!

لقد بدأ يحيا ويتيقظ . . . إنه لا يتصور الحياة بدون عفراء ، وإن الصباح جميل لأنه يطلع على وجهها الجميل ، والوادى على قفره جنة فيحاء لأن عفراء تجوس خلاله بقدميها الصغيرتين !

إنه لا يرى غيرها فيما حواليـــه من الكائنات ، ولا يحس إلا بها بين مظاهر هذه الطبيعة المشرقة الفاتنة ، وإنه لا يستريح إلى أن يعرج عليهما بعض الرعاة أمثالهما فى شأن من الشئون ، وإنه على معرفته بهؤلاء الرعاة لأنهم جيرانه لينأى عنهم بأغنامه ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

وكثيراً ما طاف بهما فى الوادى أبو العيناء والنضر والحارث ورباب والزرقاء وليلى . . وكلهم لهما زميل وجار فلم يهشا للقائهم ولم يرغبا فى التحدث إليهم ، وطالما عمد الاثنان إلى البعد عنهم

تذرعاً بالبحث عن شاة ضالة فيختفيان فى المسارب أو يتوغلان فى الشعاب .

* * *

لم يعد فى نفس عروة خوف من التأخير فى المرعى ، كذلك نسيت عفراء ثورة أمها وغضبها إن تأخرت ، فلم تعد تنزعج لثورتها وإن كانت قد خفت حدتها وهدأت قليلا تعباً وملالا .

وبدأ الراعيان يتأخران يوماً بعد يوم فى العودة ، وامتد تأخيرهما إلى الغروب وما بعد الغروب . . ولكن ثورة الأم بدأت من جديد تزايد وتشتد ، كما بدأت سماحة الأب تنمو وعطفه يكرم ويرق .

ورأى عقال أن يتدخل فى الأمر بين زوجه هند وبين عفراء وعروة ، وأن يضع حداً لثورتها وما تجلبه من الأكدار بحق وبغير حق ، وحاول أن يجرب سلطانه على زوجته ففشل . . . إذ كان سلطان هند أقوى من سلطانه ، وشخصيتها أشد تماسكاً وتأثيراً ، فصبر على مضض ، وتماسك هادئاً دون أن يشعر نفسه بأنه مقهور ، أو أنه مرغم على شىء .

* * *

جلس عروة وعفراء يوماً فوق ربوة تشرف على المرعى والأغنام منتشرة فى جوانبه . . . جلسا وقد طال الصمت بينهما !!

فعروة تائه فى أفكاره وقد ارتسمت على ملامحه علائم

الاهتمام بأمر يخفيه ويحار فيه ، فما هو بمطمئن إليه اطمئنان المتفائل ، ولا هو معرض عنه إعراض اليائس المتشائم !!

ولمحت عفراء حيرته واهتمامه دون أن تحس حقيقة ما بذات نفسه ، وأرادت أن تستشف ما به على طريقتها كفتاة . . فصاحت به :

عروة . . ! أتذكر يوم الكبش ؟

فابتسم عروة وقال : آه . . ! ! رفيع ورفيعة ؟ وسكت !

قالت عفراء : لم تعد الشاة إلى الفرار عنا . . . ولم يعد الكبش يتبعها !

قال عروة : أتودين يا عفراء أن تعود الشاة إلى الفرار ؟

وأجابت عفراء : لا يا عروة ! ولكنى أود أن يمثلا أمامنا هذه الألفة التى شهدناها مرة فى هذا الوادى ، وأن أمثل أنا ربطها فى حجر حتى لا تفر . . .

و زاد عروة : وأن يأتى رفيع فيقف بجانبها . .!

وأطرقت عفراء لحظة ثم رفعت رأسها وقالت : لقد تعجبت جداً يا عروة بما حكيت لى عنهما ... كذلك تأثرت جداً بقصة الأشهل والشهلاء .

ثم نظرت إليه نظرة آسفة وصاحت : أتذكر يا عروة ؟

هاج هذا الحديث الصبيانى العميق فى نفس عروة بعض كوامنها ، ولكنه نشط وتيقظ ونظر إلى عفراء باهتمام وقال : هل تأثرت بقصة الأشهل والشهلاء يا عفراء ؟

وأجابت عفراء : أجل . . . ولكن . . . ولكن قل لى يا عروة !

وهل يعقل الفرس ويحس فيشرف على الهلاك حزناً على أليفته ؟

ـ قلت لك يا عفراء إننى سمعت هذه القصة من جارنا « الأرقط » وهو خبير بطباع الحيوان ، إن بعض الحيوان أدق إحساساً وأشد وفاء من الإنسان !

وسألت عفراء : وَهل يموت الإنسان حزناً على أليفته إذا ماتت ؟

أجاب عروة : أجل يا عفراء . . . بل إذا هجرته أو ابتعدت عنه !

فتعجبت عفراء واضطربت ثم قالت : ما أظن ذلك يا عروة . . . لقد سمعت منك ما رويت لى عن قصة الأشهل والشهلاء . . ولكننى لم أسمع منك أو من غيرك مثل هذا الكلام فى قصة إنسان !!

قال عروة : تستطيعين يا عفراء أن تسمعى كثيراً من القصص الواقعى الرائع ، لو سمحت لك أمك بالخروج ليلا والجلوس مع صبيان الحى وبناته فى ضوء القمر بباطن السفح مما يلى الدور .

فهناك تسمعين من بعض شيوخ الحى وقصاصه العجب العجاب من هذا القصص .

واهتمت عفراء ونظرت إلى عروة وقالت : بالله إلا ما قصصت على واحدة من هذا القصص ؟!

* * *

واتكأ عروة بمرفقه الأيمن على حجر كبير بجانبه وقال وهو يعبث بعصاه فى الرمال :

كنت فى السفح القريب من الرابية خلف الدور فى ليلة قمراء مع رفقائنا من الصبية والصبيان والرجال وبعض النساء ، وقد التففنا حول شيخ فزارى من شيوخ الحى على معرفة بأخبار السالفين ، وقد تعود هذا الشيخ الفزارى أن يقص على أهل الحى فى الليالى القمرية كثيراً من القصص الواقعى الذى شهده أو سمع به من غيره من الشيوخ المعمرين .

روى لنا الشيخ الفزارى فى هذه الليلة أن فتى من عرب الجاهلية يدعى « عمرو بن سعد » كان شجاعاً مقداماً تهابه الفرسان وتخافه الشجعان .

ومن شجاعته أنه قطع « وادى نجران » وكان كثير الأسود والنمرة ، فمر به فى طريقه أسد ونمر فنازلهما الواحد تلو الآخر حتى صرعهما وسلخ جلدهما وتلفع به ثم أقبل على قومه فسموه « المرقّش »

وقيل إنما سمى المرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما ... رقّش فى ظهر الأديم قلم

* * *

عاش المرقش هذا بجانب دار عمه « عوف بن سعد » فألف ابنته أسماء صغيرة ونما الود بينهما حتى صار إلى حب قوى .

وتقدم المرقش إلى عمه خاطباً « أسماء » ابنة عمه ... ولكن عمه راوغه وزفها إلى رجل آخر سخا فى المهر وبذل حتى بلغ مهرها ثلثمائة ناقة !!

وزفت أسماء إلى زوجها على جهل من المرقش وهو فى إحدى مغامراته فى الفيافى ، ولما حضر إلى الحى أخبره عمه أن أسماء قد ماتت وأراه قبرها مشيداً على عظام كبش مذبوح ! !

ودخلت الحيلة على المرقش فلزم قبر أسماء حتى ضنى وتغير حاله !!

وبينما المرقش يبكى على قبر أسماء إذ سمع غلاماً يقتتل مع الآخر على كعب معه يقول : إنها من عظام الكبش الذى دفن فى القبر وقيل لعمرو بن سعد : إنه قبر أسماء . . !

وعرف المرقش الخبر فجن جنونه واصطحب عبدين من عبيده وخرج يبغى أسماء !

وفى طريقه اشتد عليه المرض ولزمته الحمى فصار يهذى باسمها !

وأعرض عنه العبدان وتركاه بجانب غار كان يألفه راع من الرعاة . . وما زال الراعى به يسقيه الماء حتى عاد لرشده قليلا وتلفت حوله فلم يجد العبدين فأنشد :

يا صاحبيّ تلبثا لا تعجلا
إن الرواح رهين ألا تفعلا
يا راكباً إما عرضت فبلغنْ
أنس بن سعد إن لقيت وحرملا
لله دركما ودر أبيكما
لا يفلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الأقوام أن مرقشا
أضحى على الأتباع عبئاً مثقلا

وأنس بن سعد هذا وحرملة هما أخوا المرقش !

وكانت قافلة تمر بالطريق فسمعت شعر المرقش فحملته إلى أخويه . . وما إن بلغهما حتى قتلا العبدين وأسرعا إلى أخيهما . وما وصلا إليه حتى وجداه مريضاً وهو يردد هذه الأبيات :

سما نحوى خيال من سليمى
فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال
وأذكر أهلها وهمو بعيد
سكنّ ببلدة وسكنتُ أخرى
فقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويُخان عهدى
وما بالى أصاد ولا أصيد !

وصار يردد هذه الأبيات حتى شهق شهقة فمات فيها . . !

* * *

انتهى عروة من قصة الشيخ وسكت !!

ثم تطلع إلى وجه عفراء فوجده وجهاً آخر جديداً لم يره من قبل !!

لقد كان وجهها شاحباً ذابلا تنطق فيه ملامح الرعب والأسى !

وإن فى عينيها لعبرات ترقرق فى المآق يمسكها الخجل عن الانحدار !

وارتاع عروة لما رأى فى عفراء ؛ فسأل : عفراء . . . أأسأت إليك بهذه القصة يا ابنة عمى ؟

قالت عفراء : لا يا ابن عمى ! ما أسأت إلىّ فى شىء ! ولكن أمراً واحداً حيرنى ! وهو : لمَ امتنع عمه من تزويجه أسماء ؟

أجاب عروة : لعله لم يستطع إمهارها كما أمهرها الآخر !

وسألت عفراء : والمهر شىء يحسب حسابه بين الأقارب ؟

وأجاب عروة فى خفوت ومرارة : ربما يا عفراء !

وزادت عفراء : وشىء آخر يا عروة . . . ألم يكن بصاحبته من الوجد ما كان به ؟

وأجاب عروة : بلى يا عفراء !

لقد حدث الشيخ الفزارى أنها كان بها من الوجد ما كان به!

قالت عفراء : ولم تزوجت من غيره ؟

وابتسم عروة ابتسامة مريرة وأجاب : كان أمرها بيد أبيها الذى غالى فى المهر.واشتط فيه ، لقد أحب كل منهما صاحبه.. ولكنهما عاشا فى شقاء وحرمان . . . ثم أطرق لحظة وأنشد بعدها :

وما فى الأرض أشقى من محب | وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً أبداً حزينـــاً | مخافة فرقة ، أو لاشتيـــاق
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم | ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى | وتسخن عينه عند التلاقى

ثم نظر إلى عفراء وقال : كان المرقش يردد كثيراً هذين البيتين :

أغالبك القلبُ اللجـــوج صبابةً
وشوقاً إلى « أسماء » أم أنت غالبه ؟
يهيم ولا يعبـــأ بأسماء قلبُـــه
كذاك الهوى ، أمرازه وعواقبـــه

لَيَالِي الأرق . . . ! !

تكلم فتيان الحى وفتياته فى عروة وعفراء ، وتهامس الناس بأمرهما ، وأصبح الحديث عنهما سمراً للفتيان والفتيات والكهول والعجائز ، ولكن فى صورة همس وحذر وتطلع للحقيقة .

فهذا فتى يقول : إنهما يتأخران فى المرعى كثيراً ، ويتجنبان الحديث مع الرعاة !

وهذا آخر يقول : لقد ضلت بعض أغنامهما فكانت طعماً للذئاب !

وقال ثالث : لقد عرجت عليهما بغنمى ظهيرة يوم ومعى « رباب » وليلى فكانا منهمكين فى الحديث ، فلما رأيانا كفا عنه وتغير وجه كل منهما فكأنما كانا يتكلمان فى سرّ يكتمانه عن الناس .

وقالت امرأة من نساء الحىّ :

سمعت من بعض جيراننا أن أم عفراء كثيراً ما يشتجر الخلاف بينها وبين زوجها عقال بسبب عروة بن أخيه !

هكذا كانت حال عروة وعفراء بين سكان الحى ، وهكذا أصبح القوم يجعلونهما موضعاً لأحاديثهم ومتعة لأسمارهم !

* * *

على أن الأرق الذى دهم عروة منذ ليلة القافلة لم يزل يعاوده فى كثير من الليالى . ولكنه كان يخفيه ويتظاهر بالنوم ، أو يدفق النظر فى النجوم التى كان يلمحها من خلال كوة صغيرة فى الجدار ، أو من فروج ضيقة فى جوانب السقف .

وما كانت لتهدأ نفسه أو يسكن خاطره حتى يسمع « أبا الفداء » يرتل القرآن . . وبعده الهلالى ينادى : « الصلاة خير من النوم !! »

* * *

لقد استطاع عروة أن يخفى قلقه وأرقه عن أهل الدار زمناً طويلا .

أما الآن . . وقد هاجت مواجعه ونفد صبره فهو مضطر إلى أن يصحوَ فى ظلام الليل فيدخل الحظيرة ، أو يطوف فيما حول الدار ، أو يعرج على أبى الفداء فيجلس بجانبه ، أو يميل إلى الهلالى فيعتلى الجدار القصير بجانبه ، أو لا تتفتح نفسه لا إلى هذا ولا إلى ذاك فينحدر نحو الوادى ، ولكنه لا يتوغل فيه . . . فيقضى فيه بقية ليله ثم يعود إلى الدار مع ضباب الفجر وقد بلله الندى وعلق برجليه الحافيتين كثير من الحصى والتراب . . !

وتنبهت امرأة عمه مراراً إلى أرقه ويقظته فى الليل ، فكانت أحياناً تناديه فى سخط ولعنة !!

وأحياناً تتجاهل ما هو فيه فتغمض عينيها بعدما تحتضن

عفراء بجانبها وتعصرها بين ذراعيها القويتين . . وهيهات أن تنام حتى الصباح !

وأما عمه عقال فإنه بدأ كذلك يحس قلق ابن أخيه . . لقد تنبه إلى أرقه وخروجه وكثرة حركاته فى الدار وتطوافه حواليها فما تدخل فى شأنه ، وما حاول أن يستفسر عما يقض مضجعه أو يقلق باله !

إن عمه يحس ويدرك ما بنفسه منذ أمد بعيد . . ولكنه مسلوب العون ، فاقد المساعدة . . أو قل إنه عاجز عن كليهما فسكت . . . سكت على عطف عليه ، وعلى مضض فى نفسه إلى أن تقضى الأقدار بما تريد !!

* * *

ولكن خطراً جديداً بدأ يلوح بوجهه المربد . . وراح يتحفز للوثوب . . !

ذلك أن حمى الأرق قد أصابت كذلك عفراء . . . فهى تتيقظ فى ظلام الليل قبل أن يؤذن الهلالى . . وقبل أن يقرأ أبو الفداء . . وهى تتيقظ حين يتيقظ عروة ! وعبثاً تحاول أن يطبق النوم أجفانها حتى الصباح ! وإنها لتتحامل على نفسها أن تنام فلا تستطيع . . وإنها لتغطى رأسها وتجمع أعضاءها فلا تستطيع . . وكان أشد ما تهتم به فى حرص وحذر ألا تشعر أمها بهذا الأرق وهى بجانبها وذراعاها تطوقان جيدها المسكين !

وكثيراً ما كتمت أنفاسها الملتهبة حتى لا تلفح وجه أمها

بحرارتها فتصحو .

وكثيراً ما وضعت يديها على صدرها لتهدئ من ارتفاعه وهبوطه وتسكن من شدة خفقانه حتى لا تشعر أمها بما هى فيه من ضيق غير معهود !

وإنها لتحاول حين يعتريها هذا الاضطراب أن تكتم أنفاسها فى مرارة ومقاساة حتى يضيق صدرها عن الكتمان فيثور ويخفق كجناح الطائر يصعد فى الخفق والاضطراب .

* * *

كان ما تقاسيه عفراء من هذا الأرق أقسى وآلم مما يلاقيه عروة ، فهو يستطيع التفريج عن نفسه بالقيام والحركة والخروج إلى الخلاء حيث يخفف عنها ما كربها بعيداً عن أعين الرقباء !

أما هى فالويل لها . . ! إنها سجينة الذراعين ، رهينة المضجع الأمين ، فلا عزاء ولا تفريج ، ولا قيام ولا قعود . ولا خروج ولا دخول ، بل لا حركة نابية يشتم منها رائحة القلق المباح . . !

وخطر لعفراء أن تتجاهر بالقلق الذى اعتراها ، وأن تسرّى عن نفسها بالحركة والقعود بجانب أمها وهى نائمة .

فلا تثريب عليها إذن أن تدعى المرض أو الحمى ليلة أو بعض ليال . . . وسرعان ما نفذت هذا الخاطر فى ليلة طالت وطالت حتى ظن أن صباحها قد مات !!

وصادف نهوضها من فراشها وإنضاء الغطاء عنها وقعودها

بجانب أمها أن تيقظ عروة فى تلك الأثناء ، وسمع لأقدامه وقع وهو يغلق وراءه باب حظيرة الأغنام فاهتزت أوصالها وارتجفت رجفة شديدة أيقظت أمها فهبت مذعورة من نومها تتحسس ابنتها فإذا هى جالسة بجوارها فصاحت بها : ما بك يا عفراء ؟ ما بك يا ابنتى ؟

قالت عفراء : حمّى شديدة يا أماه منعتنى النوم ، وكثيراً ما تزورنى فى مثل هذا الوقت من ليال مضت !

وتحسست أمها جبهتها فما وجدت أثراً للحمى ، وإنما أحست ببرودة المقرور فلفعتها بحزامها الصوفى ، واحتضنتها ودفعت بها تحت الغطاء وهى تقول : ما بك حمى يا ابنتى .. نامى يا ابنتى فإن بك حاجة إلى النوم والراحة بضعة أيام داخل الدار ... وعلى عروة وحده أن يذهب إلى المرعى حتى يمنحك الله الشفاء ... قالت هذا وهى تضمها إلى صدرها وتمسح على شعرها بيديها فى رفق وحنان . . !

سمعت عفراء كلام أمها فعلا صدرها وهبط . . ثم همست بينها وبين نفسها : ما نفعتنى الحمى . . وإنما جنت علىّ !

ولم يغتمض للأم جفن وعفراء بين ذراعيها تنتفض كالمحمومة حتى سُمع وقع أقدام بساحة الدار . . . فصاحت الأم فى غضب : عفريت لا ينام الليل ...!! شيطان يدخل ويخرج فلا تستقر قدماه . . !

وسمع عروة هذا الصياح الغاضب فتشجع وقال فى أناة

واضحة : ما أنا بعفريت أو شيطان . . . إنما أنا عروة يا أماه . . !

فردت هند بصوت خافت : ارقدْ لا صبّحك الله . . !

* * *

أصبح الصباح وأشرقت شمسه حارة زاهية ، وتيقظت عفراء منهوكة ذابلة ، ولكنها تحاملت على نفسها فهبت تصطنع النشاط والقوة ، وكان أول ما صنعت أن غسلت وجهها ويديها فى سرعة ظاهرة ، ثم اقتحمت حظيرة الأغنام توقظ هذه وتركل برجلها تلك . . وهبت حركة بين الأغنام تنبهت لها أم عفراء وهى أمام القدر تفرك العجين فيها بمفرك خشبى تحضيراً لقدر من العصيد الساخن للإفطار . . ! ودخلت هند حظيرة الأغنام فرأت عفراء جادة فى حلب الحليب ، ولمحت عروة واقفاً بالباب ينتظرها استعداداً للذهاب إلى المرعى الحبيب !! ولكن هند منعت عفراء من الخروج إلى المرعى ، ثم سحبتها من يدها ودفعت بها فى فراشها وهى تقول : نامى يا عفراء . . . فإن بك لحاجة إلى النوم !! وخرج عروة وحده إلى المرعى وفى صدره زفرات من الحزن العميق !

* * *

قدمت هند إلى زوجها عقال وقد أدى فريضة الصباح قصعة من العصيد الساخن يتصاعد منها الدخان ، فما نظر عقال إلى القصعة وقد وضعت أمامه على الأرض حتى قال :

لو عروة وعفراء معنا ؟ وردت هند فى تخابث : إن عفراء مريضة . . أما عروة فقد خرج وحده إلى المرعى الحبيب ! . . إن ابنتك ليس لها صبر على المرعى . . ! إنها تحب المرعى أكثر من هذا العصيد ولو مزج بعسل النحل ولبن العصافير . .

واستنكر عقال من زوجه هذه اللهجة الساخرة فقال :

ما تعنين ياهند؟ قالت هند فى نبرة تمازجها الخيبة والأسى :

أعنى أن عفراء ابنتك مريضة بسبب الخروج إلى المرعى !

وأعنى أنها ودت لو تخرج إلى المرعى فى دامس الظلام !!

وتوقف الرجل عن الطعام وقال فى نغمة المستفهم . . . وهو يدرك ما تعنى !!

كلام جديد يا امرأتى !!

وردت هند : لا جديد ولا قديم !

إن عروة ابن أخيك يقلق راحتنا كل ليلة . فهو كالشيطان الذى لا ينام ، أو كالعفريت الذى يطوف بالناس وهم هجود فيفسد عليهم منامهم !

إنه لا ينام الليل إلا غراراً . . . وإنه ليصحو والظلام مخيم على الحى كله فيطوف هنا وهناك ماراً بكل دار وكل خباء ، وقد ينتهى به المطاف إلى المسلك المؤدى إلى الوادى القريب . . ولقد كان تيقظه هكذا كل ليلة سبباً فى صياح الديكة ونباح الكلاب قبل أن يسفر الفجر أو تطل علينا تباشير الصباح .

* * *

ولقد سمعت من جارتنا أم الزرقاء أن عروة كثيراً ما يجلس إلى أبي الفداء، أو يقف بجانب الهلالى وهو يؤذن لصلاة الفجر.

وإن الحى كله ليتساءل : ما بهذا الفتى ؟

وأطرقت هند لحظة . . ثم رفعت رأسها وقالت : يا عقال : لقد سمعت من أم النصر زوجة صديقك المخزومى أن بعروة طائفاً من الشعر يوقظه كل ليلة حيث يتيقظ . . . وحيث تحس به أنت . . وأحس به أنا . . .

وأن هذا الطائف أو هذا الشيطان كما يسميه الشعراء ركبه منذ ليلة القافلة ، ومنذ أن سمع حداء الحادى وهو يغنى غناءه الذى حفظته عفراء عن ظهر قلب . . .

فإن كان حقًّا أن ما به هو شيطان الشعر فإليه عنا فما نستطيع معاشرة الشياطين .

وإن كان ما به حنيناً أو نزعة إلى الآذان والصلاة فإليه الهلالى وأبا الفداء .

على أن النكبة ليست فيما عليه ابن أخيك هذا . . وإنما النكبة أن يصيب مرضه هذا ابنتك عفراء . . .

وتفزع عقال وحملق فى زوجته وصاح : أى مرض يا هند؟

قالت هند : أجل لقد أصبحت عفراء مريضة كابن أخيك . . فهى تأرق مثلما يأرق . . وتصحو حيث يصحو . . . وما أظن شيئاً يمنعها من الطواف ليلا حيث يطوف لو لم تكن بجانبى . . ولولا أن بها كثيراً من الحياء والحذر والفطنة إلى

ما يجوز أو ما لا يجوز .

لقد غالبتها الحمى كما تدعى ليلة أمس . . وما كان بها حمى أو ما يشبه الحمى . . وإنما كان بها قلق واضطراب ، لا أكون مبالغة إذا قلت لك : إنه أول مرحلة من مراحل الخطورة التى تنتظرنا من ألفة هذين الصبيين إذا لم نتوقها بالعمل الحاسم والدواء السريع !!

وإن من شهد عفراء ليلة أمس لا يتصور أن تطلع عليها شمس النهار . . .

وإن من شهدها هذا الصباح لا يتصور أنها كانت بين أحضانى ليلا كالطائر الذبيح . . !

فإليك يا رجل ما ذكرته لك ! وحذار أن تأخذك الشفقة بابنتك وابن أخيك فما فى تآلفهما لنا من خير .

* * *

وسكتت هند وأطرقت ، بينما عقال يتحسس عمامته آناً . . ويمسك بلحيته آنا آخر . . وكأن كلاماً يرقص على شفتيه ثم يقف جامداً متخاذلا . . . أو كأن بصدره جموعاً هائلة من الأحاسيس المتناقضة تتزاحم فيه وتتصارع ولكنها لا تجد منفذاً إلى الخلاء !

الرجل طيب القلب ، نقى السريرة ، لا يؤثر ابنته بحب أكثر مما يؤثر به ابن أخيه .

ولكنّ عروة على حب عمه إياه ليس معقد الآمال



لابنته .. فأمها لا تستريح إليه وهو لا يستطيع إغضابها ، وهو فوق هذا وذاك معسر وبينه وبين اليسار أمد بعيد !!

وإن امرأته هند لعلى كثير من الصواب أن تحسم الداء قبل وقوعه .

وإنه هو نفسه ليحس ما أحست به هند ويدركه كل الإدراك . . ولكن ليس له حيلة فى الأمر .

فعروة ابن أخيه . . وهو يتيم ، وهو مطيع مهذب وفيه من شيم المروءة والوفاء ما يستحق به الحرص والإعزاز .

وتاه عقال فى أفكاره العاصفة ، ورأى أنه لن ينتهى فى هذه الأفكار إلى أمر قاطع فهبّ من مجلسه قاصداً صديقه المخزومى بينما انصرفت هند إلى بعض شئونها فى الدار .

وفى أمسية هذا اليوم عادت جماعات الرعاة بأغنامهم وهم يرددون أغنية الرعاة :

هنا الوادى ، هنا الوادى — هنا الأغنام منسابه
وفيها الشارف الجبلى — وفيها كل حلاّبه
نعود بها مع الشمس — ويدخل كلنا بابه
وعروة وحده يرعى — بعيداً مل أترابه
وما تنفك عفراء — عليه جد غلاّبه
حنانك يا ابنة العم — وردى عنه أوصابه

وسمعت هند غناء الرعاة فصرخت فى فزع :

آه . . . وقع المحظور . . !

فى المرعى البغيض . . !

انتهى الأمر ووقع المحظور كما قالت هند .

وعرف سكان الحى وما وراء الحى ما بين عروة وعفراء ، وأصبح حتما أن تحجز عفراء فى الدار ، وأن يخرج عروة وحده إلى المرعى !

وكانت هند على حق فيما صنعت . . . فعفراء الآن فى سن التفتح لاستقبال الحياة ، وهى فتاة ليست عادية المظهر والنضج .

فهى فرعاء هيفاء ، قد دق خصرها ونحل ، وارتفع صدرها ونهد ، ذات شعر طويل فاحم يتدلى إلى ما تحت خصرها ، ولها جيد طويل شفاف يغرى بالفتنة ، ووجه ما بين البياض والسمرة ، تتوسطه عينان نجلاوان فيهما تعبير وحلاوة ، تعلوهما أهداب طويلة مرتخية إلى أعلى خديها الناعمين الصغيرين !

أما فمها فدقيق أنيق يفتر عن أسنان بيضاء منسقة النظام والترتيب .

وشفتاها قرمزيتان نابضتان بالدفء والاختلاج !

وهى فوق هذا وذاك جمة الحياء ، شديدة التوقى ، فى حديثها عذوبة وطلاوة ، وفى شخصيتها جاذبية وقوة ، تعرفها بنات الحى بالتفوق والامتياز ، ويقر لها الجميع بسماحة الطبع وندرة العفاف . . !

وأما عروة فقد بدأ يضع قدميه فى أول مراحل الشباب . . . فهو فتى متوسط القامة ، نحيل البدن ، ضيق المنكبين دقيق الساعدين ، ليس فى صدره من السعة والقوة ما يكون فى صدر أمثاله من الشباب !

له وجه أسمر ، دقيق الملامح ، حاد النظرات ، وكل ما وهبه الله من قوة إنما هو فى روحه وقلبه . . تعبر عنها عيناه المعبرتان ، وجبهته العريضة ،ونظراته العميقة الناطقة بدقة الحس ورقة الشعور . . !

وهو فوق هذا وذاك هادئ المظهر ، لين الجانب ، حلو المعاشرة ، شيق الحديث ، مرهوب الشخصية ، ليس فيه شىء من خشونة البداوة ، وجلافتها ، وإنما تغلب عليه الرقة والحنان والعذوبة التى لا تشوبها الليونة أو الضعف . . !

فتاة هذا شأنها . . وشاعر رقيق كعروة كان لابد أن يقع بينهما من العلاقة الوجدانية ما وقع وقد امتزجا وائتلفا صغيرين .
لهذا أصرت هند أن تحجز ابنتها الشابة الحسناء عن الخروج إلى المرعى ، وأن يعهد إلى عروة وحده رعىُ الأغنام !

* * *

كان على عروة أن يطيع مرغماً وقد وصل أمره مع عفراء إلى ما وصل من التشهير فى نشيد الرعاة . .!وكان عليه أن يتظاهر بالقوة والرضاء أمام عمه وزوجته برغم ما كان بنفسه من الحزن والألم العميق .

وها هو ذا يخرج بالأغنام وحده ذات صباح إلى المرعى فلا يحس فى الصباح الجميل ما كان يحسه من روعة وفتنة ، ولا يشعر بالشمس الوهاجة المشرقة كما كان يشعر بها من ذى قبل .

وإنها لتشرق بأشعتها الذهبية على قلبه المظلم الكئيب فلا يحس فى إشراقها إشراقة من الرجاء !

ويراه زملاؤه الرعاة فيتهامسون ويزمون شفاههم على ابتسامات ساخرة فيها كثير من التشفى ، وفيها كثير من العزاء والرثاء .

ويصل عروة إلى المرعى وقد نسى غداءه من التمر الجاف وخبز الشعير فما له إليه الآن حاجة . . ويمسك بغصن الزيتون وحده فيلثمه لثمات حارة مشبوبة . . . ويتحسس فيه موضع يد عفراء فيمر به على قلبه ويود لو غرزه فى صدره فيخفيه فى قلبه الحزين .

وهذه أشجار الزيتون . . . ما بالها اليوم واجمة كابية ؟ وأين الحمامات البيضاء ؟

ما بالها هجرت أغصانها لتحط على رءوس التلال من بعيد ؟

وهذه البئر الروية العذبة . . . إنها لم تعد فى نفسه بئراً لا روية ولا عذبة . . . وإنما هى حفرة مظلمة كأنها قبر آماله وأحلامه . .

وهذا السفح المنبسط الطرى ... ما باله اليوم مشوهاً كئيباً ؟

لقد وقف فيه يوم المطر فألقى بردائه على رأس عفراء . . . إنه ليذكر كل هذا فينتفض انتفاضة المحموم . . . ثم يمسك بردائه فيقبله ويحملق فيه بعينين ذاهلتين ، ويشمه بأنفه فتنهل عيناه !

ويمدّ بصره فى الفضاء مدًّا فيرى التل . . . ذلك التل الحبيب وقد جلس فوقه وعفراء بجانبه ليقص عليها قصة المرقش . . . ينظر إلى التل فيجرى إليه . . ثم يصعده فى تراخ وفتور . . . ويدور ببصره فيه فيرى الحجر الذى اتكأ عليه بمرفقه الأيمن فينكفئ عليه ليقبله ثم يقف أمامه مخاطباً :

أيها الحجر الذى لا يرى ولا يحس . . أستغفر الله . . إنك لترى وتحس . . . وإلا ما بقيت وحدك تنتظرنى وحدى فى هذا المكان :

فى جوارك أيها الحجر سمعت أول هاتف بالسعادة من فم عفراء .

وفى جوارك أيها الحجر قصصت عليها أول قصة من قصص الحرمان .

وفى جوارك أيها الحجر سمعت منها ما ينم عن شعورها ، وشهدت فى ملامحها ما تكتمه فى قلبها عنى وما وددت لو يكتمه حتى الممات .

ترى ؟ أكانت قصة المرقش إرهاصاً بقصتنا ؟ وإلا فما بالها وقد أتيت على نهايتها يربد وجهها وتطرق ، ثم تبادرنى بسيل

من الأسئلة لم تطرق لى على بال ؟

إنى لأذكر أسئلتها وهى واجمة حزينة :

أكان بها من الوجد ما كان به ؟ لم يشتط عمه فى المهر ؟ وهل المهر شيء يحسب له حساب بين الأقرباء ؟ الآن فقط فهمت . . . فهمت وأدركت ما كانت تعنيه عفراء !

فويلى عليها . . وويلى على نفسى لو سخرت بنا الأقدار وراح ينشد :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
ومالىَ يا عفراء عنك مسالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وهكذا ظل عروة يناجى كل حجر ، ويخاطب كل صخر ، ويقف عند كل بقعة فى الوادى وطئتها قدم عفراء . ويرمى بنظره إلى الأغنام فإذا هى مجتمعة فى بقعة منخفضة قريبة منه ، وقد التصقت كل منها بأختها . ومدت رؤوسها فى الفضاء . . . وسلطت أنوفها للرياح . . . وأصاخت بآذانها فى صمت طويل كأنها تتسمع فى الرياح إلى سر مجهول . . !

* * *

وهكذا عاش عروة وحيداً موحشاً بعد عفراء ، فما شيء هناك يسليه ، وما عاد يتأخر فى المرعى كعادته ، فهو يرجع بالأغنام مع الظهيرة ، ولا يخرج بها من الدار إلا بعد شروق

الشمس، وما عاد يأرق فى ليله ، أو يخرج فيه ليطوف بالحى كما كان ... وما عاد يترقب صياح الديكة أو أذان الفجر أو قراءة القرآن . . . فالنهار لديه بغيض ... والليل لديه حبيب أى حبيب !!

وما عاد يكره الدار كما كان ، وإنه ليحبها كل الحب وإن كان لا يستقر فيها طويلا .. ولكنها مستقر عفراء ليلا ونهاراً ، فهو يراها حين يعود بالأغنام ... ويراها وهم يطعمون الطعام . . ويراها وهى تحلب الأغنام وتجهز العصيد ، وتخبز الخبز وتغزل الصوف بعد الفراغ من شئون الدار..فالدار الآن هى حبيبه ومهبط آماله،والمرعى عدوه ومثار يأسه وأحزانه.

ولقد فطنت امرأة عمه إلى تغير حاله فى الدار والمرعى وفى الليل والنهار فقالت لعمه على مسمع منه :

لقد شفى عروة من شيطان الشعر كما يدعون فأراحنا من أرقه . . وما عاد يحن إلى الهلالى وأبى الفداء . . . ! و . . .

وفهم عمه ما تعنيه امرأته فسكت وأطرق ... أما عروة فقد أشاح بوجهه عنهما وانصرف .

* * *

ولم يكن حزن عفراء وقد انقطعت عن المرعى بأقل من حزن عروة . . . فهى دائماً قلقة مضطربة . . فما تحين الظهيرة حتى يرتفع صدرها وينخفض وتكثر حركاتها داخل الدار فى غير نظام .

وإنها لتكثر من الدخول فى حظيرة الأغنام وهى خالية منها وما ذاك إلا لأن بها باباً يطل على أول مسلك من المسالك النحيفة المؤدية إلى الوادى .

فهى تترقب منه عودة عروة بالأغنام . . . وهى تستحث الوقت فى اضطراب ظاهر وتأفف مكتوم . . . حتى إذا أطل عروة بأغنامه من نهاية المسلك اشرأبت إليه بقلبها ، وتطاولت إليه بجسمها وعينيها النافذتين وما إن يدخل الحظيرة حتى يسكن ثائرها ويعود إلى قلبها فرحة الأمن وإلى وجهها نضرة الحياة !

* * *

دخل عروة الدار بأغنامه فى يوم كئيب .. فما إن رأى عفراء حتى لوح لها بعصاه — أن انتظرى !

وما إن دخلت الأغنام حتى نظرت عفراء إلى عروة وسألته فى لهفة : ما بك يا عروة ؟ ونظر إليها عروة مستفهماً : أجديداً ترين يا عفراء ؟

وأجابت عفراء : أجل يا عروة ! فإن وجهك معفر بالتراب فوق ما به من شحوب واكتئاب !

قال عروة : حلم رهيب أزعجنى يا عفراء وسوف أقصه عليك !

جلس عروة فوق جذع جاف من جذوع النخيل فى مدخل الحظيرة ووقفت عفراء بجانبه تستمع إليه وهو يقول : كنت وحدى على الربوة التى جلسنا فوقها يوم أن قصصت

عليك قصة المرقش .

أتذكرين يا عفراء ؟ أجل يا عروة . . قل وأسرع . . !

وما هي إلا أن أخذتني سنة من النوم رأيت فيها حلماً عجيباً!

رأيت الكبش رفيع يدور فى الوادى على غير هدى وهو يمأمئ فى صوت كالذبيح . . . فجريت إليه لأتبين الخبر .. فإذا بى لا أرى الشاة رفيعة بين الأغنام .. فأصخت بأذنى هنا وهناك فسمعت ما يشبه الشخير والحشرجة فجريت نحو الصوت والكبش يجرى ورائى فى مسرب ضيق مظلم حتى ارتطمت بذئب ضخم ينهش بأنيابه فى عنقها .. وما كان لى حيلة إلا أن أرجمه بالحجارة ففر الذئب هارباً ... ثم تقدمت إلى رفيعة أجرها فإذا جسمها ينتفض، وإذا هى تلفظ آخر أنفاس الحياة .. فوقفت بجانبها حزيناً وإذا الكبش رفيع يتقدم إليها فيشم جسمها وعنقها حتى تلطخ أنفه بالدماء .. !

ثم صحوت يا عفراء من هذا الحلم المخيف على أصوات الرعاة وهم ينشدون أغنية الرعاة . . !

وتفزعت عفراء وامتقع لونها وقالت : وتركتها يا عروة فى المسرب؟

قال عروة : لا ياعفراء . . . هذا حلم . . ! وتلك رفيعة وبجانبها رفيع بين الأغنام !

والتفتت إليهما عفراء فى حزن صامت ثم اندفعت إلى داخل الدار .

* * *

كان عروة يقضى لياليه فى ظاهر الحى مع الشبان يسمر معهم على كره منه ، أو يستمع مع المستمعين إلى القصاص من الشيوخ ولا سيما الشيخ « الفزارى » وهو متحدث ثقة له علم بأحوال العرب وأخبارهم .

وكم ودّ عروة أن تصحبه عفراء فى الليالى القمرية ... وكم ودّت عفراء كما ودّ ، ولكن ما لهما إلى ذلك من سبيل .

ويشاء حسن الصدف أن كان سكان الحى يحتفلون فى هذه الأيام ببعض أعيادهم ، فيقيمون « الدّحية » وهى إحدى رقصات البدو فى الليالى الظلماء !

وفى تلك الأعياد يخرج الشبان والفتيات العذارى إلى ظاهر الحى فيقيمون حلقات دائرية ترقص فيها الفتيات بينما يكون الشبان ملتفين حول الدائرة يغنون ويصفقون بأيديهم على نغمات الغناء حتى أول خيوط الضوء مع طلائع الفجر .

وكان من تقاليد العرب أن ترقص الفتيات وهن محجبات حتى لا يعرفهن الشبان !

وكان مباحاً للفتيات أن يشتركن فى حفلات الرقص دون تحرز أو استئذان من أهلهن . . . كما جرت العادة أن يسمح لأية راقصة من الفتيات أن تلقى بمنديلها على الشاب الذى تختاره !

وكثيراً ما كانت تلك الحفلات سبباً فى إقامة العلاقات الزوجية بين الفتاة وبين الشاب الذى اختارته فألقت عليه

بمنديلها أثناء الرقص . . . وفى حالك الظلام . . !

* * *

لقد كانت هذه الأعياد فرصة سانحة تخرج فيها عفراء إلى حفلات الرقص بعلم من أبيها وأمها فتلتقى بعروة خارج الدار... وما كان بهما حاجة إلى الرقص أو الغناء أو إلقاء المناديل ..!

وإنما كانا ينتحيان جانباً فى ظاهر الحى يتحدثان ما شاء لهما الحديث .

وودت عفراء فى إحدى الليالى أن تستمع إلى أقاصيص « الفزارى » فسألت عروة فى ذلك . . . ولكن عروة تململ واضطرب . . . فسألته عفراء : ما بك يا عروة ؟

فأجاب عروة : كفانا ما قاسيناه من قصة الفزارى عن المرقش !!

قالت عفراء : هذه قصة قصصتها أنت عنه ! فما علينا لو استمعنا إلى غيرها من « الفزارى » فقد يكون فيها ما نستبشر به . . . هيا يا عروة هيا . . . ولا تكن متشائماً . . !

ومضى عروة وعفراء إلى حيث الفزارى وقد تربع على الأرض والتف السمّاع حوله . . وما إن رأى القوم عروة وعفراء حتى رحبوا وتعجبوا . . .

ثم جلسا مع الجالسين حيث بدأ الشيخ حديثه قال :

* * *

كان عبد الله بن عجلان فارساً وشاعراً مفلقاً من شعراء

الجاهلية القريبة من الإسلام .

خرج يوماً إلى شعب من شعاب نجد ينشد ضالة له ! فشارف ماء يقال له « غسان » وكانت بنات العرب يقصدنه فيخلعن ملابسهن ويغتسلن فيه .

فلما علا ربوة تشرف على الماء راح ينظر إليهن وقد خرجن جميعاً وانصرفن إلا واحدة منهن فإنها بقيت شبه عارية . . . تمشط شعرها وتسبله على بدنها . . . !

وكان عبد الله يراها ولا تراه ، فذهل من بياض جسمها فى خلال شعرها الأسود .. ثم علق بها شوقاً حتى ما استطاع أن يركب راحلته ، وفى ذلك يقول :

لقد كنت ذا بأس شديد وهمة
إذا شئت لمساً للثريا لمستها
أتتنى سهام من لحاظ فأرشقت
بقلبى ، ولو أستطيع رداً رددتها

وكانت حبيبته تلك هى « هند بنت كعب » .

فلما رآها قال : هذه والله الضالة التى لا ترد ، ثم عاد وقد تمكن الهوى منه فأخبر صديقاً له بهذا . .

فقال له صديقه : اكتم ما بك . . . واخطبها إلى أبيها فإنه يزوجك . . . وإن أشهرت عشقها فى الشعر حرمتها . . !

وهنا تفزعت عفراء وسألت عروة فى همس : ونشيد الرعاة ؟! فربت عروة على كتفها ولم يجب ، واستمرا يستمعان !

قال الشيخ : وخطب عبد الله « هند » إلى أبيها فأجاب : فتزوجا ، وفرحا معاً وطاب لهما العيش !

ولكن الوشاة — أخزاهم الله — سعوْا بين أبيها وأبيه فوقع العداء بينهما وأرغم عبد الله على طلاقها ولم يكن أنجب منها .. وفى ذلك يقول :

طلقت هنداً طائعاً فندمت بعـــد فراقها
فالعين يذرف دمعهـــا كالدّر من آماقها
خوْد رَدَاحٌ طفلـــة ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألـــذّ حديثهـــا وأسرّ عند عناقهـــا

* * *

وخطب هند رجل آخر فتزوجها ودخل بها . . . أما عبد الله فقد أنهكه الحب حتى مرض وساءت حاله ، فأتوا له بعجوز تضرب الحصى فما إن رأته حتى صاحت : هذا — والله — عاشق !!

اذبحوا له شاة وأطعموه قلبها . . فقدموا له قلب الشاة فأكل منه وما برئ فقال :

أما لشاتكم هذه قلب ؟ ومن شعره فى هند وهو مريض :

قد طال شوقى وعاد لى طربى من ذكر خود كريمة الحسب

وقوله :

خليلى زورا قبل شحط النوى هندا
ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا

غداً يكثر الباكون منا ومنــكمو
وتزداد داری من دیارکمُ بعــدا

وظل عبد الله فى رقدته ، فلا طب داواه ، ولا سحر شفاه ، حتى مات ! !

وما انتهى الشيخ من حديثه حتى انصرف عروة بعفراء إلى الدار وهو يقول :

أولها حلو ، وآخرها مر ، رحمه الله !

ليلة اللقاء . . . !

ظل عروة يرعى الأغنام وحده فى الوادى من الصباح إلى الظهيرة وهمه يزداد يوماً بعد يوم . وتعلقه بعفراء ينمو بقلبه ويتأصل .

لقد أحس بقلبه — وقلب المحب صادق — أن ثمة شيئاً ينتظره . . . شيئاً يتخوف منه أكثر مما يستبشر به فأصبح صدره مرتعاً للوساوس والأوهام . . . فتارة يحس بالتفاؤل فيبسم وتنفتح نفسه وتنبسط أسارير وجهه وتنبض كل جارحة فيه للحياة .

وآناً يطغى عليه اليأس فينقبض ويتجهم وينطوى على نفسه فلا يجد من سلوى غير قول الشعر ومناجاة عفراء .

لقد طاف فى المرعى فناجى كل ربوة ، وتحدث إلى كل تل ، ووقف أمام كل منبسط ودار حول البئر وقبل أحجاره ، وجلس تحت ظلال الزيتون فخاطبها واستلهم أسرارها وسبحت نفسه فى ظلالها .

نظر عروة إلى تل كان قد جلس فوقه هو وعفراء فأنشد :

يا أيهـــا التل الحبيب　　حدث عن العهد الخصيب
وابعث لعفـــراء التحيـ　　ـة من بعيد أو قريب
أو قـــل لعفراء التى　　أذكت بمهجتى اللهيب
إن ابن عمك مـــدنف　　صبٌ بوحدته غريب

هكذا كانت حال عروة فى المرعى حين كان يرعى الأغنام وحده ، فما كان يعزيه فى وحدته إلا نفثاته الشعرية التى كان يتفجر بها قلبه كلما طافت به الذكرى أو هاجت مواجعه ما فى الوادى من ذكريات الطفولة السعيدة .

ولقد كانت الساعات التى يقضيها ليلا مع عفراء بعضاً من هذا العزاء .

قابلته فى إحدى ليالى « الدّجية » فلم يقصدا إلى استماع القصص من القصاص ، وإنما انسربا بعيداً عن الحى فى طريق ضيقة مؤدية إلى الوادى . تحفها من الجانبين بعض الكثبان الرملية الصغيرة ، وعلى كثب من الكثبان جلسا يتحدثان .

* * *

قال عروة وقد انتعشت نفسه : الليل يا عفراء جميل . . ووحدتنا هنا أجمل !

قالت عفراء : أجل يا عروة . . . لو دام الليل . . أو دامت الوحدة !

وتفزع عروة وصاح : ما تعنين يا عفراء ؟

قالت عفراء : أعنى أن هذه الساعات لن تدوم لنا طويلا ، وأن هذه الوحدة هى اختلاس من الزمان .

واطمأن عروة إلى هذا الشعور فى نفسها وإن كان قد أحس فيه بعض ما يحسه هو أحياناً من كدر يشوبه ، ولكنه

تفاءل وقال : ستدوم لنا السعادة يا عفراء ما دام قلبك لى !

ونظرت إليه عفراء .. وطالت نظراتها بينما عروة حالم فى نشوة حلوة طويلة لم يتيقظ منها إلا على صوت عفراء تقول : خير لنا يا عروة أن نعود إلى الدار !! .

فحسبي ما ألاقيه من أمى بسببك ؟ ! وحسبي ما ألاقيه من صويحباتى فيما يبدين أمامى من حديث مبهم وإشارات بعيدة . إشارات أنا أدرك مغزاها وأتجاهلها !

وإن أشدهن اهتماماً بما بيننا هى « الزرقاء » !!

وصاح عروة : ذكرتنى يا عفراء ! وأستغفر الله إن كنت لم أنبئك حتى الآن !!

لقد حضرت إلى الزرقاء وأنا وحيد فى المرعى فى يوم عاصف فاستدفأت بنارى ثم انصرفت !

قالت عفراء : وما فى هذا يدعو إلى الاستغفار يا عروة ؟ إن الزرقاء صبية طيبة القلب ، وإن كان فيها نزعة إلى العبث البرىء . . .! فلا عليك من هذا — يرحمك الله — .

ومضت لحظات من الصمت قالت بعدها عفراء :

سمعتك يا عروة تهمهم بكلام من الشعر وأنت وحدك ! وسمعت من أمى أن شيطان الشعر كان قد ركبك منذ ليالى الأرق . . !

وأجاب عروة . . . أجل يا عفراء . . . وما زال يركبنى . . .

وسألت عفراء : أنشدنى بعضاً من شعرك !

فقال عروة : على أن تخبريني أولا : ما رأى أمك فىّ ؟
قالت عفراء : إن أمى لا تكرهك يا عروة . . . ولا أجزم بأنها تحبك !!
قال عروة . . . أولا تحبنى من أجلك يا عفراء ؟ !
وصمتت عفراء لحظة . . ثم صاحت : آه ياعروة لو تدرى ! لو تدرى ما أقاسيه بسببك من أمى هذه ؟
إن صراعاً هائلا يقع بينى وبينها كل يوم من أجلك، وإن حبها الشديد لى قد يفتح لى باباً من الأمل فى الانتصار عليها . .
وأطرقت فى همود وصمت . . . ثم نظرت إلى عروة قائلة : نشدتك الله إلاّ ما أعفيتنى من هذا الحديث . . . أعفنى . . . أعفنى منه يا عروة وأنشدنى من أشعارك :
أحس عروة بما تقاسيه عفراء من أجله ، فأعفاها من الحديث وراح ينشد :

تحملت من عفراء ما ليس لى به
ولا للجبال الراسيات يـــدان
كأن قطاة علقت بجناحهـــا
على كبدى من شدة الخفقان

وما سمعت عفراء ما أنشد عروة حتى التهبت وجنتاها وراحت تقول : هات يا عروة فأنشدنى، فأنشد :

فعفراء أرجى الناس عندى مـــودة
وعفراء عنى المعـــرض المتوانى

فاضطربت عفراء وصاحت : لا — وأبيك — يا عروة . . . إننى لست كذلك !

واستمر عروة ينشد :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
وما لى يا عفراء عنك مسالك
إلى العيش إن خانت حظوظى المقادر

وتفزعت عفراء أكثر مما تفزعت ، وقالت فى نغمة يخالطها الأمل : قد لا تخونك الأقدار يا عروة !!.

* * *

التفت عروة وعفراء إلى السماء وحدّقا فى الآفاق البعيدة المترامية ، فإذا ضوء خافت باهت يغرى بالسكون والتأمل . . . فسكن الاثنان ما سكنا ، وسبح كل منهما فى خواطره وأحلامه التى تلاقت أخيراً فى نهوض عفراء وهى تقول : هيا يا عروة . . فالليل يمضى ، وتباشير خافتة من الضوء قد لاحت فى الأفق البعيد !

وهبّ الاثنان وسارا حتى وصلا إلى غير بعيد من الحى ، فسلمت عفراء وودعت ، وانحرف عروة إلى طريق آخر يؤدى إلى الخلاء . . .

وما سار عروة أو كاد حتى صاحت به عفراء فى همس : عروة . . !

ماذا يا عفراء ؟ .

قالت : شعرك الذى أنشدتنى إياه . . . إياك أن تشهرنى به . . . إياك !!

وأجاب عروة فى ثقة واطمئنان : لا تخشى شيئاً يا عفراء .. فأنا لا أجهل عاقبة من أشهروا حبهم فى أشعارهم !!

وهمت عفراء بالانصراف . . . وقبل أن تحرك قدميها صاحت فى لهفة وفزع :

وأنشودة الرعاة يا عروة !!

قال عروة : أغنية الرعاة ليست من شعرى يا عفراء . . ! فاطمئنى . . ولسنا مسئولين عما يدعيه علينا غيرنا من الناس . . على أنها أغنية صبيانية اتخذها الرعاة الغلمان سلوى فى غدوهم ورواحهم فلا تثريب علينا فيما ينشدون .

وانسابت عفراء فى دروب الحى إلى أن دخلت الدار ، بينما طاف عروة بظاهر الحى قليلا ، ثم عاد إلى الدار بعد حين .

* * *

انتعشت نفس عروة بعد هذه الليلة انتعاشاً حارًّا ، وتفتحت نفسه للحياة قليلا ، وما عاد يعاوده كمده وحزنه أو تستولى عليه وساوسه وأوهامه كما كان .

وإنه ليضحك أحياناً لما يضحك ويجتمع بأقرانه الشبان فى منتدياتهم بظاهر الحى ويتحدث إليهم فيما يتحدثون . . .

ولم لا يفرح ويبتهج وقد لمس وأحس ما بنفس عفراء له . . وأدرك بقلبه وعقله أن ما بها هو ما به ، وأنها حريصة عليه حرصه عليها ، وأنها قد فهمت ما يعنى وما يرجوه من هذه المودة ، أو قل من هذا الحب الحار المتبادل بينهما .

وإلا فما شأنها بشعره فيها ؟ وما لذتها فى الاستماع إليه ، ثم . . . ما خوفها واضطرابها من التشهير بها لولا أنها تعلم ما عاقبة المحبين إذا اشتهر حبهم أو شاع . . . !

إنها على كل حال قد فهمت وأدركت . . وإنها على كل حال مبتهجة لهذا الإدراك .. وإنها لتعمل جاهدة على تنمية هذا الشعور ورعايته ، وعلى إزالة الأشواك من طريقه بما بينها وبين أمها من صراع .

لقد اهتم عروة بفرحه هذا فأعلن عنه وابتهج به كما يبتهج الأطفال فى أعيادهم . .!

لقد اشترى لنفسه قميصاً جديداً من الخز وبُردين من أبراد اليمن بما كان قد ادخره فى الحين بعد الحين من دريهمات حصل عليها ثمناً لخيوط من الصوف باعها . . . وإنه ليلبس الحلة والبردين فى المرعى وغير المرعى تفاؤلا بما يرجوه من مستقبل ناعم بجانب عفراء .

ولم تكن عفراء أقل منه ابتهاجاً . . . لقد ظهر نشاطها فى الدار . . .!

فهى تتيقظ مبكرة لتحلب الشياه وتجهز الطعام وتصنع

القهوة لأبيها وتعاون عروة فى إخراج الأغنام إلى المرعى... وإنها لتعاون أمها فى عجن الخبز وإنضاجه..وإذا بقى وقت قبل الظهيرة شغلته فى نقش الصوف وغزله إلى أن يعود عروة مع الأغنام .

* * *

فطنت هند إلى ابتهاج عفراء ونشاطها . . . كما لحظت تهلل عروة وانتعاشه فداخلها شيء من الخوف والتوجس وإن لم يدم ذلك التوجس طويلا !

ولقد كانت هند على حق فى أن تحذر وتتوجس !!

لقد كانت عفراء على ما بها من نشاط ظاهر تخفى فى نفسها اهتماماً عميقاً يصحبه أحياناً فترات من الفكر والتأمل ..! فهى تعلم ما بقلب عروة من الحب والحرص والوفاء . . وإنها لتعلم ما يعتزمه ابن عمها وما توده هى الأخرى من جانبها ، كما تعلم شعور أمها نحو هذه العلاقة العفيفة .

وإنها لتتذكر ليلة اللقاء وتستعيد ما سمعته من شعره فيها . . . ذلك الشعر الذى كانت تردده همساً فى تطوافها بالدار وفى حظيرة الأغنام وهى تحلب الشياه . . !

رددت يوماً وهى فى حظيرة الأغنام قول عروة :

أعلل فيك النفس والنفس غضـــة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
وما لى يا عفـــراء عنك مســـالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وقوله :

فعفراء أرجى الناس عنـــدى مودة
وعفراء عنى الغافــل المتوانى

وسمعت أمها على غرة منها ما رددت من الشعر فصاحت بها :
عفراء . . . ألبنـــًا تحلبين . . . أم شعراً تنشدين ؟

فأجابت عفراء : لا يا أماه . . ! كلام أغنى به وأنا أحلب الشياه !

أوتذكرين يا أماه . . . كيف كنت تغنين وأنت تنضجين الطعام ؟

قالت هند : ما كنت أُغنى شعراً يا ابنتى ! وإنما كنت أردد رجزاً حفظته أنا وغيرى لفتى من بنى شيبان قاله وهو ينازل الشاعر الفاتك عمرو بن معد يكرب !!

وتلعثمت عفراء واضطربت وقالت : هذا شعر سمعته أنا ورفيقاتى من القصاص ،. وأظنك تعرفين يا أماه الشيخ « الفزارى » وتسمعين عن قصصه ليلا بظاهر الحى !

وأحست أمها وأدركت . . . ولكنها تظاهرت بالاقتناع وانصرفت إلى ناحية أخرى من الدار بينما عفراء جامدة فى مكانها وقد زمت شفتيها على أنملة من أناملها وراحت تعضها عضًّا .

* * *

دخل أبو عفراء داره مساء ذلك اليوم وقد تأخر خارجها فى

شأن من شئونه .

وما إن رأته زوجته هند حتى صاحت به : يا رجل . . . رضينا بأغنية الرعاة وسكتنا عنها فما فيها ما يضير ابنتنا عفراء !

أو نرضى أيضاً عن شعر يقال فيها فتشتهر به ؟

واهتم أبوها بالخبر وتطلع إلى هند فى هدوئه المعهود وقال : أىُّ شعر يا امرأتى ؟

قالت هند : شعر فى عفراء . . . وسمعته من عفراء !!

وصاح الرجل : من عفراء نفسها ؟

وأجابت هند : أجل . . . من عفراء نفسها !

قال الرجل : ولمن الشعر يا هند ؟

وتخابثت هند وأجابت :

أتسأل لمن ؟ . . أتجهل ؟ . . ومن يكون غير ابن أخيك عروة !!

ولم يتفزع الرجل لما سمع . . فما كان يتوقع غيره . . ! وكل ما صنعه أن تحسس عمامته بيديه ثم ألقى بحزامه وعصاه على المصطبة وقال وهو يقعد : الحمد لله على أن سمعتِ الشعرَ يا هند من عفراء وحدها ! ثم أطرق !!

قالت هند : والحمد لله على أن يكون هذا الشعر الذى سمعته من عفراء إيذاناً بنهاية عروة فى دارنا .

لن نستطيع إيواء عاشق لابنتنا فى دارنا . . . وبجانبها !

لن أطيق تحمله بعد اليوم . . . وإلا فإليك دارك بخيرها

وشرها وخلّ لى عن ابنتى . . وإليك ابن أخيك !

* * *

قذفت هند بهذا التصريح الأليم فى نغمة يمازجها العزم والإصرار . . . ثم دخلت الحظيرة فرأت عفراء مطرقة على جذع من جذوع النخيل الجافة فأمسكت بيدها وجرّتها ثم انتحت بها ناحية من الدار .

أما الرجل فلم يطل به التفكير أو الإطراق طويلا .

إن الأمر أمامه لا يستدعى تفكيراً ولا إطراقاً . . . وإنه الآن بين واحد من أمرين :

فإما أن يطيع عطفه على ابن أخيه فيبقى عليه فى داره ويتحمل بذلك غضب امرأته وما عساه يحدث مما لا تحمد عقباه .

وإما أن يحسم الداء قبل وقوعه كما قالت له زوجه ، وأن يقسوَ على نفسه وعلى ابن أخيه قليلا فيعزله عن الإقامة فى داره ولو إلى حين فيبقى بذلك على أهله ويستريح مما يتوقعه من هموم وأكدار .

تأمل الرجل فى هذين الأمرين فاقتنع بالأخير منهما وهبّ لتنفيذه وإن كان التنفيذ يوجعه ويضنيه .

ودخل عروة الدار فى تلك الأثناء فناداه عمه :

تعال يا عروة . . . تعال إلىّ يا ابن أخى !

وأقبل عليه عروة فحياه فى أدب وانكسار ثم جلس بجانبه

وراح عمه يحدثه :

اسمع يا ابن أخى ! إنك قد بلغت الآن مبلغ الرجال ، فلا خوف عليك إذا أنت اتخذت لنفسك داراً بالحى قريبة منا ، وأظنك تستطيع أن تعيش من عمل تحترفه الآن .

وإن صلاحيتك للكسب لواضحة فى هذا القميص الجديد الذى ترتديه !

وإنى لعمك دائماً . . . وأنت ابن أخى دائماً فأطع عمك وتوكل على الله . . . !

لم يدر إلا الله وحده كيف وقع هذا الكلام فى نفس عروة !! ولكنه رفع وجهه إلى عمه فى توسل وقال : وأجىء إلى هنا بعض الأحيان يا عمى ؟

وتوجع عمه لحاله وقال : أجل يا بنىّ ! وأزيد : إن عفراء لك . . . ولن تكون لسواك !!

عفراء ترحل وعروة يعود . . . !!

لولا جملة كريمة سمعها من عمه الكريم فى موقفه الرهيب لقضى عروة نحبه !

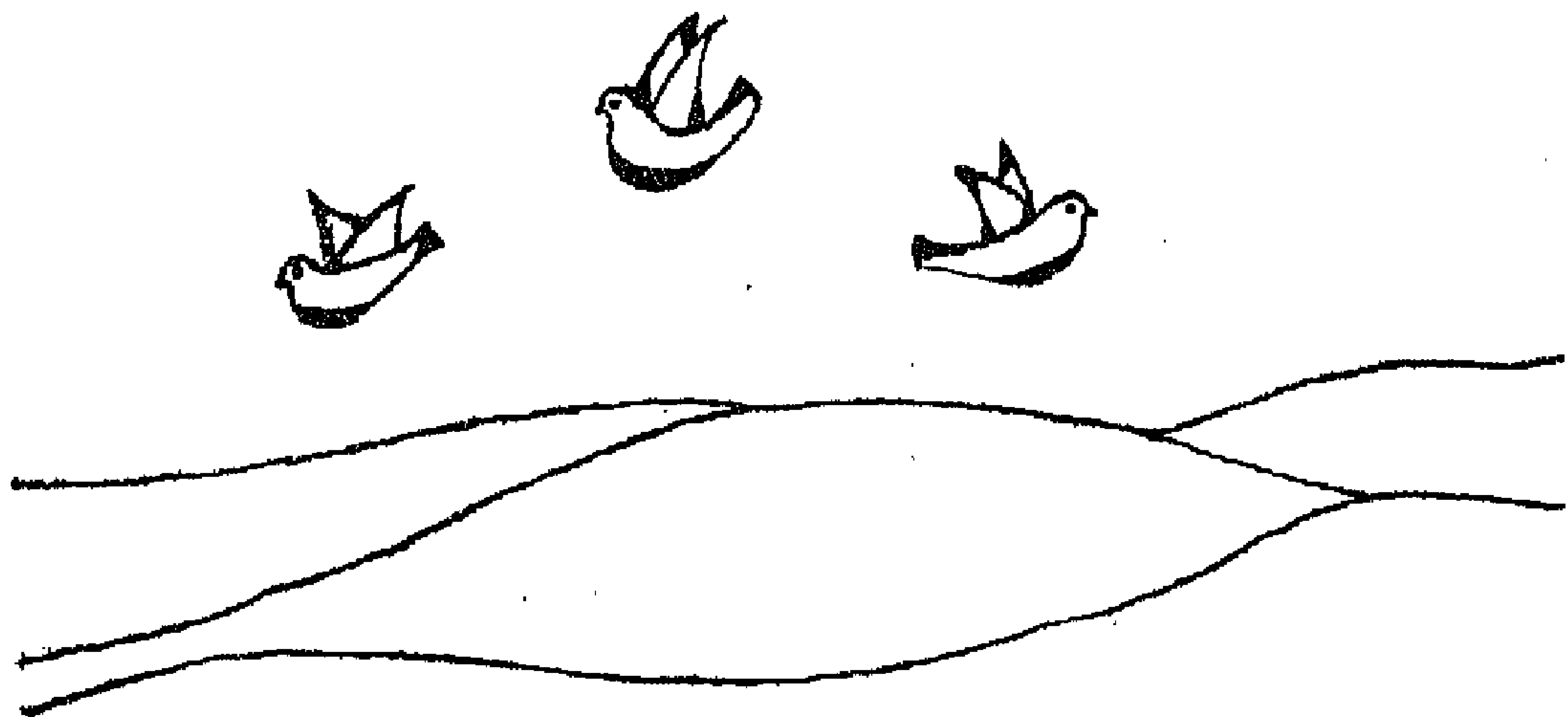
أجل ؛ لولا هذه الجملة : « إن عفراء لك . . . ولن تكون لسواك » لكان خروج عروة من دار عمه خروجاً من الدنيا أو من الجنة .

وعلى هذا الوعد الكريم ، وفى تلك اللحظة الرهيبة التى لا يدرى سببها المباشر خرج عروة من دار عمه ، واتخذ له داراً قريبة فى الحى بمعاونة صاحبين له من بنى عامر كانا يألفانه وينطويان له على حب وإخلاص .

كانت دار عروة الجديدة بقعة صغيرة من الأرض تحيطها أربعة حوائط ، ويسقفها بعض من الأغصان الجافة وجريد النخيل .

ولم يكن عروة يعنى بداره أكانت كما يحب أو كما يكره ، وإنما كان يعنيه شيء واحد وأمل واحد هو الحصول على عفراء التى وعده بها عمه ومناه بنعيمها بعد أن لم يكن إلى نعيمها سبيل.. وفى هذا يقول :

دعانى للمنى عمى دعانى ومنانى بعفــراء النعــيما
ولولا جملة نطقت بفيه لكنت على ثرى الدنيا هشيما


علي دسوقي

وهل تدرى عفراء هذا الوعد ؟ وهل تعلمه فيكون عزاء لها عما فقدت من بعد عروة عن الدار ؟ اللهم لا . . . إنها لا تعلم سوى أن عروة اتخذ له داراً جديدة بالقرب منهم كما أخبرها أبوها . . . وإنها لتعلم علم اليقين الذى يجهله عروة سبب هذا الخروج . . . فهذا وذاك عندها مجتمعين أول نازلة من نوازل العذاب فى حياتها وحياته .

أما عند عروة فهو أول بارقة من الأمل فى حياته وحياتها وإن كان بعده عنها يوجعه ويضنيه . ولم لا . . . ألم يعده عمه بعفراء ؟ وأنها سوف تكون له ولن تكون لسواه !!

* * *

لم ينقطع عروة عن زيارة عمه فى داره ، فهو يلم بها فى الفترة بعد الفترة ، فتلقاه هند بشىء من المجاملة على خلاف عادتها ، وتأنس بلقائه عفراء وتسأله وتلح فى السؤال عن حاله .

ولقد هدأت نفسه واطمأنت حين رأى عفراء كما تركها ... إن فى عينيها بريق الوفاء والإخلاص ، وإن فى ملامحها وحركاتها حرصاً على العهد وتمسكاً بالمودة والألفة التى لا تنساها . . . حتى لقد أحس أن بعده عن دار عمه قد ألهب عواطف عفراء نحوه وحرك شجونها أكثر مما كانت .

وأثر هذا الإحساس فى نفسه فزاد من وجده ، واعتزم أن يتقدم بأول خطوة فى سبيل عفراء .

* * *

وكانت عفراء فى ذلك الحين مطمع أنظار الحى كله شبابه ورجاله .

لقد تم نضجها واكتملت أنوثتها فأصبحت زهرة الحى وريحانته ، وإن قلوباً كثيرة لتتطلع إليها وتتشوق لرؤيتها وتتمنى إدراكها بكل ما تستطيع من بذل وتضحية .

وتقدم إلى أبيها وقتئذ شاب لشيخ من شيوخ الحى وعيونه يطلب يدها . . . ولكن أباها لم ينس عهده لعروة فتخلص بحيلة مقبولة ، وعلمت عفراء بأمر هذه الخطبة فتجهمت وأعرضت !

وتقدم لخطبة عفراء شاب آخر يمانى فما وجد من أبيها غير ما وجد الأول ، وما كانت عفراء إلا أكثر تجهماً وإعراضاً .

وقعت هاتان الخطبتان فى دائرة من الكتمان فلم تتسرب أخبارهما ، غير أن جارية من جوارى الحى علمت بأمرهما — وعلّ مصدر علمها دار عفراء — فأسرعت إلى عروة وأسرت إليه بالأمر فجن جنونه وثار ثائره وود لو كان عقاباً كاسراً فيخطف عفراء ويصعد بها إلى السماء !

نفد صبر عروة يومئذ فعاودته همومه وأحزانه ، وبدأ التفكير القاتل يغمره فى كل أوقاته وأوشك اليأس أن يتسرب إلى نفسه ، وأمسى يأرق من جديد فيتجرع مرارة السهد وحده ، وإنه ليخرج ليلا فيطوف فى دروب الحى ويتفقد ذكرياته بها . . . وربما جرته قدماه إلى صاحبيه العامريين فيوقظهما من النوم

عل فى لقائه بهما عزاء عما يقاسيه .

لقد كان يعيش على الأمل . . . الأمل الذى لا يشرق نوره إلا من وجه عفراء ، ولا يتفتح نوره إلا فى صباحها الجميل ، وان ما قاساه فى سبيلها من قسوة أمها إنما كانت آلاماً شيقة بالنِّسبة لما يلاقيه الآن من عذاب ! إن ألمه الآن ممض حقًّا ، وإن حزنه لبالغ عميق !

لقد بدأ الخطاب المعجبون حملاتهم وكلهم من ذوى الجاه واليسار ، وإنه لا يستطيع منازلتهم فى شىء لأنه خالى الوفاض ، ولم تمنحه الأيام فسحة من الوقت بعد خروجه من دار عمه ليناضل ويكافح حتى يحصل على اليسار .

فالأيام قد دهمته قبل أن يستعد لها . . . وعفراء تتطاول إليها أعناق الخطاب وكلهم لها كفء إلاَّ هو .

* * *

فى تلك اللحظات اشتد الحزن على عروة ، وحزبته الهموم ، وبدأت موجات من الذهول تنتابه ، وغمرات من الشرود تطغى عليه فساءت حاله وأضحى كالشريد العاجز الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً .

وكان لعروة عمة اسمها هند تسكن حيًّا من أحياء بنى عذرة ، فلما ضاقت نفسه بما يقاسى ذهب إليها ليستنجد بها وما إن رأته عمته حتى صاحت به :

عروة بن أخى ؟ ما بلك يا عروة ؟ أرى نحولا وهمًّا

ما عهدتهما بك !!

وأطرق عروة هنيهة ثم رفع رأسه وأنشد :

تحملت من عفـــراء ما ليس لى به
ولا للجبـــال الراسيات يـــدان
كأن قطـــاة علقت بجناحهـــا
على كبـــدى من شدة الخفقـــان
فيارب أنت المستعـــان على الـــذى
تحملت من عفراء منذ زمـــان

وفطنت عمته لحاله ، وتيقنت من قصته فقالت له :

وما تطلب يا ابن أخى ؟

قال عروة : يا عمة ! إنى لمكلمك وإنى لمستح منك . . . ولم آت إليك إلا حين ضاقت بى السبل وأظلمت الدنيا فى وجهى !

ليس لى يا عمة أمل غير عفراء ... علقتها صغيراً فعلقتنى ؛ وتمكن الحب بين قلبينا ولا عيش لى إلا بها . ولقد لحقت الآن بالنساء ولحقت بالرجال وأجدنى عاجزاً عنها بما أنا فيه من حال !

وقومٌ هناك يا عمة يخطبونها وكلهم أحسن منى حالا . . . فبالله إلا ما كلمت عمى فيها ورحمت ابن أخيك فيما يلاقى من ضنى وعذاب ؟!

فيا ليت محيانا جميعاً وليتنا إذا نحن متنا ضمنا كفنان

* * *

سمعت عمته ما تحدث به فرقت له وحدبت عليه وقالت :
يا عروة : خفف عنك ما بك وتفاءل بالمستقبل خيراً ، وإنى لأعلم عطف عمك عليك وإعزازه لك ، كما أحسّ رغبة عفراء فيك وحرصها عليك . . .

وصاح عروة فى لهفة : أجل يا عمة . . . ولكن أمها . . . .
ولم يكمل عروة جملته حتى صاحت عمته :

ما دام أبوها معك ، وما دامت هى لا تريد غيرك كما علمتُ فبينكَ وبين ما تريد أمد قصير !

وانطلقت أسارير وجه عروة لما سمع من عمته ، وطيب خاطره هذا العطف فشكر لها وانصرف !

أما عمته هند فقد هبت من وقتها إلى أخيها عقال ؛ فما إن رأته حتى صاحت به :

يا أخى : قد أتيتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها الرد ، فإن الله يأجرك بصلة رحمك إن قضيت ما أسألك !

قال أخوها : قولى يا هند : فلن تسألى حاجة إلا رددتك بها . . .

قالت : تزوج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء . . .

قال عقال : ما عنه مذهب . . . ولا هو دون رجل يرغب فيه . . ولا بنا عنه رغبة ! ولكنه ليس بذى مال . . . وليست عليه عجلة !

قالت هند : ولكن على عفراء عجلة !

قال عقال : وكيف تدرين ؟

قالت : تناثر الأمر إلى بعض جوارى الحى فتحدثن به !

قال عقال : تحدثن به . . . أم تغنين بشعر عروة فى عفراء ؟ !

قالت هند : لا يا أخى ! لا تصدق كل ما يشيعه الناس . . . وعروة وإن قال شعراً فى عفراء فهو شاعر بطبيعته ، وهو ضنين على التشهير بابنة عمه ورفيق طفولته وصباه . . . فبالله إلا ما رحمت ابن أخيك ووفيت بعهدك له . . فما بقى فيه من عيشه إلا الذّماء !!

وتأثر عمه مما سمع فأطرق . . . ثم رفع رأسه وقال سننظر ... سننظر يا أختى حين أسوق هذه الرغبة إلى أم عفراء . . !

وانصرفت هند من عند أخيها لتقول لعروة :

عمك يقول فيك . . . ما هو دون رجل يرغب فيه . . . ولا بنا عنه رغبة . . . ولكنه ليس بذى مال وليست عليه عجلة . . !

* * *

عرف عروة من تصريح عمه لعمته أنه بدأ يغير رأيه فيه . . كما بدأ يتناسى عهده الذى قطعه على نفسه ، وتيقن أن وراء هذا التغير أو هذا التناسى سراً لا يجهله كل الجهل ، وإن كان لا يدركه كل الإدراك .

هذا السر بين اثنين لا ثالث لهما هما امرأة عمه وعمه نفسه ..

وهو لا يستطيع أن يلقى التبعة على أى منهما دون أن يشرك الآخر فيه بنصيب !

وشمت عفراء ما جاءت له عمتها هند فتنفست ونشطت ... ثم ما لبثت أن همدت واغتمت إذ لم تحس فى جو المقابلة علامة تبشر بالخير أو تمد بالأمل ولو إلى حين .

جلس عقال إلى زوجته هند بعد انصراف أخته من لدنه؛ فقال لها :

يا هند ! إن أختى جاءت إلىّ تسألنى أن أزوج عروة من عفراء . . . فما ترين ؟

قالت هند : أوَتسألنى رأيى يا رجل ؟ الأمر أوضح من أن يُسأل فيه !

إن عروة كما تعلم معدام .. وإنه ليس كفؤاً لابنتنا عفراء ... أوَفى ذلك من شك ؟

وسكت الرجل لحظة ثم قال لزوجته : أوَترتضينه إذا وجد المال ؟

قالت هند: وكيف يجده ؟ إن المال لا ينزل على الناس من السماء . . . على أنه لا يعجبنى ولا أستريح له زوجاً لابنتى . . . إنه شاعر . . . والشعراء يتبعهم الغاوون !

قال عقال : أتعنين يا هند أنه قال الشعر فى عفراء وشهر بها !

وأجابت هند : أجل يا عقال : إنه شهر بابنتنا فى شعره ،

وقد عرف أمرهما كل سكان الحى وإن كانوا جميعهم أهلا لنا أو شبه أهل !

على أن التشهير بالشعر ليس هو كل شىء . . . وإنما الذى يعنينى أنه معدم ، وأننى لا أستريح إليه .

* * *

لم يزد الرجل على ما سمعه من زوجه سوى أن انصرف من مجلسه وقد قدر نهاية كل من عروة وعفراء .

أما عروة فقد كان والحالة هذه فريسة للأحزان والقلق والهموم .

لقد فهم من كلام عمه أن المال الذى يفقده هو الصخرة التى تتحطم فوقها آماله ؛ فماذا هو صانع للحصول عليه ؟

إن عمته لا تستطيع مساعدته إلا بما تملك . . . وهى لا تملك إلا استعطاف أخيها والرثاء لهذا الموقف المؤلم .

وإن صاحبيه العامريين ليعرضان عليه مساعدتهما ولكنه يأبى ويشكر فما يريد أن يكون كلا على قوم لا تربطه بهم غير صلة الصداقة والجوار .

بقى أن يسعى هو بنفسه وأن يكد ويناضل حتى يحصل على مال يقوم به مهر كبير من النياق كما قدر لو طلب منه مهر لعفراء . . !

وأنى له بهذا المال ؟ . . . بل كيف يستطيع السعى وهو ذاهل اللب مشتت الفكر ، ناحل الجسد فوق ما هو مجروح

الكرامة والقلب ؟

ليس لديه إلا غنيماته ... ولكنها مجتمعة لا تقوم بثمن ناقة واحدة؛ فما السبيل ؟

هكذا كان عروة فريسة للحيرة والعدم والحرمان .

* * *

فى تلك الأثناء أرسلت عفراء إلى عروة من أخبره أن يتقدم إلى عمه بنفسه ، لأن رجلا موسراً من ذوى قرابته يتقدم إلى أبيها ويطلب يدها ويلح فى طلبه ويبذل فى المهر والعطاء !

هشّ عروة وبشّ وأحس ببارقة من الأمل، وأسعده أن تنبه عفراء إلى هذا الخطر الداهم؛فاندفع إلى عمه بقوة لا يدريها وجرأة ما كان يتوقعها وقال له :

يا عمّ . . . قد عرفت حقى وقرابتى ، وإنى ولد أخيك وربيت فى حجرك .

وقد بلغنى أن رجلا تقدم ليخطب عفراء ، فإن أسعفته بطلبته قتلتنى وسفكت دمى فأنشدك الله ورحمى وحقى !

فرق عمه له وقال : يا ابن أخى : أنت معدم وحالنا قريبة من حالك ! ولست مخرجها إلى سواك . . . وأمها قد أبت أن تزوجها إلا بمهر غال فهلمّ . . !

وشعر عروة فى هذا الكلام بسهم ينفذ إلى أحشائه فتخاذلت قواه وخانته رجولته وبكى واستعبر ولكنه لم يغادر الدار حتى دخل علىّ امرأة عمه ورجلاه تميدان من تحته

فقال لها : يا أماه . . ! إن كنت تحبين عفراء ابنتك فلا ترديني خائباً . . . وإن حياتي وحياتها . . فقاطعته امرأة عمه وقالت : قل حياتك وحدك !!

وإن حياتي لفي يديك ، وما أظنك تبخلين على مخلوق مثلي تربى في دارك أن تسلبيه الحياة !!

وتأثرت امرأة عمه ورثت لحاله — كامرأة — فقالت له : اقعد يا عروة !! ثم أردفت : يا بني : إن عفراء وأنت تعرفها محط أنظار الرجال وأطماعهم ، ففيها كل ما تتمناه النفوس . . وأنا لا أبخل عليك بها .

فإن كانت هي حياتك كما تقول — وأظنك صادقاً — فإليّ بمهر مائة ناقة ، وإن كان عمك ينقصها إلى ثمانين . . على أن تقدم نصف المهر بادئ بدء .

وهأنذا أعلنت وأفصحت وليس لك عليّ بعد هذا من سبيل !

* * *

أحس عروة في هذه اللهجة الجادة صدق القول ونية العزم فيها ، فتماسك وتصبر ، وأعلن قبوله لما عرضته عليه هند . . ثم انصرف وهو لا يدري : أيمشي على رأسه أم تحمله قدماه ؟

المال . . . المال وحده هو مفتاح أمله وطريق سعادته التي يرجوها بجانب عفراء . . وأحس أن البكاء والأنين والشكوى والتخاذل . . كل أولئك أمور لا تليق برجل مثله يتمنى الفوز

بمن يحبه ، وأحس أن لديه باباً للفرج عليه أن يلجه وإن كان ولوجه صعباً على مثله عسيراً .

وخطر له حينئذ خاطر استراح له فعزم على تنفيذه .

ذلك أن له قريباً يسكن الري من بلاد الشام ، وأن ذلك القريب الذى لم يره من قبل فى سعة من العيش وبسطة من الرزق ، فما عليه لو يجرب حظه عنده ويرحل إليه فيستقطعه من ماله ما يطلب منه من مهر ؟ وخطر له إن هو قص على قريبه قصته فما هو منصرف من لدنه إلا ببغيته ، فقد عرف قريبه هذا بالمروءة والشهامة وأريحية الرجال . .

وأراد أن يتحقق من نوايا عمه وزوجته هند قبل الرحيل ، وأن يأخذ عليهما عهداً بانتظاره حتى يعود ففعل .

دخل عليهما يوماً فعرض عليهما ما انتوى فاستحسنا ما يصنع وصوبا ما رأى وعاهداه ألا يحدثا حدثاً بعفراء حتى يعود !

وصحت نيته على الرحيل فى الصباح الباكر . . وعز عليه أن يرحل دون أن يحظى من عفراء بنظرة يقتات منها فى رحيله وبكلمة تشد عزمه وتقوى ظهره وتلهمه الصبر والجلد والكفاح ؛ فقال لعمه :

أسافر ولا أرى ابنة عمى ؟

فصاح عمه بزوجه هند : يا هند ؛ عروة يرحل ولا يرى ابنة عمه ؟

ورأت هند ما ينبغي فى مثل هذا الموقف فجاملت على كره

وصاحت متثاقلة ! اخرجى يا عفراء إلى ابن عمك قبل الرحيل !

وخرجت عفراء فى ذعر وقلق وسألت : أى رحيل تعنى يا عروة ؟

قال عروة : إلى الشام ! قالت عفراء : ومتى العودة ؟ قال عروة : حيث تريدين أن أعود !

واكفهر وجه عفراء واضطرب صدرها وانعقد لسانها وأطرقت فى ذهول .

ورآها عروة واجمة حزينة فتخاذل وتراخى ثم انفجر صدره بنشيج مكتوم .

وأقبلت أم عفراء عليهما ومعها بعض جوارى الحى اللواتى جئن لوداع عروة قبل الرحيل وقد عمّ خبره الحى وانتشر فى نواحيه .

وما إن رأتهما الجوارى حتى تحامل كل من عروة وعفراء على نفسه وتماسك وللدموع فى أجفانهما حرقة ولهيب . ولقد ود عروة أن يقضى الليل كله بجانب عفراء ليفضى إليها بذات نفسه .. ولكن ساعة الرحيل قد آذنت فنظر إليها عروة وأنشد :

أيم وجهى والحياة مريرة
عَلَىَّ إلى خل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفداً
من الحزن علّى أن تكونى بجانبى

فأجابته عفراء :

تغيب وتأتى يا ابن عمي مصاحباً
لك الأمنُ فى الترحال بين السباسب
وما ألفت نفسى سواك وإنــنى
على القرب أو فى البعد نجواك صاحبى

وانصرف عروة مع مطلع الفجر فشدّ على راحلته ومعه صاحباه العامريان .

زواج عَفراء من السرىّ . . . ! !

أشرقت الشمس على عروة وهو بين النجاد والأغوار فى طريقه إلى الشام ، وقد رافقه صاحباه العامريان ليؤنساه فى طريقه القفر وليرعياه وقد ساءت حاله وذهل لبه واضطرب عقله فما كان يجيبهما إن حدثاه ، وما كان يعى ما يقولان سوى أن ينطق باسم عفراء ما بين الحين والحين ، وسوى أن ينشد مخاطباً صديقيه :

خليلى من عليـــا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليـــوم وانتظرانى
ولا تزهدا فى الأجر عندى وأجمـــلا
فإنـــكما بى اليـــوم مبتليـــان

لقد كان العامريان صاحبين مخلصين لعروة ، وطالما قدما له أنواعاً شتّى من المساعدات قبل بعضها واعتذر عن بعضها شاكراً .

إنه لا يريد أن يكون كلاًّ على صاحبيه وهما ليسا من أهله أو عشيرته .

لقد عرضا عليه أن يقدما إليه ثمانين ناقة مهراً لعفراء فتأبى وشكر . . . ولما ضاقت بهما الحيل لم يجدا من المعونة ما يقدمانه سوى أن يصحباه فى طريقه إلى الشام وقد ساءت

حاله . . وتلك مكرمة الأصدقاء ، وشيمة الأوفياء .

لقد كان عروة يحس بالوحدة حقًّا ، وكان كل ما يتمناه أن يصل إلى قريبه فى الرى فلعله واجد لديه ما يحقق من أمله أو يصلح من شأنه .

وما زال عروة فى رحيله الأيام والليالى لقى فيها من الكرب ما لاقى حتى وصل إلى الريِ ففارقه صاحباه العامريان إلى شأن من شئونهما فى إحدى قرى الشام على تخوم الرى وقد اتخذا موعداً على مشارف البادية يلتقيان فيه بعروة حين العودة إلى حيه العزيز .

* * *

لما دخل عروة الريِ بدأ يسأل عن قريبه وينسبه لمن يسأله حتى وجده ، فرحب به قريبه وأنزله فى داره منزل القادم إلى أهله وعشيرته وذويه .

كان قريب عروة رجلا تقدمت به السن ، ولم يكن يعرف عرْوة ، بل لم يكن قد رآه من قبل وإن كان قد سمع عنه أنه شاعر من شعراء الغرام .

كذلك لم يكن عروة قد رأى قريبه من قبل ، وإن كان قد سمع عنه أخباراً من هنا وهناك .

وكان الرجل على قدر من اليسار ، فهو يملك عدداً كبيراً من النياق ، وكانت له بجانب هذا ضيعة كبيرة على مشارف الشام تغل له الشعير والتمر والزيتون .

استقبل الرجل عروة فى داره استقبالا كريماً ، ولقى عروة من أبناء قريبه حفاوة طيبة مسحت من نفسه بعض ما علق بها من الأكدار .

سأل الرجل عروة بعد أن مكنه من الإقامة فى داره :

أعروة بن حزام أنت ؟

قال عروة : أجل يا عمى . . . وعمى عقال من بنى عذرة !

قال الرجل : وجدّك « مهاصر » شيخ القبيلة . .

وأجاب عروة : أجل يا عمى .

قال قريبه : وإنك لشاعر . . ! وأطرق عروة ولم يجب . . .

وأضاف قريبه : لقد حملت إلينا القوافل القادمة من البادية بعضاً من شعرك حفظه الناس هنا ورددوه !! أوَلست القائل :

أعلل فيك النفس ، والنفس غضة
وأعذر فيك القلب ، والقلب حائر
وما لى يا عفراء عنك مسالك
إلى العيش لو خانت حظوظى المقادر

وأطرق عروة وقريبه ينشد من شعره . . . واستطرد الرجل فقال : أوَلست القائل :

فياليت كل اثنين بينهما هوى
من الناس والأنعام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة
ويرعاهما ربى فلا يريان

وأضاف قريبه : وماذا قلت يا عروة فى قدومك إلينا ؟

فأنشد عروة :

أيمم وجهي والحياة مريرة
على إلى خيل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفداً
من الأرض على أن تكونى بجانبي

* * *

اطمأن الرجل بعد هذه المقارضة الشعرية إلى أن ضيفه هو عروة بن حزام حقاً فعمل على راحته ومنحه كثيراً من الإعزاز والإيثار .

قال الرجل يوماً لعروة يا ابن أخى ! أتعود إلى حيك فى البادية بعد أن استقر مقامك بيننا ؟

قال عروة : أجل يا عمى !

قال قريبه : لم رحيلك إلى البادية والعيش هنا موفور والمقام لك ميسور ؟ وإن لى لتجارة رائجة بين الشام وبادية الحجاز وفيا بين النهرين . . . فهلا أقمت عندنا بين أهلك وذويك ؟ !

وإنك — لعمرى — لواجد بيننا حبيبة أخرى تنسيك ما حزبك من الهموم والأحزان !

أنا لا أريد أن أشق عليك يا ابن أخى ! إنما أريد أن أخفف عنك بعض ما يعتريك من الضيق ، وأن أيسر لك

جانباً من شئون الحياة .

فإن كان كلامى هذا واقعاً من نفسك موقع القبول فافعل — يرحمك الله — !

* * *

اضطرب عروة وتفزع حين سمع كلام قريبه فقال : حنانك يا عمى . . ! فما جئتك لمزاولة التجارة واصطحاب الإبل فى الأسفار .

إنما جئتك فى أمر إن قضيته لى وهبت لى الحياة . . . وإلا فإنى والله لا محالة هالك وأنشد :

على كبدى من حب عفـــراء قرحة
وعيناى من وجدى بها تـــكفان
كأن قطـــاة علقت بجناحهـــا
على كبـــدى من شـــدة الخفقان

وما إن أنشد عروة هذين البيتين حتّى صاح قريبه : لعمرى إنك لمحب ! ! ومن تكون عفراء هذه ؟

قال عروة : هى ابنة عمى عقال بن مهاصر ، وقد علقتّها طفلا ، وألفتّها غلاماً ، وصار حبها فى قلبى كما ترى !!

قال قريبه : وما يمنعك منها ؟

قال عروة : ضيق اليد ، وسوء الجد !!

وإن أمها هند لتغلو فى مهرها وتسرف . . . وإن عمى « عقال » قد وعدنى ومنانى بها :

ومنيتنى عفراء حتى رجوتها وشاع الذى منيت كل مكان

وإن فى الحى يا عمى بعض الموسرين قد تقدموا إلى عفراء مسرفين فى المهر ، مبالغين فى الألطاف والهدايا ، وأنا لست لهم بكفء . . ولا لهم شبيهاً !!

إن أمر عفراء يا عمى بيد أمها هند ، أما عمى عقال فهو مغلوب على أمره ، مقهور أمام سلطان زوجه وأنا بين عمى وزوجه حائر ملتاع .

قال قريبه : وما تريدنى فاعلا لك يا ابن أخى ؟

قال عروة : تعطينى ثمانين ناقة مهراً لعفراء . . !

قال قريبه : لا والله . . . بل مائة ناقة مهراً لعفراء . . !

* * *

فى تلك الأثناء بينما كان عروة عند قريبه بالشام هبط حىّ عفراء رجل موسر من أهل الشام تعود أن ينزل إلى البادية ليقيم فيها ما شاءت له الإقامة ، ليتعرف على أحوال البادية ويقف على طباع أهلها وعاداتهم ويتزود منهم صحة المنطق وقوة الفصاحة والبيان، شأنه فى ذلك شأن الموسرين من أهل الحضر الذين يقيمون فى البوادى بضعة أشهر من كل عام .

هبط الشامى هذا الحى فى بطانة كبيرة من الندماء والجوارى والغلمان ، وحوله العديد من الإبل والشياه والأفراس .

وضرب الرجل خيامه بظاهر الحى على مقربة من دار عفراء وراح يذبح الذبائح وينحر كل يوم فتغلى قدوره وتشب ناره

وتمتلئ خيامه بالأضياف من الحيّ والأحياء المجاورة له .

وعرف القوم هذا السريّ فمجّدوا كرمه وأعلوا قدره وألفوه جميعهم كبيرهم وصغيرهم حتى أصبحت خيامه مقصداً لهم فى غدوهم ورواحهم ولا سيما أمسياتهم التى كانوا يقضونها فى رحابه يطعمون من طعامه ، ويستدفئون بناره !

وتوثقت الثقة بين الرجل ورجال الحى ، فكانوا يزورونه ويزورهم حتى أصبح واحداً منهم .

وتسربت جواريه وغلمانه فى الحى فدخلوا كل دار وولجوا كل خيمة وتبادلوا فيما بينهم أسباب المعيشة وأدوات الطعام .

* * *

وذات صباح دخلت جارية من جوارى هذا السرى دار عفراء لتشترى بعضاً من الزبد واللبن . . فأعطتها عفراء ما أرادت دون أن تقبل منها ثمناً . . . لقد تأبت عفراء أن تتقاضى أجراً لشىء من الطعام !

وأعجبت الجارية بعفراء ، وانبهرت من جمالها الرائع ، وافتتنت بحديثها العذب وطبعها السمح الكريم !

فما إن وصلت بالزبد واللبن إلى خيام سيدها حتى أسرعت إليه وصاحت :

سيدى ؛ رأيت اليوم وجهاً كالقمر ، وقداً كغصن البان ، يمسك أعلاه بأسفله خصر هضيم نحيل ، يشكو نهدة الصدر ، وثقل العجز . . . !

وإنها لعلى خلق كالنسيم ، وطبع كهدوء الغدير ، وسماحة حلوة عذبة يشبع منها الجائع ويرتوى العطشان .

سمع مولاها هذا الوصف فصاح : ويلك يا نجف !! ومن تكون تلك ؟

قالت الجارية : هى عفراء يا سيدى ! عفراء التى سمعنا عنها منذ أن هبطنا هذا الحى .

وهى ابنة عقال بن مهاصر ذلك الشيخ الفارع ذى العمامة العالية واللحية السوداء الذى كان يجالسك بالأمس . . !

وتبسم مولاها وهز رأسه علامة على الإعجاب وصاح فى الجارية : القهوة يا نجف !!

وانصرفت الجارية ، وانصرف الرجل إلى نفسه وقد تاقت وتلهفت إلى رؤية التى وصفتها له الجارية فطارت بلبه .

وبدأ السرى يجوس خلال الحى كعادته فى كل ضحوة ، فإذا هو يرى عفراء بباب دارها تكلم جارة لها فى شأن من شئون النساء ، وإذا هى التى وصفتها له الجارية بل تزيد .

ولم يجهد السرى نفسه فى هل تكون تلك عفراء أو لا تكون ؟

فهو يعرف دار أبيها وقد شرب فيها القهوة مراراً . . ثم انصرف وقد اعتزم فى نفسه أمراً . . !

ولم يطل التفكير بالرجل فى أمر عفراء !

لقد كان عند أبيها عصر ذلك اليوم الذى شهدها فى ضحوته. . .وبعد أن شرب القهوة اعتدل فى جلسته وفاتح أباها :

يا شيخ العرب . . . جئتك فى حاجة فإما قبولا حسناً ، وإما رداً جميلا !

قال عقال : ما بنا رد لحاجة قدرنا عليها ! قل يرحمك الله !

قال السرى : تزوجنى بابنتك عفراء . . !

قال عقال : لعمرى إنه لشرف يا ابن العم ! لولا أنها مخطوبة لابن عم يعدلها عندى . . وهما على ألفة منذ الصغر ، وما لها إلى غيره من سبيل !

قال السرى : وأرغبك فى المهر كما تريد !

قال أبوها : لا حاجة لى بذلك ..

فهب الرجل السرى وشكر ، وقد تخلص أبوها واعتذر .

* * *

لم يفقد السرى أمله فى عفراء ، فقد عرف فيما عرف من طول إقامته فى الحى شيئاً من قصة عروة وعفراء ، وعرف أيضاً أن أمها هند هى التى تملك مقاليد الأمور فى شأن ابنتها . . وأنها كذلك ذات شخصية قوية تملك من الأمر ما لا يملك زوجها عقال .

عرف كل هذا فأرسل جاريته « نجف » إلى أم عفراء تطلعها على رغبته فى ابنتها ، وعلى ما جرى بينه وبين أبيها فى شأنها ، وأنه باذل فيها من المهر والعطايا ما تشاء !!

ودامت المراسلات الخفية بين السرى من ناحية ، وبين أم عفراء من ناحية أخرى انتهت بقبولها السرى زوجاً لعفراء

وأعلنت له هذا القبول ووعدته بالوفاء به .

جرى كل هذا على غير علم من زوجها . . . ثم أرادت أن تفضى له ببعض حقه فى ابنته فاعتزمت إخباره بما صنعت !

نادته يوماً فقعد بجانبها وقصت عليه قصة السرى ثم قالت : يا عقال : أى خير فى عروة ابن أخيك حتى تحبس عليه ابنتى وقد جاءها الثراء يطرق عليها بابها ؟

قال عقال : الوفاء بالعهد يا هند !! وقد وعدتُه ووعدته أنت بعفراء ، وألا نحدث حدثاً بشأنها حتى يعود إلينا بما طلبته من المهر .

إن عروة قد رحل إلى الشام لإحضار مهر عفراء . . . رحل وهو منهوك القوى مشرد البال وقد شهدته نفسك ليلة رحيله !!

على أنك تعلمين يا هند ما بين عروة وعفراء من الألفة والمودة . . . فحرام عليك يا امرأة . . .

حرام عليك أن تقضى فى شأن ابنتك بأمر تزهق فيه روح عروة . . وقد تقاسى عفراء أمرّ من هذا وأنت لا تدرين !!

واستمر عقال فى حماسه وصاح فى عزم وإيمان : لا تقولى يا هند : هذا غنى وذاك معدم !! فالغنى والفقر بيد الله وحده ، فقد يصبح الفتى فقيراً ، والمعدم غنياً . . . لا يا امرأتى — ورعاك الله — !!

وردت هند على كلام زوجها وقالت : والله يا رجل

ما تدرى : أعروة حىّ أم ميت ؟

وهل ينقلب إليك بخير أم بشر فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً مواتياً !

ولم تزل به فى حديثها ترغبه فى هذا ، وترغبه عن ذاك حتى لان واستسلم وقال فى لهجة راضية :

إن عاد إلىّ السرىّ خاطباً أجبته !!

وانتصرت هند فى المعركة فنشطت وابتهجت وأرسلت إلى السرى : أن عدْ إلى أبيها خاطباً .. !

وعاد السرى إلى عقال فخطب عفراء من جديد وقبل عقال الخطبة ...

وفى اليوم التالى دعا السرى رجال الحى ووجوهه ، فذبح ونحر ، وأطعم ووهب ، وقام وسط الحفل فأعلن خطبته لعفراء ... وأعلن أبوها القبول .

* * *

عَفراء تَرحل وعروة يَعود ... !!

تطاير خبر الزواج إلى هند فأشرقت وابتهجت ، بينما انتابت عفراء نوبة من الوجوم والحزن والبكاء !

وأمسكت هند بيد عفراء فى رفق وحنان وقالت : ما بك يا عفراء ؟ ما بك يا ابنتى ؟

أتحزنين لخير يأتيك ؟ ووالله يا ابنتى ما ندرى : أعروة حى أم ميت ؟

فإن كان ميتاً فما فى البكاء حيلة ولا فى الحزن عزاء ! وإن كان حيًّا فهو عند قريبه فى الشام يعيش فى خيره وينهل من موارده .

وإنه — وحقك — لواجد هناك عفراء أخرى يبنى بها . . . فلا تثريب عليك ولا علينا .

فكفى يا ابنتى عن التفكير وإثارة الأحزان يرحمك الله !!

وهكذا وقعت المأساة ! وتزوج السرى بعفراء . . !

وساق السرى إلى عفراء المهر الغالى وبالغ فى الألطاف والهدايا !

وفى المساء حوِّلت عفراء إلى زوجها فى خيامه بظاهر الحى . . فدخلتها كارهة جازعة وهى تنشد :

يا عرو إن القوم قد نقضوا   عهد الإله وحاولوا الغـــدرا

يا عرو لا تبقَ على ثقــة — فى الناس أو ترجو بهم أمرا
ساموا صباى كأننى سلع — تبتاع فى الأسواق أو تشرى
لهفى عليك وأنت فى محن — تبغى هواى وترتجى المهرا
لو يا ابن عمى كان لى حيل — لشققت بعد غيابك الصدرا

* * *

ليس إلا الله وحده الذى يدرى ما بقلب عفراء .

إنها الآن فى خيام زوجها السرى . . . وسوف يطلع عليها بعد قليل وجه غريب ليس لها به ألفة ، وما بها من الميل ما يكون عادة بين العروس وعروسه ليلة الزفاف .

إنها لتشعر بالقهر والغلبة . . . قهر المال وغلبة الثراء وسيطرة التقاليد المألوفة التى يفرضها الوالدان على فتاتهما حين الزواج .

لقد انطفأ أمامها فى لحظة واحدة آمال أعوام مضت ، وأحلام جميلة طالما ندت نفسها ونضرت حياتها بالرجاء المحبوب .

لقد رحل عروة إلى بلاد بعيدة لإحضار ثمانين ناقة مهراً لها . . .

رحل من أجلها هى . . . من أجل عفراء التى أمست زوجاً للمال . . . وفريسة للجاه الذى أسرها . . ! لقد كانت خواطرها قائمة . . . وكان قلبها كسيراً جريحاً !

إنها لا تحس فى عرسها فرحاً أو ما يشبه الفرح . . إنما تحس نكبة قاسية قصمت ظهرها وقوضت آمالها .

وفى الهزيع الأخير من الليل دخل السرى بعفراء ، وأقام بعد دخوله بها ثلاث ليال لم يغادر فيها خيامه ، وفى فجر اليوم الرابع رحل السرى بموكبه إلى الشام على غرة من أهل الحى . . . وما تحرك الهودج بعفراء حتى صاحت :

يا عرو إن القوم قد نقضوا عهد الإله وحاولوا الغدرا

وبعد الموكب عن الحى وانساب فى المسالك إلى الخلاء البعيد .

* * *

لم يكن فى الحى كله ليلة الزفاف سوى شخصين مبتهجين . فأما أولهما فهو السرى وقد فاز بأمنيته . . وأما الثانى فهو هند أم عفراء وقد ضمنت لابنتها زوجاً غنياً ومالا كثيراً .

وأما الحى كله رجاله ونساؤه ، فتيانه وفتياته ، فقد كان واجماً حزيناً . . . لقد أقفر الحى من عفراء وقد كانت بهجته ، وخلت الدور منها وقد كانت ريحانتها ، واختطفها منهم رجل غريب عنهم ففقدوا بفقدها وجهها المشرق ، وحديثها العذب وطبعها السمح الكريم الذى لا يعوضهم عنه غيرها من النساء . على أن كثيراً ممن حزنوا لرحيلها لم يكن حزنهم إلا عطفاً على عروة المسافر البعيد وقد علموا بأمره فيها ، ورثاء لعفراء الراحلة وقد علموا بأمرها فيه .

وتنبه أبو عفراء للصدمة بعد رحيل ابنته وأحس وقعها على عروة إن حضر إلى الحي ، فعمد إلى حيلة ظن أنها تعفيه من

جريرته وتوهم أنها عزاء لعروة فيما يقاسيه .

يقول الرواة : لقد عمد أبو عفراء إلى قبر عتيق فسواه ولطخه بالطين من كل جانب ، واتفق مع أهل الحى أن يخبروه بموتها حين حضوره . . وأن هذا القبر قبرها ، ورضى القوم بذلك حرصاً على حياة هذا المسكين ؛ فخبر موتها على نفسه أخف إيلاماً من خبر زواجها من رجل غريب رحل بها إلى بلاد بينه وبينها أمد بعيد . . !

* * *

رحل عروة من لدن قريبه فى فجر اليوم الذى رحلت فيه عفراء . .

هو عائد بمهر عفراء إلى حيها الحبيب . . وهى راحلة بقلب حزين إلى متسقرها البعيد !

رحل عروة وقد أكرمه قريبه وطيب خاطره . . لقد أطعمه وكساه ووهب له مائة من النياق . . وها هو ذا عروة على ناقته البيضاء ، وخلفه النياق يحدوها حاديها ، وخلفها سار صاحباه العامريان .

سار عروة منتعش النفس ، نابض القلب زاخراً بالحياة والأمل .

ولِمَ لا ؟ وهذه الإبل جميعها مهر عفراء بل تزيد . . .

إنه حقاً لمبتهج ، وإنه حقاً لفرحان ، وإن بالإبل نفسها من النشاط والقوة وحركة السير السريعة ما به من النشاط والفرح

والابتهاج . وكأنما الإبل قد أحست ما بقلب عروة من فرح وأمل فأغذّت فى المسير ، واستجابت لحداء الحادى فى خفة وطرب ، إيذاناً بقرب المنى لهذا العاشق الولهان !!

ونظر عروة إلى النياق فاهتز وانتشى ، وإن عينيه لا تتحولان عنها لحظة من اللحظات . . وكأنه يخشى أن تنشق الأرض فتبتلعها أو يذهب بها الحادى إلى مكان بعيد .

وطرب عروة لغناء الحادى ، ولكن ما بنفسه من طرب كان أعذب وأحلى . . . طرب لحداء الحادى فاستحثه إلى أن بلغ منه الطرب مبلغه فأشار إلى الحادى « أن اسكت » وراح هو يغنى :

أيمم وجهى والحياة مريرة
على إلى خل من الأهل صاحب
لأجلك يا عفراء أقطع فدفدا
من الأرض علّى أن تكونى بجانبى
جزى الله خلى خير ما صنعت بنا
أياديه ، أهدتنى وصال الحبائب

وتذكر ما أنشدته عفراء ليلة وداعه فطرب وراح يغنى :

تغيب وتأتى يا ابن عمى مصاحبا
لك الأمن فى الترحال بين السباسب
وما ألفت نفسى سواك وإننى
على القرب أو فى البعد نجواك صاحبى

وهكذا واصلت القافلة سيرها على هذا النحو من الإشراق والتطلع حتى بقى للوصول إلى الحى مسيرة ليلة واحدة أو بعض ليلة !

* * *

سكنت القافلة فى منزل به ظل وماء لتستريح من وعث السفر ومشاقه . . . ونزل عروة من على ناقته فأبركها وقعد بجانب ركبتيها وقد أسند ذراعه على مؤخر عنقها وإذا سنة من النوم تفجؤه فيرى فيها كما يرى النائم فى أحلامه . .

رأى أنه فى المرعى . . . ورأى الشاة رفيعة تتسرب إلى بعض المسارب البعيدة ، ورأى ذئباً أعمل فيها أنيابه ، فجرى خلفها والكبش رفيع يجرى وراءه . . . وبعد لأى وجد الشاة تتشحط فى دمها فجرها من المسرب والدماء تنزف منها بينما الكبش رفيع يشمها من رقبتها فتلطخ أنفه وفمه بالدماء . . . !

وصحا عروة متفزعاً من هذا الحلم الكئيب وهو يصيح : يا لله . . . . يا لله . . . هذا حلمى القديم . . حلمى فى المرعى . . . حلمى الذى قصصته على عفراء فارتاعت منه !

ترى ما يكون يا رب ؟ !

وسمع صاحباه العامريان صياحه فسألاه ما به ؟ فقص عليهما ما رأى فقالا : أضغاث أحلام !!

وتشاء الأقدار — وعفراء فى هودجها الذى لم يصل إلى الشام بعد — أن يعتريها القلق ، فتغفو عيناها بعض اللحظات فترى

فى منامها نفس هذا الحلم ، وتشهد بعينيها الشاة « رفيعة » تتشحط فى دمها ، والكبش « رفيع » وقد تخضب أنفه وفمه من تلك الدماء .

وصحت عفراء من نومها مذعورة منزعجة وهى تهتف : ربّاه . . . رباه . . هذا هو حلم المرعى .. هذا هو الحلم عينه الذى قصه علىّ عروة فى حظيرة الأغنام !!

وتروح فى شبه غيبوبة ، وتسكب عيناها من الدموع ما شاءت أن تسكب . . . وحولها جاريتان لها تهدئان من روعها وما هى واجدة إلى الهدوء من سبيل !

عفراء فى هودجها تنتحب لأن حلمها قد تحقق . . . فلا حاجة بها إلى الشك والتأويل !

وعروة فى قافلته عائداً إلى حيه الحبيب . . . . ولكنه قلق مرتاع لا سبيل له إلى اليقين . . . وإنما هو فى جحيم من الشك والتأويل فيصيح . . . تُرى ما يكون يا رب !!

* * *

وصل عروة إلى الحى فى نفس اليوم الذى وصلت فيه عفراء إلى دار زوجها السرى بالشام . . واستقرت عفراء فى دارها الجديدة على كره منها . . . بينما عروة يطرق باب عمه وخلفه ثمانون من النياق !

وما إن رآه عمه حتى صاح به : عظم الله أجرك فى عفراء يا ابن أخى . واستعبر باكياً . . !

لم يدر عروة ما قال عمه . . . وما سمعت أذناه حرفاً مما قال . . . وكل ما اعتراه أن حملقت عيناه وثبتتا فى الرجل . . . وانفتح فوه وامتد فى اتساعه حتى ما عاد يطبقه وظن أن بعمه مساً من الجن أو طائفاً من الجنون .

وأسرعت رجلاه على غير وعى يطوف بأرجاء الدار كالمخبول ، يبحث عن عفراء فى كل ناحية فيها ، حتى كاد أن يشق الجدران علها فى جوفها أو ينبش الأرض لعلها مختبئة فى جوف الثرى !

ولمحته زوج عمه فى تلك الحال فأدركت ما به ، وتقدمت إليه مجهشة بالبكاء وقد أمسكته بيده قائلة : على رسلك يا عروة . . . تصبر يا بنى !

لقد ماتت عفراء فى مرض انتابها بعد رحيلك . . وكم وددنا لو كان ذلك ممكناً أن نبقى على جثمانها الحبيب حتى تعود ! !

تجلد يا عروة وتصبر وما صبرك إلا بالله !

رنت هذه النغمات الحزينة فى نفس عروة فبدأ يتيقن صدق النعى ، وما إن تيقن حتى سقط على الأرض فى إغماءة طويلة لم ينتبه منها إلا على عويل النساء حوله وبكاء الصبيان .

* * *

هب عروة من غشيته فراح يجرى كالمجنون فى دروب الحى يغمغم بكلمات مختلطة ، ويأتى بحركات مختلة لا يعيها ولا يفطن إليها . وعزّ علي عمه حاله فجرى إليه وأمسك به وقاده إلى قبر

عفراء وأراه إياه ؛ وما إن رآه حتى انكفأ عليه وراح فى غيبوبة كالموت بل هى أشد .

ومرت به نسوة من الحى فبكين من أجله ، وأنهضنه من رقدته ومسحن التراب عن وجهه ثم تركنه بجانب القبر لا يعى لمحدث ، ولا يفقه من أمر الدنيا شيئاً .

لزم عروة قبر عفراء ليلا ونهاراً لا يحيد عنه . . . يبكى آناً . . ويضحك آناً آخر ، ويمرغ وجهه فى التراب . ويشق ملابسه ، ويتسمع إلى داخل القبر بأذنيه ، وأحياناً يتحسسه بأنفه فيشمه ، ويطوقه بذراعيه ويلثمه وينبشه بأظافره وقد طالت ويمسحه بشعر رأسه وقد تشعث وتغبر .

ولم يتركه عمه بجانب قبر عفراء وحيداً . . وإنما كان يحمل إليه الطعام فلا يذوقه ، ويقدم إليه اللبن فيأخذ منه ما يبل حلقه وينلى صداه .

وتوفر الطعام حول القبر فحطت عليه الطيور والغربان ، واجتمعت عليه الكلاب من كل فج ، وعاش عروة بين هؤلاء وهؤلاء كأنه واحد منها ليس له من الحياة غير الجو والفضاء . . . الفضاء الذى يحتوى قبر عفراء .

وتجمع حوله الصبيان ينظرون إليه ، فبعضهم يبكى لبكائه ، وبعضهم يقدم له مما معه من خبز وتمر . . وبعضهم يحدثه عن عفراء فيقفز ثم ينكفئ على قبرها فى نشيج مكتوم !

وتتسابق إليه نساء الحى وجواريه ، هذه تحمل إليه اللبن ،

وتلك تحمل إليه العسل الممزوج بالماء فيعرض عن هذه وعن تلك . . . فينصرفن عنه جازعات مولولات . . !

ورحمه الله ولطف به ، فسكن من ثائرته ، وألهمه بعضاً من الوعى والتصبر ، فثاب إليه رشده ، وتيقظ لحاله ، فلزم قبرها لا يبرحه ، فكان يلصق صدره به وينشد :

هنا قبر لأحلامى وحبى
هنا عفرا . . . هنا خفقات قلبى
سأزفر زفرتى فى كل واد
وأسكب أدمعى فى كل درب
أرى الدنيا ظلاماً فى ظلام
وكل الأرض جدبا فوق جدب
أعفراء الحبيبة حدثينى
وإلا فاسمعى منى وحسبى
جرى حكم القضاء ولست أدرى
أذنبك ما أرى أم ذاك ذنبى
سأقطع بعدك الدنيا شريداً
إلى لقياك يوماً عند ربى
وكيف أعيش بعدك يا حبيبى
وما للعيش معنى بعد حبى

وعطفت عليه جارية من جوارى الحى فأقسمت لتخبرنه بالحقيقة . . فذهبت إليه ذات مساء وهو لاصق بالقبر فنبهته

فتنبه . . . وأخبرته خبر زواجها بالشام .

سمع عروة هذا الخبر فصاح صيحة كادت أن تزهق روحه . . . ثم انفجر صارخاً :

بالشام تزوجت ؟؟

وشدّ على راحلته فى فجر هذا اليوم ، وانساب بها وحده فى وحشة الفيافى ، وفى مسالك الصحراء بين التلال والرمال .

إلى الشام ! !

انساب عروة فى الفجر بين التلال والوديان ، فما أشرقت عليه الشمس حتى كان فى البيداء يضرب فى نواحيها بلا زاد أو ماء ، وإنما كان يتبلغ بما يجده فى طريقه من نبتة يلقاها فى رأس ربوة ، أو قطعة من الخبز سقطت من عابر سبيل .

ولولا أنه كان يعرج كلما عضه الجوع أو كاد يقتله الظمأ على قافلة تسير يستجدى منها طعامه وماءه لهلك فى الفيافى حزناً وجوعاً وعطشاً .

لقد سار متخبطاً فى طريقه لا يدرى ، هذا يرشده وذاك يعاونه وهو دامع العين مسلوب الفؤاد .

لقد طافت به الذكريات الموجعة فأنشد :

أناسية عفــراء ذكرى بعـــد ما
تركت لهـــا ذكراً بكل مكان
وإنى لأهوى الحشر إذ قيــل إننى
وعفراء يوم الحشر ملتقيـــان

وانحدرت به راحلته إلى واد عميق فسار فيه على غير هدى وإذا هو أمام معالم لم يألفها فى طريقه فجزع واضطرب وأبرك ناقته حيث وقفت ، ثم نزل عنها وقعد بجانبها وقتاً كاد يلفظ فيه أنفاسه ، وبينما هو فى ذهوله فإذا حداء من بعيد يطرق سمعه

فهبّ وشدّ على راحلته وسار حتى صعد على أرض مرتفعة منبسطة يمتد فيها الطرف ويمتد فلا يرى لآفاقها نهاية ولا لأطرافها حدوداً .

* * *

ظل عروة فى مسيره يحمله مرتفع ويحطه منخفض ، وتطويه فيافى جرداء ، وتغمره بيداء وبيداء حتى لمح عن بعد طيراً وشجراً ، فأغذّ السير إليه فإذا نسوة حول ماء يستسقين فنزل عن راحلته وتوجه إليهن قائلا :

وحيد ضل فى الدنيا غريبــا   فهل يلقى بواديكم نصيبا

فأجابته إحداهن :

نعم ، يلقى بوادينا نصيبــا   وينزل بيننا سهلا خصيبا

وقالت الأخرى : وإلى أين يا غريب ؟

فأنشد :

هوى ناقتى خلفى وقُدّامِىَ الهوى
وإنى وإياهــا لمختلفــان
فياليت كل اثنين بينهما هــوى
من النــاس والأنعــام يلتقيان
فيقضى حبيب من حبيب لبانة
ويرعاهما ربى فلا يربان

وصاحت إحداهما بالأخرى : هذا ــ لعمرى ــ عاشق ملتاع !

وما سمع عروة قولها حتى أنشد :

على كبدى من حب عفـــراء قرحة
وعينـــاى من وجـــدى بها تـــكفان

وانصرف عروة بناقته وقد شرب عندهن وأطعم . . وما سار أو كاد حتى تبعته جماعة من الغربان تحلق فوقه فى نعيق صارخ فأنشد :

ألا يا غرابى دمنة الدار بينـــا
أبالهجر من عفراء تنتحبان ؟
فإن كان حقًّا ما تقولان فاذهبـــا
بلحمى إلى وكريكمـــا فـــكلانى
كُلانى أكلا لم يـــر الناس مثله
ولا تهضما جنـــبىّ وازدردانى

* * *

ضل عروة وحاله تلك فى الفيافى وأسلم نفسه للأقدار ..

وظل فى مجاهل من الأرض يوماً وليلة حتى كاد أن يهلك ، ولكن رحمة الله به كانت قريبة فعثر عليه قوم من عرب الشام يحملون عروساً إلى الشام . . . فأخذوا بيده وسار خلفهم ، وقد ركبت العروس فى هودج كبير خلفه النياق يحملن الجوارى وفيهن واحدة تغنى :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا — فقالوا لنا ، ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم — سريعاً ، ولا يغشى لنا النوم أعينا

فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما   نلاقى ، لكانوا فى المضاجع مثلنا

وما سمع عروة هذا الغناء حتى صرخ صرخة مدوية سكن لها الركب ووقف وتبينوه فإذا هو ينشد :

أعفـــراء هذى ؟ يا خليلى خبرا
بوجدى وما لاقيت منذ زمان
لقد تركت عفـــراء قلبى كأنـــه
جنـــاح غـــراب دائم الخفقان .

وما سمعت الجوارى اسم عفراء فى إنشاده حتى صاحت إحداهن : عفراء . . . ؟ تلك التى وصلت من البيداء منذ أسابيع . . وهذا — لعمرى — صاحبها !

وقالت الأخرى : وإنه لابن عمها . . وقد تحدث الناس فيهما منذ وصولها إلى الشام !

ولما وصل الركب إلى مسيرة يوم من الشام اتخذ طريقه إلى حى العروس ، وانحرف عروة فى طريق آخر إلى الرى فوصل إليه ليلا ونام براحلته على باب مسجد حتى طلع النهار .

* * *

وصل عروة إلى الرّى بعد ما أنهكه السفر وأضنته المتاعب والأحزان .

إنه الآن لا يدرى ماذا يصنع ؟ ولا كيف يبحث عن زوج عفراء ؟

وإنه كذلك لا يعرف اسم الزوج . . . وليس له سابق صلة

بسكان هذا الحى . . . فما العمل ؟

لقد أبرك ناقته على باب المسجد ، وقبع بجانبها يدير بصره فى المارة من الناس ، وينظر إليهم نظرات ملهوفة بلهاء لا تعبر إلا عن الأسى والحيرة والاضطراب .

* * *

قضى عروة ليلته على باب المسجد دون أن يقف على خبر يهديه إلى دار السرى زوج عفراء .

لقد لفه الليل فى ظلامه الرهيب ، فما كان يسمع حوله همسة أو نأمة إلا نباح الكلاب وصياح الديكة فى الحين بعد الحين .

لم يغتمض له جفن ، ولم تهدأ له هاجعة حتى أذن الفجر فرأى ما يشبه الأشباح تتسلل فى ضوء الفجر الخافت إلى المسجد ، وسمع فى خفوت دعوات المصلين وهم يتهيأون للصلاة ، فهرع إلى داخل المسجد وصلى معهم ودعا الله أن يهبه من لدنه حلاوة الصبر ونعمة الإيمان .

وبينما هو كذلك وقد أقبل الضحى وإذا بصبية يلعبون ويمرحون قد اقتربوا منه ونظروا إليه فعرفوا أنه غريب عن الحى .. فصاح فيهم :

أمن سكان الحى أنتم أيها الصبية ؟

فأجاب أكبرهم : أجل يا عماه . . . فهل لك من مسألة ؟

قال عروة : هل سمعتم بعرس جديد أقيم فى حيكم هذا منذ شهور ؟

وأجاب الصبية فى صوت واحد : أجل يا عماه !! إنه عرس عفراء القادمة إلينا من بادية الحجاز ، وإن زوجها هو فلان ابن فلان من عدنان،لقد نعم الحى كله بالكساء والطعام والهدايا أيام العرس. . . لأن زوجها على قدر من النعمة واليسار . . !

ونظر عروة إلى الصبية بوجه باسم وقال : هل لكم أيها الصبية أن تدلونى على دار بعلها ؟

وقاده الصبية إلى دار عفراء . . . ثم انصرفوا !!

وطاف عروة براحلته حول الدار حيناً من الزمن ، وفجأة أبصر رجلا يخرج من باب الدار فأقبل عليه عروة وحياه وانتسب إليه فى عدنان متخذاً لنفسه اسماً تخيره !!

رحب الرجل بعروة وأنزله بداره ضيفاً مكرماً . .!

كان ذلك الرجل هو زوج عفراء . . . !

عُروة فى دارِ عفراء . . . ! !

ومهما يكن عجيباً أن ينتحل عروة اسماً غير اسمه ، وأن ينزل ضيفاً فى دار رجل لم يعرفه من قبل . . . مهما يكن من العجب . . فإن عروة الآن فى دار عفراء وهى لا تعلم من أمر هذا الضيف إلا أنه رجل ينتسب إلى زوجها وقد حل بهم ضيفاً .

عروة الآن فى دار عفراء وليس بينه وبينها إلا الحوائط والأستار ! !

إنه الآن لمستريح وإن كان بين جنبيه جمرات من الوقد المشبوب ! !

إنه بجانبها ، وفى الدار التى تعيش فيها ، فحسبه أن يحس بوجودها ، ويسمع صوتها ويناجى خيالها ، ويأكل من طعامها الذى تهيئه بيدها .

حسبه هذا وذاك . . . فما فى طبيعة شاعر مثله محب أن يكون بها من النوازع النفسية ما يخرجها عن التهذيب والتعفف ! !

إنه ولهان بها . . . مجنون برؤيتها والتحدث إليها . . . فما يذوق من الطعام عندها إلا ما يمسك عليه رمقه . . . ولا يطمئن جنبه إلى مضجع على طول ليله وسهده !

عفراء بجانبه ولا يكلمها . . . أو يراها . . يا لحرقة قلبه . . ولهيب فؤاده !!

وعفراء بجانبه يحدثها رجل غيره ويضمها وإياه مكان واحد . . . !

يا للغيرة تأكل قلبه !! إنه حبيب وامق . . . فى ثوب ضيف مزيف !!

لم يهدأ لعروة بال ... ولم تسكن له جانحة ، ولم ترقأ له عبرة ، ولم تخمد له زفرة ، ولم يغتمض له جفن !!

هذا هو صوت عفراء عينه . . إنه ينساب فى نفسه الآن فلا ينديها وإنما يعتصرها عصراً .

وذاك دبيب قدميها ورنين خلاخلها غادية رائحة فى صحن الدار تنفذ إلى أعماقه فتدميها .

وهذا عطر ثيابها وطيب شعرها ينساب فى خياشيمه فيبتلعها ابتلاعاً ثم يمسكه فى جوفه خوف أن يتسرب منه إلى الهواء !!

إنه لا يراها . . . وهى لا تدرى شيئاً عن وجوده . . وإن صاحب الدار لمحتف به أيما احتفاء ؛ فهو ملازمه منذ الصباح حتى يخلى عنه فى المساء البعيد .

وكم جاهد عروة نفسه ، ونازل عواطفه فكتمها على حذر ، وراقبها فى الخفاء وهى تصطدم فى صدره وترتطم . . . فما ينبغى لمثله أن يدخل الدار ضيفاً عزيزاً ، ثم ينقلب أمام مضيفه محباً وامقاً . . !

* * *

ضاق عروة بالتصنع الذى ما عاد يحتمله وبدأ يفقد توازنه وتماسكه ، وظهر ذلك فى أرقه الدائم وتململه واضطرابه فى فراشه . .

خنقته عبراته فى ليلة طالت عليه واشتدت فانفجر باكياً فى خفوت وراح يدعو على عمه فى همس :

فيا عم يا ذا الغــدر لا زلت مبتلى
حليفــاً لهــم لازم وهــوان
غدرت ، وكان الغــدر منك سجية
فألزمت قلــبى دائم الخفقــان
وأورثتنى غمـاً وكــرباً وحسرة
وأورثت عينى دائم الهملان
فلا زلت ذا شــوق إلى من هويته
وقلبــك مقســوماً بكل مكان

وفى سكون الليل ورهبته أحست الجارية « نجف » بصوت خفيض فى مخدع عروة . . . فأسرعت إلى باب المخدع وسلطت أذنيها على ثقب فيه .

وتنبه عروة إلى حركة فى الخارج فأمسك ! وكانت الجارية قد سمعت كلاماً لم تتبينه وإن أحست أنه كلام منغم على كل حال ، فما أصبح الصباح حتى قالت لمولاها وهى تصب

الماء على يديه للوضوء : ضيفنا هذا شاعر . . . !

وسمع مولاها ذلك فصاح : فضلا وكرامة . . . إنما يتنزل الشعراء حين يزورون أمثالنا . . . !

وانتهى الرجل من صلاته ودخل على عروة هاشًّا باشًّا وصاح : تبخل علينا بشعرك يا ابن العم ؟

وأدرك عروة واضطرب وقال : ما أنا بشاعر !!

قال الرجل : « نجف » تقول !

وأجاب عروة : لعل أشباح الليل طافت بها . . . وللأشباح هواتف كأنغام الشعر بل هي أحلى !!

* * *

فى ذلك الصباح اضطر زوج عفراء إلى الخروج لشأن من شئونه فى حىّ آخر قريب من داره !

وخلى عن عروة فى الدار لحاجته إلى النوم !

فى تلك الأثناء دخلت الجارية « نجف » على عروة تحمل فى يدها إناء اللبن لفطوره . . فما إن رآها عروة حتى تقدم إليها مستعطفاً وقال :

هل لك يا نجف فى يد توليها ؟ قالت الجارية : أجل . . قال عروة : تدفعين بخاتمى هذا إلى مولاتك !

واستنكرت الجارية هذا الطلب وأجفلت وقالت له : سوأة لك يا رجل !! أما تستحى لهذا القول ؟ فأمسك عروة وأطرق . . ثم عاد فقال : ويحك يا نجف !! هى والله بنت عمى ...

وما أحد منا إلا هو أعز على صاحبه من الناس ، فاطرحى هذا الخاتم فى صحنها . . فإن أنكرت عليك ذلك فقولى لها : اصطبح ضيفك قبلك . . ولعل خاتمه سقط منه فى الصحن . . .

قال هذا وراح فى إغماءة قصيرة ! !

سمعت الجارية هذا الكلام فأحست بصدقه ، ورثت لصاحبه وفعلت ما طلب منها !

وما شربت عفراء لبن الصباح ورأت الخاتم فى قاع الصحن حتى تفزعت واضطربت وصاحت بالجارية : اصدقينى الخبر يا نجف . . . هذا خاتم ابن عمى!! هذا خاتم عروة . . . فمن أين لك به ؟

قالت الجارية : هدئى من روعك يا مولاتى ! إنه ضيفك الذى نزل بنا منذ أيام !

فصاحت عفراء : تقولين ضيفى ؟ أهو عروة ؟ أهو ابن عمى ؟ ربّاه ! أحلم ذاك أم خيال ؟

وبينما هى تصيح متعجبة مضطربة إذ دخل عليها زوجها . . وما إن رأته حتى صاحت به فى لهفة : أتدرى من ضيفك هذا ؟

قال الزوج : هو فلان ابن فلان من قبيلتنا . . وذكر لها الاسم الذى دخل به عروة ضيفاً !

قالت عفراء وهى واجفة حزينة : كلا ! ما هو ذاك ؛ بل هو عروة ابن عمى . . وقد كتمك نفسه حياء منك . . . !

ارتعدت فرائص الزوج وأحس بل توجس أن فى الأمر شرًّا ينتظره !

ولمحت عفراء ما بنفس زوجها من القلق والانزعاج فهتفت به : ما بك ؟ ما بك . . ؟ إنه عروة ابن عمى ! !

ورأى الرجل ما بنفس عفراء وهو الحريص عليها . . والمشغوف بها . . وتذكر ما سمعه عن عروة من الخير والعفة ومن ألفته بها صغيرين فشدّ على نفسه وقال : مرحباً به يا عفراء . . . مرحباً بعروة ابن عمك !

وجرى إليه فجذبه من يده وأدخله على عفراء بعد أن عاتبه على كتمان نفسه !

فما رأى كل منهما الآخر حتى بكى واستعبر . . إلا أن عفراء لم تنس موقفها كزوجة ؛ فكتمت فى نفسها ما أحست به من ذهول المفاجأة وتماسكت !

أما عروة فقد ارتمى على الأرض مغشيًّا عليه والزوج بينهما مذهول يردد : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ! .

ولما أفاق عراوة من غشيته باهتاً هزيلا خاطبه الزوج فى نغمة الشهم : يا عروة بن حزام ! هذه عفراء ابنة عمك . . . ووالله ما كنت أعلم أن ما بينكما قد وصل إلى هذا الحد . .

فاجلس إليها وتحدث بما تريد . . . وإن إعزازى لها ليحول بينى وبين إغضابها .. وثقتى فى عفتك وصدق شعورك ليحول بينى وبين القسوة عليك . فالدار دارك فأقم فيها بيننا . .

وإنى وإياها لصاحب لك وصديق .

سمع عروة كلام الزوج وهو ذو الحس المرهف فتأثر وبكى وتعزى بما وجد فى زوج عفراء من كرم وتسامح وحسن استقبال .

* * *

جلس عروة إلى عفراء على علم من زوجها فى ضحى يوم من الأيام ، وعلى بعد منهما الجارية « نجف » تسترق السمع ولا يريانها . . . قال عروة : يا عفراء . . . رجعتُ إليك بمهرك ثمانين ناقة فقالوا لى إنك متّ !! . . . .

وأرونى قبرك يا عفراء ، ولاتسألى عما حل بى . فأنت لاشك واثقة به . . . !

قالت عفراء : قبرى . . . ؟ قبرى أنا يا عروة ؟

أجل يا عفراء . . . وقد لزمته وبكيتك فى شعرى !

وابتسمت عفراء وقالت : وما قلت فىّ يا عروة ؟ فأنشد :

سأقطع بعدك الدنيا شريداً
إلى لقياك يوماً عند ربى
وكيف أعيش بعدك يا حبيبى ؟
وما للعيش معنى بعد حبى

وبكت عفراء وصاحت بعروة : لا تنهض الأوجاع فى قلبى ... وحسبى ما لقيت بعدك من الضنى والعذاب !! وأطرقت.

قال عروة : أوثقت يا عفراء من حلم المرعى ؟ حلم الشاة

رفيعة والكبش رفيع ؟

أوثقت يا عفراء أن ما سمعناه من قصص « الفزارى » كان إرهاصاً لخاتمتنا ؟

وشهقت عفراء وزفرت زفرة أحرقت صدرها وقالت : بالله يا عروة إلا ما رحمتنى من هذا الحديث !! وزفر هو الآخر زفرة مريرة وأنشد :

فيا عـــم لا أسقيت من ذى قرابة
بلالا ، فقد زلت بـــك القدمان
ومنيتنى عفـــراء حتى رجـــوتها
وشاع الذى منيت كل مكان
بنية عمى ، حيـــل بينى وبينهـــا
وصاح لوشك الفرقة الصردان

وما إن انتهى من إنشاده حتى دخل الزوج فأسرعت الجارية لاستقباله وهتفت به :

ألم أقل لك يا مولاى : إن ضيفنا شاعر ؟ قال الزوج : وما رأيت ؟ قالت الجارية : والله كل نخير يا مولاى ! والله إنها ما تنظر إليه إلا أطرق .. . وإنه ما ينظر إليها حتى تطرق..!

لقد تباكيا وتشاكيا حتى حضرت .

ودخل الزوج على عروة وعفراء فحياهما وهتف : الطعام يا عفراء !

وكان خبر عروة قد سرى فى الحى وذاع ، وعرف الناس

قصته ومقامه عند زوج عفراء . . .

وكان ممن علموا بأمره ابن عم للزوج فثار وغضب . . . وتوجه إلى الزوج فلقيه بباب داره فصاح به : تتركون هذا الكلب الذى قد نزل بكم هكذا فى داركم فيفضحكم ؟

قال الزوج : ومن تعنى ؟

قال ابن عمه : عروة بن حزام العذرى .

فأجابه الزوج : والله ، ما عروة هكذا !! بل أنت والله الكلب !! وهو القريب الكريم ، والشاعر العفيف !!

* * *

طال مقام عروة بضعة أيام فى دار عفراء ، وزوجها يوليه عطفاً بعد عطف ، ورعاية على رعاية . ولقد كان مسلك الزوج إزاء عروة مسلكاً كريماً . . . إنه حقاً لزوج طيب القلب ، صافى السريرة .

لقد أحس فى زيارة عروة — رغم انتحاله اسماً مزيفاً — أنه صادق العاطفة ، وأنه عفيف القصد ، وأنه كان محبّاً لعفراء حبّاً طاهراً عذريّاً .

لقد ولد حبهما فى طفولتهما ، ثم شب معهما صبيين ، ثم تمكن منهما فى مطلع الشباب !

أحس الزوج بهذا كله ، فشعر أنه اقترف جريمة لم يتعمدها . وأنه بزواجه من عفراء قد قتل أول شاعر من شعراء الحب العذرى هو عروة بن حزام الذى رثاه الشعراء من بعده وفى مقدمتهم

مجنون ليلى !

لقد قتله الزوج غير عامد . . . قتله بماله وثرائه وإغرائه هند أم عفراء بالألطاف والهدايا . . . !

أحس الزوج كل هذا فأظلمت نفسه حزناً وود أن لم يكن قد تم هذا الزواج الذى ذهب — أو كاد — بنفس بريئة كانت أحق منه بالهناءة والإسعاد !

إنه لم يكن يعرف عفراء من قبل ، ولكنه تزوجها شغفاً بجمالها ورغبة بالتمتع بها !

ولم لا ؟ وهو الثرى الوجيه الذى يستطيع أن يشترى متعه ورغباته بالمال والثراء !

* * *

أدرك زوج عفراء كل هذا ، وتيقن أن عروة كان أحق منه بعفراء .

فهو ابن عمها . . ورفيق طفولتها ، وزميل صباها ، ثم هو حبيبها الذى ما عرف سواها ، وما عرفت سواه !

أحس الزوج كل هذا فكفر عن سيئاته بمعاملته الطيبة لعروة أثناء مقامه فى داره .

وما أروع أن يقول الزوج لابن عمه الذى شتم عروة ووصفه بأنه كلب :

والله ما عروة هكذا ! بل أنت والله الكلب . . . وهو القريب الكريم ، والشاعر العفيف !!

الرّحيل . . . !

لم يطل مقام عروة فى دار عفراء أكثر مما طال .

لقد قدر عروة كرم زوجها وأحس فى مقامه عنده غضاضة عليه فقال لعفراء صباح يوم :

يا ابنة عمى : كنت حظى من الدنيا ، فذهبت عنى ! وسأرحل عنك إلى حتفى ، فما لى من عيشة بعدك . وقد أجمل زوجك الكريم وأحسن ، وقد بالغ فى صنيعه، وكرمه ، فوالله لا أقيم عنده بعد اليوم ، فأستودعك الله يا عفراء !

وأسرعت خطواته إلى باب الدار ، فجرت عفراء خلفه وأمسكت به وصاحت : والله لا تريم هذا المقام حتى يحضر زوجى !!

وتشبثت به . . . وتشبث هو بالباب ، وإذا زوجها يطرق ، وما إن دخل حتى رأى عروة على أهبة الرحيل فصاح به :

يا ابن العم ! اتق الله فى نفسك .. . وإنك إن رحلت عنا تلفت !!

ولعمرى ما أمنعك من رؤية عفراء أبداً . . . ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك !!

ذهل عروة مما سمع فقال : جزاك الله خيراً يا زوج عفراء ،

وأحسن إليك جزاء ما صنعت ، وبورك فيها وفيك . . وجعلنى الله فداء لابنة عمى وثمناً لراحتك وإسعادك والسلام عليكم ...!

وخطا إلى الخارج فمنعه الزوج وصاح : يا عفراء . . . امنعى ابن عمك من الرحيل . . . فأجابت عفراء فى كمد :

دعه يرحل . . . فما فى بقائه بيننا من أمل له ، ولا من راحة لنا . . وما فى رحيله نجاء مما به !! فدعه يرحمه الله . . . ثم رحل وقد زودته بخمار لها علّه يشفيه .

* * *

تجددت أحزان عفراء بعد رحيل عروة ، لقد كانت رحلته إليها وإقامته فى دارها طعنة أخرى لجرح كان أوشك أن يندمل .

لقد تجرعت عفراء ليلة رحيله من الآلام والأوجاع ما تحملت ليلة زفافها فى حيها الذى نشأت فيه فى البادية .

فما رحل عروة عنها إلى حيث لا يدرى ولا تدرى حتى تبدلت حياتها مع زوجها ، فهو وإن كان رجلا طيباً كريماً فإنه ليس الرجل الذى تهواه .

إنها تحترم فيه رجولته وشهامته وحبه إياها . . . ولكنها لا تحس نحوه بخفقة القلب أو نبضة الوجدان . لقد اعتراها الملل بعد رحيل عروة فبدا عليها رغم تظاهرها بالهدوء والرضاء .

ولقد تملكها القلق والحيرة والانقباض والوحشة رغم محاولتها الكتمان . . . ولقد أحس زوجها ما تعانيه فعمل جاهداً على

التسرية عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

إن عفراء لتسائل نفسها : ما ذنب هذا الزوج الطيب الوفى ؟ فيجيبها عقلها :

إنك على غير حق .. وإنك لقاسية عليه ، وإن واجبه عليك كزوج لأعظم مما تؤدين له من مجاملة كزوجة كريمة وفية . . . ! !

ويسمع قلبها كلام عقلها فيهتف :

صه أيها العقل . . . إنها تحب ! ! وإن لها حبيباً تتمناه ، وليس لها إليه من سبيل !

* * *

رحل عروة عن عفراء إلى حيث لا يدرى !

لقد هام على وجهه فى الفيافى والقفار وقد شحب وجهه وغارت عيناه وتشعث شعره ، وبرزت عظامه .

وما زال هكذا شريداً فى القفار حتى تولاه جماعة من صعاليك الصحراء تعرفوا عليه ، ورثوا لحاله فما زالوا به حتى أسلموه إلى أمه وقد أسنت وأعقبت له ثلاثاً من البنات .

وكانت أمه تسكن حياً من أحياء بنى عذرة وقد مات عنها زوجها قتيلا وترك لها ولبناته شيئاً من اليسار . وها هو ذا ولدها الوحيد يعود إليها شريداً مخبولا .

وبكت أمه وأخواته حين رأينه ، ووقفن عليه يمرضنه وهو لا يزداد إلا نحولا وذهولا .

ولقد أعيتهن الحيل فأشارت عجوز بحمله إلى ابن مكحول عراف اليمامة فحمل إليه فما إن رآه حتى قال : هذا والله مخبول . . .

فأجاب عروة :

وما بى من خبـــل وما بى جنة
ولـــكن عمى يا أخىّ كـــذوب

أقول لعـــراف اليمـــامة داونى
فإنك إن داويتـــنى لطبيب

فواكبدا أمست رفاتاً كأنمـــا
يلدغهـــا بالموقـــدات طبيب

عشية لا عفراء عنـــك بعيـــدة
فتسلو ، ولا عفراء منك قريب

فوالله لا أنساك ما هبت الصبـــا
وما عقبتها فى الرياح جنوب

وإنى لتغشانى للذكـــراك هـــزة
لها بين جلدى والعظام دبيب

وما نفع عروة طب ابن مكحول ، ولا أجدى عليه سحر « سالم » الساحر اليمنى . . فحمل إلى عراف نجد . فلما رآه العراف قال : إن به لسحراً . . . فأجلسه وجعل على رأسه طبقاً به ماء وأذاب فيه الرصاص . . ثم سكبه ودفنه فى فضاء من الأرض . . . فما زال عن عزوة ما به ، وإنما زاد ضناه ، واشتد

عليه الذهول وغمره اليأس فأنشد :

جعلت لعرّاف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا نعم : نشفى من الداء كله ... وقاما مع العواد يبتدران
فما تركا من رقية يعلمانها ... ولا سلوة إلا وقد سقيانى
وقالا شفاك الله . والله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

* * *

لم ينفع عروة طب العرافين ولا سحر السحرة فرجع به أهله وهو لا يعى .

وقال قوم لأهله : احملوه إلى ابن عباس ليطوف به حول الكعبة ويدعو له . . فحمل إلى ابن عباس رضى الله عنه على يد رجلين من قومه .

قال من رآه : كنت مع ابن عباس بعرفات ، فأتاه فتيان يحملان بينهما فتى لم يبق منه إلا خياله فقالوا له :

يا ابن عم رسول الله : ادع له .

قال ابن عباس : وما به ؟

فأجاب عروة :

بنا من جوى الأحزان فى الصدر لوعة
تكاد لها نفس الشفيق تذوب
وما عجب موت المحبين فى الهوى
ولكن بقاء العاشقين عجيب

فدعا له ابن عباس وطاف به حول الكعبة ، ثم سأل عنه ؛

فقيل له : هو عروة بن حزام قتيل الغرام . .

فقال : خذوه يرحمه الله . . !

وما نسى ابن عباس فى صباحه ومسائه أن يدعو له ، ويسأل الله العافية مما ابتلى به .

وذهب به أهله إلى حيث هم فوضعوه طريحاً فى دار أمه لا يعى ، ومن حوله أمه وأخواته يبكين حتى مرّ به ابن أبى عتيق فتعرف عليه .

حدث الرواة أن ابن أبى عتيق قال حين رآه :

والله إنى لأسير فى أرض عذرة ، فإذا فتى راقد بفناء دار.. وإذا بعجوز وراءه فى كسر البيت وإذا الفتى فى جسم طفل صغير ناحل هزيل ،وإذا له لحية طويلة مشعثة فدعوت العجوز وقلت لها : ويحك ! من هذا ؟

قالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ قلت : نعم ، قالت : هذا والله عروة !

فقلت له : أأنت عروة ! فكلمنى وعيناه تذرفان وتدوران فى رأسه وأنشد :

وقد علمت نفسى مكان شفائها
قريباً وهل ما لا ينال قريب ؟

حلفت برب الساجدين لربهم
خشوعاً وفوق الساجدين رقيب



لئن كان يرد الماء حران صاديــا
إلىّ حبيبــاً ، إنها لحبيب !
ثم رفع رأسه إلىّ وقال :
من كان من أمهاتى باكياً أبــداً
فاليوم إنى أرانى اليوم مقبوضــا
يسمعنينه ، فإنى غير سامعــة
إذا علوت رقاب القوم معروضــا

ثم شهق شهقة وأغمض عينيه ، فقربت منه أتحسسه فإذا هو جثة هامدة .

ونظرت إلى العجوز وقلت لها : ما يكون منك يا هذه ؟

قالت : هو ولدى !! قلت لها : يرحمه الله !

* * *

قضى عروة وقامت عليه النوادب .

ويقول الرواة : طار خبر موت عروة فى الآفاق ، فحملته قافلة كانت راحلة إلى الشام وقد عرف رجالها قصته ، فعرج جماعة منهم إلى دار عفراء وهتفوا :

ألا أيها الــدار المغفل أهلهــا
إليــكم نعينــا عروة بن حزام

وسمعت عفراء النداء فصرخت هاتفة :

ألا أيها الركب المخبون ويحكم
أحقًّا نعيتم عروة بن حزام ؟

فأجابوا :

نعم ، قد دفنّا بأرض بعيدة
مقيم بها في سبسب وأكام

فقالت عفراء :

فإن كان حقًّا ما تقولون فاعلموا
بأن قد نعيتم بدر كل ظلام
نعيتم فتى يسقى الغمام بوجهه
إذا هي أمست غير ذات غمام

وملأت عفراء دارها صراخاً وبكاء وقالت لزوجها :

هذا ابن عمي عروة . . مات بسببي ومن أجلي ، فدعني أقم عليه مأتماً ، فكان لها ما أرادت . وأقامت المأتم ، وما زالت تبكيه حتى قضت بعد المأتم بأربعة أيام .

ويقول الرواة : مرّ عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في بعض طوافه ببادية الحجاز بدار فيها عجوز تندب وحولها بعض النسوة يبكين ، وأمامهن فتى شاحب نحيل طالت لحيته ، واغبر شعره ، ودارت عيناه في محاجرها فسأل :

من الفتى ؟ فأجابت إحدى النساء : هو عروة بن حزام ... حبيب عفراء ، وقتيل الغرام .

فتمتم عمر رضي الله عنه بكلمات خافتة ثم قال :

والله لو علمت أمرهما لجمعتُ بينهما .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

الكتاب القادم

اقرأ

العالمية في الإسلام

أحمد الشرباصي

دار المعارف بمصر

تقدم فى مكتبة الأطفال والناشئة

مجموعة (حكايات مصورة للأطفال)

تستهوى الطفل بصورها الملونة النابضة بالحياة ، وتسترعى انتباهه بموضوعاتها اللطيفة التى يجنى منها العبرة والفائدة .

صدر فى هذه المجموعة :

١ ــ الأصدقاء الأربعة	١١ ــ بونى يبحث عن فطور
٢ ــ الاختراع المدهش	١٢ ــ سعاد وعروستها
٣ ــ الفيل زوزو فى الغابة	١٣ ــ الأرنب توتو والطبلة
٤ ــ أبو خطاف صياد السمك	١٤ ــ الثعلب والتمساح
٥ ــ علوان فى حديقة الحيوان	١٥ ــ الفراشة المحبوبة
٦ ــ سمير يروح المدرسة	١٦ ــ الكلب بونى فى العطلة الصيفية
٧ ــ سمير وسميرة	١٧ ــ القرد ميمون أمام المحكمة
٨ ــ البطة دودو	١٨ ــ رونى فى السيرك
٩ ــ الثعلب الطماع	١٩ ــ سوسن فى الإجازة
١٠ ــ القطار الأزرق الصغير	٢٠ ــ القط سمسم يبحث عن صديق

ثمن النسخة ٨ قروش

اقرأ

الفداء في الإسلام

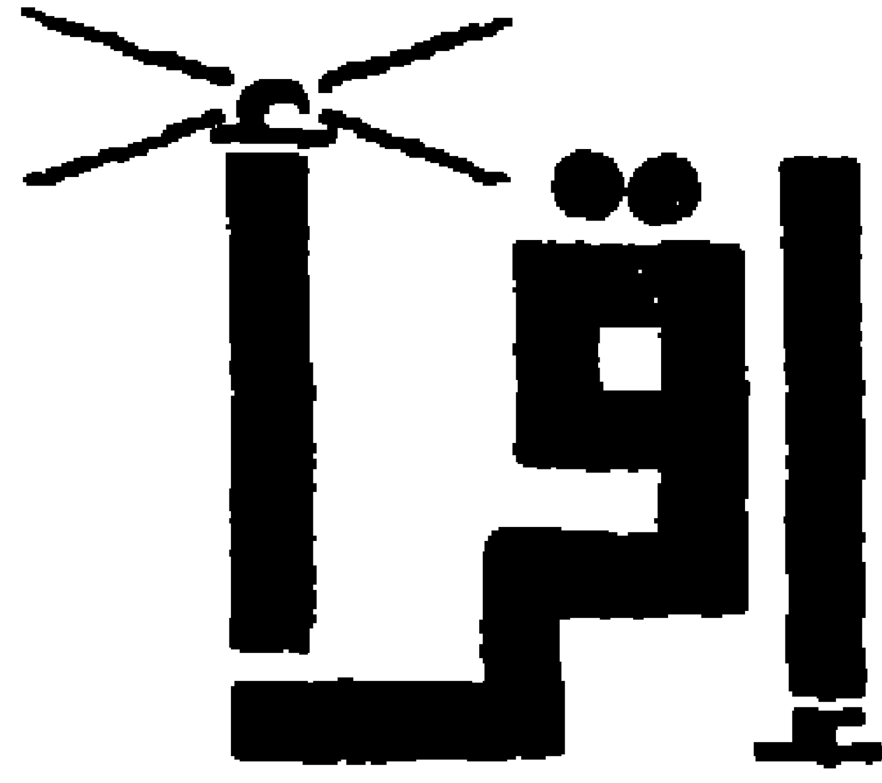


الدكتور أحمد الشرباصي

دار المعارف بمصر

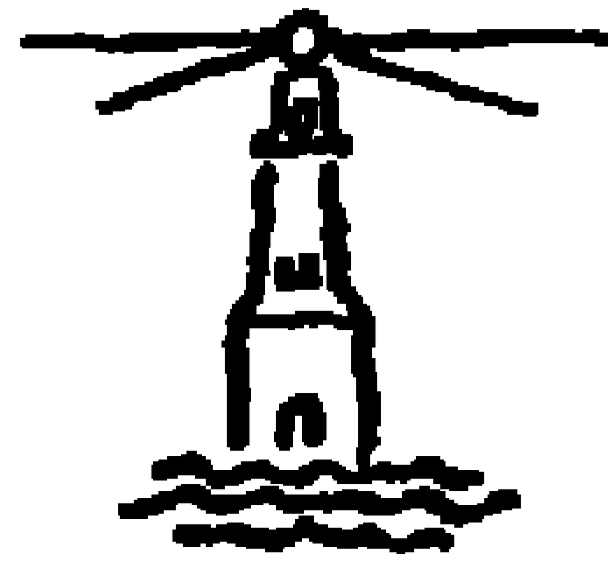
عدد ممتاز

١٠



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

الدكتور أحمد الشرباصى

الفداء فى الإسلام

اقرأ ٣١٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٤ — فبراير سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأُصلِّى وأُسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ؛ وأستفتح بالذى هو خير « ربَّنَا عليكَ توكَّلْنا ، وإليكَ أَنَبْنَا ، وإليكَ المَصِير » .

قبس من كتاب الله

[فاسْتَجابَ لَهُمْ ربُّهُم أنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ منكم
مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى ، بعضُكم مِنْ بعضٍ . فالَّذِينَ هاجَروا
وأُخْرِجوا مِنْ ديارِهم . وأُوذُوا فى سَبيلى . وقاتَلُوا وقُتِلُوا ،
لأُكَفِّرَنَّ عنهم سيِّئاتِهم ، ولأُدْخِلَنَّهم جناتٍ تَجْرِى مِنْ
تحتِها الأَنهارُ ، ثواباً من عندِ اللهِ ، واللهُ عندَه حُسْنُ الثواب .
لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَروا فى البلادِ ، متاعٌ قليلٌ ؛
ثم مَأْواهُم جهنَّمُ وبِئْسَ المهاد ، لكن الذين اتَّقَوْا ربَّهم
لهم جنَّاتٌ تَجْرِى من تَحْتِها الأَنهارُ خالدين فيها ، نُزُلاً
من عِندِ الله ، وما عندَ اللهِ خيرٌ للأَبرار]

[سورة آل عمران]

فاتحة

هذا كتاب يأتى فى أوانه ، وأرجو أن تتوثق صلتُه بمكانه وإنسانه .

إننا اليوم أمة لابد لها من اليقين بأن حاضرها يجب أن يكون امتداداً لماضيها ، فى قيمها ومقوماتها ومُثلها ، وأن غدها يجب أن يكون وليداً لحاضرها . ونحن الآن نتعرض لمرحلة حاسمة من مراحل نضالنا وكفاحنا ضد أعدائنا الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال .

وإذا كان قدَرُ الله العادل قد ألقى علينا بالأمس درساً صارماً من دروس الابتلاء بالنكبات ، وعرّضنا لموقف عصيب من مواقف التمحيص بالشدائد ، فإن العمل الفدائى المؤمن ظل همزةَ وصل مباركة بين ماضى الجهاد وآتيه ؛ واستبان لنا أن أمر هذه الأمة لن يصلح فى حاضرها ، إلا بما صلح به فى ماضيها المشرق الكريم ، من استمساك بعروة الإيمان الوثقى ، وتدرع بدرع اليقين الحصين ، واعتصام بحبل الله القوى المتين ، واجتماع على روح الجهاد حتى الاستشهاد ، والتقاء على بيعة لله صادقة وفيّة ، تباركها يد الله ، ويؤيدها بعونه وهداه :

[وما النصر إلا مِنْ عندِ اللهِ العزيزِ الحكيم] ، [ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصرُه ، إنَّ اللهَ لقوىٌّ عزيز] .

ومع إدراك بصير لهذه الحقائق ، وشعور عميق بحاجتنا إليها ، جرى القلم بصفحات هذا الكتاب : ليكون تذكرة تتفتح لها الآذان الواعية ، وتتلقاها الهمم العالية ، فإذا التذكرة مفتاح لطريق قد يمتد ويطول ، ولكنه يضمن تحقيق الهدف المأمول :

[وما كان اللهُ ليُضيعَ إيمانَكم إنَّ الله بِالناسِ لرءُوفٌ رحيم] .

وقد بدأتُ الكتاب بالحديث عن معنى « الفدائية » ، ومدى شرعيتها فى مواطنها ، والدوافع التى تحرك همم أصحابها إليها ، والفرق بينها وبين غيرها من أعمال أو اتجاهات تعتمد على جوانب من القوة ، أو جوانب من الأخلاق .

ثم استعرضت حديثَ الفدائية فى القرآن الكريم ، وأوردت طائفة من مبادئ الفدائية التى ذكرها ، ليبين أن حياة الحرية والعزة والكرامة لا بد لها من منهج البذل والتضحية والفداء .

ثم صاحبتُ المسيرةَ الفدائية فى ظل القرآن الكريم ، وفى تاريخ الإسلام والمسلمين ، فعرضتُ مجموعة من النماذج الفدائية التى صورها كتاب الله المجيد فى إيجاز وإعجاز ، لكى تتجلى فيها القدوة الطيبة والأسوة الحسنة لأصحاب الاتجاه الفدائى المؤمن فى هذه الحياة . وانتقلت إلى الحديث عن فدائية الرسول وأصحابه ، ثم تابعت الحركات الفدائية التى تألقت فى مراحل التاريخ الإسلامى ، مبيناً أن هذا التاريخ قد حفل بهذه الحركات فى مختلف العصور .

وبعد أن تحدثت عن طائفة من الملامح التى تمتاز بها « الفدائية » أو تحتاج إليها ، انتقلت إلى استعراض فيه لون من التفاصيل لأعمال بطولية ومواقف فدائية ، وقفها أعلام من رجال هذه الأمة ، فاستحقوا أن يدار عنهم الحديث لتكريمهم وإبراز تضحيتهم من ناحية ، ولتجلية هذه المواقف أمام أبصارنا وبصائرنا من ناحية أخرى ، حتى تكون لنا عظة وعبرة وذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومما يبدو لى أن الحديث فى هذا المجال الرحيب لم يبلغ غايته ، ولذلك يشرئب هذا القلم متطلعاً راجياً أن يعاود مسيرته ، والله المسئول أن ينفع بزاد اليوم ، وأن يوفق لزاد الغد ، وما ذلك على الله بعزيز .

أحمد الشرباصى

طريق الفداء

« الفداء » . « العمل الفدائى » . « المقاومة الفدائية » . « حركات الفدائيين » . . .

هذه تعبيرات كثر استعمالها وترديدها منذ عشرات من السنين ، بسبب كثرة الحروب غير المتكافئة التى دارت أو تدور بين الأقوياء والضعفاء ، أو بين الأمم الغنية والأمم المستضعفة ، أو بين كتل طاغية متجبرة وكتل نامية ناشئة .

ومع أن هناك أصواتاً خبيثة تعترض على العمل الفدائى أو تستنكره أو تضيق به ، نجد أن الأقوياء والضعفاء على السواء قد أجازوا أعمال الفداء ، فقد استخدم « البوير » العمل الفدائى فى حرب جنوب إفريقية ، من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٠٢ واستخدمته بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ، واستخدمه المجاهدون فى فلسطين العربية سنة ١٩٤٨ ، واستخدمه كثيرون غير هؤلاء ، وما زالوا يستخدمونه فى الشرق والغرب ، وكان العمل الفدائى الفلسطينى بعد نكبة يونيه سنة ١٩٦٧ هو أبرز الأعمال لاستبقاء روح الإصرار على استرداد المغتصب من الأرض العربية هنا وهناك .

وفرق المقاومة الفدائية هى — كما يقول رجال الحرب — وحدات عسكرية صغيرة ، تتألف من مقاتلين غير خاضعين

لقيود الجيش النظامى ، يقومون بأعمال جريئة فى القتال ، فيهاجمون العدو ، فرادى أو جماعات ، ويستعينون بالتخفى والمباغتة للعدو من حيث لا يحتسب .

و « النزعة الفدائية » هى استعداد المرء للتضحية بالعزيز عليه ، أو النفيس لديه ، حتى ولو كان ذلك روحه التى بين جنبيه ، من أجل حق يؤمن به ، وعقيدة يعتنقها ويخضع لها ، مع علمه بهول الأخطار التى يتعرض لها فى سبيل ذلك .

ومادة « الفداء » فى لغة العرب تدل على جَعْل شىء مكان شىء حمىً له ، تقول : فديته أفديه ؛ كأنك تحميه بنفسك ، أو بشىء يعوِّض عنه ، فيقال : فديته بمالى ، وفديته بأبى وأمى ، كأنه اشتراه بما قدَّم ، ومن هنا جاءت كلمة « الفدية » ، وهى ما يقى به الإنسان نفسه ، من مال يبذله فى عبادة قصر فيها ، ككفارة اليمين ، أو كفارة الصوم ، أو غيرها .

والفداء أيضاً فَكَاك الأسير ، والمفاداة هى أن تفتكَّ الأسيرَ بأسير مثله .

* * *

ولا يدفع إلى الفدائية الصادقة إلا إيمان عميق ويقين وطيد بعقيدة دينية ، أو نزعة وطنية ، أو غيرة على حق أو حرمة أو حرية ، والفدائى الأصيل لا يندفع إلى عمله البطولى لغرض أو مرض ، ولا لمتعة أو منفعة ، ولا لشهرة أو ذكر .

والفدائيون قوم يسوؤهم ما ينزل بوطنهم أو قومهم من ضيم أو احتلال ، فيبيعون أنفسهم لربهم فى سبيل أن يغسلوا عار قومهم عنهم .

ولقد تشبه الفدائية الفروسية من بعض الوجوه ؛ ولكن لا يسهل علينا أن نقول إن الفروسية كالفدائية . لأن الفروسية مجموعة آداب وأخلاق ، كمعاونة المحتاج ، واحترام المرأة ، ورعاية الجوار ، وحفظ العهد ، والتزام الصدق ، وإتقان ركوب الخيل . وأما الفدائية فتستلزم تلك المجموعة من الأخلاق ، وتزيد عليها أن صاحبها يندفع حاملا روحه على راحته ، ليرد الذل عن أمته ، أو يبيع نفسه رخيصة فى سبيل غايته .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى تبيان الفرق بين الفدائية والفتوة ، فقد يكون فى الفتوة الحقيقية أمانة ورحمة وإعطاء ، وتنزه عن الخنا ، واعتصام بالفضيلة والهدى ، وكف للأذى ، وبذل للندى ، وترك للشكوى ، ولكن لا يلزم فى الفتوة أن يندفع صاحبها إلى مواجهة الموت فى ميدان العمل الفدائى .

* * *

وهناك كلمات تستعمل بمعنى كلمة « الفداء » ، مثل كلمة « البذْل » ، وإن كانت كلمة « البذل » تدلُّ فى أصلها على « ترك صيانة الشيء » ؛ ولعل السر فى هذا الاستعمال أن الإنسان حين يفدى عقيدته أو أمته بنفسه ، يكون كأنه قد ترك صيانة نفسه ، فقدّمها رخيصة من أجل ما يؤمن به .

وكذلك تستعمل كلمة « البذل » بمعنى الإعطاء ، والفدائى يعطى روحه لتحقيق غايته .

وكذلك تستعمل كلمة : « التضحية » بمعنى الفداء ، والضحية أو الأضحية فى الشرع هى الذبيحة التى يقدمها الإنسان لمقصد دينى ، ولعل استعمال كلمة « التضحية » بمعنى الفداء كان على تشبيه الإنسان الذى يقدم روحه فداء لعقيدته ، بمن يذبح هذه الروح ويجعلها ضحية وفداء ، وعلى هذا جاء قول الله تعالى فى شأن الذبيح إسماعيل : [وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عظيم] أى جعلنا هذا المذبوح فداء له ، وخلصناه به من الذبح .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أن العمل الفدائى لا يتحقق إلا بالموت ، لأن هذا العمل ألوان وأنواع ، فالجندى الذى يقذف بنفسه فى أتون الحرب متوقعاً الموت أكثر من توقعه الحياة إنسان فدائى ، سواء أنال الشهادة ، أم نجا وعاد مترقباً جولة فدائية قادمة . والرجل الذى يبذل ماله فى سبيل حق أو خير ، وهو لا يدرى من أين ينفق بعد ذلك إنسان فدائى .

والعالم الذى يبحث بين مخابيره ومناظيره وأدوات بحثه ، لمعرفة دواء ، أو كشف ميكروب ، دون أن يبالى بالأخطار التى يتعرض لها رجل فدائى ، والذى يقذف بنفسه فى صاروخ أو سفينة فضاء ، ليكتشف سراً من أسرار الطبيعة يخدم به البشرية وينفعها عن طريقه ، وهو غير متأكد من سلامة عودته ، رجل فدائى .

والذى يجهر بكلمة الحق حين تخرس الألسنة أمام طغيان أو تجبر ، دون أن يبالى العاقبة ، قاصداً الخير والإصلاح ؛ رجل فدائى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .

والطبيب المخلص الذى يعالج المرضى ، ويختلط بهم ، لأن واجبه يقتضيه ذلك ، ويتعرض لألوان من الجراثيم والميكروبات وأسباب العدوى ، ومع ذلك يمضى فى طريقه يكافح الداء ويتطلب البرء ، رجل فدائى . . . وهكذا .

* * *

والقرآن الكريم هو أساس الإسلام ودستوره ، وهذا الكتاب الإلهى المجيد يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى وجود التضحية والفداء منذ مطلع الخليقة ، فهو يحدثنا فى سورة المائدة فيقول : [واتْلُ عليهم نَبَأَ ابنَىْ آدمَ بالحق إذ قرَّبا قُرْبانًا فتُقُبِّلَ مِنْ أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر] . وفى القُرْبان هنا معنى التضحية والفداء، لأن القربان هو ما يتقرب به الإنسان إلى الله ، وصار فى التعارف اسمًا للنسيكة ، أى الذبيحة ؛ وجمعه قرابين .

كما يحدثنا القرآن الكريم عن ألوان من الفدية فى الدين ، فيحدثنا فى سورة البقرة عن الفدية فى الصوم فيقول : [وعَلى الذين يُطيقونَه فِديَةٌ طعامُ مِسكين]

ويحدثنا فى السورة نفسها عن الفدية فى الحج ، فيقول : [فمَنْ كان منكم مريضاً أو به أَذًى من رأْسهِ ففِديةٌ من صيام أَو صَدَقةٍ أَو نُسُك] .

ويحدثنا عن الفدية فى الطلاق ، فيقول فى السورة نفسها عن الزوجين : [فإن خفتم ألاَّ يقيما حدود الله فلا جناحَ عليهما فيما افتدتْ به] . ويحدثنا عن الفداء فى الحرب ، فيقول فى سورة محمد : [فإذا لَقِيتُمُ الذين كفروا فضَرْبَ الرِّقابِ حتى إذا أَثْخَنْتُموهم فشُدُّوا الوَثَاقَ فإما مَنًّا بَعْدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أَوزارَها] .

وكأن القرآن الكريم يريد بهذا الحديث المتعدد المواطن أن يشيع فينا جو الفداء وذكر الفداء ، وإذا كان القرآن لم يذكر مادة « التضحية » فإنه أشار إليها بكلمة « النحر » وهو الذبح ، ولا يتحقق الذبح إلا بذبيحة ، وتقديمها تضحية وفداء ، فقال فى سورة الكوثر : [فصلِّ لربِّك وانْحَرْ] ، وجاء فى الحديث الشريف : « إن على كل أهل بيت أضحية كل عام » .

وإذا كان القرآن الكريم قد حث المؤمنين به على البذل والتضحية والفداء فى سبيل الحق والعدل والعزة والكرامة والحرية ،

ووعد بقبول الفداء الصادق المستقيم الخالص : وضمن لأصحابه عاجل الثواب وآجله ، فإنه حذّرنا ألواناً من الفداء لا تجدى ولا تنفع ، لأنها لم تصدر عن إيمان ، ولم تقصد إلى حق ، فقال القرآن فى سورة آل عمران :

[إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وماتوا وهُمْ كفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ من أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا ولو افْتَدَى بِهِ أُولئك لهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ومَا لَهم من نَاصِرِينَ]

وقال فى سورة المائدة : [إن الذين كفروا لو أنَّ لهم ما فى الأَرض جميعاً ومثلَه معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أَليم] . وقال فى سورة الحديد عن المنافقين والكافرين يوم القيامة : [فاليومَ لا يُؤْخذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا مأْواكم النارُ هى مولاكم وبئسَ المصير] .

وكأن القرآن المجيد حينما حذرنا هذه الألوان التى لا تنفع ولا تشفع من الفداء ، أراد أن نفهم أن الفداء إذا لم يأت فى ميعاده ، ولم يقدّم على وجهه ، لم يثمر ثمرته ، وهؤلاء هم الذين كفروا ، ولهوا فى حياتهم ، وبغوا على غيرهم ، يأتون بعد فوات الأوان ، وفى يوم القيامة ، يحاولون أن يقدّموا الفداء ، وليس إلى قبوله من سبيل .

ويزيد القرآن هذا المعنى وضوحاً حينما يحدثنا عن فداء لا يطال ولا ينال ، فهو ميئوس من وقوعه وتحققه ، ومن هنا لا يتحقق شيء من وراء محاولته ، فيقول فى سورة الرعد :
[للَّذين استجابوا لربهم الحُسْنىَ ، والذين لم يستَجيبُوا له لو أَنَّ لهم ما فى الأَرض جميعاً ومثله معه لافتدَوْا به ، أُولئك لهم سوءُ الحساب ، مأْواهم جهنم ، وبئس المهاد] .

ويقول فى سورة يونس : [ولو أَنَّ لكل نفس ظَلَمت ما فى الأَرضِ لافتدتْ به ، وأَسَرُّوا الندامةَ لما رأَوُا العذابَ وقُضى بينهم بالقسطِ ، وهم لا يُظلمون] . ويقول فى سورة الزمر : [ولو أَنَّ للذين ظلموا ما فى الأَرضِ جميعاً ومثلَه معه لافتَدَوْا به من سوءِ العذابِ يومَ القيامة ، وبَدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون] . ويقول فى سورة المعارج :
[يَوَدُّ المجْرم لو يفتدِى من عذابِ يومئذ ببنيه ، وصاحِبَتِهِ وأَخيه ، وفصيلَّتِهِ الَّتِى تُؤْوِيه ، ومَنْ فِى الأَرضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجيه ، كلاَّ إنها لَظَى . . . .]

وهكذا يثبت القرآن فى قلوبنا وعقولنا أن الفداء المقبول يجب أن يكون عن عقيدة وإيمان ، وأن يكون مضبوط التوقيت والأوان ، وأن الافتداء الخائب المردود هو ما كان مع الكفران ، أو بعد فوات الأوان .

* * *

والقرآن الكريم بعد هذا كلّه هو الكتاب الإلهى المعلّم لدروس التضحية والفداء ، وهو الموجه إلى روح البذل والإقدام ، فهو يجعل الجهاد فريضة مكتوبة ، وركيزة مطلوبة ، من حرص عليها وصدق فيها عزّ ، ومن أهملها أو خادع فيها ذل ، فقال فى سورة الحج : [وجاهِدُوا فى الله حقّ جهادِه] ، وقال فى سورة العنكبوت : [والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا وإن اللهَ لمعَ المحسنين] ، وقال فى سورة آل عمران : [ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأَعْلَوْن إن كنتم مؤمنين] .

وأرشد إلى أن الجهاد يكون ببذل الأموال وتقديم الأنفس فداءً لغاية الجهاد وهدفه ، فأمر عباده المؤمنين بذلك فقال يخاطبهم فى سورة التوبة : [وجاهِدوا بأَموالِكم وأَنفسِكم فى سبيلِ الله] ، ووصف المؤمنين بأَنهم هم الذين [جاهدوا بأَموالهم وأَنفسهم] أَربع مرات ؛ فى سورة الأَنفال مرة ، وفى سورة التوبة مرتين ، وفى سورة الحجرات مرة .

وكل بصير بالنفس البشرية يعلم أن الذى يخيف الناس من المسارعة إلى العمل الفدائى هو التهيب من لقاء الموت ، والرهبة من انتهاء الحياة ؛ ولذلك أراد القرآن أن يلفت إلى حقيقة لا ريب فيها ولا معدل عنها ، وهي أن الموت آت آت ،

ولا بد من وقوعه ، ولا وسيلة للتخلص منه. فقال في سورة الرحمن: [كلٌّ مَنْ عليها فانٍ] . وقال في سورة الواقعة : [نحنُ قدَّرنا بينْكمُ الموتَ] . وكرر قوله : [كلُّ نفس ذائقةُ الموت] ثلاث مرات في ثلاث سور ، هي آل عمران ، والأنبياء ، والعنكبوت .

وأكَّد أنه لا سبيل إلى الفرار من هذا الموتُ ، فقال في سورة النساء : [أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة] . وقال في سورة الأحزاب : [قلْ لنْ ينفعَكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ] . وقال في سورة الجمعة : [قل إن الموت الذى تَفِرُّون منه فإنه مُلاقيكم] .

وما دام الموت لا بد منه ولا محيد عنه ، فإن الموت في موطن كريم خير من الموت في موضع لئيم ، والمتنبي يقول :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تعيش جبانا

وما دام الأمر كذلك فالأجدر بالإنسان العاقل المؤمن أن ينطلق إلى ساحة الجهاد ، معتمداً على ربه ، واثقاً في نهاية سعيدة له ، هي النصر أو الشهادة ، غير هيّاب ولا وجل ، فلن يصيبه إلا ما كتبه الله له ، وهو خير على كل حال ، كما قال القرآن في سورة التوبة للمؤمن الموقن : [قل

لن يصيبَنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا . هو مولانا . وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل هل تَربَّصُونَ بنا إلا إحْدى الحُسْنَيين ، ونحن نتربَّصُ بكم أن يصيبَكم الله بعذابٍ من عندِه أو بأَيدينا ، فتربَّصُوا إنا معكم مُتَرَبصون] .

ويقول فى سورة آل عمران مذكراً بتقدير الأَجل ، مفضلا ثواب الآخرة — وطريقه الجهاد والفداء — على متاع الدنيا الزائل : [وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذنِ اللهِ كتاباً مُؤَجَّلاً ، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِهِ منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرةِ نُؤْتِه منها ، وسنجزِى الشاكرين] .

* * *

والقرآن الكريم يطالب أهله بتبعات الفدائية فى القتال ، فالفدائى لا يليق به ولا يجوز منه أن يفرّ أو يلقى السلاح ، اللهم إلا إذا كان يتأخر ليكرّ ويتقدم ، أو إذا أراد أن يتأخر فى الميدان لينضم إلى جماعة من إخوته فى الجهاد يتقوى بهم ويشد ساعده ، وفيما عدا هاتين الحالتين لا يباح له أن يترك مواجهة عدوه ، حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده ؛ وعليه أن يثبت ويقاوم ، ذاكراً ربه ، مستمداً من إيمانه به قوةً تعينه على بلوغ النجاح ، ولذلك يقول القرآن فى سورة التوبة :

[يا أَيها الذين آمنوا إذا لَقِيتمُ الذين كفروا زَحْفًا فلا

تُوَلُّوهمُ الأَدبارَ ، ومن يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا متَحرِّفاً لقتال ، أَو مُتَحَيِّزًا إلى فئة ، فقد باءَ بغضب من الله ، ومأْواه جهنمُ وبئسَ المصير] . ثم يقول فى السورة نفسها : [يا أَيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثْبُتُوا ، واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون] .

ويرشد كتابُ الله أهله إلى أن طريق الجهاد والفداء ليس مفروشاً بالورود والرياحين ، وإنما هو طريق شاق ، له متاعبه وتبعاته ، لكنه طريق المجد ، وإذا كان المؤمنون المحقُّون ينالهم شيء من الألم أو الجراح فى هذا الطريق ، فإن الكافرين المبطلين من أعدائهم ، يصيبهم مثل ذلك ، أو أكثر ، ومع ذلك يصبرون على باطلهم ، فكيف لا يكون المؤمنون أصبر منهم على الحق والرشاد ، ونهاية المؤمنين إلى النعيم ، ونهاية أعدائهم إلى الجحيم ؟ !

يقول الله تعالى لهؤلاء المؤمنين فى سورة النساء : [ولا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ القوم ، إن تكونوا تَأْلمون فإنهم يَأْلمون كما تأْلمون ، وتَرْجُون من اللهِ ما لا يَرْجون ، وكان الله عليماً حكيماً] . ويقول فى سورة آل عمران : [إن يَمْسَسْكم قَرْحٌ (أى جراحة) فقد مس اليوم قرح مثلُه ،

وتلْكَ الأَيامُ نداولُها بين الناس ، وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ، ويتخِذ منكم شهداء ، واللهُ لا يحب الظالمين] .

وإذا كانت كلمة « الفداء » فى أصل معناها اللغوى تدل على جعل شىء فدية لشىء ، ومقابلا لتحقيقه ، فإن كتاب الله العزيز قد أكد ذلك ، حين صوّر الإقدام المخلص على التضحية والفداء فى سبيل الله تعالى بصورة صفقة مباركة يعقدها الله جل جلاله مع عباده المؤمنين ،الصالحين بيقينهم وعباداتهم وأخلاقهم وفضائلهم لشرف الجهاد ونعمة الاستشهاد، فقال في سورة التوبة :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنَّةَ ، يقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقْتَلون ، وعداً عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن ، ومن أَوْفَى بعهدِهِ من الله ؟ فاستبشروا ببَيْعِكم الذى بايَعْتم به . وذلك هو الفوزُ العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشّر المؤمنين] .

ويعود كتاب الله العلى الأعلى إلى تصوير هذه الصفقة الرابحة بصورة أخرى رائعة ، فهو يقصر على المؤمنين الدعوة إلى عقد هذه الصفقة وإرشادهم إليها ، وهو يرسم لهم طريقها ،

ويوضح لهم فيها ثمن السلعة الغالية المعروضة ، كما يوضح لهم جلال هذه السلعة وثمراتها القريبة والبعيدة ، أو العاجلة والآجلة. فيقول فى سورة الصف : [يا أيها الذين آمنوا : هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنْجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِكُم وأنفسكُم . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، يَغْفِرْ لكم ذنوبَكم ، ويُدْخِلْكُم جنات تجرى من تحتها الأنهارُ ، ومساكنَ طيبةً فى جناتِ عَدْن ، ذلك الفوزُ العظيم ، وأخرى تحبونها : نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين] .

وهو يعود مرة ثالثة ، فيشير إلى أن العمل الفدائى المخلص مع ثمرته صفقة إلهيةمباركة ، فيها أخذُ الخالد الباقى الدائم بالفانى الذاهب الزائل ، وفيها الثواب الجزيل ، وفيها اللجوء إلى ولاية الله ونصره ، وهو خير الناصرين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، وفيها الوعد بالغلبة على حزب الشيطان وأوليائه ، فيقول فى سورة النساء : [فليقاتلْ فى سبيلِ اللهِ الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتلْ فى سبيلِ اللهِ فيُقْتَلْ أو يَغْلب فسوفَ نُؤتيه أجْرًا عظيماً ، وما لكم لا تُقاتلون فى سبيلِ اللهِ والمستضعفينِ من الرجالِ والنساءِ والوِلْدان الذين

يقولون ربَّنا أَخْرِجنا من هذه القرية الظالِمِ أهلُها ، واجعلْ لنا من لَدُنْكَ وليًّا، واجعل لنا من لدنك نصيراً ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتِلون فى سبيل الطّاغُوتِ ،فقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ ،إنّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً] .

والقرآن يجزم ويؤكد الوعد الإلهى الصادق المحقَّق للمجاهدين المضحين الباذلين الفادين ، فيقول فى سورة محمد :

[والذين قُتلوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهم ، سيهديهم ويُصْلح بالَهم ، ويُدخلهم الجنَّة عرَّفَها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ ينصرْكم ويثبِّتْ أقدامَكم] .

ويقول فى سورة آل عمران : [ولئن قُتلتم فى سبيل الله أَو مُتُّم لمغفرةٌ من اللهِ ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون] . ويقول فى السورة نفسها : [فاستجابَ لهم ربُّهم أنّى لا أُضيعُ عملَ عامل منكم من ذكر أو أُنثى ، بعْضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأُخرِجُوا من ديارهم ، وأُوذُوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأُكفرنَّ عنهم سيئاتهِم ، ولأُدخلنَّهمُ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ثَواباً من عندِ اللهِ ، والله عندَه حسنُ الثواب] .

مسيرة فدائية

فى ظل القرآن ، وتاريخ الإسلام

إذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن الجهاد والفداء حديثاً واسعاً قائماً على الدعوة المؤكدة إلى استشعار روح التضحية ، والتدثر بدروع الثبات والإقدام ، فإنه فى الوقت نفسه قد أعطانا نماذج ،باهرة للذين سبقوا بمواقفهم البطولية الفدائية ، فعرض علينا من هذه النماذج ما قام به إبراهيم عليه السلام من عمل فدائى ، حين سخر من قومه عبدة الأصنام والأوثان ، ووقف — وهو فرد — فى وجه الطغيان الاعتقادى ، والضلال الفكرى ، والسفه الوثنى ، وأقدم على إظهار السخرية بآلهة هؤلاء ، فساءلهم باستخفاف : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟. فأجابوه إجابة المقلدين لمن سبقوهم تقليداً أعمى ، كأنهم لا عقول عندهم ، ولا شخصية لهم : وجدنا آباءنا لها عابدين .

فجابههم بالرد المقذع الموجع : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

ولم يقف عند هذا الحد من مواجهة الجمع الفاسد الضال ، بل أقدم على عمله البطولى الفدائى ، فحطم هذه الأصنام ، وأبقى صنماً كبيراً بينها علـّق فى رقبته آلة التحطيم ، وحينما فعل

إبراهيم هذا لم يكن جاهلا ولا غافلا عن الخطر الجسيم الذى يتعرض له بسبب ذلك ، ولكنها نزعة التضحية والفداء لإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وعرف القوم ما حدث ، وعرفوا من أحدثه ، وأحضروه وما زال يبكتهم ويسخر منهم ، وقرروا حكمهم السفيه الباغى : [قالوا حرِّقوه وانصُروا آلهتَكم إن كنتم فاعلين] . ولم يجزع إبراهيم ولم يرجع عن طريقته وعقيدته ، وكان الله معه لأنه آثر أن يكون مع الله :

[قلنا : يا نارُ كونى بردًا وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأَخْسرين ، ونجَّيْناه ولوطاً إلى الأَرض التى باركنا فيها للعالمين] .

* * *

ولم يكن هذا العمل الفدائى هو النموذج الوحيد فى حياة إبراهيم ، بل نراه فى ضوء القرآن يعود إلى موقف فدائى آخر . يشاركه فيه ولده إسماعيل ، فقد رأى إبراهيم فى نومه أنه يذبح هذا الابن العزيز الغالى ، ورؤيا الأنبياء جزء من وحى الله تعالى إليهم .

ولم يهب إبراهيم شدةَ الابتلاء ، ولم يتردد فى الإقدام على الفداء ، قال : يا بنى ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ .

ماذا يرى ؟... إنه إسماعيل بن إبراهيم، إنه سلالة أبى الأنبياء وخليل الرحمن، فهو لا يرى إلا أن يُقدم على عمل فدائى يتفق وأصالة منبته وصفاء سريرته، قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

وشرع الفدائيان الجليلان الكريمان فى تنفيذ الوفاء بالفداء، وأخذا فى أسباب الاستجابة لهذا الابتلاء. وهنا جاء عون الله، وتجلت رحمته: [وناديناه أنْ يا إبراهيمُ، قد صدَّقتَ الرؤيا، إنا كذلك نَجزى المحسنين، إن هذا لَهُوَ البلاءُ المبين. وفَدَيْناه بذِبْح عظيم، وتركنا عليه فى الآخرين، سلامٌ على إبراهيم، إنا كذلك نَجْزى المحسنين، إنّه مِنْ عبادِنا المؤمنين].

* * *

وهذا نموذج ثالث من نماذج الفداء التى يعرضها القرآن الكريم:

هؤلاء هم سحرة فرعون يستدعيهم ليردوا على معجزة موسى الإلهية، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، فيقبلون عليه وهم ما زالوا فى ضلالهم وخبالهم، ويطمعون فى الأجر المجزى من فرعون إن أفلحوا، قالوا: أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟

وسارع فرعون فأعطى وعده الواسع الفضفاض ، قال لهم : نعم ، وإنكم لمن المقربين .

وبدأ الصراع بين محاولة المخلوق العاجز وقدرة الخالق المسيطر ، فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وقالوا — من اغترارهم بفرعون ، وانخداعهم بسلطانه — : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . ولكن موسى ألقى عصاه بوحى من الله ، فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

وانتصر موسى ، واندحر سحر الساحرين ، وسطع ضوء الحق ، وامحى تمويه الباطل ، فاستبان للسحرة نورُ الإيمان ، وظهر الطريق المستقيم للعيان .

ولكن فرعون ما زال هناك ، بجنوده وبنوده ، بقهره وفجوره . . .

ليكن ما يكون ، فمن عرف الحق وآمن به لزمه وحرص عليه .

وأقدم السحرة على عملهم الفدائى الذى ردده القرآن وأكده فقال فى سورة الأعرف :

[وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنّا بربِّ العالمين ، ربِّ موسى وهارون ، قال فرعونُ : آمنتم به قبل أن آذنَ لكم ؟ إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه فى المدينة لتُخْرِجُوا منها أهلَها فسوفَ تعلمون: لأُقَطعنَّ أيديَكم وأرجلَكُم من خلاف ،

ثم لأُصَلِّبَنَّكم أجمعين .

قالوا : إنا إلى ربِّنا مُنقلبون ، وما تَنْقِمُ منَّا إلا أن آمَنَّا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربَّنا أفرغْ علينا صبرًا ، وتَوَفَّنا مسلمين] .

وقال فى سورة طه : [فأُلْقِىَ السَّحرةُ سُجَّدًا ، قالوا : آمنَّا بربِّ هارونَ وموسى . قال : آمنتم له قبل أن آذنَ لكم ؟ إنه لكبيرُكم الذى علَّمكم السحرَ ، فلأُقَطعَنَّ أيدِيَكم وأَرجلَكم من خلافٍ ، ولأُصَلِّبَنَّكُم فى جُذوعِ النخل ، ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأَبْقَى .

قالوا : لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البيناتِ والذى فَطَرَنا ، فاقْضِ ما أنت قاضٍ ، إنما تقضِى هذه الحياةَ الدنيا ، إنَّا آمنا بربنا ليغفرَ لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، واللهُ خيرٌ وأَبقَى] .

وقال فى سورة الشعراء : [فأُلْقِىَ السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنا بربِّ العالمين ، ربِّ موسى وهارون ، قال : آمنتم له قبلَ أن آذنَ لكم ؟ إنه لكبيرُكم الذى علَّمكم

السحرَ ، فلسوفَ تعلمون : لأقطعنَّ أيديَكم وأرجُلَكم من خلاف ، ولأُصلبنَّكم أجمعين .

قالوا : لا ضَيْرَ ، إنَّا إلى ربِّنا منقلبون ، إنا نطمعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنا أولَ المؤمنين] .

ويْ ، لكأن القرآن الكريم قد حرص على أن يُبرز — في ثلاثة مواطن — وسائلَ التعذيب التي هدد بها فرعونُ أولئك الذين أشرق الإيمان في صدورهم ، ليشير إلى أن الفدائيين المؤمنين لا يذلون ولا يهونون ولا يضعفون ، مهما لاقوا من وسائل التعذيب ، بل يظلون أوفياء للفداء ، شرفاء عند الابتلاء ، أقوياء يتحدون جبروت الأعداء . ومهما تكرر الوعيد أمامهم ، فإنهم يلجئون إلى الاعتصام بحبل الله القوى المتين قائلين :

[ربنا أفرغْ علينا صبرًا ، وتَوَفَّنا مسلمين] .

[فاقضِ ما أنْتَ قاضٍ ، إنما تقضى هذه الحياةَ الدُّنيا]

[لا ضَيْرَ ، إنا إلى ربنا منقلبون] .

* * *

وهذا نموذج رابع من نماذج الفدائية التي يعرضها القرآن :

هذا ملك جبار ، استبد بقومه ، وطغى عليهم ، وأراد أن

يخرجهم عن دينهم إلى ضلاله وكفره ، فاستمسكوا بالحق ، وقاوموا الباطل ، فأمر السلطان المتجبر جنده بأن يحفروا أخاديد[١] ، فحفروها على أفواه الطرق ، وأضرموا فيها النيران ، وجعل هذا الجبار يعرض المؤمنين على هذه الأخاديد واحداً بعد الآخر ، فمن ارتد عن دينه عفا عنه ، ومن أصر على إيمانه قذفه فى النار .

فجعل المؤمنون يصرون على روح الفدائية ، ويلاقون الموت فى النار بصبر وثبات ، حتى إن امرأة بينهم ترددت قليلا حين همت بإلقاء نفسها فى النار ، فقال لها ابنها من ورائها : يا أماه قعي ولا تقاعسى ، اصبرى فإنك على الحق ، اثبتى على ما أنت عليه ، فإنما هى غميضة ، امضى ولا تجزعى .

فألقت المرأة نفسها ، وتبعها ولدها . . .

يقول الله تعالى عن ذلك فى سورة البروج : [والسماء ذاتِ البروجِ ، واليومِ الموعودِ ، وشاهد ومشهود ، قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ ، النارِ ذاتِ الوَقود ، إذ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهود ، وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا باللهِ العزيز الحميد ، الذى له ملك السمواتِ والأرضِ ، واللهُ على كل شىء شهيدٌ ، إن الذين فَتَنوا

(١) الأخاديد ، جمع أخدود ، وهو الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق .

المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذابُ جهنمَ ولهم عذابُ الحريق] .

* * *

وهذا نموذج خامس يشير إليه كتاب الله المجيد :

إنه موقف أبى بكر الصديق من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حادث الهجرة الجليل . لقد احتمل أبو بكر فى سبيل الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام ما احتمل ، وصبر ما صبر ، وحرص على أن يكون رفيق الرسول فى الهجرة ، وضحى بالمال والسكن ، وترك من ورائه الأهل والولد ، وحمل معه كل ماله ليخدم به الدعوة الإلهية ، وعرّض نفسه للأهوال والمخاطر ، ولم يتردد فى افتداء الرسول بنفسه ، فهو يخاف أن يكون هناك من يطلب الرسول من وراء ، فيمشي خلف الرسول ، ثم يخشى أن يكون هناك رصد يترصد له على الطريق ، فيمشى أمامه ، ثم ينتقل عن يمينه وشماله ، ليفدى الرسول بنفسه إن أصابه سوء ، وحينما هم المهاجران العظيمان بدخول الغار ، سارع أبو بكر بدخوله أولاً ليستبرئه للنبى ، فإذا كان فى الغار سوء لاقاه أبو بكر دون الرسول .

وحينما احتواهما الغار ، ولحقهما المطاردون من المشركين ، خاف أبو بكر على الرسول ، وبثه شجونه ، فقال له الرسول مطمئناً : لا تحزن إن الله معنا ، وقد خلّد القرآن هذا الموقف

فقال : [إلاَّ تنصروه فقد نصرَه اللهُ ، إذ أخرجَه الذين كفروا ثانىَ اثنين ، إذ هما فى الغارِ ، إذ يقولُ لصاحبهِ لا تحزنْ إن الله مَعنا ، فأنزلَ اللهُ سكينتَه عليه ، وأيَّدهُ ، بجنودٍ لم تَرَوْها ، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ اللهِ هى العليا ، واللهُ عزيزٌ حكيم] .

* * *

وهذا نموذج سادس :

إنه مؤمن آل فرعون الذى يرى موسى يأتى إلى فرعون بالآيات الإلهية والدلائل الربانية ، فلا يؤمن فرعون ولا يستجيب ، بل يهدد ويتوعد ، ويأمر بقتل المؤمنين واستحياء نسائهم للذل والهوان ، ثم يهم فرعون بقتل موسى نفسه ، وإذا بهذا الرجل المؤمن الذى ذاع وصفه بوصف « مؤمن آل فرعون » يندفع فى نزعة بطولية وفدائية ، ليواجه الطغيان الكافر الفاجر المتنمر ، ويؤيد الإيمان السافر المتألق ، دون أن يبالى بما قد يصيبه من تعذيب أو إزهاق روح .

وأخذ هذا الرجل المؤمن يجاهر بمعارضة فرعون وقومه ، ويهددهم بعذاب الله وعقابه ، أو أن تصيبهم النكبات كما أصابت المجرمين الكافرين من قبلهم ، ويدعوهم إلى اتباع الإيمان وترك الكفران ، ويذكرهم بأن الحياة الدنيا متاع ، وأن

الآخرة هى دار القرار ، وأن الناجى هو من يعمل الصالحات ، وأن الخاسر هو من يعمل السيئات ، وأن طريق الهداية هو طريق العزيز الغفار ، وأن طريق الضلال والهلاك هو طريق الجحود والكفر ، ويقول إلهم فى خاتمة ذلك : [فستذكرون ما أقولُ لكم وأفوِّضُ أمرى إلى الله ، إن الله بصيرٌ بالعباد] .

يقول الله فى شأن هذا الموقف فى سورة غافر : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعونَ وهامانَ وقارون ، فقالوا : ساحرٌ كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناءَ الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وما كيدُ الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون : ذَرُونى أَقْتلْ موسى وليدعُ ربَّه ، إنى أخافُ أن يبدِّلَ دينكم : أو أن يُظهرَ فى الأرضِ الفساد ؛ وقال موسى : إنى عُذْتُ بربى وربِّكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ يكتم إيمانَه : أتقتُلون رجلاً أن يقولَ ربِّىَ الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربِّكم ، وإن يَكُ كاذباً فعليه كذبُه ، وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعضُ الذى يعدكم ، إنَّ الله لا يهدى من هو مسرفٌ كذاب] .

وبعد أن تذكر الآيات عقب ذلك ما كان من فرعون من عناد واستكبار على النصح ، وما كان من ذلك الرجل المؤمن من تحذير وإنذار ، جاءت العاقبة ، فماذا كانت ؟!!

[فوقاه اللهُ سيئاتِ ما مكروا ، وحاقَ بآلِ فرعون سوءُ العذاب : النارُ يُعْرَضون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ، ويومَ تقومُ الساعةُ أَدخلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب » .

* * *

وهذا النموذج يذكرنا بنموذج من واديه ، فهو يشابهه ويلاقيه : إنه نموذج « حبيب النجار » المؤمن الصالح المصلح الذى يقال له « مؤمن يس » ، والذى كان يعيش فى مدينة أنطاكية ، أو بقربها ، وفى عهده جاء إلى أهل أنطاكية ثلاثة من المرسلين الدعاة إلى الله ، فأساء أهل أنطاكية استقبالهم ، وكذبوهم وجادلوهم أسوأ جدال ، وهددوهم بالرجم والعذاب الأليم ، وفى أيديهم من وسائل الاقتدار المادى ما فيها ، فإذا بحبيب النجار يأتى إليهم مسرعاً ، فى اندفاع فدائى لا يبالى بضرر ولا بخطر ، ويجهر بكلمة الحق ، ويقف من هؤلاء المكذبين موقف المعارضة ، بلا خوف ولا فزع ، مع ما فى هذه المعارضة من أخطار .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا المشهد فى سورة يس فيقول : [وجاء من أقصَى المدينةِ رجلٌ يسعى ، قال :

يا قومِ اتبعوا المرسلين ، اتبعوا مَنْ لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون ، وما لِىَ لا أعْبُدُ الذى فَطَرنى وإليه تُرْجَعُون ، أأتَّخذُ من دُونه آلهةً إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍ لا تُغنِى عنى شفاعتُهم شيئاً ، ولا يُنْقِذُونَ ، إنى إذَن لفِى ضلال مبين ، إني آمنت بربكم فاسمعون ، قيل : ادخُل الجنَّةَ ، قال : يا ليتَ قومى يعلمون ، بما غفرَ لى ربى وجعلنى من المُكرَمين ، وما أنزلنا على قومهِ من بعدِه من جُنْدٍ من السماء ، وما كنا مُنْزِلين ، إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم خامدون] .

* * *

وهذا نموذج سابع يشير إليه التنزيل المجيد :

إن هذا النموذج يتمثل فى تلك الجماعة الرشيدة المجاهدة المؤمنة ، التى سارت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى « غزوة الحديبية » ، وكانوا يريدون من سيرهم أن يدخلوا مكة مسالمين ، وأن يطوفوا بالكعبة بيت الله الحرام . كما كان يباح ذلك لكل عربى ما عدا المسلمين ، ولكن المشركين تعنتوا وعاندوا ، وبدرت منهم بوادر تدل على المكر واللؤم ، وخشى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطور الموقف إلى صدام وعراك ،

فجمع صحابته من حوله ، وبايعهم على الجهاد والثبات فيه حتى يذوقوا الموت ، وينعموا بنعمة الشهادة ، فاندفع المسلمون بروحهم الفدائية المستجيبة ، وبايعوا الرسول على ذلك ، وزكى تاريخ الإسلام ذكرَ هذه البيعة فسماها « بيعة الرضوان » .

وقد مجد القرآن هذا الوفاء ، بل هذا الفداء من المسلمين الصادقين ، فقال عنهم فى سورة الفتح : [إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون اللهَ ، يدُ اللهِ فوقَ أيديهم ، فمن نكثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيمًا] . ويقول فى السورة نفسها : [لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرةِ ، فعلمَ ما فى قلوبهم ، فأنزلَ السكينةَ عليهم ، وأثابهُم فتحاً قريباً ، ومغانمَ كثيرة يأخذونها ، وكان اللهُ عزيزًا حكيمًا] .

* * *

هذه نماذج للفدائية عرضها القرآن الكريم ، أو أشار إليها ، وكل نموذج منها يحتاج إلى تحليل وتفصيل يضيق عنهما هذا المجال .

وهناك للفدائية مسيرة فى تاريخ الإسلام والمسلمين . . .

وقائد هذه المسيرة هو رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى تذكرنا سيرته بأكثر من نموذج للفداء ، فهو ابن الذبيحين

إسماعيل وعبد الله ، وكل من هذا الجد وذاك الوالد قد ضرب مثلا للفداء ، فإسماعيل هو — كما عرفنا — الذى قال له أبوه : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، فقال له ولده: يا أبت ، افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

و « عبد الله » والد الرسول تروى السيرة عنه فيما ترويه أن والده عبد المطلب نذر لله إن رزقه بعشرة أبناء أن يذبح واحداً منهم عند الكعبة ، وتم لعبد المطلب ما أراد ، فذهب بأبنائه إلى الكعبة ، وأجرى عندها قرعة بين أبنائه ليكون أحدهم فداء كما نذر ، فخرجت القرعة على عبد الله .

ولم يخف عبد الله الموت ، ولكن الناس حالوا بين الوالد وذبح ابنه ، ثم أرشدهم بعض الناس إلى أن يجروا القرعة بين عبد الله وعدد من الإبل ، ويزيدوا فى الإبل ويكرروا إجراء القرعة ، حتى تخرج على الإبل ، واستجاب عبد المطلب لذلك ، فلم تخرج القرعة على الإبل إلا حين بلغت مائة ، وأعادوا القرعة ثلاث مرات ليطمئن عبد المطلب ، فتكرر خروج القرعة على الإبل ، فذبح عبد المطلب الإبل ، ونجا عبد الله بطل هذا الفداء .

والرسول هو بطل الفداء الأول ، وقد رأيناه ليلة الهجرة يقدم على الرحلة الخطيرة المحفوفة بالأهوال والأخطار ، بعد أن تآمرت جموع الشرك على البطش به ، حتى قال القرآن الكريم فى سورة الأنفال : [وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذين كفروا

لِيُثْبِتوكَ[١] أو يَقْتُلوكَ أو يُخْرِجوكَ ، ويمكرون ويمكرُ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين] .

وكذلك رأيناه فى أحرج موقف ، وهو داخل الغار ، والكفار على بابه ، وصاحبه أبو بكر يقول له مشفقاً : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موطئ قدميه لرآنا ، فلا يضطرب الرسول ولا يخاف ، بل يطمئن أبا بكر فى شموخ يقينى فدائى قائلا : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر لا تحزن ، إن الله معنا .

وسنراه وهو يضرب القدوة الطيبة والأسوة الحسنة فى مواقفه الفدائية الكثيرة ، ثم سنراه أيضاً وهو يوجه صحابته إلى مواقف التضحية والفداء ، عليه من ربه أفضل صلاة وأتم سلام .

* * *

وهذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، يقف من وراء الرسول ، يتلقى منه دروس الفداء ، فيفهمها ويهضمها ويهتدى بنورها ، وعلى هو الذى كان يقول : « والله ما أبالى أدخلت على الموت أو خرج الموت إلىّ » . وكان يقول : « والذى نفس بن أبى طالب بيده لألفُ ضربة بالسيف أهون علىّ من ميتة على الفراش فى غير طاعة الله » . وهو القائل :

« ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا

---

(١) ليثبتوك : ليقيدوك بالأغلال ويحبسوك .

وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا : ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ، ومضياً على اللقم (أى الطريق المعتدل) ، وصبراً على مضض الألم ، وجداً فى جهاد العدو ؛ ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان[١] أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون : فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا ، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت (أى الذل) ، وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه[٢] ، ومتبوئاً أوطانه » .

والموقف الفدائى البطولى الذى وقفه الإمام علىّ ليلة الهجرة مشهور لا يحتاج إلى إطالة فى عرضه ، حيث نام مكان الرسول وهو يعلم أنه هدف للمتآمرين من المشركين ، ففدى رسولَ الله بنفسه وحياته ، وإن يكن الله تعالى قد كتب له النجاة والسلامة .

وقد قال بعض المفسرين إن قول الله تعالى فى سورة البقرة : [ومِنَ النَّاسِ من يَشْرِى نفسَه ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ، واللهُ رَءُوفٌ بالعباد] نزل فى علىّ رضى الله عنه حين نام على فراش النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة[٣] .

---

(١) يتصاولان : أى يحمل كل منهما على الآخر . يتخالسان : كل منهما يطلب اختلاس روح الآخر .

(٢) جران البعير : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره . وإلقاء الجران كناية عن التمكن .

(٣) انظر تفسير القرطبى ، ج ٣ ص ٢١ .

وتمضى مسيرة الفدائية فنجد فريقاً من المؤمنين يتألقون فى طليعتها ، وأولئك هم شهداء غزوة بدر الكبرى ، وهى الغزوة التى قال فى أهلها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » . ولقد كان أهل بدر قدوة رائعة فى الإقدام على التضحية والفداء ، وكان شهداؤها أروع وأسمى ، ولذلك قال أحمد محرم فى ديوانه « مجد الإسلام » يخاطب هؤلاء :

شهداءَ بدر ، أنتم المثـــل الذى
بلغ المدى ، بعد المدى ، فتنـــاهى
علّمتم الناسَ الـــكفاحَ فأقبلوا
ملء الحـــوادث يدمنون أذاهـــا
أما الفـــداء فقد قضيتم حقّـــه
وجعلتمـــوه شريعـــة نرضاهـــا
من رام تفسير الحيـــاة لقـــومه
فـــدمُ الشهيد يبيّن عن معناهـــا
لولا الدماء تراق لم تر أمـــة
بلغت من المجد العريق مناهـــا

وينبغى أن نلاحظ هنا ملاحظة ، هى أن الفدائيين الذين تألقوا فى صدر الإسلام أكثرهم قد شهدوا غزوة بدر ، وكذلك نجد أن كثيراً منهم قد شهدوا « بيعة العقبة » ، وأن أكثر

الذين عاشوا بعد غزوة بدر قد حرصوا على شهود الغزوات التالية ، فإن غاب واحد منهم عن غزوة ، فإنما يكون ذلك لعذر أو ضرورة. أو تكليف من الرسول بعمل آخر . . .

وتمضى مسيرة الفدائية خلال التاريخ ، وبعد حين نشهد فيها الفدائى الشجاع عبد الله بن الزبير ، ونرى أمامه فدائية مؤمنة ، هى أقرب الناس إليه ، وهى أمه أسماء ذات النطاقين التى بثت فيه روح الفداء والجهاد حتى الاستشهاد ، وقالت له فيما قالت : « يا بنى ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة الموت ، مت كريماً يا بنى » . ولما ذكر لها أنه يخاف التمثيل بجثته بعد استشهاده ، قالت له : « يا بنى ، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها » ! . . . .

* * *

وتمضى الأيام فى تاريخ الإسلام فنرى من أبنائه طائفة فدائية متميزة ، هى «فرقة الخوارج» .

والخوارج هم أول فرقة إسلامية ، خرجت على الإمام على رضى الله عنه ، وقد عُرفوا بالتشدد فى العبادة ، وبالإخلاص لما يعتقدونه ، والدفاع عنه حتى الموت ، وكانت لهم حركات مقاومة فدائية فى زمن الدولة الأموية ، وفى صدر الدولة العباسية .

ونحن لا نتعرض هنا لآرائهم التى قد يؤخذ منها وقد يرد عليها ، فقد يكون للخوارج عيوبهم وأخطاؤهم وغلوهم ، ولكن

هذا لا يمنع أن نقرر أنه كانت فيهم نزعة فدائية ، ونحن هنا نرصد ظاهرة « الروح الفدائية » عندهم فقط ، ولا شك أن الخوارج كان لهم مذهب يدينون به فى مجال الجهاد والنضال ، وهو مذهب التضحية فى سبيل العقيدة حتى الموت فى ميدان الحرب .

وكانوا يندفعون إلى مواطن الفداء بدافع من وفائهم لاعتقادهم ، وبدافع من عبادتهم ، ولذلك كانوا يجعلون أنفسهم مثلا لرهبان الليل وفرسان النهار ، فيقول ابن جعدة وهو أحد شعرائهم :

فأقبلتُ نحــو الله بالله واثقـــاً
وما كربتى غير الإله بفارج
إلى عصبـــة أما النهـــار فإنهم
هم الأُسْد أسْد الخيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهـــم
قيام بأنـــواح النســـاء النواشـــج

وهم فى جهادهم يرون أنهم قد باعوا أنفسهم لربهم مقابل نعيم الجنة ، كما قال القرآن فى سورة التوبة : [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنة] ولذلك يقول شاعرهم قطرى بن الفجاءة يصف حالهم فى معركة :

فلو شهدْتنا يوم ذاك وخيلنا تُبيح من الكفار كلّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

ويؤكد قطرى هذا المعنى فى موطن آخر فيقول :

فسرْ نحونــا ، تلق الجهاد غنيمــة
نفدْكَ ابتياعا رابحــاً غير خاسر

ويأتى معاذ بن جون — وهو أحد شعرائهم — فيخاطب زملاءه وهو سجين فيقول :

ألا أيها الشارون ، قد حان لامرئ
شرى نفسه فى الله أن يترحــلا
فشدوا على القوم العداة ، فما أرى
إقامتكم للذبــح رأياً مضلــلا
فياليتنى فيــكم على ظهر سابــح
شديد القُصَيْرَى[1] ، دارعاً غير أعزلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغى
يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم — وقد قصدوا لكم —
أثرتُ إذن بين الفريقين قسطلا[2]
فيارُبَّ جمع قد فللتُ ، وغــارة
شهدت ، وقِرْن قد تركتُ مجندلا

(١) القصيرى : أسفل الأضلاع ، أو آخر ضلع فى الجنب ، وأصل العنق. والسابح : الحصان السريع . (٢) القسطل : الغبار ويراد به غبار المعركة هنا .

ولم تكن الروح الفدائية عند الخوارج مقصورة على الرجال منهم ، بل عرفت طريقها إلى نسائهم ، وهذه مثلا هى « أم حكيم » زوجة قطرى بن الفجاءة ، كانت من أشجع الناس ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم بالدين تمسكاً ، وكانت مجاهدة فدائية، وكانت تتمنى أن تهيئ لها الأقدار وهى تجاهد بطلا أقوى منها ، يقطع رأسها ، لتنال نعمة الشهادة ، وتستريح من غسل رأسها ودهنه وتمشيط شعره ، فتقول وهى فى حومة الوغى :

أحمل رأساً قد مللت حمله ُ وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟

* * *

ومضت المسيرة الفدائية فى طريقها ، يتجمع أفرادها أحياناً ، وتتشعب مسالكهم أحياناً أخرى ، ونرى على طريقها سيف الدولة الحمدانى ، وهو البطل العربى الإسلامى ، مؤسس الدولة الحمدانية فى حلب ، وفى العصر الذى انحلت فيه وحدة الدولة الإسلامية ، وطمع فيها الطامعون من الأعداء ، وكانت حلب على عهده تمثل الخط الأمامى من خطوط الدفاع عن أرض العروبة والإسلام .

ونرى سيف الدولة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ينظم بعض الفرق الفدائية التى توافرت فى أفرادها صفات الشجاعة والإقدام والتضحية ، وقد دربهم على المغامرة والفداء ،

وكانت هذه الفرق تسمى : « حملات القفز » لأنها كانت تقوم بالقفز من قمة إلى قمة فى براعة ومهارة ، وكانت فى تحركاتها الفدائية هذه تباغت العدو ، وتنزل بجنوده ومحاربيه ضربات رادعة .

وقد أحدثت هذه الفرق كثيراً من الرعب فى معسكرات الأعداء ، وكان هؤلاء الأعداء إذا رووْا ما قام به هؤلاء الفدائيون يروونه فى خوف وفزع من جهة ، وفى هيبة وإعجاب من جهة أخرى ، وقد استمرت هذه الفرق تقوم بعملها الفدائى من سنة ٣٣٩ هـ إلى سنة ٣٤٩ هـ (أى من سنة ٩٥٠ م إلى سنة ٩٦٠ م)[١] .

وواصلت المسيرة الفدائية خطواتها على درب التاريخ الإسلامى الطويل ، تبدو أحياناً ، وتستتر أحياناً أخرى ، ونرى على طريقها عهد صلاح الدين الأيوبى ، البطل الإسلامى الفاتح ، فنجد فى هذا العهد جيشين : الأول هو الجيش النظامى الذى يخضع للدولة ، وتلتزم بنفقته وتسليحه وتدريبه والإشراف عليه .

والجيش الآخر هو جيش « المطوِّعة » الذى يتكون من المتطوعين للقتال ، الذين يقومون بتسليح أنفسهم ، ويندفعون إلى النضال الفدائى بدافع من دينهم وإيمانهم ، راجين النصر

---

(١) كتاب « سيف الدولة الحمدانى » للدكتور مصطفى الشكعة .

أو الشهادة ، فهم لا يطلبون مغنما ، ولا يتطاعون إلى شهرة ، بل يستجيبون لقول الله تعالى : [انْفِرُوا خِفَافاً وثِقالا وجاهِدوا بِأَموالِكم وأَنفسِكم في سبيلِ الله ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون] .

ولم تكفَ المسيرةِ الفدائية فى تاريخ الإسلام والمسلمين عن متابعة الخطوات هنا وهناك .

وما يظن بصير أنها تكف عن هذه الخطوات حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويقضى الله أمراً كان مفعولا ؛ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ملامح للفدائية

العمل الفدائى المؤمن خطة لها صفات ولوازم ، وأول هذه اللوازم إباء الضيم ورفض الهزيمة ، لأن الله تعالى يقول : [ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين] ، ويضاف إلى ذلك تفضيل الموت على ذل الحياة ، وكتاب الله تعالى يقول : [يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قِيلَ لكم انْفِرُوا فى سبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُم إلى الأَرضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا من الآخرة ؟ فما متاعُ الحياةِ الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تَنْفِروا يعذِّبْكم عذاباً أليمًا ، ويَستبدلْ قوماً غيرَكم ، ولا تَضُرُّوه شيئاً ، واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ] .

ومن لوازم العمل الفدائى الثقة بتقدير الأجل وانتهائه ، وهذا يذكرنا بقول الفدائى قطرى بن الفجاءة :

أقول لهـــا وقد طارت شعاعاً
من الأبطال : ويحكِ ، لن تراعى
فإنك لو سألت بقـــاءَ يوم
على الأجل الذى لك لم تطاعى

فصبراً فى مجال الموت ، صبراً
فما نيل الخلـــود بمستطـــاع
ولا ثـــوب البقاء بثـــوب عـــز
فَيُطْوَى عن أخى الخنع الـــيراع
سبيـــل الموت غاية كل حى
فداعيـــه لأهـــل المـــوت داع
ومن لا يغتبط يسأم ويهـــرم
وتسلمـــه المنـــون إلى انقطـــاع
وما للمـــرء خـــير فى حيـــاة
إذا ما عُـــدّ من سقط المتـــاع .

ومن لوازم الفدائية عدم الحرص على الحياة ، وعدم الرهبة من الموت ، لأنه آت على كل حال ، وهذا يذكرنا بقول الشاعر :

بكرت تخوفنى الحتوفَ ، كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنيـــة منهل
لا بد أن أسقى بذاك المنهـــل
فاقنىْ حياءك لا أبا لك ، واعلمى
أنى امرؤ سأموت إن لم أُقتل

ومن صفات الفدائى المؤمن الرضا بالتجارة مع الله عز وجل ، وهذا شاعر يقول عن مؤمنى الفدائيين :

يغشون حومات المنون ، وإنها
في الله عند نفوسهم لصغارُ
يمشون في الخطى ، لا يثنيهم
والقوم إذ ركبوا الرماح تجار

وقد قال عاصم بن الحدثان للفرزدق عن صاحب هذين البيتين : يا فرزدق ، هذا شاعر المؤمنين .

ومن ملامح الروح الفدائية أن صاحبها يرى أن طلب الشهادة يجعله الله باباً للحياة الكريمة في الدنيا ، أو للحياة العظيمة في الآخرة ، ولذلك قال أبو بكر الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » . وكأن يزيد بن المهلب قد نظر إلى ذلك الشعار حين قال :

تأخرتُ أستبقى الحياة ، فلم أجد
لنفسى حياةً مثل أن أتقدما

ومما يحتاج إليه العمل الفدائى القدوة المثالية للتضحية ، ولقد رُوى أن عوف بن الحارث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر : يا رسول الله ، ما يضحك الربَّ من عبده ؟ قال : غمسُه يده في العدو حاسراً . فنزع عوف درعاً كانت عليه ، وقذفها ، ثم أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قُتل .

والعمل الفدائى يحتاج إلى طول نفَس ، وجميل صبر ، و وطيد احتمال ، ولقد كان خالد بن الوليد رضى الله عنه يقول ،

وهو يسير بين الصفوف يذمّر الجنودَ – أى يشجعهم – :
« يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن النصر مع الصبر » .

ويقول الشاعر :

بكى صاحبى لما رأى الموت فوقنا
مطلا كإطلال السحاب إذا اكفهرّ
فقلت له : لا تبك عينك ، إنما
يكون غداً حسنُ الثناء لمن صبر !

وهذا عمرو بن الإطنابة يقول :

أبت لى عفتى وأبى بلائى
وأخذى الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت :
مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات
وأحمى بعدُ عن عرض صحيح
أبت لى أن أقصّر فى فعالى
وأن أغضى على فعل قبيح

والعمل الفدائى يحتاج إلى كتمان وإسرار ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم صحابته المجاهدين هذا حينما عودهم

على حمل « الكتب المغلقة » منه ، والسير بها إلى مكان يحدده لهم ، ثم يفتحونها هناك ، وينفذون ما فيها من واجبات الكفاح والفداء .

ولقد حدث فى أثناء غزوة الأحزاب أن غدر يهود بنى قريظة بالرسول والمسلمين ، ونقضوا العهد الذى كان بينهم وبين النبي ، وانضموا إلى المشركين فى وقت شديد عصيب ، وشاءت عناية الله أن تفشل حملة الأحزاب ، وتوجه الرسول بعدها إلى تأديب الغدرة الفجرة من بنى قريظة ، وتمكن منهم بعد حصار طال وامتد ، وطلب هؤلاء من الرسول أن يبعث إليهم بالصحابى أبى لبابة ، وكان حليفاً لهم فى الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار ، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عنهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أيسلمون وينزلون على حكم النبي ؟ . . فقال لهم : نعم ؛ ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة ، فأشار بيده إلى حلقه إشارة يُفهم منها أن مصيرهم هو القتل ، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه ، وهو قصاص عادل من غير شك .

وما كاد أبو لبابة رضي الله عنه يأتى بهذه الإشارة حتى تنبه لنفسه فى خوف وفزع ، وأحس كأنه خان الله ورسوله فى هذه الإشارة ، لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه — ولو فى اعتقاده — أن يخفيه ، فعصره الألم والحزن ، وقال : « فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله » .

وظهر الندم على وجهه، فقال له بعض اليهود : ما لك يا أبا لبابة ؟ . فأجاب : لقد خنت الله ورسوله . وعاد مسرعاً إلى المدينة، والدموع تسيل من عينيه، وما زال مسرعاً فى مشيته حتى دخل المسجد ، وربط نفسه فى أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت ، أو يتوب الله على مما صنعت . وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بنى قريظة ما دام حيًّا ، مع أنه قد كان له فيها مال وعقار .

وبلغت القصة مسمع النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه . وجاء الوحى من عند الله عز وجل مؤدبًا ومعلمًا ، فقال : [يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون] .

وظل أبو لبابة مربوطاً فى عمود المسجد عشرين يوماً ، لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ، ثم يعود إلى القيد من جديد ، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل جبريل يخبر الرسول بأن الله جل جلاله قد تاب على أبى لبابة بعد هذا الندم ، وبعد هذا التطهير ، وجاء قوله عز من قائل :

[وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خَلَطُوا عَملاً صالحاً

وآخرَ سيئاً ، عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم ، إن اللهَ غفورٌ رحيم]

وانتهت البشرى إلى مسامع أبى لبابة ، فطار لها فرحاً ، وسعد بها كثيراً ، ولكنه ظل فى قيده كما هو ، وأراد بعض الصحابة أن يفكه من القيد فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكنى من قيدى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكأنه كان يريد بذلك أن يوثّق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه .

ومحيت الهفوة من سجل أبى لبابة ، بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مجاهداً مستقيماً على الطريق ، وفيًّا بعهده لا يخون ولا يهون .

إنه لدرس بليغ . فهذا رجل يواصل جهاده فى سبيل الله ، ويبذل من نفسه وماله فى سبيل دينه وهداه ، ثم تفلت منه إشارة لم يتعمدها ، ولم يترصد لإتيانها ، ولم يصر عليها ، ومع ذلك ارتعدت فرائصه ، وارتجفت أوصاله ، وخيل إليه أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت ، وأيقن أنه لا ملجأ له من عذاب الله إلا عفو الله ورحمته ، فأخذ نفسه بذلك العقاب الصارم والتأديب الحازم ، حتى تنزلت عليه توبة الرحمن الرحيم .

* * *

ومن لوازم العمل الفدائى المؤمن إنكار الذات ، وإحياء الجندية المجهولة ، والعمل الصموت بلا مباهاة أو مفاخرة ،

ومن أروع الأمثلة للجندية المجهولة ما أوردته فى كتابى « واجب الشاب العربى » ، وهو أن مسلمة بن عبد الملك كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان يحاصر حصناً من الحصون استعصى عليهم فلم يفتحوه ، فحرض الأمير جنده على التضحية والإقدام . حتى يحدثوا فى ذلك الحصن ثغرة ، وينقبوا فيه نقباً ، فتقدم من عرض الجيش رجل ملثم غير معروف ، ودفع بنفسه إلى الحصن غير مبال بالموت ، وأحدث فيه ثغرة كانت سبباً فى سقوط الحصن ، ودخل الجيش المسلم فيه ، ففرح مسلمة كثيراً ، ونادى : أين صاحب النقب ؟ فلم يأته أحد ، فنادى مرة أخرى قائلا :

إنى أمرت حاجبى بإدخاله علىّ ساعة يأتى ، فعزمت (أى حلفت) عليه إلا جاء . وكان يريد أن يخصه بشىء من الغنائم والتكريم .

فجاء رجل ملثم إلى حاجب مسلمة وقال له : استأذن لى على الأمير ، فقال له الحاجب : أأنت صاحب النقب ؟ فقال : أنا أدلكم عليه ، وأخبركم عنه . فدخل الحاجب واستأذن للرجل على الأمير ، فلما مثل المجاهد بين يدى مسلمة قال له : أيها الأمير ، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثاً ، ألا تبعثوا باسمه فى صحيفة إلى الخليفة ، وأن لا تأمروا له بشىء ، وألا تسألوه من هو . فقال مسلمة : ذلك له . فقال الرجل فى استحياء : أنا صاحب النقب . ثم ولى مسرعاً .

فكان مسلمة لا يصلى بعد ذلك صلاة إلا دعا فيها ، فقال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب يوم القيامة !

* * *

والعمل الفدائى المؤمن يحتاج إلى استطلاع واسع واستكشاف دقيق ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من إرسال العيون ليستطلعوا الأنباء ، ويعرفوا أحوال الأعداء ، وها هو ذا يقول ذات مرة عن المشركين : من يأتينى بأخبار القوم ؟ فيقول الزبير بن العوام : أنا يا رسول الله .. فيقول النبى معجباً ومثنياً : لكل نبى حوارى ، وحوارى الزبير [١].

ولقد أوصى الإمام على ابنه محمداً وهو يقود جيشاً باستكمال دراسته لأحوال عدوه ، فقال له فيما قال : « ارم ببصرك أقصى القوم » . وكذلك أوصى عمر سعداً قائده ، فقال له فيما قال : « وتعرَّف الأرضَ كلها معرفة أهلها » . ويقول له أيضاً : « أذْكِ[٢] العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرُهم » .

وكذلك يحتاج العمل الفدائى إلى المخادعة ، لأنه لون من الحرب ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: « الحرب خدعة » .

---

(١) وفى رواية أنه قال : « الزبير ابن عمّى وحوارى » . والحوارى هو النصير . والحواريون هم أنصار عيسى بن مريم عليه السلام ، لأنه قال : من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله؛ فشبه النبى الزبير بهم فى النصرة .

(٢) أذكى النار : أوقدها وحركها، وأذكى العيون : بثهم لجمع الأخبار .

وفى حديث آخر يقول : « لا يصلح الكذب إلا فى ثلاثة مواضع : الحرب فإنها خدعة ، والرجل يصلح بين اثنين ، والرجل يرضى امرأته » . ويقول المهلب بن أبى صفرة لأولاده : « عليكم فى الحرب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النجدة » .

ويحتاج العمل الفدائى إلى سرعة الحركة مع المباغتة ، ولذلك أوصى النبي قائداً لإحدى سراياه فقال له :

« أغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم » . ويقول ذو الإصبع العدوانى : « وأسرع النهضة فى الصريخ[1] ، فإن لك أجلا لا يعدوك » .

والعمل الفدائى يحتاج إلى حماية ظهور الفدائيين ، وإمدادهم بما يلزمهم ، ورعاية من خلفهم من أسر وأولاد ، حتى يحسنوا التفرغ لعملهم ، ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا » .

* * *

أما بعد ، فالفدائى رجل يضع أمام عينيه على الدوام أمثالَ هذه الشعارات :

(١) أى عجل بالنجدة للمستغيث .

١ — يقول أحد الشعراء :

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها
والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

٢ — ويقول عمرو بن العاص : « عليكم بكل أمر مزلقة مَهلكة » أى عليكم بجسام الأمور.

٣ — ويقول أيضاً : « من طلب عظيماً خاطر بعظيمته » . أى تعرض للنازلة الشديدة .

٤ — وتقول العرب : « المنية ولا الدنية » .

٥ — ويقول بعض الشعراء :

سأحمل روحى على راحتى وأمضى بها فى طريق الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدا

المعلم الأكبر

للدروس التضحية والفداء

إذا كان الله تبارك وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : [وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين] ، فإنه قد قال له أيضا : [يا أيها النبيُّ جاهِد الكفارَ والمنافقين واغلظْ عليهم ، ومأواهم جهنمُ وبئسَ المصير] . وقال له : [فلا تُطعِ الكافرين وجاهِدْهم به جهادًا كبيرًا] .

ولذلك رأينا أن النبي العظيم عليه الصلاة والتسليم الذى يقول : « أنا رحمة مهداة » ويقول : « أنا نبي المرحمة » ، هو نفسه الذى يقول : « أنا نبي الملحمة » أى المعركة ، ويقول : « أنا رسول الملاحم » :

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلا أعلى فى الرحمة والرأفة بمن يستحق الرحمة والرأفة ، وكان مثلا أعلى فى الشدة والتأديب لأهل البغي والطغيان ، وكان يضرب القدوة

من نفسه فى ميادين الجهاد والإقدام والفداء، فيتقدم الصفوف ، ويعطى الأسوة الحسنة لمن خلفه ، ولذلك قال الصحابى الجليل عمران بن حصين : « ما لقى النبي صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب» .

ولقد شهد الرسول أشد المواقف فى النضال والكفاح ، واضطرب مِن حوله كماة وأبطال، ولكنه ظل ثابتاً لا يبرح ، مقبلا لا يدبر ولا يتزحزح ، وما من شجاع إلا قد أُحصيت له فرة ، أو وقع منه الهرب مرة ، سوى رسول الله فإنه لم يقبل لنفسه أبداً أن يترك الميدان منهزماً . وها هو ذا الصحابى الجليل البراء بن عازب يقال له : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ؟ فيقول : نعم ، ولكن رسول الله لم يفر .

بل كان من عادة الرسول أن يتقدم نحو العدو عند اشتداد الموقف ، يتقدم فى سرعة وثبات جأش ، حتى روى أن العباس ابن عبد المطلب كان يأخذ بخطام دابة النبي حتى لا يلتحم بالأعداء داخل صفوفهم وجموعهم .

ها هو ذا البطل المجاهد الشجاع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو أقربنا إلى العدو — وكان

من أشد الناس يومئذ بأساً » . والبأس هو شدة الحرب ، والحدق هى العيون ، واحمرارها كناية عن شدة الغضب .

وفى أحرج المواقف التى تزلزلت لها همم كثير من المناضلين — كيوم أُحد ويوم حنين — وقف الرسول المعلم الأكبر لدروس التضحية والثبات والفداء ، وسط الميدان ، والأهوال تحيط به عن يمين وشمال ، وقف راسخاً كالطود ، ثابتاً ثبات الرواسى ، وهو يهتف فى جرأة وشجاعة : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . هلموا إلىّ أيها الناس ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله » .

وكلما تضاعفت الشدة ، وتسعرت أهوال القتال ، بدت فيه روح الطمأنينة والسكينة ، وهتف مشجعاً ومثبتاً المجاهدين معه : « يا أنصار الله ، وأنصار رسول الله ، أنا عبد الله ورسوله».

ومن دروس الجهاد والفداء التى لقنها النبى لأصحابه أنه علمهم وجوب الطاعة للقائد ، وإخلاص الأداء للواجب ، والاستمرار فى موقف المناضلة والمقاومة ، ولو بدرت عوارض مغرية ، أو مرت شدة مؤذية ، وها هو ذا يطلب من الرماة فى غزوة أحد أن يحموا ظهور الجيش ، ثم يقول لهم فى عزم وتصميم: « إذا رأيتمونا تتخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم » .

كذلك علّم أصحابه المجاهدين الثقةَ بالنصر ، وعمق الرجاء

فى بلوغ الهدف ، مع بذل الجهد واستيعاب الطاقة ، ولذلك نراه وهو خارج إلى تأديب يهود خيبر الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، يجعل شعاره وهتافه قوله : « الله أكبر ، خربت خيبر ؛ إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » . .

وكأنى برسول الله ومن معه أراهم من قوة إيمانهم ، وعمق يقينهم ، يطالعون النصر ببصائرهم ، قبل أن يشهدوه بأبصارهم ، وكأنه قد تحقق بين أيديهم وهم ما زالوا فى إقبالهم نحو عدوهم لينالوا منه ثأرهم ، ويطهروا من دنسه ديارهم .

ومما جاء فى بعض كتب السيرة أن زعيم المشركين بعث إلى الرسول يهدده ، ويحاول إنزاله على خطة لا تليق بالمجاهد المناضل ، فقال زعيم المشركين : « نريد منك نصف نخل المدينة ، فإن أجبتنا إلى ذلك ، وإلا فأبشر بخراب الديار ، وقلع الثمار » فكان الجواب ما معناه : وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، وفهمت مقالتكم ، فوالله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح ، وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وإلا فأبشروا بضرب الحسام ، وفلق الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار . . . » أو كما قال .

وقديماً جاء فى المثل العربى : « إن الحديد بالحديد يفلح » .

ولقد علم الرسول أتباعه أن القائد يبدأ بنفسه ، وطبق ذلك عملياً ، فهؤلاء هم أهل المدينة يفزعون ليلة من صوت مزعج سمعوه ، فخرجوا يستطلعون نبأه ، ولما بلغوا ظاهر المدينة وكادوا

يتجمعون ، وجدوا رسول قد سبقهم ، واستطلع حقيقة الصوت لهم ، وعاد وهو راكب على حصان عريان ليس عليه سرج ، وسيفه معه ، وهو يقول للناس مهدئاً : لن تراعوا ، لن تراعوا ... أى ليس هناك ما يستوجب الفزع .

والرسول صلوات الله وسلامه عليه هو الذى علم أتباعه الاستجابة المبادرة إلى أداء الواجب النضالى فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلمهم أن الحرب خدعة ، لا بد فيها من الاحتراس واليقظة والتورية ، واختيار الموقع المناسب ، والفرصة المواتية ، والتأهب السريع ، والتحرك النشيط ، والمباغتة للعدو .

وعلمهم أن القوة الحقيقية للجنود المجاهدين إنما هى فى إيمانهم ويقينهم ، لا فى كثرة عددهم وضخامة عدتهم فقط ، وعلمهم الشورى قبل المعارك وبعدها : بين القائد وأعوانه للانتفاع بكل الآراء ، ولاستعراض وجهات النظر . وعلمهم دقة الاستطلاع ، وتتبع الأنباء ، وجمع المعلومات ، وكتمان الأسرار ، وتجنب اليأس ، والإصرار على تحقيق الهدف .

ثم علمهم وطبعهم على الاعتصام بحبل الله ، والاستمداد من حوله وطوله ، لأنه خير الناصرين ، وعلمهم أولا وأخيراً « صناعة الموت » أو « صناعة الشهادة » بتعبير أدق ، فردد عليهم قوله : « من قُتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد » .

* * *

إنه النبي : المجاهد الأول ؛ والمعلِّم الأكبر لدروس التضحية والفداء ، ونستطيع أن نشهد دلائل ذلك بوضوح وجلاء حين استعراض مواقف صحابته فى مواطن الفداء .

إنه النبي الذى تمنى أن يتكرر جهاده واستشهاده ، وإعادته إلى الحياة ليعاود الجهاد والاستشهاد ، فيقول : « والذى نفس محمد بيده لوددتُ أني أغزو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل » .

ويؤكد سمو مكانة الجهاد حتى الاستشهاد بقوله : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا ، وأن له على الأرض من شيء ، غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » .

ويقول أيضاً : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله : يا ابن دم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا ربِّ ، خيرَ منزل . فيقول الله : سل وتمنَّ . فيقول : أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأُقتل فى سبيلك عشر مرات ؛ لما يرى من فضل الشهادة » .

إنه النبى الذى كان يضع للمجاهدين الباذلين شعارات الأمل والرجاء ، والثقة بالنصر ، واليقين بما عند الله ، فيقول لصحابته : « ليكن شعاركم ، حم ، لا يُنصرون » . ويأمرهم مرة أخرى بأن يكون شعارهم : « أمتْ أمتْ » .

إنه النبي الذى يحث على الإقدام ، ويحرض على التضحية ، ويدفع إلى الفداء ، فيقول : « والذى نفس محمد بيده ما من كَلْم (أى جرح) يُكْلَمُ فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم ، لونه لون دم ، وريحه ريح مسك » .

إنه النبي الذى يهون على الفدائى وقع الموت ، فيخبره — وهو الصادق المصدوق — أنه سهل محتمل ، فيقول : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » .

إنه النبي الذى يفتح طريق الجنة من تحت السيوف وآلات النضال يحملها الأبطال ليحقوا حقًّا ، أو يبطلوا باطلا ، فيقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

إنه النبي الذى يحبب فى أعمال البطولة والفداء ، ويضمن كل الثواب للمصاب فى الجهاد وإن لم يبلغ النصر كله ، فيقول : « ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثى أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تمت أجورهم » .

إنه النبي الذى وسَّع دائرة الشهداء ليدخلها الكثير من المسلمين ، فينالوا ما كتب الله لهم من حظ على درجات ، فيقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو ، فصدق الله حتى قُتل ، فذلك الذى يرفع الناس أعينهم يوم القيامة هكذا (ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ، أى من شدة رفعها إلى أعلى) . ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى

العدو ، فكأنما ضُرب جلدُه بشوك طلح من الجبن ، أتاه سهمٌ غرْب (أى لا يدرى من رماه) فقتله ، فهو فى الدرجة الثانية .

ورجل مؤمن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً ، لقى العدوَّ ، فصدق الله حتى قُتل ، فذلك فى الدرجة الثالثة .

ورجل مؤمن أسرف على نفسه (عمل خطايا كثيرة) لقى العدو ، فصدق الله حتى قتل ، فذلك فى الدرجة الرابعة » .

أى أن الباب واسع يرحب بكل من يريد أن يجبر نقصاً ، أو يصحح خطأ ، أو يزداد ثواباً .

* * *

صلاة وسلاماً على نبي الملحمة ، نبي الجهاد . . .

صلاة وسلاماً على المعلم الأكبر لدروس التضحية والفداء .

صلاة وسلاماً على رسول الله : محمد بن عبد الله .

قائد أول فرقة فدائية

أبو بصير : عتبة بن أسيد

إن للمقاومة الفدائية فى صدر الإسلام أخباراً تحلو وتعلو حين تُرْوَى ، ولعل أول محاولة لهذه المقاومة ما كان عقب غزوة الحديبية[1] فى السنة السادسة للهجرة ، فقد اضطر المسلمون أمام ظروف قاهرة شديدة ، واستجابة لنظرة عميقة بعيدة ، أن يقبلوا وقف الحرب بينهم وبين المشركين إلى حين .

وكان من شروط الاتفاق أنه إن ارتد أحد من المسلمين ، وذهب إلى المشركين ، فإنهم لا يردونه ، وإن أسلم أحد من المشركين ، وجاء إلى المسلمين ، فإنهم يردونه . وكان الشرط فى ظاهره شديد الوطأة ، ولكن الرسول المعصوم الموحى إليه ، الموجَّه من ربه ، قال لأتباعه مهوِّناً ومشجعاً : « إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » .

وبعد كتابة عهد الحديبية ، ورجوع النبى صلى الله عليه

---

(١) الحديبية — بضم ففتح فسكون — قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، بينها وبين مكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل ، وسميت باسم بئر هناك ، وقيل سميت حديبية لأنه كان فى موضعها شجرة حدباء .

وسلم إلى المدينة ، جاءه أبو بصير عتبة[1] بن أسيد الثقفى ، جاءه هارباً من مكة بعد أن أسلم ، وجاء وراءه رجلان من المشركين يطلبان ردّه ، فلم يسع النبى صلى الله عليه وسلم إلا أن ينفذ الشرط ، ولما تألم أبو بصير من ذلك ، قال له الرسول : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت (من العهد) ، ولا يصلح فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » .

يا لشدة الموقف العصيب ! ماذا يصنع أبو بصير ؟ أيعصى رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف وهو المؤمن الموقن الذى شهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟ أيرجع إلى مكة حيث ينتظره التعذيب والاضطهاد والفتنة ؟ وكيف يرضى بهذا الهوان ؟ !

ماذا تصنع يا أبا بصير ؟ . ماذا تصنع ؟ ! . . .

انتبهْ أبا بصير ، ولا تنس أن رسول الله الصادق المصدوق قد قال لك منذ هنيهة : « إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . فلا تغفل عن تلمس الطريق إلى هذا الفرج ، ولا تتوان فى البحث للوصول إلى هذا المخرج : « سيجعل الله بعد عُسْرٍ يسراً » .

وعاد الرجلان ومعهما أبو بصير ، وهو يسبح فى بحر لجىّ

---

(١) بعض المؤرخين يقول إن اسمه « عبيد » .

من التفكير العميق ، والتأمل الدقيق . إن رسول الله قد أخبر بمجيء الفرج وتهيؤ المخرج فأين هما يا ترى ؟

وحينما انتهى الرجال الثلاثة إلى « ذى الحُليفة » وهو مكان يبعد سبعة أميال عن المدينة ، جلسوا يستريحون على الطريق ، وأخذ أحد الرجلين المشركين يثير أبا بصير ، ويسخر بالمسلمين ، إذ قال وقد رفع سيفه : « لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوماً إلى الليل » . وهو يقصد بالأوس والخزرج الأنصار من المسلمين ؛ وكتم أبو بصير غيظه ، ثم قال للرجل : أري سيفك هذا سيفاً جيداً ، فأرنيه .

وأخذ أبو بصير السيف من يده فى خفة ، ثم ضربه به ضربة قاتلة ، وفزع المشرك الثانى ، فأطلق ساقيه عائداً إلى المدينة ، وخلفه أبو بصير ، ولما أراد الرجل أن يطالب بإعادة أبى بصير إلى مكة مرة أخرى ، سارع أبو بصير يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، وفت ذمتك ، وأطلقنى الله عز وجل .

وهنا قال الرسول رامزاً ومشيراً إلى أمر جليل له دلالته ومغزاه : « ويلُ امِّه مِسْعَر حرب ، لو كان له رجال أو أصحاب » ، وكلمة : « ويل امه » تعبير تعود العرب قوله للإعجاب بالرجل الداهية . و « مسعر الحرب » هو الماهر فيها الخبير بها ، وقد قال رسول الله ذلك إعجاباً بأبى بصير وشجاعته ، وتمنياً أن

يكون بجواره أمثال له .

ثم قال الرسول لأبي بصير : « اذهب حيث شئت » .
وفهم البطل المجاهد ما فهم من كلام الرسول ، وسارع بالخروج ، وهو يفكر فيما يستطيع أن يفعله من أجل هذه الدعوة الإلهية المضطهدة ، ومن أجل هؤلاء المؤمنين المعذبين في الأرض ، المغتربين في سبيل عقيدتهم ، الذين تطاولت عليهم جموع المشركين والكافرين ، ومن أجل حريته التي يراد لها أن تذل وتضيع .

ثم هداه تفكيره — في ضوء ما سمع وما فهم — أن يقيم على ساحل البحر الأحمر ، عند موضع يقال له « العيص » بالقرب من الطريق الذي تمر به قوافل التجارة للمشركين ، ذاهبة وآيبة بين مكة والشام ، واستقر رأيه على أن يهاجم هذه القوافل في حركات فدائية بطولية ، ليستولي منها على ما يستطيع ، وبذلك يفيد نفسه ، ويفيد المسلمين بإضعاف أعدائهم ، ويغيظ المشركين بالاستيلاء على ما يمكن من تجارتهم .

ونجحت الفكرة . . .

وأخذ أبو بصير يسدد ضربات موجعة لقوافل المشركين ، وسرت كلمة الرسول هنا وهناك ، وهي قوله عن أبي بصير : « ويل امه مسعر حرب ، لو كان له رجال أو أصحاب » .
وسمع بها أمثال أبي بصير ، فجعل كل منهم يفر بدينه ، وينضم إلى أبي بصير ، لأنهم خافوا إن ذهبوا إلى المدينة أن يردهم الرسول نزولا على حكم الشرط .

وتزايد عدد هؤلاء الفدائيين الشجعان حتى قاربوا الثلاثمائة ، وأخذوا يكيلون الضربات للمشركين وقوافلهم ، حتى ضج المشركون من هجمات أولئك الفدائيين ، وأدركوا أن بقاءهم فى المدينة كان خيراً وأحسن ، فأرسلوا إلى النبى عليه الصلاة والسلام يرجونه فى أن يستدعى هؤلاء الفدائيين إليه ، وأن يبقيهم عنده ، وهم لن يطالبوه بردهم ، ولا برد أمثالهم بعد ذلك . وقالوا لرسول الله : إنا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، فمن جاء منهم فأمسكه لديك فى غير حرج .

وهكذا هيأ الله تبارك وتعالى لمسعر الحرب رجالا وأصحاباً استجابوا لإشارة الرسول ورمزه ، فجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً . وهكذا صدقت نظرة الرسول العميقة البعيدة المدى ، فانقلب هذا الشرط القاسى فى ظاهره خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين : [والله غالبٌ على أمره ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون] .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتاباً من لدنه إلى أبى بصير ومن معه يستقدمهم إلى المدينة ، لتقوى بهم جبهة النضال الإسلامية ، ولكن الكتاب النبوى الكريم وصل إلى أبى بصير وهو فى آخر حياته ، فقد مرض مرضَ الموت .

وتناول أبو بصير الكتاب وهو فرح به ، وأنفاسه الأخيرة يسلم زمامها إلى بارئها نفَساً بعد نفس ، ثم أسلم أبو بصير

روحه كلها ، وما زال كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده ، فتناوله منه رفيقه فى الجهاد ، وزميله فى النضال « أبو جندل ابن سهيل »[١] ، وقام على تجهيز أخيه المجاهد الراحل إلى رضوان ربه ، ثم دفنوه فى معقل كفاحه وفدائيته . . . هناك على ساحل البحر ، ودفنوا معه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليكون شاهداً له يوم يلقى ربّ العزة والجلال .

وعاد أولئك المجاهدون الفدائيون إلى المدينة ليواصلوا كفاحهم مع إخوتهم ، وكأن آذانهم وقلوبهم تدوى بصوت الحق جل جلاله حين يقول : [مِنَ المؤْمنين رجالٌ صَدقوا ما عاهَدوا اللهَ عليه ، فمنهم من قضَى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر ، وما بَدَّلوا تبديلا] .

رضوان الله على أول فدائى فى صدر الإسلام ، وأمير أول فرقة فدائية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام : أبى بصير عتبة بن أسيد الثقفى . وسلام عليه فى الخالدين .

---

(١) سنعرف خبره فيما بعد .

الفدائى الشهيد ابن الشهيد

أبو جندل بن سهيل

بالمقاومة والثبات يتمهد السبيل أمام النصر الجليل ، وبهم الأبطال الذين باعوا لله أنفسهم وأموالهم تتفتح الأبواب أمامهم إلى الفوز فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة ، ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة فى التضحية والفداء ؛ ولقد عرفنا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد اضطر إلى توقيع « عهد الحديبية » الذى نص على وقف الحرب بين المسلمين والمشركين إلى حين ، وعلى رد من يأتى مسلماً من مكة إلى المدينة .

وكان ممثل المشركين فى توقيع العهد هو « سهيل بن عمرو » وقد تشدد عند كتابته ، فاحتمله الرسول لأمر يريده الله ، ويوجه رسوله إليه ، وكان لسهيل ولد اسمه « أبو جندل » ، شرح الله صدره للإسلام وهو فى مكة بعد الهجرة ، فغضب عليه أبوه ، وقيده وحبسه فى داره ؛ ولكن أبا جندل استطاع الهرب ، ولجأ إلى المسلمين ، عقب توقيع العهد مباشرة ، وكان ما زال عالقاً به بعض قيوده .

ورآه أبوه سهيل فثارت فيه حمية الجاهلية — إذ كان على شركه حينئذ ، ولما يسلم بعد — فأخذ يضرب ابنه ، ثم أمسك بتلابيبه ليعيده إلى مكة معه ، وأخذ يطالب رسول الله بتنفيذ

ذلك حسب الشرط ، فلم يسع النبى إلا أن ينزل على الشرط وعلى حكم الاتفاق ، وهنا صرخ أبو جندل يقول بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أ أُرَدّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ ألا ترون ما لقيت ؟

ويشتد الأمر على المسلمين ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يخففه عليهم ، ويفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء ، فيقول : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً ، وأعطيناهم على ذلك ، وإنا لا نغدر بهم ».

واشتد أمر أبى جندل على الفاروق عمر بن الخطاب أكثر وأكثر ، وعمر هو عمر الشديد الصارم العنيف ، فيدنو من أبى جندل بحذر ، ويمشى إلى جانبه ، ويقول له ، وكأنه يهمس إليه : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دمُ أحدهم كدم كلب . ثم يقرّب عمر سيفه من أبى جندل ، ويظهره له فى حذر ، راجياً أن يمد أبوجندل يده ، ويأخذ السيف ، ويدافع به عن نفسه ، ولكن أبا جندل لم يفعل ، ولعله رأى أن ذلك مخالف لما نصحه به الرسول .

استمع أبو جندل إلى صوت النبى المرسل من الله رحمة للعالمين ، فأطاع واستجاب ، واحتمل الأذى والعذاب ، ورجع مع أبيه ، بعد أن عاد عمر يقترب منه ، ويقول له مرة أخرى : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دمُ

أحدهم كدم كلب . ثم يقرّب منه سيفه ليأخذه فيدافع به عن نفسه ، ولكن أبا جندل مضى فى طريقه مع أبيه ، وفى نفسه من الهم ما الله به عليم .

رجع أبو جندل مع أبيه وهو يفكر فى أمره ويتأمل ، راجياً أن يجعل الله غده القريب خيراً من حاضره ، وتطن فى أذنه على الدوام كلمة الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً » . وبعد قليل استطاع أبو جندل أن ينفلت من أسره ، وأن يخرج من مكة مناضلا فى سبيل عقيدته وإيمانه ، واستطاع أن يجمع حوله سبعين مناضلا مؤمناً فدائيا ، ممن أسلموا لله ولرسوله ، وأراد الطغيان الكافر الفاجر أن يحول بينهم وبين إرادتهم وحريتهم ، وخاف هؤلاء أيضاً أن يتجهوا إلى المسلمين فى المدينة ، فلا يقدروا على حمايتهم ، ويردوهم نزولا على شرط العهد ، فاتفقوا على أن يقوموا بمحاولات فدائية بين المشركين أنفسهم ، بأن يقطعوا عليهم طرقهم وخطوطهم ، وأن يستولوا على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم وتجارتهم ، وأن يفسدوا لهم ما يستطيعون إفساده من محاولاتهم الباغية ومؤامراتهم الخسيسة ضد الإسلام والمسلمين .

ونجح هؤلاء الفدائيون الأبطال فيما أرادوا نجاحاً بعيداً ، حتى افتخر بذلك زعيمهم أبو جندل ، فنظم شعراً يهدد فيه المشركين ، وينوه فيه برفاقه الأبطال المناضلين ، ويقرر أنه سيبقى مع زملائه ، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم ، يقاومون

ويضحون ، حتى يكونوا أوفياء لإيمانهم ، وحتى يكتب الله لهم مخرجاً يؤيدون به الحق ويذلون الباطل ، لأن المؤمن يطلب واحدة من اثنتين : إما أن ينتصر فيعز ويعلو : [وِلِلهِ العزةُ ولرسولِهِ والمؤْمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون] وإما أن يموت شهيداً بلا تقصير ، فيكون له عند ربه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من ألوان النعيم والتكريم ، فقال أبو جندل :

أبلغ قريشاً عن أبي جندل ... أنا بذي المروة فالساحل[1]
في معشر تخفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنا الذابل[2]
يأبون أن نبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجاً ... والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرءُ بإسلامه ... أو يقتل المرءُ ولم يأتل[3]

* * *

ثم علم أبو جندل ومن معه أن « أبا بصير » الفدائي المؤمن قد سبقهم إلى تنظيم حركة مقاومة مثمرة ، وأنه يقيم بالقرب من الساحل ، فسارعوا بالذهاب إليه ، واشتركوا معه في تجميع

---

(١) ذكر ياقوت عن ذي المروة أنها قرية بوادي القرى ، وقيل بين خشب ووادي القرى .

(٢) البيض : جمع بيضة ، وهي بيضة الحديد ، أي السيف . والقنا : جمع قناة وهي الرمح ، والذابل : الضامر وهذا كناية عن جودته .

(٣) لم يأتل : لم يقصر .

المقاومين المناضلين ، واتفقوا على تنسيق خططهم ، وترتيب أعمالهم ، حتى تزيد حركتهم قوة وأثراً ، وما دام هدفهم واحداً ، فلم لا يكونون كذلك صفاً واحداً :

« ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشلوا وتَذْهبَ ريحُكم واصبروا إن الله مع الصابرين » .

وكان أبو بصير يؤم القوم فى الصلاة من قبل ، فلما جاء أبو جندل تأخر أبو بصير عن مكان الإمامة ، وقدم إليه أبا جندل ، إذ رآه أحق بذلك وأجدر .

وهكذا لم يكن بين هؤلاء المناضلين الفدائيين حب ذات ، أو رغبة فى ظهور أو شهرة ، ولكنهم كانوا يتعاونون ويجاهدون من أجل الهدف المشترك والغاية النبيلة فى أخوة وإخلاص وإيثار .

وتزايد عدد هؤلاء حتى بلغوا ثلاثمائة ، وأخذوا يهددون قوافل أعدائهم وتجارتهم ، ويقتلون ويأسرون ، ويستولون على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من سلاح أو عتاد أو مال ، حتى ضج المشركون الجبارون — كما عرفنا — من خطر هؤلاء الفدائيين ، ففزعوا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يلحون فى الرجاء عنده أن يستدعي هؤلاء إليه ، وأن يؤويهم لديه ، ولن يطالبوه بهم ولا بغيرهم ، لأنهم قد تنازلوا نهائياً عن هذا الشرط فى العهد .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام يستدعيهم ، لينتفع بهم

فى مجال آخر من مجالات النضال المنظم . وأسلم أبو بصير روحه حينما وصل خطاب الرسول ، فحمل التبعة أبو جندل ، وعاد بكتيبة المقاومين الفدائيين إلى المدينة ، وواصلوا النضال مع المؤمنين ..

واشترك أبو جندل بعد ذلك فى غزوة فتح مكة ، كما اشترك فى غزوات غيرها ، وظل يجاهد فى تضحية وفداء ، فى حياة الرسول وبعد وفاة الرسول ، ثم كتب الله له نعمة الشهادة وهو يجاهد فى أرض الشام ، وكان لفظ «الشام» يطلق حينئذ على سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، فلقى أبو جندل ربه شهيداً مجيداً فى غزوة « اليرموك » ، واليرموك نهر من فروع نهر الأردن ، يجرى أولا قرب حدود سورية وفلسطين ، ثم ينحدر جنوباً إلى فلسطين ، ويصب جنوب نهر الحولة ؛ ويطلق اليرموك أيضاً على الوادى الموجود فى حوران ، جنوب دمشق فى طرف الغور ، وكانت غزوة اليرموك فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة (سنة ٦٣٦ ميلادية) ، وهى من الغزوات المتألقة فى تاريخ الإسلام .

* * *

والعجيب بعد هذا أن سهيل بن عمرو ـــ وهو والد أبى جندل كما عرفنا ـــ قد صنع الله به ما يعد آية على معجزة الإسلام العظيم . فسهيل هذا الذى كان مشركاً عنيداً متعصباً شديد التعصب للشرك والمشركين ، والذى تعنت وتشدد يوم « عهد الحديبية » ، والذى رفض أن يكتب فى العهد كلمة « بسم الله

الرحمن الرحيم » ، وقال : لا أعرف ما الرحمن ولا ما الرحيم ، وأصر على أن يكتب كلمة : « باسمك اللهم » ، والذى رفض أن يكتب فى العهد كلمة « محمد رسول الله » . وقال للنبى : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، وكلما تشدد سهيل احتمل رسول الله وصبر ، لأنه يرى بنور الله خير العاقبة ، فيقول : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » . . .

سهيل هذا تبهره أضواء الإسلام بعد ذلك ، وتحيط به شواهد الإيمان فتأخذه عن يمين وشمال ، فإذا هو يقلع عن عناده ، ويخرج من جحوده ، ويقبل طائعاً مختاراً ، فيسلم يوم فتح مكة ، ويحرص على أن يكفّر عما فعل وقدّم ، فإذا هو يكثر الصلاة والصيام والتصدق والاشتغال بأمور الآخرة ، حتى يصير فى ذلك مثلا باهراً يستلفت الأبصار ويثير الأفكار ، وحتى يقول عنه سعيد بن مسلم ، كما يروى عنه النووى :

« لم يكن أحد من كبراء قريش الذين أسلموا يوم الفتح أكثر صلاة وصوماً وصدقة واشتغالاً بما ينفعه فى آخرته من سهيل بن عمرو ، حتى شحب لونه وتغير ، وكان كثير البكاء رقيقاً عند قراءة القرآن ، كان يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن ويبكى ، حتى خرج معاذ من مكة ، فقيل له : تختلف إلى هذا الخزرجى ؟ لو كان اختلافك إلى رجل من قومك ؟ فقال : هذا الذى صنع بنا ما صنع ، حتى سُبقنا

كل السبق ، لعمرى أختلف ، لقد وضع الإسلامُ أمرَ الجاهلية ، ورفع الله بالإسلام قوماً كانوا فى الجاهلية لا يذْكرون ، فليتنا كنا مع أولئك فتبقدمنا ، وإنى لأذكر ما قسم الله لى فى تقدم أهل بيتى من الرجال والنساء ، فأسر به ، وأحمد الله عليه ، وأرجو أن يكون الله قد نفعنى بدعائهم ، وأن لا أكون مت على ما مات عليه نظرائى ، فقد شهدتُ مواطن أنا فيها معاند للحق » ! .

وحينما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع حرص سهيل بن عمرو على أن يقوم بخدمة النبى ، فكان يقرّب إليه الإبل التى يقوم النبى بذبحها تقرباً إلى الله ، ولما دعا النبى بالحلاق ليحلق شعره كان سهيل يحرص على التقاط ما يتناثر من شعر الرسول ويضعه على عينيه .

ويروى لنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه أنه رأى هذا المنظر فتعجب له ، وأخذ يقارن فى نفسه بين موقف سهيل هنا وقد أسلم ، وموقفه يوم الحديبية ، حين رفض أن يكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » وأن يكتب : « محمد رسول الله » . يقول أبو بكر : « فحمدت الله وشكرته أن هداه للإسلام ».

* * *

وحينما توفى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وارتجت دنيا المسلمين بسبب ذلك ، وتزلزلت عقول الضعفاء من أهل مكة ، وقف سهيل بن عمرو يحث على الاستمساك بعروة الله الوثقى ،

فيقول لقومه : « يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم ، وأول من ارتد ، فوالله ليمتدن هذا الدين امتداد الشمس والقمر » . ثم مضى يخطب قومه خطبة طويلة يوصيهم فيها بالثبات على الدين ، والجهاد مع المؤمنين ، والصبر مع الموقنين .

ثم خرج سهيل هذا بأهل بيته إلى الشام مجاهداً ، وظل يجاهد مع ولده أبي جندل جنباً إلى جنب ، حتى نالا الشهادة معاً في غزوة « اليرموك » [وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختار] .

يالصنع الإيمان العجيب ! . . .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون أسرة « سهيل » أسرة مجاهدين شهداء ، فذهب سهيل إلى ربه شهيداً ، وذهب ولده أبو جندل أيضاً إلى ربه شهيداً ، وكان لسهيل ولد آخر اسمه عبد الله ، خرج مع المشركين في غزوة بدر ، ليقاتل معهم المسلمين ، ولكن الله هداه للإسلام ، فترك صفوف الكافرين إلى صف المؤمنين ، وظل مؤمناً مجاهداً مناضلا ، حتى ذهب إلى ربه شهيداً كذلك : في غزوة اليمامة :

[ذُريةً بعضها من بعض واللهُ سميعٌ عليم] .

نضر الله بالنعيم والرضوان وجوه أولئك المناضلين الشهداء .

قائد أول سرية فدائية

عبد الله بن جحش

إنه أبو محمد عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ، وأمه هى آمنة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق إلى الإسلام قبل دخول النبي دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة .

وكانت فيه رجولة و بطولة وفدائية ، فجعله الرسول أميراً على اول سرية كانت فى الإسلام لمناوشة الأعداء المشركين ، والسرية مجموعة من المناضلين تخرج فتغير على العدو ثم تعود ، وسميت سرية لأنها تسرى خفية ، أى تتحرك فى تكتم وتستر ، وتبدأ من خمسة أشخاص ، وقد تبلغ أربعمائة .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام معه ثمانية رجال ، ليس فيهم أحد من الأنصار ، بل كلهم من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وهم سعد بن أبى وقاص ، وعامر بن ربيعة ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وخالد بن البكير ، وسهيل ابن بيضاء ، وعكاشة بن محصن ، وواقد بن عبد الله ، وعتبة ابن غزوان .

وكان كل اثنين منهم يعتقبان بعيراً ، أى يركب كل منهما مسافة ويمشى أخرى ، وأعطاه الرسول كتاباً مغلقاً ، وأمره

ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، فإذا فتحه نفذ ما فيه ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، بل يترك لهم الخيار ، فمن تابعه فعل ، ومن رجع رجع .

ونفذ عبد الله أمر قائده ورائده ؛ وعند المكان المناسب فتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وما كاد عبد الله يبلغ نهاية الكتاب حتى هتف قائلا : سمعاً وطاعة لله ولرسوله !

وأخبر عبد الله رفاقه بما فى الكتاب ، ثم قال لهم : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وعاد يقول : « من كان يريد الموت فليمض وليوص ، فإنى موص وماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

واستجاب الجميع لنداء البطولة والشرف ، ولم يتخلف منهم أحد . وهكذا تكون إثارة حوافز الهمة فى صدور الرجال ، بلا إرغام ولا احتيال ، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف معادن هؤلاء الرجال ، وكان يدرك إيمانهم وجرأتهم واستعدادهم للبذل والفداء ، ولكنه ترك لهم الخيار فى هذا الموطن ؛ ليزدادوا ثقة ورضى ، وليقدموا على عملهم الجليل بشهامة وكرامة .

واشتبك هؤلاء المجاهدون مع مجموعة من أعدائهم المجرمين كانت معهم قافلة تجارة ، وكان الوقت آخر شهر رجب ، وهو شهر حرام ، قد تعودوا من قبل وقف القتال فيه ، فتشاور المجاهدون فيما بينهم : أيهجمون على أعدائهم فوراً ، أم ينتظرون حتى يفلتوا من أيديهم ؟ ثم عزموا وأقدموا على الهجوم ، ويروى أنهم ظنوا أن الشهر الحرام قد انتهى ، وبدأ شهر غير حرام ، وهو شهر شعبان ، واستولوا على القافلة ، وقتلوا من أشخاصها رجلا اسمه : عمرو بن الحضرمى ، وأسروا أسيرين ، وعادوا بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانتهز الفرصة لئام اليهود ممن كانوا فى حمى المدينة ، فأخذوا يثيرون الفتن ، ويشوهون صورة هؤلاء الفدائيين الذين ينتصفون لأنفسهم ممن بغوا عليهم ، فقال اليهود وغيرهم من أعداء المسلمين إن هؤلاء المجاهدين قد قاتلوا فى الشهر الحرام ، وهذا لا يليق .

ولم يترك الله تبارك وتعالى عباده فى حيرة أو بلبلة ، بل أنزل قوله عزَّ من قائل : [يسأَلونَكَ عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه ، قُلْ قتالٌ فيه كبير ، وصَدٌّ عن سبيل الله وكُفْرٌ به والمسجدِ الحرام ، وإخراجُ أَهلِه منه أَكبرُ عندَ الله ، والفتنَةُ أَكبرُ من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يَرْتَدِدْ منكم

عن دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأُولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأُولئك أَصحابُ النارِ هم فيها خَالدون] .

يقول ابن كثير فى السيرة معلقاً على هذه الآية الكريمة :

« أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله ، مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ، والفتنة أكبر من القتل ، أى قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ، ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه ، غير تائبين ولا نازعين ».

وحينئذ فرح أولئك المجاهدون ، وفرح معهم المسلمون ، بذلك التنزيل الإلهى المجيد الذى يقرر أن العدوان يدفع بالعدوان ، ما دام المعتدون لم يراعوا الحرمات .

وقال عبد الله شعراً يعرض فيه بالفتنة التى أثارها اليهود وغيرهم حول هذه الواقعة ، وفيه يقول :

تعدون قتلاً فى الحرام عظيمة　　وأعظمُ منه لو يرى الرشد راشد

صدودُكمُ عما يقول محمد　　وكفرٌ به ، والله راء وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله

لئلا يُرى لله فى البيت ساجد

فإنا — وإن عيرتمونا بقتله —

وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

سقينا من ابن الحضرمى رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقـد

وبعد أن نزلت الآية السابقة تزكى عمل هؤلاء الفدائيين ، وتقرر أنه عمل مشروع ، أراد هؤلاء الأبطال أن يستزيدوا من الخير ، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله تعالى عقب الآية السابقة قوله : [إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهَدُوا فى سبيل الله أُولئك يرجون رحمة اللهِ واللهُ غفور رحيم] ، فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء .

وكان سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان قد تخلفا فى الغزوة عن زملائهما للبحث عن جمل ضل لهما ، وسارع المشركون يطلبون من الرسول فك الأسيرين بفداء يدفعونه ، فقال النبى عن سعد وعتبة : « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم ».

ووصل المجاهدان سعد وعتبة ، فقبل النبى الفداء ، ورد إليهم الأسيرين ، وقد أسلم أحدهما بعد ذلك ، واسمه « الحكم ابن كيسان » ، وجاهد مع الرسول حتى نال الشهادة ، وأما الآخر واسمه عثمان بن عبد الله فقد حرمه الله التوفيق فمات على الكفر .

* * *

وواصل عبد الله بن جحش الفدائى البطل جهاده مع

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فشهد معه غزوة بدر ، وشهد معه غزوة أحد ، ومن أروع مواقف الفدائية فى تاريخ الإسلام أن عبد الله قال لسعد بن أبى وقاص قبيل غزوة أحد : ألا تأتى فندعو الله ؟ هلم فلندع الله ، وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه ، وليؤمن الآخر على دعاء أخيه .

ثم انتحيا ناحية ، ودعا سعد أولا فقال : يا رب ، إذا لقيت العدو غداً فلقنى رجلا شديداً بأسه ، شديداً حرده (أى غضبه) أقاتله فيك ، ويقاتلنى ، ثم ارزقنى عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه .

هكذا دعا سعد ، فماذا كان دعاء عبد الله ؟

لقد دعا فقال : اللهم ارزقنى غداً رجلا شديداً بأسه ، شديداً حرده ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، فيقتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع (أى يقطع) أنفى وأذنى ؛ فإذا لقيتك قلت لى : يا عبد الله ، فيم جدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يا رب وفى رسولك ؛ فتقول لى : صدقت يا عبد الله .

وكذلك كان ! . . .

تحققت دعوة عبد الله ، فقاتل ما قاتل فى غزوة أحد ، ثم سقط فى المعركة شهيداً مجيداً ، ومثل المجرمون الآثمون بجسمه ، فقطعوا أنفه وأذنيه ؛ وقال سعد بعد المعركة : « كانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتى ، لقد رأيته آخر النهار ، وإن أذنه وأنفه معلقان فى خيط » !

ولذلك أطلق تاريخ الإسلام على عبد الله لقب « المجدَّع » أى المقطع الأطراف ، أفكان هذا التقطيع شرفاً له أى شرف ، ووساماً له عند ربه أى وسام ؛ ولذلك دفنه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه مع عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب قبر واحد ، رضوان الله عليهما ، وكان عمر عبد الله حين نال الشهادة فوق الأربعين بقليل .

ولقد روى أن عبد الله انقطع سيفه ، وهو يجاهد فى معركة أحد » فأعطاه الرسول عرجون نخلة ، فصار فى يده سيفاً يجاهد به ، ولقد ظل هذا العرجون من وراء عبد الله أثراً كريماً يتوارثه القوم ويعتزون به ، حتى اشتراه أحد المسلمين بمائتى دينار .

ولقد أراد رسول الله أن يخبر عن المصير الكريم العظيم الذى صار إليه شهداء غزوة أحد ، وفيهم عبد الله هذا ، فقال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم ، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا (أى لا يجبنوا ولا يفروا عند الحرب) ، فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيات : [ولا

تَحْسبنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقُون ، فَرِحين بما آتاهم اللهُ من فضلِه ، ويستبشرون بالذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلْفِهم ، ألاَّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ ، وأن الله لا يُضيع أجرَ المؤمنين] .

ذو الهجرتين الشهيد
أبو سلمة المخزومى

إذا كان الإنسان العاقل الحر محتاجاً فى حياته ونضاله إلى ألوان من وسائل الحماية والصيانة والإعزاز ، فإن أقوى هذه الوسائل كلها هو سلاح الإيمان ، والإيمان هو ذلك الاعتقاد الدينى الوطيد الراسخ ، الذى لا يتطرق إليه شك أو ريب ، بل يظل وثيق الصلة بالله رب العالمين ، فيواصل المؤمن على الدوام كفاحه وجهاده فى طريق الحق والعدل والخير ، ثابت الجأش بحصانة اليقين ، واثق الخطوة بفضل الإيمان . قوى الرجاء فى عون الله ، صادق البذل من حسه ونفسه ، وماله وعمله ، فى سبيل ما آمن به واعتقد فيه ، لأن الله جل جلاله يقول : [إنما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسولهِ ، ثم لم يرتابوا ، وجاهَدُوا بأموالِهم وأنفسهم فى سبيل الله أُولئك هم الصادقون] .

ويظل المؤمن موقناً بأنه إن انتصر وفاز ، فقد أعز كلمة الحق ، وعاش حياة الكرامة والحرية ، وإن مات مجاهداً فقد مضى إلى ربه شهيدًا مرددًا قول ربه : [قُلْ لنْ يُصيبنا إلا ما كتبَ اللهُ لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ،

قل هَلْ تَرَبَّصون بنا إلا إِحْدَى الحُسْنَيَيْن ، ونحن نتربَّص بكم أَن يصيبَكم اللهُ بعذاب من عندِه أَو بأَيدينا . فتربَّصُوا إنا معكم متربصون] .

ولقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه بمنهج الإيمان والإحسان ، والإتقان والإخلاص ، والثبات على المبدأ الأمين حتى النصر المبين أو الاستشهاد المجيد .

وهذا واحد من أولئك الأتباع الأبرار الذين خلد ذكرهم على الأيام :

إنه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشى المخزومى ، وأمه هى « برّة بنت عبد المطلب » عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبينه وبين الرسول أمور مشتركة فوق الأخوة فى الإسلام والإيمان ، منها أن كلا منهما من قريش ، وأنهما قريبان ، فأبو سلمة ابن عمة النبي ، وقد رضعا معاً من ثدى واحد ، فقد أرضعتهما « ثُوَيبة » مولاة أبى لهب ، وكل منهما قد أجاره أبو طالب من اعتداء المشركين عليه .

وقد أسلم أبو سلمة مبكراً ، وتروى السيرة العطرة أنه أسلم مع أبى عبيدة ، وعثمان بن عفان ، والأرقم بن أبى الأرقم فى يوم واحد ، وأبو عبيدة هو الذى قال فيه الرسول : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة هو أبو عبيدة عامر بن الجراح » ، وعثمان هو ذو النورين ، وهو الرجل الذى أخبر عنه الرسول بأنه

« رجل تستحي منه الملائكة » ، والأرقم هو صاحب الدار التي كانت أول مدرسة في الإسلام علم فيها الرسول أتباعه دعوة الحق ومبادئ الإيمان :

ولقد لقي أبو سلمة في أول إسلامه أذى شديداً من المشركين ، حتى اضطر أن يلجأ إلى خاله أبي طالب ليحميه ويجيره على طريقة العرب ، فحماه وأعلن بين الناس أنه في جواره ، فذهب فريق من المشركين — من بني مخزوم — إلى أبي طالب يقولون له : لقد منعتَ منا ابن أخيك محمداً ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

فقال أبو طالب : إنه استجار بي ، وهو ابن أختي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي ، لم أمنع ابن أخي !

ولكن جمع الشرك فجر حين كفر ، فامتد إيذاؤه للمؤمنين وانتشر ، وتلقى أبو سلمة منه المزيد بعد المزيد ، حتى اضطر أن يهاجر بإيمانه وعقيدته مع زوجته الطاهرة « أم سلمة » — وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة — وقيل إن اسمها رملة ، ولعلها كانت تسمى بالاسمين ، ثم غلبت عليها كنية « أم سلمة » نسبة إلى ولدها سلمة .

هاجر الزوجان المجاهدان إلى الحبشة مرتين ، وكانت الهجرة إلى الحبشة في رجب سنة خمس من البعثة ، فخرجا أول طائفة هاجرت إلى الحبشة ، وكانت تضم نحو عشرة أشخاص ، ثم توالى المهاجرون ، وروي أنهما كانا أول من هاجر إلى

الحبشة[١] ، وظل المهاجر وزوجته هناك سنوات ، لم تغيّر الهجرة ولا الغربة ولا الوحشة ولاطول المدة من إيمانهما قليلا أو كثيراً . ولقد قصت السيدة أم سلمة قصة الهجرة إلى الحبشة فى عبارة مشجية مؤثرة يمكن أن تراجع بطولها فى كتب السيرة[٢] .

وحينما دخل نور الإسلام أرض المدينة المنورة ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه عن المدينة وأهلها : « إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً » ، وبدت تباشير الهجرة إليها ، كان أبو سلمة أول من هاجر أيضاً ، وخرجت معه زوجته الوفية لتشاركه رحلته وهجرته ، ولكنها لم تستطع ، وحيل بينها وبين ما تريد ، فقد تكبكب المشركون البغاة حول المهاجرين العظيمين ، وفرقوا بين أبى سلمة وزوجته وولده « سلمة » الصغير ، مع أن هذه الأسرة المؤمنة بدأت هجرتها فى وقت مبكر جداً ، قبل بيعة العقبة بسنة ، حينما عاد المشركون إلى إيذاء أبى سلمة عقب عودته من هجرته إلى الحبشة ، ولقد همّ أبو سلمة حينئذ أن يعود إلى الحبشة مرة أخرى ، ولكنه علم أن للمسلمين إخوة مثلهم مسلمين فى المدينة فاتجه إليها .

أرغم المشركون أبا سلمة على هجرته وحيداً ، وأما زوجته

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، والسيرة الحلبية .

(٢) يراجع مثلا كتاب « السيرة النبوية » لابن كثير ، ج ٢ ص ١٧ — ٢٣ ، وكتاب الاكتفاء ، ج ١ ص ٣٢٥ .

فقد انتزعها أهلوها بالقوة وضموها إليهم ، وأما ولده الطفل الصغير « سلمة » فقد اختلفوا عليه ، وتجاذبوه فيما بينهم ، كأنه فريسة بين جمع من الوحوش ، حتى خلعوا يده ، واستولى عليه أعمامه ، ومضى أبو سلمة وحيداً مرغماً نحو المدينة ، حتى نزل فى « قباء » هناك .

وظلت أم سلمة حبيسة فى مكة ما يقرب من سنة ، بعيدة عن زوجها ، وظل أبو سلمة وحيداً بعيداً عن زوجته وولده هذه المدة ، وظل يجاهد ويناضل ، لا يضطرب إيمانه ولا يتزلزل ، وبعد ذلك الوقت الطويل المضنى جمع الله بين أبى سلمة وزوجته وولده : فى رحاب المدينة ، وفى ظلال أكرم الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد قصت أم سلمة قصة هجرتها مع ولدها بعبارة رائعة مؤثرة [١] .

ولكن اجتماع الشمل لم يصرف أهل الإيمان عن مواصلة النضال والكفاح ، فحينما بدأت غزوة بدر سارع إليها أبو سلمة ، فقاتل فيها قتال الصادقين ، وجاهد جهاد الفدائيين ، ورمى نفسه على الموت فى سبيل الله عز وجل ، ففر الموت منه ، بمقتضى كلمة أبى بكر الصديق الصدوق رضى الله عنه : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

وبعد غزوة بدر جاءت الغزوة العصيبة الشديدة : غزوة أحد ، فسارع إليها أبو سلمة ، وواصل فيها جهاده وجلاده ،

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥ – ٢١٧ .

مقدماً غير محجم ، حتى ناله وسام إلهى من هذه الغزوة ، وهو جرح عميق فى عضده ، ظل شهراً يتداوى منه ، وهو يتحرق شوقاً إلى معاودة القتال فى الميدان .

وما كاد يبلغ عضده مبلغ النقاهة حتى تطلع إلى الجهاد ، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرضى نزعة النضال فى نفس أبى سلمة ، وكان قد بلغه أن طليحة بن خالد الأسدى وأخاه سلمة قد جمعا جيشاً باغياً يعتزمان الهجوم به على الرسول والمسلمين ، وذلك عند مكان يقال له « قَطَن » ، وهو موضع فيه ماء لبنى أسد فى نجد ، وذلك فى سنة أربع من الهجرة ، وكان أبو سلمة قد تماثل للشفاء ، فاستدعاه النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وكلفه قيادة سرية فدائية ، تسارع إلى تشتيت هذا الجيش قبل هجومه ، ففرح أبو سلمة بذلك فرحاً شديداً ، وعقد له الرسول لواءً ، وأرسل معه مائة وخمسين مؤمناً مضحياً ، وأوصاه بتقوى الله تعالى التى هى حصن المجاهد فى سبيل الله ، كما أوصاه بمن معه من المسلمين خيراً .

وقال له : « اخرج فى هذه السرية ، فقد استعملتك عليها ، فسرْ حتى تأتى أرض بنى أسد ، فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم » فهو يوصيه بملاحظة عنصرين مهمين فى مثل هذه الحركات الفدائية ، وهما سرعة المبادرة ، وسرعة المباغتة للعدو ، وهما أمران يستلزمان الدقة والحذر والكتمان .

وسارع أبو سلمة بالتنفيذ وكأنه ذاهب إلى لقاء عروس ،

وتباعد مع رفاقه عن الطرق المألوفة المطروقة ، وتكتم كل ما استطاع من أمره ، اهتداءً بهدى الرسول العظيم الذى يقول : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . وواصل المسير ليلا ونهاراً ، إلا قليلا من الوقت للراحة ، لأنه كان حريصاً على أن تسبق خطواته أخبارَه ، حتى يفجأ أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين ؛ وحينما بلغ أبو سلمة موطن المهاجمة قسم سريته إلى ثلاثة أقسام ، فقسم منها يهاجم الأعداء ، وقسم يغير على الإبل والشاء ، وقسم يقوم بالحراسة والحماية وتأمين ظهور المناضلين .

ونجحت الخطة المحكمة ، وظل أبو سلمة ورفاقه يهاجمون أعداءهم ويناوشونهم ، وينزلون بهم ما يستطيعون من خسائر ، ثم يعتصمون بمعاقلهم ، ثم يعاودون فى يوم تالٍ هجومهم ، وظلوا هكذا قرابة شهر فى ميدان التضحية والفداء .

ثم تلاقى الفريقان فى معركة فاصلة ، فأعز الله تعالى جنده ، وأيد عباده ، فنزل الرعب فى صدور المشركين من بطولة أولئك الفدائيين ، فتفرقوا وهربوا ، وخلفوا من ورائهم قدراً كبيراً من الغنم ، وعدداً من الأسرى ، حتى يقول ابن كثير فى السيرة النبوية عن سرية أبى سلمة هذه : « ثم خرج فى سرية ، فغنم منها نعماً ومغنماً جيداً » .

ورجع أبو سلمة ورفاقه بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الذى فرح بإقدامهم وشجاعتهم وتوفيقهم فى مهمتهم أكثر مما فرح بالغنائم التى عادوا بها ، فقد دللوا عملياً على أنهم

يرضون المنية ، ويأبون الدنية ، وأنهم لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، ما داموا يدفعون عدواناً ، ويجاهدون كفراناً ، ويؤيدون إيمانا :[أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لَقدير] .

وعاد أبو سلمة — رضى الله عنه — يتحرق شوقاً إلى معاودة التضحية والفداء من جديد ، ولكن الله تعالى أراد له شيئاً آخر ، فقد انتكس الجرح عند أبى سلمة ، ولم يمكث إلا شهوراً قليلة لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، ليلقى عند ربه ثواب الشهداء الأبرار ، وما عند الله خير وأبقى ؛ وكانت وفاته فى شهر جمادى الأولى سنة أربع للهجرة .

ولكن ذكرى أبى سلمة بقيت على مر الأيام ، وبقيت سيرته العاطرة وخطواته الباهرة ، فهو يضىء بأنوار بطولته شعاب المسير إلى ميادين التضحية من أجل الحرية والعزة والكرامة :

[ولا تَهِنُوا ولا تَحْزنوا وأنتم الأَعْلَوْن إن كنتم مؤمنين] .

* * *

ويقيت أم سلمة من وراء أبى سلمة مثالا للمرأة المسلمة الصابرة.

لقد قالت حينما توفى زوجها : « سمعت رسول الله [صلى الله عليه وسلم] يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة ، فيقول ما أمره الله عز وجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » .

ومضت الأيام ، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام فوجد أن أم سلمة قد كبرت فى سنها ، وتوحدت فى حياتها ، ومن حولها أولاد لها يحتاجون إلى رعاية وعناية ، فأراد أن يصون بيت أبى سلمة ، وأن يصون أم سلمة ، وأن يلقى على هذا البيت المؤمن رداء التكريم ، فتزوج أم سلمة ، وبذلك أصبحت إحدى أمهات المؤمنين عليهن الرضوان ، وفرحت أم سلمة بهذا الشرف .

واستقبلت الحياة فى كنف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالجد والعمل ، حتى قال عنها المطلب بن عبد الله : « دخلت أيم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروساً ، وقامت من آخر الليل تطحن » !

وكانت أم سلمة بعقلها ومشورتها تسهم فى دفع الجماعة المؤمنة إلى طريق النصر والفوز ، ومشورتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم عقب عهد الحديبية مشهورة جليلة .

كما يروى أنه حينما كان الرسول فى طريقه إلى فتح مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية ابن المغيرة — وهو أخو أم سلمة — جاءا مهاجرين مسلمين ، فأعرض عنهما الرسول ، فحدثته أم سلمة قائلة : يا رسول الله لا يكون ابن عمك وأخي أشقى الناس بك ، فقد جاءا مسلمين !

فأذن لهما الرسول ، وأسلما وحسن إسلامهما ، ونال أخوها عبد الله الشهادة بعد ذلك فى حصار الطائف ، وكانت

أم سلمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الطائف .

وتوفيت أم سلمة رضى الله عنها فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وثمانون سنة ، وكانت آخر أمهات المؤمنين وفاةً ، وصلى عليها أبو هريرة ، ودُفنت فى البقيع .

رضوان الله على أهل هذه الأسرة المؤمنة التى جاهدت فى الله فأحسنت الجهاد : [والذين جاهَدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهم سبلَنا وإنَّ اللهَ لمَعَ المحسنين] .

حينما اهتز عرش الرحمن

لموت الشهيد : سعد بن معاذ

لو رجعنا بخيالنا وخواطرنا ، وعبرنا الزمان والمكان ، حتى بلغنا صدر الإسلام ، ورأينا المدينة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، لشاهدنا الصحابى الأنصارى الجليل سعد بن معاذ يخرج من داره ، لابساً ثياب الجهاد ، ليشارك فى غزوة الخندق ، ولرأينا أمه المؤمنة الماجدة التى رباها الإسلام العظيم على البطولة وحب البطولة ، تقول له حاثةً على الإسراع : « الحق بُنَىَّ فقد والله أخّرت » ! .

ويسارع سعد فيمتطى صهوة جواده ، وينطلق به نحو ساحة الجهاد ، وهو يردد قول القائل :

لبِّث قليـــلا يدرك الهيجا حمل ْ
ما أحسن الموت إذا حان الأجل ْ

وهو يترجم بهذا عن روح التضحية والفداء فى سبيل الله والحق ، فهو يرى أن الموت يحلو ويعلو إذا أقبل ميعاده وكان صاحبه فى موقف مشرِّف يليق به ، ويرفع من شأنه .

ومضى سعد ليدافع عن دين الله ، وأرض عباد الله ، وشاء الله — ولا راد لقضائه — أن يصاب سعد بسهم فى أحد عروقه ، رماه به حيان بن العرقة قائلا : « خذها منى وأنا

ابن العرقة » . فقال له سعد : « عرّق الله وجهك فى النار » .

وكان يهود بنى قريظة قد خانوا عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن أمنّهم على حياتهم ، وأخذ منهم المواثيق المغلظة بأن لا يخونوا ولا يغدروا ، ولكنهم أبوا إلا خطة النذالة والدناءة ، فانضموا إلى المشركين أعداء الله والدين ، وتعاونوا معهم على حرب المسلمين ، فخيِّل إلى سعد أن السهم الذى أصابه ، وأحدث فيه جرحاً عميقاً ، كانت أجزاؤه ممزوجة بطغيان الشرك ولؤم اليهود من بنى قريظة ، ولذلك دعا سعد ربه تبارك وتعالى فقال : « اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى له ، فإنه لا قوم أحب إلىّ أن أجاهدهم ، من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه . اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » . يقول هذا مع أن هؤلاء كان بينهم وبين سعد نوع من التحالف فى الجاهلية ، ولكن الإسلام أشرق بنوره ، فرفع الله به قوماً ، وخفض به آخرين .

يا لروعة الأبطال ، ويا لسلطان اليقين ! . . هذا مؤمن لا يتقاعس عن الجهاد ، بل يسارع إليه مرحباً بالموت فى ميدانه ، مستعذباً طعمه فى حومة الوغى ، ويبذل فيه ما يبذل من قتاله ونضاله ، ثم يصاب بسهم يفجر فيه الدم ، ويوسع فى جسمه الجرح ، فلا يبالى بجرحه ، بل يدعو ربه أن يبقيه حيًّا إن كان هناك قتال بين الإيمان والكفران ، وأن يطيل أجله

حتى ينتقم من الخونة الفجرة : يهود بني قريظة ، وهو لا يحرص على حياته لمنفعة أو متعة ، بل يحرص عليها ليواصل جهاده وكفاحه ، فإذا ما انتهى الجهاد فهو لا يريد البقاء ، بل يريد الرحيل إلى مستقر الشهداء ؛ ولا عجب فهو من قوم قد صهرهم الإيمان فى بوتقته ، وطبعهم اليقين بطابعه ، حتى استخفوا بالحياة ولم يبالوا بها ، بل انحصرت هممهم وعزائمهم فى بلوغ ما عند الله ، وما عند الله خير للأبرار ، وأعطوا لله وعودهم وعهودهم ، وجعلوها كالأطواق حول رقابهم ، لا يتنكرون لها ، بل يفون بحقها فى صدق ومضاء .

وبعد إصابة سعد بالسهم عالجه الرسول صلى الله عليه وسلم بالكى ، ولكن يد سعد انتفخت بعد ذلك ، وسال منه الدم ، فأمر النبى بأن يعالج فى خيمة « رفيدة » بمسجد الرسول ، وهى امرأة من قبيلة أسلم كانت تداوى الجرحى ممن ليس لهم من يقوم بعلاجهم .

وفيها يقول الشاعر أحمد محرم فى ديوانه : « مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية » :

رفيدة : علمى الناس الحنانا ... وزيدى قومك العالين شانا
خذى الجرحى إليك فأكرميهم ... وطوفى حـــولهم آناً فآنا
وإن هجع النيام فلا تنامى ... عن الصوت المردد حيث كانا !

وعاد سعد يدعو ربه قائلا : « اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وانتهت غزوة الخندق بلطف من الله ورحمة . ورجعت الأحزاب الكافرة بغيظها لم تنل خيراً ، وسارع النبي إلى محاصرة بنى قريظة لتأديبهم والانتقام منهم ، فلم يسلموا فى أول الأمر ، إذ كانت عندهم مئونة ومتاع ، فهتف على بن أبى طالب على زملائه المجاهدين قائلا : يا كتيبة الإيمان . . . .

ثم تقدم فى الطليعة وهو يقول : « والله لأذوقن ما ذاق حمزة ، أو أقتحم حصنهم » .

ولم يستطع الخونة اللئام إطالة المقاومة فاستسلموا ، وأخذوا يرجون ويتشفعون ، فطلب منهم النبي — بعد أسرهم وتكتيفهم — أن يختاروا لهم من صحابته واحداً ليحكم عليهم بما يراه ، فظنوا أن سعد بن معاذ هو أصلح الناس للتخفيف عليهم ، بحكم ما توهموه من تأثير التحالف الذى كان بينهم وبينه فى الجاهلية ، ناسين أن الإسلام يقطع ما قبله ، فقالوا : اخترنا سعد بن معاذ حكماً .

وكان سعد يرقد فى خيمة « رفيدة » بالمسجد ، فحملوه على دابة ، وجاءوا به إلى موقف التحكيم[1] ، ولما رآه اللئام أخذوا يتزلفون إليه ، ويرجونه التخفيف ، ولما أكثروا عليه قال : « قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم » .

واستوثق سعد من أن الفريقين سينزلان على حكمه دون

---

(١) يروى أنه حينما جاء قال الرسول لقومه : « قوموا إلى سيدكم » وفى رواية : « قوموا إلى خيركم » .

معارضة ، وهنا قال : « إنى أحكم فيهم بأن يقتل الرجال ، وتقسَّم الأموال ، وتُسبى الذرية والنساء ، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار » . وهنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » .

وحينما تساءل بعض الأنصار عن الحكمة فى جعل سعد ديارَ بنى قريظة للمهاجرين دون الأنصار ، أجابهم بهذا الجواب الحكيم العميق الدلالة ، قال : « إنى أحببت أن يستغنوا عنكم » .

وبعد أن انتهى سيد الأوس أبو عمرو سعد بن معاذ من حكمه العادل الحازم عاد يدعو ربه ويرجوه ، فيقول : « اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلىّ من أن أجاهدهم فيك — أى لأجلك — من قوم كذبوا رسولك ، وأخرجوه ، فاللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان قد بقى من حرب قريش فأبقنى حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت قد وضعت الحرب فافجرها (يقصد جراحته) واجعل موتى فيها » .

ولعل سعداً قد قال هذا فهماً من قول الرسول عند انصرافه من غزوة الخندق : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم ، ولكنكم تغزونهم » . وكذلك كان ، فإن قريشاً لم تعد إلى مهاجمة المسلمين ،ونزل قول الله تعالى: [وكفَى اللهُ المؤمنين القتالَ] .

وجلس سعد على فراشه يفكر . . . ولعله تذكر أنه قد أسلم على يد مصعب بن عمير أول مبعوث فى الإسلام ، والذى أرسله

الرسول قبل الهجرة إلى المدينة ، ليعلم أهل المدينة القرآن وتعاليم الدين ؛ وتذكر سعد كذلك أنه ذهب عقب إسلامه إلى قومه من بني عبد الأشهل وقال لهم : كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تسلموا ، فأسلموا ، فكان سعد من أعظم الناس بركة في الإسلام ، ومن أنفعهم لقومه .

وتذكر كيف اشترك بالجهاد الصادق المخلص في غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وغزوة بني قريظة ، وتذكر أنه صاحب الكلمة الرائعة التي قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين استشار المسلمين في الإقدام على غزوة بدر :

« يا رسول الله ، قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

ويروى أن سعداً قال للرسول أيضاً : « يا رسول الله ، والذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ، لئن سرتَ حتى تأتي برْك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ، ولا نكون كالذين قالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن

اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما متَّبعون ، ولعل أن تكون خرجتَ لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض ، فصلْ حبالَ من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت[١] ، وما أمرت به من أمر فأمرُنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرْك[٢] من غمدان لنسيرن معك » ! .

وتذكر سعد أنه الذى قال ذات يوم محقًّا صادقاً : « ثلاث أنا فيهن رجل ، وما سواها فأنا من الناس ، ما سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم حديثاً إلا علمت أنه حق من الله ، ولا كنت قط فى صلاة فشغلت نفسى بغيرها حتى أقضيها (أى أتمها) ، ولا كنت فى جنازة قط فحدّثت نفسى بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها »[٣] .

وقد قال ابن المسيب عن هذه العبارة بعد أن رواها : « هذه الخصال ما كنت أحسبها إلا فى نبى » .

تذكر سعد كلّ هذا وخُيِّل إليه أن القتال قد انتهى بين

---

(١) أى كان أخذه أحب إلينا من تركه لنا .

(٢) برك الغماد : موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن . وقيل هو أقاصى هجر . وقيل هو فى أقصى اليمن .

(٣) كأنه يقصد حصر تفكيره فى لقاء الميت لربه ، وما يسأل عنه حينئذ وما يجيب به .

المسلمين والكافرين ، فعاد يسأل ربه أن يفجر الدم من جراحته ليكون شهيداً فى سبيل ربه .

واستجاب الله دعاء سعد ، فانفجر الدم من جرحه ، وهو داخل الخيمة ، وسال الدم حتى رآه من رآه ، فنظروا فوجدوا سعداً قد لحق بربه ، رضوان الله عليه .

ويروى أن جبريل جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال له : « من هذا العبد الصالح الذى فتحت أبواب السماء لصعود روحه ، واهتز العرش لقدومها ؟ » يعنى سعداً ، ومن هنا قال الرسول : « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » . ولذلك يقول القائل :

وما اهتز عرش الله من موت هـــالك
سمعنـــا به إلا لسعـــد أبى عمرو

وقد قال العلماء إن اهتزاز العرش معناه فرح الملائكة بقدومه ، لما رأوا من منزلته .

* * *

وكان سعد رجلا بديناً ضخم الجثة ، ولكنهم حينما حملوا جثته وجدوه خفيفاً ، وقيل إن بعض المنافقين أرادوا التعريض به فقالوا : ما أخفه ! فقال الرسول : « إن له حملةً غيركم من الملائكة » .

وسارت جنازة سعد يشيعها الناس والملائكة ، ولما دفنوه جلس الرسول عند قبره ، وقال : سبحان الله ، مرتين ، فسبّح

معه المسلمون ، وكبر مرتين ، فكبروا معه ، ثم أخبرهم أن القبر ضم سعداً ضمة ، ثم فُرج عنه ، ثم قال الرسول : « إن للقبر ضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ » .

ووقفت أم سعد — وهى كبشة بنت رافع الصحابية التى كانت أول من بايعت النبى من نساء الأنصار — وقفت على قبر ابنها وقالت : احتسبتك عند الله عز وجل يا بنى . ثم ندبته ببعض صفاته المجيدة ، فقال الرسول : « كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ » . ثم قال لها : « لا تزيدى على هذا ، ليرقأ دمعك ، ويذهبْ حزنك ، فإن ابنك يضحك الله له » . وهذا كناية عن إقبال الله عليه بالثواب والنعيم .

وقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت فى رثاء سعد :

لقد سجمت من دمع عينىَّ عبرةٌ
وحق لعينى أن تفيض على سعد
قتيل ثوى فى معرك فُجعت به
عيونٌ ذوارى الدمع دائمةُ الوجد
على ملة الرحمن ، وارث جنة
مع الشهداء ، وفدُها أكرم الوفد
فإن تك قد واعدتنا وتركتنا
وأمسيتَ فى غبراء مظلمة اللحد
فأنت الذى يا سعد أبت بمشهد
كريم ، وأثواب المكارم والمجد

بحكمك في حييّْ قريظة بالذى
قضى الله فيهم ما قضيتُ على عمد
فوافق حكم الله حكمك فيهم
ولم تعف إذ ذُكِّرت ما كان من عهد
فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى
شروا هذه الدنيا بجناتّها الخلد
فنعم مصير الصادقين إذا دُعوا
إلى الله يوماً للوجاهة والقصد

وعاد حسان يذكره ويذكر معه جماعة من الشهداء فيقول:

ألا يا لقومى ، هل لما حُمَّ دافع ؟
وهل ما مضى من صالح العيش راجعُ ؟
تذكرتُ عصرا قد مضى ، فتهافتت
بناتُ الحشا ، وانهل منى المدامع
صبابة وجد ذكرتنىَ إخوةً
وقتلى، مضى منهم «طفيل[1]» و «رافع»
و «سعد» فأضحوا فى الجنان ، وأوحشت
منازلهم ، فالأرض منهم بلاقع

(١) لعله يقصد بطفيل الطفيل بن النعمان الذى استشهد فى غزوة الخندق (كتاب الدرر لابن عبد البر ، ص ١٩٤) . ولعله يقصد برافع رافع بن زيد الذى استشهد فى غزوة أحد ، أو رافع بن مالك الذى استشهد فى غزوة أحد أيضاً (كتاب التحفة اللطيفة للسخاوى ، ج ٢ ص ٥٧ و ٥٨) .

وفوْا يوم « بدر » للرسول ، وفوقهم
ظلال المنايا والسيوفُ اللوامع
دعا فأجابوه بحقٍّ ، وكلّهم
مطيع له فى كل أمر وسامع
فما نكلوا حتّى توالوا جماعة
ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهمُ يرجون منه شفاعة
إذا لم يكن إلا النبيون شافع
فذلك يا خير العباد بلاؤنا
إجابتنا لله والموت ناقع
لنا القدم الأولى إليك ، وخلفنا
لأولنا فى ملة الله تابع
ونعلم أن الملك لله وحده
وأن قضاء الله لابدّ واقع

ويروى أن الرسول أُهديت إليه حُلة من حرير ناعم ، فجعل أصحابه يلمسونها ، ويعجبون من لينها ونعومتها ، فقال لهم الرسول : « أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين » ! .

رضوان الله تبارك وتعالى على سعد بن معاذ المجاهد الشهيد الذى اهتزَّ لموته عرش الرحمن ! . . .

أمير السرايا

زيد بن حارثة

وهذا مجاهد فدائى آخر من صدر الإسلام :

إنه أبو أسامة زيد بن حارثة بن شراحيل الكعبى القرشى ، وهو رابع شخص أسلم ، وهناك رواية تقول : إنه أول من أسلم ، ولعل المراد أنه أول من أسلم من الموالى ، فقد سبقه إلى الإسلام خديجة وأبو بكر وعلى ، وقد ذاق زيد فى أول أمره مرارة الأسر والاستعباد ، ثم انتقل إلى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وهبته له زوجته السيدة خديجة .

وقد آثر زيد البقاء مع النبى على العودة إلى أهله حرًّا طليقاً ، فقد جاء أخوه جبلة بن حارثة إلى النبى وقال له : يا رسول الله ، ابعث معى أخى زيداً . فأجابه : هو ذا ، فإن انطلق معك لم أمنعه . وهنا قال زيد : يا رسول الله ، والله لا أختار عليك أحداً .

ويروى أن أبا زيد وعمه جاءا إلى النبى وقالا له : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا : زيد عبدك ، فامنن علينا ، وأحسن فى فدائه .

قال النبي : وما ذاك ؟ . قالا : زيد بن حارثة ، نريد افتداءه .

فقال النبي : أوَغير ذلك . ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالا : لقد زدتنا على الإنصاف .

وأقبل زيد فسأله الرسول : أتعرف هؤلاء يا زيد ؟ قال : نعم ، هذا عمى ، وهذا أبى .

فقال النبي : فأنا من علمتَ ، وقد رأيتَ صحبتى لك ، فاخترنى ، أو اخترهما .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والعم .

فقالا لزيد : ويحك يا زيد ، أتختار الرق على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

قال : نعم ، إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً .

ثم أعتقه الرسول بعد ذلك .

وزيد هو الصحابى الوحيد الذى ذُكر اسمه فى القرآن الكريم فى سورة الأحزاب ، ولقد آخى النبي بينه وبين عمه حمزة ، وقدمه على ابن عمه جعفر بن أبى طالب فى قيادة الجيش فى غزوة مؤتة ، ولما قال جعفر : يا رسول الله ، ما كنت أرغب أن

تستعمل زيداً عليّ ، قال له : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير .

وكان زيد يوصف بأنه « حِبّ رسول الله » أى حبيبه ، وأخبر الرسول عنه بأنه كان خليقاً بالإمارة ، وأنه كان من أحب الناس إليه ، وأخبر عمر بن الخطاب بأن زيداً كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمر ، وكان الرسول يقول لزيد : « أنت أخونا ومولانا » أى أخونا فى الإيمان وتابعنا وناصرنا . وقال له أيضاً : « يا زيد ، أنت مولاى ومنى وإلىّ ، وأحب الناس إلىّ » .

وكثير من الناس لا يشتهر عندهم زيد بن حارثة إلا بأنه صاحب قصة الزواج من السيدة زينب بن جحش رضى الله عنها وبأنه كان أحد القواد فى غزوة مؤتة ، مع أن زيداً كان من خيار المجاهدين الصادقين ، ومن الرماة الماهرين المعدودين المذكورين ، وكان شجاع القلب ، ثبت الجنان فى الحروب .

وهو صاحب الباع الطويل فى سرايا التأديب للأعداء المشركين ، والانتقام منهم ، حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية إلا أمّره عليهم » . ولقد قاد زيد ست سرايا حققت الكثير من الأعمال الفدائية البطولية المشكورة .

وبعد انتهاء غزوة بدر بستة أشهر أختاره الرسول عليه الصلاة

والسلام ، وأرسله فى سرية لمهاجمة قافلة للمشركين ، كان فيها أبو سفيان ، ومعه قدر كبير من الفضة ، فهاجمهم زيد عند ماء يقال له « الفردة[١] » من مياه نجد ، واستولى على القافلة بعد أن فر حراسها ، وأسر منهم رجلين ، وعاد بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسله فى سرية لمهاجمة المشركين من بنى سُليم ، عند جهة تسمى « الجموم »[٢] وقام هو ورفاقه بمهاجمة أعدائهم ، وكسبوا منهم إبلا وغنما وأسرى ، وبعد ذلك بشهر أرسله النبى أميراً لسرية مكونة من مائة وسبعين مجاهداً إلى مكان يسمى « العيص » ، لأن فيه ماء يسمى « ذَنبان العيص » ، وذلك ليهاجموا قافلة للمشركين قادمة من الشام إلى مكة ، واستطاعوا أن يستولوا على القافلة ، وفيها مقدار كبير من الفضة كان يملكه صفوان ابن أمية ، وأسروا بعض رجال القافلة .

وفى الشهر التالى أرسله النبى صلوات الله وسلامه عليه فى سرية عددها خمسة عشر رجلا إلى مكان يسمى « الطَّرْف » على مسافة ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فهاجموا المشركين هناك ، واستولوا على عشرين جملاً ، وعلى عدد من الشياه .

---

(١) ضبطها بعضهم بفتح الفاء وكسر الراء ، وقال بعضهم إنها : القردة : بكسر القاف وسكون الراء ، وذكر ياقوت فى معجمه أن ضبط هذا فيه نظر إلى الآن لم يتحقق فيه شيء .

(٢) الجموم أرض لبنى سليم .

وفى الشهر نفسه أرسله النبى صلوات الله وسلامه عليه فى سرية مكونة من خمسمائة مجاهد ، إلى مكان يسمى « حِسْمى » ، وهو وراء وادى القرى ، لينتقموا من المشركين بسبب اعتدائهم ظلماً وبغياً على دحية بن خليفة الكلبى ، وسلبهم أمواله ، وحقق زيد ومن معه ذلك التأديب ، واستولوا على ألف بعير ، وخمسة آلاف شاة ، وعدد من الأسرى ؛ ولكن وفداً من هؤلاء جاء — وقد أسلم — يعلن طاعته للرسول ، ويسأله العفو ، ويرجوه رد المأخوذ منهم ، فرده الرسول عليهم .

وفى الشهر التالى (شهر رجب سنة ست) أرسله النبى فى سرية إلى « وادى القرى » ، وهو واد بين الشام والمدينة ، فيه قرى كثيرة ، وهناك اشتبك زيد ورفاقه مع المشركين المعتدين فى معركة عنيفة ، ونال فيها الشهادة بعض المجاهدين ، وأصيب زيد بجراح ، ولكن ذلك لم يفت فى عضده ولا عضد زملائه ، وإن كانوا قد اضطروا إلى الانتظار بضعة أيام حتى تلتئم جراحهم .

وقد أقسم زيد عقب إصابته أنه لن يمس رأسه غسلُ جنابة حتى ينتقم من أعداء الله وأعداء أوليائه ، والتأمت جراح زيد ، فسارع مع رفاقه بالعودة إلى ميدان البذل والفداء ، وكانوا يستترون نهاراً ويسيرون ليلا ، فى دقة ويقظة ومهارة ، حتى فاجئوا أعداءهم فبطشوا بهم ، وأخذوا الثأر منهم .

وكان مع هؤلاء المشركين الآثمين امرأة لعينة مجرمة ، اسمها

« أم قرفة فاطمة بنت زمعة » . وكانت هذه المرأة الشريرة تسب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبًّا فاحشاً ، وزادت فى إجرامها فجهزت ثلاثين مشركاً من أولادها وأولاد أولادها ، وسلحتهم ، وقالت لهم : اذهبوا واغزوا المدينة واقتلوا محمداً .

ووقعت هذه المجرمة فى أيدى المسلمين ، فقتلوها جزاء لإفسادها وردعاً لغيرها ، وعاد المجاهد البطل زيد بن حارثة إلى المدينة ، وذهب إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليخبره بما تم الله على يديه وأيدى زملائه من نصر ، وقرع الباب ، وسمع الرسول صوت زيد ، فسارع إليه من الداخل وهو فى ثياب البيت ، وعانقه وقبّله ، تكريماً له وتقديراً .

وفى شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة اختار الرسول زيداً ليكون القائد الأول لغزوة « مؤتة » . ومؤتة قرية من قرى البلقاء على حدود الشام — وجعل من بعده فى القيادة جعفر بن أبى طالب ، فعبد الله بن رواحة رضى الله عنهما ، وقاتل زيد فى معركة غير متكافئة قتال العمالقة الأبطال ، حتى نال الشهادة ، ملاقياً بصدره الرماح ، مقبلا غير مدبر ، والراية فى يده .

تقول عبارة التاريخ فى تصوير استشهاده :

« قاتل زيد براية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى شاط فى رماح القوم » أى حتى تمزق وتقطع ، وذهب كالشىء المتفرق المحترق ، بسبب كثرة الطعنات فيه ، والعرب تقول :

شاط لحم الذبيحة ، أى تفرق وذهب مقسّماً لم يبق منه شيء .

وكان عمر زيد حينئذ خمساً وخمسين سنة ، وأبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم نبأ استشهاد زيد فى اليوم نفسه ، وتحدث عنه حينئذ وعيناه تذرفان بالدموع ، وكان مما قاله : « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتّى قتل شهيداً » . وبتلك الشهادة من الصادق المصدوق للمجاهد الشهيد ثبتت الجنة لزيد ، فقد أخبر عنه بأنه شهيد ، والشهيد مقره جنات النعيم عند ربه الكريم .

وهكذا توالى تقدير الرسول لزيد، تكريماً لجهاده وإخلاصه ، فقد أخبر بأنه يحبه ، بل من أحب الناس إليه ، ووصفه بأنه أخوه، واستخلفه على المدينة فى بعض غزواته ، لأن زيداً شهد غزوة بدر ، وما بعدها من الغزوات حتّى استشهد ، إلا غزوة المريسيع ، لأن النبي استخلفه فيها على المدينة ، ودافع عنه بعد موته ، ووصفه بأنه كان الجدير بالقيادة ، وهكذا لا يضيع فضل ولا معروف عند الرسول النبيل الذى يقدر الأعمال ويكرم الأبطال .

بل يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما تحدث عن استشهاد زيد وزميليه قال : اللهم اغفر لزيد (وكررها ثلاث مرات) ثم قال : اللهم اغفر لجعفر ، اللهم اغفر لعبد الله ابن رواحة .

وذرفت عيناه بالدموع . ثم استقبل أسرة زيد ، فلما رأى

بنتاً له تبكي بكى لبكائها ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله ، ما هذا ؟

فقال صلوات الله وسلامه عليه : « هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ، إنما هي عبرات الصديق يفقد صديقه » !!

ولذلك حق لحسان بن ثابت شاعر الرسول أن يقول في رثائه للشهيد زيد :

عينُ جودى بدمعك المنزور
واذكرى فى الرخاء أهلَ القبور
واذكرى « مؤتة » وما كان فيها
يوم راحوا في وقعة التغوير (١)
حين راحوا وغادروا ثَمّ زيداً
نعم مأوى الضريك (٢) والمأسور
حِبّ خير الأنام طراً جميعاً
سيد الناس ، حبه فى الصدور
ذاكمُ « أحمدُ » الذى لا سواه
ذاك حزنى له معاً وسرورى
إن زيداً قد كان منا بأمر
ليس أمرَ المكذّب المغرور

رضوان الله على المجاهد الفدائى أمير السرايا : زيد بن حارثة !

(١) التغوير : التعمق فى الشيء حتى الوصول إلى قعره ، والتغوير أيضاً الطرد والهزيمة ، وكأنه يريد أنها واسعة شديدة .

(٢) الضريك : الفقير السيء الحال .

الفدائى الطامع فى الشهادة

عبد الله بن رواحة

هذا واحد من الرجال الأبطال ، يتألق اسمه وذكره ، ويسمو مكانه وقدره ، بما بذل وضحى ، وقدّم وأهدى . إنه الصحابى الجليل أبو محمد : عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى المدنى ، رضى الله عنه . الذى كان يجمع بين الإيمان والبطولة ، والتعبد والجهاد ، والتقوى وصدق النضال .

وهو الذى شهد بيعة العقبة ، وكان أحد نقبائها ، وشهد غزوة بدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شهد ما بعدها من معارك وغزوات ، حتى مات شهيداً مجاهداً فى « غزوة مؤتة »[1] التى كانت سنة ثمان من الهجرة . وكان ابن رواحة يعرف القراءة والكتابة بين قلة من الناس يعرفونهما ، ولذلك كانت الكتابة والقراءة من الميزات الملحوظة التى يتحلى بها أصحابها .

ولقد آخى الرسول عليه الصلاة والسلام — عقب الهجرة — بين عبد الله بن رواحة والبطل الإسلامى المظفر : المقداد بن عمرو ، والأبطال ترافق الأبطال ، والرجال تقرن بالرجال ،

---

(١) مؤتة كما سبق : قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام .

والأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها اختلف ، وشبيه الشيء منجذب إليه ، كما قال الأولون .

وكان فى عبد الله طاعة مثالية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ومما يروى أن عبد الله أقبل على المسجد النبوى فى المدينة ، والرسول يتحدث بداخله ، فسمع ابن رواحة رسول الله يقول لمن فى المسجد : اجلسوا . وكان ابن رواحة ما زال خارج المسجد يسعى نحوه ، ولكنه سارع بالجلوس ، وظل مكانه جالساً يسمع ما يقوله الرسول ، ويثبته فى فؤاده ليعمل به ، وينزل على مقتضاه ، حتى انتهى رسول الله من كلامه ، ولما علم الرسول بذلك قال لعبد الله : « زادك الله حرصاً على طواعية الله وطواعية رسوله » .

وحق لعبد الله بن رواحة أن يسارع إلى طاعة النبى هذه المسارعة ، فقد اختلط بلحمه ودمه ، وقلبه وعقله ، أن رسول الله هو السراج المنير ، وهو خير قدوة وأفضل أسوة ، ولذلك قال فيه مما قاله فيه :

وفينـا رسـول الله نتلـو كتابه
إذا انشق معروف من النور ساطعُ
يبيت يجـافى جنبـه عن فراشـه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجـع
أتى بالهدى بعد العمى ، فقلوبنـا
به موقنات أن ما قال واقـع

وحق لعبد الله بن رواحة أن يطيع الرسول هذه الطاعة ، فقد كان يعلم حق العلم أن الرسول مبلغ عن ربه : [وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى] ، وأن استحضار جلال الله فى الفؤاد هو توطيد لدعائم الإيمان ، ولذلك يروى أن عبد الله قال لصاحب له : تعال بنا حتى نؤمن ساعة .

فقال له صاحبه وهو يحاوره : أولسنا بمؤمنين ؟

فأجاب عبد الله قائلا : بلى ، ولكنا نذكر الله فنزداد إيماناً .

ويروى أن أبا الدرداء قال : أعوذ بالله من يوم يأتى لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقينى قال : يا عويمر ، اجلس فلنؤمن ساعة ، فنجلس فنذكر الله ما شاء الله . ثم يقول : يا عويمر ، هذا هو الإيمان .

ولعله كان يتذكر حينئذ قول ربه سبحانه : [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب] .

ويروى أن الأنصار حينما بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة كانوا سبعين نفساً ، وفى هذه الليلة قال ابن رواحة : يا رسول الله ، اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[1] ،

---

(١) لا نقيل : لا نفسخ البيع . ولا نستقيل : لا نطلب الفسخ .

فنزل قول الله تعالى: [إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأمْوَالَهُم بأَن لهم الجنةَ ، يقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتَلون وعدًا عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن، ومن أَوْفَى بعهدهِ مِنَ اللهِ ، فاستبشروا ببيْعِكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم] .

ولقد مر أعرابى والرسول يقرأ هذه الآية ، فقال الأعرابى : كلام من ؟ قال النبى : كلام الله عز وجل، فقال الأعرابى : والله بيع مربح ، لا نقيله ولا نستقيله . ثم خرج إلى الغزو فاستشهد .

* * *

وكان عبد الله بن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين يجيدون ردّ الأذى بشعرهم عن الرسول والإسلام والمسلمين ، حتى قال الزبير بن العوام : « ما رأيت أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة » . وهذا لون من الجهاد يزكيه الإسلام ، وينوه بشأنه رسول الله عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » .

وابن رواحة هو صاحب النشيد الإسلامى الجهادى البطولى ، الحاث على الإقدام والثبات ، وإباء الذل والهوان ، وقد صاغه للمؤمنين يرددونه ، وهم يستعدون لغزوة الخندق ، وفيه يقول :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينــا

فانزلــن سكينــة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ولقد كان لشعر ابن رواحة وقع السهام فى نفوس المشركين، ومن شعره يخاطب هؤلاء مسفهاً شركهم، ومعتزاً بتوحيده، قوله:

عصيتم رسول الله ، أفٍّ لدينكم
وأمركم السيئ الذى كان غاويا
فإنى وإن عنفتمونى لقائل :
فدى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره
شهاباً لنا فى ظلمة الليل هاديا

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيات قال فيها :

يا هاشم الخير ، إن الله فضلكم
على البرية فضلا ما له غِيَرُ
إنى تفرست فيك الخير أعرفه
فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
ولو سألت أو استنصرت بعضهم
فى جل أمرك ما ردوا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن
تثبيت موسى ، ونصراً كالذى نصروا

ولما سمع الرسول هذا الشعر منه قال له : « وإياك فثبت الله » !

وحينما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة سنة « عمرة القضاء » كان عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقة الرسول وهو يطوف حول الكعبة ويقول :

باسم الذى لا دينَ إلا دينُه   باسم الذى محمدٌ رسوله

ثم يرفع صوته ويقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير فى رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله   قد نزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتل فى سبيـــله   نحن قتلناكم على تأويله
يا رب إنى مؤمن بقيـــله   أعرف حقّ الله فى قبوله
قد نزل الرحمن فى تنزيـــله   فى صحف تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله   كما ضربنـــا على تنزيـــله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله !

ويروى فى تاريخ عبد الله بن رواحة أنه خرج إلى الجهاد فى إحدى المرات ، ومعه غلام له ، فأخذ ابن رواحة يخاطب ناقته بشعر يحدثها فيه بأنها مشكورة مأجورة لو حملته إلى موطن الشهادة ، فيقول :

إذا أدنيتنى ، وحملت رحلى   مسيرة أربع بعد الحساء (١)
فشأنك أنعم ، وخلاك ذم   ولا أرجعْ إلى أهلى ورائى (٢)

---

(١) الحساء : مكان يجمع فيه الماء .
(٢) يريد أنه يريحها ، ولا يكلفها عناء السفر بعد ذلك .

وجاء المسلمـــون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثّواء[1]
وردّك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل[2] ولا نخل أسافيها ورائى !

فبكى الغلام حينما سمع هذا الشعر ، فزجره ابن رواحة ، وقال له : ما عليك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة ، وترجع بين شعبتى الرحل ؟ !

* * *

ولقد عوّد الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه ابنَ رواحة الحرص على الجهاد منذ وقت مبكر ، وتفضيله — عند وجوبه — على طاعة أو عبادة ، ومن شواهد ذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام جعله قائداً لإحدى السرايا البطولية ، ووافق ذلك يوم جمعة ، فأمر ابنُ رواحة جنوده بالمسير ، وأخبرهم أنه سيلحق بهم بعد قليل .

ثم قال فى نفسه : أتخلف عنهم قليلا ، وأصلى الجمعة مع رسول الله ثم ألحقهم ، فلما صلى الجمعة رآه النبى ، فقال له : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟

فقال عبد الله : أردتُ أن أصلى الجمعة معك ثم ألحقهم ، فقال له النبى : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما أدركت

---

(١) لا يريد رجوعاً .

(٢) البعل من النبات ما يشرب بعروقه من الأرض .

غدوتهم » . ثم أضاف قوله : « لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » .

ولذلك نرى ابن رواحة بعد ذلك يضرب القدوة الطيبة فى غزوة « مؤتة » التى جعل فيها النبى زيدَ بن حارثة قائداً للجيش ، وقال : « فإن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب[١] على الناس ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم » .

ولما جاء الرسول ليودع القادة والجيش بكى عبد الله بن رواحة ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فأجاب : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار ، وهى : [وإنْ منكم إلا واردُها كانَ على ربك حَتْماً مقضِياً] فلم أدر كيف لى بالصدور بعد الورود . فقال المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين .

وترجم ابن رواحة عن نزعته الفدائية فقال فى هذا الموقف :

لــكننى أسأل الرحمن مغفــرة
وضربة ذات فرغ[٢] تقذف الزبدا

---

(١) مر علينا حديث زيد بن حارثة ، وهذا حديث ابن رواحة ، ويمكن أن تراجع حديث جعفر بن أبى طالب فى الجزء الأول من كتاب « بطولات إسلامية وعربية » .

(٢) الفرغ : السعة .

أو طعنةً بيدى حرّان(١) مجهزةً
بحربــة تنفذ الأحشــاء والــكبدا
حتى يقال — إذا مروا على جسدى — :
يا أرشد الله من غاز ، وقد رشــدا

ومضى الجيش فى طريقه . . .
ولما عرف أفراده أن عدد أعدائهم أضعاف أضعاف عددهم أخذوا يتشاورون ، وقالوا فيما قالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

فانبرى عبد الله بن رواحة مسرعاً ، كأنه ليث ثائر هائج ، وأخذ يدعو إلى الإقدام والتضحية والفداء ، ويقول : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة(٢) .

فقال المؤمنون : قد — والله — صدق ابن رواحة .

---

(١) الحران : الشديد .

(٢) هناك كلمة تشبه هذه الكلمة ، قالها مالك بن سنان فى غزوة أحد ، وهى : « نحن والله بين إحدى الحسنيين ، إما أن يظفرنا الله بهم ، فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى : يرزقنا الشهادة ؛ والله ما أبالى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير » .

ومضى الجيش إلى غايته ، وبدأت المعركة بين القلة القليلة المؤمنة ، والكثرة الكثيرة الباغية، وذاق الشهادة زيد وجعفر ، ثم تقدم عبد الله بن رواحة فأخذ الراية ، وجعل يتردد بعض التردد ، ولكنه سرعان ما أقام نفسه على الصراط ، ودفع بها إلى الأمام ، وهو يقول :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنَّه ... لتنزلن ، أو لتُكرَهنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرّنه ... ما لى أراك تكرهين الجنه
قد طالما قد كنت مطمئنه ... هل أنت إلا نطفة فى شَنَّه ؟

ثم يقول لها :

يا نفس ، إلا تُقْتلي تموتى ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فعلهما هُديت

وهو يقصد رفيقيه ، وهما زيد وجعفر .

وأقبل ابن رواحة على القتال بشجاعة وثبات ، وحدثت فترة فى المعركة ، فجاءه شخص بعرق لحم ، وقال له : شُدَّ بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت . فأخذه ابن رواحة ، وقضم منه قضمة ، ولكنه سمع حركة قتال قد جدت ، فقال مستنكراً : وأنت فى الدنيا ؟! .

ثم ألقاها من يده ، وسارع إلى الميدان فقاتل حتى قُتل ... مضى على طريق صاحبيه ، ونال ما نالاه من فضل الله عليهما بنعمة الشهادة ، فانتقل معهما إلى حياة أعز وأبقى : [ولا تقولوا

لمن يُقتل فى سبيل الله أموات بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون] .

وتحقق دعاء الرسول لابن رواحة ، فقد دعا له فقال : « ثبتك الله » وقد ثبته الله حتى مات شهيداً مجيداً ، وتحقق فيه قول ربه تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] .

وإذا كان ابن رواحة لم يعقب ولم يكن له ولد . فإن ذكره لم ينقطع ، وقدره لم يضع ، بل تألقت على الأيام سيرته ، وظل تاريخه علماً ومشعلا على الطريق ، ينير الشعاب والدروب للذين يريدون أن يعيشوا أحراراً ، أو يموتوا كراماً . . . فرضوان الله على المجاهد الذى طمع فى الشهادة فنالها ففاز بالرضى والرضوان .

الشهيد والد الشهداء

ثابت بن قيس

قد يخيل لبعض قصار النظر أو ضعاف الفكر ، أن رجل الجهاد الفدائى المؤمن رجل لا يحسن غير السلاح يتدرب عليه ، ويتقن استعماله ، ثم يمضى به إلى المعركة ، ليضرب ذات اليمين وذات الشمال ، ليذيق أعداءه الموت الزؤام ؛ وأنه ليس من الضرورى للفدائى سوى هذا الاقتدار الفنى الحربى فى ميدان التضحية والفداء .

ولكن إذا جاز مثل هذا فى عرف هؤلاء أو أولئك من الناس ، فإنه لا يصح مثله فى هدى الإسلام ، ولا يُعرف مثله فى تاريخ السلف الصالح من المسلمين ، فالفدائى من هؤلاء الأكرمين كان جندياً ، وكان فى الوقت نفسه عالماً عاملا تقياً ، وكان فى الوقت نفسه إنساناً طهوراً زكياً .

وهذا واحد منهم يزينه دينه وعلمه وفهمه وعمله وأخلاقه ، وهو الصحابى الجليل أبو عبد الرحمن ثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى ، الذى كان يجمع فيما يجمع بين صفات أربع ، كل صفة منها حميدة مجيدة ، فهو أولا صاحب بلاغة فى البيان والخطابة ، وهو ثانياً صاحب توقير رائع لمكانة الرسول

عليه الصلاة والسلام ، وهو ثالثاً صاحب جهاد وتضحية حتى الشهادة ، بلا تردد أو فرار ، وهو رابعاً صاحب روح طاهرة ونفس نقية ، مما يجعله أهلا للكرامة تبدو منه فى حياته وبعد مماته ، والله ذو الفضل العظيم .

لقد كان يقال لثابت بن قيس : خطيب الأنصار ، وخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جهير الصوت ، وهو الذى وقف يخطب ، وهو يستقبل النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة حينما هاجر إليها ، فأحسن المقال وأحسن الاستقبال ، وهو صاحب العبارة النبيلة الجليلة التى قالها يومئذ : « يا رسول الله ، إنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا » .

ولما أخبرهم الرسول بأن لهم فى مقابل ذلك نعيم الجنة ، فرح ثابت وقومه ، وقالوا : رضينا رضينا .

وحينما جاء وفد تميم للقاء النبى فى عام الوفود سنة تسع من الهجرة ، قال الوفد للنبى : جئنا نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا.وأذن الرسول ، وتكلم خطيبهم ، فلما انتهى قال النبى صلى الله عليه وسلم لثابت : يا ثابت ، قم فأجبه ، فقام وأجاب ، وبلغ مبلغه من الصواب .

وكان مما قاله فى صدر خطبته : « الحمد لله الذى السموات والأرض من خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيَّه علمه ، ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة ، واصطفى من خير خلقه رسولا ، هو أكرمهم نسباً ،

وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، وهم أكرم الناس أحساباً ، وخيرهم فعالا ، ثم كنا نحن الأنصار أول الخلق إجابة ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله » .

ثم قال : « نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم» .

* * *

وهذا الصحابى الخطيب البليغ هو نفسه الذى نراه بعد ذلك يكاد يذوب خوفاً من ربه تبارك وتعالى ، وإجلالا لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لما نزل قول الله سبحانه : [ياأيها الذين آمنوا لاَ تَرْفَعِوا أصوَاتكم فوقَ صوتِ النبى ولا تَجْهروا له بالقول كجهْرِ بعضِكم لبعض أن تحبَطَ أعمالُكم وأنتم لا تشعرون] سمع ثابت ذلك وهو فى الطريق ، فجلس يبكى ويقول : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأجهر له بالقول ، حبط عملى ، أنا من أهل النار .

ومر عليه صحابى فسأله : ما يبكيك يا ثابت ؟ فأجابه :

تبكيني هذه الآية (وتلاها) . ثم قال : أخاف أن تكون قد نزلت فيّ ، وأنا رجل جهير الصوت .

ثم ذهب ثابت إلى بيته ، ودخل غرفته ، وأمر زوجته — جميلة بنت عبد الله — بأن تغلق عليه الباب بمغلاقه ، وأن تشد إغلاقه بمسمار تدقه فيه ، ولا تفتحه إلا إذا جاءه أحد من عند رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وعلم الرسول بأمر ثابت حين تفقده وسأل عنه ، فبعث إليه من يقول له : « إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » . فخرج ثابت من محبسه ، وجاء إلى رسول الله مستبشراً ، فسأله الرسول عن أمره ، فأجاب بقوله : يا رسول الله لقد نزلت هذه الآية ، وإني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون قد حبط عملي ، فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « أما ترضى يا ثابت أن تعيش حميداً ، وتموت شهيداً ، وتدخل الجنة » ؟

فطار ثابت فرحاً بهذا الخبر السعيد ، وقال : رضيتُ ببشرى رسول الله . وكان الصحابة بعد ذلك ينظرون إلى ثابت ويقولون : هذا رجل من أهل الجنة يمشي بيننا . وحفظ ثابت تبعات هذه البشرى ، بإخلاصه وعبادته ، ونضاله وكفاحه .

وكان ثابت صريحاً في حديثه مع الرسول إلى أبعد حدود الصراحة ، وكان ينقد نفسه بوضوح فيما يظن أنه عيب أو خطأ ، ومن شواهد ذلك أنه جاء إلى النبي وقال له : يا رسول الله ،

إنى أخشى أن أكون قد هلكت : ينهانا الله أن نحب أن نُحمد بما لا نفعل ، وينهانا عن الخيلاء ، وإنى امرؤ أحب الجمال ، وينهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك ، وأنا رجل رفيع الصوت .

فطمأنه الرسول وأفهمه أن محبة الحمد بالفعل الكريم غير حب الحمد عن طريق الادعاء ، وأن الخيلاء والزهو غير محبة الشيء النظيف والثوب الجميل وما أشبه ذلك ، وأن رفعه لصوته كان لضرورة ، ولم يقصد به إيذاء النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم أعاد النبى له تبشيره بالجنة .

وإذا كان ثابت بن قيس قد شهد غزوة أحد وما بعدها من غزوات ، وناضل فيها نضال الرجال ، وثبت فى ميادينها ثبات الأبطال ، فإنه أراد أن يحقق قول الرسول له : « وتموت شهيداً » بعد أن حقق قوله : « تعيش حميداً » . فحينما رأى ثابت تقهقر بعض المسلمين المقاتلين فى معركة « اليمامة » غضب من ذلك ، وتألم له ، ولبس كفنه بعد أن وضع الحنوط على جسمه ، وهو الطيب الذى يوضع فى جسم الميت ، ويقال : تحنط الرجل ، إذا استعمل الحنوط استعداداً وتأهباً للموت ، وكان هذا من عادة جماعة من الصحابة فى الغزوات ، رضوان الله عليهم .

وحمل ثابت سلاحه ، وأقبل إلى الميدان عازماً على الثبات والجهاد حتى الاستشهاد ، وقال :

« اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعنى الكافرين) أف لهؤلاء وما يعبدون ، اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المتقهقرين) أف لهؤلاء وما يصنعون، يا معشر الأنصار ، خلوا سننى (افسحوا طريقى) ، لعلى أصلى بحرها ساعة . بئسما عودتم أقرانكم ، وبئسما عودتم أنفسكم ، ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ودخل حومة الوغى ، وظل يقاتل ويناضل ، حتى سقط شهيداً عليه رضوان الله ، وكان ذلك سنة إحدى عشرة للهجرة .

ويروى أن ثابت بن قيس انضم إليه سالم مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحمل راية المهاجرين ، وحفرا لنفسيهما حفرة تبلغ وسط جسميهما ، ونزلا فيها ، وملآها بالرمال حتى غطت وسط كل منهما ، وأخذا يضربان منها ويرميان ، وهما ثابتان لا ينتقلان ، وفعلا الأفاعيل فى ضرب أعداء الله ، حتى سقطا شهيدين فى سبيل الله .

* * *

وأراد الله جل جلاله أن تظهر كرامة لثابت بعد موته ، فقد رأى بعض الصحابة ثابتاً فى النوم عقب استشهاده ، فقال له ثابت : إنى قتلت بالأمس فمر بى رجل فأخذ درعى . وأرشده ثابت إلى مكان الدرع بالتحديد ، وكلفه بأن يذهب إلى خالد بن الوليد قائد الجيش رضى الله عنه ، ويطلب إليه

استحضار الدرع ، وبأن يذهب إلى أبى بكر الخليفة رضى الله عنه ، ويطلب إليه أن يقضى دَيْنه الذى حدده ، وأن يعتق عبده الذى تركه .

واستجاب خالد فبحث عن الدرع فوجدها حيث وصف ثابت ، وأنفذ أبو بكر وصية ثابت تكريماً له ، ولذلك قال مالك بن أنس : لا أعلم وصية أوصى بها صاحبها بعد موته ، وأجيزت ، ألا وصية ثابت بن قيس .

وهكذا يكون تكريم الله عزت قدرته ، للأخيار المجاهدين المناضلين من عباده ، ولا غرو فقد ثبت فى صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الرجل ثابت بن قيس » .

وإذا كانت الأرض الطيبة تنبت الزرع الطيب ، وكان الأصل النبيل منبعاً للفرع الجليل . فإن ثابتاً قد ترك من خلفه ثلاثة أبناء هم : محمد ويحي وعبد الله ، وقد ساروا على طريق أبيهم فى الجهاد والبذل والفداء ، فماتوا جميعاً شهداء فى موقعة « الحرة » ، فوصفهم التاريخ بأنهم شهداء أبناء شهداء :

[ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم] .

الشهيد الحى

طلحة بن عبيد الله

حين تجتاز الأمة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الألوان : القدوة الطيبة الرائعة ، التى تجذب ببهائها ، وتهدى بسناها ، وما أحوجنا إلى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن، نتلمس منه مواطن القدوة، ومشاهد الأسوة، لعل الله جل جلاله يبعث الهامد، ويحرك الجامد، ويأخذ بالنواصى إلى منهج الأوائل البطولى المؤمن ، ولن يصلح أمر هذه الأمة فى حاضرها إلا بما صلح به فى أولها : [فعسَى اللهُ أنْ يأتىَ بالفتْح أو أمرٍ من عِنْدِه] وهو سبحانه على كل شىء قدير .

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ويرجع إليه :

إنه الصحابى الجليل أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان رضى الله عنه ، الشهيد الحى الذى سبق فى التاريخ ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر ، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور .

إنه أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام فى أوله ، فكان أحد

أفراد الطليعة المباركة التي كان الواحد منها يوزَن بألف ، ومنذ عمر الإيمان قلبه ظل وفيًّا لعهده ، ماضياً فى طريقه ، لا يغدر ولا يخون ، ولا ينحرف ولا يمين ، حتى لقى ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

إنه أحد العشرة المبشَّرين بالجنة على لسان النبوة الصدوق الطهور ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه .

ولقد أسلم طلحة على يد أبى بكر ، وهو ابن عمه ، وأبو بكر هو الرجل المبارك السبّاق إلى الخيرات عليه رضوان ربه ، ولما ذهب طلحة مع أبى بكر ، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخرجا من عنده ، هاجمهما نوفل ابن خويلد مع بعض أتباعه ، وكان طاغية متجبراً ، وله عصبيته القوية بين أهله ، حتى كان يقال له : « أسد قريش » ، وربطهما فى حبل واحد ، تعذيباً لهما من أجل إسلامهما .

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما : « القرينان » . وأكرمْ بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء فى سبيل الله عز وجل .

ووقف طلحة بعد إسلامه إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يهتدى بهديه ، ويأتمر بأمره ، ويستجيب لرغبته ، فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهيأة المطوّعة التى لا تتأبى على أى

عمل من أعمال الطاعة أو الخير .

وجاء وقت الهجرة ، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة إلى المدينة إيماناً واحتساباً ، فكان من المهاجرين السابقين الأولين ، وآخى النبى بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام ، ثم بالمدينة بينه وبين أبى أيوب الأنصارى ، كما يقول السخاوى فى كتابه « التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة » ، ويذكر النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » أن الرسول آخى بين طلحة وسعد بن أبى وقاص ، رضوان الله على الجميع .

ولمح رسول الله عليه الصلاة والسلام مخايل الإخلاص والصدق واليقين فى طلحة ، فأخذ يختاره لجلائل المهمات ، وعظائم التبعات ، فكلفه مثلا مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين قبيل غزوة بدر ، فقاما بالمهمة خير قيام ، بلا غش ولا تزيد ولا خداع ، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائباً فى عمل من أعمال الخير التى تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين ، فلم يستطع شهود الغزوة ، ولكن الرسول قدر إخلاصه ووفاءه ، فجعله كمن شهدها ، وأعطاه منها سهمه ، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها .

ويا لها من مكانة سامية ، حين يبلغ المؤمن المخلص فى نضاله وإخلاصه ما يجعله حاضراً وهو غائب .

ولقد روى عن الإمام على رضى الله عنه أن أحد المجاهدين معه قال له بعد إحدى المعارك : وددتُ أن أخى فلاناً كان

شاهدنا ، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك ، فقال له الإمام : أهوَى أخيك معنا ؟ . فقال : نعم . قال الإمام : فقد شهدنا .

وليس المهم هنا هو أن يأخذ طلحة مالا أو يحوز كسباً ، وإنما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوى من تشريف وتكريم ، فقد كان طلحة رجلا تاجراً ، وكان يكسب الكثير الطيب ، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه فى نصرة الإسلام ، ومعاونة المجاهدين ، وتأييد معركة الحق والإيمان ضد الباطل والكفران .

ثم شهد طلحة غزوة أحد وما بعدها من الغزوات والمشاهد ، وفى غزوة أحد هذه ظهرت دلائل مؤكدة لإيمان طلحة ويقينه ، وصدقه فى الجهاد ، ورغبته فى الاستشهاد ، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسناً فى غزوة أحد ، وهم : على بن أبى طالب سيف الله الغالب ، وحمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت ، وطلحة بن عبيد الله الشهيد الحى .

وقاتل طلحة فى أول المعركة ما قاتل ، وحينما أقبلت ساعة الهول ، وتحول الانتصار إلى انكسار ، ثبت طلحة إلى جوار الرسول مع القلة التى ثبتت ، لم يفر ولم يتراجع ، بل ظل يقاوم ويدافع ، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبى ، وصد كل عدوان عنه .

وحينما سقط النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى الحفر ،

والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال ، سارع طلحة فاحتضن رسول الله ، وظل محتضناً له حتى خرج الرسول من الحفرة ، وعاد إلى وقفته الثابتة المناضلة ، وتعددت الإصابات فى جسم النبى الكريم ، برغم الجهد الكبير الذى بذله مثل طلحة بن عبيد الله ، وكان على الرسول درعان ، وبه تعب ، فأراد أن يعتلى صخرة ، ليشرف من فوقها على سير المعركة ، ولكنه لم يستطع أن يعلوها ، فانحنى له طلحة ، وصعد الرسول فوق ظهره ، ثم ارتفع به طلحة شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ الصخرة ، واستوى عليها ، وظل طلحة يناضل ويقاوم .

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سارع فوقى الرسول منها بيده ، فأصابها الشلل ، وقطعت إحدى أصابعها ، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق : « أوجب طلحة » أى فعل ما يوجب له الجنة عند ربه عز وجل .

وتكاثرت الجراح فى جسم طلحة يومئذ ، حتى أصابه بضع وسبعون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وأجهده نزيف الدم من جسمه ، وحينما دنا أبو بكر وأبو عبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح ، أشار لهما إلى طلحة ، وقال لهما : « عليكما بصاحبكما ، دونكما أخاكم » ! . .

وفى أعقاب المعركة أصيب طلحة بإغماء من جراء إصابته

الشديدة ، فصب أبو بكر الماء على وجهه ، فاستفاق ، وما كاد يسترد وعيه حتى قال أول ما قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأجابه أبو بكر : إنه بخير . ففرح طلحة وقال : الحمد لله ، كل مصيبة بعده جلل (أى قليلة) .

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ، وإخلاص الجهاد فى سبيل الله ، ولذلك كان أبو بكر رضى الله عنه إذا جاء ذكر ليوم أحد يقول : « ذلك يوم كان كله لطلحة » !

* * *

ثم يقبل التكريم النبوى العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد ، وهذا التعرض البطولى لمواطن الاستشهاد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » .

ولقد جرى العرف بيننا على أن نطلق كلمة « الشهيد الحى » على من تعرض لموقف التضحية بالنفس فى موطن من مواطن الجهاد والاستشهاد ، ولكن الأقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة ، وتطلبه ما عند الله عز وجل ، ولقد يخيل لبعضنا أن هذا تعبير طريف مستحدث ، ولكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وهذه هى الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما تروى عن رسول الله أنه قال : « طلحة ممن

قضى نحبه وما بدلوا تبديلا » . أى من الشهداء ، لأن النحب هو النذر ، وقضى فلان نحبه . أى أدى نذره ، وحقق وعده .

وتلك إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى قول الله جل جلاله : [مِنَ المؤْمنين رجالٌ صَدَقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه ، فمنهم من قَضَى نَحْبَه ، ومنهم من ينتظر ، وما بَدَّلُوا تبديلا] .

ولنذكر جيداً أن هذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول : [ولما رَأَى المؤمنون الأَحزابَ قالوا : هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورسولُه ، وصَدَقَ اللهُ ورسولُه ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما] .

وروت السنة النبوية أن أعرابياً سأل رسول الله عمن قضى نحبه ، وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة ، فقال النبي : «أين السائل عمن قضى نحبه ؟ »

قال الأعرابى : أنا يا رسول الله .

فأشار النبي إلى طلحة وقال للسائل : « هذا ممن قضى نحبه ».

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » . وأكرمْ بها من بشرى ، وأنعمْ به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الأبد ، حين يجاور فى الفردوس الأعلى إمامَ الأنبياء وسيد المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

* * *

وحينما تهيأ المسلمون لغزوة « تبوك » فى وقت عسرة وشدة وجدب وقحط ، ظهر اللؤم اليهودى الخسيس ، حيث اجتمع نفر من المنافقين فى دار « سويلم اليهودى » ، وكانت عند بئر يقال لها « جاسوم » .

وتآمر الأخساء ضد المسلمين ، وأخذوا يحرضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد ، فبعث النبى طلحة ومعه بعض المسلمين ، فأشعلوا النار فى وكر الفتنة وعش المؤامرة ، وهو بيت ذلك اليهودى الخئون ، فكان هذا العقاب التأديبى ردعاً وزجراً لأمثاله من سلالة القردة والخنازير ..

وكان طلحة مع هذا رجلا نقى القلب صافى النفس ، يفرح للخير يناله أى أخ له فى الإسلام ، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك ، وقد قص الله علينا قصتهم فى سورة التوبة .

وجاء كعب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول قبول توبته عند الله عز وجل، فسارع طلحة إلى كعب، وحياه وهنأه بفضل الله عليه ، مما أثر فى نفس كعب حتى قال وهو يروى قصته : « والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره » . وكان كعب لا ينسى لطلحة هذا الصنيع .

* * *

وإلى جوار هذا كان طلحة رجلا يحسن عمل الدنيا ويتقنه ، ويكسب الكثير بجده وجهده ، وما كان يكسب ليكنز أو يطغى ، بل كان يكسب وينفق ، ويتوسع فى الإنفاق والبذل والتبرع ، وحسبنا أن نعلم أنه قد تبرع بسبعمائة ألف درهم فى غزوة أحد وحدها .

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « طلحة الخير » و « طلحة الجود » و « طلحة الفياض » ، تقديراً لكثرة ما قدم ، ولضخامة ما أعطى ، وعظم ما أنفق فى سبيل الله : [إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون] . وكذلك كان يسمى : « طلحة الطلحات » .

ولقد قال قبيصة بن جابر : « صحبت طلحة بن عبيد الله ؛ فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال منه من غير سؤال » .

ومع الجهاد ، والاحتساب ، والاكتساب ، والإنفاق ، كان طلحة حريصاً على طلب العلم والتفقه فى الدين ، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمعها ووعاها ، وحفظها وأداها . وقد أثبت البخارى ومسلم وغيرهما هذه الأحاديث .

وظل طلحة ثابتاً على إيمانه ويقينه ، وجهاده وإحسانه ،

حتى مات شهيداً فى « معركة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة ، ودفن فى مدينة البصرة ، رضوان الله عليه .

ولما رأى الإمام على رضى الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال يخاطبه :

إنى أرجو أن أكون أنا وأنت ممن قال الله فيهم :

[وَنَزَعْنا ما فى صدورِهم من غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين] .

* * *

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال ، فلم تكن بطولتهم قوة فى الأبدان ، أو براعة فى الطعان ، فحسب ، بل كانت بطولتهم قائمة على الإيمان واليقين ، وعلى الكفاح والنضال ، وعلى أداء سائر الواجبات والأعمال ، وعلى العلم النافع ، والخلق النبيل . . .

وسيرة طلحة إنما هى نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، الملىء بمواطن القدوة ، ومواقف الأسوة ، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضى على طريق سلفنا ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، لنفوز كما فازوا :

[إنَّ فى ذلك لذِكْرَى لمَنْ كان له قلبٌ ، أوألْقَى السمعَ وهو شهيد] .

حامل القرآن المجاهد

سالم مولى أبى حذيفة

حينما ينفلت قلب الإنسان من حاضره إلى ماضيه ، ويستعرض الصفحات الناضرة العامرة بدروس العزة والكرامة والإباء للضيم ، يشاهد ضوءاً يخطف الأبصار ، ويستلفت الأفكار ، ويجد صفحة جهاد كريم تشعرنا بأن حياة الأخيار تنهض على التضحية والبذل والفداء :

إنها صفحة الصحابى الجليل ، المجاهد المحتسب الشهيد سالم مولى أبى حذيفة ، رضى الله عنهما ، وأرضاهما فى جنات النعيم . وسالم هو : أبو عبد الله سالم بن عبيد بن ربيعة ، ولكن السيرة الإسلامية عرفته باسم « سالم مولى أبى حذيفة » ، لأنه كان عبداً مملوكاً لزوجة أبى حذيفة هاشم بن عتبة ، واسمها « بثينة » ، فأعتقته ، وتبناه أبو حذيفة على عادة القوم فى الجاهلية ، قبل أن يحرم الإسلام التبنى ويقضى عليه .

ولما أشرق الإسلام بنوره استضاء به أبو حذيفة وسالم معاً ، فصارا مسلمين مؤمنين محسنين ، تجمعهما الأخوة فى الله ، والعمل لوجه الله ، والجهاد فى سبيل الله ، وتساوى الحر المالك والعبد المعتوق ، فقد ألغى الإسلام الامتيازات والفروق ، وقال

القرآن الكريم : [إنَّما المؤمنون إخْوَة] ؛ ولم يبق إلا التنافس في الخير ، والتسابق في ميادين التقوى والعمل الصالح :
[إن أكرمَكم عند اللهِ أتْقاكم] .

وزاد أبو حذيفة تكريماً لسالم فزوجه بنت أخيه : « فاطمة بنت الوليد بن عتبة » ، وكانت من القانتات العابدات الصالحات المهاجرات في سبيل الله عز وجل .

ولقد هاجر سالم مولى أبي حذيفة قبل أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، فاتخذه المهاجرون الأولون إماماً لهم ، يؤمهم في صلواتهم ، ومنهم مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت صلاتهم أولا في مسجد قباء الذي قال فيه القرآن المجيد : [لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يوم أحقُّ أن تقومَ فيه ، فيه رجالٌ يحبُّونَ أن يتطهروا ، والله يحبُّ المطهرين] . فاعجب لعبد مملوك بالأمس قد رد عليه الإسلام كرامته وعزته ، وجعله يسبق سواه من الأحرار الكبار الأصلاء ، فيصير لهم إماماً ، لأن الله تعالى قد أعز بالإسلام قوماً ، وخفض به آخرين ، والله يختص بفضله من يشاء من عباده ؛ وإنما صار سالم إماماً لهم لأنه كان أكثرهم حفظاً للقرآن ، وأتقنهم تلاوة لآياته .

ولقد زكى رسول الله عليه الصلاة والسلام مكانة سالم في حفظه القرآن ، فجعله أحد أربعة ترجع إليهم الأمة يومئذ في

تلقى القرآن الكريم ، فقال : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبىّ بن كعب » . كما يروى أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت للنبى : يا رسول الله ، سمعت قراءة رجل فى المسجد ما سمعت مثله قط ، فقام الرسول واستمع ،وعرف صاحب الصوت ، وقال لها : أما تدرين من هو ؟. قالت : لا . قال لها : هو سالم مولى أبى حذيفة . ثم قال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا .

وتلك شهادة نبوية محمدية ،ترفع من قيلت فيه إلى مقام علىّ كريم .

وكان كثير من الصحابة إذا ذكروا سالماً وصفوه بقولهم : « سالم من الصالحين » ، وذلك لاجتهاده فى الطاعة ، وإقباله على القرآن ، واستقامته فى السلوك والمعاملة .

ولكن هذا العابد الصالح ، القارئ القانت ، المتقرب إلى ربه بالذكر والشكر ، والصلاة والمناجاة ، العامر لليله بالتعبد والتهجد ، كان يصير فى نهاره ، وفى مواطن الشدة والبأس التى تتطلبها الحرية والكرامة ، ليثاً هصوراً وبطلا مقداماً . ولعل هذا التعبد الموقن هو الذى كان يفجر فى صدر سالم حوافز هذا الإقدام على الجهاد والنضال ، إذ يعلـّمه أن ما عند الله تعالى خير وأبقى ، وأن لقاء الله فى موطن الكفاح الواجب والاستشهاد اللازم هو أفضل ألقاء .

ولذلك أخذ سالم يؤدى فريضة الجهاد فى سبيل ربه : سبيل الحق والعدل ، كلما تحرك داع إليها ، أو حرض حق عليها ، فجاهد فى غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وسائر المشاهد الأخرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظل تقياً وفياً ، عابداً مجاهداً ، يرهف نفسه وحسه بعبادة ربه ، ثم يشد عزمه ، وينصر قومه حين ينادى الحق أهله لنصرته وتأييده ، ولا غرو ، فهو من قوم يحبهم الله ويحبونه : [أذلَّة على المؤمنينِ أعزَّةٍ على الكافرين ، يُجاهِدون فى سبيلِ الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاءُ ، واللهُ واسعٌ عليم] .

* * *

ومضت الأيام والأعوام ، ولحق الرسول بربه بعد أن بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجمع الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . وتحركت بعد وفاة الرسول عقارب الفتنة وثعالب المكر ، فإذا « مسيلمة الكذاب » يتحرك بفجوره وشروره ، وهو الذى كتب إلى الرسول من قبل يقول له : « لى نصف الأرض ، ولك نصفها » ، فرد الرسول على الدعى الذى يقول له : « إن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » . وظل مسيلمة مذءوما مدحوراً

حتى توفى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فتحركت العقرب من مكانها .

وبدأت حرب التطهير للأرض الطيبة من أفاعيها والباغين فيها ، وجاءت « معركة اليمامة » موقفاً مشهوداً من مواقف النضال بين الإيمان والكفران ، وخرج إليها سالم مولى أبى حذيفة مجاهداً مضحياً كعادته بماله ونفسه فى سبيل عقيدته وكرامته ، شارياً ما عند الله عز وجل بكل ما يملك ، مفضلا الباقية على الفانية ، مقبلا على الموت فى موطن الشهادة كأنه يسعى إلى أمنية محبوبة ، لا يبالى أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه .

وكان سالم يرفع صوته ، وهو يجاهد فى حومة الوغى ، ويهتف بمن حوله قائلا : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بأعمالكم » . ولعله كان يريد بهذا القول أن الذين آمنوا بالقرآن وتلوه ، ووعوا ما فيه من آيات عن الجهاد ، ووعد إلهى كريم صادق للمجاهدين المؤمنين الصادقين ، يجب عليهم أن يبرهنوا على إيمانهم بأعمالهم ، وألا يخالفوا بين أقوالهم وأفعالهم ، فربهم هو الذى يقول : [يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون ؟ كَبُرَ مَقْتًا عندَ اللهِ أن تقولوا مالا تفعلون ، إن اللهَ يُحبُّ الذين يقاتلون فى سبيلِه صفًّا كأنهم بنيانٌ مرصوص] .

وكان اللواء بيد سالم فى معركة اليمامة ، وكأنما أشفق عليه

أحد المجاهدين حينما رآه وقد ناله الإجهاد من الجهاد ، فقال لسالم : لو أعطيت اللواء لغيرك ، فإنا نخشى عليه معك .
فغضب سالم وقال : بئس حامل القرآن أنا إذن .

وكأنه يعجب أن يكون حافظاً للقرآن ، مؤمناً به ، وفيه ما فيه من الحث على الجهاد والاستشهاد ، ودعوة إلى التضحية والفداء ، ثم يضعف أو ينحرف .

ومضى سالم فى جهاده ، وقاتل حتى قطعت يمناه ، فتناول اللواء بيسراه ، وقاتل حتى قطعت يسراه ، فاعتنق اللواء بين ذراعيه ، ومضى يجاهد ، وهو يردد قول الله جل جلاله :

[وما محمدٌ إلا رسولٌ قَدْ خَلَت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً ، وسيجزى اللهُ الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموتَ إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يُرِدْ ثوابَ الدنيا نُؤْتِه منها ، ومن يُرِدْ ثوابَ الآخرة نُؤْته منها ، وسنجزى الشاكرين ، وكأَيٍّ من نبيٍّ قاتَلَ معه ربِّيُّون كثيرٌ ، فما وَهَنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضَعُفوا وما استكانوا ، واللهُ يحب الصابرين ، وما كانَ قولهم إلا أن قالوا : ربَّنا اغفرلنا ذنوبَنا ، وإسرافَنا فى

أمرنا ، وثبتْ أقدامَنا ،وانْصرنا على القومِ الكافرين ، فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا وحسنَ ثوابِ الآخرة ، واللهُ يحب المحسنين] .

ثم سقط سالم شهيداً يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فتذكر أبا حذيفة صاحب الفضل عليه ، وأخاه فى الدين ، وكان أبو حذيفة يجاهد فى المعركة نفسها ، فقال سالم لمن حوله : ما فعل أبو حذيفة ؟ فقيل له : قد قتل . قال : وما فعل فلان (لأخ آخر له فى الله) . فقيل : قد قتل ، قال سالم : فأضجعونى بينهما (أى ادفنونى وسطهما) .

ومضى سالم إلى لقاء ربه ، ليأخذ طريقه من وراء هذا اللقاء إلى جنات النعيم ، ولكن لم يذهب دمه هدراً ، فإن يكن هو وأمثاله قد مضوا شهداء ، فقد لقى مسيلمة الكذاب وأتباعه مصارعهم التى مضوا من ورائها إلى عذاب الجحيم وبئس المصير : [أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم ؟ كيف تحكمون] ؟

ولقد أرسلوا ميراث سالم إلى معتقته « بثينة » لتأخذه بحكم « ولاء العتق » ، ولكنها رفضت أن تأخذه ، فحولوه إلى بيت مال المسلمين .

* * *

وليس معنى ما سبق أن سالما كان من هواة الحرب ،

أو مصاصى الدماء ، بل كان يجاهد حين يجب الجهاد ، رداً لعدوان ، أو مقاومة لبهتان ؛ ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى سرية إلى « بنى جذيمة » داعياً إلى الإسلام ، ولكنه حينما بلغ ديارهم وجد بأيديهم السلاح ، فظن فيهم ظن السوء ، فاعتقلهم وقتل منهم عدداً ، وكان هذا اجتهاداً مخطئاً من خالد رضى الله عنه ؛ فعارضه سالم مولى أبى حذيفة فى شدة وصرامة ، وكان معه .

ولما علم الرسول بما حدث غضب وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد . وبعث النبي علياً فدفع ديات القتلى إلى أهليهم .

ولقد قال الرسول حينما علم بما حدث من خالد : هل أنكر عليه أحد ؟ قيل : نعم ، راجعه سالم مولى أبى حذيفة وعارضه .

من أجل هذا كان عمر بن الخطاب يثنى على سالم كثيراً ، وقال فى آخر حياته : لو كان سالم حياً ما جعلت أمر الخلافة شورى ؛ أى لوليته ، أو لاستشرته فيمن يختار للخلافة ، وأعمل بمشورته .

وروى أن عمر قال عنه : لو كان سالم حياً لوليته الأمر من بعدى !

رضوان الله تعالى على حامل القرآن المجاهد الشهيد : سالم مولى أبى حذيفة .

المجاهد بسيفه وقلبه

بشير بن سعد الأنصارى

حينما ندخل مدرسة النبوة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نجدها قد تخرج فيها رجال وأبطال ، زانوا الحياة بفضائل الأعمال ، وحققوا العزة بموصول النضال ، وخلفوا وراءهم ذكراً حميداً ، وتاريخاً مجيداً ، يتلألآن على طريق الحرية والكرامة .

ونتطلع إلى هؤلاء فيما نتطلع ، فنرى بينهم الصحابى الجليل ، الفاضل الصالح — كما عبرت السيرة — المجاهد الصابر فى الشدائد والأزمات ، الساعى فى المحامد والخيرات : وهو أبو النعمان بشير بن سعد الأنصارى ، رضوان الله عليه . وقد كان من كبار الأنصار الذين آووا ونصروا ، وضحوا وآثروا ، وبذلوا وافتدوا ، وهو أول من أسلم من الأنصار [1] ، فدل بذلك على سلامة فطرته ونقاء طبيعته .

وقد شهد « بيعة العقبة » التى ضمت الطلائع المتقدمة لتمهيد الطريق أمام دعوة الحق والصدق ، وحينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حرص بشير بن سعد على أن يكون

---

(١) ذكر ذلك السخاوى فى كتابه «التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة».

أقرب ما يستطيع من نور النبوة الساطع ، ليهتدى به ، وكان يتلقى من جهته كل أمر بالاستجابة والمسارعة إلى التطبيق ، فهو يؤمن بأنه جندى صفته الأساسية هى الطاعة للقيادة الراشدة ، والزعامة الرائدة ؛ مع الإخلاص فى أداء الواجب مهما كلفه من جهد أو تضحية .

ولذلك جاهد بشير بن سعد خير الجهاد فى غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وشهد سائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام . وفى شوال من السنة السابعة للهجرة ، تآمرت قبيلة غطفان مع عيينة بن حصن الفزارى ، وكونوا جيشاً لمهاجمة النبي والمسلمين ، وأراد الرسول حينما تيقن من ذلك أن يبادر فيشتت شمل هؤلاء ، قبل أن يستفحل خطرهم بهجومهم الدنىء ، فعقد لواءً لبشير بن سعد ، وبعثه على رأس سرية فدائية قوامها ثلاثمائة مجاهد .

ومضى الرجال الأبطال إلى غايتهم ، يحملون أرواحهم على أكفهم ، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً ، لتتم منهم المباغتة لعدوهم ، حتى بلغوا منطقة « يمن » و « جبار » ، وفى « معجم البلدان » أن « يَمن » بفتح فسكون ، أو بضم فسكون — هو ماء لغطفان بين بطن قوّ ورُؤاف على الطريق بين تيماء وفيد ، و « جُبار » — بضم الجيم — هو ماء لبنى حميس بن عامر بن ثعلبة ، بين المدينة وفيد ، وفيد منزل فى وسط الطريق من مكة إلى الكوفة .

وهناك ضرب المجاهدون ضربتهم الخاطفة الموفقة ، وحدث اشتباك عنيف بينهم وبين الخونة المتآمرين ؛ وبصدق فى الجهاد من بشير بن سعد ، وبراعة فى القيادة ، وخبرة بفن القتال ، وثبات فى موطن النضال ، وحسن معاونة من زملائه المناضلين ، استطاع أن يشتت شمل هؤلاء الأعداء ، وأن يستولى على قدر كبير من الغنائم ، وعاد مع رفاقه الأبطال . يسعى نور جهادهم بين أيديهم وبأيمانهم .

[أولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولئك هُمُ المتقون] .

وفى السنة التاسعة من الهجرة عاد الرسول صلى الله عليه وسلم فبعث بشير بن سعد فى سرية أخرى إلى بنى مرة المتمردين فى « فدك » وهى بلدة بينها وبين المدينة مسيرة يومين أو ثلاثة ، وأرسل معه ثلاثين مجاهداً ، وهناك خاض بشير ومن معه معركة استمرت طوال الليل مع أعدائهم ، وتراموا فيها بالنبال ، وأصيب أكثر المجاهدين مع بشير ، ولكنه ظل يرمى ويرمى حتى نفدت ذخيرته كلها ، وهو يقاتل قتالا شديداً ، وهو صابر صبراً عظيماً — كما عبرت السيرة — وتكاثرت عليه الضربات ، وتعددت فى جسمه الجراح ، وجاءته إصابة شديدة فى كعبه لم يتمالك معها كيانه ، فسقط على الأرض مغشياً عليه دون حركة ، حتى قيل إنه مات . . .

ولكن المجاهد المؤمن استجمع ما بقى من قوته ، ونهض

ليفتح للنصر باباً ، أو يجود بنفسه فى أكرم ميدان ، وشاء الله جل جلاله أن تصله نجدة فى ذلك الوقت ، بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها تغير الموقف ، وتحول إلى صالح المسلمين ، وعاد بشير ومن معه وفى أيديهم شهادات صدقهم فى الجهاد ، وإخلاصهم فى النضال :

[وما كان الله ليُضيعَ إيمانَكم ، إن الله بالناس لرءوفٌ رحيم]

وهكذا إذا انتهت قدرة الأرض أقبلت قدرة السماء ، وإذا استنفدت طاقة المخلوق تفتحت أبواب معونة الخالق ، وإذا انقطعت أسباب الإنسان تواصلت أسباب خالق الإنسان :

[وربك يَخْلُق ما يشاءُ ويختار] .

* * *

ومضت الأيام ومضى معها المجاهد المخلص : بشير بن سعد الأنصارى ، يعمرها بالطيبات والقربات : عملا وسلوكاً ، وعبادة ومجاهدة ، واختاره الرسول والياً على المدينة حينما خرج الرسول إلى « عمرة القضاء » ؛ ثم لحق الرسول بربه ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ؛ وبعد قليل رأينا بشير بن سعد يخرج جندياً مطيعاً متواضعاً ، يمشى ضمن الجيش الذى يقوده الفتى الشاب : « أسامة بن زيد » .

ولم لا يفعل بشير ذلك وها هو ذا يرى أبا بكر الصديق خليفة رسول الله يمشى على قدميه إلى جوار أسامة الذى امتطى

صهوة جواده . وحينما قال أسامة القائد لأبى بكر الخليفة : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب ، وإما أن أنزل . أجابه الخليفة الراشد قائلا فى تصميم : والله لا أركب . ولا تنزل ، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ؟ !

ومضى الجيش إلى غايته ، وحقق المراد من مسيرته ، بفضل الله وحده ، وبجهود أولئك الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

[إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيَقْتلون ويُقتَلون ، وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوْفى بعهده من الله ،فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوزُ العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشِّر المؤمنين] .

وما أربحها من صفقة عند المؤمنين العقلاء !

وظل بشير على هذا الإخلاص فى الجهاد ، والوفاء بحق الله وحق الإسلام ، حتى نال نعمة الشهادة فى معركة « عين التمر » الواقعة غربى الكوفة ، والتى فتحها المسلمون فى السنة الثانية عشرة بقيادة السيف الإلهى المسلول : خالد بن الوليد ،

بعد « معركة اليمامة » .

ولم يكن بشير بن سعد مجاهداً فى سبيل الله بالسيف وحده ، بل كان مجاهداً كذلك بعقله وقلبه ، وحسن رأيه ، وحرصه على وحدة الكلمة وسلامة الأمة ، فحينما ثار الجدال بين المسلمين فى « سقيفة بنى ساعدة » لاختيار خليفة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقال بعض الأنصار للمهاجرين : « منا أمير ، ومنكم أمير » ، سارع بشير — وهو أنصارى — فوقف يخطب فقال فيما قال — كما روى الطبرى وابن الأثير — :

« يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغى به من الدنيا غرضاً ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك ؛ ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وايم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

وسارع بشير فمد يده ، فكان أول من بايع أبا بكر من الأنصار ، وبذلك شارك بشير فى تجنيب المسلمين يومئذ فتنة شعواء ، لا يعلم إلا الله مداها الخطير لو لم تجد أمثال بشير الذين يسحقون الأهواء الذاتية والمطامع الشخصية والنزعات الفردية أو الإقليمية ، بنزعة الروح الجماعية ، والجندية المخلصة المجهولة فى سبيل الله عز وجل .

ولا يصح لمتوهم أن يتوهم أن هذا الموقف من بشير بن سعد يوحى بمعنى من معانى الاستسلام للقوة ، أو المتابعة العمياء ، فقد كان بشير لا يهاب فى الحق لومة لائم ، ولا يخشى فى دنياه أحداً إلا الله ، وقد يدل على ذلك أقوى دلالة ما رواه التاريخ من أن عمر بن الخطاب قال يوماً وهو خليفة — ومن حوله المهاجرون والأنصار — : أرأيتم لو أترخص فى بعض الأمر . ماذا كنتم فاعلين ؟ فقال له بشير بن سعد : لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدْح . (أى تقويم السهم) . فقال عمر : أنتم إذن أنتم !

* * *

ومع هذا النضال الموصول الذى خدم به بشير عقيدته وأمته ، كان يحرص على التفقه فى الدين ، وكان يسائل الرسول من حين إلى حين ليزداد علماً ، ويروى أنه لما نزل قول الله تعالى: [إنَّ اللهَ وملائكتَه يُصَلُّون على النبى يا أيُّها الذين آمنوا صَلُّوا عليهِ وسلِّموا تسليما] قال بشير للنبى : يا رسول الله ، لقد أمرنا الله أن نصلى عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ .

فأجابه : « قولوا : اللهم صلِّ على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل

إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد »[١] .

وهكذا كان بشير بن سعد من قوم جمعوا بين الإيمان والعمل ، وبين العدل والقوة ، وبين الجهاد وحب السلام ، وبين العزة والرحمة ، فإذا كان يوم الحرب رأيتهم السباقين إلى مواطن الشهادة ، وإذا كان يوم السلام رأيتهم المستغرقين فى العمل والعبادة ، أولئك لهم الحسنى وزيادة .

---

(١) مما نذكره من سيرة بشير أيضاً أنه كان يكتب العربية فى الجاهلية ، وكانت الكتابة يومئذ قليلة نادرة .

الباحث عن الشهادة

أبو أيوب الأنصارى

على الطريق نمضى لنعرف المزيد من أسلافنا الرجال الأبطال ، الذين علموا الدنيا كيف يكون الجهاد والنضال .

وهذا واحد منهم ، يبدو لنا عملاقاً فى تاريخه وكفاحه ، وهو الصحابى الجليل ، الشهير النجيب[1] ، صاحب البيعتين : أبو أيوب الأنصارى ، واسمه خالد بن زيد بن كليب الخزرجى النجارى رضوان الله عليه .

وهو الذى نال الحظ الأوفى ، والشرف الأسمى ، حينما اختار بيته الرسولُ صلى الله عليه وسلم لينزل فيه ضيفاً ، عندما هاجر من مكة إلى المدينة ، وأقام فيه سبعة أشهر[2] حتى بنيت حجرات النبى ، وتم بناء المسجد ، وكان أهل المدينة قد اصطفوا أمام بيوتهم فى فرح غامر يستقبلون النبى صلى الله عليه وسلم وهو قادم فوق ناقته ، وهم يقولون له : يا رسول الله ، ادخل المدينة راشداً مهدياً . وكل منهم يتمنى أن يفوز بشرف ضيافته ، وكلما مر على بيت قال له أهلوه : ها هنا يا رسول الله ، هاهنا يا رسول الله .

---

(١) هذه أوصاف ذكرتها له السيرة .

(٢) وقيل إنه مكث عنده شهراً ، ولكن الأول أظهر .

ويرد الرسول عليهم بلطف قائلا وهو يشير إلى الناقة : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة .

ووصلت الناقة بيوت أخواله بنى مالك بن النجار ، فتعلقوا بخطامها قائلين : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك . أقم عندنا فلدينا العدد والعدة والمنعة . ولكنه عاد فقال فى دعة وهدوء : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة .

ومشت الناقة حتى بلغت بيت أبى أيوب الأنصارى فبركت أمامه ، وهناك كانت إرادة الله وعنايته ، وهناك كان اختيار الله وأمره ؛ ووقعت أكرم ضيافة عرفها التاريخ فى نصيب الرجل الطيب المبارك أبى أيوب الأنصارى ، والله يختص بفضله من يشاء من عباده .

وحينما نزل الرسول بيت أبى أيوب كان فى البيت طابقان : أرضى وعلوى ، فاختار الرسول أن ينزل فى الطابق الأرضى من البيت ، ولكن أبا أيوب قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنى أكره أن تكون تحتى ، وأكون فوقك ؛ ورجاه أن يصعد إلى الطابق الأعلى ، وأن ينزل أبو أيوب وزوجته إلى الطابق الأسفل ، فقال له الرسول : يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا (أى يزورنا) أن أكون فى سُفْل البيت .

فأطاع أبو أيوب ، ولكنه كان يجد فى نفسه غضاضة إذ يطأ سقفاً من تحته الرسول ، وكان إذا أراد هو وزوجته أن يناما انتحيا جانباً من الغرفة إلى جوار جدارها وناما ، حتى

لا يجعلا نفسيهما فى وسط السقف الذى يظل الرسول ، ولم يكن عليهما فى هذا العمل رقيب ولا شهيد ، وإنما هو الأدب النبيل ، والإجلال الصادق منهما لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

ثم حدث أن سال ماء من إناء فى حجرة أبى أيوب العلوية ، فسارع هو وزوجته يجففانه بقطيفة لهما ، خشية أن يتسرب شىء منه إلى حجرة النبى ، ثم عاد أبو أيوب فألح على النبى أن يصعد إلى أعلى ، فاستجاب له مقدراً هذا الشعور الرقيق العميق من أبى أيوب .

وإنما يختار الله بعلم ، ويختص لحكمة ، فأبو أيوب الأنصارى كان من السباقين إلى الخير ، وهو ممن بايع الرسول على الجهاد والاستشهاد مرتين ، فقد كان من طلائع الأنصار السبعين الذين بايعوا « بيعة العقبة » ، فصار ممن قال الله تعالى فيهم : [والسابقون السابقون ، أولئك المقربون] .

ثم كان من طلائع المجاهدين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيعة الرضوان » فى غزوة الحديبية ، فصار من الذين قال الله تعالى فيهم : [إن الذين يُبايعونَك إنما يبايعون الله ، يدُ الله فوقَ أيديهم ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِه ، ومن أوْفَى بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسيؤْتيه أجراً عظيما] . وقال فيهم أيضاً : [لقد رضِىَ اللهُ عن المؤمنين

إذ يبايعونك تحتَ الشجرة فعَلِمَ ما فى قلوبهم فأَنزلَ السكينةَ عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانمَ كثيرةً يأْخذونها وكان اللهُ عزيزًا حكيما] .

وآخى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بين أبى أيوب الأنصارى ومصعب بن عمير ، ومصعب هو أول مبعوث فى الإسلام ، وأول سفير للرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد أرسله قبل الهجرة إلى المدينة ليعلم المسلمين فيها القرآن ومبادئ الإيمان .

وبدأت سلسلة المعارك والغزوات بين عبادِ الرحمن وجنود الشيطان ، وكان أبو أيوب فيها سباقاً إلى مواطن الهول ، باحثاً عن الشهادة ، يتطلبها ويسعى إليها ، وتألقت خطواته وضرباته فى غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وجميع المشاهد الأخرى ، وكان له شعار يردده ويؤكده ، ويطبقه ويؤيده .

وهذا الشعار هو قول ربه عز من قائل : [انفِرُوا خِفَافاً وثِقالا ، وجاهِدوا بأَموالكُم وأنفسكُم فى سبيل الله ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون] .

وكان فى كل مرة يتلو فيها هذه الآية — وما أكثر تلاوته لها — يقول عن نفسه : « لا أجدنى إلا خفيفاً أو ثقيلا » أى لا بد لى من الجهاد على أى حال ، لأن معنى قوله تعالى :

[انفروا خفافاً وثقالا] هو كما ذكر المفسرون : اخرجوا إلى الجهاد عند وجوبه : شباباً كنتم أم شيوخاً ، كثرة كنتم أم قلة ، ركباناً كنتم أم مشاة ، موسرين كنتم أم معسرين .

وأنعم بذلك الاستنفار من نداء إلهى كريم تتفتح بالاستجابة الصادقة له أبواب الحرية والعزة والكرامة ؛ ولذلك قال صفوان ابن عمر : « استنفرنا الله خفافاً وثقالا ، ومن يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده ويبقيه ، وإنما يبتلى الله من عباده من صبر وشكر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل » .

وظل أبو أيوب الأنصارى يواصل الجهاد ، ويواجه الخطر ، ويبحث عن الشهادة ، ويحرص على الموت فتوهب له الحياة ، ووقف مناضلا مقاتلا إلى جانب الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ، وشهد معه « موقعة الجمل » و « موقعة صفين » و « موقعة يوم النهروان »[1] ، وثبت على وفائه للإمام على حتى لحق الإمام بربه ، وبقى أبو أيوب يتطلب أى ميدان يندفع إليه ليقاوم فيه البغى والطغيان ، أو ينشر فيه كلمة الحق والإيمان ، وكأن الله جل جلاله لم يخلقه إلا ليكون حليف سلاحه وقرين جهاده ، ليظل مدافعاً عن الحرمات والمقدسات ، ونصيراً للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .

---

(١) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ، من الجانب الشرقى ، حدها الأعلى متصل ببغداد .

وحينما علم بخروج الجيش الإسلامى المحرِّر إلى بلاد الروم ليخوض معركة القسطنطينية — وهى إصطمبول [١] الآن — سارع بالانضمام إليه ، وغزا فيه ما غزا ، لا يريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، ولا يبتغى جاهاً ولا متاعاً ، وإنما هو يبتغى ما عند الله والدار الآخرة ، ولذلك يجاهد من أجل الحق والعدل والإيمان .

وأصيب أبو أيوب فى المعركة ، وجاءه القائد يعوده وقال له : ما حاجتك يا أبا أيوب ؟ فلم يذكر أبو أيوب متعة من متع الدنيا ، ولا منفعة من منافع الحياة ، ولا عرَضاً من أعراض الناس ، بل قال له : إذا أنا مت فاركب بى ، ثم سغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغاً ، حتى إذا لم تجد مساغاً فادفنى وارجع (أى احمل جثتى ، وادخل بها فى أرض العدو إلى أبعد ما تستطيع ، وادفنى هناك) .

ثم قال له : أقرئ الناس منى السلام ، ولينطلقوا بى فى أرض العدو ، وليبعدوا ما استطاعوا ، وهناك فادفنونى .

وكأنه أراد بوصيته هذه أن يعلق أبصار رفاقه وهممهم ببلوغ الغاية الكبرى ، وتحقيق النصر الواسع ، فأراد أن يتوغل قومه بجثمانه إلى أبعد مكان ممكن من الأرض التى ينزل فيها العدو ، ويدفنوه فيه ، تطلعاً منه إلى يوم النصر ، ورغبة عنده فى أن يكون جثمانه طليعة للمجاهدين المظفرين من ورائه ، وكأنه

---

(١) هكذا رسمها ياقوت فى معجم البلدان .

يريد أن يقول لربه يوم لقائه : يا إلهى ، هأنذا قد جاهدت فى سبيلك بحياتى ، وجاهدت فى سبيلك بجثتى بعد مماتى .

وأسلم أبو أيوب إلى بارئه آخر أنفاسه ، ودُفن إلى جوار سور القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين للهجرة[1] ، وحاول بعض الناس إخفاء قبره ، ولكن عارفى فضله وجهاده عرفوه وأظهروه ، وتلمسوا البركة من حوله ، وكأنهم حينما يقفون أمام قبره ، ويسترجعون تاريخه العاطر الباهر ، يخيل إليهم كأن المكان من حوله تحف به نسمات طاهرة مباركة ، وكأن الهواء هناك يرق ويشف ، وكأن الأرض تشرئب بأعناقها لتشرف بلقاء السماء ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولا عجب فقد نشأ مجاهداً ، وعاش مجاهداً ، ولقى ربه مجاهداً ، والجهاد فى سبيل الله — عند وجوبه — أفضل الأعمال ، حتى قال الرسول : « إن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة (أى مقدار حلبها) وجبت له الجنة » .

ولقد سئل النبى : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « إيمان لا شك فيه ، وجهاد لا غلول فيه ، وحجة مبرورة » . وأبو أيوب كان يفهم أن ترك الجهاد سبب الخسار والبوار ، حتى روى

---

(١) وقيل إنه توفى سنة خمسين ، وقيل سنة إحدى وخمسين ، ولكن المشهور أنه توفى سنة اثنتين وخمسين .

أبو داود فى سننه عن أسلم أبى عمران قال :

غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه (أى : اكفف اكفف) . ثم قالوا متعجبين منه : لا إله إلا الله . يلقى بيديه إلى التهلكة !

فقال أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه : إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأظهر الإسلام ، قلنا : هلم نقيم فى أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد . فأنزل الله تعالى : [وَأَنفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ ولا تُلقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ] فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أسلم أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ! . .

ومع هذه الحياة الفدائية المناضلة كان أبو أيوب يعطى ناحية الفقه والدين حقها من العناية والرعاية ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وخمسين حديثاً . ومما أوصاه به الرسول قوله : « إذا صليت فصل صلاة مودع ، ولا تتكلم بكلام تعتذر منه ، والزم اليأس مما فى أيدى الناس » .

وهكذا حرر أسلافنا أنفسهم وبلادهم ، فلما كسبوا

العزة فى ديارهم لم يستأثروا بنعمتها ، بل خرجوا ينشرون أضواءها فى كل مكان استطاعوا بلوغه ؛ وما أوسع المسيرة التى قطعوها فى هذا المجال، فبأى وجه يلقى الأخلافُ أسلافهم إذا سكت الأخلاف على المذلة أو رضوا بالهوان ؟ !

إنَّ فى ذلكَ لذكرى لمنْ كانَ لهُ قلْبٌ أَو أَلْقى السمعَ وهو شهيد .

الفدائى الصبور

عبد الله بن حذافة السهمى

إن العمل الفدائى البطولى من شأنه أن يمضى فى طريقه مناضلا ، ليظل همزة الوصل بين جهاد سابق وجهاد مأمول ، حتى يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده ، والفدائيون من شأنهم أن يحملوا أرواحهم على أكفهم ، وينطلقوا نحو أقدارهم ، فنهم من يحقق غرضاً ، ويعود ليبقى مرابطاً فى انتظار جولة أو جولات ، ومنهم من يذوق الشهادة ، ويمضى بها إلى ربه هانئاً سعيداً ، ومنهم من يقع فى الأسر ، ويتعرض للتعذيب والإهانة ، وسوء المعاملة من الأعداء ، فيصبر ولا يستسلم .

وهذا مجاهد كريم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يناضل فيصدق فى النضال ، ويذوق مرارة الأسر فلا يلين ولا يهون ، بل يثبت ويصبر ، ويضرب مثلا رائعاً فى الاحتمال وحسن الاحتيال لتحقيق الخير للإسلام والمسلمين .

إنه الصحابى الجليل عبد الله بن حذافة السهمى رضى الله عنه ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام : [والسَّابِقُونَ السَّابِقُون أُولئِكَ المقَرَّبُونَ ، فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ من الأَوَّلين ، وقليلٌ من الآخرين] . وكان من المهاجرين إلى الحبشة وشاركه

الرحلة أخواه : قيس وخُنيْس ، وشهد غزوة بدر ، فكان من الذين قال فيهم الصادق المصدوق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم ، فإنى قد غفرت لكم » .

وظل مجاهداً مناضلا فى رحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى اختاره ليكون مبعوثه إلى كسرى ملك الفرس . ليدفع إليه بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ويقول له فيما يقول : « أدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان حيًّا ، ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » يعنى أهل فارس لأنهم يعبدون النار .

ووصل عبد الله بن حذافة قصر كسرى ، وطلب مقابلته ليقدم إليه الكتاب ، فأراد بعض الحاشية أن يأخذ منه الكتاب ليسلمه — أو ليرفعه — إلى مولاه كسرى ، فأبى عبد الله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أسلم الكتاب بيدى إلى كسرى نفسه .

وبعد تمنّع ومراجعة أدخلوه على كسرى ، فأقبل نحوه بلا خوف ولا وجل ، وبلا تقيد بأوضاع كانوا يلتزمونها عند لقاء كسرى ، وكلها تدل على تجبر الحاكمين المتألهين فى المحكومين المستضعفين ، ومد عبد الله يده بالكتاب إلى كسرى ، وكأنه يقول له : خذ ، هذا لك ، فتسلم كسرى منه الكتاب ،

وأعطاه لمن يقرؤه ، فإذا فى أوله : « من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى كسرى عظيم فارس » ، فكبر على كسرى أن يذكر اسم الرسول قبل اسمه ، فأخذ الكتاب من يد قارئه غاضباً ، ومزقه قبل أن يعلم ما فيه .

ومع أن عبد الله بن حذافة رجل غريب وحيد ، وفى داخل عرين الأسد المتوحش الهائج ، ومن حوله الجنود والحراس ، والخدم والحشم ، لم يخف ولم يفزع ، بل لعل نور الحق أضاء فى جوانب فؤاده ، فأدرك أن نهاية هذا الطاغية قريبة ، ما دام يندفع فى تهوره ورعونته بهذه الصورة ؛ ولم يتحرك عبد الله من مكانه حتى أمر كسرى بإخراجه ليعود إلى بلاده .

ولما عاد وأخبر الرسول بما كان ، قال عليه الصلاة والسلام : « مزق الله ملكه » . وكانت دعوة أجراها القدر على لسان النبوة ، فما هى إلا أيام حتى لقى كسرى مصرعه على يد ابنه شيرويه ، كما تقول بعض مصادر التاريخ ؛ ويقال إن ابنته خلفته من بعده ، فلما بلغ ذلك النبى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

* * *

ومضت الأيام والأعوام ، وابن حذافة حيث هو من موقعه فى نصرة الإسلام ، وأقبل عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الذى مزق بكتائب الإيمان طغيان الأكاسرة ، وبغى القياصرة ؛ وقد جهز عمر أحد الجيوش إلى بلاد الشام ، ليحررها من طغيان

الروم المحتلين لها ، وكانت كلمة « الشام » حينئذ تطلق على سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن حذافة من جنود هذا الجيش ، وبذل فى الجهاد ما استطاع ، ثم وقع أسيراً مع جمع من إخوته وزملائه فى النضال والكفاح والسلاح ، وكان أسرهم فى بلدة « قيسارية » من أرض فلسطين المحتلة .

وأظهر عبد الله شجاعة أذهلت جنود الروم ، فحملوه إلى ملكهم ، فعرض الملك على عبد الله وسائل التأثير المختلفة ، ليخضع أو يخنع ، فلم تُجْدِ معه شيئاً .

عرض عليه أولا أن يعطيه الواسع الفسيح من العقار والديار على أن يترك دينه . فقال له ابن حذافة : والله لو أعطيتنى جميع ما تملك ما رجعت عن دينى طرفة عين .

فطالبه بأن يخبره بأسرار جيش المسلمين ، فأبى واستعصم ، فهدده الملك بالقتل ، فأجاب ابن حذافة : أنعِمْ بها من شهادة . فعلقوه على هدف كالمصلوب ، ثم أمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه ، ولكن الطود الشامخ الثابت الوطيد الإيمان واليقين ظل شامخاً راسخاً ، لم يخف ولم يفزع ، فحلوا وثاقه ، لينقلوه إلى لون آخر من ألوان التعذيب.

وهنا بكى عبد الله بن حذافة ،فظن أعداؤه أن الضعف قد أدركه ، ولكنه أفزعهم وأرعبهم حين قال لملكهم : « لا ترى أنى بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بى ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نفس واحدة ، يفعل بها هذا فى الله ؛ كنت أحب

أن يكون لى من الأنفس عدد كل شعرة فىّ ، ثم تسلّط علىّ ، فتفعل بى هذا » .

ثم حبسوه فى سجن انفرادى بلا طعام ولا شراب ، ولكنهم وضعوا بجانبه خمراً ولحم خنزير ، فمكث عبد الله ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، حتى بدا الضعف عليه ، ولما سألوه : لماذا لم تأكل من لحم الخنزير ولم تشرب من الخمر ؟ أجابهم بقوله : إن الضرورة تجيز لى هنا أن آكل من لحم الخنزير ، وأن أشرب من الخمر ، لان الله تعالى يقول : [فمن اضطُرَّ فى مَخْمَصَة غيرَ مُتجانِف لإثم فإن اللهَ غفورٌ رحيم] ولكنى كرهت أن تشمتوا بالإسلام .

وازداد إعجاب الملك الداخلى بشجاعة عبد الله بن حذافة ، فرمى إليه بآخر سهم فقال له : قبّل رأسى وأنا أطلق سراحك . ففكر عبد الله قليلا ، ثم أجاب بقوله : إن نفسى لا تعنينى ، ولكن إن أفرجت عن إخوتى الأسرى قبلت رأسك .

وفرح الملك المغرور ، فكل همه محصور فى أن يكلّف هذا الأسيرَ المارد العملاق بأى شىء يطيعه فيه ويعمله ؛ وبعد أن أخذ عبد الله المواثيق عليه قبّل رأسه ، فأفرج عنه الملك ، وأفرج له عن ثمانين أسيراً من المسلمين .

وعاد ابن حذافة معهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، فلما رآهم عمر فرح بهم فرحاً شديداً ، وحمد الله على نجاتهم ،

وكأنهم قد وُلدوا فى نظره من جديد ، وسألهم عن أخبارهم ، فقص عليه عبد الله بن حذافة ما حدث .

وهنا قال عمر لمن معه من المسلمين : حقٌ على كل مسلم أن يقبِّل رأس ابن حذافة، وأنا أبدأ . وسارع عمر بالنهوض، وأقبل على رأس بن حذافة يقبله تكريماً له ، وتابعه فى ذلك كل من حضر .

وشتان بين تقبيل وتقبيل ، فتقبيل ابن حذافة لرأس ملك الروم كان لوناً من الاحتيال لإطلاق سراح زملائه ، والحرب خدعة كما قال الحديث الشريف ، ولعله هم وهو يقبل رأس الطاغية أن يبصق عليه ، احتقاراً له ؛ وأما تقبيل عمر والمسلمين لرأس ابن حذافة فإنه تقبيل التكريم والتقدير والحب ، ولا عجب ، فقد شهدوا أمامهم مثلا من أمثلة البطولة الفدائية الصابرة التى خرجتها مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، ورأوا — باعتزاز وافتخار — كيف جمع عبد الله بن حذافة بين قوة النضال ، وطول الاحتمال ، وحسن الاحتيال[1] .

* * *

وتابع عبد الله نضاله ، فاشترك فى فتح الإسلام لمصر مع القائد عمرو بن العاص ، ولما استقر عمرو فى الفسطاط أرسل عبدَ الله بن حذافة إلى « عين شمس » ففتحها ، وتمكن منها ،

---

(١) وفوق هذا كله كانت فيه دعابة كما تقول السيرة .

وصالح أهل قراها ، ثم جعله عمرو حاكماً على الإسكندرية بعد فتحها ، وظل فى ذلك العمل حيناً من الزمن .

وبعد حياة طويلة جليلة مجيدة ضم ثرى مصر رفات عبد الله ابن حذافة السهمى رضى الله عنه ، لأن التاريخ يقول إنه مات فيها خلال خلافة عثمان بن عفان رضوان الله عنه . فليت هذا الثرى يذكّر أبناءه ببطولات أجدادهم ، وصفحات أمجادهم ، وحرمة بلادهم ، وتبعات جهادهم ، حتى يسير الأبناء على الدوام فى طريق الآباء ، فنرى من الخلف وراء السلف ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم .

فدائى بطبعه

محمد بن مسلمة الأنصارى

كلما قلبنا صفحات تاريخنا الإسلامى وجدنا فيه مزيداً من صور البطولة ، ونماذج التضحية والفداء ، وهذا واحد من هذه النماذج ، تعطر سيرته نجدةٌ وشهامة ، وتضحية وحب للشهادة ، وهو الصحابى الجليل أبو عبد الله محمد بن مسلمة الأنصارى الذى سارع إلى الإسلام حين عرفه ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح عقب الهجرة .

وشهد ابن مسلمة غزوة بدر والغزوات كلها ، وكان مشرفاً على حرس رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكان لديه استعداد واضح للعمل الفدائى المقدام ، فبعث به النبى فى سرية عددها ثلاثون مجاهداً إلى الإغارة على جماعة من الأعداء من بنى كلاب ، فسار محمد مع رفاقه بالليل ، وكمنوا فى النهار ، حتى بلغوا مكان أعدائهم ، ثم اندفع محمد ومن معه كالقدر العاجل ، فقتلوا عدداً من أعدائهم ، وهرب الباقون ، واستولى محمد بن مسلمة على ما وجده من الإبل والغنم ، وعاد بكل ذلك إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويروى أنهم أسروا فى هذه السرية ثمامة بن أثال زعيم أهل اليمامة ، فلما لقى ثمامة الرسول قال له : ما عندك يا ثمامة ؟

فقال : عندى يا محمد خير ، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال الرسول لأصحابه : أطلقوا سراح ثمامة .

وفعل هذا العفو المحمدى الكريم فعله ، فخرج ثمامة إلى مكان قريب فاغتسل ، ثم عاد إلى رسول الله وهو يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إلىّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحبّ الدين كله إلىّ .

واستقام ثمامة على الصراط ، فلم ينحرف عنه بعد ذلك حتى فارق الحياة ، عليه رضوان الله .

* * *

وفى ربيع الآخر من سنة ست للهجرة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى مهاجمة أعداء آخرين ، هم بنو ثعلبة فى مكان اسمه « ذو القصة »[1] ، وكان معه عشرة من المجاهدين فحسب ، فأحاط بهم مائة من أعدائهم الكافرين ،

---

(١) بين ذى القصة والمدينة أربعة وعشرون ميلا ، فى طريق الربذة .

واشتد القتال بين القلة المؤمنة والكثرة الكافرة ، ونال الشهادة زملاءُ محمد جميعهم ، وأصابته جراحة بليغة لم يستطع معها الحركة ، فحسب المشركون أنه قد مات أيضاً ، فتركوه وانصرفوا .

ومر أحد المسلمين على جثث هؤلاء الشهداء ، وبينهم محمد ابن مسلمة وهو حي جريح ، فحمله إلى المدينة بعد أن وارى الشهداء التراب ؛ وفى المدينة وعلى مقربة من رسول الله خير راع للأبطال الباذلين عولج محمد بن مسلمة حتى شفى من جراحه ، وما كاد يحس العافية فى جسمه حتى سارع من جديد بالعودة إلى ميدان الجهاد والفداء .

وفى تاريخ محمد بن مسلمة يتألق موقف رائع كذلك ، هو قتله لعدو الله ورسوله والمؤمنين : اليهودى اللئيم الخسيس كعب بن الأشرف ، وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة ، وكان كعب هذا يهودياً خبيثاً كرفاقه إخوة القردة والخنازير ، ولما سمع بانتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وأنهم قتلوا كثيراً من المشركين ، أكل قلبه الغيظ والحقد ، وقال : لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظاهرها !

وسارع بالذهاب إلى مكة ليتآمر مع المشركين ضد المسلمين ، وهناك قال له عبدة الأصنام والأوثان : أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه ؟ وأى دينينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟

فقال الأثيم الفاجر : أنتم أهدى منهم سبيلا .

وفى ذلك نزل قول الله تعالى : [أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغُوتِ ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أَهْدَى من الذين آمنوا سبيلاً ، أُولئك الذين لعنَهم اللهُ ، ومَنْ يَلْعَنِ اللهُ فلَن تجدَ له نصيراً] .

وأخذ الفاجر الداعر كعب بن الأشرف يرثى قتلى المشركين فى بدر ، وكان شاعراً ، ويحرض على قتال النبى والمسلمين ، ويتغزل فى نساء المؤمنين ، ويطعن فى أعراضهن الطاهرة ، وجعل يسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أفحش السباب ، ويتهكم بالإسلام وبالقرآن الكريم .

وكان لابد من جزاء رادع لذلك الفاجر ، فقال رسول الله : من لى بابن الأشرف ، فإنه يؤذى الله ورسوله والمؤمنين ؟ و يروى أن الرسول قال : « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت » ثم قال : « من لى بابن الأشرف فإنه آذانى » .

وسارع البطل الفدائى بطبعه : محمد بن مسلمة قائلا : أنا يا رسول الله ، أنا أقتله إن شاء الله .

فقال له النبى : فافعل إن قدرت على ذلك .

وأخذ محمد بن مسلمة يفكر : لقد أعطى رسولَ الله عهداً لابدَّ من الوفاء به مهما كان الثمن ، ولكن كيف السبيل إلى كعب وهو متحصن بحصنه وسلاحه ؟ ومضت ثلاثة أيام

لا يذوق فيها ابن مسلمة طعاماً ولا شراباً ، إلا ما يمسك عليه الرمق ، ولما علم الرسول بذلك قال له : لم تركت الطعام والشراب ؟

فأجاب : يا رسول الله ، لقد قلت لك قولا لا أدرى أ أفى لك به أم لا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليك الجهد (أى لا تكلّف إلا وسعك) .

فأخبره ابن مسلمة بأنه سيستعين ببعض زملائه ، وأنهم سيعمدون إلى الحيلة فى مهمتهم ، ثم قال للرسول : إنه لا بد لنا أن نقول (أى نقول فيك بعض ما لا نعتقد أمام كعب حتى نستدرجه ، والحرب خدعة) .

فقال له الرسول : قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حل ، ثم دعا لهم فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم .

وذهب محمد بن مسلمة مع بعض رفاقه إلى زيارة كعب متظاهرين له بأن دعوة محمد قد سببت لهم امتحاناً شديداً ، وعداوة مع الناس ، وأنهم جاءوا ليأخذوا منه طعاماً ، فاشترط عليهم أن يكون ذلك برهن .

واتفق معهم على أن يكون الرهن هو سلاحهم ، فتظاهروا بالموافقة ، ثم استدرجه ابن مسلمة حتى أنزله من حصنه ، وابتعد به عن الحصن ، ثم هجم عليه ، وقتله بمعاونة من معه ، وعاد معهم إلى المدينة ، فلما رآهم الرسول قال : أفلحت الوجوه .
فقالوا : ووجهك يا رسول الله !

وكان ذلك على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة .

وكان هذا العمل البطولى الفدائى سبباً فى بث الطمأنينة فى صدور كثير من المسلمين ، وفى بعث الفزع فى نفوس كثير من اليهود المجرمين ، ولذلك قال محمد بن مسلمة عقب ذلك : « ورجعنا إلى أهلنا ، فأصبحنا وقد خافت يهود ، لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها (أى المدينة) يهودى إلا وهو يخاف على نفسه » .

ولكن ليس معنى هذا أن اليهود قد ارتدعوا عن باطلهم ، أو رجعوا عن ضلالهم ، بل زادوا فى الأرض مكراً وإفساداً ، وتبجحوا تطاولا وعناداً ، وهذا يهودى آخر اسمه « مرحب » يقتل شقيق محمد بن مسلمة ، ويفاخر بقوته وطغيانه ، حتى يرفع صوته الأثيم قائلا :

قد علمت خيبر أنى مرحبُ ... شاكى السلاح بطل مجرب
إذا السيوف أقبلت تلهب ... أطعن أحياناً ، وحيناً أضرب

وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى مرحب : من لى بهذا ؟

فسارع محمد بن مسلمة يقول : يا رسول الله ، أنا له يا رسول الله ، فأنا والله الموتور الثائر ، فقد قتل أخى بالأمس .

فقال له النبى : قم إليه .

وقام إليه البطل الفدائى فصارعه وقاتله حتى قتله .

وحينما استشرى بغى هؤلاء اليهود وطغيانهم ، أباح

الرسول للمسلمين الفتك بكل عدو منهم ، فقال : « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » .

وهل جزاء العدوان إلا العدوان ؟ ولذلك يقول القرآن :

[فمن اعتدَى عليكم فاعْتَدُوا عليه بمثل ما اعتدَى عليكم ، واتَّقُوا اللهَ ، واعلموا أن اللهَ مع المتقين] .

* * *

وتوالت الأيام وراء الأيام ، ولحق الرسول بربه — عليه الصلاة والسلام — وظل محمد بن مسلمة ثابتاً على عهده ، مجاهداً مناضلا لا يهاب الموت .

ثم وقعت الفتن بين المسلمين ، وحدث بينهم ما حدث من خلاف وشقاق ، وصار بأسهم بينهم شديداً ؛ وهنا تذكر محمد بن مسلمة أن رسول الله أعطاه ذات يوم سيفاً ، وقال له : « قاتل به المشركين ما قاتلوا ، فإذا رأيت أمتى يضرب بعضهم بعضاً ، فأت به أحداً (يعنى جبل أحد) فاضرب به حتى ينكسر ، ثم اجلس فى بيتك ، حتى تأتيك يد خاطئة ، أو منية قاضية » .

فخاف ابن مسلمة من الفتنة ، فاعتزل الناس ، وأقام البقية الباقية من حياته فى قرية « الربذة » التى مات فيها أبو ذر الغفارى ، ولعله كان يتذكر حينئذ وصية الإمام على لأبى ذر التى يوصيه فيها بالرضى بالله ، والصبر على طاعته .

ومات محمد بن مسلمة فى صفر سنة ثلاث وأربعين للهجرة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة . رضوان الله على الجميع .

الأسد في براثنه

سعد بن أبي وقاص

الحياة عقيدة وجهاد ، أو إيمان وعمل ، أو معرفة وسلوك ، ومن أهم عوامل التوفيق الإلهي في هذه الحياة أن ينظر الإنسان فيدرك ، ثم يعتقد ويؤمن ، ثم يخلص لإيمانه ولمبادئه ، فيلتزمها ويدعو إليها ويدافع عنها ويضحي من أجلها ، ويحقق لها صورة عملية في قوله وفعله وتفكيره ، وسائر تصرفاته وتحركاته .

فإذا صفا منه القلب ، وطاب القول ، وصلح العمل ، واستقام السلوك ، فقد أصبح موصول الأسباب بالله جل جلاله ، يتقبل منه عمله ، ويستجيب دعاءه .

ولقد ضرب لنا أجدادنا المؤمنون أروع الأمثال في هذا المجال ، ومنهم فارس الإسلام ، البطل الفدائي ، المجاب الدعوات ، الرشيد الخطوات : سعد بن أبي وقاص الزهري رضي الله عنه ، فقد كان سابع سبعة بادروا إلى الإسلام في أول البعثة النبوية ، وعمر دنياه بالإخلاص والطاعة والشجاعة والجهاد الصادق في سبيل الله ، حتى استحق أن يكون أحد العشرة المبشرين بالجنة من رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ، ومات وهو راضٍ عنهم ، وأحد الستة الذين رشحهم

عمر بن الخطاب ليختار المسلمون أحدهم للخلافة من بعده ، بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى .

وكان سعد أول من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ، فكان بذلك أول من أراق دماً للكفر الباغى والشرك الطاغى ، فقد روت السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه فى السنة الأولى للهجرة سرية يقودها عبيدة بن الحارث ، إلى « رابغ » . وكان سعد فى هذه السرية ، فلما التقى أفراد السرية بأعدائهم سارع سعد فانتزع سهماً من جعبة سهامه ورمى به ، فأصاب واحداً من الأعداء ، وأدخل ذلك الفزع عليهم فتراجعوا . وحقق المسلمون ما أرادوا ، وفى ذلك يقول سعد مفاخراً :

ألا هل جا رسول الله أنى حميت صحابتى بصدور نبلى
فما يعتد رام من معـــد بسهم معْ رسول الله قبلى

ولقد كان سعد بارعاً براعة واضحة فى تسديد السهام ، وإصابتها أهدافها بدقة ، ويروى أنه حدث فى غزوة الخندق أن رجلا من المشركين أكثر من رمى السهام جهة المسلمين ، فتناول سعد سهماً وسدده إليه ، فأصابه فى جبهته ، فخر صريعاً ، فضحك النبى حتى بدت نواجذه من إصابة سعد المسددة .

وواصل سعد الوقوف إلى جوار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى الغزوات والمعارك ، يحمل روحه على راحته ، ويقدمها فى كل موطن من مواطن البذل والفداء لنصرة دين الله وإعزاز كلمته .

وفى اليوم العصيب الشديد : يوم غزوة أحد ، ضرب سعد ابن أبى وقاص مثلا رائعاً فى الثبات والإقدام والإخلاص، فضل يقاوم ويدافع ويفتدى الرسول بنفسه ، والرسول يقدر له بطولته ، ويذكرها ، وينوه بها ، فيقول لسعد : « ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّر» أى الفتى الشديد القوى .

ويالها من مكرمة ينالها سعد عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حينما يقال له من فم النبوة الطاهر هذا التعبير الباهر ، ولذلك قال الإمام على بن أبى طالب : « ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أبويه (فى التفدية) لأحد غير سعد ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحَزَوَّر » ! .

ولقد كان عند سعد استعداد واضح للعمل الفدائى بجرأة وشجاعة ، ولذلك أشركه الرسول بعد الهجرة فى أكثر من عمل فدائى ، وحدث قبل غزوة بدر أن جعله النبى قائداً لسرية قوامها عشرون مجاهداً من المهاجرين ، وعقد له لواءً ، وكلفه معهم بمهمة ، فأقبل سعد ومن معه على تنفيذها كما كلفهم الرسول فى دقة واحتياط ..

ومما يدل على هذا الاستعداد عند سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع المسلمين فى وقت فزع وخطر ، فقال ذات ليلة : « ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة » ، وما كاد الرسول يتم عبارته ، حتى سمع خشخشة سلاح ، فسأل : من

هذا ؟ فأجابه سعد وهو على مقربة منه : أنا سعد بن أبى وقاص يا رسول الله ، جئت أحرساك .

ولقد كان سعد أحد الأبطال الأوائل الذين طهروا أرض العرب من الشرك والضلال والاحتلال ، ثم حرروا الناس من جرائم الكسروية ومآثم القيصرية ، وكان قائد الجيش الذى هزم الفرس وأعداء العرب والمسلمين فى معركة القادسية ، وفتح العراق ، ولذلك يوصف سعد فى التاريخ بأنه « فاتح العراق » .

ولقد أسرف الفرس قديماً فى بغيهم وعدوانهم حتى فكر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فى أن يخرج إليهم بنفسه قائداً لجيش التحرير الإسلامى ، ولكن بعض من حوله من الصحابة رأوا أن تلك مخاطرة لا تحوج إليها الضرورة ، وأصروا على أن يقود الجيش قائد سواه ، فطلب منهم أن يختاروا ذلك القائد ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : « لقد وجدته يا أمير المؤمنين ، إنه الأسد فى براثنه ، إنه سعد بن أبى وقاص » !

واستراح الفاروق إلى هذا الاقتراح ، وشرع فى تنفيذه . وكان سعد حينئذ أميرًا على هوازن ، فاستدعاه الخليفة ، وأسند إليه قيادة الجيش ، وأوصاه وصية رائعة ، قال له فيها :

« يا سعد ، إنى قد وليتك حربَ العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، ولا يغرنك من الله

أن قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه[1] ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسبٌ إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربُّهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

فانظر الأمر الذى رأيتَ النبى صلى الله عليه وسلم عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا ، فالزمه ؛ هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنتَ من الخاسرين » !

ومضى سعد يسدد مع جيشه الضربات إلى أعداء الله وأعداء عباد الله ، فكأنه يد القدر سلطها رب القضاء والقدر على من أكثروا فى الأرض الفساد ، وطغوا بين العباد ، وحينما أصاب المرض سعداً والمعركة دائرة ، لم يركن إلى الراحة والهدوء ، وإنما أقيم له عريش مرتفع ليقود المعركة منه وهو لا يستطيع الركوب ولا الوقوف ولا الجلوس ، فكان ينحنى على حافة العريش ويوجه الجنود فى المعركة .

وأمر سعد قارئ الجيش بأن يقرأ فى أثناء المعركة « سورة الأنفال » لأنها سورة القتال ، وسورة الحث على الجهاد حتى الاستشهاد ، وسورة الحض على البذل والفداء ، ففيها مثلا قول الله جل جلاله : [إذ يُوحى ربُّك إلى الملائكة أنِّى

---

(١) سعد من قبيلة بنى زهرة وهم أخوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد روى أن النبى فاخر بسعد فقال : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » !

معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعبَ ، فاضربوا فوقَ الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بنان] وقوله : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبارَ ، ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ، ومأواه جهنمُ وبئس المصير] . وقوله : [وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله، فإن انتهوْا فإن الله بما يعملون بصير] . وقوله : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتُوا ، واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تفلحون وأطيعوا اللهَ ورسوله ، ولا تنازعُوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكُم ، واصبروا إن الله مع الصابرين] .

* * *

ومع هذه الصرامة الحازمة فى سعد كان يحمل فى صدره قلباً نقياً طهوراً ، لا يعرف حقداً ولا حسداً ، ولقد حدث ذات يوم أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام لصحابته : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . وتطلع الصحابة فإذا سعد مقبل ، ولما سأله عبد الله بن عمرو بعد ذلك عن السبب فى

استحقاقه هذه البشرى ، أجابه سعد بقوله : لا شيء أكثر مما نعمل ونعبد ، غير أنى لا أحمل لأحد من المسلمين ضغناً ولا سوءاً .

وكان سعد يفتدى دينه بأغلى الأشياء لديه ، وقد يشير إلى هذا أنه حينما أسلم ، وكانت أمه على شركها ، قالت له غاضبة : يا سعد ، ما هذا الدين الذى قد أحدثته ؟ لتتركن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فيعيرك الناس بى ، ويقولون لك : يا قاتل أمه .

فقال لها سعد : لا تفعلى يا أماه ، فإنى لا أترك دينى هذا لشيء .

فأضربت عن الطعام والشراب حتى ضعفت فجاءها فقال لها فى عزم وتصميم : يا أماه ، والله لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى ، فإن شئت فكلى ، أو لا تأكلى .

فلما رأت منه الجد أكلت . وفى هذه الحادثة وأمثالها نزل قول الله تعالى : [وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بوالديه ، حملته أُمُّه وَهْناً على وهنٍ ، وفِصالُه فى عامين ، أن اشكرْ لى ولوالديك إلىَّ المصير ، وإن جاهَدَاك على أن تُشْرِكَ بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما ، وصاحِبْهما فى الدنيا معروفاً ،

واتّبع سبيلَ من أنابَ إلىَّ ، ثم إلىَّ مرجعُكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون] .

* * *

وسعد المؤمن المجاهد الذى شهد الغزوات والمعارك ، وجاهد فى سبيل ربه هنا وهناك ، وقام بالأعمال الفدائية ، لم يكن يرتزق من الحرب ، أو يقتصر على القتال ، بل كان يعمل وينتج ويكسب ، وبجهده وجده واجتهاده وإخلاصه استطاع أن ينال الكثير الطيب النظيف من الكسب ؛ فهو إذن يجمع بين الإيمان الوطيد ، والعمل المجيد ، والجهاد المشكور ، والكسب الطهور .

ثم يضيف إلى ذلك كله بذلا وكرماً ، وشهامة وأريحية ولقد بلغ من حبه للعطاء أن ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى أن يتبرع بثلثى ماله ، فأبى النبى ، فقال سعد : فبنصفه ؟ . فأبى النبي . فقال سعد : فبثلثه ؟ فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « نعم ، الثلث والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك » .

والمهم هنا هو أن نتذكر أن سعداً الذى حاز ما حاز من المال والثروة لم يقبل لنفسه يوماً من الأيام أن يتطرق إلى ملكه

أى كسب خبيث ، أو متاع فيه ريبة أو شبهة ، وإنما هو العمل المصحوب بالجد والمداومة ، المغسول بالعرق يتصبب من جبينه الطاهر ، حتى إن سعداً يستطيع أن يؤكد أنه لم تصل جوفه لقمة من مال حرام فى يوم من الأيام ، وبذلك التطهر والتحرز والاحتياط من أخذ أى حق لسواه ، بارك الله جل جلاله فى قليله فصار جليلا ، وفى صغيره فأصبح كثيراً غزيراً ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم .

وإذا كان لكل عمل جزاء ، ولكل مجهود تقدير ، ولكل بطولة تكريم ، فما يكون تكريم سعد على إيمانه وإخلاصه ، وجهاده ونضاله ، وشهامته وكرمه ؟

إن جزاءه الطيب عند الله موكول إلى فضل الله الذى لا يحد ، وعطائه الذى لا يعد ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يزين حياة سعد بمكرمة تدل على طهارة نفسه ، وسمو قلبه ، وعلو مكانته عند ربه ، فدعا له قائلا : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » . وقال أيضاً : « اللهم سدد سهمه ، وأجب دعوته » .

واستجاب السميع العليم لنداء رسوله ورجائه ، فما دعا سعد ربه يوماً إلا استجاب دعاءه . ولقد سمع سعد رجلا فاجراً يسب الإمام عليا وطلحة والزبير ، فنهاه عن ذلك فلم ينته ، بل قال مستخفاً به : يتهددنى كأنما يتهددنى نبى . فدعا سعد وقال : اللهم إن كنت تعلم أنه سب أقواماً قد سلفت لهم منك سابقة ،

وأسخطك سبه إياهم ، فأره اليوم آية تكون للعالمين .

ولم يمض إلا قليل حتى عدت عليه ناقة شاردة ، فوطئته فمات من إصابته : [إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ] .

وامتدت حياة سعد بن أبى وقاص ، وطالت حتى تجاوز الثمانين من عمره ، ولكنه طول فى الخير ، وامتداد فى عمل البر ، فقد ظل على صفاته التى باهى بها المسلمون ، وتمناها المتمنون ، فهو ممن صدق فيهم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

وحينما حضرته الوفاة تذكر أن خير ما يعتز به المؤمن عند الله تعالى هو ما قدم من طاعة وجهاد ، وكانت عند سعد عباءة قديمة من صوف ، فلما أحس بالموت قال لأهله : كفنونى فيها ، فإنى كنت قد لقيت المشركين يوم بدر وهى على ، وإنما كنت أخبؤها لهذا .

رضوان الله على الأسد فى براثنه ، الفارس المجاب الدعوات!

الفدائى الفقيه
عبد الله بن أنيس

إن العمل الفدائى لا يفلح ولا ينجح إلا إذا نهض على دعامتين هما : الإيمان الدينى العميق ، والنضال الثابت الرشيد ، لأن الفدائى يحمل روحه على راحته ، ويمضى بها نحو غايته ، فإما نصر وإما شهادة ، والمنية لديه أخف من الدنية ؛ ولذلك كان شعار العمل الفدائى المعاصر : إنا فدائيون ، نفنى ولا نهون . وكأنهم فى هذا الشعار قد لحوا قبساً من نور الله جل جلاله الذى يقول :

[ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، إن كنتم مؤمنين] .

ولو رجعنا إلى صفحات الفدائيين فى تاريخ الإسلام لوجدناهم قدوة فى ثبات العقيدة وتوطد الإيمان ، ولوجدناهم أمثلة للإقدام والثبات فى الميدان .

وهذا واحد منهم ، نراه سباقاً إلى الإسلام ، معتصما بعزة الله التى لا تضام ولا ترام ، متعرضاً لمواقف البأس والحمام ، وهو الصحابى الجليل : أبو يحيى عبد الله بن أنيس بن حرام القضاعي الأنصارى ، حليف بنى سلمة من الأنصار ، وهو جدير بأن يدار عنه الحديث أكثر من مرة ، لأنه تعود إظهار الروح الفدائية منذ وقت مبكر فى حياته .

وقد شهد بيعة العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار الذين قدموا مكة من المدينة ، وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم . وكانت هذه البيعة فى جوف الليل ، وفى مكان خفى مستور ، ومن حوله أخطار ، وقد تسللوا إليها كتسلل القطا مستخفين ، حسبما عبرت السيرة العطرة نفسها ، وهذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول لهم وقد اجتمعوا اجتماعهم السرى : « ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم » .

ومن هذا نفهم أن الإقدام على هذه البيعة كان فيه لون من الخطورة ، وكان نوعاً من العمل الفدائى .

وبعد أن أسلم عبد الله بن أنيس أخذ يقدم على أعمال فدائية جزئية متوالية ، فهو لا يبالى بجموع المشركين ، ولا بسلطانهم ، بل كان يهجم على أصنامهم مع معاذ بن جبل وغيره ، فيحطمون منها ما يحطمون ، ويلوثون منها ما يلوثون ، ليشعروا المشركين بضلالهم وفساد عقولهم .

ومن الأصنام التى سخروا بها صنم لعمرو بن الجموح الذى كان حينئذ مشركاً ، فكانوا يأتون ليلا إلى هذا الصنم ، ويقذفون به وسط مجمع القاذورات ، بعد أن يجعلوه منكساً على رأسه . وفى الصباح يأتى عمرو فيجده ملوثاً ، فيأخذه وينظفه ويقول : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينّه .

وتكرر هذا أكثر من مرة ، فأخذ عمرو سيفاً ، ووضعه فى عنق الصنم ، وقال له كأنه يسمع أو يعقل : إنى لا أعلم من يفعل بك هذا ، فإن كان فيك خير فامنع نفسك ، وهذا هو السيف معك .

فجاء معاذ وعبد الله ومن معهما ، ونزعوا السيف من رقبة الصنم ، وربطوا مكانه كلباً ميتاً ، وألقوا الصنم فى مجمع القاذورات ، وأصبح الصباح ، وجاء عمرو فرأى ما رأى ، فأدرك وتدبر ، وعلم أنه كان على ضلال وخبال ، حينما عبد ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يدفع عن نفسه سوءاً ، وهداه الله تعالى إلى نور الإسلام .

وبعد حين بعثه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى سرية فدائية وحده ، لكى يقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى العنزى عدو الله ورسوله والمؤمنين ؛ وأتم عبد الله مهمته ، وعاد فرحاً إلى الرسول الذى قال له حين رآه : أفلح الوجه .

ثم أعطاه النبي مخصرة[1] — أى عصا — فلما لقى بها الناس قالوا له : ما هذه ؟ فأجابهم : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى أن أمسكها عندى . قالوا له : أفلا ترجع إليه فتسأله لم ذلك ؟

---

(١) المخصرة ما يمسك به الإنسان فى يده من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب ، وقد يتكئ عليه (النهاية) .

ورجع عبد الله إلى النبي وقال له : يا رسول الله ، لم أعطيتني هذه العصا ؟

فقال : « هي آية بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ » . فحفظها عبد الله مربوطة بسيفه حتى مات فدُفنت معه ، ولذلك كان يقال لعبد الله بن أنيس : « صاحب المخصرة » . .

وقد يطيب لنا أن نؤكد هذا الحادث فنسمعه من فم عبد الله بن أنيس نفسه ، قال :

« دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نُبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعُرنة ، فائته فاقتله . قلت : يا رسول الله ، انعته لي حتى أعرفه .

قال : إذا رأيته وجدت له قشعريرة .

فخرجت متوشحاً سيفي حتى وقعت عليه وهو بعُرنة مع ظُعن (نساء في الهودج) يرتاد لهن منزلا ، وحين كان وقت العصر ، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من القشعريرة ، فأقبلت نحوه ، وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشي نحوه ، أومئ برأسي للركوع والسجود .

فلما انتهيت إليه قال : من الرجل ؟ قلت : رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك . .

قال : أجل أنا فى ذلك .

فمشيت معه شيئاً ، حتى إذا أمكننى حملت عليه السيفَ حتى قتلته ، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه .

فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآنى قال : أفلح الوجه . قلتُ : قتلتهُ يا رسول الله . قال : صدقت . ثم قام معى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل فى بيته فأعطانى عصا ، فقال : أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس .

فخرجت بها على الناس فقالوا : ما هذه العصا ؟ قلت : أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرنى أن أمسكها . قالوا : أوَلا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله عن ذلك ؟ فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، لم أعطيتنى هذه العصا ؟ قال : آية بينى وبينك يوم القيامة ، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ » .

ثم ها هوذا عبد الله يخرجه رسول الله خامس خمسة من المناضلين الفدائيين الأبطال أصحاب رسول الله ، ليدخلوا بين اليهود البغاة ، حتى تقيلوا المجرم الأثيم أبا رافع سلام بن الحقيق الذى اشتط فى عداوة الرسول ، وتأليب المشركين عليه ، وإعطائهم المعونات ليستطيعوا بها مقاتلة النبى وأصحابه .

واحتال عبد الله وصحبه، حتى اقتحموا الحصن على اليهودى الخسيس أبى رافع ، وعاجاوه بطعنات سيوفهم ، وأجهز عليه عبد الله بن أنيس، ولقد صاحت امرأة اليهودى عند دخولهم ،

وكاد يفتضح أمرهم ، وهم أحدهم بضربها بسيفه ، ولكنه تذكر أن الرسول نهاهم عن الاعتداء على النساء والأطفال ، ، فأمسك يده .

وبعد أن أتموا مهمتهم عاجلوا بالعودة إلى رسول الله وأخبروه وكادوا يختلفون فى تحديد من أجهز على عدو الله . فقال لهم الرسول : أرونى سيوفكم ، فأروه إياها ، فقال مشيراً إلى سيف عبد الله بن أنيس : هذا قتاه .

فزاد سرور عبد الله بهذا الإنصاف النبوى الكريم .

* * *

ولم يكن هذا العمل الفدائى المتواصل من عبد الله بن أنيس — رضى الله عنه — قائما على قوة العضلات ، وجراءة القلب ، وقوة العزم ، وصلابة الإرادة ، وعمق الخبرة بالقتال والنضال ، فحسب . بل كان قائما مع ذلك أو قبل ذلك على الإيمان الدينى الوطيد ، وعلى وضوح الرؤية الشاملة لمبادئ الإسلام وتعاليمه ، وعلى التعمق فى فهم الدين الحنيف ، فالمجاهد ابن أنيس الذى شهد غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يشغله العمل الفدائى عن التفقه فى الدين ، وطلب العلم الإسلامى من منبعه الأصيل ، وهو رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فقد روى عنه الكثير من الأحاديث : وكان يكرر سؤاله عما يريد أن يفقهه من أمور الدين .

بل يروى التاريخ الإسلامى بعد ذلك أن عبد الله بن أنيس رحل مسيرة شهر ليلاقى جابر بن عبد الله الأنصارى ، فيسمع منه بعض الأحاديث التى سمعها من الرسول حول المظالم والقصاص بين أهل الجنة والنار .

وهكذا كان عبد الله بن أنيس بطلاً فى الميدان ، وقدوة فى الحرص على تعاليم الإيمان .

رضوان الله على الفدائى الفقيه : عبد الله بن أنيس الذى توفى سنة ثمانين بالشام على المشهور .

الفدائية المؤمنة

نسيبة بنت كعب

من الظواهر التاريخية التى تستحق الدراسة والمتابعة أن المرأة العربية المؤمنة قد شاركت خلال مراحل النضال فى معارك مختلفة بألوان من النضال والكفاح ، فهى لم تكتف بالغضب أو الشكوى أو الأنين ، أو المقاومة السلبية للعدو الباغى ، أو إثارة العزائم فى صدور الرجال ، بل شاركت عملياً فى حركات المقاومة الفدائية التى تنهض على معانى التضحية والبذل والإقدام .

والإسلام يعلمنا أن المعركة الممتدة بين الإيمان والطغيان معركة من أجل الجميع ، لأنها تكون للدفاع عن الحريات . وصيانة الحرمات ، واستخلاص الوطن السليب من أيدى أعداء الله وأعداء عباد الله ، فيلزم أن يشترك فيها الجميع بطريق مباشر أو غير مباشر .

ولذلك قال الفقهاء إن الجهاد فرض كفاية ، يتحتم أن ينفر إليه العدد الكافى من أبناء الأمة ، يحملون أرواحهم على أكفهم ، ويخرجون إلى لقاء أقدارهم فى ساحة العزة والكرامة ، فإما أن يحققوا نصراً فيكونوا غزاة فى سبيل الله ، وإما أن يلاقوا شهادة تنقلهم إلى أسمى نعيم وأعلى تكريم فى رحاب الله جل

علاه ، فإذا بلغت المعركة مستوى التعبئة العامة ، أو الزحف العام ، ووطئ العدو أرض الإسلام والمسلمين بطغيانه وبهتانه ، أوجب الإسلام الجهادَ على الجميع ، فيصبح فرض عين ، فيخرج الشيوخ والشباب ، والرجال والنساء ، حتى إن الزوجة تخرج دون إذن زوجها ، لأن الموقف حينئذ موقف حياة للجميع ، أو مذلة للجميع .

والمرأة المسلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أدت واجبها فى ميادين النضال والكفاح : قامت أولا بالحراسة ، وإعداد الزاد والعتاد ، ووقفت مرابطة خلف الصفوف المناضلة ، تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى ، وتمرض المرضى ؛ ثم تشترك فى القتال إذا احتاجت المعركة إليها فى حومة الوغى .

ولقد تألقت فى تاريخ المرأة المؤمنة أسماء نساء بقيت ذكريات كفاحهن ونضالهن نوراً يضىء الطريق لكل مسلمة تريد أن تجمع لنفسها بين عزة الدنيا ونعيم الآخرة ، من أمثال أم أيمن بركة بنت محصن ، زوجة زيد بن حارثة ، التى أسلمت فى أول الدعوة ، وهاجرت الهجرتين ، وبايعت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وشهدت غزوة بدر ، وغزوة أحد ؛ والرُّبيع بنت معوذ التى بايعت رسول الله بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكذلك الفُرَيعة — أو الفارعة — بنت مالك ، وهى أخت أبى سعيد الخدرى ، وقد شهدت أيضاً بيعة الرضوان ، وهى البيعة التى عاهد المسلمون فيها ربهم ورسولهم على الموت فى سبيل

الله ، والتى قال الله فيها : [لقد رَضِىَ اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعَلِم ما فى قلوبهم ، فأنزلَ السكينةَ عليهم وأثابهم فَتْحاً قريباً] كما قال : [إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون اللهَ ، يد الله فوق أيديهم فمن نَكَثَ فإنما ينكث على نفسِه ، ومن أَوْفَى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيما] .

ومثل السيدة عائشة والسيدة أم سلمة ، فقد روى أنس قال : « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة ، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما(١) ، تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانها فى أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم .

ومثل صفية بنت عبد المطلب التى قاتلت فى غزوة بنى قريظة ، ونزلت من الحصن الذى كان يقيم فيه النساء والأطفال ، فقتلت أحد اليهود ، ثم عادت إلى حصنها .

وكذلك أم سنان الأسلمية التى خرجت فى غزوة خيبر ، وشاركت فى أعمال المعركة ، وقال لها الرسول : إن لك صواحب قد أذنت لهن ، فكونى مع أم سلمة .

---

(١) أى خلاخل سيقانهما .

وكذلك أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي التي شهدت معركة القادسية مع سعد بن أبي وقاص ، وأخبرت أنها وصواحب لها قد شددن عليهن ثيابهن ، وأخذن الهراوى بأيديهن ، ومضين يعالجن الجرحى ، ويجهزن على من يستطعن من المشركين .

ومن أمثال « أم خلاد » التي شهدت غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها ، واستشهد الزوج والولد والأخ ، فحملتهم هذه الصحابية الجليلة على بعيرها تريد دفنهم في المدينة ، فلقيتها عائشة أم المؤمنين في الطريق ، فقالت لها : عندك الخبر يا أم خلاد ، فما وراءك ؟

قالت أم خلاد : أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل (أى هينة) واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

قالت عائشة مشيرة إلى من حملت من الشهداء : من هؤلاء؟

فأجابت أم خلاد : أخي ، وابني خلاد ، وزوجي عمرو بن الجموح .

قالت عائشة : فأين تذهبين بهم ؟

أجابت : إلى المدينة أقبرهم فيها .

وزجرت أم خلاد البعير ليتابع مسيره فما استطاع ، فلما وجهته جهة الميدان تحرك وأسرع حتى بلغ مكان المعركة ، وهناك دفنهم الرسول معاً ، وقال لها : « يا هند ، ترافقوا في الجنة : عمرو بن الجموح ، وابنك خلاد ، وأخوك عبد الله » .

ففرحت وقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني معهم .

وعمرو بن الجموح هو الذى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة أحد : « يا رسول الله ، إن أولادى يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة » .

وكان أولاده قد قالوا له : إن الله قد وضع عنك الجهاد ، ولك عذرك . وذلك لأنه كان مصاباً فى رجله ، والقرآن يقول : [ليس على الأَعْمَى حَرَجٌ ، ولا على الأَعرَج حرج ، ولا على المريض حرج] .

وعرض الرسول على أولاده أن يحققوا رغبته ، فاستجابوا ، وخرج ونال الشهادة ، وهنا قال الرسول : « والذى نفسى بيده لقد رأيته وهو يطأ بعرجته فى الجنة » .

وعمرو بن الجموح هو الذى قال عنه النبي لنفر من بنى سلمة : « سيدكم عمرو بن الجموح » .

وكان لعمرو أربعة أبناء يجاهدون معه .

* * *

ومن هؤلاء المجاهدات المضحيات الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية ، وهى من طليعة نساء المدينة اللواتى سارعن إلى الإسلام ، فقد كانت

إحدى امرأتين رحلتا مع طلائع الأنصار إلى مكة حيث كانت المبايعة منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة الثالثة .

ثم خرجت نسيبة إلى غزوة أحد مع زوجها زيد بن عاصم ، وولديها حبيب وعبد الله ، أى أن الأسرة كلها خرجت لتؤدى واجب الوفاء والمضاء فى سبيل الله ، وتطلع رسول الله عليه الصلاة والسلام — وهو فى طريقه إلى الغزوة — فرأى هذه الأسرة المؤمنة المجاهدة تمضى إلى الميدان فى ثقة ويقين ، فقال لهم : « رحمكم الله أهلَ بيت ، بارك الله فيكم أهل بيت » .

فانتهزت أم عمارة هذه الفرصة الطيبة وقالت : يا رسول الله ، ادع اللهَ أن نرافقك فى الجنة .

فقال : اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة .

فطار الفرح بنسيبة ، وقالت : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا بعد ذلك .

وبدأت الغزوة ، وقاتلت فيها أم عمارة بشجاعة وجراءة ، وأصاب جسمها اثنا عشر جرحاً ، ما بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، وكان أحد هذه الجراح من ضربة لئيمة مجرمة ضربها بها عدو الله عمرو بن قمئة المشرك ، فأحدثت جرحاً عميقاً بعيد الغور فى كتفها .

وهذه هى أم سعد بنت سعد بن الربيع تلتقى بعد ذلك

بنسيبة ، فتسألها عن ذكريات جهادها ونضالها ، وتقول لها : يا خالة ، أخبريني خبرك يوم أحد . فتقول أم عمارة : خرجت فى أول النهار أنظر الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه . والدولة والريح للمسلمين (أى كانوا منتصرين حينئذ) ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى بالقوس ، حتى خلصت الجراح إلىّ .

فسألتها أم سعد عن جرحها العميق فى كتفها ، فقالت لها : من أصابك بهذا ؟ . قالت : ابن قمئة أقمأه الله (أى أذله الله وحقره) لما ولّى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ابن قمئة يقول : دلونى على محمد ، لا نجوتُ إن نجا . فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وهكذا لم تخف ربيبة الإسلام وبنت الإيمان من الضرب أو الطعان ، بل أقبلت إنسانةً ثائرة عازمة على أن تبذل كل طاقتها فى سبيل دينها وحريتها وكرامة أمتها ، فقابلت ضربة العتل الأثيم بضربات لها قوتها وشدتها ، ولكن اللعين كان قد حصن جسمه ، فوضع عليه درعين لا درعاً واحدة ، ونسيت أم عمارة حينئذ كل شىء إلا أنها فى ميدان ، يحتاج إلى وفاء وفداء ، فمضت تطعن وتضرب ، حتى قال فيها رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « ما التفتُّ يميناً ولا شمالا إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى » .

ولقد رأى النبي فى غزوة أحد رجلا معه ترس لا يتترس به ، وأم عمارة ليس معها ما تحمى به نفسها ، فقال الرسول لذلك الرجل مشيراً إلى أم عمارة : « ألق ترسك لمن يقاتل » ، وأعطاها الرجل ترسه فتترست به ، ومضت تواصل القتال .

وطُعنت أم عمارة طعنات كثيرة ، ورأى الرسول الدم يسيل من جسمها ، فنادى على ابنها ليعاونها قائلا : « يا ابن أم عمارة ، أمك ، أمك ، اعصب جرحها ، بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان » .

فعادت أم عمارة تسأل الرسول أن يدعو ربه لتكون هى وأسرتها معه فى الجنة ، فدعا لها بذلك ، فطارت فرحاً وقالت : « ما أبالى ما أصابنى من الدنيا » .

وحينما جُرح ابنها عبد الله، أخذ الدم يسيل منه بغزارة ، فقال له النبي : « اعصب جرحك » ، وسمعت أم عمارة قول الرسول ، وكان معها عصائب قد علقتها فى وسطها ، فأخذت منها ، وربطت لابنها جرحه ، ثم قالت له : « انهض فضارب القوم » .

فقال لها النبي معجباً : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟ »

ثم شاهد النبي بعد قليل من أصاب ابنها ، فأشار النبي إليه وقال لها : « هذا ضارب ابنك » ، فسارعت نحوه وضربته فى ساقه ، فوقع على الأرض ، ثم أجهزت عليه ، فقال لها النبى :

« الحمد لله الذى أظفرك ، وأقر عينك من عدوك ، وأراك ثأرك بعينيك » .

ومضت الأيام ، وظلت نسيبة تخدم الإسلام ، وتؤدى واجبها فى الحرب والسلام ، وشهدت مع رسول الله بيعة الرضوان ، وهى بيعة المعاهدة على الشهادة فى سبيل الله ، ولحق الرسول بربه تبارك وتعالى ، وظهر اللعين مسيلمة الكذاب بتمرده المجرم ، ووقف فى وجهه المؤمنون ، وفيهم حبيب بن زيد بن عاصم ، وهو ولد نسيبة ، ووقع حبيب فى يد مسيلمة أسيراً ، فعذبه ، فاحتمل صابراً .

وجعل مسيلمة يقول لحبيب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم .

فيقول له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع .

فقطّع مسيلمة جسم حبيب حتى مات ! !

وعلمت نسيبة بمصرع ابنها ، فنذرت ألا يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة ، وخرجت إلى معركة « اليمامة » مع ابنها الآخر عبد الله ، وكانت حريصة على أن تقتل مسيلمة بيدها ، ولكن القدر أراد أن يكون القاتل له هو ابنها عبد الله الذى ثأر لشقيقه حبيب .

تقول أم عمارة : تقطعت يدى يوم اليمامة وأنا أريد قتل مسيلمة ، وما كان لى ناهية — أى مانع — حتى رأيت الخبيث

مقتولا . وإذا ابنى عبد الله بن زيد يمسح سيفه بثيابه ، فقلت له : أقتلته ؟ قال : نعم . فسجدت لله شكراً .

وقد اشترك فى قتل مسيلمة مع عبد الله وحشىّ بن حرب ، وبمقتل هذا الطاغية تطهرت الأرض العربية المؤمنة من المؤامرة الأثيمة التى أريد بها القضاء على كلمة الإسلام ووحدة المسلمين .

* * *

إن المرأة المؤمنة حين ترى قومها وأمتها فى مرحلة فاصلة من مراحل نضالها الواسع ، وكفاحها الشامل ، تنسى زينتها ومتعتها ، وتنسى ثيابها وحليتها ، وتتذكر على الدوام أن بلادها فى حاجة إلى كل نبضة من نبضات قلبها ، وكل خطوة من خطوات قدميها ، وكل حركة من حركات يديها ، وكل ومضة من ومضات عقلها ، وكل جهد مادى ومعنوى من جهودها ، وتظل هكذا على طريق النضال والكفاح ، حتى تتحرر الديار ، ويزول العار ، ويؤخذ الثأر ، ويومئذ تشرق شمس الحياة العزيزة الكريمة من جديد .

وصية فدائية

من قائد لابنه القائد

إننا سنظل بحاجة إلى الاستمداد من منابع الهدى والرشاد، لنفقه مبادئ النضال والجهاد ، فنزداد بصرًا بسبيلنا ، وتوفيقاً فى عملنا ، وإصرارًا على طلب حقنا ، واستمرارًا فى البذل والتضحية من أجل حرماتنا ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وليكن استمدادنا هذه المرة من شيخ البلاغة وإمامها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيف الله الغالب الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه ، وهو القائل : « لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الدنية فى أمرى » ، « استهينوا بالموت فإن مرارته فى خوفه » ، « الوقوع فى المكروه أسهل من توقع المكروه » ، « الناس من خوف الذل فى ذل » ، « الشريف دون حقه يقتل » ، « كن للعدو المكاتم أشد حذراً منك للعدو المبارز » ، « الصبر مطية لا تكبو » ، « الصبر على المشقة يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر » .

يروى التاريخ أنه حدث فى إحدى المعارك أن أعطى

الإمام علىّ الراية لابنه محمد بن الحنفية[١] ، وهو ولده من زوجته خولة بنت جعفر . وسُمّيت بالحنفية لأنها من قبيلة بنى حنيفة العربية — ثم قال له يوصيه : « يا بنى ، تزول الجبال ولا تزل ، عضّ على ناجذك ، أعِر الله جمجمتك ، تدْ فى الأرض قدمك ، ارم ببصرك أقصى القوم ثم غُضّ بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » !

وقد أراد علىّ من ولده بهذه الوصية أن يلتزمها ويطبقها ، حتى يكون قدوة لغيره من المجاهدين والمحاربين ، ولنتذكر أن الموصى هنا هو البطل المقدام الذى كان يدخره رسول الله صلى الله عليه وسلم للموقف العصيب واليوم الرهيب ، فإذا ضعف حملة اللواء مثلا عن الفتح استنهض النبى همة على ، وقال عنه : « سأعطى الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » فإذا علىّ يحقق الظن الحسن ، ويفتح الفتح المبين .

وما أجمل ابتداء علىّ فى وصيته حين يفتتحها بذلك النداء الحبيب ، وتلك الكلمة الحلوة العذبة ، الدالة على الحب والإخلاص : « يا بنى » أى يا أعز الناس علىّ ، ويا أقربهم إلىّ ، ويا أغلاهم عندى ، إنك ولدى ، وفلذة كبدى ، ومع ذلك أدعوك إلى موقف البذل والثبات ، فإنه شرف لو تعلم عظيم.

وأول شعار فى هذه الوصية هو قول الإمام : « تزول الجبال

---

(١) توفى فى المدينة سنة إحدى وثمانين ، ودفن فى مقبرة البقيع ، وعمره خمس وستون سنة .

ولا تزل » وهذا كلام فيه معنى الشرط ، كأنه قال : إن زالت الجبال فلا تزل أنت ، وهذا للمبالغة فى الحث على الثبات ، وقد كان بعض العرب يقولون على هذا النمط : لا نفر حتى يفر الحجر . فيابنى ، لو فرضنا أن الجبال الراسية الراسخة تتحرك أو تضطرب أو تتزلزل أو تتزحزح عن مكانها ، فواجبك أن تظل أنت راسخاً راسياً مطمئناً بذكر الله ، [ألا بِذِكْرِ الله تَطْمئنُّ القلوب] ، وأن تبقى حيث يريدك بارئك ، وحيث يتطلبك الوفاء والإخلاص .

ويا بنى ، كن مثلا من أمثلة الثقة واليقين ، مستقرًّا فى إيمانك ، سائرًا على طريقك ، مصرًّا على حقك ، لا تتبدل ولا تتحول ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين أوجز للمؤمن النصح فقال : « قُلْ آمنتُ بالله ، ثم اسْتَقِمْ » . والإيمان الوطيد العميق الصادق هو أساس الاستقامة والمداومة على طريق الحق .

وهذا التوجيه العلوي مستمد من نور القرآن المجيد الذى يعلِّم المؤمنين به كيف يثبتون فى الجهاد ، وكيف يطمئنون فى مواقف الهول ، وكيف يُقبلون ولا يفرون ، وكيف يتقدمون ولا يتأخرون ، إلا لحكمة : كالمخادعة للعدو ، أو إرادة الانضمام إلى طائفة أخرى من الجيش المؤمن المناضل : [ياأيُّها الذِينَ آمنوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهم الأَدْبَار ، ومَنْ يُوَلِّهم يَوْمئذٍ دُبُرَه إلاَّ مُتَحرِّفاً لِقتالٍ ، أو مُتَحَيِّزاً

إلى فِئَةٍ ،فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ،ومَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير]
ولقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفرار من الزحف – أى من الجهاد المشروع الواجب المفروض – كبيرة من أشنع الكبائر التى يتوعد الله فاعلها بأشد ألوان العقاب .

كما أخبرنا أن التضحية الصادقة هنا هى مفتاح الغفران والرضوان ، فقد سأله بعض الناس عن الجهاد : هل يكفِّر الخطايا ؟ . فأجابه : « إن قُتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » أى غفر الله لك وأدخلك من الجنة الفردوس الأعلى : [وما يَنْطِقُ عن الهوَى ، إنْ هوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى] .

* * *

ثم قال الإمام على لولده : « عض على ناجذك » . والمراد بالعض الضغط الشديد ، والناجذ واحد النواجذ ، وهو الضرس بين الأضراس ، أو الناب بين الأنياب ، وهذا التعبير العربى البليغ كناية عن العناية بالأمر والاهتمام له والعزيمة فيه ، لأن من عادة الإنسان إذا تحفز لشىء ، أو عنى به ، أو أقدم عليه بهمة ، أن يضغط على أسنانه ، كأنه يعاون إرادة قلبه بالضغط على أسنانه ، وكأن الإمام علياً يحث ابنه على أن يقدم نحو واجب النضال والكفاح فى همة نفسية ، وقوة حسية ، ويقظة روحية ، وصلابة بدنية ، حتى يتحقق له العزم الجامع بين

صدق الباطن وصلاح الظاهر .

وإذا عض الإنسان على أسنانه اشتدت أعصاب رأسه ، وتماسكت عظامه كما قال السابقون ، بل لقد قالوا : إن العاضّ على نواجذه ينبو السيف عن دماغه ، لأن عظام الرأس تشتد وتصلب ، وكأن الإمام يريد من ابنه أن يستحضر قوته ، ويستجمع عزيمته ، ويستنهض همته ، ليكون متحفزاً متجمعاً بحسه ونفسه ، أو لعله يريد منه أن يثير فى نفسه عوامل الغيظ من أعدائه الظالمين له ، وكوامن الغضب على المنتهكين حرمته .

وهذا يشير إلى ما يلزم من شحن نفوس المجاهدين بقدسية المعركة التى يخوضونها ، وشرف الهدف الذى يريدونه ، وفظاعة الجرائم التى ارتكبها أعداؤهم ، ووجوب غسل العار والأخذ بالثأر ممن هزئوا بمقدساتهم ، وتطاولوا على حرماتهم ، فإن الهوان والإيمان لا يجتمعان .

ولقد قال الإمام على فى موطن آخر : « عضوا على النواجذ ، فإنه أنبى للصوارم عن الهام » وأنبى : أى أبعد ، والصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع ، والهام : جمع هامة وهى الرأس ، أى إن الغضب الكريم الذى يثير المظلومين المهضومين المعتدَى عليهم يفجر فيهم طاقات القوة والمنعة ، فلا تكون رءوسهم فريسة طيعة لسيوف أعدائهم ، ولو كانت قاطعة .

ثم قال الإمام لابنه : « أعر الله جمجمتك » والإعارة هى الإقراض والسلف ، والجمجمة هى الرأس ، ويكنى بها عن

حياة الإنسان ، لأن الإنسان متى زال عنه رأسه فقد زالت حياته الدنيوية ، والرأس هو أشرف جزء فى الإنسان ، فهذا من إطلاق اسم الجزء على الكل ؛ والمعنى : قدّم نفسك وحياتك عارية وقرضاً وسلفاً لربك ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك ، والذى لا يضيع عنده قرض ولا سلف ، والذى يعيد إليك رأسك ، يعيده إليك فى حياة أسمى وأعلى وأبقى ، وكن مستعداً للتضحية بحياتك فى سبيل بارئك ، متى دعاك إلى التضحية بها فى مجالات الحق والدفاع عن الحرية والعزة والعقيدة . وما أفضلها من تضحية ، وما أربحها من تجارة .

وما أروع الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال : « والذى نفسى بيده لوددت أنى أُقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

وقد نفهم من عبارة : « أعر الله جمجمتك » أن المؤمن الشجاع المقدام قد يكتب الله له السلامة والنجاة ، لأن الإمام استعمل مادة « الإعارة » ، والعارية مردودة ، والسلف عند الكرام مصون يعود إلى أصحابه ، فكيف به عند أكرم الأكرمين : [مَنْ ذا الذى يُقْرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعِفَه له ، وله أجرٌ كريم] .

ولذلك قال بعض السابقين : لو أن الإمام قال لولده : « بع

الله جمجمتك » لكان ذلك إشعاراً له بأنه سيلقى الشهادة ، على حد قوله تعالى : [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة] . وكأن عبارة : «أعر الله جمجمتك» [١] بشرى أجراها إلهام الله على لسان الإمام على ، لتكون تفاؤلا وإشارة إلى أن ابنه سينتصر ، وسيحفظ الله عليه حياته ، ويرد إليه عاريته .

وعاد الإمام يقول لابنه القائد الشاب : « تِدْ فى الأرض قدمك » . وكلمة «تِدْ» معناها اجعل قدمك فى الأرض ثابتة كالوتد المغروس فيها ، فهو ثابت لا يتحرك ، وهذا التعبير العلوى العميق يتضمن التوجيه إلى التمكن من أرض المعركة ، بعد حسن اختيارها ، وحسن تحصينها ، واستخدام كل جزء فيها على أحسن وجه ، وبذل كل جهد لكى يكون الجيش المؤمن المناضل مسيطراً على الميدان ، متمكناً منه ، ثابتاً فيه ثبات الأوتاد فى باطن الأرض ، كما أنه يوجه إلى الثبات والاستقرار ، والاحتفاظ بالموقع الذى يجب الاحتفاظ به فى المعركة ، حتى لا يُحْدث الأعداء ثغرة فى صفوف المجاهدين ، أو يحتلوا قطعة من أرض المؤمنين ، ولذلك طالب القرآن الكريم برسوخ الأقدام فى مواطن القتال والالتحام ، فقال :

---

(١) يروى أن يزيد بن المهلب أخذ هذه اللفظة فخطب بها أصحابه فى معركة فقال لهم مشيراً إلى أعدائهم : « أعيرونى سواعدكم ساعة ، تصفقون بها خراطيمهم ، فإنما هي غدوة أو روحة ، حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين » .

[يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون] .

ولا شك أن الثبات فى القتال يحتاج إلى مجاهدة الفزع ومقاومة الخوف ، والتغلب على شهوات النفس وأهوائها ، وحملها على ما يليق بها ، وإن كان مرّ المذاق ، أو شديد الاحتمال ، فقد قال الإمام على : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » .

وحينما قال القرآن الكريم : [إنَّ اللهَ يُحبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُون فى سَبِيلِهِ صفًّا كأنَّهم بُنْيَان مرْصُوص] أراد أن يلفت أنظار المجاهدين وأفكارهم إلى أن البنيان المرصوص الكامل يقام على أساس وخطة ونظام ، ويحتاج إلى استكمال وإتمام ، وهو بعد هذا يكون قوياً متيناً ، فتثبيت الأقدام فى الأرض كما ينصح الإمام يتضمن الحث على الإعداد والاستعداد ، وحسن البلاء ، وطول الصبر — أو « النفَس » — فى الجهاد .

ثم قال الإمام على : « ارم ببصرك أقصى القوم ، ثم غض بصرك » أى أحط بجميع حركات الأعداء ، ومواقعهم وأعدادهم وأسلحتهم ، واجعل دراستك لأحوالهم دراسة شاملة كاملة ، تصل آخر جزء من أمورهم وشئونهم ، حتى تكون على بصيرة من موقفك وموقفهم ، وحتى تقابلهم بما يهزمهم ، والحديد بالحديد يفلح .

وبعد استكمال دراستك توكل على ربك فى عزم وحزم ، ولا تظل مضطرب النظر حائر البصر ، ولا تجعل بصرك موزعاً أو مفزّعاً ، بل غض بصرك المتردد يميناً وشمالا ، ولا تجعله ينبهر بما يرى منهم فتفزع أو تخاف ، ولا يهولنك شىء منهم .

وكان العرب يصفون الشجاع بقولهم : « فلان غَشَمشَم » أى لا يشغل نفسه بالتطلع إلى ما بين يديه أو ما حوله فى أثناء الحرب ، بل يقتحم ما أمامه من أخطار ، مع قلة مبالاة بالأهوال ، ومن شعر الشريف الرضى فى الفخر قوله :

يعودُهم منى غلام غشمشم معين على البأساء غير مُعان!

وكان سيد الشهداء حمزة يقدم فى المعركة لا يشغل نفسه بالنظر إلى ما أمامه أو حوله .

ولا تعارض بين قوله : « ارم ببصرك أقصى القوم » وقوله : « غضّ بصرك » لأن الأمر الأول يعنى أن يفتح عينيه جيداً ، ويدرس أحوال عدوه كلها ، ثم إذا بدأ القتال أبعد عنه عوامل الفزع ، فلا تبهره قوة العدو ، ولا تخيفه كثرته ، وكأنه يقول له : إذا أقدمت على القتال والهجوم ، فاقصد إلى غايتك المرسومة المدبرة على بصيرة ، فإن طريق النصر واضح : إعداد واستعداد ، ثم إقدام وجهاد ، ثم حرص على شرف النصر أو نعمة الاستشهاد .

وهذا لا يتيسر على وجهه الطيب إلا مع التحلى بنعمة الإيمان ، فإنها هى التى تعمر صدر صاحبها بالثبات

والاطمئنان ، وتورثه النعم والسعادة ، ولذلك قال الله تعالى : [يا أَيَّتها النَّفْس المطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إلى رَبِّك رَاضِيةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فى عِبَادِي ، وادْخُلِي جَنَّتِي]. ولعل هذا هو الذى جعل الإمام يختم وصيته بقوله : « واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » . وهذا مستمد من هدى القرآن الذى يقول : [ومَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم] . ويقول : [بَلِ اللهُ مَوْلاكُم وهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ] . وإنما يتولى الله بالنصر الذين يؤمنون به وينصرونه ، بطاعته والاستجابة لأوامره : [إنْ تَنْصُروا اللهَ يَنْصُركم ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكم] ، [إنَّا لَنَنْصُرُ رسلَنا والذين آمنوا فى الحياةِ الدنيا ويوم يقومُ الأَشهاد] .

ومتى انطوى صدر المجاهد المناضل على أن النصر من عند الله ، انقلب ليثاً هصوراً يشعر بأن الله معه ؛ يسنده ويؤيده ، ويهبه الفوز العظيم : [ولَيَنْصُرنَّ اللهُ مَنْ ينصرهُ إنَّ الله لقوىٌّ عزيز] .

* * *

ولقد كان الإمام على جديراً كل الجدارة بأن يصوغ لابنه هذا المنهاج الفدائى الرائع ، فإنما صاغه من وحى بطولته الفذة التى عرفتها الميادين والمعارك ، وهو الذى أعطى ابنه محمداً راية فى إحدى المعارك ، وقد تكاثرت السهام من حولهما كأنها شآبيب المطر ، وقال له :

اطعن بهـــا طعنَ أبيك تُحْمَد
لا خير في الحرب إذا لم توقـــدِ
بالمشرفيِّ والقنا المسدد !

وحينما تردد محمد في إحدى المعارك قال له أبوه مشجعاً وحاثاً على المضي في الجهاد : امح الأولى بالأخرى .

وكان محمد جديراً كل الجدارة بأن ينفذ هذه الوصية ، فهو الذي جاءه رجل وقال له : جئتك في حويجة (أي حاجة صغيرة) . فقال له : فاطلب لها رجيلاً (أي رجلا صغيراً) .

ولا عجب فهو رجل جليل تناسبه جلائل الأعمال : « إن العظائم كفؤها العظماء » .

وهو القائل : « من كرمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر » .

وحينما أراد بعض الخبثاء أن يفسد بين محمد وأخويه الحسن والحسين وقال له ذلك الخبيث : لماذا يعرِّضك أبوك للحرب ، ولا يعرض أخويك الحسن والحسين ؟ أجابه محمد مفوتاً عليه غرضه الدنيء : « إنما هما عيناه ، وأنا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه » !

ويروى أن الأنصار قالت للإمام علي : يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين ، لما قدَّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال : أما إنه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضلُ صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه .

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه لفضلهما عليه حقّه .
ولمحمد هذا قال خزيمة بن ثابت :

محمد ، ما فى عودك اليوم وصمةٌ
ولا كنت فى الحرب الضروس معرّدا[1]
أبوك الذى لم يركب الخيل مثلُه
علىٌّ ، وسماك النبى : محمدا
فلو كان حقًّا من أبيك خليفةٌ
لكنت ، ولكن ذاك ما لا يُرَى بدا
وأنت بحمد الله أطول « غالب »[2]
لسانًا ، وأنداها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خير تريده
قريش ، وأوفاها بما قال موعدا
وأطعنهم صدرَ الكمى برمحه
وأكساهمُ للهام عضبًا مهنّدا
سوى أخوياك السيدين ، كلاهما
إمام الورى ، والداعيان إلى الهدى
أبَى الله أن يعطى عدواك مقعدًا
من الأرض ، أو فى الأوج مرقًى ومصعدا

رضوان الله تعالى على الجميع .

---

(١) معردا : أى منهزماً .
(٢) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

فدائيون يتنافسون على الموت

قال لى قائل : ألا ترى معى أن صدر الإسلام كان عصراً ذهبيًّا فريداً ، لا يمكن أن يتكرر أو يعود ؟

فأجبته قائلا : إننى مع إيمانى بأن خير القرون هو القرن الذى أشرقت جوانبه بنور رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أومن بأن الخير لا ينقضى ولا يمحى من أمة محمد سيد المرسلين ، وهو الذى أخبرنا بأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، والخير فيه وفى أمته بمشيئة الله جل جلاله إلى يوم القيامة .

وهذا موقف من تاريخنا المعاصر يؤيد ما أقول : فنحن نعرف أن الإنجليز قد احتلوا أرض فلسطين فى أواخر سنة ١٩١٧ ، وحرصوا منذ ذلك التاريخ على أن يحققوا وعدهم الأثيم الزنيم المعروف باسم « وعد بالفور » ، وهو الذى قضوا فيه بانتزاع فلسطين العربية الإسلامية من أيدى أصحابها الشرعيين ، ليعطوها إلى اليهود غنيمة باردة ، حتى تقع بذلك أكبر مهزلة فى التاريخ ، وهى أن يعطى من لا يملك من لا يستحق .

ولم يرض أهل فلسطين بهذا الواقع المر الأليم ، فأخذوا يقاومون ويجاهدون قدر طاقتهم واستطاعتهم ، والعرب والمسلمون يومئذ لاهون عنهم غافلون ، مشغولون بشواغل الحياة أو مطامع

الأحياء ؛ وكان أهل فلسطين فى نضالهم لا يواجهون عدواً واحداً ، بل يواجهون عدوين شرسين مجرمين ، هما المطامع الاستعمارية متمثلة فى انجلترا ، والصهيونية العالمية متمثلة فى اليهود الذين عاونهم المكر الإنجليزى على أن يدخلوا أرض فلسطين ويغتصبوها من أهليها .

وتغلغل اليهود الطارئون كما أرادوا فى أرض فلسطين ومرافقها وطاقاتها ، ولكنهم فى سنة ١٩٢٨ توقحوا فزحفوا مدججين بالسلاح إلى « حائط البراق الشريف » فى القدس ، وهو الذى يعد جزءاً لا يتجزأ من حرم المسجد الأقصى ثالث مساجد الإسلام المقدسة ، ورفعوا فوقه العلم اليهودى ، وهم يهتفون : الحائط حائطنا .

وكان الإنجليز حينئذ يؤيدون اليهود بكل أنواع التأييد ؛ وأهل فلسطين عزل بلا سلاح يذكر ، ومع ذلك لم يسكتوا ، وأخذوا يدافعون عن حرماتهم ومقدساتهم ، واشتعلت منهم ثورة سنة ١٩٢٩ ، وسقط كثير من القتلى والجرحى المسلمين بنيران اليهود والإنجليز معاً ، وعلى الرغم من ذلك توقح المندوب البريطانى — وتاريخ بريطانيا فى الوقاحة طويل عريض — وأخذ يصدر أحكامه بالإعدام على من يهوى ويختار من أهل فلسطين المجاهدين .

وكان فى طليعتهم ثلاثة من الرجال الأبطال ، الفدائيين المؤمنين ، الذي وصلوا حاضر الجهاد الإسلامي بماضيه ،

وهم الشهداء الأوفياء : فؤاد حجازى ، ومحمد جمجوم ، وعطا الزير . وحدد صباح يوم الثلاثاء ١٧ يونيه (حزيران) سنة ١٩٣٠ موعداً لتنفيذ الإعدام فى هؤلاء الأبطال الثلاثة . على أن تكون الساعة الثامنة موعداً لإعدام الشهيد فؤاد حجازى ، والساعة التاسعة موعداً لإعدام الشهيد محمد جمجوم ، والساعة العاشرة موعداً لإعدام الشهيد عطا الزير .

واستقبل الأبطال الحكم بشجاعة نادرة وبطولة رائعة ، وكان فؤاد حجازى شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، وحينما جاءه أهله ليزوروه قبيل تنفيذ الحكم ، قال لهم فى ثبات وإيمان : « إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة ، يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز عن الأمة العربية الكريمة ، فليحل الإعدام فى عشرات الألوف مثلنا ، لكى يزول هذا الكابوس عنا تماماً » !

وأما الشهيد عطا الزير فقد قال : « نحمد الله على أننا نحن الذين لا أهمية لنا نذهب فداء الوطن ، لا أولئك الرجال الذين يستفيد الوطن من جهودهم وخدماتهم » . وأمّن الشهيد محمد جمجوم على كلام زميله ، وطلبوا حناء ليخضبوا بها أيديهم كما جرت العادة عند أهل بلدة « الخليل » الفلسطينية فى الأعراس والأفراح .

وأعدم الشهيد فؤاد حجازى أولا ، وهو ثابت مستبشر فخور بأنه كان أول الشهداء الثلاثة لقاءً لربه ، وصوّر الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان روعة هذه الساعة ، فقال

على لسانها :

أنا ساعة النفس الأبيه الفضل لى بالأسبقيه
أنا بكر ساعات ثلاث كلها رمز الحميه
قسما بروحك يا « فؤاد » صعدت جوانحها زكيه
عاشت نفوس فى سبيل بلادها ذهبت ضحيه

وتخاصم محمد جمجوم وعطا الزير ، كل منهما يريد أن يسبق أخاه فى ساعة التنفيذ ، وسبق عطا الزير فذاق طعم الشهادة ، وكأنه يرتشف رضاباً أو رحيقاً ، وصور الشاعر هيبة ساعته ، فقال على لسانها :

أنا ساعة الرجل الصبور أنا ساعة القلب الكبير
بطلى أشد على لقاء الموت من صم الصخور
يلقى الإله مخضب الكفين فى يوم النشور
قسما بروحك يا « عطاء » وجنة الملك القدير
وصغارك الأشبال تبكى الليث بالدمع الغزير
ما أنقذ الوطن المفدى غير صبار جسور !!

وكان محمد جمجوم ثالث الشهداء ، وحينما أمروه بالتقدم إلى المشنقة طلب منهم أن يفكوا الأغلال من يديه ، حتى يتقدم طائعاً مختاراً ، فرفضوا ، فما كان منه إلا أن استجمع كل عزيمته ، وحطم الأغلال بقوة عضلاته ، ثم تقدم باسماً فذاق طعم الشهادة ، وصور الشاعر هيبة تلك الساعة ، فقال على لسانها :

أنا ساعة المـــوت المشرف   كل ذى فعـــل مجيـــد
بطلى يحـــطم قيـــده   رمـــزاً لتحطيم القيـــود
قسما بروح « محمـــد »   تلقى الردى حلـــو الورود
قسما بأمك عنـــد موتك   وهى تهتـــف بالنشيـــد
ما نال مَن خدم البـــلاد   أجل من أجر الشهيـــد !

وإذا كان المؤمن الحسن الظن بربه يتخيل أن مظاهرة إلهية سماوية علوية قد قام بها ملائكة الرحمن فى ذلك اليوم ، لاستقبال هؤلاء الشهداء على أبواب جنات النعيم ، فإن أهل فلسطين قد ودعوا شهداءهم بما يليق بمكانتهم ، فقد كان يوم الثلاثاء ١٧ يونيه سنة ١٩٣٠ يوماً مشهوداً فى فلسطين ، فقد علم أبناؤها بالساعات الثلاث التى سيعدم فيها الشهداء ، فتعالت أصوات المودعين فوق المآذن فى صباح ذلك اليوم تستنزل الرحمات على الشهداء الأوفياء ، بل قرعت الأجراس فى الكنائس حداداً عليهم ، وخفقت قلوب الرجال والنساء عند مصرع هؤلاء الشهداء ، وأخذت الجموع تردد النشيد الثائر : « يا ظلام السجن خيم » ، وكلما دقت الساعة دقاتها إيذاناً بإعدام شهيد وقفت الجماهير خاشعة داعية ، تودع هؤلاء الشهداء بالإجلال والإكبار ، وتستنزل اللعنات على الطغاة المجرمين .

وهكذا كان العمل الفدائى فى فلسطين ــ خلال ما يقرب

من نصف قرن مضى — هو التعبير الصادق العميق عن البطولة المستكنة فى صدور أبناء هذه الأمة المؤمنة، من أمثال فؤاد حجازى ، وعطا الزير ، ومحمد جمجوم ، الذين يجب أن تنقش أسماؤهم على صفحات الصدور ، ليكونوا مع أمثالهم قدوة لغيرهم ، وليكونوا برهاناً على أن هذه الأمة لا تعقم ، بل الخير باق فيها إلى ما شاء الله[1] .

---

(١) ضم كتاب « جهاد شعب فلسطين » للأستاذ صالح مسعود أبو بصير كثيراً من أنباء الفدائيين الفلسطينيين .

الشيخ المجاهد
عز الدين القسام

كنتُ ذات يوم أتحدث إلى مجموعة من الشباب عن واجبهم نحو قضية فلسطين المغتصبة ، وإزالة احتلال الصهيونية للوطن العربى ، وكنت أقول لهم : إنكم معقد الأمل وموطن الرجاء .

وبعد انتهاء الحديث أقبل علىّ شاب ، وقال لى فى غضب وانفعال :

إن القرآن يقول : [يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لم تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ] ، وأنت قد أكدت الحديث عن التضحية والجهاد والفداء ، فهل أديت واجب الجندية ؟

قلت له : لا ، لأنهم أعفونى منها حين بلغت سنها ، بحجة أنى كنت حافظاً للقرآن الكريم ، وطالب علم دينى فى الأزهر الشريف ، ولعلهم كانوا يستندون فى ذلك إلى قول الله تعالى : [وما كان المؤْمنون لِينفِرُوا كافَّةً ، فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ، لِيَتَفَقَّهُوا فى الدين ، ولِيُنْذِروا قومَهم إذا رَجَعُوا إليهم لعلّهم يَحْذَرون] .

فعاد الشاب المنفعل يقول : ولماذا لا تحمل السلاح الآن ، وتدخل الميدان لتكون قدوة ؟

فحاولت الاعتذار إليه بقولى : إن ذراعى اليمنى كسرت مرتين ، وفيها خلل والتواء لا تحسن معه استعمال السلاح .

فقال فى ضيق : على كل حال ، الذى أعرفه أن صفحات الجهاد الميدانى والعمل الفدائى فى تاريخ فلسطين ، تخلو من ذكر أحد من العلماء .

وهنا تنفست الصعداء ، وقلت له بهدوء : يا بنى ، لقد عرفت شيئاً ، وغابت عنك أشياء ، فإن أول من نظم العمل الفدائى فى النضال الفلسطينى ضد الصهيونية والإنجليز هو الشهيد المرحوم : الشيخ عز الدين القسام أحد علماء المسلمين .

فدهش الفتى وقال : هذا اسم لم أسمع به قبل اليوم .

قلت : أستطيع أن أسمعك عنه بعض الحديث :

كان الشيخ عز الدين القسام أحد علماء الإسلام فى بلاد الشام ، واشترك فى الثورة العربية التى قامت بها سورية ضد الفرنسيين المحتلين ، وجاهد فيها بقدر ما استطاع ، وحين وقفت هذه الثورة لم يجد القسام لنفسه مكاناً ملائماً فى سورية ، فانتقل إلى « حيفا » فى فلسطين ، وهو يؤمن بأن فلسطين هى القسم الجنوبى من سورية ، لأن الشام فى الأصل يتكون من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .

وكان رجلا عالماً يجيد الخطابة والتدريس والتوجيه ، فنظم دروساً دينية فى مسجد حيفا ، ولكنه لم يكن يحصر دروسه فى مسائل فقهية مألوفة ، بل كانت دروسه فى الغالب استعراضاً

لمواقف البطولة فى الإسلام، وحثًّا على الجهاد العملى والقتال الصادق ضد المحتلين من الإنجليز واليهود .

وكان للشيخ عز الدين القسام « لازمة » يختم بها دروسه ، وهى ترديده لقول الله تبارك وتعالى مشيراً إلى أعداء الله وأعداء رسوله: [ومن يَتَوَلَّهم منكم فإنَّه مِنْهُمْ] . وهو يذكِّر بقول الله تعالى : [إنَّما يَنْهَاكُم اللهُ عنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِى الدِّين وأَخْرَجُوكم مِنْ دِيارِكم ، وظَاهَرُوا عَلى إخراجِكُم أَنْ تَوَلَّوهُم ، ومن يَتَولَّهم فأُولئِكَ هم الظَّالِمُون] .

وكثر رواد هذه الدروس التى يلقيها الشيخ عز الدين القسام باسم الدين ، داخل بيت من بيوت الله ، هو مسجد حيفا بفلسطين ، وكانت هذه الدروس تفعل فعل السحر فى نفوس مستمعيها ، فهى تثيرهم ، وتحرك عواطف النضال وحب الاستشهاد فى نفوسهم ، وأثمرت هذه الدروس ثمراتها ، فبدأ فريق من أبناء فلسطين يستجيبون لتوجيهات الشيخ العالم ، ويطبقون نصائحه فى الجهاد .

ومنذ أوائل سنة ١٩٣٥ م أخذت نتائج تلك الاستجابة تظهر فى المثلث العربى الذى تكوِّنه البلاد الثلاث : جنين — نابلس — طولكرم . حيث أخذ هؤلاء الأبطال يقومون بنسف القطارات ، ومهاجمة المعسكرات الإنجليزية واليهودية ، واغتيال الضباط الإنجليز ، وقتل أى خائن يتنكر لعروبته ، ويتعاون مع المحتلين المجرمين .

وكانت أعمال هؤلاء الأبطال تتم فى سرية عميقة وتنظيم دقيق، ومع ذلك أخذت تشعل نار الحماس والإقدام فى نفوس أبناء فلسطين ، فتكاثر عدد المنضمين إلى حركة الشيخ القسام التى كان يمسك بزمامها من وراء العمود الذى يجلس إليه للتدريس فى مسجد حيفا ، ولم تعلن هذه الحركة الفدائية الثائرة عن نفسها إلا فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) سنة ١٩٣٥ .

وتطلع الشيخ القسام فرأى أن عمله قد أثمر ، وأن زرعه قد أينع ، وأن كلماته قد صنعت ما تصنع النار القوية فى صهر المعادن ، وهنا سأل الشيخ الداعية نفسه هذا السؤال :

أيليق بك أن تقول للناس ما لا تلتزمه وأنت قادر عليه ، وأن تدفعهم إلى مجال نضال خطير ولا تسبقهم إليه ؟ أيكون تلاميذك هناك فى الميدان ، يلاقون المتاعب والمصاعب ، ويتعرضون لمشاق الجهاد حتى الاستشهاد ، بتوجيه منك وإرشاد ، وأنت هنا يا عز الدين تكتفى بالكلام ، وتقنع بأن تقبع فى المسجد خلف عمود من أعمدته ، وأنت قادر على حمل السلاح؟ إن هذا لا يليق بك يا داعية العزة والكرامة !

وأعلن الشيخ القسام بين خلصائه أنه سينتقل من معبد المسجد إلى معبد الميدان ، وأنه سينضم عمليًّا إلى صفوف المجاهدين ليقودهم هناك ، وتحولت ثورة القسام ورفاقه إلى حركة عصيان مسلح ضد حكومة الانتداب الإنجليزية واليهود ۵

وارتعدت فرائص الإنجليز حين سمعوا ذلك ، فجعلوا كل همهم أن يتخلصوا من الشيخ القسام العقل المفكر المدبر للثورة ، فجمعوا عدداً ضخماً من جنودهم ، وحاصروه مع رفاقه فى غابة على مقربة من « جنين » . وجاهد الأبطال جهاد الصدق . وقاتلوا فى ثبات حتى الموت . ونال الشيخ القسام نعمة الشهادة مع فريق من زملائه ، فى اليوم الخامس والعشرين من نوفبر سنة ١٩٣٥ ، وكان استشهادهم سبباً فى اندلاع ثورة كبرى فى أرض فلسطين . ورثاه شاعر عربى فقال :

أولت عمامتك العمائم كلها   شرفا تقصّر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة   غير الزعامة والطريق أمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة   فى الخلد ، لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت   فرحاً ، وهشّ مرحّباً رضوان!

ثم . . . كان معاوية يقول للناس : « أيها الناس لا يمنعنكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا » . وكان خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يقول : « لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يُحكم أمر نفسه ، ويكمل الذى خُلق له من عبادة ربه ، إذن لتواكل الناس الخير ، ولرُفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون بالنصيحة فى الأرض » !

ورحم الله عبداً سمع فاتعظ ، وقدر فاستجاب !

الفهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

الكتاب القادم

أعترف إليك

مجموعة قصصية

أحمد فؤاد تيمور

اقرأ

أعترف إليك

وقصص أخرى



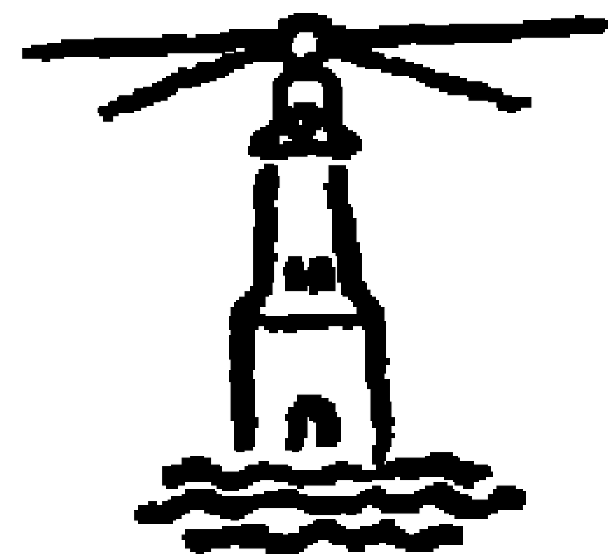
أحمد فؤاد تيمور

دار المعارف بمصر



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

أحمد فؤاد تيمور

أعترف إليك

مجموعة قصصية

اقرأ ٣١٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣١٥ – مارس سنة ١٩٦٩

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م

الإهـــداء

إلى حب عمرى . .

ملهمتى . .

زوجتى

أعترف إليك

مهداة إلى صديقى : ص .
رمز محبة وإعزاز وتقدير . . .

بعد ساعات ، سألقاكِ فى المطار الذى ودعتك فيه ، واستودعتك الطائر الذى احتملك على جناحيه ، إلى بلاد تناءت عنا ، تنشدين لجسدك الراحة ، ولنفسك البرء .

ركبتِ الهواء ، ذلك الأرعن المأفون، وإنها لمخاطرة ، أملتها علينا ظروف طاغية ، لولاها لتخيرت لسعيك سبيلا أكثر أمناً ، وأسلم جانباً .

لقد طالعنى الطائر يوم رحيلك ، يربض على أرض المطار ، مشرعاً جناحيه ، فى أنفة واعتزاز ، وقد رفت على ثغره ابتسامة هازئة ، توضحت لى مع تباشير الفجر النامية ، وكأنه فطن إلى ما يعتمل فى نفسى من مخاوف ووساوس ، وظنون .

فألفيتنى أشتبك معه فى مناجاة هامسة ، ضارعاً إليه أن يتجنب فى مسراه نزق الريح ، وأن يلتمس من الحيل عوناً على مجالدة الجو والسيطرة عليه حتى تكتب لكما السلامة ، وتأنس بكما البسيطة من جديد، تزجى لكما التحايا، فى إقبال ويمن .

والآن ! بعد انقضاء ذلك الوقت المديد ، وقد ارتقى الطائر متن الريح ، يقفل بك راجعاً من المصح البعيد ، ما برحت به أناجيه ، وأسدى له النصح ، كشأنى معه ساعة مرق إلى السماء ، يحتجب عنا خلف أستار السحب .

لم أكف ، منذ ذلك الحين ، عن مصاحبتك ، والاجتماع بك ، أسايرك حيث ترحلين ، وأمسى حيث تمسين ، إن أظلت جبينك غشاوة من تفكير ، أقبلت أفاكهك ، حتى ترف على ثغرك ابتسامة ، ويتضوأ على محياك إشراق .

لست منك إلا ذلك الراصد الدؤوب ، الذى لا يبتغى لك فى سهره ويقظته إلا الأنس والإمتاع .

أقسم ! إن قلبي لمستودع كبير ، يعمره لك حب وإعجاب وتقدير .

أما فتئت تعتقدين أنى أخدعك وأضحك منك ؟

دعينى أكاشفك بالداء الذى يعتمل فى نفسك ، يورثك المخافة والقلق .

زعمتِ أنى أخونك . . . ! أخونك فى أطراف النهار ، وغاشية الليل .

منذ سنين ونحن زوجان . . . !

أما حان لك أن تتقرى بما أنا منغمس فيه ، من موفور

الجهد ، وموصول السعى ؟

أعهدتِ منى وقت فراغ ، وساعة لهو ؟

أساحر أنا ، قادر على الغداة والعشى ، أصرف الوقت فيهما ، بإمرة منى وسلطان ، إن أشرت إليه ، أو لوحت توقف ، كما أهوى ، لينفسح لى مجال عبث ومجون ؟

لقد امتد غيابك شهرين طويلين ، لم يهدأ « للهاتف » فيهما صليل وعويل ، وما الصوت الذى يتردد منه إلا صوت صاحبتك ، التى تنزل من نفسك منزلة الصديق المؤتمن الوفى .

أكانت ترتصد لى ، وتموه علىّ ، لتضعنى موضع اختبار قاس ، وامتحان عصيب . . . ؟

أكانت تتشمم ريح الخيانة، لتقدم لك كشف الحساب الختامىّ؟

أهذه وصيتك إليها قبل المغيب . . . ؟

أم كان ذلك صنيعاً عمدتِ إليه لأمر تخفينه . . . ؟

أأرادت أن تستدرجنى ، حتى أجد عندها الصدر الحنون ساعة يعوزنى إلى الراحة سبيل . . . ؟

الافتراض الأول أحقّ بالقبول والتصديق .

ليطمئن قلبك ولتهدأ نفسك !

لقد أنفذتْ صديقتك ما طلب منها أن تؤديه ، بذمة وأمانة وامتثال .

كانت رائعة فى الدور الذى قامت به .

أتجحدين إلى هذا المدى حدة ذكائى وشدة فطنتى ؟

أما كان الأجدر بك أن تدبرى حيلة أوفر التواء ، وأكثر تعقيداً ، تموهين بها علىّ ؟

أحسبتنى ساذج الفهم ، قاصر الإدراك ، فقيراً إلى دقة حس ، ولطف إلهام ؟

يقينى : أن صديقتك ما كانت إلا الطعم الذى أدليته لى من شصك العتى ، تبغين به التعرف والتكشف والاستخبار .

أتنكرين خطر تلك التجربة ، وما عسى أن ينجم عنها من نزق وجماح ؟

دعينا نتخيل — جدلا — أن الفريسة لم تفطن إلى ما بيتت لها الخطة من تدبير طائش غرير . . .

هى أن الفريسة وقعت فى الشرك الذى نصب لها ، صريعة هوى مشبوب ، لا حيلة لها فيه . . . !

ولنطلق لخيالنا العنان ، نفترض أن الصائد استهواه ساعة الشواء رائحة الصيد الشهى ، فانثنى يقضم منه قضمات مريئة هنيئة يستمتع بها ويستلذ .

أينا خليق بالملام ومر العتاب ؟

الصائد . . . ؟

الفريسة ؟

أم المدبر الألمعيّ الفطين . . . ؟

أماعلمت أن اللاعب بالنار لا يأمن أن يصيبه منها شواظ ... !

الرجل فى ظنك خداع أثيم ، إن أرخى له الحبل جمح يستطيب العبث دون أن يصد نزوات نفسه ويصون العهد لأليفه الصفى .

أما أنا فاعتقدت أن الزوجة ما هى إلا جلاد عنيد ، لا يفتأ يسلط على رأس الزوج سيفاً مرهفاً ، يحد به من حريته ، وأنه لا يملك إزاء محنته تلك إلا أن يجنح إلى مخاتلة ومخادعة وتضليل .

لعلك تدركين إذن سر ما أصارحك به من اعتراف وإقرار...

لقد كنتُ لك عوناً على السفر ، إذ كان يداعبنى أمل الظفر بفترة حرية وانطلاق ، وأنت غائبة فى منآك البعيد .

أنا السجين الذى بشروه برحيل سجانه عنه ، فظن أنه سينعم حتماً بحياة بهيجة لا يشوبها حرمان وكبت .

تمثلت لى يومئذ القيود وقد ذابت ، والسدود وقد انهارت ، وانفسح أمامى الطريق للدعة والرتوع لا رقيب ولا حسيب .

فلتعلمى ما كان منى أثناء غيابك الطويل .

ما بدأت عجلة الأيام تسير بى ، وقد غاب وجهك عنى ،

وخلا لى الجو وحدى ، حتى حاصرتنى كآبة ، وداخلنى هم ، ولعبت بى حيرة ، فألفيتنى أنطوى على نفسى ، وأنسج حولى قيداً من فولاذ ألجأ إليه وأحتمى به .

وارتددت إلى عشنا الخاوى أوصد بابه علىّ ، لا أعايش غير طيفك الحانى أستدنى منه لنفسى الكابية ضوء الرجاء ، وشعاع الأمل.

وانكفأت أتساءل : أين الانطلاق الذى كنت أتطلع إليه وأحلم به ؟

رحيلك كشف لى فجراً جديداً لم أعهده !

ما كنت أحسب أن العيش بدونك له طعم كريه ، أتأباه وأنفر منه .

أمنكرة أنت على السجين إن هو خرج إلى النور ، والتقى بالهواء ، أن يعاوده إلى محبسه حنين وإلى سجانه شوق ؟

أمنكرة أنت على المخمور الذى نهكه الشراب ، وبرح به ، أن يتفقد الكأس لينهل منها ويعب ؟

أمنكرة أنت من العاكف على درس وكتاب ألا يفرح بما يتاح له من راحة وجمام ، وإنما يراجع ما عكف عليه لا تطيب نفسه بسواه ؟

أنت سجانى ، وأنت خمرى وكأسى ، وأنت كتابى ودرسى ،

وإنى لمتطلع إليك ، ومؤتنس بك فى محضرك ومغيبك على السواء !

فى الصيف نتأذى بحر الشمس ، فإن توارت عنا بالحجاب فى غمائم الشتاء الدكناء ، ترقبنا منها الشعاع واستجدينا الدفء !

أغاب عنك أنك حوّائى . . . ؟

من أضلاعى خلقت ، فما بغيرك يستتم لى خلق ، ولا يكتمل كيان .

عودى إلىّ .

عودى ، لألتقى فى سمائك بالحرية ، والانطلاق .

عودى ، أراجع معك العيش البهى .

عودى . . . عودى ، فقد انكشفت لى حقيقة أمرى ، واستبان لعينى السر الخفى .

* * *

كانت الزوجة جالسة عن كثب من جهاز التسجيل ، تستمتع بنبرات ذلك الاعتراف المستفيض ، يترنم به الشريط فى هدوء وأناة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا ، وتبلورت فى عينيها المكحولتين دموع النشوة والزهو والاعتزاز .

وما يكاد الشريط الناطق يتم دورته ، وينقطع عن إنشاده الحلو ، حتى تستأنف الزوجة الاستماع إليه بشوق جديد .

ضابط الإيقاع

جارى الذى يقطن الشقة التى أطل عليها فى البيت المقابل لمغنانا رجل وسيم الطلعة ، ضامر العود ، بائن الطول ، فهو فى مظهره هذا ، ولا غرو ، صنو الأسبانى دونكشوت بعثته الأسطورة من بين دفتيها ، ممتشقاً ، عوضاً عن السيف والرمح ، عصا رشيقة يتكئ عليها ؛ ومذبة خصيبة يهش بها على هوام الطريق .

لقد تخطى جارى ، بفضل الله ، عامه الأربعين دون أن ينبه ذكره ، ويتألق نجمه ، وقد طوف مبكراً بأبواب الوظائف يطرقها ، بعد أن أقصته معاهد الدرس ، ولما ينهل من أفاويق العلم ، نهلة ظامئ .

وأصبح ذات يوم ، حبيس حجرة بالطبقة الأرضية من مبنى حكومى مضعضع ، ليس فيها بصيص من نهار ، يضيئها مصباح شحيح عكر ، وفى أرجائها تتكدس أضاميم منتفخة ، وأضابير تربة ، وكل إليه تنظيمها وتصنيفها وضبط ما حوته

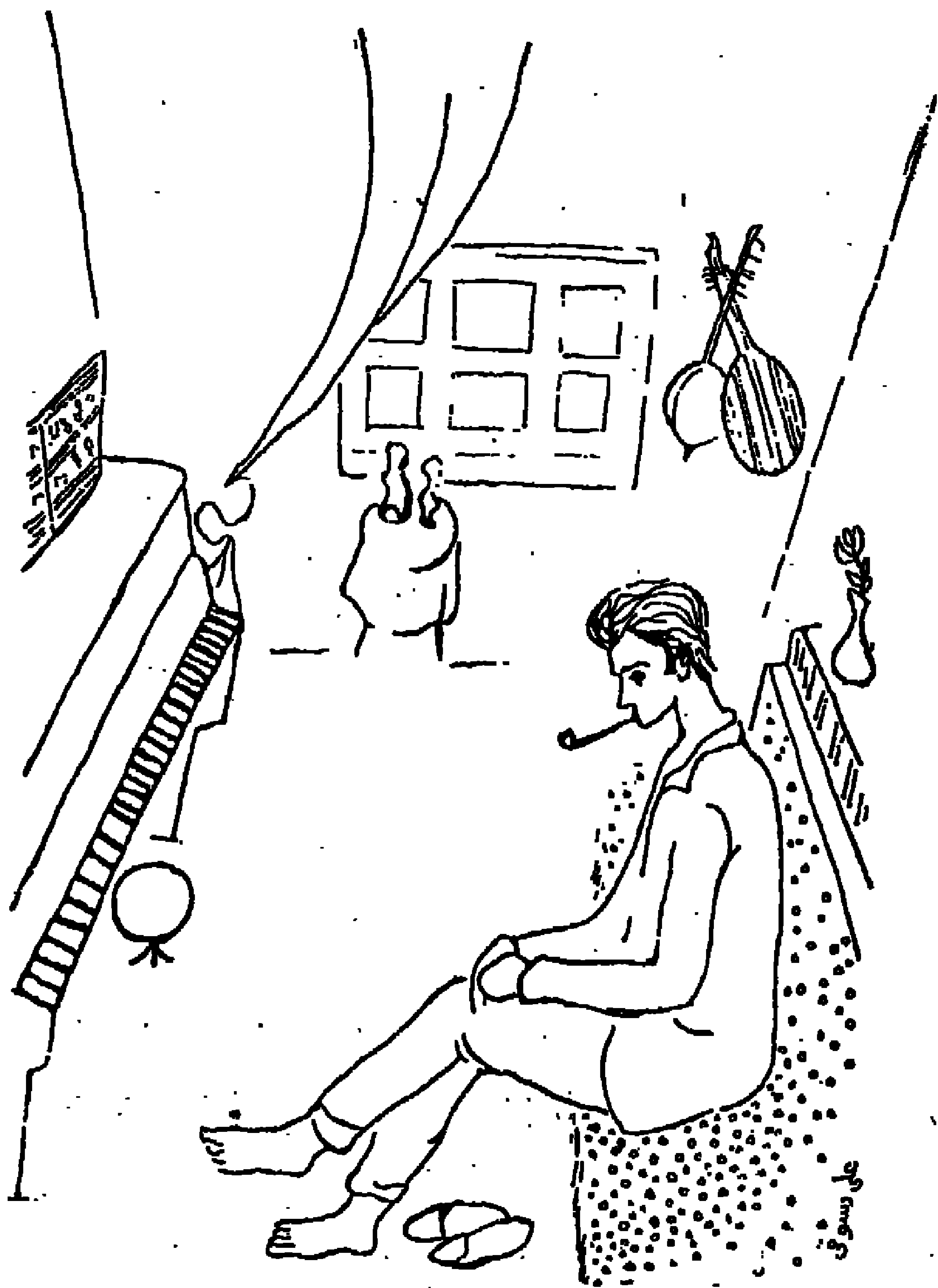
ميزقها فى دفتر عريض ، جثم على مكتب أعرج ، خصص له ، فأسندوه إلى الحائط كيلا يهوى إلى الأرض كومة هامدة .

وظيفة ، أعلى الله قدرك ، خاملة الشأن ، مطمورة الذكر ، جعل جارى يغالب بها الزمن ، فإن أضيف أجره الشهرى إلى دخل يأتيه من منزل كهل، ورثه عن إحدى عماته ، ساغت له، مع فاتحة كل شهر ، حياة هانئة ، وعيش ميسور .

بيد أن الأقدار التى أمسكت بتلابيبه ، تضن عليه بالشهرة والمجد ، خصته فى سماحة ، بذوق رفيع ، وحس مرهف ، وخيال خصيب ، وتلك على غير شك ، خصائص الفنان الأصيل .

هكذا توافرت له شقة أنيقة الرياش ، رشيقة الأثاث ، نالت منه الحدب والعطف ، فبسط كفه ، يكفل لها الوسامة والتأنق ، متجنباً وسائل التجمل الصاخب ، والزينة الصارخة .

لم تكن شقته مشغلته التى تملك عليه وقته وحسب ، بل استهواه الفن فى شتى مظاهره ونواحيه من أدب وتصوير ونحت ، أما الموسيقى فملكت عليه أقطار نفسه ، تملى عليه كما تملى الغانية على صاحبها ، ما تصبو إليه من رغاب ، فأفرد لها حجرة أطلق عليها « كعبة الإلهام » خصها بما تستوجبه الألحان



من آلات الطرب والرصد والتدوين حتى تمكنه إن هى شدت في محرابها ، من معاشرة الأنغام أجل معاشرة ، ومن ثم تطاولت من « كعبة الإلهام » أسلاك كهربية ، زاهية اللون ، تحوّت في الردهات بعودها اللولبى ، ملتحمة بمضخمات للصوت ، زانت جنبات الشقة بوجهها الأجرد المصقول ، لتهدى إلى جارى الأصوات ، أينما حل ، في سهولة ويسر .

فكان يتراءى في المستشرف الرحيب ، عند الأصيل ، على مقعده الأثير ، وبين يديه قدح القهوة يرشف منه كأنما يشيع قرص الشمس وقد تمايل في الأفق منحدراً إلى مغيب ، على رنين الألحان الخوالد ، تتناهى إليه من « كعبة الإلهام » وكأنه كاهن مصر الأعظم يزف إلى « رع » رب الأرباب ، أناشيد الكهنة ، وتسابيح العابدين .

إن نزعات جارى كما تشهد بسيطة هينة ، وعلى الرغم من هذه البساطة الوادعة ، لم آلفه إلا دائم الشحوب ، محنى الهامة ، مكفهر الوجه ، لا تفارق فمه بسمة يائسة ، تنم عن نفس حزينة ، تختزن شجاها كما يختزن الإناء بخار الماء الفوار .

وإن أنت فتشت في حياة الرجل ، هدتك فطنتك ، دون مواربة وعناء ، إلى خط ممدود ، لا يتنكب عنه جارى

ولا يحيد ، فإن متعت الشمس ، ولاح النهار ، ألفيت باب شقته ينفرج عنه ؛ أبرز ما فيه بزة أنيقة ، وبنيقة منشاة طوقت عنقه ، يطيف بها رباط للرقبة ، هادئ اللون ، أحكم عقدته ، فبرزت تحتل وسط البنيقة ، فى تأنق ، مضفية عليه مزاجاً من وسامة وبهاء .

ويتوخى جارى الطريق ، فى خطا وئيدة ، متباعداً عن الزحمة ، يتوكأ على عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ، وعلى فوديه يستوى طربوش زاهى اللون ، على حين تتشاغل يسراه بمذبته ذات الذيل الخصيب يلوح بها عن يمين وشمال .

وما إن ينتصف النهار ، وينقضى وقت العمل ، حتى يتلقاه الحى مع حشد العائدين ، فلا يلبث أن ينغلق عليه باب شقته لا يريمها حتى يحين صباح ، فلا أجد سوى النافذة أتطلع منها إليه ، إذ دأب الرجل على أن يدع مصراع نافذته مفتوحاً ، ليستقبل بريق النهار ، فإن اتفق له أن لمحنى وهو منصرف إلى بعض شواغله المنزلية يصرفها ، توقف يبتسم ويحييني بانحناءة من رأسه دون أن يجرى بيننا حديث ، فلا يسعنى إلا أن أبادله الابتسام وأن أرد التحية بمثلها ، ولا أعتم أن أرتد عن النافذة فى استحياء .

وسرعان ما تترسل على سمعى أصداء شجية لألحان رشيقة ، تجتذبنى إلى النافذة ، محركة منى كوامن الشجون والأحاسيس ، فأستلقى على مقعد مجنح وثير ، أتسمع النغم فى نشوة وشغف ، وأنظارى فى شقة جارى هائمة ترصده ، فإذا هو مسترخ على متكأ عريض ، يجتذب الدخان من غليونه ، وبين يديه كتاب يطالعه ، وقد أخلد إلى سكينة يساير الألحان فى لذة واستمتاع .

على هذه الوتيرة كان جارى يختم أمسيته بل أماسيه ، التى طالما شاطرته إياها .

وشدما كنت تواقاً إلى أن تربطنى بجارى هذا أواصر تعارف ومودة ، فأنا به معجب ، فلا يفوتك أنى ما زلت فى شرخ الشباب ، يستهوينى كل ما فيه تألق وبريق ، ولا يغرب عنك أننى بالموسيقى جد مشغوف ، أوطد العزم أن أقتحم ميدانها أثبت فيه قدمى ، وأفوز منه بمكان مرموق .

ويوماً مثلت إلى النافذة ، وفى يدى مزمار ، أنا حديث عهد به ، أتدرب على النفخ فيه ، مشغولا بالنص الموسيقى ، أفك منه رموزاً وطلاسم ، تناثرت بين سطورها حصيات تغص بها عينى .

وباغتنى صوت رخيم يهمس لى فى تودد :

ما شاء الله . . . ما شاء الله .

ورفعت رأسى ، منحياً المزمار عن شفتى ، أتبين ، فابتدرنى جارى ، من نافذته ، بسؤاله :

أمغرم أنت بالموسيقى إلى هذا الحد يا عزيزى ؟

وأجبته على الفور ، تشوب صوتى مسحة الخجل :

كل الإغرام يا سيدى .

ــ أطال عهدك بالتدرب على النفخ فى المزمار الذى بين يديك؟

ــ إنى بالمزمار حديث عهد يا سيدى . . . لا أحسن الصفير بعد .

ــ أتجد التدرب عليه صعباً عسيراً ؟

ــ أصعب وأعسر مما تخيلت وحسبت .

وتوقف عن الكلام ، يتلاعب بغليونه وكأنه يدبر أمراً ، ثم نطق فى ضوته المنغم يقول :

ألك رغبة فى حضور حفل موسيقى ، تشهد فيه كيف يساس المزمار ، وكيف يغرد تغريده الشجى ؟

فتشاغلت بالمزمار ، أوارى استحيائى ، ووقفت حائراً لا أنطق ، فسمعته يقول فى تعاطف ولين :

لم تجب عن سؤالى . . . أبك رغبة فى حضور الحفل ؟

فبرقت عيناى وأنا أجيبه :

كل الرغبة يا سيدى .

ـ ما رأيك إن أنا دعوتك إلى الحفل بعد غد . . . أ أطمع فى صحبتك والائتناس بك ؟

ـ عفواً يا سيدى . . . بل أنا المتشرف بما تدعونى إليه .

ـ سأدعوك ، ولكن لى عليك شرط .

فتطلعت إليه والبغتة تعقد لسانى ، أقول :

وما الشرط يا سيدى ؟

أن تكف عن مخاطبتى على هذا النحو من التحفظ والكلفة .

ـ إرادتك يا سى . . .

وأسكتنى بإشارة من يده ، ثم قال فى تضاحك ، وهو يمط شفتيه :

ـ لقد تم الاتفاق . . . أليس كذلك ؟ . . . لنا لقاء بعد غد . . . سعدت أمسيتك .

ثم أومأ برأسه إيماءته المألوفة ، وتباعد عن النافذة ، تغيبه خطاه ، على حين أقبلت على المزمار أحتضنه فى تودد ، وأتواثب من فرح ، متطلق الأسارير .

ولما أخذ الجهد منى ، ارتميت على المقعد مبهور الأنفاس ، وما عتمت شفتاى أن التحمتا بالمزمار . فانبعث منه صفير مهوش، يعربد فى الحجرة ، وكأنه صيحات الصبية وهم منصرفون إلى عبثهم يمرحون .

وحل موعد الحفل .

وبرزنا أنا وصديقى الجار إلى المسرح الكبير .

وضمنا الصف الأول إليه ، نحتل منه أكرم مقام ، فلا يعوق المسرح عن أنظارنا عائق .

وانصرف صديقى يرقب الموسيقيين على منصة المسرح ، وقد تشاغل كل منهم بمعزفه يتفحصه ويضبطه ، ويعده الإعداد التام ، ريثما يبدأ العزف ، فاضطربت القاعة بدندنات سقيمة ، تفتقر إلى يد حازمة تتحكم فى فوضاها ، وتحسم ما سادها من تنافر وشقاق .

ويطن فى البهو صليل جرس .

وتتخافت الأنوار وتنكمش .

ويندلع من أقصى القاعة نور باهر ، وإذا هو يهبط نسجاً من الأشعة على المسرح ، كأنه قرص الشمس الوهاج يلقى على الكون تحية الإصباح ، فتتبدى منصة

المسرح ماسة فريدة تضوئ وتتألق .

ولا ينقضى بنا كبير وقت حتى ينفرج نسج الأشعة عن « ضابط الإيقاع » يفرق سبيله بين مقاعد العازفين ، تهديه خطاه النشيطة إلى منصة القيادة ، متأنقاً فى لباس السهرة ، فانبرى صديقى يضرب كفيه فى حماس ، ولم تلبث أن ضجت القاعة فى إثره بعاصفة من تصفيق ، فانحنى القائد من فوق منصته انحناءة رشيقة ، يرد بها التحية ، ثم اعتدل يواجه حشد العازفين ، ترتفع يمينه بعصا القيادة ، فتعلقت به أنظار الموسيقيين ، تنتظر الأمر منه فى انتباه ، على حين انصرف هو إلى أوراقه يجرى عليها عينيه ، ويجمع فى رأسه شوارد النغم .

ويسود القاعة سكون سابغ .

وتصدر من القائد الإشارة ، وتتحرك الآلات ملبية النداء ، وتسيل الأنغام محكمة البنيان يؤازر بعضها بعضاً فى تآلف وتعاطف وانسجام .

ولا يفتأ جارى الصديق مشدوداً إلى مقعده ، تنعقد أنظاره بعصا القيادة وهى غادية رائحة بين الآلات توقظ تلك وتنيم تلك ، آناً هى ثائرة تستصرخ الصنوج ، وتقرع الطبول ، وتعنف بالأصوات فى صلصلة وقعقعة وضجيج ، كأنما الرعود

تصطفق ، وآناً هى مسالمة تجنح إلى تلاطف وتعاطف ولين ، فترق الألحان وتخف ، كأنها وسوسة الماء أو همسات النسيم ، تنساب بين الخمائل والمروج ، فيشدو الكمان بصوته الحنون، ينفى فى عذوبة لحنه ، عصف الرياح ، واصطفاق الرعود .

ولا يفوتك أن تأخذ ضابط الأنغام ، من فوق منصته ، لا يستقر ولا يهدأ ، يشرئب ويتقاصر ، يثور ويموج ، يسالم ويلاين وفق ما تمليه الألحان .

وعرضت منى التفاتة إلى جارى الصديق ، فألفيته يتطلع إلى « ضابط الإيقاع » تطلع الوثنى إلى صنمه المعبود فى إكبار وخشوع ، ويده تحاكى تلويحات عصا القيادة مطاوعة فى طرب إيقاع النغم ، وقد التمعت عيناه ، وتورد خداه ، فتلاشى شحوبه المألوف ، ونضح محياه بالبشر والإشراق .

وما إن انتهى العزف الختامى حتى انبعث جارى يضج بالتصفيق ملوحاً بيديه ، ويصيح فى اهتياج صيحات المديح والثناء .

وزايلنا القاعة إلى بهو المسرح الكبير نستمرئ صدى الألحان ، ومال علىّ ، ونحن فى منصرفنا ، يقول والحماس باد عليه :

البرنامج رائع . . . والأداء أروع . . . أما « ضابط

الإيقاع » فإنه ، حفظه الله ، فد استنبط نزعات المؤلف ومقاصده ، فساس الألحان عن فهم عميق ، ودراية واسعة ، جعلته ، ولا ريب ، يكفل سمو الإنشاد وبراعة الشدو .

وامتد الحديث بيننا وتشعب ، حتى إننا لم نشعر بوحشة الطريق فى مثل هذه الساعة الواغلة من الليل ، وشارفنا الحى الذى نسكنه ، فشد صديقى الجار على يدى ونحن نفترق ، يقول :

الحديث له بقية . . . أنا فى انتظارك عصر غد . . . عندى . . . فى شقتى . . . سوف أسمعك من روائع الألحان ما يطربك . . . هيا ، لقد تأخر بنا الوقت . . . لا أريد أن أثقل عليك . . . إلى غد .

وفى أصيل الغد ، مثلت فى « كعبة الإلهام » أطوف بها مؤتنساً بما ضمته إليها من طرف وألطاف . وراعنى فيما راعنى ، عصا للقيادة ، رقدت بعودها المشيق على حامل معدنى دقيق ، فوق مائدة مستديرة ، تحف بها دمى من الخزف ، تمثل حشد الموسيقيين فى جوقة متكاملة العدة والعتاد ، يتوسطهم مصنف موسيقى ، لمقطوعة مأنوسة .

فوقفت أزجى إعجابى لجارى الصديق ، مطرياً فيه حسن الإخراج ، فاضطرب فى وقفته ، وانكب على عصا القيادة ينزعها

عن حاملها المعدنى ، وأمسك بها يضغط عليها فى رفق ، متشاغلا بها ، ثم أقبل على الدمى الخزفية يرعاها فى نظرة حانية وهو يغمغم :

هذه هى دنياى يا عزيزى الصديق . . . دنيا الأنغام والألحان . . . إنها فى هذه الصور المتواضعة تحقق حلم حياتى العريض .

فقلت له يملؤنى الإعجاب والتحمس :

يا له من عالم عزيز علىّ . . . محبب إلىّ !

وتنهد صديقى الجار تنهدة جياشة ، وهو يتابع قوله راعش الصوت :

لقد عشقت أنا الآخر هذا العالم الرحيب ، ووددت أن أصبح فيه علماً من أعلامه النابهين .

— وما الذى حجبك عنه ؟

— أبى يا عزيزى الصديق . . . ما كاد ، سامحه الله وعفا عنه ، يقف على رغبتى فى الالتحاق بمعهد الموسيقى ، أستكمل فيه دراستى العالية ، حتى استشاط غضباً يكرهنى على إذعان وسكوت ، على حين أخذ يرسم لى الطريق الذى وجب علىّ أن أسلكه ، ويشق آفاق حياتى ، فيرانى طبيباً مرموق القدر ، يشار إليه إشارة السمو والإكبار . . . أما أن أصبح صانع

أنغام فهذا ، على حسب حدسه ، مضلة وغواية ، معبثة وخسارة وضياع ، لن يرتضيها لى مهنة يتبناها ويباركها . . . وطال بنا النقاش وتشعب . . . وأخيراً احتد بنا الجدل يجرنا إلى مفاصلة وفراق . . . فأخليت له وجه البيت ، ورحلت إلى عمة لى ، أثق بها ، أطلب عندها الطمأنينة والعون . . . فطيبت خاطرى ، وكانت رقيقة القلب عطوفاً . . . ووعدتنى ، فى فيض من إعزاز ومحبة ، التوسط لدى أبى . . . ولما سمع لها ، علا صوته مهدداً إياها بقطيعة وشقاق إن هى لم تكف عن هذا المراء المقيت . . . وأقسم ، وما أغلظ قسمه ، إنه لن يرضى عنى ، ولن يقبلنى تحت سقفه طالما تردد له فى الحياة أنفاس ، وإن سعيت أسف التراب عند قدميه . . . ورجعت عمتى من لدنه مبتئسة تسح دمع الخيبة والإخفاق ، وتدعونى إلى تجلد وصبر . . . وضاقت بى رحاب الحياة . . . فانقطعت عن الدرس متذمراً ، أرفع راية العصيان ، وانبريت أواصل الحياة ، وأتكسب العيش ، دون أن تمتد يدى إلى معونة أحد .

والتحقت بالحكومة ، أضرب فى مجاهلها ، كأنى جواب آفاق ، أخطأ الطريق المرسوم ، فتاهت به خطاه فى أحراج غير مطروقة ، فتناساه الناس ، حتى تناسى نفسه هو الآخر ،

فلازم يأسه ، وانقطع عن الحياة يستمرئ العزلة والتفرد ، مستكملا فى تعثر ، ما تبقى له من أيام . . . وما إن توافرت لدىّ بقية من مال حتى عكفت على « كعبة الإلهام » أشيدها مثابة أتصيد فيها لحن حياتى الضائع ، ومناحة أسكب فيها الدمع على حلمى العريض الذى وسده أبى التراب فى عناد .

وانقطع جارى الصديق عن إنشاده ، يزدرد ريقه ، وكأن حنجرته شرقت بالعبارات ، فسعل يواصل حديثه ، مبهور النبرة ، متقطع الأنفاس ، وهو يتقدم من المائدة المستديرة ، يعيد عصا القيادة إلى حاملها المعدنى ، وقد ران عليه تخاذل وشحوب ، وسمعته يقول خافض الصوت :

مالى أرانى أحدثك هذا الحديث الكدر . . . هيا بنا إلى المستشرف . . . الشاى معدّ . . . أخشى أن يكون قد برد لطول الانتظار .

وضمنا المستشرف نحتسى أقداح الشاى ، وعلى أسماعنا تترسل الأنغام شجية حنوناً ، جادت بها علينا « كعبة الإلهام » ، فانسرح جارى الصديق مغرقاً فى صمت ، يرنو إلى قدحه مليًّا وقد اكفهر وجهه ، وشاهت خلقته ، واستولى عليه تطامن وقنوط ، كأنما هو الشجرة العجفاء أثقلها مر السنين ، فجف

عودها ، وتجعدت قشرتها ، تكاد تتقصف هاوية ، تودع الحياة .

فأمسكت بيده أسأله :

أ أنت بخير ؟

فضغط يدى يهمهم فى لهجة وادعة :

لا تنزعج . . . أنا بخير .

فودعته ، ولجأت إلى بيتى ، برماً بما وعيت من حديث كئيب ، أرمى أباه فى ثورة من غضبى ، بالغفلة والجهالة والبله .

وتوالت أيام .

وظلت نوافذ جارى مغلقة على غير المألوف .

وساورتنى فى شأنه ظنون .

وذات عشية ، جاءتنى ، وأنا جالس إلى المزمار أتدرب عليه ، أصوات موسيقية تجيش بالأنغام فى خشونة وغلظة ، وتجأر بالألحان فى شدة وصلابة ، كأنما هى ضربات المعاول على صخر أصم .

فهرعت إلى النافذة أتشوف وأتكشف ، فصدمت بجارى الصديق فى « كعبة الإلهام » يلوّح بعصا القيادة ، وقد اعتلى

مقعداً ، وأقبل على الدمى تلك الأقزام الخزفية . كأنما غدت فوق المائدة المستديرة ، عمالقة العازفين على منصة المسرح ، تستجيب إلى تلويحاته فى طواعية ، كلما حرك عصاه ، يضرب بها الهواء على إيقاع الأنغام ، ترددها آلة التسجيل فى أقصى الحجرة ، فإن هى تراخت وشفت ، سكنت إيماءاته ورقت ، وإن اشتدت وعصفت هاج وماج ، والعصا فى مهب الأنغام حائرة راعشة ، تغدو وتروح فى اضطراب كأنها أصيبت بمس محموم .

وبغتة كف جارى الصديق عن التلويح ، تستبد به نوبة من نشيج ، فنحى العصا بقصف ظهرها ، وراغ إلى الدمى الخزفية يبطش بها ، وامتدت يده إلى المصنف الموسيقى يمزقه شر تمزيق ، وتشعثت حركاته ، واضطرب المقعد من تحته ، واختل منه التوازن ، فانبسط على الأرض بعوده السمهرى ، واستقر فى سقطته دون حراك ، يشخب الدم من جرح أصاب جبهته ، على حين ظلت الألحان تتدافع عنيفة صاخبة ، تنكر فى ثورة عارمة ، ما حل بعشيرها ، فى الحياة ، من عسف الجحود والإخفاق .

إفلاس

كان « محسن العتر » ملقى على فراشه فى حجرته الخربة يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أقفر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة المتخلفة من الجنيهات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريره فى خمول ، يتجرع على مضض كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل.

إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ، وما لبث أن انسرح يعب أنفاسها ملياً ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الحائرة.

ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يذرع حجرته فى خطا متخلعة ، كارهاً أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحد

الذى يستنيم إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .

إنه يختنق . . . وإنه ليحس روحه تحتدم بين جنبيه ، وتحثه على توثب وانطلاق فى رحاب من اللهو عراض .

فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما فى الدنيا الواسعة من مباهج وألطاف .

وتفلتت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كثب من النافذة فألفاها تمور بالحركة وتمرح فى الأضواء .

وما عتم أن تراءت له فى أقصى الحارة قهوة « السرور والأمل » أكثر ما تكون إغراء ، فقد تدلى من جبينها مصباح نفط يتوهج ، وقد أخذ فى زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة كلما هزته خطرات النسيم .

ولم تكن أذناه بأدنى حظاً من ناظريه ، فقد ترسلت عليهما أنغام شجية ، من مذياع القهوة ، فحركت فى نفسه كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً يساير الإيقاع .

ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الخاملة ، وقد فرطت منه تثاؤبة عميقة كأنما تزيح عنه التبلد والجمود .

ماذا يضيره إن انغمس فى غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى فى عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة النرد .

ومن يدرى ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع فى القهوة شهراً أو يزيد .

وما هى إلا أن زايل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقى بالحياة فترنح أعطافه ترنح الرضا والاستبشار .

وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضحت له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .

أين هى من حجرته المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .

القهوة ولا جدل هينة المنظر ، شرقة الجدران بأبخرة لفائف التبغ والنراجيل تتعقد فى سمائها كغمامات زرقاء .

وهى فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالمتهافت من القول والتافه من الحديث .

ما كان « لمحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المنتدى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيهاته العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذياع وهو يغرد تغريده المأنوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلماهب عليهم نغم حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب فى أطماره البالية يخوض طريقه بين المناضد ، يجيب هذا إلى مطلبه وينحنى على ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط حروف كلماته فى ترنيم يلذ للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه فى بالغ من الحرص محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ، وكرشه المنتفخة ترنح على فخذيه فى بدانة وترهل .

كل ما فى القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .

وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فألقى بها حيث هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بخبايا السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضوله، وألهبت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستهويهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها . وخدين له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بحقد وبغضاء ، لما نبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .

ظفر بها العتر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العتر » تعبث بها ، فكان ينفق على غانيته ندىّ الكف بما يتوفر له من مال أبيه المسلوب .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل يمسك عنه ويضن عليه ، فتقطعت به سبل العيش، وتنكرت له الغانية ، وناصبته العداء .

وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فه تتموج بسمة شاحبة تنم عن حفيظة وغيظ . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة فى أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى فى جلسته يتابع المطالعة .

وألفى « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامح ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضى يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملا دون تبديل أو تعديل ، ووصفها بكل مرذول من النعوت ، فهى دنيئة المنبت ، خبيثة المقصد ، منطوية على شر .

وتململ « العتر » فى جلسته يعض على نواجذه .

كيف يزج باسمه فى قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتذل لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .

وطوى الجريدة يدسها فى جيبه وفى نفسه عزم على قصاص .

ولمعت فى رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .

عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ، وهما يلعبان الورق ذات ليلة . .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى فى كمه بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الخسارة والهزيمة ، استجدى كمه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ «سعدون» أن صديقه مخادع محتال ... لص غشاش .

لم يتمالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية على مرأى ومسمع من الأشهاد فى صوت جهير كأنه هزيم الرعود .

وزجره « العتر » فلم يمتثل بل تمادى يلعن ويسب فى جرأة وحماس .

وتظاهر «العتر» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما نشب بينهما شجار .

وشيع « العتر » القهوة في تلك الليلة المشئومة متورم الأنف ، تظل إحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف « العتر » عن قهوة « السرور والأمل » تهديه قدماه إلى حارة متربة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع طبقات إلى حجرة تشبه الجحر من منزل متوحد يشرف على خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه فى رفق ، ولما لم يُجب إلى ندائه احتدّ فى طرقه حتى وضح له من خلف الباب الزجاجى شبح « سعدون » قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ، وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حدبة كأنها سنام بعير ، وقد أمسك«ساهرة» عكرة الضوء، فيهاشمعة تترنح ذبالتها من ضعف.

وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل « سعدون » إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد « العتر » قدمه يحول بين « سعدون » وما يريد .

وزأر القزم فى توقح يقول :

ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . . ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .

ولاح « للعتر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه فى مسكنه يقول :

ــ ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم ... فى حاجة إليك ؟

ــ لا يهمنى . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .

ــ ألا تغفر له إساءته لك .

ــ لست الله لأغفر الذنب .

ــ وإن أتاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .

ــ الله وحده صاحب العفو .

ــ ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً .

ــ أتذكر أنك خذلتنى . . خدعتنى . . غررت بى . . . سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .

وترنح « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهاوى ، فخف « العتر » إليه يسنده ، وتناول منه «الساهرة» كيلا تندلق فتندلع منها النار .

لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد تفسخت قوائمه وانتفشت حواشيه ، فاتخذه « العتر » لنفسه

مقاماً ، مخلياً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرعة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمجم فى صوته المخمور :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالباب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :

أهكذا يستقبل الصديق ؟! . . .

ـ دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق للآخر . . . هيا . . . ارحل ؛ عجل وإلا هشمتها على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه يبسط الجريدة بين يديه ويلوك تلك الكلمات بين شدقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثأر يؤخذ وشرف

يرد . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .

كان رجلاً كريم الخلق، صاحب مروءة وفضل ، إن هو استشير فى أمر نسى حقده وشمر عن ساعديه يسدى النصح .

كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟

أليس المحامى فى ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة ويساعد القانون وينصر الحق .

وبعد لأى انعطف على صديقه « العتر » يربت يده ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . علىّ بها . . . اقتضب فى السرد . . . كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف فى قول . . . الاقتضاب خير دليل على الصدق .

وأذعن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته فى إيجاز ، و« سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .

وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفاك ما سمعت ؟

ـ أوَتحسبنى غبيًّا لا أعى . . . حسبي منك إشارة أو تلميح كى ألمّ فى غمضة عين بخبيئة الأمر .

ـ ألست على حق . . . طمئنى حماك الله .

ـ التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك فى قبضتنا . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضى أثأر لك وأقتص . . . سأنتزع منه الحكم الذى ترضاه فى الجلسة الأولى ولا ريب . . . عول على . . . « سعدون » يعرف من أين تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يجيب صديقه مغمغماً :

لى شرط .

ـ شرطك مقبول على العين والرأس .

ـ ماذا يكون نصيبي ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ الأتعاب !

ـ لك ما شئت . . .

ـ التعويض . . . نتقاسمه !

ـ اتفقنا .

ـ سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه فى ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها «سعدون» فى جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » فى تفكير يحصى الغنم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه فى بحبوحة من العيش .

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فانكفأ كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى فى الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر فى الأفق تؤذن بمولد يوم جديد ، وقد ارتسمت على قسمات وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل فى رأسيهما من أفكار ثراء عريض .

نور وهّاج

قصة سمعتها فى صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إليك فى بساطتها كما وعيتها منذ سنين .

صاحبها الأوحد ، غطريف من غطاريف الريف الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ، فما فتئ بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه فى كل يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلّ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لايصرف عنه أحداً منهم إلا عامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .

لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ، تتداول الألسن اسمه فى أحاديثها ، حتى عرفته القرى النائية ، فى أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدى إليها فى خضم الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى في ردائه طيف المنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة الأداء ، فيشهدك كل يوم جدثاً رطباً جديداً ، تنضم جنباته على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً في مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجه شاحب مصفر ، وصدر يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء لصدره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحان أجله ، حتى صحا صحوة الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم متثلم الصوت :

اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقرائى المحاويج ؟ !

ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطريفنا الراحل ، خدين لازمه منذ الطفولة الباكرة . ، إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .

لم يكن بينهما سر مطوى ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض جعبته لصاحبه فى مصارحة وصدق .

وجلس الخدين فى مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيا التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة اللاهية :

واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ، وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب والمرح ، وفى يد كل منهما قطعة من الحلوى يحشو بها فمه ، والأخدان من حولهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .

وما يعتم الناقوس أن يدق دقات معلومات ، هى إشارة منه إلى بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث التلاميذ أن ينتظموا فى سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .

وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك فى إثرها ذلك الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، فى نظام وخشوع .

ويمتاز يوم الاثنين فى هذه المدرسة على غيره من أيام الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذى تجمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ، تبذل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تثريب ، وليس على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، فى يده سفط مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتجود .

وكانت التبرعات تجمع عادة ، فى درس الدين ، فما إن تسفر عمامة الشيخ « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر أوامره بجباية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ، بالسفط يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ، يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة مليمات ، هى فريضته التى آلى على نفسه أن يؤديها فى الأسبوع بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلا يحتذى. وسرعان ما يصر النقود فى منديل مخطط عريض يحكم عقدته ، ويستوعيه صدر قبائه فى عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة فى نشطة ، ولمسطرة « سيدنا الشيخ » على أيدى المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، ولوع بالخير ، مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، تصارى همه حض الناس على تقى وصلاح .

منطقه فى ذلك هو منطق الدين الحنيف ، إذ لا سعادة فى مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا فى نفقات لهوهم ، ليقدموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كى يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقمت السيارة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً فى عظاته حتى يختتمها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنة بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبى يخلو بالشيخ « خير الله » ، فى غير أوقات الدرس ، يسائله فى أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما بخل عليه الشيخ بشرح ولا ضن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبى منزلة الفهم والاقتناع .

على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبى فى وقفة مع الشيخ :

بنى الإسلام على خمس ، فأيها أفضل عند الله وأمثل ؟

فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

— أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

— الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن لا تنس الزكاة ، فهى للفرد تطهير وللجموع مؤنة ومعونة وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبي قائلا فى تشوق وحماس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

— أقصر كبير هى ؟

— بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من ألوان النعيم ، وأسباب المتاع ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

— ولمن هى ؟

— لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبي من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ، مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطايب النعم ،

وكأنها من خياله الساذج ، مدينة متراحبة الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافها الشجر محملة بيانع الثمر ، وعلى صفحة مائها المواج تتهادى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللآلئ ، وينبعث منها شدو راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها رنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة الجنة إلا أن يعجل إلى خدينه يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :

ما أجمل الجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . فى مكنتك أن تنالها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لقى خدينه يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خيرالله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السفط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشيبة السبك ، رفيعة القدر .

وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ، تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهو بنفسه ، ويتطاول بلألائه على كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب وفخار ، فما أسرع أن أزاغ الصبي بصره ، يتشاغل عنه ، وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المنديل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى انثنى الرائد على أذن «الشيخ» يهمس إليه ، وهو يومئ طوراً إلى قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذى ما زال منكباً على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هى إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبي النداء ، ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على محياه علائم استحياء .

وصدع الشيخ « خير الله » يقول :

ارفع رأسك يا بنى ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . . من كانت أريحيته هذه ، استحق موفور الثناء .

وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة ، يطرى فيها صنيع ذلك الأريحى المفضال ، حاثًّا أقرانه أن يحذوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصة ، وتفرق التلاميذ فى فناء المدرسة يلعبون ، وانبعث الخدين يتفقد صديقه ، فظفر به فى ركن قصى . ولم يكن مرحاً كعادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه فى جيب سرواله ، مطأطئ الرأس ، يركل الحصيات فى حدة ، وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الخدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى ، مبتهج الأسارير .

فغمغم الصبى يقول وهو على حاله :

اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .

— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبى هنيهة ثم انبعث فجأة يقول :

أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها الولد من مال أبيه ؟

فعجب الخدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيثاً ، فجمجم يقول :

لا تكتم عني ما في نفسك.. وأنا أستفتى لك شيخنا كما تريد .

ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبي بقوله :

لا تدهش . . . لقد سرقت اليوم . . . تم ذلك وأنا في حجرة أبي على مألوف عادتي كل صباح ، أفتح كيس النقود لآخذ منه مصروف يومي المقدر . . . فما إن تثاءب الكيس بين يدي ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف في أذني هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بي أن يكون مني لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور . . .

تهيبت بادئ الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت وطأتها عليّ ، وألفيت يدي تنجذب إلى النقود تختطف قطعة فضية رفيعة القدر. . . وهاجمني في ذلك الحين صوت أبي : ماذا الذي أبطأ بك . . . ؟ أضللت مخبأ النقود ؟ . . . الكيس أمامك بجوار المرآة ... فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود في جيبي ،ورددت الكيس مكانه،وانصرفت عن الحجرة في تلصص ومحاذرة ، أستجدي طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبي عن الكلام ، يجفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم جمجم :

أسارق أنا . . . ؟ !

وكست الكآبة وجهه ، ، وخنقه النشيج .

ومال عليه الحدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتئس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبي فى صوت خافض :

ما بالى لا أتصدق بمصروف يومى ؟ لقد أثمت فيما فعلت . لن ينال الجنة سالب أثيم . . .

لم يمهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشئوم عليهما الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبي حصة الحساب ، وهو فى قلقه ، يعانى حساب الضمير ، فما أتقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب فى تفكير محتدم ، يستشعر الضيق ، وكأنه يسير فى طريق افترشته الأشواك ، تدمى قدميه .

وما افظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ فى الشارع العريض ، جماعات فى ضجيج ودوى . وتحلق نفر منهم حول عربة لبائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها وينتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب سؤال ، والبائع الهرم مقسم بينهم كالنحلة الدؤوب ، تستجيب للطلبات فى طواعية واستبشار .

وجذب الخدين صديقه يهمس إليه :

علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .

ووقف الصديقان حيال العربة ، تتطاول أنظارهما إلى ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما فى زحمة الرفاق .

لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العربة وما حوت ، بل هو زاخر بأشتات الحوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .

ومن قصاد الشارع كومة بشرية ، هى امرأة ضريرة ، مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كثب من جدار المدرسة تتفيأ ظله ، فى أسمال بالية ، ترتل آى الذكر الحكيم ، فى صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت رأسها ، متمايلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاولت به طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينيها المطموستين ، سهاماً نفاذة ، تتصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتيها طفلان فى مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة فى الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جور أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبى صنف جديد من الحلوى مثل اه يتلألأ فى لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما فى جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزقة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان»؟

فوقف الصبى بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، ولبث فى موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبى نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، فى خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الحدين من ذكرياته التى تتراءى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهاج :

سيكس أبيل

مثل الفتى نجاتى فى حجرة مخدعه ، قبالة صوان الثياب ، بعد أن فتح مصراعه ، يتخير منه حلة تأهباً للرحيل .

وأقبل على المرآة الكبيرة التى تبدت له ، يعقد رباط الرقبة ، ويحكم وثاقه حول عنقه المكتنز ، ولم يكن قد ارتدى سرواله بعد ، وما برحت قدماه العاريتان ، تترنحان فى خف منزلى أدكن قد تأكلت زواياه .

وأطال الفتى من وقفته يتملى رباط الرقبة ويعنى به ، حتى ضبط عقدته ، وأحلها من البنيقة ، وسطها المختار .

ولما فرغ منه ، اجتذب سرواله ، وهم يدخل فيه ، وما إن رفع ساقه يكمل زينته ، حتى جمد يتوسم طيفه ، والدهشة آخذة به ، والتعجب يغشى ناظريه ، كأن اللقاء اليوم الذى تم بينه وبين صنوه على صعيد البلور الشفيف ، هو أول عهده به .

عجباً ! أيكون هو هذا الخلق الشائه : أنف أفطس التحم بوجنتيه ، وعينان غائرتان تضايقت حدقتاهما ، وتثلم جفناهما ،

فتناثرت الأهداب فى منابتها، مصوحة كأنها أعواد المشيم، يظلها حاجبان متورمان ، ينفر منهما شعر غزير .

أما الساقان فمنفرجتان فى انبعاج ، انتفش عليهما الشعر كثًّا كثيفاً ، وأما القامة فمتقاصرة فى تكتل ، وقد تدلت منها ، حتى لامست ركبتيه ، ذراعان مغرقتان فى الطول ، أثقلتا كاهليه ، فانعطف رأسه ، وانحنت هامته ، وتأود ظهره ، فكأنما هو القوس، يسعى بعضه إلى بعض ، من طرفيه .

عجباً ! أيكون هو قرداً آدميًّا ، افظته الأحراج متنكرة له ، فغدا فى خضم الحياة ، طرفة تثير بغرابتها التعجب والفضول ، أم هو فضلة من حطام بشرى ، غفل عنه القدر ، حين كان فى الأحشاء جنيناً يتخلق ؟ فما اوى القدر ظهره ، يتشاغل عنه حتى غشى الأحشاء اضطراب ، وكأن الماء الذى يحتويه ، ويدفع فيه الحياة ، بحر مائج غضوب حفل بالمكاره والأخطار ، وسرعان ما هبت عاصفة نكباء ، تسوى منه فى استخفاف ؛ ذلك المسخ الآدمى ، آبية أن يرتفع صرح بنائه ، على توافق وتآلف وانسجام .

ولما أقبل القدر ، يتفقده ليعاود رعايته ، كان البناء قد تم تشييداً ، يسود خلقه تنافر وتشاتم وخصام .

وانسرح الفتى يقلب فى المرآة ناظريه ، فى تكره واستنكار ، وعلى محياه مسحة من كآبة وشحوب .

لا مرية عنده أن الذى شاهده هو هفوة من هفوات البصر ، خدعته ، كما يخدع السراب النظر وهو يتألق على بسيط الرمال ، تألقه المواج ، تحسبه العين ، على البعد ، ضوء الماء الألاق ، وقد نالت منه أشعة الشمس ، تلفح صفحته ، فى رحاب الفضاء العسجدى .

أيغدر به هذا الأعجم المارق الغرير ؟

أليس جزاء الغدر إلا الغدر والتنكيل ؟

أحجى به ، أن يجدع أنفه ، ويشج هامته ، ويسمل عينيه ، ليهشمه جملة ، يريح النفس من عناء وجهه الأغبر الكؤود ، ايجعل منه أحدوثة تتنادر بها الأفواه ، وأثراً تعفوه الرياح ، وتنعق فى خرائبه البوم .

وهم نجاتى ، ينفذ ما انتوى ، حين تراقى إلى سمعه صليل الجرس يعوى فى أذنيه عواءه الموصول ، فأرتج عليه ، وحارت به قدماه ، وما برح سرواله متشعثاً على خاصرتيه .

واستبد وجيب الجرس ، وكأنه سوط يلهب أعصابه بفرقعته ، فهرول صوب الباب يزمجر ويجمجم ، تتشاغل يسراه

بنطاقه الجلدى ، يلفه حول كرشه فى تعثر ، على حين تلاعبت يمناه بمزلاج الباب ترفعه ، ووجهه مختنق من غيظ .

وتثاءب الباب .

وبدا له ، من فرجته وجه مطهم مشرب بحمرة ، وقامة فارعة ، يكسوها لحم شحيم ، فتبين على الفور ، صديقه « عبد الباسط » ، زميل الدرس ، ورفيق العمر .

و « عبد الباسط » هذا فتى فى شرخ الشباب ، اتسم بالكياسة والظرف ، ضاحك الأسارير ، لا تفارق البسمة شفتيه ، مشغلته الكبرى فى الدنيا ، وليمة فاخرة تحفل بصحاف الطعام الشهى ، وتفخر بخمر معتقة تتلألأ فى أكوابها الشفافة ، تفغم الأنوف بشذى رحيقها الفواح ، وكأنه عبق الورود النضرات تحملها ، عند الأصيل ، أنفاس النسيم ، إبان الربيع .

ومتعته مجلس أنيس ، يطيب له المقام فيه ، يطارح رفاقه المعابثات والأضاحيك ، ولا يلبث أن يتصدر الجمع ، يؤنسهم بألوان من المفاكهة والمزاح ، لا يمل ولا يكل ، وهو يرددها على مد الساعات ، فى تهلل وتهريج وتصفيق .

وظل الفتى نجاتى ، قابضاً على مصراع الباب ، لا يفسح منه إلا فرجة ضيقة ، يملك بها على صديقه الطريق .

وانحنى « عبد الباسط » يحييه تحية الإصباح الندى ، والابتسامة الخالدة ترف على شفتيه ، فلم يباداه الفتى نجاتى التحية ، وما زال يحدجه ، دون أن ينبس .

وعجب « عبد الباسط » لهذا اللقاء الجاف الذى استقبل به ، واستجمع يدفع الباب بمنكبيه ، فتراحبت فرجته ، تهدى إليه الطريق ، على حين تقهقر نجاتى متعثرة به خطاه ، وقد صك الباب جبهته ، فترنح يرتطم بالجدار ، وتساند على الحائط يحمى نفسه بكلتا يديه ، من سقطة محققة ، فانزلق سرواله متجمعاً على الأرض ، يقيد قدميه .

واقتحم « عبد الباسط » الشقة يزمجر ، محتد النبرة :

حقاً إنك تفتقر إلى كياسة وأدب . . . أحييك فلا تجيب.

وانكفأ نجاتى يرفع سرواله إلى خصره ، وهو يغلى غليان المرجل ، ومن ثم دلف إلى حجرة مخدعه مغمغماً لا يبين ، وفى أعقابه « عبد الباسط » يضرب الأرض بقدميه ، ويلوح بيده ولسانه كالمذياع الثرثار ، لا ينقطع عن الإنشاد يردد :

حين تقف على السر الذى جشمنى السعى إليك فى مثل هذه الساعة الباكرة ، ستجثو ، حتماً ، عند قدمى نادماً تقدم العذر ، وتطلب الصفح .

واستدار الفتى نجاتى يوليه ظهره ، وتشاغل بسترته يرتديها ،
وهو يلقى كلامه فى استخفاف :
سرك أعرفه .
وبهت « عبد الباسط » يهمهم :
ماذا تعنى ؟
ـ إفلاس جيبك هو الذى ساقك إلىّ ولا ريب . . .
أوتحسبنى غبيـًا ، لا أفهمك ؟
وانفجر « عبد الباسط » يغرب فى ضحك ، وأجاب فى
غير مهل :
طاش فألك وخاب ظنك . . . من الذى فى حاجة إلى
مالك . . . الدنانير ملء جيبى تتجاوز العد ؟
وضرب يده فى جيب سرواله ، يتلاعب بالنقود الفضية .
ارنينها فى محبسها ، صوت مكبوت .
وجابه نجاتى صديقه يقول :
إذن ما الذى دفعك إلى هنا . . . إن لم يكن ضيق ذات اليد؟
وغمز « عبد الباسط » بعينه يستطرد :
آه يا عزيزى الصديق او علمت .
ـ كفى . . . أنا است فى وضع يسمح لى بالهذر . . .

أمامى يوم حافل طويل . . . أوجز القول . . . ماذا تبغى ؟

ــ عندى لك مفاجأة . . . مفاجأة عظيمة .

وأسكته الفتى نجاتى بإشارة من يده ، وأنشد يقول :

من أين لى بها ؟ . . . أنا لا أتوقع الترقية بعد .

ــ أوَهذه مفاجأة تستحق منى الاهتمام . . . تفهم . . . لا تكن غبياً . . . أكرر عليك : إنها لمفاجأة كبيرة . . . عظيمة . . . مفاجأة الموسم ولا ريب . . . أوعيت ؟

وحملق الفتى نجاتى فى صديقه ، وقد اشتد به التطلع ، فنطق وشيكاً يقول :

هات حديثك . . . خلصنى . . . إنى مصغ إليك .

واشرأب « عبد الباسط » يطلق قواه فى لهجة ماكرة :

أحقاً أنت تريد أن تسمع لى ؟

فزمجر الفتى نجاتى فاقد الحلم :

يا لك من مأفون . . . قليل العقل . . . أوَلست أحثك منذ قدمت أن تطلق ما عندك من حديث ؟

ــ مهلا يا صديقى . . . لا تكن عجولا نافد الصبر .

وأخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها على مهل ، وجابهه الفتى نجاتى مجنح الساعدين ، ينظر إليه شزراً ويغمغم :

خلصني يا أخي . . . لم أعد قادراً على صبر .

واستعلى « عبد الباسط » يقول وهو ينفث دخان لفافته :

هامت بك نساء الأرض . . . يا دون جوان العصر . . .

إنهن صرعى هواك . . . يتردين فى شباك حبك . . . ويا له من صيد سمين !

فهمهم فى سهوم :

النساء . . . يتردين فى شباك حبي . . . صرعى هواى !

وانقضت فترة صمت ، واستدار نجاتى يقول خشن اللهجة :

النساء ؟ . . . ما لى وما لهن ؟

— بل لك معهن أمر وأى أمر . . . الغانية إنصاف تهواك . . . تحمل لك بين جنبيها هوى مشبوباً .

وهز نجاتى رأسه ، رافعاً حاجبيه ، وطفق يذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، حائر الخطو ، وقد أظلت جبينه سحابة من تفكير .

واسترسل «عبد الباسط» يقول فى تباطؤ ، وهو ينسق عباراته :

سمعت منها ما هزنى . . . حقاً إنها هائمة بك ... فمنذ أن اكتحلت عيناها بصورتك لم تعرف للنوم طعماً ولا للراحة من مذاق . . . إنها تفضل الموت على فقدك . . . فما قيمة الحياة وهى خاوية منك . . . ؟ إنها ، بحسب زعمها ، العواصف

والرعود . . . اليأس والقنوط . . . الجوع والحرمان . . . الجحيم والنار . . . الضياع والفناء . . . أما فى كنفك ، فهى ابتسامة الصباح الندى . . . هى الحدائق الحالية . . . هى المروج المخضوضرة ... هى الأنس ... هى السلام . . . هى الخلود .

وانقطع « عبد الباسط » عن الإنشاد ، وسما بعينيه ، يرقب صديقه ، ويتبين أثر الكلام فيه .

والتفت الفتى نجاتى محملقاً يسائله :

من تكون « إنصاف » هذه . . . ؟ أنا لا أعرفها .

— ومن الذى يجهل « إنصاف » . . . إنك تضحكنى . . . « إنصاف » النجمة اللامعة . . . صاحبة الصيت العريض . . . إنها عميدة الراقصات فى ملهى « الأضواء الحمر » .

وانبرى « عبد الباسط » يطرى لصديقه ، ما طبعت عليه الغانية من وسامة وجمال ، منمقاً فى القول ، مغرقاً فى الوصف .

وأسرع الفتى نجاتى يستخبر :

هل التقيت بها من قبل ؟

— فى الحفل التنكرى الذى شهدته أنت معنا عند صديقنا « عبد الباقى » منذ أسبوعين . . . إنه الحب . . . الحب العنيف المتمكن . . . الحب الذى يصيب الفؤاد من أول نظرة . . .

لقد نفذ السهم المريش إلى قلبها وتمكن منه . . . إن الثقب الذى أحدثه عميق . . . عميق . . . عميق .

وما أتم حديثه ، حتى جلجل جرس الشقة فى رنين أرعن... فتطاول الصديق بهامته يهمس :

أوتكون هى . . . ؟ هاجها الوجد ، فمشت إليك ؟

وتحير الفتى نجاتى ، يدق الأرض كأن عقرباً لبسته ، وقال مبهور الأنفاس ، وهو يلوح لصديقه بظهر يده يحثه :

اذهب . . . اذهب تبين الطارق من يكون !

وزايل الصديق حجرة المخدع ، وداف إلى الردهة متوخياً باب الشقة الخارجى ، والفتى نجاتى من خلفه ، يتقفى أثره ، يرقب الباب ، لا يهدأ ولا يستقر ، وقد عمد إلى هندامه يصلح ما يكون قد تشعث منه ، وأنحى على شاربه يفتله .

وما إن صر الباب ينفتح ، حتى مرق منه صديقهما «عبد الباقى» صاحب الحفل التنكرى ، يقتحم الشقة كثور هائج ، استحثوه إلى حلبة المصارعة ، فانبعث إلى رحابها من محبسه الدامس يجول فى شرود وجموح ، يعشى النور عينيه ، فيقشعر بدنه ، ويتشمم الريح بخيشومه البليل ، يرتصد لمنازله ، ويمزق الهواء بقرنيه كأنه يشحذ منهما النصل ، ليقويا على الطعان .

وتراءى له «نجاتى» يحتل من الردهة الصدارة ، كأنما هو مصارع الثيران الجسور ، ثبت فى مكانه يلوح لخصيمه بشملته الأرجوانية المقصبة ، فيزيده من هياج وحماس ، وما لبث « عبد الباقى » أن ركض ينقض عليه ، لقدميه على الأرض دبيب مسموع ، وفى نبرته تهلل ، ولسانه يردد :

أين هو... اتركوه لى... اتركوه لى أزف إليه النبأ العظيم !

وسرعان ما هجم عليه ، وأمسك به من كتفيه ، ومثل يتأمله . . . تبرق عيناه بريق الإعجاب والتعظيم ، ومن ثم ضمه إلى صدره ، وأقبل على وجنتيه يزحمهما فى تقبيل ثقيل ، يتغنى بقوله :

أهنيك ... أهنيك ... يا دون جوان العصر ... لقد نلت الدرة الفريدة ... «إنصاف» ... أميرة المسارح ، وملكة الفن .

وانفتل « عبد الباسط » من مكانه خلف مصراع الباب ، يظاهر صديقه ، مؤكداً بالإشارة ما تفوه به ، دون أن يسمع له صوت .

والمعروف عن « عبد الباقى » أنه فتى متزن الطبع ، دمث الخلق ، وفى لصداقته وفاء الظل ، إلا أنه ينفر فى الحين بعد الحين ، من ركود التحفظ ، فيخرج عن تزمته المألوف

يستطيب المداعبة والعبث ، وإن كان هدف الدعابة الأصيل ، خلا من خلانه الأصفياء ، يكن له الإعزاز والإجلال .

وارتعش صوت الفتى نجاتى بقوله :

أأفضت إليك أنت الآخر بسرها المكنون ؟

فسعل « عبد الباقى » يقول :

وما وجه الغرابة فى ذلك . . . ؟ لمن إذن تريد أن تبوح بغرامها ، إن لم يكن لصديق مشترك يمكنه بمسعاه الحميد الجمع بين محبين ، والتوفيق بين قلبين .

وسكت ، يجفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم تابع :

تود « إنصاف » أن تلقاك الليلة .

وخرج نجاتى عن صمته ، يهمهم فى دهشة :

الليلة . . . الليلة . . . تلقانى أنا . . . تجتمع بى ؟

— إنها على انتظار . . . تتحين الأنباء . . . بماذا تريدنى أن أجيب ؟

وسرعان ما رفع سماعة الهاتف ، وتشاغل بقرصه يديره ، دون أن يفسح لصديقه مجال تفكير وتدبير ، وانبعث من الهاتف صوت منغم يقول :

آلو . . . من ؟

ــ أنا « عبد الباقى » . . . إنصاف ؟ . . . صباح الخير . . . أخبارى ؟ . . . ابن . . . نجاتى ؟ . . . يسعده لقاؤك . . . عليك تحديد المكان والزمان . . . ماذا . . . ؟ أنت تواقة لسماع صوته والتحدث إليه ؟ . . . الآن . . . ؟ تقولين لا صبر لك . . . عظيم . . . أمهليني حتى أنهى إليه الخبر .

ولوح «عبد الباقى» لصديقه بعينه فلم يظفر منه إلا بإيماءات التمنع والاعتذار ، وقد لاحت على مخايله علامات التهيب والإحجام .

ونحى « عبد الباقى » السماعة جانباً ، وهمس يقول :

لا تكن هكذا فظ القلب ، غليظ الطباع . . . ترأف بها . . . هيا . تحدث إليها .

وأمعن الفتى نجاتى فى تمنعه ، وهو يقرض أظفاره ، متوفز الإحساس ، فما كان من «عبد الباقى» إلا أن أسلم إليه السماعة ، يقول فى خفوت :

خذ . . . الأمر يعنيك وحدك . . . الفرصة فرصتك . . . أنت وشأنك .

وأذعن الفتى نجاتى إلى الأمر ، وجرى عبر الأثير حديث أنيس أنهاه الفتى بتلك العبارات :

أمرك . . . الليلة . . . فى الثامنة . . . بملهى الأضواء الحمر . . . لا . . . ان أتأخر . . . إلى اللقاء .

وأخيراً أهوى الفتى «نجاتى» بالسماعة إلى موضعها فى رفق ، وتقاطرت فى رأسه الأفكار ، فهام فى بيداء الأخيلة والظنون .

أهذر ذلك الذى يعيش فيه أم حقيقة دامغة لا يداخلها شك أو تغرير ؟

وابتسم الأصدقاء الثلاثة يفترقون على لقاء .

وحين وقف « عبد الباقى » يودعه ، انفرد به ، يربت ظهره ، قائلا :

هنيئاً لك صيدك المرىء .

وفى الموعد المتفق عليه ، طرق نجاتى الملهى ، يسعى بين صديقيه ، يحجل فى خطوه كقرد من تلك القردة الدربة ، استقدمه مروضه ، هاهنا ، ايعرض أفانينه المثيرة ، ويشيع بين النظارة الأنس والابتهاج .

واعترضهم مضيف من غلمان الملهى ، فتصدى له « عبد الباقى » يطلب الغانية « إنصاف » عميدة الراقصات ، فهداهم برأسه الطريق ، ثم تنحى عنهم منصرفاً إلى بعض الشئون ، يوليها العناية والاهتمام ، فالملهى لم تنتظم حركته ، ولم

يعمره السمار بعد ، فخلا من رواده إلا بعضاً منهم، تناثروا فى أرجائه ، على الموائد ، يشربون ويسمرون .

ومضى ثلاثتهم إلى ركن قصى ، فطالعتهم «إنصاف» على حشية وثيرة، ينفح منها عطر نفاذ، وتتألق فى ثوب رفيف يلتمع فيه نثار براق، شق عند النحر، يكشف عن صدر مرمرى ، يثير فى النفس بنهديه المشرئبين ، كوامن النزعات والأحاسيس .

وزم « عبد الباقى » قدميه ، وانحنى فى إجلال ، يأخذ يدها الخصبة ، يودعها قبلة التحية والاحترام ، وتبعه « عبد الباسط » فلامست شفتاه كفها العبلة ، ثم صلب عوده يقول ، وفى عباراته رنة زهو وانتصار :

لقد أحضرنا الوديعة إنفاذاً للأمر . . . ها هى . . . !

واستدار يسحب الفتى نجاتى ، يقدمه .

ورفعت «إنصاف» حاجبيها ، وسمت إلى «نجاتى» تكسر له عينها ، فى إثارة ودلال ، فطارحها النظر فى خشية وتردد ، وقد تخشب فى وقفة صلبة كأنه دمية من تلك الدمى النحاسية ، يلهو بها فى فراغهم الأطفال .

وشق صوتها الصمت ، يقول :

ألا ترغب فى الجلوس ؟

واستجاب لها يأخذ له مجلساً ، كأنما هو آلة تحرك بلولب ، وتنحنح الصديقان ، يطلبان الإذن فى الانصراف ، فهزت الغانية رأسها علامة الرضى والإقرار ، فصدرا إلى مائدة عن كثب ، يتخذانها مرقبة ، يتابعان منها فى مساترة وتلصص ، فصول «الغرامية» التى تجرى أحداثها منهما ، على بضع خطوات.

وتدانت الغانية من الفتى « نجاتى » تلاطف كتفه مشبوبة الوجدان ، وما ابثت أن طوقته بذراعها ، وأنفاسها تتلاحق على وجنتيه ، تقول :

دعنى أتحسسك . . . أشعر بك . . . أشعر بالنار التى أججت منى المشاعر ، وألهبت فى قلبى ضرام الحب . . . دعنا نحتفل بهذا اللقاء . . . دعنا نشرب نخب حبنا .

وارتدت عنه تصفق .

وأقبل مضيف المشرب .

وتفوهت آمرة :

شامبانيا . . . أفخر ما عندك .

وغرب المضيف يذعن للأمر ، ناشطة خطاه .

وعدلت «أنصاف» بوجهها إلى الفتى «نجاتى» تحدق إليه ؛ ثم هوت على أذنه بفمها ، تماجنه وتناوشه فى غير احتشام ،

فتزيده من هيجة وضرام .

وما كرع الكأس الأولى ، حتى هبط على ذراعها يلثمه في تقبيل مسعور ، ويهمهم فى هوس :

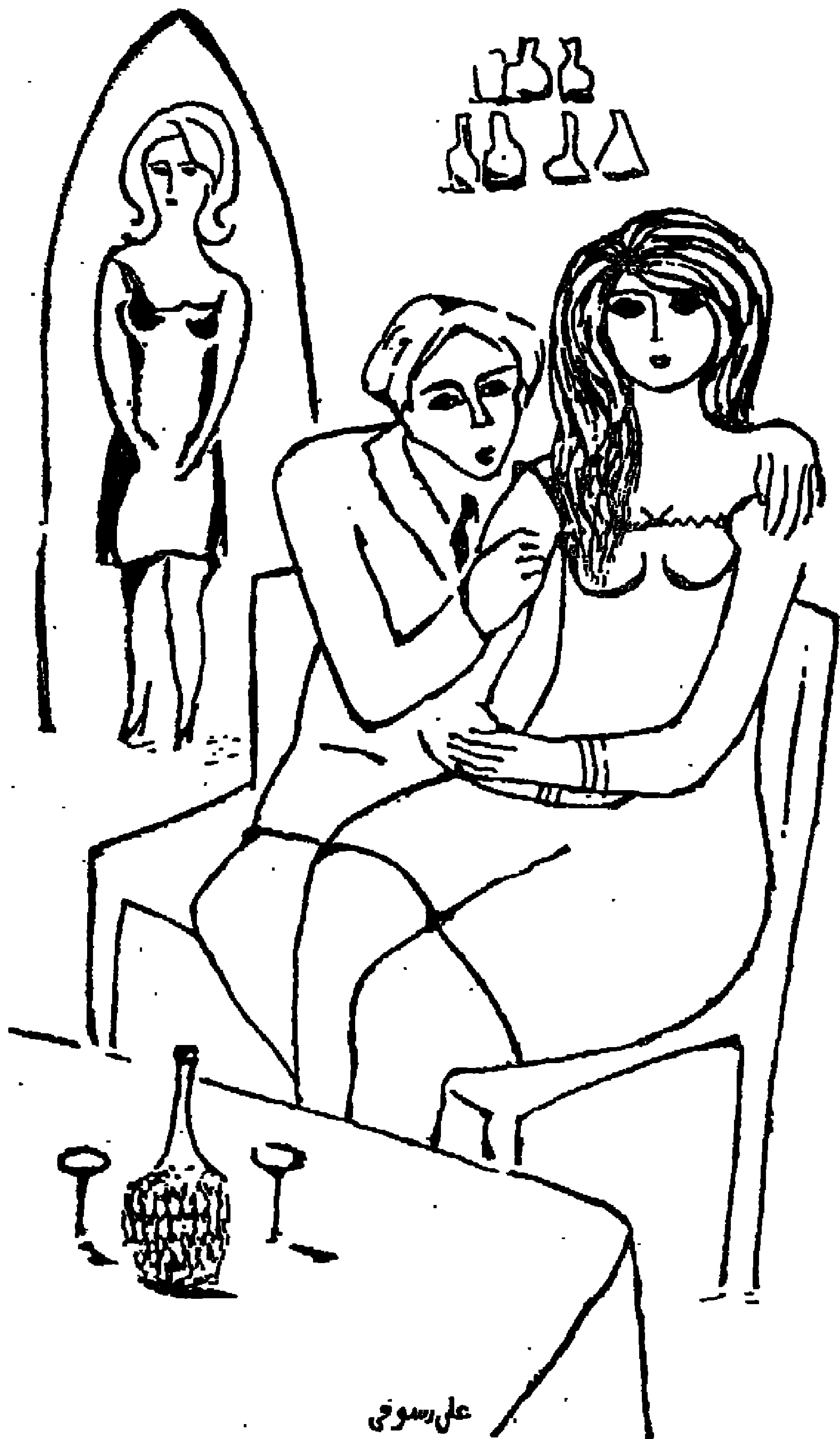
أحبك يا « إنصاف » . . . أعبدك يا « إنصاف » . . . أنا خادمك يا « إنصاف » . . . عبد من عبيدك . . . ملك يديك يا « إنصاف » .

وبغتة اضطربت الذراع ، كأنها زلزال ، فارتجت أوصاله ، واصطكت أسنانه ، وأحس بدوار يعبث برأسه وتناهى إلى سمعه صوت الغانية ، ينفجر فى زمزمة مخيفة ، يقول :

إن لم تنصرفى من فورك ، حطمت رأسك ، وسويت أنفك بوجنتيك . . . إنه لى . . . لن يمتلكه غيرى . . . لن أفرط فيه لأحد . . . أتعين أيتها القطة المنهومة ؟

وأرتج على الفتى ، وتطلع فى تشوف يتكشف ، فألفى عن كثب منه ، حورية من غوانى الملهى ، صارخة الزينة ، فاحشة الجمال ، ترنو إليه وفى عينيها افتتان وإعجاب .

وتشابكت نظراتهما هنيهة ، ومالت غانية الملهى تقول غمازة بالحاجب :


علی رسولی

أنا صفاء .

ونهض الفتى يزجى لها التحية ، فى زحمة من حفاوة وترحاب ، فعلقت به « إنصاف » تلزمه مقعده ، على حين انطلقت بعينيها إلى تلك المجترئة الجسور ، ترميها بنظرة شزراء .

وأطلقت « صفاء » ضحكة عابثة فى غير مبالاة ، ومن ثم أقبلت على الفتى تميس بخصرها ، وتصعد فيه نظراتها تقول وهى تمط الكلمات فى دلال :

زين الشباب ولا شك . . . رجل ولا كل الرجال .

وحدجتها عميدة الراقصات بنظرة جامدة ، تقول فى صوت جهير ، تتجلى فيه الإمرة والسيطرة :

اغربى من هنا أيتها الحدأة الخطافة .

فهمهمت صفاء فى استعلاء وتحد ، وهى تغازل الفتى :

ألست أكمل جمالا من تلك العقاب الهرمة ؟ . . . انظر إلىّ . . . تفرج .

وطفقت تدور ولا تفتأ تدور ، عارضة عليه مفاتن جسدها اللولبى فى خلاعة وابتذال ، ثم عمدت إلى ثوبها ترفع حواشيه ، فتبدى له ساقان مفتولتان فى انسياب ونعومة ، هما فى جوربهما المفهاف آية جمال وإبداع ، فغزا الفتى نجاتى تلك المناطق

الخطرة ، بعين شرهة ، وحس متلهب ، وقلب هيمان ، ولم يعد قادراً أن يصرف عنها ناظريه .

ورنت من « صفاء » ضحكة مديدة ، فيها طراوة وتميع ، وهمست تقول وهى تبرز مفاتنها فى خيلاء :

كل ذلك ملك لك . . . طوع بنانك . . . أنتظر الإشارة لأقدمه على مذبح الحب هبة خالصة لك .

وانتصبت « إنصاف » تصيح غضوب الصوت ، متنمرة النظرات :

قسماً بالله . . . إن لم تغربى . . . لأخمشن وجهك ... وأشقن رمسك . . .

ولم يفلح مع « صفاء » تهديد أو وعيد ، ولم تظفر « إنصاف » منها بغير الزراية والإهمال ، وأقبلت على الفتى غير هيابة ، تداعب خصلة من الشعر نفرت على جبينه ، وما عتمت أن امتدت إليه تدغدغه وتناغيه مجانبة الحشمة والتحفظ ، فانثنى يتضاحك فى استسلام ومراح .

وسرعان ما نشبت بين الغانيتين معركة حامية الوطيس ، تستهدف الحفاظ على الفتى والاستئثار به ، هذه تجذبه وتلك تلقفه ، وهو بينهما كرة حائرة يتناقلها اللاعبان فى جسارة

وحماس ، دون مسالمة أو فتور .

وبينما الكرة حائرة تضطرب ، بين مد وجزر ، إذا بها تشعر بسواعد حداد تخاطفتها نائية بها عن ساحة المعركة ، وتصيدت أذناه همساً يوسوس له :

يا لك من محظوظ . . . نتقاتل فى سبيل غرامك غوانى الأرض . . . الحمد لله الذى أنجاك من ضرر وشيك .

ودفع الصديقان الفتى «نجاتى» يحثان الخطو ، فتقدمهما يغزو الطريق ، على حين أخرج «عبد الباقى» ورقة رفيعة القدر ، وطفق يلوح بها للغانيتين فى مساترة واستخفاء ، ويغمز لهما غمزات الإطراء والاستحسان .

وتعانقت الغانيتان ، يسودهما وئام وسلام .

وما إن احتوى الطريق الأصدقاء الثلاثة ، حتى نشط الفتى «نجاتى» يقول فى زهو وخيلاء :

لقد أشفقت على الفتاتين . . . ولكن ماذا أصنع لهما وهما يتنازعانى ويتقاتلان فى سبيل الظفر بى ؟

وسنح على فم الصديقين ابتسام مريب وهما يسألانه ما سر التنازع فيه :

بالله أخبرنا . . . لا مرية أنك تنطوى على طلاسم تجعل منك آية من آيات الفتنة والإغراء ؟

فاشرأب الفتى ، يكسب قسماته إمارات التيه والفخار، ويقول :

ــ إنه السيكس أبيل .. . ألا تفطنان ؟ . . .

وأخذ يضرب كفًا بكف ، وهو يردد فى تعجب :

يا للغفلة . . ويا للغباء !

فشهق الصديقان يقولان :

وما هو السيكس أبيل هذا الذى تتشدق به ؟ . . . بالله عليك زدنا معرفة أيها الدون جوان النحرير .

ــ إنها بتعبير آخر..الجاذبية .. أسمعتما مثلا بجاذبية الأرض؟

ــ سمعنا . . ولكن يعوزنا الشرح والفهم .

ــ الجاذبية . . . هى . . . هى المغناطيس القوى . . يشد الكائنات إليه فى عنف فلا تملك إلا الانجذاب والانقياد . . . وإذن ، يا صديقىّ ، فأنا مثل الأرض أحتوى على ما لها من جاذبية فعالة ومغناطيس قوى . . وما النساء إلا الأجرام المتصاغرة التى تدور فى فلكى ، وتتهاوى صرعى بين يدى .

وتلاقت نظرات الصديقين ، على حين التفت الفتى «نجاتى» إلى الطريق يخطر عليه فى تيه ، وقد تملكته نشوة العزة والنصر ، وكأن الطريق الدامس الذى يمشى عليه انفرج عن إشراق ، يبدد وحشة الظلام ، فتبدى وكأنه يختنق بنساء الأرض قاطبة ،

يخرجن فى موكب حافل مهيب ، يحدقن به ، ويخطبن وده ، ويلتمسن رضاه ، رافعات الأكف فى ضراعة واسترحام .

وتقاصرت من الفتى خطاه ، وأخذ ينقل قدميه على محاذرة واحتراس ، يظن من يراه أنه يشق سبيله مجهداً ، يعانى من زحمة قاتلة ، تخنق بحرها الأنفاس .

وما إن احتوته حجرة مخدعه ، حتى مثل قبالة صوان الثياب ، بعد أن فتح مصراعه ، يفرج عن مرآته الحبيسة . ولما ظهرت له ، قاربها جياش الأحاسيس يقص عليها ما كان من مغامرة الليل ، فاشتبك والبلور فى مناجاة أنيسة ، غمرها ود وصفاء ، وإذا هو يتوسم صنوه وكأنه يتابع وجه الربيع فى موكب الأزاهير .

وأوغل النظر يغازل طيفه ، لا يقوى على فراق ، فإذا المرآة تتحفه بمزيد من طلاقة وإشراق ؛

وطالت بالفتى وقفته ، حتى شعر بالنعاس يرنق فى عينيه ، والخدر يسرى فى أوصاله ، فمال على سريره ، يحتويه سبات عميق ، ترفرف على أساريره . . . أسارير القرد الآدمى مباهج الأحلام ، وكان صوته ، فى الحين بعد الحين ، ينطلق غليظاً ناعساً ، يخلط بقوله :

يا نساء الأرض . . . صبراً . . . مهلا . . . ستنال كل منكن لمسة من يدى . . . وخلجة من فؤادى . . . وقبلة من فمى . . . أنا لكن . . . لن أبخل بنفسى عليكن !

نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوى » منذ فجر حياته بنزعة آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه فى مثابرة وإصرار كأنما هى من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة الاشتعال.

لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ، فهو ما زال يمنى النفس كسابق عهده دون أن يحقق فى الأسفار شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور الفوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكى » فى نفسه الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، فى مدرسة بالسيوفية لا يخطر الآن اسمها لى ببال .

كان الأستاذ « السبكى » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكياً ، يميط عن التاريخ الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك فى ألواح أخاذة ، وكأن حوادثه قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها فى قوالب فنية مبدعة تفتنك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته فى الفصل يترسل على سمعك فى غنته الصافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية من سباتها العميق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا الذى كان رفاتاً يصبح فى طرفة عين كائناً حياً متكامل النضج ، فلا تعتم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك الحشود الجامعة ، تشركهم الحياة بما حوته من حلو ومر ، ولا يسعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .

كذلك كان صاحبنا كلما ضمه الدرس ، فما تنقضى الحصة ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس فى حجرته ، ثم يخرج إلى المستشرف ، يتكئ بساعديه على حافته ، وقد تملكه سهوم وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ؛ وكأن على عينيه منظاراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنى ما يهفو إليه ، أو كأن

بإصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلفى نفسه متربعاً على بساط الريح ، يسبح فى أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه فى منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلا متكامل البناء ، صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كى يروى ظمأه من مائها النمير ، غير مقتصد فى مال وجهد وسعى .

إنه يعيش فى الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التى تحتل من مغناه الرشيق حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً فى أحشاء المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولا بصفحات المجلدات كعاشق متيّم قد التحم والكتاب فى غزل صامت وديع .

وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا يخطبون ودّه ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حى الحسين فى جولة من جولات صيده اليومى ، فانخرط فى شارعه الممدود ، حيث تتزاحم على جانبه الشرقى المكتبات متراصة ، تبدى له كل منها حلاها وتسفر عن مفاتنها وتدعه مقسم النظر بينها فى حيرة وافتتان.

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها فى تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربى» زعيم تجار الكتب لا فى حى الحسين فحسب ، بل فى مدينة المعز غير منازع ، فتوقف صاحبنا يجيل الطرف فيما حواه الحانوت من نوادر وألطاف .

فلما لمحه « الشيخ المغربى » مقبلا عليه انقطع عن تسابيحه واشرأب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأرئ بعينيه ، وما عتم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه فى إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمة ملق ، يهدى إلى صاحبنا التحية رافعاً يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول فى حماس :

أهلا . . . أهلا بالصديق الحبيب . . . صباحك صباح الندى ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك يسعى بين يديك . . . عندى اليوم لك بشرى وأى بشرى . . . درة فريدة لا يفضلك فى اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها إلى دررك الغوالى . . . كتاب جامع عن الأندلس . . . موضوعك المفضل ... تجد فيه شعراً عذباً ونثراً بليغاً ... وتاريخاً ، عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجم . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربى » ينشد جمله هذه وهو ينغم من صوته ويحد النظر فى صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ فى نفسه . فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم، وتماسك يقول مرسلاً ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :

الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات عفراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :

الثمن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه بجزء من الكتاب الأندلسى المرموق ، يناوله ويمينه تضرب جلدته ضربات خفافاً أثارت حوله غلالة رقيقة من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج الصوت محتقن العينين نافر الأوداج :

ـــ هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها ... تجدنى ولا غرو قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه فى دقة وعناية ثم رفع رأسه يقول والكتاب متثائب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

ــ ما تجود به أقبله . . . ليس بيننا مماكسة يا أخى .

ــ إن ابتغيت حقًّا إتمام الصفقة فعلىّ بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان فى مماكسة عنيدة أطالت من وقفة صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربى » عن وقاره وتحشمه ، فخاض فى حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ، مؤكداً قوله بالأيمان المغلظة أنه لو ارتضى إتمام البيع على هذا الثمن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جد مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى بالحاجة الشيخ ويقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربى » بقوله ويداه بالكتاب مشغولتان تربطانه كأنه طفل يهدهده ويتلطف به :

صدق بالله ... إنها صفقة لى خاسرة ... لقد قبلت إعزازاً لمنزلتك عندى... لغيرك ما فرطت فيه ولو بذل لى ضعف ما قدرت.

فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر، وانطلق بها فسيح الخطى يدف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الصيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح الصدر مشرق المحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت فى طيرانها ، تغالب الريح فى جرأة وإصرار .

وانسرح صاحبنا فى تفكير ، يتحين ساعة يلتحم وأرض الأندلس الحبيب فى مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .

كم من ليلة قضاها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ، تختلج فى نفسه شتى الأخيلة والأحاسيس .

شد ما تاقت نفسه إلى أن يستجلى ما هنالك من حضارة أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .

ويدوى فى الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا فى جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلقى

بأنظاره فى الفضاء، وكأنه أدلى بشص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.

وتطالعه الأندلس فى ثوب مفوف كغادة متأنقة تجتذبه من بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .

ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ، دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التى ألفها وأنس بها على مد الليالى وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلى ، وتشدو له شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمجم فى رطانة سقيمة لم يألفها لغة حديث بينهما من قبل ؟

أين هى من ذلك اللسان المستقيم الذى طالما أسكره بعذوبة تعبيره وترنيمة أنغامه ؟

ما للغادة نضت عنها ثيابها الفضفاضة يحليها وشى كوشى الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان فى مظهره القشيب ، ما فتئ يحتفظ بفضلة ناصلة من طراز شرقى رشيق ، فالمغانى تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة تتستر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس

ينفذ منها هو فتحييه حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية ينبجس منها الماء، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدى الخطى إلى الحجر والخدور .

رباه! أتكون الطائرة قد سخرت منه وغررت به فأضلته السبيل؟

إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة اللون لا تلائم ما تمثله لها فى كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور فى خلده أن غادته التى صافته زمناً ستقدم له فى يومه كأساً غير التى نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صلفة القلب ، جامدة الملامح ، وقد تألبت على التراث الذى ورثته لم ترع إلاً ولا ذمة ، بل انبعثت تركل وتبطش فى طيش جنونى وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودرة تاجهم الأغر .

ماذا ! ! إنها ما برحت على عهدها ، تردد من صدر مقرور ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضى ، ينكمش على تراثه يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ فى يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتمى عنده ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل فى زيارة إلى المسجد . . . مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .
دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقى بالمحراب حتى ألفاه حبيساً خلف نطاق من سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التى تزين جبينه فى خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر وتنشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إيه أيها المحراب . . . إن صمتك أنسانى ما حملت من تحيات وأشواق أنثرها فى حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .

إنها من أخدان لك فى قاهرة المعز ودت لو تم بينها وبينك تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التى تنسدل على منكبيك تتحلى بها فى تألق وبهاء .

سوف يحتفون بك لا مرية ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .
أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .
إنى أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .
أأصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحج الجموع الحاشدة إليه مسلاة وملهاة ؟
فيم صمتك بحق السماء ؟
ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟
تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيلات وأناشيد ، فجمد صاحبنا فى وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفتاه ، وغامت عيناه ، وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت الكلمات فى رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس فى عصور سوالف ، بعثت من مراقدها تردد فى إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث صوته أن تعاظم وتضخم ، وإذا هو يخر راكعاً يتشبث بالسياج والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها فى عنف ، وكأنه يبغى أن يقتلعها ، يمهد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .

العقبة

جلس السائق « مدبولى » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء فى انسيابها تنكمش وتنبسط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً فى حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه تترامى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عادته ، نجهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب فى صمت وسهوم ، وبين شفتيه لفافة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكليم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندى ، مقتعداً سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى فى أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يدف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كثب منه زوجه وقد تداخلت فى خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، لبثت حيث هى جامدة لاتحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام ، وفى مآقيها تتحير الدموع .

كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمحت السيارة جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولى » قبضته على عجلة القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر الطريق ، وقد ثارت ثائرته ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك وهو فى قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ، ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما ألجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبثت أن تهادت مجهدة تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر تفشت فى نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحد من اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولى » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته وديعة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق فى سماحة وأمان .

لقد اعتاد « مدبولى » أن يصاحب « الطريق العريض »

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدى الصلاة حاضرة ، فيعرج على الترعة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مماكسة ونزاع .

فليسرْ على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عتم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسمالها واكتست بردة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نضرة وبهاء .

وأصبح « مدبولى » يزهو بسيارته ، يسوسها فى رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق فى تيقظ وانتباه حتى أضحى به خبيراً وبخباياه عليماً، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار فى تمكن واقتدار.

إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل بخطر محقق وهلك وشيك، فالطريق يخفيها فى حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار.

إنها فى تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تتصيد إحداها ، تصرعها بما تنفثه على الطريق من سم زعاف .

لا غرو أن يحمل السائق « مدبولى » فى وليجة نفسه لهذه الحدبة المتورمة حقداً دفيناً ، ولا غرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ، حتى أصبحت شغله الشاغل فى ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم الحيطة والحذر مجنداً فى معركته اليومية حواسه جمعاء : العين منه ثاقبة ترصد الطريق فى تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة فى إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحث السيارة على إسراع ، وآناً تبطئ بها فى تحرز واحتراس .

إنه كلما تخطاها حدجها فى استعلاء وكأنه يهمس لها فى سخرية : لن تناليني بسوء أيتها الحدبة الشوهاء ، ويخالها تبتسم له فى فتور متوعدة إياه فى هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياب .

لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجذورها متأصلة فى أحشائه يتعذر أن يسبر لها غور ، وأن يصل إليها مبضع جراح .

ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية فى مسيرها تتعثر ، و « مدبولى » يتوسم الطريق مبتئس الملامح ، يواصل التفكير فى مرض صغيرته ، وقد شعر بها تتشبث به عندما نحاها إلى زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ، فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدراً انساب فى أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيما هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتنحرف بها فى عنف على حافة الطريق ، فتتقلص فى مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تحسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولى » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة ثائر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهيضة الجناح ، وقد جمد محركها يلفظ فى عناء آخر الأنفاس .

ولا يتمالك « مدبولى » إلا أن يرتمى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبروكة » ترجف وتهذى من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولى » ينشج فى حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدبة المتورمة ، على حين انبعثت قدمه تدق رأسها فى عنف واهتياج ، وكأن الحدبة المتورمة فى تثاؤبها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .

ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، فى ضجة ما بعدها ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق المحيا ، وقد نضا شملة السكون الخامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .

وإنى أتمثله ، فى موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء المستبدين ، انبعث يفرض علينا سلطانه فى إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر تستنزف قوانا فى مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن تأخذه بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .

مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظللت فى مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش، كما تعيش القواقع فى تفرد، أنعم فى مثابتى بأنس وصفاء .

مخبول هو من نعت النساء بصفات الضعف، والدعة، واللين.

إنهن ، أعزك الله ، نمرات متمردات ، دائمات الشكاية والتأفف ، همهن الأكبر فى يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن ، إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن الأظفار ، على رأس المحك الدقيق ، كما يشحذ السنان الدرب ، نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

إنهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندى الحصيف ، يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلبى به ، دعوة الداعى ، متى نفخ فى البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الخضاب الأحمر يطلين به شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجبنك فى براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة وتجمل . . . ليس إلا ..

لا . . . لا تسمع لهن .

إنهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، يندين به

شفاههن الظامئة إلى فتك وانتهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم فى الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم فى أولادهم يعيشون ، وفى أولاد أولادهم ، هم مستمرون متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جبناء رعاديد ، يتهيبون الموت وجلة قلوبهم ، فيخلقون هذا الوهم ، يتعزون به عن الموت ، ويقصون من دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ، أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبي عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هى إلا شر الحياة ، ووجهها المكفهر العبوس .

أليست هى بطوناً خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هى أجساماً عارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هي ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى صقل وإعداد ؟

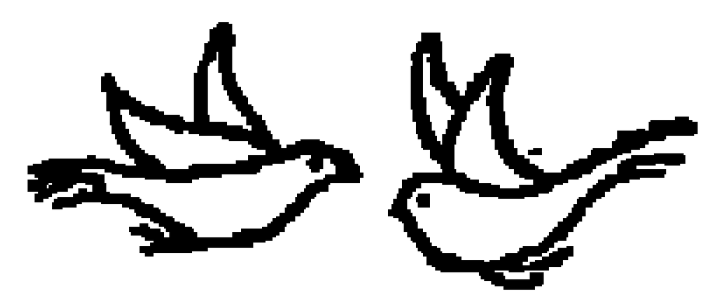
أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندى لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب مسرفة تسلمهم إلى إعياء وضنك .

وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التي أحياها ، وأنا فرد أعزل أراني ، في هذا اليوم ، وقد خرجت نفسي عن طاعتي ، كدابة حرون تأبى السير في طريقها المرسوم .

لا غرو إذن ، أن ألقى ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ، أستنكر منه تطاوله على نقودي ، يبعثر في السوق ، خلال ساعة ، ما اقتصدته في شهور .

وتشهدني القرافة ، مع الأصيل ، أسلك دروبها العفراء ، محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً في لفائف من حرير ، ومن خلفي رجل بطين ، قصير القامة ، مكتنز العود ، يتقفى أثري ، متلاحق الخطو ، وقد توج رأسه سفط الفاكهة والتمر ، على حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،



ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وئيد ، وله من عينيه حدقتان تدوران فى محجريهما ، فى تلصص ، وعلى شفتيه ، يتحلب ريقه كما يتسايل لعاب الثور لمرأى أعواد البرسيم النضير .

وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرنى حشد العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا فى هرج وهياج كأنهم قطيع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى عواءها الكئيب .

وسرعان ما أدفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ، وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أخاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى فى المعركة بالنصيب الأوفر ، لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ، فإن تفقدته عيناك ، ألفيته منكمشاً فى ركن من الجبانة قصى ، خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها فى غفلة منى ، يلتهمها هانئاً ، وبين القضمة والقضمة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضابها الشهى ، يرطب به حلقه الغصان .

فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ، أنثر عليها أعواد الريحان ، وعن كثب يتربع قارئ ضرير ، يرتل آيات الله المحكمات ، آناً يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ، وآناً يتقاصر ويشرئب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل فى جلستى تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطير إلى عالم الخيال ، فيرتد بى الزمن إلى عهد خلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت فى مكانى قاب قوسين من اللحد . . . . اللحد الذى سوف يضمنى حتماً إليه .

وكأنى أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها العفاء والصمت ، وتندفع فى حركة وحديث ، وكأن شريان الحياة لم ينقطع عنها ، فهى تسعى بين يدىّ سالف سعيها ، وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعى ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، فى عصرنا الحديث ، إذا قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها فى حفظ ما استودعت من العطب والضياع .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة فى معناها وجوهرها ، تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسى أمسح دمعة حزن فرت من عينى .

واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتنى أصافح وجوهاً جاءت إلى المقابر مثلى ، تحيي موتاها من الأعزاء الراحلين .

وتعثرت نظراتى فى تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ، بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهاوى شاهداه ، فلم يبق منه ، إلا أنقاض أحجار مثلمة ، كأنها أسنان نخرة صفر ، انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم حول الجدث ، ويتشمم جداره ، وقد امتد خرطومه البليل إلى فجوات القبر يتفقدها فى هوس .

وما عتم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه المحموم ، واقتعدها يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ، وتقلصت عضلاته ، واشرأب رأسه يرأرئ بعينيه ، يصافح خطرات النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو « وت غضوب .

وهزنى ما رأيت هزة ، زلزلت كيانى ، فقفزت أعدو ثائراً ،

أتوعد الكلب فى صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ، فأصابه فى رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .

ومثلت أمام القبر ، ووقفت فى صمت أتملاه ، ودارت فى رأسى خواطر .

حقاً ما أحزنه من قبر بين القبور .

أين هو من هذه الأجداث التى تزينها الورود والرياحين ، وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .

أكذلك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟

يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .

البنون . . . البنات . . .

وتراجعت عن القبر مشتت الفكرة . . . تائه النظرة . . . وقد عرتنى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . . أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !

خمسة قروش

إلى صغيرتي ع. ر. مع الحب والإعزاز

هي طفلة لم تتخط بعد عهد التفتح والازدهار ، ضن عليها القدر برفيق تأنس به ، فظلت وحيدة أبويها تعيش في كنفهما عيشة العزلة والانفراد .

دنياها التي ألفتها : عم كسيح قيد الشلل أوصاله ، لا مشغلة له في يومه الأطول إلا الشكاية والسخط ، وعمة اغتالت المنية عائلها فخلت لطفلة أخيها ترعاها في صرامة وحزم ، فما لبثت أن فترت صلات الطفلة بعمتها لما تلقاه على يديها من شدة وعنت .

وكانت الطفلة تلقى في الحين بعد الحين خالة لها عقيماً لم تكتحل عيناها بمولود بعد ، فصبرت على حرمانها تمنى النفس حتى تبدت في سمائها تلك الطفلة ، فحومت حولها تحويم الحمام على فرخه الصغير .

لم يكن مستغرباً من الخالة أن تبسط لابنة أختها جناح

حنانها كلما قدمت لزيارتها ، ولم يكن من المستغرب من الطفلة أن تسعى إلى خالتها تطلب عندها الأنس والسلوى ، فما جمعتهما جلسة مشتركة إلا ارتدت بالخالة السن فتبدو وكأنها صبية لها ما للصغار من خصال ، وفيها ما فيهم من مرح ونزق .

واستقر فى ذهن الطفلة أن خالتها ما هى إلا خدين تلعب معه وتسمر ، إذ كان من المحظور عليها أن تشارك لداتها من صغار الحى الانطلاق والمراح ، فقد أزمع والدها أن ينشئها تنشئة طابعها جد واتزان .

لا غرو أن تنبت بين الخالة وبنت أختها أواصر ألفة سرعان ما تطورت فأضحت حباً عارماً يحمله كلاهما لصاحبته دون مواربة أو خفاء .

واعتادت الطفلة كلما باعدت شواغل الحياة بينها وبين خالتها أن تجلس إلى « الهاتف » تناجيها فى ثرثرة موصولة ، وتنمق لها لوحاً يستوعب كل ما وقع لها من حوادث ومغامرات ، فتظفر من خالتها على متن الأثير بالمديح والإطراء فى حديث مؤنس ترصعه نكات ودعابات .

ويوماً أسر إليها الهاتف بنبأ أزعجها .

ذلك أن خالتها حليفة الفراش مقيدة إليه بأمر الطبيب .

وفى حجرة المريضة وقفت الطفلة على سر المرض ، وهى تنصت إلى صوت خالتها يترنم بقولها ، وقد التمع وجهها من بشاشة وإشراق :

عما قريب يكون لك رفيق تمرحين معه وتلعبين .

وانطلقت الطفلة تسأل وقد أثار قول خالتها فضولها :

متى يكون ذلك . . . أفى غد أظفر به ؟

ـــ لا يا حبيبتى . . . بعد بضعة أشهر .

ـــ أيمكننى أن أراه ؟

ـــ لم يحن الوقت بعد .

ـــ وأين هو الآن ؟

فأومأت الخالة إلى جنبيها تقول وقد التمعت عيناها وتورد خداها من اعتزاز وزهو :

هنا .

وامتدت يد الطفلة إلى خالتها تتحسسها فى رفق وتهيب .

وابتسمت الخالة تسألها :

ماذا تريدين أن يكون المولود . . . بنتاً أم غلاماً ؟

ـــ بنتاً . . . نعم بنتاً .

واتفقا فيما بينهما على نوع المولود دون أن تبدى الخالة أى تمنع أو اعتراض .

فليكن ما يكون . . . المهم أن تظفر الحامل بمولود تسعد به وتستبشر .

ويوماً دلفت الطفلة إلى خالتها تحمل بين يديها صرة صغيرة، وتقربها من سرير الخالة تفك عقدها وهى تشقشق بقولها :

هاك بعض الملابس . . . خطتها بيدى .

وأنشأت تعرض على خالتها مزقاً هينة لا تصلح لبوساً إلا للعرائس والدمى .

لم تمالك الخالة إلا أن تحتضن الطفلة تطبع على خدها قبلة حافلة ولسانها لا ينفك يرطب مسامع الطفلة بكلمات التشجيع والإعجاب.

وتصرمت أيام .

وجاءتها الطفلة تزورها على المألوف ، وما استقرت بجانب خالتها على السرير ، حتى دست يدها فى يدها تقول :

هاك خمسة قروش . . . هدية للمولود .

فابتسمت الخالة ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنت الطفلة تقبلها فى شوق مزيد . .

وقهقهت الأقدار وهى تضرم النار فى ذلك الحلم السعيد ، فما نشب أن تناثر رماده فى رحاب الفضاء .

أجهضت الخالة .

وتبين للطفلة من أمشاج الأحاديث أن أمنيتها خنقت فى

مهدها ، وقد غيبتها الأقدار فى عالم بعيد المنال . . . فى جب سحيق تسد فوهته جنادل صماء .

ومنذ ذلك الحين حبست الطفلة لسانها لا تجريه بذكرى ذلك الأمل المفقود .

وطويت أسابيع .

وكانت الطفلة جالسة تثرثر لخالتها ثرثرتها الأنيسة .

وعلى حين بغتة كفت عن الكلام ، وواجهت خالتها تهمس لها بما كان يشغل بالها ويمض خاطرها :

أين خمسة القروش . . . . لم يعد لك بها حاجة !

وأحست الخالة بطعنة تنفذ فى أعماقها ، لكنها كظمت ألمها ، وقامت متثاقلة إلى حجرة نومها ، تستخرج من صوان الملابس صرة المزق وكانت النقود بينها ، فأخذتها وعادت إلى الطفلة وهى تجتلب لفمها بسمة متكلفة ، وتقول :

هاك النقود يا حبيبتى . . . تستطيعين أن تبتاعى بها ما ترغبين فيه من حلوى .

ووثبت الطفلة إلى الباب خارجة وهى تتمثل ما سيقع عليه اختيارها لتشتريه ، على حين انكفأت الخالة على وسادتها تلوذ بها لتخفى فى طياتها عيناً تحيرت فيها الدموع .

ساعة راحة

استلقت « سنية » تتقيل بعد ما أصابته من غداء دسم . واستوى زوجها على مقعده الوثير وقد تحرر من رباط الرقبة ، واستبدل بحذائه خف البيت المريح ، وما إن اطمأن فى مجلسه على المقعد الرحيب ، حتّى حانت منه التفاتة إلى جريدته ، فنشرها بين يديه ، وأخذ ينقل نظراته بين سطورها يتلقط الأنباء ، فاتر الهمة ، متخاذل الأوصال ، وقد تدلت من فمه لفافة تبغ يتشكل دخانها دوائر وحلقات .

وأظل الزوجين صمت موصول ، وكلما قلب « عزيز » صحائف الجريدة خشخشت تشوب رونق السكون .

وكانت أسجاف النوافذ مسدلة تحجب وهج النهار ، فأضفت على الحجرة جوًّا من رخاوة وهدوء ، وغازل عينيه طائف الكرى ، فما عتم أن استجاب له فى رضا واستسلام .

ومضت الدقائق يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، فتجمعت فى حساب الزمن ساعة ، وما انفك الزوج غائباً عن العالم المحسوس

ينبعث منه غطيط ملحوظ .

وتتابعت حشرجة الزوج تحاصر مخدع الزوجة ، وتنفر عنها لذيذ النعاس ، فاعتدلت تبصر زوجها ما فتئ على كرسيه ممدداً ، والجريدة تتدلى من يديه حتى تلامس الأرض ، وخصلة شعره تتشعث على جبهته ، وفمه منفرج عن ذلك الغطيط المسموع ، فاستشعرت بعض الضيق ، وجالت نظراتها فى عرض الحجرة على غير هدف كأنما تتلمس فى أثاثها مسلاة تعينها على قتل الوقت ، ريثما يستيقظ رفيقها النئوم ، لتعاود معه الحياة .

وأولت وجهها سقف الحجرة ، فما وقعت عليه عيناها، حتى تشبثت به لا تقوى أن تزور عنه ، كأنه يشع تياراً كهربياً يجذب إليه البصر .

وكان من المألوف لديها ، أنها إذا علق نظرها بالسقف استبد بها سهوم يدنيها من عالم الأحلام . وسنحت لها فكرة ، فكرة لطيفه شائقة ، فلم تطق أن تتركها فى تلافيف رأسها الفضى ، فتنحنحت مرات تقطع على زوجها نومته ، فاضطربت أوصاله يتنبه ، وما هى إلا أن فتح عينيه ، وأطلق تثاؤبة كبيرة وهو يهمهم :

أنت يقظى . . . ماذا فى الأمر ؟

فقالت له الزوجة تداعبه وتزجى ضحكة لينة عابثة :

هبطت علىّ فكرة . . . أقسم لك إنها لا تخلو من طرافة.. إن سقتها إليك سررت بها لا ريب . . . ستتيح لنا فرصة لهو ومؤانسة . . . سأحدثك :

— تحدثينى ؟ !

— أمامنا متسع من الوقت، ولم تحن بعد ساعة الخروج . . .

ففرك الزوج عينيه فى دهشة ، وحملق فى زوجته يتبين تلك الفكرة التى طرأت على غير موعد ، فقطعت عليه فترة الدعة والاستجمام . . .

وتهيأت الزوجة للكلام ، وإذا هى تقول :

ماذا يا « سوسو » أما زلت نائماً . . . ألا ترعينى سمعك ؟

وهز الرجل كتفيه حانقاً ، وأقبل على نفسه يلملم ما تبعثر من شأنه ، فنحى الجريدة عنه ، وعمد إلى خصلة شعره النافر يسويها ، ليستمرئ تلك الفكرة الطريفة التى هبطت من السماء على زوجته ، لتنصب على رأسه شقوة ونقمة . . .

وسارعت الزوجة تكاشف رجلها بذات نفسها فى تحمس ، وهى تستجمع على السرير ، وتعتمد ذقنها بإحدى ركبتيها ،

وعيناها يتلألأ فيهما دهاء :

هب أننا لم نكن متعارفين ، وهيأت لنا المصادفة أن نجتمع . . . فالتقينا . . . أين يا ترى ؟ . . . .

ودارت « سنية » برأسها تفتش عن عش لائق ، وبعد لأى خرجت من صمتها تقول :

وجدته . . . دار الخيالة . . . اكتشفتنى أنت وأنا أبتاع تذكرتى لمشاهدة العرض . . . كنت تلينى فى الصف عند الشباك . . . فتنتك وسامتى وهمت بى أشد هيام . . . تعمدت أن تظفر بالمقعد الملاصق لمقعدى . . . تحققت لك الأمنية فجلست بجانبي . . . هذا هو الافتراض . . . ساذج بسيط كما ترى . . . .

وتململ الزوج يزجى بكلمة ، لكنها تابعت تقول :

يحق لى أن أسائلك إذن ماذا كنت فاعلا . . . أتحاول ملاطفتى والتودد إلىّ . . . ؟ أتقبل علىّ مطنباً فى إطرائى مشيداً بطلاوتى . . . ؟ أتتحين الفرص لملامسة يدى تبتغى بها الوسيلة إلى مجاذبة الحديث . . . فإن زجرتك تصنعت الأسف ، وأطلقت لسانك بكلمات استعفاء . . . أكنت واجداً نفسك مسوقاً تختلس إلىّ النظر تشفى به قلبك الولهان ؟ . . . بماذا

تجيبنى . . . ؟ تمعن . . . كل كلمة تتفوه بها لا ريب محسوبة عليك . . .

واستمع « عزيز » إلى زوجته وهو يتميز من الغيظ ، فأطلقت « سنية » ضحكة طائشة ، وغمغمت :

. . . عند الامتحان يكرم المرء أو يهان !

وشفعت قولها بابتسامة ساخرة .

وأطبق عليهما الصمت ، وانصرف الزوج يحك رأسه بأنملته يفكر فى إجابة لا تأخذها عليه زوجه ، فتعكر بها صفو يومه .

وأحد الرجل فطنته ، غير أنه ألفى نفسه صامتاً لا ينبس ، فنهضت إليه زوجه فى غلائلها التى تشف عن جسدها البض وعودها المشيق ، فأطال إليها النظر يتملاها وعيناه تفيضان بالأحلام .

وأدركت الزوجة ذلك منه ، فرفعت صوتها تقول والبشر بتوضح على محياها :

ستحاول حتماً مغازلتى . . . ستسر إلىّ بكلمات المديح والإطراء . . . ستتحين فرصة انكماش النور لتلمس يدى . . . ستتصرف مثل أترابك ولداتك . . . واهاً منكم معشر الرجال .

وأمسكت هنيهة تجتذب أنفاسها . . .

حقًّا إنه لرجل مثل سائر الرجال . . .

ماذا يعصمه . . . ؟

لن يكون إلا كذلك ينساق فى مغازلة رخيصة ، لا يحجم ولا يحتشم .

واستبد بها هذا التفكير الحائر ، وانقلب زوجها هذا الرجل الكريم فى عينيها عابثاً ماجناً غير مستقيم ، وشاعت على وجهها مسحة من كآبة واغتمام . . .

واستبان الزوج ما تعانيه « سنية » من هيجة وقلق ، فأقبل عليها يبغى كلاماً ، ولكنها صرخت :

دعنى أتم لك حديثى . . . . لم تكن تفوتنى خفية نفسك ومكنون حيلتك . . . عهدتك ونحن فى الطريق أو فى محفل جامع تقلب النظر فى الأوانس الكاعبات تكاد تبتلعهن بنظراتك العطشى ، ولسان حالك يقول : حرام أن يغلوا رقبتى برباط الزواج مبكراً . . . وكم مرة يطالعنى وجهك وقد شاعت فيه أمارات غم وتحسر . . .

وأراد الرجل أن يخرج من صمته ، وقد ضاق ذرعاً بذلك الافتراء الأثيم .

أليس من حقه أن ينفى ما يرمى به من نعوت ؟

لا . . . إنك لا تملك لنفسك حقًّا !

واعتدل الرجل فى جلسته يشعل لفافة تبغ ، وكان ينفخ دخانها فى ضيق ، على نحو مثير .

فألفت « سنية » نفسها منساقة تتطلع إلى الدخان المتطاير ، وجمجمت فى غيظ :

نعم . . . أنت تشعل لفافتك لتخفى ما أنت فيه من حيرة وارتباك . . .

فأشاح الرجل بيده ، وهو يمط شفته علامة النفى ، فسمعها تهمهم :

إنى على حق . . . كل الرجال خونة . . . خونة . . . أسامع أنت ؟

وصدفت عنه « سنية » تلوذ بركن قصى وهى تبرطم ، وقد استبد بها نشيج تقطعه تلك العبارة :

لا تحسبنى أغار . . . فهذا آخر ما يخطر لى على بال !

وماذا عليه إن كان عابثها ؟ . . . ألم يكن يومئذ مثل هذا الهواء طليقاً لا إمرة لأحد عليه ولا سلطان . . . ؟

وأين هو من الخيانة . . . ؟ ألم تفترض فى معرض الحديث أنه أعزب ليس فى حياته امرأة توجب عليه حقًّا يرعاه . . . ؟

يا للنساء . . . !

عليه معالجة الأمر ، عليه أن يترضاها وأن يستغفرها من ذنب لم يقترفه .

وهبّ الزوج يترك مقعده ، وسار إلى زوجته يشيع على محياه اضطراب وأسف ، وحاول أن يحنو عليها ويحتويها فى صدره ، فأزاحته عنها فى حركة تنم عن التأفف والاستنكار .

ولكنه هبط على أذنها فى ملاينة وتلطف قائلا :

هبى أن ذلك وقع لك ولى ، ألست تسعدين بأن زوجك أعجب بك قبل أن تصل بينكما عقدة الزواج ؟

فردت عليه فى جفاء ، وما فتئت توليه ظهرها ، شامخة الأنف :

وهل كنا زوجين . . . ؟

فقاطعها يقول محاولاً الإقناع :

لقد أصبحنا زوجين !

فأقبلت عليه توليه وجهها وما برحت شرقة بالدمع :

لم تكن تزوجتنى بعد !

— ماذا يهم ، وأنت نفسك فى الحالين بيت القصيد ؟

وتلعثمت الزوجة ، فأردف يقول :

ألم يدللك كل ذلك على قوة إعجابى بك وحبى إياك ؟

وجنحت « سنية » إلى المسالمة ، فجذبها إليه ، فطاوعته ، وتمتم فى صوت خافت وهو يحتويها بين ذراعيه :

ما زلت هائماً بك يا « سنية » . . . ملكت قلبى . . . أحبك . . .

فقالت له فى تخلع ودلال ، وهى تجتذب منديله من جيب سترته ، تجفف ما تلألأ على خديها من دموع :

ماذا تقول ؟

أحبك . . . أحبك . . .

وتنهد الزوج تنهدة مديدة ، فأقبلت الزوجة عليه ، عينها متناومة ، وفمها يتردد ، فهوى عليها فى قبلة محتدمة ، وعناق جياش ! . . .

صل من أجلى

انحنى على الطفلة بعوده المفتول ، واستقبل جبينها المرح يودعه قبلة طويلة وهى موشكة أن تنام .

ولامست أنفاسه وجهها ، فطوقت عنقه بساعديها ، وهبطت على وجنتيه تلثمهما فى حرارة وإصرار ، مفضية بما تكن لعمها من محبة وإعزاز ، فلم يسعه إلا أن يضمها إلى صدره ضمة اشتياق ، واستغرقا على هذا النحو فى عناق جياش .

وما إن دار على عقبيه ينأى عن السرير ، حتى استنكرت منه الطفلة فى مهدها ذلك الفراق العجول .

وتشعثت حركاتها ، وكثر شغبها ، فغشى الفراش فوضى وكأن ما تناثر من أغطيته ، وتبعثر من أرديته غوارب موج علت بها ثائرة الريح ، فانكب العم على السرير يصلح من أمره ويسوى حواشيه.

لم يغب عنه وهو يسجى الطفلة من جديد أن يدمث لها الوسادة كى يستوى رأسها فى وضع مريح ، فتنام ساكنة البال قريرة العين ، ثم بسط الغطاء يدثرها به خشية أن يصيبها من برد الليل أذى .

وسرعان ما عدل قامته ، وأدار ظهره ، ملتمساً فى خطاه البهو الكبير .

بيد أن الطفلة لم تهدأ لها حركة وتمادت فى غيها تصخب .

وفطن العم إلى ما تبتغيه الطفلة : إنها لم تقصد من وراء عملها هذا إلا المماطلة والتسويف ليمتد اللقاء فلا تشق إلى النوم من طريق.

وحين استدار العم على عقبيه يواجه الطفلة ، تصنع الغضب ، فأكسب ملامح وجهه سيماء الجد والحزم ، وكذلك شحذ حنجرته ، فى سعلة عالية ليخرج صوته الهزيل ، جهورى الجرس ، يوقع فى روعها التخويف والترهيب ، وهو يصرفها عن غيها المألوف كلما أوت إلى الفراش تهدأ وتستريح .

ولما نطق يؤنبها ، انكسرت حدة صوته ، وملكت عقيرته رنة عطف وخلجة حنان ، وما ابثت أساريره المربدة ، أن انفرجت يكسوها إشراق .

ليس ذلك بغريب عليه : إن إرادته الصلبة حيال الطفلة شمعة واهنة تحترق وتذوب .

ومثل للطفلة يبتسم .

بيد أنه ألفاها عاقدة الجبين ، زاوية ما بين حاجبيها ، ترميه بنظرة يتجلى فيها أسف وعتاب ، فجلس على حافة السرير

يداعب وجنتها بقبلة خاطفة ، وقد احتوى يدها الصغيرة بين كفيه ، وانبعث يخاطبها فى وداعة يقول :

كفاك عناداً يا طفلتى . . . مكثت معك أكثر مما ينبغى . . . لا أود أن أكون سبباً فيما ينشب بينك وبين أملك من اوم وتعنيف . . . دعى الليلة تنقضى فى سلام . . . هيا . . . عليك بالنوم . . . أعدك إن شاء الله أن يكون بيننا فى غد اقاء.

وهم واقفاً يخلى حافة السرير .

فتعلقت به الطفلة تغمغم فى صوت محزون :

لا تتركنى . . . ابق معى . . . أنا خائفة .

وراع العم ما سمع ، وطفق يمسح على رأسها بيده ، ويلاعب خصلات شعرها الخضيب ، متبسطاً فى الحديث يسائلها :

وما سر خوفك يا طفلتى ؟

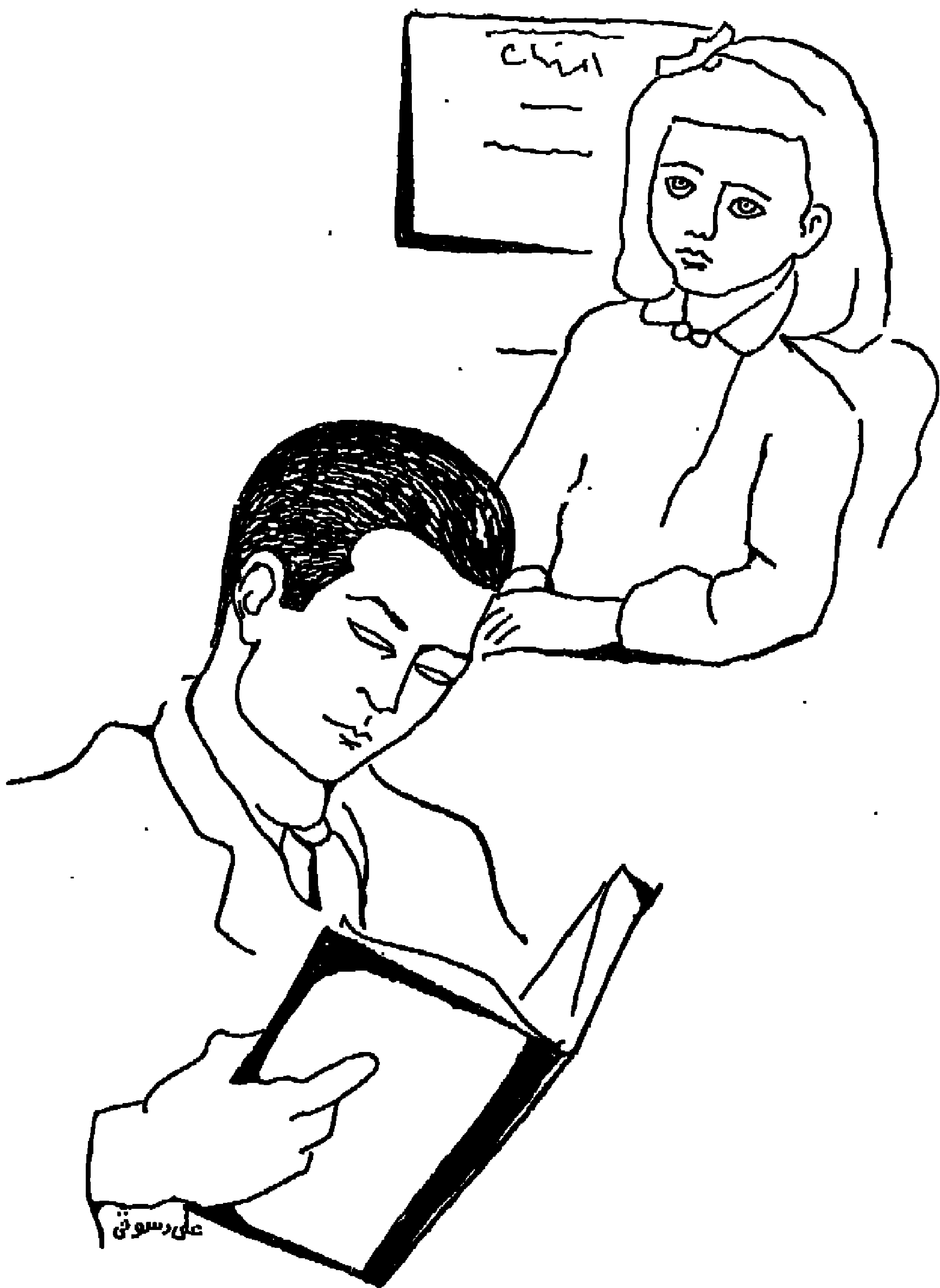
وأطبقت الطفلة على يده وقد استبانت على محياها ظلال امتقاع ، وهى تقول :

فى غد يكون الامتحان .

— أوَهذا سر اضطرابك يا بنية ؟

وأومأت الطفلة برأسها تؤكد قوله مسبلة الجفنين .

وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يبادرها بقوله :


امتحان
علی رسوتی

خيال ما تتوهمين . . . يوم الامتحان لا يخيف . . . ليس فيه ما يعكر الصفو . . . ستجدين فيه ما تألفينه فى كل يوم : أنس من أترابك وحفاوة من مدرساتك ومدرسيك .

يا للحجة الداحضة ، ويا للمنطق السقيم !

زعم باطل ذلك الذى ساقه من قول .

لا ريب أن الامتحان ظله ثقيل وموقفه بغيض .

لطالما انتابه منه فزع مروع وهلع مستطير .

أوَناسٍ هو ؟

ألم يسهد الليل بطوله خاوى البطن ، محموم الأوصال ، وفى خياله منظر المدرس منتفخاً على مقعده وكأنه ضرغام جسور يحدجه بالنظر الشزر ، وما أسئلته إلا أنيابه المسنونة تنهشه نهشاً ، فيقف منه ، واذلاه ، يابس الفم ، متخشب اللسان ، لا يحسن إلا الفأفأة ، وهو يتخبط فى أجوبة طائشة .

فلماذا يألف نفسه الساعة مسوقاً إلى تضليل للطفلة وتغرير ؟

وانتبه العم على صوت الطفلة تناديه ، فالتفت إليها يقول :

هل من جديد ؟

فرققت الطفلة من صوتها وهى تعابث حاشية الغطاء :

لى عندك رجاء .

ـ مطلبك على العين والرأس .

ـ صلِّ الليلة من أجلى . . . ادع الله أن يلهمنى الصواب فيما أكتب وأجيب . . . إنى بك متفائلة و بدعائك مستبشرة .

ـ لك ما تبغين يا صغيرتى .

وانحنى على الطفلة يقبل جبينها قبلة خاطفة ، وراح فى خطاه يتوخى باب الحجرة ، ولكن صوت الطفلة ناداه يستوقفه قبل أن يدير مقبض الباب وينصرف ، وسمعها تقول :

سهوت عن أن ترقينى على مألوف عادتك قبل أن أنام .

وكر العم راجعاً إليها ، ومر بيده على رأسها هامساً برقيته .

واستشعرت الطفلة راحة تسرى فى أوصالها ، واستسلمت للنوم.

وزايل العم الحجرة يحاذر فى خطوه ، ومن ثم ترك المنزل ايلتقى بالطريق ، فصافح وجهه نسيم رطب عطر .

وتحيرت قدماه : إلى أين تسعيان .

وتطلع إلى ساعته فألفى الليل قد توغل ولا أمل اه أن يذهب إلى منتداه المفضل يستمرئ فى صحبة الرفاق وقت مؤانسة وصفاء .

ومكث غير قليل لا يعى ماذا يصنع .

ما باله يستشعر أن فى دخيلة نفسه ما يشبه حجراً ثقيلا يعوق انطلاقه فى تلك الأمسية التى رق هواؤها ورطبت أنفاسها .

وتريث في وقفته يبسط أوصاله ويضمها مستعيداً نشاطه المألوف.

وبعد لأى ضرب يديه فى جيبي سرباله وأطلق العنان لقدميه لا يعرف لخطواته قصداً ولا وجهة .

وعرجت به خطاه فى طوايا الطريق على ضفة النيل ، فظفر به يسبح فى لجة من فضة ، نامياً على صفحته القمر مكتمل التألق والبهاء، فعقد ذراعيه على صدره وقد تاه فى أجواز الخيال.

ما لتلك الطفلة تخوض فى شأن صلاحه وتتوراه تهرف فى الحديث بما تجهل ؟

من يكون هو فى تقديرها لتطالبه بالدعاء ؟

ألمجرد عبادة وصلاة يصبح قدساً من طهارة وقبساً من نقاء ؟

الصلاة ما هى إلا مظهر ، تكليف واجب الأداء ، لا يتكيف بها حكم على إنسان .

إن الطفلة لا تعرف من حقيقة أمره إلا مجرد طلاء ، شأنها شأن المتطلع إلى قبر تحليه النقوش والرموز لا يدرى ما تضمه غيابته.

وما قلبه إلا غيابة ذلك الجدث .

كل ما تعرفه الطفلة أن عمها رجل سمح الوجه ، ندى الكف ، أنيس الجليس ، ملء نفسه تقى وصلاح . . .

ولكنها تجهل أن هذا العم لم يسلم من الإثم ، ولم يكن

بالطاهر العفيف ؛ لقد وقع فى حبالة هوى غير مشروع .

ها هو ذا يعكف فى صومعة ضلاله، ومحراب غوايته، يحرق عقله ويذيب إرادته بخوراً يعطر ذلك الهوى الذميم .

لم يكن بأقل وثنية من هؤلاء الكهنة المتعبدين الذين يستهلكون الساعات الطوال يرددون الصلوات والتعاويذ أمام دمى خرساء .

أثمة اختلاف بين الإحساس بالرغبة وإنفاذ المبتغى المراد ؟

كلاهما فى عقيدته إثم يصرخ الضمير منه ويلتاع .

هذه المرأة التى شغفته حبًّا ذات زوج وولد ، وإنه إن التقى بها ، وما أكثر لقاءهما ، سعى إليها بلواحظه يلتهم منها قدميها الناصعتين المتوردتين ، ثم تسبح عيناه إلى الساق البديعة الملساء تموج فى جوربها الهفهاف ناعمة بضة ، ويعلو بأنظاره إلى شفتيها المكتنزتين كأنهما حبتان من كرز ناضجتان ، وما يزال فى تطوافه بالمفاتن مسحور العين ، مشبوب الوجدان .

أليست صلاته وسط هذه الزوبعة الآثمة ضرباً من الزيف والضلال ؟

أيحق للطفلة أن تطالبه بتوسل ودعاء ، وهو كنقد تتداوله الأيدى دون أن تفطن إلى زيفه ؟

ما أكثر ما استمتع بحبه المحرم فى أحلام يقظته ورؤى نومه.

فما إن يحتويه فراشه ويغمض عينيه حتى يجسم له الوهم صاحبته تشق الظلمة عليه وتبادره فى غلالة كاشفة تماوج على خصرها اللدن فى إيقاع متزن يساير خطوها الرزين وهى تدانيه كأنها خطرات النسيم .

وهنا ينسدل الستار على وهمه الكاذب ، فيتنبه من أحلامه ناقماً على نفسه ، منكراً ما يطوح به خياله فيه .

لا . . . إنه لن يصلى . . . هى كلمة قالها ولا مرد لها .

وصدف عن النهر مهزوم القوى ، تترنح خطاه .

وبلغ شقته .

وما إن احتوته حتى صدمته الظلمة الجاثمة فى أرجائها ، وتعثرت قدماه بما اعترضه من أثاث ، فازداد ضيقاً على ضيقه ، وانبعثت من حلقه كلمات التأفف والاستنكار ، وعجل إلى زر الكهربا يطلق الإشراق من معقله فخرج النور يهزم جحافل الليل.

وقصد ، على الفور ، حجرة نومه يستبدل بملابسه منامته الرحراحة ، ويستكمل زينة المساء ، ولكنه عزف عنها وما زال مكتمل البزة قاصداً مكتبته يتودد إلى مجلداته وأسفاره ، فلم يرقه عبوس الكتاب وهو قائم فى صوانه خلف البلور الشفاف ، ففزع إلى حجرة الجلوس ، وعرك مفاتيح المذياع ينطقه ، بيد أنه ما أبطأ أن أسكنه ، ومضى إلى البهو الفسيح ، وهكذا

أخذ يحوم فى الحجرات مثل النحلة الدؤوب ، تضيق به رحبات شقته ، دون أن يركن لمقعد أو يخلد إلى ركن ، يصيب عنده طمأنينة البال .

يا لله . . . الطفلة ما فتئت تطارده حيث حل ، وتطالبه فى ضراعة بالنجدة والغوث .

كيف تتمتم شفتاه بدعوة ، وكيف به يجهر بصلاة .

أليس هو الآثم الأكبر : ما رعى خلقاً ولا فضيلة ، وما كان ممن تحتفى بأدعيتهم أبواب السماء .

وامتدت يده إلى عنقه تفك عنها رباط الرقبة ، ثم عمد إلى زر بنيقته يفتحه .

وخطا إلى النافذة يملأ رئتيه بالهواء بعد أن تخفف من سترته ، وشمر عن ساعديه . .

وشعر بشىء من الراحة .

بيد أن حلقه يابس يطلب جرعة ماء .

وذهب إلى المستحم ، وقابلته المرآة ، فمثل يتوسم وجهه وكأنه ينظر إلى شىء بغيض يمجه ويكرهه .

أنضح وجهه بما طوى عليه صدره من غواية وضلال ، فانطبع على المرآة يشوه إهابها المصقول ؟

كفاه تحديقاً إلى شبحه المسئوم .

فليعمد إلى الماء يبل به ريقه ويمسح وجهه ليعيد إلى شحوبه نضرة الحياة !

وانبسطت كفه إلى صنبور الماء تدير مقبضه ، فانبثق الماء يفور فى الحوض ويمور ، بيد أن كفه بقيت ساكنة لا تمتد إليه .

متى كان الماء يمحو ما اصطبغ به وجه إنسان من خبث ولؤم وضلال ؟

أفى مقدور رذاذ أن يغسل المأثم ، ويطهر ضمائر العصاة ؟

يالله ، لكأن خرير الماء عبارات الطفلة تنهال عليه واضحة النبرة ، جلية الجرس ، تحثه أن يجهز نفسه بالوضوء ليشرع فى الصلاة والدعاء .

لا وضوء . . . ولا صلاة . . .

عليه أن يرد الماء عن مجراه ، وينصرف عن المستحم ، مسارعاً إلى فراشه ينشد فيه الأمن والسلام .

واندفعت يده إلى صنبور الماء تريد حبسه ، وما هى إلا أن أحس بالماء يغمر فمه ، ووجهه وقدميه ، فما نشب أن رام المستحم إلى حجرته ووقف يتحرى القبلة ويستقبل وجه الله .

وخطرت له فى صلاته توسلات الطفلة أن يدعو لها ، فإذا هو ينخرط فى دعاء وتضرع وابتهال ، سائلاً لنفسه هو دون سواه العفو والغفران .

الخاتمة

كان جالساً خلف مكتبه ، فى الحجرة التى اختارها لنفسه من ذلك المنزل الرشيق ، الذى استأجره على أرباض المدينة ، حيث تنكمش الحركة ، ويسودها السكون ، فجعل منه مثابة الإلهام ، ومنزل الوحى .

لم يألفه صباح اليوم ، متفتح النفس ، على مألوف عادته ، بل هو جامد الملامح ، مربد الوجه ، يستغرق فى تفكير ، وقد انكب على أوراقه ، يشغل بها نفسه فى تدقيق وتمحيص، ملتمساً لقصته الروعة والسمو .

ما لها تتعاصى على قلمه وتتأبى على فهمه ، منذ حين ؟

أيرجع إجداب فكره ، وجفاف قريحته ، لما أفرط فيه من سهر فى مغنى « الفن الرفيع » بصحبة « أمينة مكتبه » الحسناء ؟

إن عقله اليوم مشتت عليل ، لا يجود له إلا بتافه من الخواطر ، وفج من الأفكار .

عليه أن يدبر نهاية لقصته ، ولا بد أن تكون مثيرة عامرة

بالحيوية والانتفاض ، وها هو ذا قد وقف قلمه حائراً ، يضن بما يطمع فيه من حبكة موفقة ، وختام مثير .

ودلفت يده إلى لفافة تبغ ، أشعلها ثم اشتبك مع أوراقه فى عناد ، يعتصر ذهنه ، ويجمع شوارد خاطره ، وكأنه يسوق قلمه الشرود سوقاً إلى ما يرغب فيه ويريد .

وتمثل فى مخيلته طيف « أمينة مكتبه » الحسناء وملك فكره أمرها .

أتراها تستهويه لأنها تأنس به ، وتحدب عليه بما تحمل بين جوانبها من قلب كبير ؟

أم لأنها تدنى منه منال الوحى ، وتعينه فى ساعة الإلهام ؟

أفوق مستطاعه أن يزاول عمله بمفرده ، فى صحراء خواطره ، ومتاهة أفكاره ؟

وحانت منه التفاتة إلى ساعة احتلت من مكتبه ركناً قبعت فيه ، وكأنها الراصد اليقظ ، يحصى عليه وقت العمل ومدة الإجهاد .

فحدجها عاقد الجبين يتعرف !

وهز كتفيه ، يبرطم ، حين لاحظ أن النهار أوشك أن ينتصف .

وانكب على أوراقه ، يعاود المطالعة والتفكير ، بيد أنه لم يخط فى عالم الرأى خطوة يتصيد بها ما ند من خواطره ، وشرد من أحاسيسه

سحقاً لذلك اليوم المنحوس .

لا بد أن تكون « أمينة مكتبه » قد حضرت ، وأنها — لا شك — فى انتظار غمزة الجرس ، لتقبل عليه كشأنها معه .

أيدعوها الآن ، ولم يخط قلمه منذ الصبيحة الباكرة جملة صافية ، أو فكرة عالية ؟

وتطاول له رأس الجرس ، من بين كومات الأضابير ، يختنق بها مكتبه ، يدعوه إلى غمزه ، فتطلع إليه ، و يده تقبل عليه وترتد ، وقد اغتصر جبهته ، فاستبانت عليها ثنايا التجاعيد ، تكشف عن تحير وإحجام .

وجذب من لفافته أنفاساً طوياة ، ثم هز منكبيه ، ينصرف بأنظاره عن رأس الجرس .

لا . . . لن يدعوها . . . ليعالجن مشكلته بنفسه ، دون معونة أو إرشاد .

لن يناديها حتى تختمر فى رأسه الفكرة و يسلس له عنان التعبير ، لكى لا يكون لها من مهمة ، إلا أن تتسمع من فمه

ما يتدفق به من قول ، فتدونه على الورق كالآلة الصماء .

واستأنف يحمل عينيه على القراءة ويلقى بفكره فى أودية الأخيلة والتصورات مستبطناً سر الموقف القصصى الذى التوى عليه .

أما « أمينة المكتب » الحسناء ، فقد كانت فى حجرتها المجاورة ، خالية إلى نفسها ، مستغرقة فى تفكير ، فمنذ وفدت على المنزل مع الصباح الباكر ، وهى تتحين لقاءه ، لعلها تظفر بخبيئة نفسه ، وما ينحنى عليه صدره من أنباء حالية ، وأخبار تتلألأ بوميض آمال عراض .

لقد أنبأها — وهما مجتمعان فى مسهرهما المفضل ، ليلة أمس — أنه ملىء الوفاض بما تسعد به وتسر ، فلما حثته على الإبانة والإفصاح ، أمهلها إلى غد ، وهو يلاطف يدها ، ويعابثها ، فى تبسط وظرف .

فلما خلت بنفسها ، فى مرقدها ، نبا بها المضجع ، وقضت ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ، تتقاطر عليها مشاهد من حياتها ، منذ نجم بينهما تعارف وتزامل ووصال .

أما كيف تم بينهما التلاقى ، فقد اتصلت عراه عقب إعلان فى الصحف قرأته ، فتقدمت تعرض خدماتها عليه .

لقد راعها منه وجه حسن ، وقامة معتدلة ، ودماثة خلق ، حتى إن قلبها لم يتمالك أن يخفق خفقاناً مضطرباً سرى فى أوصالها ، فكأن كلا منها قلب على حدة يخفق ويرف .

كم كان حفياً بها حتى إنه تمادى فى إكرام وفادتها ، فأفرد لها مكاناً بجانبه ، وقدم إليها لفافة تبغ ، فاعتذرت عنها فى أدب ، فطلب لها قدحاً من شراب الليمون ، وما عتم أن لاطفها فى الحديث ، يرفع كلفة اللقاء الجديد ، وانثنى يسائلها نتفاً من أخبارها .

وألفت نفسها منساقة ، تجيب فى غير خجل ولا تهيب ، تروى له قصة حياتها كاملة ، فوقف منها على أنها تعيش فى كنف أم مريضة ، تتطلب منها التعهد والرعاية ، وقد توفى والدها ، مخلفاً لها رصيداً ضئيلاً لا يسد نفقات العيش وأعباء الحياة ، فالتحقت — لكى تجابه مسئولياتها — بأحد معاهد الآلات الكاتبة تتدرب على أعمال الكتابة والاختزال ، وتلك هى مقبلة عليه ، لتظفر منه بما يعينها على التكسب من رزق حلال .

وشيعها إلى الباب . وقبل أن يغلقه طاف بها فى أرجاء المنزل ، فاستوقفها أمام حجرة من حجراته وهو يدفع ببابها يقول :

هنا مكتبك . . . الآلة الكاتبة فى انتظارك ، لكى تنجزى بها ما تراكم من عمل .

كادت تنفجر يومئذ ، من فرط حبورها ، عندما رامت منزله ظافرة منه بكلمة الرضا عنها ، والترحيب بعملها .

وما إن استقبلت أمها المريضة ، حتى انهالت عليها فى حماس ، تثنى عليه وتمتدحه ، فلم تلق من والدتها إلا التحذير والتخويف والنصح .

أليس الرجال كلهم من طينة واحدة ، ومنبت مشترك ! ! نشأوا غلاظ القلوب ، وتدربوا على أذية النساء ؟ !

ولكنها فى زحمة نشوتها ، لم تعر تلك الثرثرة الواهية كبير اهتمام ، وأوت إلى فراشها ، ضجيعة حلم بهيج ، أذلك هو الحب الذى يصيب من أول نظرة ؟

أمستغرب عليها ، بعد هذه الليلة البهيجة ، أن تتحين لقاءه ، فى هذا الصباح متوقعة أن يتضرج جبينها بحمرة الخجل ، ويسودها — كلما تطلع إليها — ارتباك ؟

وتأمت فى الحجرة حركة ، فانتبهت تتسمع ، عله يكون الجرس قد انبعث يدعوها إليه ، ولكنها لم تجد إلا صمتاً كأنما يتلصص عليها ، ويرصد منها خفايا الهواجس والأفكار .

وسمت إلى ساعة الحائط تتبين الوقت ، فإذا النهار وشيك الانتصاف ، وها هى ذى حبيسة حجرتها ، مشبوبة الوجدان ،

مقسمة الفكر ، تتحين صلصلة آلة صماء !

وداخلها قلق .

ماله يبطئ عليها ؟

ألم يفطن أنها أصبحت ظله الذى يأبى أن يفارقه ؟

أغائب عنه أنها صارت خلال تلك الشهور من تلاق وتلازم ، يؤنسها منه فى تلك الحجرة سيل من مشاعر فياضة رقاق ما تتمثل لها على الورق أناساً متقدة الحس حتى تألف معهم الحياة وتتوثق بينها وبينهم عرى مودة وإيناس .

أغائب عنه أنها قد صارت خلقه الذى صاغه وسواه فهى وحى من صنع خياله وفكرة من فيض إلهامه ؟

إن تلك المثابة الفنية لهى المخبار الذى أذاب فى أحماضه شخصيتها الأولى ثم أطلقها منه إنساناً جديداً يعتمل فى قلبه حب ويصطرع فى رأسه آمال .

الأجدر به أن يلقاها على الفور ، ويروى سمعها بما أخفاه عنها من أخبار مشرقة .

وفيما هى مستغرقة فى غمرة تلك الأفكار ، صلصل الجرس طويلا ، فما عتم وجهها أن اكتسى بالبهجة والإشراق ، وسارعت إلى مرآتها تلقى عليها نظرة فاحصة .

لقد حانت الساعة الحاسمة ، وآن له أن يكشف النقاب عن خبيئة نفسه .

سوف يطلق ، ساعة يلقاها ، ما فى جعبته بخوراً تفوح أطيابه ذكية ، فتنتشى بشذاه العبق ، وتأنس به .

وغيبت المرآة فى حقيبة يدها ، بعد أن أصلحت ما تهوش من شعرها وأمرّت على شفتيها القلم المحمر ، تعيد إليهما وجاهة الرونق .

وسرعان ما دفعت الباب الموصل إلى مكتبه ، فى رفق ، فأسفر عن وجهها البهى ، وقامتها المبسوطة ، ومنكبيها العريضين ، لفهما إليه مطرف من حرير ، يحليه وشى متآلف جميل ، وقد انطوى ساعداها على رزمة من ورق ، وتطاول بين إصبعين من يدها قلم .

وتجلت عند الباب مشرقة الملامح ، متوهجة الجبين ، بذلك اللقاء المرتجى .

وتشبثت بالمقبض تنظر إليه ، ملتمعة عيناها ، منبسطة أساريرها ، وقد تراحبت على شفتيها ابتسامة متألقة ، كأنها زهرة تختلج نشوى على عودها الرطب ، مشرقة الأكمام ، يطالعها وجه الربيع الندى .

لكنه لم يرفع رأسه ، ولم يلتفت إليها . إنما ظل على حاله ،

يقلب الصفحات أمامه ، ويرقبها ، كأن لم يدخل عليه أحد ، مغضن الجبين ، تتوضح على محياه علامات التزمت والضيق . .

فلم تجد الفتاة بداً من أن تغلق الباب فى عنف ، علّ ذلك المتحجر على مكتبه يفيء إلى نفسه ، ويتنبه إليها ، واسترسلت تحدجه فى غضب ، غير أنه تمادى فى انهماكه ، منصرفاً عما عداه ، مما زادها من تغيظ وحنق .

وكادت كلمات الاستياء تفلت منها تسائله فى تحد ، عن دواعى ذلك اللقاء الجاف ، لكنها ملكت نفسها ، وآثرت الصمت .

وما لبثت أن تخلت عن الباب ، تدلف فى الحجرة فى خطا رعناء ، حملتها إلى المقعد عن كثب منه ، فتهالكت عليه غير معنية بما تهوش منها ، تلتهمها نار الحيرة ، وتمضها لوعة الوساوس والظنون ، وكأن خبر الأمس المضيء ، ذبالة شمعة حاسرة النور ، مطموسة الوهج ، فى شعاع الشمس المصبحة .

لم ينظر إليها ، ثم صاح محنقاً يقول :

لم أعد أحبك . . . أما فهمت بعد . . . ؟ !

واضطربت الفتاة ، وتسارعت دقات قلبها ، ثم تضرج وجهها بحمرة قانية ، وسادها ارتباك وسهوم .

وطأطأت رأسها ، تتشاغل بأثناء ثوبها ، تخفى ذهولها من هول المفاجأة .

أما هو ، فصدر عن المكتب عاقداً يديه خلف ظهره ، واستقبل النافذة ، ينظر منها وينفث دخان لفافته جزافاً ، فيتلوى على زجاجها ويغشاه . . .

ويظل على هذا النحو مستغرقاً فى تأمل وصمت .

غريب منه ذلك الصنيع .

إنها لم تألفه فظًّا غليظ القلب على هذا النحو ، حتى إن الابتسامة الوضيئة التى كان يلقاها بها لم يرف لها وميض ، ونظرته المعبرة لم تتوضح ، وكلمة الترحيب الطيبة ليس لها فى الحجرة صدى ورنين .

أهذا هو النبأ المشرق الذى أزمع أن يفك عنه طلاسم الأسرار ويبثها إياه ؟ !

ليته كتمه عنها ولم يلوح لها به .

إنه انقلب أفعى تسعى بين يديها ، لا يحسن إلا اللدغ بما اختزنه من قواتل السموم !

ما ينبغى لها بعد الآن أن يعتمل فى قلبها حب وتبرق فى رأسها آمال .

وأفاقت الفتاة على صوته الراعد يقول :

لا تنكرى سنة الحياة . . . النار تخبو . . . والثوب يبلى . . . والحب لم يسلم من يد العفاء . . . قلبي لم يعد يتسع لك . . . إنى أكرهك . . . لم أعد أحبك وأهواك . . . وجب عليك أن تقبلى الأشياء على علاتها بصدر رحب ، ونفس راضية .

وما كادت الكلمات تتوضح لسمعها ، وتتبلور فى عقلها ، حتى ضاقت بها الحجرة ، وكأن جدرانها سواعد غليظة العضلات أطبقت على عنقها تعتصره اعتصاراً ، وأن ما يحيط بها من فضاء هو جب سحيق المهوى ، حاسر الضوء ، مختنق الهواء .

فامتقع وجهها ، وتسارعت أنفاسها ، وحدقت فى الأوراق، على ركبتيها،فتمثلت لها غوارب موج ، تمور أعماقها بسوالف الأحداث ، ومواضى الذكريات .

لم يسعها إلا أن تتذكر تلك الليلة التى قضياها على أرباض المدينة الساجية ، فى نزهة خلوية ، على ضوء القمر .

ألم يفتح لها قلبه ، وينفض بين يديها جعبته كطفل التقى بالصدر الحنون ، فاسترسل ينفث فيه رغباته وأمانيه ؟ !

لقد اندفع يشق غلائل الضباب ، الذى يكتنف المستقبل المبهم ، صاروخاً منطلقاً إلى أعلى يرتاد مجاهل السماء ومطوى الغيوب .

كان وهماً جميلا ذلك الذى صوره ورعاه . .

إنه هيأ لها فيه مكاناً شغلته . . . بل كانت هى الشمس التى تحف بها أفلاك وأقمار .

سوف تصبح رفيقة أسفاره ، وحايفة أفكاره ، ترصد له ، وتدون ما يحتاج فى نفسه من تجارب واستجابات للحياة والأحياء .

سوف يطيران إلى بلاد الفن الخالدة ، يستقبلان ربوع أسبانيا المشرقة ، وإيطاليا الضاحكة ، وسويسرا المهندمة ، وألمانيا المجدة ، وفرنسا اللاهية اللعوب .

سوف يتخطى بها ومعها أدبه حيزه الضيق لينطلق إنسانياً متطوراً ، يكتب له فى سماء الفن العالمى السمو والخلود .

لماذا حدثها ذلك الحديث المستفيض وهو قريب عهد بها ؟!

لماذا كان يملأ قلبها بالأمانى الرطاب ، والأخيلة العذابّ ؟ !

أعزب عنه أن قلبها بالحياة حفى كالأرض البكر ، سرعان ما تنضر وتخضر ، إذا أتيح لها زرع وَرِىّ ؟

وسمعته يتنهد تنهدة جياشة ، فاشرأبت بجسدها كله إليه ، وإذا به ما زال إلى النافذة رانياً ، يوليها منكبيه عاكفاً على صمته ، غارقاً فى تأملاته .

فما لبثت أن تهاوت بقوامها على المقعد متخاذلة ، وألقت

برأسها على مسنده، وقد أمسكت بالقلم تقرض أطرافه فى تغيظ.

كم ودت أن تكاشفه ساعة أسدل على منكبيها ذلك المطرف الموشى ، بما يعتمل فى نفسها من مشاعر جياشة ، لكنها سكتت ، لا تملك إلا أن ترنو إليه ، وترنو مشبوبة العاطفة ، مضطربة الوجدان .

أما هو فلم يتفوه بكلمة ، غير أنه ضغط يدها ، وضغط حتى آلمها ، ولكنه ألم أشعرها بالحب وغمرها بالسعد .

كم كانت تواقة أن تهمس له من أعماق قلبها : ألم تدرك بعد أن بجانبك مخلوقاً يفهمك ويقدرك ويذوب عطفاً لك ومودة ؟

ما أروعه من يوم ، عندما خاط بين اسمها واسم النجم اللامع فى روايته، فأخذ يسكب فى سمعها كلمات الهوى والغرام، لا يحده فى انطلاقه حاجز ، ولا يوقف تياره مانع . كتلك الأقمار الصاعدة من الأرض لا تملك إلا أن تدور مشدودة إليها بما للجاذبية من سلطان .

ليته لم يعتذر لها عندما تبين الخطأ .

ليته تركها واهمة تحسب الخطأ حقيقة صادقة .

لماذا لم يستقبلها بوجهه ساعة ضمتها الحجرة إليه ؟

لماذا بقى نافراً يوليها ظهره ؟
أجبن أن يواجهها خوفاً من أن يلين قلبه ويرق ؟
أعلى هذا النحو يختتم حلمها القصير معه ؟
إنها لا تحتمل . . . أعصابها مرهقة إلى حد التخاذل والإعياء .

يا لها من غمائم قاتمة تلك التى تغشى سماءها الصافية !

ويخرج هو عن صمته ويقول راعش الصوت :

علينا أن ننفصل فى هدوء . . . ليكن فصالنا بمنأى عن زوابع النشيج والبكاء ، وشوائب التبكيت والعتاب . . . الحياة معك فقدت رونقها الجميل وطعمها الحلو . . . عليك بالرحيل . . . مبلغ من المال يعوضك ما لحق بك من ضرر . . . لم أعد أحبك . . . وإنى على يقين من فطنتك وذكائك . . . لا تجعلى المهمة عسيرة علىّ . . .

واهتزت الفتاة كأنما استهدفتها لكمة عنيفة ، وغلى الدم فى رأسها ، ثم ما لبثت أن انفجرت واقفة تصيح :

كفى . . . كفى . . . لقد جاوزت الحد . . . إنك جامد كالصخر ، متغير كالهواء ، متقلب كالبحر . . . إنك قاس وخشن لا تعيش إلا من نفسك ولنفسك . منذ الآن لن أقف فى

سبيلك . . . سأختفى من حياتك . . . سأكون خيالاً فى ضباب فنك ، وفكرة فى سماء إلهامك إن بقى لك إلهام وفن . . . الوداع . . . الوداع إلى الأبد . . . إنى أمقتك . . . أمقتك . . . أكرهك من أعماق قلبى .

وهرولت الفتاة خارجة يستبد بها نشيج ، وتخنقها عبرات ، وقد قذفت المكتب بالقلم ، ودفعت بالورق فتناثر على أديم الحجرة كأنه فتات قلبها الكسير .

واندفع هو يقول فى حماس :

رائع ذلك . . . موقف مثير . . . دونيه . . . لا تسقطى منه حرفاً . . . رائع . . . مرحى . . . مرحى . . . خاتمة فيها ولا ريب الروعة والسمو .

واستدار على عقبيه متهلل الأسارير ، فما كان أكبر دهشته عندما التقى بمقعدها خالياً بنفسه ، وقد انسدل عليه مطرفها ، وكأنه يحدجه فى أسف وذهول .

وران على « رب الحجرة » سهوم ، ثم اندفع نحو الباب ، وانطلق فى مختلف الأرجاء مردداً اسمها فى صوت جهورى ملهوف !

فهرس

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩

الكتاب القادم

اقرأ

صور باريسية

يوسف فرنسيس